

الكشاف

عن
حقائق غوامض النزيل وعيون الأقاويل
في وجوه النأويل

لِلْعَلَّامَةِ جَارِ اللَّهِ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ
(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه
الأستاذ الدكتور فحي عبد الرحمن أحمد حمادي
أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الأول

مكتبة العبيكان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع الغريرة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٤٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

الكشاف



ترجمة جاز الله الزمخشري

توطئة:

إن مما لا شك فيه أن معرفة العلماء - خاصة المصنفين منهم - تساعد على فهم تلك العقلية التي أبدعت وأخرجت هذا النتاج التراثي؛ فقد نقل عن الخطيب البغدادي قوله: «إِنْ مَنْ صَنَّفَ فَقَدْ عَرَّضَ عَقْلَهُ عَلَى طَبَقِي».

ومعرفة المصنف تشعب حتى تشمل مولده ونشأته، والمراحل المختلفة في جوانب حياته من طلبه العلم وسماعه ورحلته، إلى بلوغه مرتبة الشيوخ، وَصْنَعُ العلماء، إلى مرحلة تصنيفه وتخليد أسمه بتراث يعيش بقدر صلاح نيته؛ قال الشاعر: [مَنْ الرَّمْلُ] إِنْمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ رَوَى

وإن مما يساعد على فهم الشخصية المترجم لها - معرفة أحوال العصر الذي عاش فيه وعاشه؛ فإن الإنسان يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه؛ فالإنسان مدني بطبعه. ولذا كان من اللازم اللازم أن أقدم بين يدي الترجمة بالحديث عن عصر الزمخشري:

إضاءة على عصر الزمخشري

عاش جاز الله في الثلث الأخير من القرن الخامس والثلث الأول من القرن السادس الهجريين، وهذا يجعلنا نتحدث عن عدة نواح:

أولاً: الحالة السياسية لعصر الزمخشري

كانت تلك الفترة من التاريخ فترة ضعف وفتر للخلافة العباسية، بعد رحلة طويلة من الصراعات، فلم يبق من خلافة بني العباس إلا مجرد رموز يشار بها إليها.

ومما يدل على هذا التفكك أننا وجدنا عدد الذين استخلفوا من العباسيين في زمن وحياة الزمخشري قد بلغ خمسة من الخلفاء، وهم:

١ - المقتدي بالله: عبد بن محمد بن القائم (٤٦٧ - ٤٨٧هـ).

٢ - المستظهر بالله: أحمد بن المقتدي (٤٨٧ - ٥١٢هـ).

٣ - المسترشد بالله: الفضل بن المستظهر (٥١٢ - ٥٢٩هـ).

٤ - الراشد بالله: المنصور بن المسترشد (٥٢٩ - ٥٢٩هـ).

٥ - المقتفي بالله: محمد بن المستظهر (٥٢٩ - ٥٥٥هـ).

ونتيجة لهذا التفكك والانحلال ظهرت دويلات إسلامية حاولت خلع ربة التقيد بالخلافة العباسية؛ ففي «خوارزم» سقط رأس جبار الله وجدنا دولة عرفت بـ«الخوارزمية»، حيث امتد حكمها من «خراسان» إلى ما وراء النهر. وقد عمرت تلك الدولة ما يقرب من مائة وستين عاماً، من سنة ٤٧٠ - إلى سنة ٦٢٨هـ^(١).

وقد عاصر صاحبنا «الزمخشري» أسرة أنوشتكين التي حكمت «خوارزم»، حيث تعاقب عليها في أثناء حياة الزمخشري ثلاثة من خلفائها، وهم:

١ - أنوشتكين (٤٧٠ - ٤٩٠هـ).

٢ - قطب الدين محمد بن أنوشتكين (٤٩٠ - ٥٢١هـ).

٣ - أئمز بن محمد (٥٢١ - ٥٥١هـ).

وقد كان بين الزمخشري والأمير محمد بن أنوشتكين علاقة وثيقة، حيث مدحه الزمخشري بقصيدة أولها: [من البسيط]

أَيُّ الْمُلُوكِ تَلَاَقَتْ فِي مَجَالِسِهِ غَرَائِبُ الْعِلْمِ وَالْآذَابِ وَالْحُكْمِ^(٢)

وأما «بغداد» فلم تكن أحسن حالاً، فقد تزعزت عاصمة الخلافة، حتى تعاقب على مقاليد الأمور فيها أكثر من شردمة، فبعد آل بويه، كان السلاجقة «العظماء»!!

ومؤسس هذه الدولة هو ركن الدين طغرل (٤٢٩ - ٥٢٢هـ)^(٣)، وقد عاصر صاحبنا من سلاطين هذه الدولة جمعاً، كان منهم غياث الدين، أبو شجاع محمد بن أبي الفتح ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١هـ) الذي اتصل به الزمخشري ومدحه.

وكان من الدويلات التي حكمت البلدان في ظل الخلافة المتدهورة:

١ - الدولة الفاطمية، وكانت على أرض مصر والشام (٢٩٧ - ٥٦٧هـ).

٢ - دولة المرابطين، وكانت على أرض المغرب والأندلس (٤٤٨ - ٥٤١هـ).

(١) ينظر: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم، ط. أولى - النهضة المصرية - ١٩٦٧م، ٩٤/٤.

(٢) الزمخشري لغوياً ومفسراً، مرتضى آية الله زادة، القاهرة، دار الثقافة ١٩٧٧م، ص ٢٤، ٢٥.

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ١٧١/٥، ورؤوس المسائل ص ١٤.

وفي ظل هذه الأحوال السياسية المتردية، قام الصليبيون بغارات شعواء على ديار الإسلام؛ محاولين النيل من أسسه وتقويض دعائمه، فكانت أولى حملاتهم على الشام سنة ٤٩١هـ، حيث سقطت مدينة «القدس» في أيديهم سنة ٤٩٢هـ.

ثانياً: الحالة الاجتماعية والاقتصادية

إن غالب المجتمعات البشرية تكون مبنية على فئات وعناصر شتى؛ فثمة الفقير، وثمة الغني، وهناك الأمير، وهناك الوزير، ويوجد الراعي وتوجد الرعية، فئات متباينة، يجمعها انتسابها إلى جنس البشر. وقد كان المجتمع في عصر الزمخشري هكذا، وكان هناك أقلية من أهل الكتاب حيث عاشت ونالت أمنها وحقوقها.

وظهرت بسبب دخول الشعوب في الإسلام عادات وتقاليد مختلفة، أغلبها من الجاهلية، كأعياد النيروز، والميلاد، وغير ذلك.

وكثر في ذلك المجتمع الفرق والملل والأهواء والنحل، فكثر تبعاً لذلك المسائل الكلامية والمناظرات مما أدى إلى الفتن والاضطرابات. فظهرت فرقة الباطنية، والتي كان لها دولة في مصر، وكانت لها أهداف خبيثة.

وهناك حدثت فتنة اشتعل أوارها بين الأشاعرة والحنابلة، وذلك سنة ٤٤٧هـ، حيث وقعت بينهما فتنة عظيمة، حتى تأخر الأشاعرة عن الجمعات خوفاً من الحنابلة^(١).

ومع هذه الفتن، وجدنا الدعاة المصلحين يحاولون فض تلك النزاعات، والدعوة إلى التمسك بالدين وترك الأهواء، ومكافحة الشكوك والأوهام التي يثيرها سفاضة الملل والنحل.

ولقد كانت «خوارزم» بلد الزمخشري بمنأى عن تلك الفتن؛ يقول ياقوت الحموي: «... وما أظن كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في... ملازمة أسباب الشرائع والدين»^(٢).

إلا أن «خوارزم» تعرضت لهجوم بعض قبائل الترك، ولكن الله تكفل بنصرهم في عامة الأوقات، ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات.

ولقد كانت الحالة الاقتصادية مضطربة، فعم الجوع، وانتشر الفقر والبؤس، حتى شكا

(١) ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨/١٦٣، ١٠/٢٨٦.

(٢) ينظر: معجم البلدان ٢/٤٨٦.

صاحبنا نَفْسُهُ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى قَالَ جَائِراً بِشِكْوَاهُ: [من الطويل]

فَيَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ مُسْتَفْنِيّاً وَلَمْ
وَيَا لَيْتَنِي مُرَضٍ صَدِيقِي وَمُسَخِطٌ
وَأَكُنْ فِي خَوَارِزْمٍ زَيْسَ الْأَفَاضِلِ
عَدُوِّي وَأَنْتِي فِي فَهَامَةِ بَاقِلِ
وَمَا حَقٌّ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُضِيّاً
وَقَدْ عَظَمْتَ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي^(١)

ثالثاً: الحالة العلمية لعصر جاز الله

إن حياة الترف والدعة قليلاً ما ينبغ فيها أحد، بينما حياة البؤس والفقر تشحذ العقول، وتمد الخيالات، وتدفع الهمم لارتقاء سلم المجد وعتبات الرفعة.

وهذا ما كان شائعاً في ذلك العصر؛ فمع تلك الحال العصيبة ازدهرت حال العلم، وظهر علماء أفاضل دانت الدنيا لهم، وكان خَلْفُهُمْ عيالاً عليهم، وانتشرت المدارس، والخانقاهات، والكتب والمكتبات، وبلغ التصنيف مبلغاً هائلاً. وقد كان أهل «خوارزم» مشهورين بولعهم بعلوم الشرع واللغة، فبلغوا فيهما شأواً ومنزلة رفيعة.

ولقد تمخض عصر الزمخشري عن أئمة كبار، كان لهم أثر كبير في إثراء الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، فمنهم:

في التفسير:

- ابن عطية الأندلسي: عبد الحق بن غالب، ت ٥٤٢هـ.

في القراءات وعلوم القرآن:

- ابن العريف: أحمد بن محمد، ت ٥٣٦هـ.

- الخشاب: عبد الله بن أحمد، ت ٥٦٧هـ.

- الشاطبي: القاسم بن فيره، ت ٥٩٠هـ.

في الحديث:

- ابن مَنْدَه: يحيى بن عبد الوهاب، ت ٥١١هـ.

- البخوي الفراء: الحسين بن مسعود، ت ٥١٦هـ.

- السُّلَفي: أحمد بن محمد، ت ٥٧٦هـ.

(١) ينظر: الزمخشري لغوياً ومفسراً ص ٣٧، نقلاً عن رؤوس المسائل ص ١٩.

في الملل والنحل، والفلسفة وعلم الكلام:

- الغزالي: محمد بن محمد، ت ٥٠٥هـ.
- ابن ماجه: محمد بن يحيى، ت ٥٣٣هـ.
- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم، ت ٥٤٨هـ.
- ابن الطفيل: محمد بن عبد الملك، ت ٥٨١هـ.
- ابن رشد الحفيد: محمد بن أحمد، ت ٥٩٥هـ.

في الفقه وأصوله:

- الحنفية:

- شمس الأئمة السرخسي: محمد بن أحمد، ت ٤٨٣هـ.
- الدامغاني: أبو عبد الله محمد بن علي، ت ٤٧٨هـ.
- البزدوي: علي بن محمد، ت ٤٨٣هـ.
- السمرقندي: أبو بكر علاء الدين محمد بن أحمد، ت ٥٥٢هـ.

- المالكية:

- الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف، ت ٤٩٤هـ.
- المازري: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر، ت ٥٢٦هـ.
- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله، ت ٥٤١هـ.
- عياض: أبو الفضل عياض بن موسى، اليحصبي، ت ٥٤١هـ.

- الشافعية:

- ابن الصباغ: أبو نصر عبد السيد بن محمد، ت ٤٧٧هـ.
- المتولي: أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون، ت ٤٨٨هـ.
- إمام الحرمين: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، ت ٤٨٧هـ.
- الروياني: أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل، ت ٥٠٢هـ.

- الحنابلة:

- ابن البناء: الحسن بن أحمد بن عبد، البغدادي، ت ٤٧١هـ.
- الحلواني: محمد بن علي بن محمد، ت ٥٠٥هـ.
- أبو الخطاب: محفوظ بن أحمد، ت ٥١٠هـ.
- ابن عقيل: علي بن محمد، ت ٥١٣هـ.

- ابن الزاغوني: علي بن عبد الله بن نصر، ت ٥٢٧هـ.

- ابن هبيرة: يحيى بن أبي منصور، ت ٥٦٠هـ.

في علوم اللغة:

- الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن، ت ٤٧١هـ.

- التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي، ت ٥٠٢هـ.

- الراغب الأصفهاني: حسين بن محمد، ت ٥٠٢هـ.

- ابن السَّيد البطليوسي: عبد الله بن محمد، ت ٥٢١هـ.

- الجواليقي: موهوب بن أحمد، ت ٥٤٠هـ.

- ابن الشجري: هبة الله بن علي، ت ٥٤٢هـ.

- كمال الدين الأنباري: عبد الرحمن بن محمد، ت ٥٧٧هـ.

في الشعر والأدب:

- الحريري: القاسم بن علي، ت ٥١٦هـ.

- ابن خفاجة: إبراهيم بن أبي الفتح، ت ٥٣٣هـ.

- رشيد الدين الوطواط: محمد بن محمد بن عبد الجليل، ت ٥٧٣هـ.

في التاريخ والجغرافيا:

- السمعاني: عبد الكريم بن محمد، ت ٥٦٢هـ.

- ابن عساكر: علي بن الحسن، ت ٥٧١هـ.

- الشريف الإدريسي، ت ٥٤٨هـ.

وقد وجدنا في ذلك العصر من العلماء من كان موسوعيًا، كأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ.

وهكذا امتلأ عصر الزمخشري بأساطين العلم وأئمة الذين رفعوا لواء الدين عالياً خفاقاً.

ولقد كانت «خوارزم» لها نصيب وافر من أولئك الأعلام، وقد ذكر الثعالبي في يتيمة نبذاً من أدبهم وشعرهم^(١).

ولقد شاعت في ذلك العصر مجالس المناظرات والجدل، ووجد لها من يساعدها

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٣٧٧هـ، ١٩٤/٤ - ٢٥٤.

ويدعو إليها، حيث كان الخلفاء ووزراؤهم من المشجعين لها، مما أدى إلى ظهور التعصب المذهبي والتحيز الطائفي، حتى صور لنا الزمخشري بعضاً مما كان يرمي به كل مذهب من غيره من المذاهب؛ يقول: [من الطويل]

إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي لَمْ أَبِخْ بِهِ
فَإِنْ حَتَفِيَا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي
وَإِنْ مَالِكِيَا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي
وَإِنْ شَافِعِيَا قُلْتُ: قَالُوا بِأَنِّي
وَإِنْ حَنْبَلِيَا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي
وَإِنْ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَجِزِيهِ
تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ
وَأَخْرَجَنِي دَهْرِي وَقَدَّمَ مَغْشَرًا
وَمُذْ أَفْلَحَ الْجُهَالُ أَيْقَنْتُ أَنَّنِي
وَأَنكُمُهُ بِشَمَائِهِ لِي أَسْلَمَ
أَبِخَ الطَّلَا وَهُوَ الشَّرَابُ الْمُحَرَّمُ
أَبِخَ لَهُمْ أَكَلَ الْكِلَابِ وَهُمْ هُمُ
أَبِخَ نِكَاحِ الْبَيْتِ وَالْبَيْتُ تَحْرُمُ
تَقْبِيلُ حُلُولِي بَغِيضِ مُجَسِّمُ
يَقُولُونَ تَيْسَ لَيْسَ يَذْرِي وَيَفْهَمُ
فَمَا أَحَدٌ مِنَ أَلْسِنِ النَّاسِ يَسْلَمُ
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَأَعْلَمُ
أَنَا الْمَيْمُ وَالْأَيْمُ أَفْلَحَ أَعْلَمُ^(١)

ملحوظة:

ورد في الجزء الخامس في الصفحة ٥٤٩ من هذا الكتاب عبارة [فأدخل الملك إن شاء الله] وفي هذا انحراف لا بد من الإشارة إليه؛ فقد يتبادر للقارئ أن هذه العبارة «إن شاء الله» إنما هي من قول الملك فأضافها من عنده. ويأتي من يبرر فيقول: ربما أراد كذا أو كان يقصد كذا، فهذا من التلبيس على السالكين يفضي إلى انحرافات خطيرة في الفهم والمنهج، فكل ما جاء في كتاب الله تعالى، والذي نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ سواء أكان حكاية أو قصة أو حكماً أو حلالاً أو حراماً أو محكماً أو متشابهاً إنما هو من كلام الله تعالى ليس بمخلوق ولا مضاف.

(١) ينظر: مقدمة الكشاف للزمخشري، ومقدمة الفائق في غريب الحديث، بتحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ٩/١.

حياة الزمخشري^(١)

نسبه، لقبه، مولده:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، جار الله، «فخر خوارزم». ولقبه الأشهر هو «جار الله»، حيث غلب عليه؛ لمجاورته بـ«مكة» زماناً طويلاً.

ولد الزمخشري بـ«زمخشري»، إحدى قرى «خوارزم»، وذلك يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب، سنة ٤٦٧هـ.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الزمخشري في بيت متدين يتدثر بدثار الصلاح؛ فالوالد رجل فاضل، شفوق بأبنائه، حبسه مؤيد الملك، فتوسل إليه الزمخشري أن يفك أسرهِ، بقوله: [من الكامل]

أَكْفَى الْكُفَاةِ مُؤَيَّدَ الْمُلْكِ الَّذِي خَضَعَ الزَّمَانُ لِعِزِّهِ وَجَلَالِهِ
إِزْحَمَ أَبِي لِسْبَابِهِ وَلِفَضْلِهِ وَازْحَمَ لِلضُّعْفَاءِ مِنْ أَطْفَالِهِ
إِزْحَمَ أَسِيرًا لَوْرَاةً مِنَ الْعِدَا أَقْسَاهُمْ قَلْبًا لَرَقٍّ لِحَالِهِ^(٢)

ويقول راثياً له بعد موته: [من البسيط]

فَقَدَّزْتُه فَاضِلًّا قَاضَتْ مَآبِرُهُ أَلْعَلِمَ وَالْأَدَبَ الْمَأْتُورُ وَالْوَرَعُ
صَامَ الثَّهَارَ وَقَامَ اللَّيْلَ وَهُوَ شَجٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ كَابِي اللَّوْنِ مُنْتَقِعُ^(٣)

ولقد كاثت أمُّ صاحبنا عطوفة، رقيقة القلب، مجابة الدعاء، يحكي الزمخشري في ذلك فيقول: «كنت في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، فأفلت من يدي فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبتُه فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت والدتي، وقالت:

(١) ينظر ترجمته في: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ١٦١/٢، ووفيات الأعيان ١٦٨/٥، الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٢٠٩، الأنساب ٢٩٧/٦، إنباء الرواة ٢٦٥/٣، تاج التراجم ص ٧١، بغية الوعاة ٢٧٩/٢، الأعلام ١٧٨/٧، معجم المؤلفين ١٨٦/١٢.

(٢) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، للصاوي، ص ٢٥.

(٣) ينظر: السابق ص ٢٦، ورؤوس المسائل ص ٣١.

قطع الله رجلك كما قطعت رجله»^(١). وقطعت رجل الزمخشري عندما سقط عن دابته.

نشأ الزمخشري في أسرة فقيرة، فوجدنا أباه يدفع به إلى خياط ليعلمه الخياطة، ولكن الزمخشري له رغبة في طلب العلم، فيستعطف أباه، قائلاً له: «احملني إلى البلد واتركني بها»^(٢).

ورحل صاحبنا إلى «بخارى» في طلب العلم^(٣)، حيث كانت «بخارى» آنذاك كعبة العلماء، فأخذ من علمائها وتلمذ لجهابذتها.

كما أن الزمخشري زار مدينة «مرو» ولقي بها الإمام السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ، وتنقل بين «خوارزم» و«خراسان» محصلاً للعلم، فحصل أصول الفقه، والحديث، والتفسير، والكلام، وعلوم العربية.

دخل الزمخشري «مكة» - حرسها الله - فجاور بها، وكانت أولى رحلاته إليها سنة ٥٠٢هـ، واتصل بشريفها علي بن حمزة بن وهاس وكان أديباً، فقويت علاقتهما.

ولكن الزمخشري يخرج من مكة راحلاً إلى وطنه الأول، ولكن ما لبث أن عاودته الحنين إليها، حتى صور ذلك في قوله: [من الطويل]

بُكَاءٌ عَلَى أَيَّامٍ مَكَّةَ إِنَّ بِي إِلَيْهَا حَنِينَ الثَّيْبِ فَاقِدَةَ الْبَكْرِ
تَذَكُّرْتُ أَيَّامِي بِهَا فَكَأَنِّي قَدْ اخْتَلَفْتُ زُرُقَ الْأَسِنَّةِ فِي صَدْرِي^(٤)

وأخيراً عاد صاحبنا المعتزلي إلى «مكة» نحو عام ٥١٨هـ، وفي عودته مر به «الشام» ومدح صاحب «دمشق» تاج الدين ت ٥٢٦هـ.

ويبدو أن جار الله كان مولعاً ببيت الله الحرام؛ فإن أشهر مصنفاته وأعظمها قد صنفها بين زمزم والمقام؛ كتفسيره «الكشاف»، وأطواق الذهب، ونوايغ الكلم، وربيع الأبرار، وأساس البلاغة، وغيرها^(٥).

ولكن ما لبث الزمخشري بعد هجوم الشيخوخة عليه أن فكر في الأفول إلى وطنه الأول، فعاد معرجاً في طريقه على «بغداد»، وبها زاره أبو السعادات هبة الله بن الشجري

(١) ينظر: وفيات الأعيان ١٦٩/٥.

(٢) ينظر: مفتاح السعادة ١٠٠/٢.

(٣) ينظر: وفيات الأعيان ١٧٠/٥.

(٤) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٣٧.

(٥) ينظر: مفتاح السعادة ١٠٠/٢.

ت ٥٤٢هـ، حيث هنا بقدمه، وأثنى عليه^(١).

وفي «خوارزم» استقر الزمخشري الشيخ الكهل، حيث صار «فخر خوارزم» ومرجعها الأشهر.

شيوخه:

قديمًا قالوا: «مَنْ دَخَلَ فِي الْعِلْمِ وَخَذَهُ خَرَجَ وَخَذَهُ»، ويعنون بها أن من لم يكن له شَيْخٌ لَا يُفْلِحُ. ولقد كان عصر الزمخشري عصر أشياخ علم وأساطين فنون، فأبناؤه يتلمذ لكثير منهم، نذكر هنا أبرزهم:

- أبو مضر، محمود بن جرير الضبي، الأصفهاني ت ٥٠٧هـ، وهو مدخل مذهب الاعتزال إلى «خوارزم»، وأخذ عليه النحو والأدب، ورثاه الزمخشري قائلًا: [من الطويل] وَقَائِلَةٌ مَا هَذِهِ الدُّرُؤُ الْتِي تَسَاقَطُهَا عَيْنَاكَ بِنَمَطَيْنِ بِنَمَطَيْنِ فَقُلْتُ: هُوَ الدُّرُؤُ الَّذِي قَدْ حَسَا بِهِ أَبُو مُضَرٍّ أُذُنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي^(٢)

- أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري، الضريع.

- السديد الخياطي. وأخذ عنه الفقه.

- أبو السعد الجشمي: المحسن بن محمد بن كرامة، البيهقي، ت ٤٩٤هـ.

- ركن الدين محمد الأصولي، وأخذ عنه الأصول.

- أبو منصور نصر الحارث، أخذ عنه الحديث.

- أبو الخطاب، نصر بن أحمد بن عبد الله البطر، ت ٤٩٤هـ.

- أبو الحسين، أحمد بن علي الدامغاني، ت ٥٤٠هـ.

- أبو منصور الجواليقي، موهوب بن أبي طاهر، ت ٥٣٩هـ.

وغير هؤلاء كثير تخرج بهم الإمام الزمخشري.

تلاميذه:

تلمذ لجار الله الزمخشري طائفة كبيرة من طلاب العلم، حتى تخرجوا به فصاروا أئمة في اللغة وآدابها وعلوم الشرع المطهر.

وكان منهم من برز في علوم كثيرة، نذكر أشهرهم.

(١) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٩٢، وبنية الوعاة ٢/ ٢٨٠.

(٢) ينظر: معجم الأدباء ١٩/ ١٢٤، ورؤوس المسائل ص ٣٨.

- علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس العلوي.
 - علي بن محمد العمراني، الخوارزمي، أبو الحسن الأديب، الملقب بـ «حجة الأفاضل وفخر المشايخ» ت ٥٦٠هـ.
 - أبو الفضل البقالي الخوارزمي الآدمي، محمد بن أبي القاسم بايجول، الملقب بـ «زين المشايخ». وقد جلس مكان الزمخشري بعده^(١).
 - أبو يوسف يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر البلخي، كان أحد أئمة النحو والأدب.
 - وقد أجاز الزمخشري لكثير من طلبة العلم في عصره، والذين صاروا أئمة أعلام، منهم أبو طاهر الخشوعي، والأديب الوطواط.
- مصنفاته:

- ترك الزمخشري تراثاً هائلاً من التصانيف، في مختلف فنون العلم، نذكرها ههنا مرتبة على حروف المعجم^(٢)
- أساس البلاغة (معجم يهتم بالمجاز والاستعارة).
- أطواق الذهب، أو النصائح الصغار (في الوعظ والرقائق).
- أعجب العجائب في شرح لامية العرب.
- الأمالي في كل فن.
- الأمكنة والجبال والمياه والبقاع المشهورة في أشعار العرب.
- الأنموذج (مختصر من المفصل في النحو).
- تسليية الضرير.
- تعليم المبتدي وإرشاد المهتدي (جمل في العربية وترجمتها بالفارسية للناشئين).
- جواهر اللغة.
- خصائص العشرة الكرام البررة.
- ديوان التمثيل.
- ديوان الرسائل.
- ديوان الزمخشري.

(١) ينظر: معجم الأدباء ٥/١٩.

(٢) ينظر: رؤوس المسائل، تحقيق عبد الله نذير أحمد، ص ٤٢ - ٤٦.

- رؤوس المسائل (في الخلاف الفقهي بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي).
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم).
- الرسالة الناصحة.
- سوائر الأمثال.
- شافي العي من كلام الشافعي.
- شرح أبيات كتاب سيبويه.
- شرح بعض مشكلات المفصل.
- شرح مقامات الزمخشري (النصائح الكبار).
- شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة).
- صميم العربية.
- ضالة الناشد في علم الفرائض.
- الفائق (في غريب الحديث).
- القسطاس.
- القصيدة البعوضية. (وأخرى في مسائل الغزالي).
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (وهذا التفسير المشهور الذي نقوم بتحقيقه).
- الكشف في القراءات.
- متشابه أسامي الرواة.
- المحاجة في الأحاجي والأغلوطات.
- مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.
- مسألة في حكمة الشهادة.
- المستقصى في أمثال العرب.
- معجم الحدود.
- المفرد والمركب (أو المؤلف).
- المفصل في تعليم النحو.
- مقامات الزمخشري.
- مقدمة الأدب (معجم عربي فارسي).
- المنهاج (في أصول الفقه).

- نزهة المستأنس .

- النصائح الصغار والبوالغ الكبار .

- نكت الأعراب في غريب الإعراب .

- نوابغ الكلم (حكم وأقوال) .

ثناء العلماء عليه :

يقول تعالى في محكم آياته: ﴿وَأَنذَرْتُوْاَ اللّٰهَ رَبِّكُمْ اللّٰهُ﴾؛ والمعاصي عدو خطير للعلم وأهله؛ وإن العلم لا يؤتاه عاصٍ .

ولقد حبى الله الزمخشري بصفات طيبة، أبرزها شدة تواضعه وأدبه الجم، وهذا العهد بأهل اللغة؛ يقول تلميذه رشيد الدين الطوطا عنه: «... وقد جرى بيني وبينه في حياته وأوقات راحته مما يتعلق بفنون الآداب وأقسام علوم العرب، مسائل أكثر من أن يحصى عددها، أو يستقصى أمدها، رجع فيها إلى كلامي، ونزل على قضيتي وأحكامي؛ فالسعيد من إذا سمع الحق، سكنت شقائق لجأجه، وسكنت صواعق حجاجه... وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتیان هذه الخطّة، أن هذا الإمام كان صبوراً على مرارة الحق، وحرارة الصدق، مع أنه رب هذه البضائع، وصاحب هذه الوقائع، فهو مع الحق ولو على نفسه»^(١).

بل كان الزمخشري كثيراً ما يصرح بما يدل على هضمه نفسه، يتضح ذلك من جوابه للحافظ السلفي حينما استجازه، يقول: «... ولا يغرنكم قول فلان في...؛ فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه، وجهل بالباطن المشوه، ولعل الذين غرهم مني ما رأوا من حسن النصيح للمسلمين، وتبليغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبرار والصنائع عليهم، وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيات، والإقبال على خويصتي، والإعراض عما يعنيني؛ فجللت في عيونهم، وغلطوا في، ونسبوا إليّ ما لست منه في قبيل ولا دبير، وما أنا فيما أقول بها ضيم لنفسي...»^(٢).

كان الزمخشري ديناً ورعاً، صالحاً، متدثراً بدثار العلم والفضل؛ نقل القفطي عن الإمام أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي قوله: «كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم»^(٣).

(١) ينظر: رؤوس المسائل ص ٥٢.

(٢) ينظر: وفيات الأعيان ١٧١/٥، ومعجم الأدباء ١٩/١٣٢.

(٣) ينظر: إنباء الرواة ٣/٢٧٠.

قال القفطي: «... وكان ممن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وصف التّصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، ودخل «خراسان»، وورد «العراق»، وما دخل بلداً إلا اجتمعوا عليه وتلمذوا له واستفادوا منه، وكان علامة الأدب ونسابة العرب، أقام بـ«خوارزم» تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رجال الرجال، وتُخذَلُ باسمه مطايا الآمال»^(١).

ومدحه هبة الله بن الشجري لما التقى به في «بغداد» قائلاً: [من البسيط]
كَأَنَّتْ مُسَاءَلَةً الرُّكْبَانَ تُخْبِرُنِي عَنْ أَحْمَدَ بْنِ دُوَادٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ
حَتَّى التَّقِيْنَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَذُنِي بِأَحْسَنَ مِنَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي^(٢)

ومدحه الشريف بن وهاس، قائلاً: [من الطويل]
جَمِيعُ قُرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي تَبَوَّأَهَا دَاراً فِدَاءً زَمَخْشَرَا
وَأَخْبِرْ بِأَنْ تُزَمِّي زَمَخْشَرَ بِأَمْرِي إِذَا عُدَّ فِي أَسَدِ الشَّرَى زَمَخَ الشَّرَى^(٣)
وقال السيوطي: «كان واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفتناً في كل علم...»^(٤).

وبالجملة فإن الزمخشري لم يعمط عليه غير مذهبه في الاعتزال؛ قال ابن حجر عنه: «إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال»^(٥).

وفاته:

عاد الزمخشري من «مكة» - حرسها الله - وكأنه أحس بدنو أجله، فأقام بـ«خوارزم» إلى أن توفاه الله تعالى، وذلك ليلة عرفة من سنة ٥٣٨ هـ بـ«جرجانية».

وقيل: إن الزمخشري أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات: [من الكامل]
يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَكْبَلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نَيَاطِهَا فِي تَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ الثُّحُلِ
إِغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ^(٦)

(١) ينظر: إنباء الرواة ٣/٢٦٥.

(٢) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٩١.

(٣) ينظر: إنباء الرواة ٣/٢٦٨.

(٤) ينظر: بغية الوعاة ٢/٢٧٩.

(٥) ينظر: لسان الميزان ٤/٦.

(٦) ينظر: وفيات الأعيان ٥/١٧٣.

«الكشاف» في الميزان

بداية ينبغي التأكيد على أن صاحبنا جار الله كان معتزلياً كما أشرنا من قبل، إلا أن الرجل كان رأساً، داعية إلى مذهبه، يقول صاحب وفيات الأعيان: «كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب «الكشاف» كتب استفتاح الخطبة: الحمد لله الذي خلق القرآن. فيقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه. فغيره بقوله: الحمد لله الذي جعل القرآن: و«جعل» عندهم بمعنى «خلق»، والبحث في ذلك يطول ورأيت في كثير من النسخ: الحمد لله الذي أنزل القرآن. وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف. ١. هـ كلام ابن خلكان.

السبب الباعث على تصنيف الكشاف:

ذكر الزمخشري في فاتحة كشافه ما دعاه إلى تقييده، فبين أن بعض إخوانه في الدين - يعني في مذهب الاعتزال - اجتمعوا إليه وسألوه أن يملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، واستشفعوا عليه بكل عظيم، إلى أن رحل إلى مكة، وهو مع كل هذا يستعفي، حتى قابل الأمير، الشريف أبا الحسن بن وهاس، فصادف منه رغبة كرهية من سألته الإقدام، فلم يملك إلا الإذعان وتلبية أمر الإمام. ولقد أنهى تفسيره - كما يقول - في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة.

منهج الزمخشري في نصرة مذهبه:

لما كان الزمخشري بهذه الجرأة من إعلان مذهبه وافتخاره وزهوه به، لم يكن بدعاً - حينئذٍ - أن ينتصر له بكل ما استطاع من حجاج، حتى لو اضطره ذلك إلى لِي أعناق الآيات وتأويلها على غير لسان العرب، وإنك لتراه يدخل في تفسير الآية، وتكون بعيدة كل البعد عن معتقده، إلا أنه - لتمكنه من فنون القول، وبراعته في الكلام - يزيغ والتأويل حتى يدخله على قلوب كثير من الناس، مما دفع سراج الدين البلقيني - وقد صنف

«الكشاف على الكشاف» - إلى قوله: «... استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقش؛ من قوله تعالى: ﴿مَنْ ذُخِرَ عَنِ الْكَاثِرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [ال عمران: ١٨٥] قال: أي فوز أعظم من دخول الجنة؟! أشار به إلى عدم الرؤية^(١).

وأيضاً قال ابن تيمية أثناء الكلام عن تفاسير المعتزلة: ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة كثير من تفاسيرهم الباطلة^(٢).

ولقد سلك الزمخشري في سبيل ذلك طرقاً ومسائل تنوعت إلى ما يلي:

- تأويله للفظ القرآني بما يتفق ومذهبه:

وذلك كأن يتعرض لتفسير آية فيكون لفظها على ظاهره لا يساعد مذهب، فيذهب به إلى معنى آخر، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهَا نَازِلَةً﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهذه آية تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وهذا مردود عند المعتزلة، فيذهب الزمخشري إلى أن معنى «ناظرة» منتظرة؛ «فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي. تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل: [من الكامل]

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ إِذْ تَنَبَّيْ يَمَامَا

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم - تقول: «عيني نويظرة إلى الله وإليك»...^(٣).

- إيغاله في التأويل بالتمثيل والتخييل:

كان الزمخشري إذا حاصره النص القرآني حاول حمله على التخييل، فنراه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يذكر أربعة أوجه في معنى «الكرسي»، يقول في أولها: إن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطه وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد؛ كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾

(١) ينظر: الإقناع ١/ ١٩٠.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

(٣) ينظر: الكشاف.

[الزمر: ٦٧]، من غير تصور قبضة وطَيٍّ ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١).

وطبيعي ألا يرتضي ابن المنير - كما سيأتي - كلام الزمخشري هذا فتعقبه قائلاً: «قوله في الوجه الأول: إن ذلك تخييل للعظمة، سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإصرار؛ فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي. وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب».

بل إن الزمخشري يتوسع في تخييله وتمثيله حتى ولو عضد مفهوم الآية حديث أو أثر؛ ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ كَثْرَتُهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] يقول: «وما يروون من الحديث: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» والله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطعم الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها؛ فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهم؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٢] واستهلاله صارخاً من مسه: تخييل (!!) وتصور لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه. ونحوه من التخييل - قول ابن الرومي: [من الطويل]

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطُّغْلِ سَاعَةً يُوَلَّدُ
وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلًا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلات الدنيا صارخاً وعياطاً مما يلونا به من نخسه»^(٢).

وما كان لابن المنير أن يترك مثل هذا الكلام حتى يتعقبه، فنراه يقول راداً عليه: «أما الحديث المذكور فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذن من تعطيل كلامه عليه السلام بتحمله ما لا يحتمل؛ جنوحاً إلى اعتزال منتزع، في فلسفة منتزعة، في إلحاد، ظلمات بعضها فوق بعض... ثم نظيره بتخييل ابن الرومي في شعره جراءة وسوء أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، أما وهو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الويل».

وإن الفطن اللبيب ليعلم يقيناً أن الذي جر المعتزلة - والزمخشري منهم - إلى هذا التحايل والتمثيل إنما هو تقديسهم للعقل مطلقاً، فقاوسوا به الغائب على الشاهد، وجعلوه

(١) ينظر: الكشف.

(٢) ينظر: الكشف.

حكمهم ونبراسهم، يقول جابر الله في «أطواق الذهب في المواعظ والخطب»^(١) ملقباً العقل بـ«السلطان»: «امش في دينك تحت راية السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان؛ فما الأسد المحتجب في عرينه، أعز من الرجل المحتج على قبرينه، وما العنبر الجريء تحت الشمال البليل، أذل من المقلد عند صاحب الدليل».

- حمله للآيات المتشابهات على المحكمات إذا تصادمت مع مذهبه:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبُوءَ بِؤَدَيِّكَ أَنَّهَا نَارٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾ ﴿القيامة: ٢٢، ٢٣﴾ فقد حمله على قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ ﴿الأنعام: ١٠٣﴾.

وابن المنير يغضب على الزمخشري لصنيعه ذاك، فيقول: «هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي على وفق ما يعتقد، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي؛ وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى؛ بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه - بزعمهم - إلى الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم».

على أن الزمخشري كان ينتصر لمعتقداته من خلال تفسيره للآيات، فهو يرى - كغيره من المعتزلة - أن صاحب الكبيرة مخلد في نار جهنم، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا...﴾ الآية [النساء: ٩٣]، يقول: «فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله: «ومن يقتل» أي قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله»^(٢).

ومن ذلك انتصاره لمذهب شيعته في السحر؛ فإنهم لا يقولون به، ولا يعتقدون في السحرة، وأنت تراه في تفسير سورة الفلق التي فلفت معتقدهم في السحر، يحاول - كعادته - التملص من مفهومها، فيفسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْمَقَدِّ﴾، بأن المقصود النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في الخيوط، وينفثن عليها ويرقن، ثم يقول: «ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إعطام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبوت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا

(١) ينظر: أطواق الذهب ص ٢٨.

(٢) ينظر: الكشف.

يلتفتون إلى ذلك ولا يعثون به... قال: ويجوز أن يراد بهن النساء الكيِّادات من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والفتن في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرن بذلك^(١).

ولقد تعرض له ابن المنير حاكماً عليه بأنه: «استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله، ويغطي بكفه وجه الغزالة».

ومن انتصاراته لمذهبه صولته وجولته في مسألة الإرادة وخلق الأفعال - وذلك في كثير من الآيات التي تصرح بأن للعباد مشيئة تحت مشيئة ربهم وخالقهم، فتراه يرد إرادة الله تعالى إلى معنى «اللطف» و«التوفيق»، فهو في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ حُدُودُهُ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] تدرع بلفظ «اللطف»^(٢) (!!!)، فتعقبه ابن المنير قائلاً: «المعتقد الصحيح أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداً، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه نفسه، وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما في هذه الآية فهو مأول على زعم الزمخشري بـ«لطف الله» الحامل للعبد على أن يخلق هواه. إن هذا إلا اختلاق. وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيء في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسؤول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا».

ومن انتصاراته لمعتقده إقراره وحجاجة عن مبدأ الحسن والقبح العقلين، ولما كان لا يستقيم له هذا المبدأ إلا بإزاحة ما قد يعترضه من عقبات، لجأ إلى اللف والتحايل حول آيتين من كتاب الله: الأولى: قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. والثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فهو في الآية الأولى يعلم أنها تعارض مبدأه، فمن ثم سأل هذا السؤال: «كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟؟

ثم يجيب فيقول: قلت: الرسل منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة للعلة، وتعميماً لإلزام الحجة؛ لئلا يقولوا:

(١) ينظر: الكشف.

(٢) ينظر: الكشف.

لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبها لما وجب الانتباه له^(١).

ثم هو عندما يتكلم عن الآية الثانية يحس بالتساؤل نفسه، ويجب بمثل إجابته تلك؛ يقول: «فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة؛ لئلا يقولوا: كنا غافلين، فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبها على النظر في أدلة العقل».

ومن هنا نسجل كلمة شيخنا العلامة الشيخ أبو شعبة في «الإسرائيليات والموضوعات» فقال رحمه الله:

إن تفسير «الكشاف» من خير كتب التفسير العلمية وأجلها، ولولا نزعته الاعتزالية في بعض الآيات القرآنية لما تناوله المعترضون بالنقد، ولما شأته بعض الناس، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة: أن كل من جاء بعد الزمخشري عالماً عليه، فيما يذكره فيه من أسرار الإعجاز، والغوص على المعاني البلاغية الدقيقة.

ولبراعته في الكلام، وتمكنه من فنون القول، وبُعْدِ غوره: يَدُسُّ بَعْضُ آرائه في أثناء تفسيره، وتَرْوِجُ على خَلْقٍ كثيرٍ من أهل السنة؛ ولذا قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضَيِّعْ عَنِ الْكَاكِ وَأُذْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾^(٢) قال: أي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية^(٣)، وقال ابن تيمية أثناء الكلام عن تفاسير المعتزلة: ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، يَدُسُّ الْبَدْعُ في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون؛ كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يَرْوِجُ على خلق كثير من أهل السنة، كثير من تفاسيرهم الباطلة^(٤).

وَمِنْ مُمَيِّزَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ

١ - خلوه من الحشو والتطويل.

٢ - سلامته من القصص الإسرائيلي غالباً، وإذا ذكر بعضه فإنه قد يَفْتَدُهُ، كما فعل في قصة داود وسليمان، ولكن وجدت فيه بعض الموضوعات التي لا تدرك بالعقل، وإنما

(١) ينظر: الكشاف.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) الإتيان ج ٢ ص ١٩٠.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

يعملها أئمة الحديث ونقاده. وذلك مثل: الحديث الطويل المروي في فضائل السور، سورة سورة، وكذلك ما روي: في قصة السيدة زينب بنت جحش، وحاول تبريره، وقد يذكر بعض الإسرائيليات، ولا يفندها، مثل ما ذكره: في قصة يأجوج ومأجوج، بل ذكر هنا حديثاً موضوعاً على النبي - ﷺ - ^(١) وسأتناول ذلك بالتفصيل فيما يأتي، إن شاء الله تعالى.

٣ - اعتماد في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم في الخطاب.

٤ - عنايته الفائقة بالإبانة عن أسرار الإعجاز القرآني بطريقة فنية قائمة على الذوق الأدبي.

٥ - اتباعه طريقة السؤال: (إن قلت - بفتح التاء)، ويقول في الجواب: (قلت: بضم التاء) وهي طريقة من طُرُقِ التشويق، في التعليم وترسيخ المعاني في النفس.

الانتصاف

وقد قُيِّضَ الله لهذا الكتاب مَنْ بَنَى إِلَيْهِ ما فيه من اعتزاليات، وبين ما فيه من انحراف، وميل باللفظ القرآني إلى مذهب أهل الاعتزال، وهو: الإمام أحمد بن محمد، المعروف بابن المنير. عالم الإسكندرية وقاضيها، وخطيبها، ألف كتابه: «الانتصاف»، وهو يدل على علو كعب هذا الإمام في العلوم الشرعية، والبلاغية، وأصول الدين، وأصول الفقه وبهذا الكتاب النفيس، يمكن للقارئ لتفسير الكشاف أن يقرأه مع الأمن عليه أن يزيف، أو يضل في متاهات الاعتزال.

تخريج أحاديث الكشاف

وقد تنبه إلى ما في تفسير الكشاف من الروايات الضعيفة، والموضوعة، بعض المحدثين، فقام بإكمال هذا النقص خير قيام، وسد هذه الثغرة التي دخل منها على القراء ضرر كثير، فقد ألف الإمام الحافظ الفقيه: عبد الله بن يوسف الزيلعي المتوفى سنة ٧٧٢هـ رسالة في تخريج أحاديث الكشاف، وما فيه من قصص وآثار، بين فيها الصحيح، من الحسن، من الضعيف، من الموضوع، وقد لخصها الإمام الحافظ - الفقيه. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، في رسالة سماها: «الكاف الشاف من

(١) تفسير الكشاف في سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنِ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مَفْسُودُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

تخريج أحاديث الكشاف»، وقد طبعت مع الكشاف في بعض الطبعات، فجزأهما الله خير الجزاء.

حملة أهل السنة على الزمخشري:

إن دسائس الاعتزال التي حشا بها الزمخشري كشافه دفعت بعض أهل السنة إلى القيام بواجب الدفاع عن الاعتقاد الصحيح؛ ورداً للحق إلى نصابه، وتبييناً لزغل معتقد هذا الرجل.

وكان من أشد الناس ردّاً على الزمخشري أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، الذي صنف كتاب «الانتصاف من الكشاف»، وقد أحققه ما صنع الزمخشري بآيات الله من دسائس الاعتزال، انظر إليه يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّتُكُمْ كَأُفٍّ وَمِنْكُمْ نُّؤْمِنُ﴾ [التغابن: ٢] وقد قال الزمخشري: «فمنكم آت بالكفر وفاعل له، ومنكم آت بالإيمان...». «لقد ركب عمياء، وخطب خطب عشواء، واقتحم وعراً: السالك فيه هالك، والغابر فيه عاشر، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك، ويحوم حول مراتع الإشراك، ويبحث: لكن عن حتفه بظُلْفِهِ، ويتحذق، وما هو إلا بمتشدد، ويتحقق، وما هو إلا يتفسق...»^(١).

وكثيراً ما نرى الألفاظ الشديدة من ابن المنير يصوبها تجاه الزمخشري، لسوء فعاله، وهضمه لجماعات أهل السنة؛ وفي موضع من التفسير يقول ابن المنير: «فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأنّه أخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة»^(٢).

حملة ابن القيم:

ثار ابن القيم على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي، فنراه يذكر ما فسر به الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ثم يقول: «فهذا منه شئنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً»^(٣).

(١) ينظر: الكشاف.

(٢) ينظر: الكشاف.

(٣) ينظر: إعلام الموقعين ٢٠٢/١.

حملة ابن السبكي:

وفي مقالة يقول التاج السبكي: «واعلم أن الكشف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعني والده التقى السبكي - يُقرئه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكويد: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [آية: ١٩] أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها: «سبب الانكشاف عن إقراء الكشف»، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك^(١) من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى؛ سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياة من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة^(٢).

حملة أبي حيان:

صنف أبو حيان الأندلسي تفسيره «البحر المحيط»، وقد تعقب فيه الزمخشري في كثير من آرائه النحوية مما دفعه - ذات مرة - إلى أن يقول عنه: «وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه، وكم من نص في كتاب سيبويه عمي بصره وبصيرته عنه، حتى إن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه الزمخشري وما جهله من نصوص كتاب سيبويه»^(٣).

وقال أبو حيان: «... وقد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نهبت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا ليتنفع بذلك من يقف على كتابي هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبايح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به: [من الطويل]

وَلَكِنَّهُ فِيهِ مَجَالٌ لِنَاقِدٍ	وَزَلَّاتُ سُوءٍ قَدْ أَخَذْنَ الْمَحَانِقَا
فَيُثَبِّتُ مَوْضُوعَ الْأَحَادِيثِ جَاهِلًا	وَيَغْزُو إِلَى الْمَغْضُومِ مَا لَيْسَ لَايِقَا
وَيَسْأَلُ أَعْلَامَ الْأَيْمَةِ ضَلَّةً	وَلَا سِيَّما إِن أَوْلَجُوهُ الْمَضَايِقَا
وَيُسَهِّبُ فِي الْمَعْنَى الْوَجِيزِ ذَلَالَةً	بِتَكْثِيرِ أَلْفَاظٍ تُسَمَّى الشَّقَائِقَا
يَقُولُ فِيهَا اللَّهُ مَا لَيْسَ قَائِلًا	وَكَانَ مُجَبًّا فِي الْخَطَابَةِ وَإِمَّا

(١) وذلك كما في تفسيره قوله تعالى: ﴿عَمَّا أَثَبَّكَ﴾ [التوبة: ٤٣] يقول: كناية عن الجنابة، لأن

الغفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبتش ما فعلت. !!!

(٢) ينظر: معيد النعم وميد النعم.

(٣) ينظر: البحر المحيط - بتحقيقنا - ٢٩٨/٨.

وَيُخْطِئُ فِي تَرْكِيبِهِ لِكَلَامِهِ
وَيَنْسُبُ إِذْدَاءَ الْمَعَانِي لِنَفْسِهِ
وَيُخْطِئُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ
وَكَمَ بَيْنَ مَنْ يُؤْتَى الْبَيَانَ سَلِيلَةً
وَيَحْتَثَالُ لِلْأَلْفَاظِ حَتَّى يُدِيرَهَا
فَيَا خُسْرَهُ شَيْخٌ تَحْرُقُ صِيئُهُ
لَيْسَ لَمْ تَدَارَكُهُ مِنَ اللَّوِّ رَحْمَةٌ

حملة ابن خلدون:

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً في علوم القرآن من التفسير والقراءات وذكر فيه كلاماً في تفسير كتاب الله، وكان من قوله: «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض في أي القرآن من طرق البلاغة، فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكانه...»^(١).

حملة الشيخ حيدر الهروي:

وكان للشيخ حيدر الهروي نصيب من التعليق على كشف الزمخشري، فبين قيمة الكشف وما له، ثم ذكر ما يعكر عليه من أنه بسبب: «إخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلاله، فالتزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواه، فتكدرت مشاربه الصافية، وتضيقّت موارده الصافية، وتزلزلت رتبته العالية.

منها: أنه كلما شَرَعَ في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعدُ هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتته، صَرَفَهَا عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعضّفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة - عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير؛ لئلا يوهم بالعجز والتقصير، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تنبأذُر إلى الأفهام، والخفيّة التي لا تتسارَقُ إليها الأوهام، بل لا يهتدي إلّا حباله إلا وُزَادَ بعد وُزَادَ من الأذكياء الخُذّاق، ولا يتبّه لمكايده

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٨.

إلاً واحداً من فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمة، ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يُطعنُ في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده، ويُعَمِّم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١): خاض صاحب «الكشاف» في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى، وكتب فيها ما لا يليقُ بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفُحش، فهب أنه اجتراً على الطعن في أولياء الله تعالى، فكيف اجتراه على كتبه ذلك الكلام الفاجش في تفسير كلام الله المجيد.

ومنها: أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها، وأورد على المزاح البارد نبراسها، وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد، لا سيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة، فتارة يُعَبِّرُ عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكُفر والإلحاد، وهذه وظيفة السُفهاء الشُّطَّار، لا طريقة العلماء الأبرار^(٢).

حملة الجلال السيوطي:

ومن الكتب التي صنفها السيوطي كتاب «التحبير في علم التفسير»، ذكر فيه من يجوز لمثله أن يقحم نفسه في كتاب الله يفسره ويستخرج درره، كما ذكر من يقبل منه ومن لا، فقال: «... ومن لا يقبل تفسيره: المبتدع، خصوصاً الزمخشري في «كشافه»؛ فقد أكثر فيه من إخراج الآيات عن وجهها إلى معتقده الفاسد، بحيث يسرق الإنسان من حيث لا يشعر، وأساء فيه الأدب على سيد المرسلين ﷺ في مواضع عديدة فضلاً عن الصحابة وأهل السنة. وقد أحسن الذهبي إذ ذكره في «الميزان» وقال: كن حذراً من كشافه.

وألف الشيخ تقي الدين السبكي كتاباً سماه «الانكشاف عن إقرأ الكشاف» ذكر فيه أنه عقد الثوبة من إقرائه وتاب إلى الله، فلا يقرأه ولا ينظر فيه أبداً؛ لما حواه من الإساءة المذكورة.

قال^(٣): وقد استشارني بعض أهل المدينة النبوية أن يشتري منه نسخة ويحملها إلى المدينة، فأشرت عليه بالألا يفعل، حياة من النبي ﷺ أن ينقل إلى بلد هو فيها كتاب فيه ما

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) ينظر: كشف الظنون ص (١٤٨٣).

(٣) يعني تقي الدين السبكي.

يتعلق بجنابه ﷺ. على أنه آية في بيان أنواع البلاغة والإعجاز لولا ما شأنه مما ذكرناه»^(١).

قيمة الكشف البلاغية:

لم يكن كشف الزمخشري سوءاً كله، بل حوى كثيراً من اللمحات الفنية والبلاغية التي تجلي فصاحة كتاب الله وبلاغته وحسن رصفه، وجمال وصفه؛ فإن الذين نقموا على الزمخشري سوء فعاله، قدموا ذكر محاسنه، فجمع بين الخير والشر، وخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. [من الطويل]

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءُ نُبْلاً أَنْ تُغْدَ مَعَايِبُهُ
وكان الزمخشري أحسن قيمة عمله وصنعة يده، فمن ثم رفع صوته قائلاً: [من البسيط]

إِنَّ الشَّافِيَّ فِي الدُّنْيَا بَلَاءٌ عَدِيدٌ وَلَيْسَ فِيهَا لَعْمَرِي مِثْلُ كَشَافِي
إِنْ كُنْتُ تُبْغِي الْهَدْيَ قَالَتْ قِرَاءَتُهُ قَالَجْهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَافُ كَالشَّافِي
ولعل من الإنصاف ألا نعتبر تركية المرء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فمن ثم ننقل بعض كلمات مما قيلت في قيمة الكشف البلاغية.

قوله أبي القاسم بن بشكوال:

نقل أبو حيان في «البحر المحيط» موازنة للحافظ ابن بشكوال، عقدها بين تفسير ابن عطية الأندلسي، وبين تفسير الزمخشري، فقال: «وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري أخص وأغوص، إلا أن الزمخشري قائل بالطرفة، ومقتصر من الذوابة على الوفرة، وربما سنح له أبي المقادة فأعجزه اعتيابه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتداه. وربما ناقض هذا المتنزع، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللاتع، وأجال فيه كلاماً، ورمى نحو غرضه سهاماً. هذا مع ما في كتابه من نصره مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض؛ لإصابته في أكثر بُنيانه».

والكشف يعد أول كتاب في التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذي يفهم من التركيب اللفظي. كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع، لا يتفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين؛ يقول

(١) ينظر: التحرير في علم التفسير ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(...) وبعد، فإن كتاب الكشاف كتاب عليّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين. اتفقت على مئاة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقين، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيفة ألسنة الكملة المفلقين. ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشديد معاقده. وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقيير والقطمير. إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتضي أثره، ويسأله خبره. وقلما غير تركيبياً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخلط، وسقط من مزالق الخطب والزلل، ومع ذلك كله إذا فنشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار كالشمس في وسط النهار^(١).

هذا، وإن نيل الكشاف هذا الإعجاب والتقدير حتى من خصومه، لدليل واضح على قيمة هذا السفر وعلو قدره.

موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

من استقرأ صنيع الزمخشري في كشافه يجد أنه ذكر الإسرائيليات في بعض الآيات، إلا أنه كان يذكرها إما بصيغة «روي» المشعرة بالتمريض، أو بقوله: «والله علم بصحته»، أو يقول: «ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود».

ومن أمثلة ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْسِلُ إِلَيْهِمْ بِهَيْدَرَةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، ولقوله: ﴿وَقَالَ رُعُونُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرٍ فَأَوْفِدَ لِي يَهَنَمُنُّ عَلَى الْعِلَمِينَ فَأَجْعَلَ لِي مَرْحَاً﴾ [القصص: ٣٨] وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا آلِ خِرَابٍ﴾ [ص: ٢١]، في كل ذلك يروي روايات إسرائيلية، ثم يعقب عليها بما يشير إلى ضعفها أو عدم الأخذ بها فيما لا يليق بالأنبياء.

موقفه من المسائل الفقهية:

كان الزمخشري حنفي المذهب، إلا أنه معتدل لا يتعصب لمذهبه، فتارة يرجح مذهبه إن ظهر له ذلك، وتارة يرجح مذهب غيره، ومن إنصافه ما يظهر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَمُوتَ أَوْ يَمُوتَ الْوَيُّ عَقْدَةُ الْكَافِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال: والذي بيده عقدة

(١) ينظر: كشف الظنون (١٤٨٣).

النكاح - الولي، يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رأيي، ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي - وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة^(١).

وبعد فإن أول دليل على قيمة الكشف أنه قد اعتنى به أناس كثيرون، فمن مختصر له، ومن محشٍّ عليه، ومن منتصر له، ومن محاكم بينه وبين غيره، وقد ذكر صاحب «كشف الظنون» عدداً جماً منهم، أذكر هنا كلامه، يقول:

فَمِمَّنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ نَاصِرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنِيرِ الْإِسْكَنْدَرِيُّ الْمَالَكِيُّ كِتَابَهُ «الْإِنْتَصَافُ» بَيَّنَّ فِيهِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْإِعْتِزَالِ، وَنَاقَشَهُ فِي أَغَارِبٍ وَأَحْسَنَ فِيهَا الْجِدَالَ، وَتُوفِيَ (سنة ٦٨٣ ثلاث وثمانين وستمائة). وتلاه: الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي في كتاب «الإنصاف» جعله حكماً بين «الكشاف» و«الانتصاف»، وتوفي (سنة ٧٠٤ أربع وسبعمائة)، ولخصهما: الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام في مختصر لطيف مع يسير زيادة، وتوفي (سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة)، قال: اختصرت فيه «الانتصاف من الكشاف» وحذفت منه ما وقعت الإطالة به من نقل كلام الزمخشري على وجهه من غير كلام عليه؛ إعجاباً به وأستحساناً له، وما قابل به الزمخشري في سببه أهل السنة بمثلها؛ مقتضراً على العقيدة الصحيحة، وما يتعلق بالآية منها من دليل، وحمل على تأويل، فلم أَدْعُ شيئاً من معاني الكتاب المذكور؛ فما وافق منه الصواب أبقيته بحاله، وما خالف ذلك بينت وجه ضعفه وإخلاله، والله الموفق، فابتدأ به «قال محمود» و«قال أحمد» إلخ؛ كما في «الانتصاف»، وأكثر الإمام أبو حيان في «بخره» من مناقشته في الإعراب، وتلاه: تلميذه الشهاب أحمد بن يوسف الحلبي المشهور بالسمين، والبُرْهَانُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّفَاقْسِيُّ فِي إِعْرَابِيهِمَا، وَلَخَصَ الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ مَكْتُومٍ مَنَاقِشَاتِ شَيْخِهِ أَبِي حَيَّانٍ فِي تَأْلِيفٍ مَفْرَدٍ، سَمَاهُ: «الدَّرُ اللَّقِيطُ مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ» وَتُوفِيَ (سنة ٧٤٩ تسع وأربعين وسبعمائة)، وممن كتب عليه حاشية: العلامة قُطْبُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْعُودٍ الشِّيرَازِيُّ فِي مَجْلَدَيْنِ لَطِيفَيْنِ، وَتُوفِيَ (سنة ٧١٠ عشر وسبعمائة)، والعلامة فخر الدين أحمد بن حسن الجار بردي المتوفى (سنة ٧٤٦ ست وأربعين وسبعمائة)، والعلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطَّبِّي، وهي أجل حواشيه في ست مجلدات ضخمة، قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبِيلَ الشُّرُوعِ؛ أَنَّهُ نَاولَنِي قَدْحاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَشَارَ إِلَيَّ فَأَصَبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ نَاولَتْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَأَصَابَ مِنْهُ، أَقُولُ: سَمَّاهَا

(١) ينظر: الكشف.

«فتوح الغيب، في الكشف عن قناع الريب»، وتوفي (سنة ٧٤٣ ثلاث وأربعين وسبعمائة)، والعلامة أكمل الدين محمد بن محمود البابرّي، وهو شَرَحَ به «قَالَ»، رَأَيْتُ منه مجلداً على «الفاتحة»، وقطعة من «البقرة»، ولا أدري أكملها أم لا، أقول: وصل فيها إلى تمام الزهراوين، أوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَامُ الْغُيُوبِ، كَشَفَ الْكُرُوبِ... إلخ، (وتوفي سنة ٧٨٦ ست وثمانين وسبعمائة)، والعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفازاني، وهي ملخصة من حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها، أقول: وصل فيها إلى سورة «الفتح»، وفرغ منها (سنة ٧٨٩ تسع وثمانين وسبعمائة)، (وتوفي أول سنة ٧٩٢)، والعلامة قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي، (توفي سنة ٧٦٦)، وعليه اعتراضات أوردها جمال الدين محمد بن محمد الأقسراي، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار، أولها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ الْعِبَادَ مِنْ ظِلْمَةِ الْعَدَمِ إِلَى نُورِ الْوُجُودِ... إلخ؛ ذكر فيها أن شرح الكشف للعلامة قطب الدين الرازي كتابٌ جليلُ الشأن، لكن المولى جمال الدين محمد بن محمد الأقسراي أغترَضَ عليه اعتراضات، فكتبت الأجوبة، وسميتها به «المحاكمات»، وأجاب عن المحاكمات ابنُ سماونة ذكره عرب زاده في «حاشية الشقائق»، أما شرح الطيبي فلم يألُ جهداً في إيراد مبادئه المنتشرة من تبين وجوه القراءات وتصحيح الأحاديث والروايات، وتحقيق لغاته، وتدقيق نكاته، وبذل مجهوده في تقرير مسائله، ومع ذلك: ففيه شيثان؛ أحدهما: ليس من الأفعال الاختيارية، وهو أن هذا الكتابُ كتابٌ متينٌ وحصنٌ حصينٌ لا يكمل علمه بمجرد العثور على العلوم الظاهرة، بل له شرائطٌ بعضها ما ذكره مؤلفه، حيث قال قد رَجَعَ زماناً ورجعَ إليه، وزدُ وزدُ عليه، مع ذهني وقَّادٍ، وذكر أمر لا يمكن تحصيله إلا بالكُدِّ والجِدِّ، وثانيهما: أنه كان مولعاً بكثرة إيراد النكات البيانية، فصار شرحه كبير الحجم في غير المقصود، واختلاط الموجود بالمفقود، وأما شرح الرازي: فلائنه غير تام، وبتقديره هو خلاصة الطيبي لم يزد عليه سوى التنقيح في كل باب، واعتراضات تنادي بأن موردها ليس من رجال هذا الكتاب، وأما شرح الفاضل الجيلوهي على أنه وافٍ بمقاصده، فإن فيه ثلاثة أشياء؛ أحدها: أنه لم يشرحه مرتباً كما يكون حال الشروح مع المتون، وثانيها: قد بذل جهده فيما يتعلق بالرواية وقوانينها؛ لكنه كثيراً ما يزلق في المضايق، ويدحض في التعقيلات، ولا أدري أهو لقصور استعداده الفطري أم لعدم تمرّنه في المعقولات، وثالثها: أنه بالغَ في اختصار عبارته والاقصصار على إشارته؛ فخرج من حيز الانتفاع إلى حد الإلغاز والإخلال، فلا يحصل بمطالعة سوى التخيّل الفاسد مع تَعَبِ الكلال، وأما شرح المحقّق النحرير - أي: السعد - فما له من نظير؛ لاشتماله على التحقيق والتدقيق، ولطائف التوفيق والتلفيق، لكنه فوت الفرصة، واشتغل به في آخر عمره، فاتاه بريد الأجل، قبل الفراغ من العمل، وقد تحقّقت

منه أن هذا الكتاب على تعاقب الشهور والأعوام مهرة لم تُرَكَّب، ودرة لم تُثَقَّب... إلخ. وكتب العلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني حاشيةً ولا أدري إلى أين وصل، أقول: وقف في أواسط «سورة البقرة»، وتوفي (سنة ٨١٦ ست عشرة وثمانمائة)، وكتب المولى محيي الدين محمد بن الخطيب حاشيةً على حاشية السيد، وتوفي (سنة ٩٠١ إحدى وتسعمائة)، أولها «إن أحق ما يوشح به صدر الكلام...» إلخ، وأهداها إلى السلطان بابيزيد، والمولى عبد الكريم - أيضاً -، والمولى علاء الدين علي الطوسي، المتوفى بسمرقند (سنة ٨٨٧ سبع وثمانين وثمانمائة)، وعلق المولى برهان الدين حيدر بن محمد الهروي تلميذ السعد حاشيةً على حاشية سعد الدين، أجاب فيها عن اعتراضات السيد، وتوفي (سنة ٨٣٠ ثلاثين وثمانمائة)، والمولى علاء الدين علي بن محمد المعروف بـ«قوشجي» علق على أوائل حاشية السعد، وتوفي (سنة ٨٧٩ تسع وسبعين وثمانمائة). وللـمولى شيخ الإسلام بهراة يحيى الهروي المعروف بـ«الحفيد» حاشيةً على حاشية جدّه سعد الدين، وأجاب - أيضاً - عن اعتراضات السيد. وعلى حاشية السيد حاشيةً للمولى حسن چلبي ابن محمد شاه الفناري المتوفى (سنة ٨٨٦ ست وثمانين وثمانمائة)، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني، وهي على أسلوب غير أساليب المذكورين، وإنما ذكرتها (من كلامهم) اليسير، أقول: وهي ثلاث مجلدات، سماها: «الكشاف على الكشاف»؛ كما سبق، وتوفي (سنة ٨٠٥ خمس وثمانمائة)، والشيخ ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العِراقِي في مجلدين، لخصّ فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي وأبي حيان وأجوبة (السمين) الحلبي والسفاقي، مع زيادة تخريج أحاديثه. انتهى كلام السيوطي مع حذف وإلحاق.

ثم أقول: وتوفي أبو زرعة (سنة ٨٢٠ عشرين وثمانمائة (٨٢٦)، ومن كتب - أيضاً - غير ما ذكره السيوطي: الإمام العلامة عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (حاشية) في مجلد سماها: «الكشف»، (توفي سنة ٧٤٥ خمس وأربعين وسبعمائة)، أولها: «الحمد لله الذي أنار الأعيان بنور الوجود...» إلخ، ذكر فيها أنه أشار إلى تأليفها من أمره مطاعاً، فشرع وكتب فيها ما تلقفه من الأئمة الماضين أو استنبطه بيمين أنوارهم، وهذا الأخير ميزها بـ«أقول»، والعلامة عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي المعروف بـ«الفاضل اليميني» (كتب حاشيةً في مجلدين سماها دُرَرُ الأصداف من حواشي الكشاف [درر الأصداف في حل عقد الكشاف]، فرغ من تأليفها في صفر (سنة ٧٣٨ ثمان وثلاثين وسبعمائة) وتوفي (سنة ٧٥٠ خمسين وسبعمائة) (وله حاشية أخرى - اسمها تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف - ألفها بعد فراغه من حاشيته المسماة بدرر الأصداف في حل عقد الكشاف، أولها: «الحمد لله الذي أنزل قرآنه العظيم...» إلخ، ذكر فيها أنه لما وُفِّق على

حاشية الطيبي، وجد مذكوراً فيها ما ذكره صاحب «الانتصاف» و«الإنصاف» وغيرهما، أراد أن يجمع بين «حاشية الطيبي» و«ذُرِّ الأصداف»، وسماها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشف». والشيخ علاء الدين علي بن محمد الشاهرودي الشهير بـ«مصنفك» فرغ منها (سنة ٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة)، وتوفي (سنة ٨٧١ إحدى وسبعين وثمانمائة)، وخير الدين خضر بن عمر العطوفي المتوفى (سنة ٩٤٨ ثمان وأربعين وتسعمائة)، ويوسف بن حسن التبريزي المتوفى (سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة)، وشرح خطبته الشيخ الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي المتوفى (سنة ٨١٧ سبع عشرة وثمانمائة)، وسماه: «نغمة الخشاف، لِحْلُ خطبة الكشف»، ثم كتب ثانياً، وسماه «نغمة الرشاف، من خطبة الكشف»، وذكر أن الأول أصيب بكفة الإتلاف عند مغيرة الإعجاب، وأعاد العمل (سنة ٧٦٨ ثمان وستين وسبعمائة)، وعلق على أوائله شيخ الإسلام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بـ«حميد التفنازاني» فبلغ إلى أواسط «سورة البقرة»، وتوفي (سنة ٩٠٦ ست وتسعمائة)، والمولى أبو السعود بن محمد العمادي على سورة الفتح، حين قرئ عليه في سفر الكفار، سماه: «مَعَايِدُ الطراف، في أول تفسير سورة الفتح من الكشف» وتوفي (سنة ٩٨٢ اثنتين وثمانين وتسعمائة)، والمولى صنع الله بن جعفر المفتي على أوائله، وتوفي (سنة ١٠٢١ إحدى وعشرين وألف)، وممن علق على بعض مواضعه - أيضاً - المولى كمال الدين إسماعيل القرمانى المعروف بـ«قرة كمال» من علماء الدولة الفاتحية. والعلامة شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بـ«ابن كمال باشا» المفتي المتوفى (سنة ٩٤٠ أربعين وتسعمائة)، وهو من أحسن تأليفاته على ما ذكره عرب زاده في «حاشية الشقائق» أكثرها على السيد. والمولى مهدي الشيرازي المتوفى (سنة ٩٥٦ ست وخمسين وتسعمائة). وأما المختصرون فكثيرون منهم الشيخ محمدبن علي الأنصاري أزال عنه الاعتزال، وتوفي (سنة ٦٦٢ اثنتين وستين وتسعمائة). والعلامة قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الفالي الشُقَّار «لعله قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المذكور قبل هذا» لخصه، وسماه تقريب التفسير، أتمه في التاسع من شوال (سنة ٦٩٨ ثمان وتسعين وتسعمائة) ببلدة «شيراز» أوله: «الحمد لله الذي جعل كِتَابَهُ الكريم مفتاحاً للسرور... إلخ، أزال اعتزاله وبعض إطنابه، فهُدِّبَ ونقح وضم إلى مواضع الانغلاق خَلاً وبياناً، وهو كتاب صغير الحجم وجيز النظم، مشتمل على محض الأهم من «الكشاف» مع زيادات شريفة، وعليه حاشية لطيفة مفيدة مسماة بـ«توضيح مشكلات التقريب» لعلي بن عمر الأرنجاني، كتبها حين درسه، وبلغ إلى الثلث الثاني، أولها: «الحمد لله الذي حارت الأفكار في مبادئ أنوار كتابه... إلخ. والمولى عبد الأول بن حسين الشهير بـ«أُمُّ ولد» المتوفى (سنة ٩٥٠ خمسين وتسعمائة).

والمولى محب الدين محمد بن أحمد المدعو بمولانا زاده الحنفي (المتوفى سنة ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة). وسيد المختصرات منه كتاب أنوار التنزيل للقاضي العلامة ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، لخصه وأجاد، وأزال عنه الاعتزال، وحرر وأستدرك وأشتهر أشتهار الشمس في وسط النهار، فعكف عليه العاكفون، كما سبق ذكره في الألف، وكانت وفاته (سنة ٦٩٢ اثنتين وتسعين وثمانمائة). وممن خرج أحاديثه الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي المتوفى (سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة). ولخص كتابه الحافظ الكبير شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر في كتاب سماء: «الكاف الشاف»، في تحرير أحاديث الكشاف في مجلد، واستدرك عليه في مجلد آخر، وتوفي (سنة ٨٥٢ اثنتين وخمسين وثمانمائة)، قال ابن حجر: استوعب ما فيه من الأحاديث المرفوعة، فأكثر من تبين طرقها، وتسمية مخرجيها، على نمط ما في أحاديث «الهداية»؛ لكنه فاته كثير من الأحاديث المرفوعة التي يذكرها الزمخشري بطريق الإشارة، ولم يتعرض غالباً لشيء من الآثار الموقوفة. وصنف أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني المغربي (المتوفى سنة ٧١٧ سبع عشرة وسبعمائة) كتاب «التمييز على الكشاف»، تكلم فيه في الإمام فخر الدين وغيره بما لا يعاب به عالم؛ (كما ذكره السبكي وعلى الكشاف حاشية للإمام أبي العباس أحمد بن عثمان الأزدي الشهير بـ«ابن البناء»، ومن الحواشي حاشية الفاضل يوسف بن الحسين الحلواني مات (سنة ٨٥٤ أربع وخمسين وثمانمائة)، (وعلى الكشاف حاشية تأمة في مجلدين للفاضل علاء الدين علي المعروف بـ«بَهْلَوَان»، ناقش فيها مع القطب الرازي). وشرح أبيات الكشاف لبعض الأفاضل مختصر، أوله: «إن أولى ما يفتح به الكتاب... إلخ، ذكر فيه أن بعض إخوانه أشار إليه بعد أن شرح أبيات المفصل أن يشرح أبيات الكشاف، فأجاب، وهي زهاء ألف بيت، أكثرها منشور (منثور) المقاطع، خافية معانيها على أكثر الأدباء حتى الفحول. (وشرح شواهد الكشاف) في مجلدات لخضر بن محمد الموصلني نزيل مكة المكرمة، ذكره الشهاب. و«مقتضب التمييز، في اعتزال الزمخشري من الكتاب العزيز» للشيخ الفاضل أبي علي عمر بن محمد بن خليل السكوني صاحب «المنهج المشرق»، أوله «الحمد لله رب العالمين... إلخ، وفي شرح خطبة الكشاف مختصر لبعض الأفاضل، قال صاحب القاموس محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (فيما كتبه على الخطبة)، قال بعض الطلبة: وأئبته بعض المعتنين بـ«الكشاف» في تعليق له عليه؛ أنه كان في الأصل (كتب) «خلق» مكان «أنزل» وبالأخرة (وأخيراً) غيره المصنف أو غيره؛ حذراً عن الشناعة الواضحة، فقول (هذا قول) ساقط جداً، وقد عرضته على أستاذي، فأنكر غاية الإنكار، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب؛ لوجهين: أحدهما: أن الزمخشري لم يكن لتفوته اللطائف المذكورة

في «أنزل» وفي «نزل» في مفتتح كلامه، ويقبل كلمة خالية من ذلك، والثاني: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، وإنما كان يفتخر بذلك، وأيضاً: أتى عقيبه بما هو صريح في المعنى، ولم يبيل (ولم يبالي) بأنه قبيح وقد رأيتُ النسخة التي بخط يده بـ«مدينة السلام» مختبئة في تربة الإمام أبي حنيفة خالية عن أثر كشط وإصلاح. انتهى. قال شمس الدين الأصبهاني - رحمه الله - في تفسيره «الجامع بين التفسير الكبير والكشاف»: تنبعت الكشاف فوجدتُ أن كل ما أخذه أخذه من الزجاج.

وهكذا، كان لكتاب الزمخشري قيمة عالية بين أهل العلم، استوجب لأجلها أن يوضع في مصاف أفضل الكتب وأجود الأسفار، فإليك أيها القارئ اللبيب قبل كتاب تفسير أبي القاسم جاز الله الزمخشري المسمى: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» مقدمة تتعلق بالتفسير ومدارسه.

«التفسير قبل الزمخشري»

مقدمة

التفسير والتأويل

التفسير : لغة :

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرٍ﴾ [الفرقان: ٣٣] أي بياناً وتفصيلاً. وهو مأخوذ من الفسر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزآبادي^(١):

«الْفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور^(٢):

«الْفَسْرُ: البيان، فَسَّرَ الشيءَ يَفْسِرُهُ - بالكسر - وَيَفْسُرُهُ - بالضم - فَسْرًا، وَفَسَّرَهُ: أبانه. والتفسير: مثله... والْفَسْرُ: كشف المغطى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكّل».

وقال «أبو حيان»^(٣):

«... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجري».

(١) القاموس المحيط «فسر».

(٢) اللسان: مادة «فسر».

(٣) البحر المحيط ١/١٣.

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين^(١):

الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول.

وقيل: إن أصل الكلمة من التَّفْسِيرَة، وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسر عن شأن الآية وقصتها^(٢).

التفسير: اصطلاحاً:

عرفه السيوطي قائلاً^(٣):

«هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدا ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك».

وعرفه «أبو حيان» فقال^(٤):

هو «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتنمات ذلك...» وفيه قصور وغموض^(٥).

وتعريف «الزركشي» أوضح من التعريفين السابقين إذ يقول^(٦):

«التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد - ﷺ - وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ».

وهناك تعريفات أخرى - غير ما ذكرنا^(٧) - وكلها تتفق «على أن علم التفسير علم

(١) التفسير: معالم حياته - منهجه اليوم - أمين الخولي ص ٥، والتفسير والمفسرون/ للذهبي ج ١/ ١٥.

(٢) الإتنان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٩٤، وتفسير البغوي ١/ ١٨ ط المتار، واللسان: فسر.

(٣) الإتنان ٢/ ١٧٤.

(٤) البحر المحيط ١/ ١٠.

(٥) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبو شعبة ص ٤١.

(٦) البرهان ج ١/ ٣٣.

(٧) راجع مثلاً: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٠٦ ط أولى، ومنهج الفرقان في علوم القرآن ج ٢/ ٦، التفسير في قواعد التفسير / الكافيحي ص ٣، ١١ وغيرها.

يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد^(١).

التأويل : لغة :

أصله : «من الأول، وهو الرجوع».

قال الفيروزآبادي^(٢) :

«آل إليه أولاً وَمَآلاً: رجع، وعنه ارتد... وأوّل الكلام تأويلاً، وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا».

وقال ابن «منظور»^(٣) :

«الأوّل: الرجوع، آل الشيء يؤوّل أولاً وَمَآلاً: رجع، وأوّل الشيء: رَجَعَهُ، وألّث عن الشيء: ارتدّدت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي لا رجع إلى خير... وأوّل الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسره».

وعليه :

فالتأويل : إرجاع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل : التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكان المؤوّل ساس الكلام وضعه في موضعه... قال الزمخشري^(٤) :

«آل الرعيّة يؤولها إيالةً حسنّةً، وهو حسن الإيالة، واثالثها، وهو مؤتال لقومه مِقْتالٌ عليهم، أي: سائس محتكم، قال زياد في خطبته: قد ألنا وإيل علينا، أي: سُسنا وسُسنا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة :

من ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وما يَسْلَمُ تَأْوِيلُهُ: إِلَّا أَنَّهُ... ﴿[آل عمران: ٧٧]. بمعنى التفسير والتعيين.

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ قُرْآنَهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] بمعنى العاقبة والمصير.

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٧.

(٢) القاموس المحيط ٣/ ٣٣١.

(٣) اللسان / مادة «أول» ١٧١/ ١ وما بعدها.

(٤) أساس البلاغة ص ٢٥ ط الشعب.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ...﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿هَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَكِنَّ يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ [يونس: ٣٩] بمعنى وقوع المخبر به.

ومن آيات سورة يوسف^(١) أريد بها: نفس مدلول الرؤيا.

ومن آيتي سورة الكهف^(٢) بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال^(٣).

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره حين يقول: «القول في تأويل قوله تعالى...» وكذا قوله «اختلف أهل التأويل في هذه الآية...» فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به. وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلية، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني^(٤).

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم:

فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترون به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف^(٥).

قال في جمع الجوامع^(٦):

(١) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.

(٢) الآيتان: ٧٨، ٨٢.

(٣) راجع: التفسير والمفسرون ١٨/١، ١٩.

(٤) التفسير والمفسرون ١٩/١ (بتصرف وإيجاز).

(٥) راجع: التفسير والمفسرون ١٩/١.

(٦) ج ٢/٥٦، والتفسير والمفسرون ١/٢٠.

«التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه دليل فصحيح، أو لما يظن دليلاً من الواقع ففساد، أو لا شيء فلعب لا تأويل».

«الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ»

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل. ولعل منشأ هذا الخلاف هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب^(١).

- ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد... ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وطائفة معه^(٢).

- ومنهم من فرق بينهما:

يقول الراغب الأصفهاني^(٣):

«التفسير أعم من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير من الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل. فالتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ «كالبحيرة»، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبين المراد وشرحه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ رَبُّكَ فِي الْكَافِرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ إِلَهِ يَاقُونََ إِلَّا إِلَهُ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عائماً، ومرة خاصاً، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة، و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجدة والوجد والوجود.

(١) التفسير. معالم حياة - ص ٦.

(٢) الإتيان ١٧٣/٢، التفسير والمفسرون ٢١/١ والإسرائيليات والموضوعات ٤٣.

(٣) التفسير والمفسرون ٢١/١، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن / السيد خليل ص ٢٩، نقلاً عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣ آخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

وقال «أبو طالب الثعلبي»^(١):

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرْصَادٌ﴾ [الفجر: ١٤] تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصدته: إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه».

وقال «البغوي»^(٢):

«التأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط.

والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: «التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية»^(٣)؛ يقول الكافيجي^(٤):

«... إن علم التفسير علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث إنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

تفسير: وهو ما لا يدرك إلا بالنقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية؛ ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية، ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول من الأول بلا نقل أو سماع خطأ، وكذا القول من الثاني بمجرد التشبي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يعد فضلاً وكمالاً».

وقد رجح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلل ذلك بقوله^(٥):

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به

(١) الإفتان ١٧٣/٢.

(٢) تفسير البغوي ١٨/١.

(٣) الإفتان ١٧٣/٢.

(٤) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.

(٥) التفسير والمفسرون ٢٣/١.

إلا إذا ورد عن رسول الله - ﷺ - أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله - ﷺ - ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك.

وهذا هو ما نميل إليه.

«حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّفْسِيرِ»

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة، فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله: ﴿قُلْ لِّیْ أَجْتَمَعَتْ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰی اَنْ یَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا یَأْتُوْنَ بِمِثْلِهٖ وَلَوْ کَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیْرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولا بسورة من مثله: ﴿قُلْ فَأَنّٰوْا یُسُوْرُوْا یَنْتَیْلِهٖ وَاَدْعُوْا مَنِ اسْتَقَلَّمْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ کُنْتُمْ صٰدِقِیْنَ﴾ [یونس: ٣٨].

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم؛ إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا، عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات... الخ.

﴿يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُوْرِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [٥٧].

[يونس: ٥٧].

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْاٰنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَزِيْدُ الظّٰلِمِيْنَ اِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضرر؛ ﴿قَالَ اٰمِیْنًا مِنْهَا جَمِیْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِنَّمَا یَاۤیْنُکُمْ مِّنْیْ هٰذِیْ فَمَنْ اَتٰبَعِ هٰذَاۗیْ فَلَا یَضِلُّ وَلَا یَشْقٰی﴾ [١٢٦] وَمَنْ اَعْرَضَ عَن ذِکْرِیْ فَاِنَّ لَہٗ مَعِیْشَةً ضَنْکًا وَنَحْشُرُہٗ یَوْمَ الْقِیَمَةِ اَعْمٰی ﴿١٢٧﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِیْ اَعْمٰی وَقَدْ کُنْتُ بَصِیْرًا ﴿١٢٨﴾ قَالَ کَذٰلِکَ اَنْتَکَ اٰیٰتُنَا فَنَسِیْنٰهَا وَکَذٰلِکَ الْیَوْمَ نُنٰسِیْ ﴿١٢٩﴾ [طه: ١٢٦ - ١٢٨ - ١٢٩].

وبه مخرج الأمة من أزماتها، ونجاتها من الفتن؛ يقول علي - كرم الله وجهه -:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَتَكُونُ فِتْنٌ، فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ - ﷺ -: «كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ تَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْفَهْزِلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَرْبِغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ أَفْلَحَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

- ولكي يكون معجزاً ويتأتى تحديه للبشر .
- ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً ومنهج حياة .
- ولكي يتدبر المؤمنون آياته^(١) .

ولكي يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة^(٢)؛ لكل هذا جاء القرآن عربياً .

وكان القوم - «عند نزوله - سواء من هو حجة له : من المؤمنين الصادقين، ومن هو حجة عليه، من الكافرين الجاحدين يفهمونه ويحيطون بمعانيه أفراداً وتركيباً، فيتلقون دعوته، ويدركون مواعظه، ويعمون تحديه بالإعجاز بين مذعنين، يقولون: آمنا به، ومعاندين يلحدون في آياته، ويمعنون في معارضته كيداً وَلِيًّا بالسُّتْهم وطعنًا في الدين .

«فما كان منهم مَنْ تَعَذَّرَ عليه فهمه، ولا مَنْ خَفِيَثَ عليه مقاصده ومعانيه، بل كان وضوح معانيه، ويسر فهمه، هو الأصل فيما قام حوله من صراع بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانسراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع آياته فلا يزال يدفعها بالإعراض والمعارضة، والدفاع والمقارعة، وكان ذلك هو الأصل أيضاً في تكون الأمة المحمدية، وتولد التاريخ الإسلامي»^(٣) .

يقول «ابن خلدون»^(٤) :

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه» .

وقد سبقه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال^(٥) :

«إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين... فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه، إلى النبي - ﷺ - أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص» .

إلا أن هذا الإطلاق يعارضه قول عمر بن الخطاب للرسول - ﷺ -^(٦) :

-
- (١) قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مِيزَانًا نَبْذُرُهُمْ فِي يَوْمٍ ذُكُرْتُمْ بِهِ...﴾ [ص: ٢٩] .
 - (٢) قال تعالى: ﴿وَرَوَّيْنَاهُ أَنْبِيَاءَ إِلَى رَبِّكَ قُلْتُمْ لَا عِزَّ لَنَا بَلْ أَصْحَابُنَا أَعَادُوا وَهُمْ أَشْجَعُ مِنْكَ وَنَبِيُّهُمْ كَاذِبٌ سَفِيهُ...﴾ .
 - (٣) التفسير ورجاله / محمد الفاضل ابن عاشور ص ٧ - ٨ .
 - (٤) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠ .
 - (٥) مجاز القرآن - ط ثانية - دار الفكر .
 - (٦) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٨٤/١ ط الحلبي تحقيق أبو الفضل، وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناد هذا الحديث، وإن صح فقد دل على أن النبي ﷺ قد عرف أسنة العرب .

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَأْتِينَا بِكَلَامٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَا نَعْرِفُهُ وَلَتَحْنُ الْعَرَبُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنْ رَبِّي عَلَّمَنِي فَتَعَلَّمْتُ، وَأُذِنَنِي فَتَأَذَّنْتُ».

كما يعارضه صريح القرآن؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

نعم، إن هناك ألفاظاً لم تستطع بعض القبائل العربية معرفتها، ربما لعدم استعمالهم لها، أو لاحتمال اللفظ عدة معانٍ، وكذا بعض آيات أشكل عليهم فهم معناها، وذلك كسؤالهم النبي - ﷺ - لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِسْمَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ يُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: وأينا لم يظلم؟ وفزعوا إلى النبي - ﷺ - فيبين لهم أن المراد بالظلم الشرك؛ واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عبيدة، لما كانت حاجة الصحابة إلى تفسير الرسول - ﷺ - لكن تفسير الرسول للقرآن قد ورد في الأحاديث الصحيحة، بياناً لمعنى لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تخصيصاً لعام، أو تقييداً لمطلق... إلخ.

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - حراساً على حفظ القرآن، وفهم معانيه، وفقه أحكامه.

قال أبو عبد الرحمن السلمي:

حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي - ﷺ - عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً».

وإذا كان العرب الخُلص الذين لم تعكر عربيتهم عجمة - يحتاجون إلى التفسير، فنحن أولى وأحوج، بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم؛ إذ صار البون بعيداً بين العرب والفصحى...

يقول السيوطي^(١):

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه

(١) الإتيان للسيوطي ٣٣٠/٢ والبرهان للزركشي ١٤/١.

(٢) الإتيان ٢٩٦/٢ - ٢٩٧.

من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير «إنما هي حاجة عارضة نشأت من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جداً: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب يختلف عن ترتيبه التعبدى؛ لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدى، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض... والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التعبدى فباق؛ لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابس من الجيل الذي كان معاصراً لنزول القرآن... وكان انقراض تلك الملابس الوقتية محوفاً إلى معرفتها معرفة نقلية تصوورية؛ ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتمت بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أن دلالات القرآن الأصلية، التي هي واضحة بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب - تتبعها معاني تكون دلالة التراكيب عليها محل إجمال أو محل إبهام؛ إذ يكون الترتيب صالحاً على التردد لمعان متباينة، يتصور فيها معناه الأصلي، ولا يتبين المراد منها؛ كأن يقع التعبير عن ذات بإحدى صفاتها، أو يكتفى عن حقيقة بإحدى خواصها، أو أحد لوازمها... فينشأ عن ذلك إجمال يتطلب بياناً، أو إبهام يتطلب تعييناً... ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجمات أو المبهمات أو المطلقات قد رجعوا إلى المبلغ - ﷺ - في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها، فتلقوا عندما أفادهم فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور الماثورة عن النبي - ﷺ - لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم...^(١).

وبذا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي؛ إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة

(١) التفسير ورجاله من ١٠ - ١٣.

التابعين إلى التفسير، ولا سيما ما رآه الصحابة وسمعوه من الرسول - ﷺ - ولم يتمكنوا هم من رؤيته ولا سماعه... ثم اشتدت حاجة تابعي التابعين.
وهكذا كلما بُعِدَ الناس عن عصر نزوله، زادت الحاجة إلى التفسير بمقدار ما زاد من غموض^(١).

فَهْمُ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

نزل القرآن عربياً على رسول عربي، وقوم عرب؛ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾ [الجمعة: ٢]، فكانوا أخبر بلغتهم، وفهموا القرآن حق فهمه، وقد يشكل عليهم فهم آية منه فيرجعون إلى القرآن نفسه، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً؛ وإلا رجعوا إلى النبي - ﷺ - ليفسر لهم ما أشكل عليهم...

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك بـ^(٢):

- ١ - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.
- ٢ - معرفة عادات العرب.
- ٣ - معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.
- ٤ - قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبدهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم، وبالتالي في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسير بينهم في تفسير القرآن الكريم.

ومن ذلك:

- ما روي من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]؛ لظنهم أنها مجرد إخبار وُسْرَى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نَعْيَ النبي - ﷺ - وقد كان مصيباً في ذلك؛ إذ لم يعيش النبي ﷺ بعدها إلا أحداً وثمانين يوماً؛ كما روي^(٣).

- وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال^(٤):

-
- (١) راجع التفسير والمفسرون / للذهبي ١٠١/١ - ١٠٢.
 - (٢) راجع التفسير والمفسرون ٥٩/١ وما بعدها.
 - (٣) الموافقات للشاطبي ج ٣/ ٣٨٤، التفسير والمفسرون ٦١/١، ٦٢.
 - (٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥١٩/٨، باب التفسير.

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله!»

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ [النصر: ١].

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره؛ إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أأذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله - ﷺ - أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّكَ تَوَّابٌ ۝﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

- وقال ابن عباس^(١):

«كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؟ حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتهَا، يقول: أنا ابتدأتها».

أَشْهُرُ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ

عد السيوطي عدداً من مفسري القرآن من الصحابة؟ ذكرَ منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول فالرواية عنهم في التفسير قليلة جداً، وذلك بسبب تقدم وفاتهم، ولانشغالهم بهام الخلافة^(٢).

١ - علي بن أبي طالب:

وأما علي - كرم الله وجهه - فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن؛ وذلك لأنه لم يشغل بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حتى نهاية عصر عثمان.

وكثرة مرافقته للرسول - ﷺ - وسكناه معه، وزواجه من ابنته فاطمة، إلى جانب ما

(١) الإتيان ١١٣/٢.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ٨٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ٦٤/١، ٦٥.

حياه الله من الفطرة السليمة... كل ذلك أورثه العلم الغزير، حتى قالت عائشة، رضي الله عنها^(١): «أَمَا إِنَّهُ لِأَعْلَمُ النَّاسِ بِالسُّنَّةِ» في زمن كان الصحابة - رضي الله عنهم - متوافرين.

وروى معمر، عن وهب بن عبد الله، عن أبي الطفيل، قال: «شهدت علياً يخطب وهو يقول: سَلَوْنِي، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟
قال: لا، والله لا أعلمه.

وقال ابن مسعود: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن»^(٢).

نموذج من تفسير علي - رضي الله عنه - للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْتُكُمْ زَادَهُ هُزُوءًا يَمْتَنَّ﴾ [التوبة: ١٢٤]: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً، ازداد ذلك البياض، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق، ازداد بذلك السواد، حتى يسود القلب كله، وإيم الله، لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود^(٣).

٢ - عبد الله بن مسعود:

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح، وقيل: «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مضر، يكنى بأبي عبد الرحمن، وأمه: أم عبد بنت عبد ود، من هذيل، وكان يقال له: ابن أم عبد.

أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، وكان سبب إسلامه: حين مرَّ به رسول الله - ﷺ - وأبو بكر - رضي الله عنه - وهو يرعى غنماً، فسألاه لبناً فقال: إني مؤتمنٌ، قال: فأخذ رسول الله - ﷺ - عناقاً لم ينز عليها الفحل، فاعتقلها، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص، فقلت: علمني من هذا الدعاء، فقال: إنك غلام معلم... الحديث^(٤).

(١) الاستيعاب ٣/ ١١٠٤، أسد الغابة ٤/ ٢٩.

(٢) راجع الإتيان ٢/ ٣١٩.

(٣) تفسير البغوي - ط المنار ٤/ ٢٧٣.

(٤) البداية والنهاية ٧/ ١٦٩، أسد الغابة ٣/ ٢٥٦ - ٢٦٠.

كان عبد الله من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرنهم له، وكان - ﷺ - يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَفْرَأَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: أَقْرَأْ عَلَيَّ سُورَةَ النِّسَاءِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَفْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزِلُ؟! قَالَ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، يَقُولُ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فَأَضَتْ عَيْنَاهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -^(١).

وكان - ﷺ - يقول:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَفْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أَنْزَلَ فَلْيَفْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»^(٢) وكان ابن مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم، يروي الطبري وغيره عن ابن مسعود أنه قال:

«كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، وعن مسروق قال^(٣): قال عبد الله بن مسعود:

«والذي لا إله غيره مَا نَزَّلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيهِمْ نَزَلَتْ، وَأَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنْي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

وطرق الرواية عن ابن مسعود متعددة، وأصح هذه الطرق ما جاء من^(٤):

١ - طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

٢ - طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ - طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود... وهذه الطرق الثلاثة أخرج منها البخاري في «صحيحه».

وهناك طرق أخرى كـ:

- طريق السدي الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود. أخرج منها الحاكم في «مستدركه» وابن جرير في «تفسيره» - كثيراً.

- طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود. وهي طريق غير مرضية، أخرج منها ابن جرير في «تفسيره» أيضاً، وهي منقطعة؛ لأن الضحاك لم يلتق ابن مسعود.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثيرون في الكوفة، وكان عمر - رضي الله عنه - لما ولي

(١) البداية والنهاية ١٦٩/٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٧/١.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الفضائل / باب مناقب عبد الله بن مسعود.

(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ٨٧/١، ٨٨.

عَمَّار بن ياسر على الكوفة، سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس الكوفيون إليه وتعلموا منه.

ويقول العلماء:

إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لطريقة الاستدلال، وقد أثرت هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فكثر التفسير بالرأي والاجتهاد^(١). وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ - أبي بن كعب:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد القراء^(٢). كنيته: أبو المنذر، أو أبو الطفيل.

شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدرأً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ -.

وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقرائه، قال فيه عمر بن الخطاب «أبي أقرؤنا»^(٣).

وهو أحد الذين تَلَمَّذَ عليهم «ابن عباس»؛ يقول ابن عباس^(٤):

«ما حدثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم، فأقبل على بابي، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظ؛ لمكاني من رسول الله - ﷺ - ولكني أكره أن أمله».

كان أبي يكتب في مصحفه أشياء ليست من القرآن الكريم مما يعد شرحاً، أو تفسيراً، أو سبباً للنزول، أو مما نسخ، وكان يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله - ﷺ -^(٥) فمن ذلك مثلاً: دعاء القنوت^(٦).

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله وذلك لعدة عوامل:

* أنه كان من كُتَّاب الوحي للرسول - ﷺ -.

(١) المصدر السابق ١/ ١٢٠.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ١٨٧، غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٣١. أسد الغابة ١/ ٤٩ - ٥١.

(٣) رواه البخاري، وانظر طبقات القراء للذهبي ٦/ ٦٢٩ وكذا شهد له النبي ﷺ.

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٧١.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٢٨.

(٦) راجع الإقنان ١/ ٦٦.

* أنه كان حبراً من أبحار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها .

وقد تعددت طرق الرواية عنه وأشهر هذه الطرق :

١ - طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي، وهي طريق صحيحة، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الحاكم منها في «مستدركه»، والإمام أحمد في «مسنده» .

٢ - طريق وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطُّفَيْل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في «مسنده»، وهي على شرط الحسن^(١) .

وتلاميذ أبي كثير منهم: أبو العالية، وزيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم . ويعد أبي بن كعب أستاذ مدرسة التفسير في المدينة .

٤ - عبد الله بن عباس: (٢)

هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم... يلتقي مع الرسول - ﷺ - في الجد الأول (عبد المطلب)، فهو ابن عم رسول الله .

ولد إبان المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها قريش على بني المطلب، أي: قبل الهجرة بثلاث سنوات .

لازم ابن عباس رسول الله - ﷺ - لكن الرسول توفي، ولابن عباس من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة .

وقد حظي ابن عباس بدعوة رسول الله له حين قال - ﷺ -: «اللَّهُمَّ، عَلِّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»، وفي رواية: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ» .

واستجيب دعوة الرسول - ﷺ - فكان عبد الله بن عباس «ترجمان القرآن»؛ يقول ابن مسعود:

«نعم ترجمان القرآن ابن عباس»، وذلك لبراعته في التفسير؛ كما لقب بالحبر، لغزارة علمه، وبالحبر كذلك .

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصحبة للرسول - ﷺ - فقد استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك .

(١) راجع التفسير والمفسرون ٩٢/١، ٩٣ .

(٢) بعض الكتب التي تترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجمته بعد الثلاثة السابقين لتقدمهم في السن عليه وحداثته بينهم .

يقول ابن عباس: ^(١)

«لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المراتين من أزواج النبي - ﷺ - اللتين قال الله فيهما: ﴿إِنْ تَوَبَّا إِلَى اللَّهِ...﴾ [التحریم: ٤]، لم أزل أتلف له حتى عرفت أنهما حفصة وعائشة».

ويقول:

«وجدت عامة حديث رسول الله - ﷺ - عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح، حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف».

لقد أخذ ابن عباس العلم عن رسول الله - ﷺ - أولاً؛ فكان الرسول يعلمه ويربيه؛ قال له يوماً:

«يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَخْفِظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَخْفِظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا أَسْتَعِثْتَ فَاسْتَعِثْ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقدير خاصٌ عنده، فكان يدينه من مجلسه رغم حداثة سنة - كما ذكرنا.

وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يعدون بمثابة شيوخه: عمر بن الخطاب، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت.

روى عبد الرزاق عن معمر قال ^(٢):

«عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر، وعلي، وأبي بن كعب».

وذكر ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عباس أنه ^(٣) «حفظ المحكم في زمن النبي - ﷺ -، ثم عرض القرآن على أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وقيل: إنه قرأ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

(١) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٢٢/١.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ٤١/١.

(٣) طبقات الفراء ٤٢٥.

لقد أوتي ابن عباس علماً غزيراً جعله أبرز المفسرين وأتمهم اصطلاحاً بالتفسير حتى إنه لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مدّعون لابن عباس، مسلّم له مقدّراته الموفقة، وموهبته العجيبة، وعلمه الواسع في تفسير القرآن^(١).

لقد امتلك ابن عباس أدوات المفسّر؛ فكان عالماً بأسرار العربية يحفظ الكثير من الشعر القديم، ويحثّ الناس على النظر فيه قائلاً^(٢):

«إذا تعاجم شيء من القرآن، فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي».

وهو القائل^(٣):

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً دار بين نافع بن الأزرق وابن عباس، فقال^(٤):

بيننا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجتريء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتيها بمصادقه من كلام العرب؛ فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّهِ﴾ [المعارج: ٣٧].

قال: العزّون: خلّق الرفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عبيد بن الأبرص، وهو يقول: [عن الوافر]

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مِثْبَرِهِ عِزِّيًّا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال: الوسيلة: الحاجة.

(١) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٦.

(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٧.

(٣) الإتيان ١/ ١١٩، غاية النهاية في طبقات القراء ٤٢٦.

(٤) الإتيان ١/ ١٢٠.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عترة وهو يقول: [من الكامل]

إِنَّ الرُّجَالَ لَهُمْ إِلَيْنِكَ وَسَيْلَةٌ إِنَّ يَأْخُذُوكَ تَكْخُلِي وَتَخْضِي
إلى آخر المسائل وأجوبتها^(١).

وهي إن دلت فإنما تدل على سعة علمه بلغة العرب، وقوة ذاكرته؛ مما جعله إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكة، وأول من ابتدع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.

طرق الرواية عن ابن عباس:

تعددت طرق الرواية عن ابن عباس، واختلفت تلك الطرق... وأشهر هذه الطرق وأصحبها^(٢):

١ - طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وتعد هذه الطريق من السلاسل الذهبية، وقد أخرج منها ابن جرير الطبري، وعبد الرزاق في «تفسيريهما».

٢ - طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح - وعن عكرمة أحياناً - عن ابن عباس، وقد أخرج منها عبد الرزاق في «تفسيره».

٣ - طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس... وقالوا:
إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد - رضي الله عنه -: «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في «صحيحه» فيما يعلقه عن ابن عباس».

٤ - طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(١) راجعها في الإتيان ١/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: الإتيان ٢/ ١٨٨، التفسير والمفسرون ١/ ٧٧، ٨٨، حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٨٢.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق...^(١).

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية:

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس؛ كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس؛ كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم...»^(٢).

قِيَمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ الصَّحَابَةِ

بعض المحدثين يعطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع، ومن هؤلاء الإمام الحاكم في «مستدرکه»؛ إذ يقول^(٣):

«ليعلم طالب الحديث: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند».

ولكن قيد «ابن الصلاح، والنووي» وغيرهما هذا الإطلاق بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه.

يقول ابن الصلاح^(٤):

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند؛ فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي - ﷺ - ولا مدخل للرأي فيه؛ كقول جابر - رضي الله عنه -: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها، جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٢٢٣] فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشمل على إضافة شيء إلى الرسول - ﷺ - فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا لم يكن للرأي فيه مجال، وأما ما يكون للرأي فيه مجال، فله حكم الموقوف.

(١) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ١٤٦ وما بعدها.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٥.

(٣) راجع: تدريب الراوي ص ٦٤، التفسير والمفسرون للذهبي ٩٤/١.

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤.

وما حكم عليه بالوقف :

قال بعض العلماء : لا يجب الأخذ به ؛ لأنه مجتهد فيه ، وقد يصيب وقد يخطئ .

وقال بعضهم : يجب الأخذ به ؛ لأنه : إما سمعه من الرسول ، وإما فسر برأيه ، وهم أدرى الناس بكتاب الله ، وهم أهل اللسان ، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال ، ولا سيما ما ورد عن الأئمة الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهم^(١) .

يقول الزركشي^(٢) :

«اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد . والأول : إما أن يرد عن النبي ﷺ ، أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين ، فالأول : يبحث فيه عن صحة السند ، والثاني : ينظر فيه تفسير الصحابي : فإن فسر من حيث اللغة ، فهم أهل اللسان ؛ فلا شك في اعتماده ، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن ، فلا شك فيه . . . » .

ويقول الحافظ ابن كثير^(٣) :

« . . . » . وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ؛ فإنهم أدرى بذلك ؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التأمل والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم ؛ كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، وعبد الله بن مسعود ، رضي الله عنهم . » .

مَدْرَسَةُ مَكَّةَ

تَلَامِيذُ ابْنِ عَبَّاسٍ

١ - سعيد بن جبیر :

هو^(٤) : سعيد بن جبیر بن هشام الأسدي ، مولی بني البثة ، یکنی بأبي محمد^(٥) ، أو بأبي عبد الله^(٦) . كان حبشي الأصل ، أسود اللون ، أبيض الخصال^(٧) .

(١) التفسير والمفسرون ص ٩٥ (بتصرف) .

(٢) البرهان ١٨٣/٢ .

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير / الجزء الأول .

(٤) ترجمته في : طبقات ابن سعد ٢٥٦/٦ ، تقريب التهذيب ٢٩٢/١ ، وفيات الأعيان ٢٠٤/١ ، تهذيب

التهذيب ١١/٤ ، البداية والنهاية ١٠٣/٩ ، الأعلام ١٤٥/٣ .

(٥) (٦) طبقات ابن سعد ، والبدایة والنهاية وغيرهما .

(٧) التفسير والمفسرون ١٠٤/١ .

هو أحد كبار التابعين، وإمام من أئمة الإسلام في التفسير، وكثرة العمل الصالح. كان في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً عالماً^(١).

أخذ العلم عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفل المزني، وغيرهم. وتخرج في مدرسة ابن عباس^(٢).

وكان ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟! يعني: سعيد بن جبير^(٣).

وكان يحب أن يسمع منه، قال له مرة: حَدِّثْ، فقال: أَحَدْتُ وَأَنْتَ هُنَا؟! فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك^(٤).

مكانته في التفسير: كان - رضي الله عنه - من أعلم التابعين بالقراءات؛ يقول إسماعيل بن عبد الملك^(٥): «كان سعيد بن جبير يُؤمّننا في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً».

وساعدته معرفته بالقراءات على معرفة معاني القرآن وأسراره، ومع ذلك كان يتورّع من القول في التفسير برأيه.

يروى ابن خلكان^(٦): «أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن، فغضب، وقال: لَأَنْ يَسْقُطَ شِقْيِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ».

وقد شهد له التابعون بتفوّقه في العلم، ولا سيما التفسير، قال قتادة^(٧): «وكان أعلم الناس أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

وقال سفيان الثوري^(٨): «خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر،

(١) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

(٣) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٥.

(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٧، ووفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.

(٥) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.

(٦) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٧) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

(٨) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

وعكرمة، والضحاك». وقال خُصَيْفٌ^(١): «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيّب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جُبَيْر».

نموذج من تفسيره: قال سعيد بن جبیر: السبع المثاني هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، قال: وسميت بذلك؛ لأنها بينت فيها القرائض والحدود^(٢).

قتله:

قتل - رضي الله عنه - سنة أربع وتسعين من الهجرة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صَبْرًا، وذلك: أن سعيد بن جبیر خرج على الخليفة مع ابن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث، وانهزم أصحابه من «دير الجماجم»، هرب سعيد، فلاحق بمكة، وكان واليها خالد بن عبد الله القسريّ، فأخذه وبعث به إلى الحجاج.

فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبیر.

قال: بل أنت شقي بن كسير. قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت، وشقيت أمك. قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا نارًا تَلْطَأُ. قال: لو علمت أن ذلك بيدك، لاتخذتكَ إلهًا.

قال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة وإمام الهدى.

قال: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أو هو في النار؟ قال: لو دخلتها وعرفتُ مَنْ فيها عرفتُ أهلها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: وأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار؟!

قال: فما بالتنا نضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يديه، فقال سعيد: إن كنتَ جمعتَ هذا لتتقي به مِنْ فَرَزٍ يوم القيامة فصالح، وإلا ففرزة واحدة تذهل كل مرضعة عما

(١) وفیات الأعيان ٢٠٤/١ - ٢٠٥.

(٢) تفسير الطبري ٣٣/١، ٣٤.

أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي - بكى سعيد، فقال: ما يبكيك أهو اللعب؟ قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم النفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تبعت معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد!! قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عُذْر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فردّه، وقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلّم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط، وقال: اقتلوه. فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين.

قال: وجهوا به لغير القبلة. قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دَعَا سعيد فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

وكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه، ويقول: يا عَدُوَّ الله، فيم قتلتي؟!!

فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير؟! ما لي ولسعيد بن جبير؟!^(١)

ذكر عن الإمام أحمد أنه قال^(٢): قتل سعيد بن جبير، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال: مفتقر - إلى علمه.

(١) انظر وفيات الأعيان ٢٠٥/١ - ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٧١ - ٧٣، البداية والنهاية ١٠١/٩ - ١٠٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٢٦٦/٦، وفيات الأعيان ٢٠٦/١، الأعلام ١٤٥/٣.

٢ - مجاهد بن جَبْرِ:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي، المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣هـ^(١).

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصة أصحاب ابن عباس، اشتهر بقوة حافظته، حتى قال ابن عمر وهو آخذ بركابه:

«وددت أن ابني سالمًا وغلامي نافعاً يحفظان حفظك»^(٢).

كان مجاهد شغوفاً بالعلم وخاصة التفسير. روى الفضل بن ميمون عن مجاهد، قال^(٣): عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

ويقول أيضاً^(٤): عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟

ولا تعارض بين الروایتين، فالأولى لتمام الضبط والتجويد، والثانية للعلم والتفسير.

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم: عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي سعيد، ورافع بن خديج... وروى عنه خلق من التابعين^(٥).

مكانته في التفسير: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قال سفيان الثوري^(٦): «إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فَحَسْبُكَ به».

وقال ابن تيمية^(٧): «ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم» غير أن بعض العلماء كان لا يأخذ بتفسيره؛ يقول أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش، ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو: ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟

قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب^(٨).

(١) طبقات ابن سعد ٤٤٦/٥، تهذيب التهذيب ٤٢/١٠، البداية والنهاية ٢٣٢/٩.

(٢)، (٣) ميزان الاعتدال ٩/٣.

(٤) تهذيب التهذيب ٤٢/١٠.

(٥) البداية والنهاية ٢٣٢/٩.

(٦) تفسير الطبري ٣٠/١.

(٧) مقدمة في أصول التفسير ص ٧ لابن تيمية.

(٨) طبقات ابن سعد ٤٦٦/٥، ميزان الاعتدال ٣٣٩/٣.

لكن هذا لا يقدح في صدقه وعدالته، فقد «أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به؛ وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة».

ثم إن سؤال أهل الكتاب أمر مباح - فيما لا يتعلق بحكم تشريعي - أباحه الرسول ﷺ^(١).

كان مجاهد - رضي الله عنه - يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مرَّ بنص قرآني من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحه ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مَبْدَأً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص^(٢).

نموذج من تفسير مجاهد: روى ابن كثير أن مجاهداً قال في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِيرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة: فالإسلام والقرآن والرسول والرزق، وأما الباطنة: فما ستر من العيوب والذنوب^(٣).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَبْذُفْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى، فهو من الظالمين^(٤).

٣ - عكرمة:

هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، يكنى بأبي عبد الله، أصله من البربر بالمغرب^(٥).

سمع من مولاه ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمر بن العاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم^(٦).

تَلَمَّذَ عَلَى يَدَيْ عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس لا يألو جهداً في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يقسو عليه حتى يعلمه؛ روى ابن أبي شيبة عن عكرمة قال^(٧): «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكَبَل يعلمني القرآن والسنة».

(١) يقول - ﷺ -: بلغوا عني ولو آية، وحذثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٨.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٧، وفيات الأعيان ١/ ٣١٩، البداية والنهاية ٩/ ٢٥٤، الأعلام ٥/ ٤٣.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/ ٢٨٧.

(٧) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥، والكَبَل: الفيد.

وروى البخاري في صحيحه، عن عكرمة؛ أن ابن عباس قال له^(١): «حَدَّثَ النَّاسُ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا تَمَلْ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَلَا الْفَيْنِكَ تَأْتِي الْقَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ، فَتَقْصُ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتَمْلِكُهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصَتْ، فَإِذَا أَمْرُكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهَوْنَ، وَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدَّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ؟ فَإِنِّي عَهَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ».

لقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتماماً كبيراً، وكأنه كان يُعَدُّه؛ ليكون خليفته في تفسير القرآن، وكان يكافئه إذا ما أحسن فهم آية أشكَّلت على ابن عباس.

روى داود بن أبي هند عن عكرمة قال:

قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿لَمْ يَعْطُوا قَوْلًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نَجَوْا، فكساني حلة^(٢).

قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر هذه الأمة»^(٣).

وقد شهد له الأئمة الأعلام بالثقة والعدالة:

قال المروزي: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم، يحتج به^(٤).

وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة وفي حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، فاتهمه على الإسلام^(٥).

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة^(٦).

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

علمه ومكانته في التفسير: كان عكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسير والمغازي.

قال سفيان، عن عمرو، قال^(٧): كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مُشْرِفٌ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصِفُونَ وَيَقْتُلُونَ.

(١) ميزان الاعتدال ٩٣/٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٢٨٨/٥.

(٣) ميزان الاعتدال ٩٣/٣، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٤) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٥) معجم الأدباء ١٨٩/١٢.

(٦) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٧) البداية والنهاية ٢٥٥/٩، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

وهو من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

أما التفسير: فقد شهد له الأئمة بذلك؛ يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة^(١).

وقال حبيب بن أبي ثابت: اجتمع عندي خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء؛ فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرهما لهما، فلما نفذ ما عندهما، جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا^(٢).

نموذج من تفسير عكرمة: قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّكُمْ فِتْنَةٌ أَنفُسُكُمْ﴾ الحديد: [١٤] أي: بالشهوات ﴿وَتَرْتَبَسُّمُ﴾ بالتوبة، ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي﴾ أي: التسويف ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الموت، ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ﴾ الشيطان^(٣).

وتوفي عكرمة - رضي الله عنه - بالمدينة سنة سبع ومائة للهجرة، وقيل: سنة أربع ومائة^(٤).

٤ - طاوس:

هو: طاوس بن كيسان الخولاني، أبو عبد الرحمن.

أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن^(٥).

أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، وروايته عن ابن عباس أكثر، وأخذه عنه في التفسير أكثر من غيره، ولهذا عُدَّ من تلاميذ ابن عباس، وجاء ذكره في مدرسته بمكة^(٦).

روى عنه خلق من التابعين؛ منهم: مجاهد، وعطاء، وعمرو بن دينار، وغيرهم^(٧). شهد له ابن عباس بالورع والتقوى؛ فقال: «إني لأظن طاوساً من أهل الجنة»^(٨). وطاوس

(١) البداية والنهاية ٢٥٥/٩.

(٢) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٣) البداية والنهاية ٢٥٩/٩.

(٤) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ - ٢٧٣، تذكرة الحفاظ ٩٠/١، البداية والنهاية ٢٥٣/١.

(٥) البداية والنهاية ٢٤٤/٩.

(٦) التفسير والمفسرون ١١٤/١.

(٧) البداية والنهاية ٢٤٥/٩.

(٨) تهذيب التهذيب ٩/٥.

ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كان طاوس - رضي الله عنه - جريئاً في الحق، لا يخشى فيه لومة لائم، روى الزهري^(١) أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمالٌ وكمالٌ، فقال: من هذا يا زهري؟

فقلت: هذا طاوس، وقد أدرك عدة من الصحابة، فأرسل إليه سليمان، فأتاه، فقال: لو ما حدثنا؟! فقال:

حدثني أبو موسى قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَلَمْ يَغْدِلْ فِيهِمْ»؛ فتغير وجه سليمان، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه إليه، فقال: لو ما حدثنا؟! فقال: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - قال ابن شهاب: ظننتُ أنه أراد علياً - قال: دعاني رسول الله - ﷺ - إلى طعام في مجلس من مجالس قُرَيْشٍ، ثم قال: «إِنَّ لَكُمْ عَلَى قُرَيْشٍ حَقًّا، وَلَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَقٌّ، مَا إِذَا اسْتَرْجَمُوا رَجَمُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا اتَّبَعْتُمُوهُ أَدَّوْا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»؛ قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه، وقال: لو ما حدثنا؟! فقال: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ آخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

علمه:

بلغ طاوس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا.

أنكر عليه سعيد بن جببر قوله عن ابن عباس: إن الخلع طلاقٌ، فلقبه مرة فقال له: «لقد قرأتُ القرآن قبل أن تولدَ، ولقد سمعته وأنت إذ ذاك هُمُكَ لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد: «كان طاوس فينا مثْلُ ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جداً، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقلة التفسير المأثور عنه، وطولِ بابه في الفقه، قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسر، وعده علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ مِنْ رَبِّكَ لِيُزَيِّنَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزَيِّنُوا عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية [الروم: ٣٩] «هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

(١) البداية والنهاية ٢٤٧/٩.

وقد توفي طائوس - رضي الله عنه - يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ، ووافته منيته وهو يحج بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وهو خليفة.

٥ - عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي مسيرة بن أبي حُثَيْم الفهري^(١).

سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة^(٢).

قال ابن سعد^(٣): سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أغور، أفتس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك.

وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد^(٤): ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حجَّ سبعين حجة، وعُمِّر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبير والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة؛ منهم: ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره. وروى عنه من التابعين عدة؛ منهم: الزهري، وعمر بن دينار، وقتادة، والأعمش، وغيرهم^(٥).

مكانته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إلي يا أهل مكة، وعندكم عطاء؟!^(٦).

وقال قتادة^(٧): كان أعلم التابعين أربعة: «كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

(١) طبقات ابن سعد ٥/٤٦٧، وفيات الأعيان ١/٣١٨، البداية والنهاية ٩/٣١٧، ٣١٨.

(٢) ميزان الاعتدال ٣/٧٠.

(٣) طبقات ابن سعد ٥/٤٩٦، البداية والنهاية ٩/٣١٨.

(٤) البداية والنهاية ٩/٣١٨.

(٥) البداية والنهاية ٩/٣١٨.

(٦) تذكرة الحفاظ ١/٩١.

(٧) طبقات ابن سعد ٥/٤٦٩.

لم يكن عطاء مكثراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تخرجه من القول بالرأي^(١).

قال عبد العزيز بن رفيع^(٢): سئل عطاء عن مسألة؟ فقال: لا أدري، ف قيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستجيبي من الله أن يدان في الأرض برأيي.

لكنه كان يدلي برأيه - أحياناً - في التفسير.

روى الطبراني - بسنده - عن يحيى بن ربيعة الصنعاني قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] قال: كانوا يقرضون الدراهم، قيل: كانوا يقصون منها ويقطعونها^(٣).

وقيل لعطاء: إن ههنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فما هذا الهدى الذي زادهم؟! قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّاهُ وَيُعِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] فجعل ذلك ديناً^(٤).

وتوفي رضي الله عنه سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة^(٥).

وبعد:

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها جبر الأمة عبد الله بن عباس، وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يدي ابن عباس، وفي نهاية مطافنا معها نرصد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هب لها هذا الدور: نبوغ شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيئ الحرام الذي يأتيه الناس من كل فج عميق.

* لم يكتف شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ الأهمية خارج مكة؛ فقد كان لسعيد بن جبير رحلة إلى الري، نشر فيها الكثير من العلم^(٦)، وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاوس باليمن ينشر هناك علم

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨، ٣١٩.

(٥) المصدر نفسه ٩/ ٣١٧.

(٦) راجع: جبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٤٥.

ابن عباس وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً؛ إذ رحل إلى خراسان، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرمين^(١).
جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

مَدْرَسَةُ الْمَدِينَةِ تَلَامِيذُ أَبِي بَنِي كَعْبٍ

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب - رضي الله عنه - فهو أستاذها وأشهر مفسريها.

وكان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها، فجلسوا إلى «أبي» يعلمهم كتاب الله وسنته، ومن أشهر هؤلاء:

١ - أبو العالية:

هو: زياد، وقيل: رُقَيْعُ بْنُ مَهْرَانَ الرِّياحِي، مولاهم^(٢).
مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي - ﷺ - بستين.
روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم.
كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة.
كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال: «قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين».
وقال: «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات».
وقال فيه ابن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».
رويت عنه نسخة كبيرة في التفسير، رواها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي، وهو إسناده صحيح.
توفي سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال.

٢ - محمد بن كعب القرظي:

هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، المدني، أبو حمزة، أو أبو عبد الله، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة؛ منهم: علي، وابن مسعود، وابن عباس،

(١) راجع: وفیات الأعيان ٣١٩/١، معجم الأدباء ١٢/١٨١، البداية والنهاية ٩/٢٥٤.
(٢) راجع: تهذيب التهذيب ٣/٢٨٤ - ٢٨٥، ومقدمة فتح الباري ص ٤٢٢، وانظر: التفسير والمفسرون ١/١١٦، ١١٧.

وغيرهم. وروي عن أبي بن كعب بالواسطة^(١).

قال فيه ابن سعد^(٢): كان ثقة، عالمًا، كثير الحديث، ورعًا. وهو من رجال الكتب الستة.

قال فيه ابن عون^(٣): ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

نموذج من تفسيره^(٤): قال في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] اصبروا: على دينكم، وصابروا: لوعدكم الذي وعدتم، ورابطوا: عدوكم الظاهر والباطن، واتقوا الله: فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون: إذا لقيتموني.

توفي سنة مائة وثمان من الهجرة^(٥)، وقيل بعد ذلك.

٣ - زيد بن أسلم:

هو^(٦): زيد بن أسلم العدوي، المدني، الفقيه، المفسر. أبو أسامة أو أبو عبد الله.

كان أبوه مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا القول بالتفسير.

قال فيه الإمام أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي: «ثقة». وهو عند أصحاب الكتب الستة.

عرف بغزارة العلم. كان يقرأ القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك؛ إذ يرى جواز التفسير بالرأي.

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة، وقيل غير ذلك.

(١) البداية والنهاية ٢٦٨/٩ وما بعدها.

(٢)، (٣) راجع: التفسير والمفسرون ١١٧/١، والإسرائيليات والموضوعات ٩٨.

(٤) البداية والنهاية ٢٦٨/٩.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) تهذيب التهذيب ٣/٣٩٥ - ٣٩٧، راجع: التفسير والمفسرون ١١٨/١، ١١٩.

مَدْرَسَةُ الْعِرَاقِ تَلَامِيذُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وغيره، إلا أن ابن مسعود هو أشهر أساتذتها، أو هو أستاذها الأول؛ لطول باعه في هذا الميدان، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين ولي عَمَّار بن ياسر على الكوفة سَيَّرَ معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس إليه أهل الكوفة، وأخذوا عنه أَكْثَرَ من غيره.

ومن أهم سمات هذه المدرسة: شيوع طريقة الاستدلال فيها؛ نظراً لأن أهل العراق عرفوا بأنهم أهل الرأي، وقد وضع حجر الأساس لهذه الطريقة عبد الله بن مسعود^(١).
ومن أشهر رجال هذه المدرسة:

١ - علقمة بن قيس:

هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، أبو شبل، النخعي، الكوفي.
كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم. وكان يشبه بابن مسعود، وكان أعلم أصحابه بعلم ابن مسعود^(٢).
قال عثمان بن سعيد: «قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يُخَيَّر، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله».
وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه.

قال فيه الإمام أحمد: «ثقة من أهل الخير». وهو عند أصحاب الكتب الستة.
مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة اثنتين وستين، عن تسعين سنة^(٣).

٢ - مسروق:

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة.
سأله عمر يوماً عن اسمه؟ فقال له: اسمي مسروقُ بنُ الأجدع، فقال عمر: الأجدعُ

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز).

(٢) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٦ - ٢٧٨، البداية والنهاية ٨/ ٢١٩.

(٣) راجع المصدرين السابقين.

شيطاناً، أنت مسروق بن عبد الرحمن^(١).

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم.

وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه؛ قال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، يعني: ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل؛ فقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة. وله أحاديث صالحة، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

توفي - رضي الله عنه - سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر^(٢).

٣ - عامر الشعبي:

هو: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، أبو عمرو، قاضي الكوفة^(٣).

كان علامة أهل الكوفة، إماماً حافظاً، ذا فنون.

وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم؛ ومنهم: عمر، وعلي، وابن مسعود، وإن لم يسمع منهم، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة.

والشعبي ثقة؛ فهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حبان في «الثقات»: كان فقيهاً شاعراً.

وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاوساً، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين.

(١) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ - ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ - ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٥/٦٥ - ٦٩، البداية والنهاية ٩/٢٣٩ - ٢٤٠.

وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حَلَقَةٌ، وأصحاب رسول الله - ﷺ - يومئذٍ كثير^(١).

ومع أنه قد أوتي هذا الحَظُّ الوافر من العلم، لم يَكُنْ جريئاً على كتاب الله حتَّى يقول فيه براه؛ قال ابن عطية^(٢): كان جلة من السلف؛ كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن، ويتوقَّفون عنه؛ تورَّعاً، واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم. توفي سنة أربع ومائة من الهجرة^(٣)، وقيل: سنة تسع ومائة.

٤ - الحسن البصري:

هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى الأنصار، وأمه: خَيْرَةُ مولاة أم سلمة زوج النبي - ﷺ - رُبِّيَ في حجرها، وأرضعته بلبانها، فعادت عليه بركة النبوة^(٤).

ولد لستين بَقِيَّةً من خلافة عمر بن الخطاب.

وهو أحد كبار التابعين الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً، شهد له بالعلم خلق كثير.

قال أنس بن مالك: «سلوا الحسن؛ فإنه حفظ ونَسَبِينَا»، وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخُ أهل البصرة»، وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال: «ما جالست فقيهاً قط إلا رأيتُ فضْلَ الحسن عليه».

وكان أبو جعفر الباقر يقولُ عنه: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»^(٥).

وقد التزم الحسن البصري بمنهجه السلفي في تفسير الآيات المتعلقة بالله وصفاته، ولم يمنعهُ هذا الالتزام من حرية العقل حين تعرَّض لغيرها؛ يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القدر: ٤٩] قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، وهذه هي عقيدة السلف التي بنوها على ما تعلق بالآية من سبب لنزولها؛ فعن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي - ﷺ - يخاصمونهُ في القَدَرِ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

(١) راجع لهذه الأقوال: تهذيب التهذيب، البداية والنهاية، والتفسير والمفسرون.

(٢) مقدمة تفسير القرطبي ١/٣٤.

(٣) البداية والنهاية ٩/٢٣٩.

(٤) تهذيب التهذيب ٢/٢٣٣ - ٢٧٠، البداية والنهاية ٩/٢٨٠، الحسن البصري للإمام أبي الفرج بن

الجوزي - هدية مجلة الأزهر / محرم ١٤٠٨ هـ.

(٥) تهذيب التهذيب ٢/٢٦٣.

وكان الحسن يعمل عقله وفكره في فهم القرآن وتفسيره؛ يقول في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ﴿٢٣﴾ [التبا: ٢٣]:

«إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: لاثنين فيها أحقاباً، فوالله، ما هو إلا أنه إذا مضى حقب، دخل آخر، ثم آخر... إلى الأبد؛ فليس للأحقاب عدة إلا الخلود» ^(٢).
وتوفي رحمه الله سنة عشر ومائة من الهجرة، عن ثمان وثمانين سنة.

٥ - قتادة:

هو: قتادة بن دعامة السدوسي، الأكمه، أبو الخطاب، عربي الأصل، كان يسكن البصرة.

أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، روى عن: أنس بن مالك، وجماعة من التابعين؛ منهم: سعيد بن المسيب، وأبو العالية، وزارقة بن أوفى، وعطاء، ومجاهد، وابن سيرين، ومسروق، وأبو مجلز، وغيرهم ^(٣).

وحدث عنه جماعات من الكبار؛ كالأعمش، وشعبة، والأوزاعي، وغيرهم.
وكان قوي الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب.
كان قتادة على مبلغ عظيم من العلم؛ فضلاً عما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى؛ وقد شهد له بذلك كبار التابعين والعلماء.

قال فيه سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقي أحسن من قتادة».
وقد استخدم قتادة معرفته باللغة العربية في التفسير، وأعمل فكره في تفهم الآيات، بجانب روايته عن السلف.

وقد توفي - رضي الله عنه - سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة، عن ست وخمسين سنة على المشهور، وقيل: سنة خمس عشرة ومائة ^(٤).
وبعد:

فهذه هي مدارس التفسير المشهورة في عصر التابعين، الذين تلقوا غالب أقوالهم في

(١) البغوي الفراء ٢٢١.

(٢) البغوي الفراء ٢٢٢.

(٣) وفيات الأعيان ١٧٩/٢، البداية والنهاية ٣٢٦/٩، تهذيب التهذيب ٣٥١/٨.

(٤) راجع: تهذيب التهذيب ٣٥١/٨ - ٣٥٦، البداية والنهاية ٣٢٥/٩، ٣٢٦.

التفسير عن الصحابة، وبعضهم استعان بأهل الكتاب، ثم اجتهدوا مستعينين على ذلك بما بلغوا من العلم ودقة الفهم، وقرب عهدهم من الرسول - ﷺ - والعرب الخالص، فلم تفسد سليقتهم.

وهناك مدارس أخرى غير هذه المدارس الثلاث، ولكنها لم ترق لشهرة هذه الثلاث. ومن هذه: مدرسة مصر التي اشتهر من شيوخها: يزيد بن حبيب الأزدي، وأبو الخير مرثد بن عبد الله، وغيرهما.

ومدرسة اليمن التي أرسى دعائمها طاوس بن كيسان، وكان من أشهر شيوخها: وهب بن منبه الصنعاني.

وهكذا بذل هؤلاء التابعون جهداً ضخماً في حمل الأمانة عن الصحابة، ثم جاء تابعوا التابعين؛ ليكملوا المسيرة، وظلَّت تتوارث حتى وصلَّت إلينا، فجزى الله كلُّ مَنْ أسَّهَمَ في هذا العلم خير الجزاء، ونفعنا الله بالقرآن وعلومه.

قِيَمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ التَّابِعِينَ

تفسير التابعي: إما أن يكون مأثوراً عن النبي - ﷺ، أو عن صحابته، أو لا: فإن كان مأثوراً عن النبي يأخذ حكم تفسيره - ﷺ، وكذلك إن كان مأثوراً عن الصحابة.

وإن لم يكن مأثوراً عن النبي، ولا عن الصحابة، فقد اختلف العلماء في الرجوع إليه، والأخذ بأقوال التابعين فيه:

* فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال^(١): ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيّرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

* ونقلوا عن الإمام أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بعدم القبول^(٢).

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعين؛ لأنهم لم يسمعوا من النبي - ﷺ - بخلاف تفسير الصحابة الذين سمعوا من النبي - ﷺ - وشاهدوا القرائن والأحوال.

وأكثر المفسرين على الأخذ بأقوال التابعين؛ لأنهم تلقوا على أيدي الصحابة؛ كما سبق أن ذكرنا.

(١) راجع: التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

والرأي الذي نرجّحه ونميل إليه هو ما ذكره ابن تيمية، قال^(١):

«قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة؛ فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على مَنْ بعدهم، ويُزَجَّع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك».

سِمَاتُ التَّفْسِيرِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ

اتسم التفسير في تلك المرحلة بعدة سمات؛ من أبرزها^(٢):

* أنه اعتمد على التلقي والرواية، وغلب على التلقي والرواية طابع الاختصاص، فكان لكل بلد مدرسته وأستاذه، فمكة أستاذها ابن عباس، والمدينة أستاذها أبي بن كعب، والعراق أستاذه ابن مسعود... وهكذا.

* دخول أهل الكتاب في الإسلام كان سبباً في تسلسل الدخيل إلى علم التفسير، وقد تساهل التابعون في النقل عنهم - فيما لا يتعلق بالأحكام الشرعية - بدون تَحَرُّ و تَقَدُّ، وأكثر من رَوَيْ عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب:

عبد الله بن سَلَامَ، وكعب الأحبار، وهب بن منبه، وغيرهم.

* كان بدهياً أن يختلف التابعون في التفسير؛ نظراً لتعدددهم وكثرتهم واختلاف مدارسهم التي تخرّجوا فيها، ولكنه خلاف ليس بالكثير، إذا ما قيس بالعصور اللاحقة.

* كما ظهرت نواة الخلاف المذهبي؛ إذ ظهرت بعض التفسيرات تحوُّل في طياتها بذوراً لتلك المذاهب.

التَّفْسِيرُ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ

تبدأ هذه المرحلة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي؛ إذ انتشر التدوين بصورة واسعة، وعني العرب «بتدوين كل ما يتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُيِّنَتْ بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث النبوي، وتلقي

(١) مقدمة في أصول التفسير / ابن تيمية ٢٨ - ٢٩، الإتيان في علوم القرآن ١٢٩/٢.

(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/١٣١، ١٣٢.

الناس الفقه وشئون التشريع، وكان كثير من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمونه... (١).

تدوين التفسير: اُخْتُلِفَ في أول من أُلِفَ تفسيراً «مكتوباً»، فبعضهم يذكر أن «عبد الملك بن جُرَيْج» (٢) [ت ١٤٩هـ] هو أول من أُلِفَ تفسيراً مكتوباً.

وذكر ابن النديم: أن أبا العباس ثعلباً قال: كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بُكَيْرٍ كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضرنني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه، فَعَلْتُ، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أُملي عليكم كتاباً في القرآن... فقال الفراء لرجل: اقرأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل وفسر الفراء، قال أبو العباس: «لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه».

وبذلك يكون ابن النديم قد عد «الفراء» أول من أُلِفَ تفسيراً للقرآن مدوناً.

ولكن ابن حجر يذكر أن التفسير المدون كان قبل الفراء وقبل ابن جريج؛ إذ يقول (٣):

«وكان عبد الملك بن مروان [ت ٨٦هـ] سأل سعيد بن جبير [ت ٩٥هـ] أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير».

ويبدو أنه من الصعب تحديد أول من فسر القرآن تفسيراً مدوناً على تتابع آياته وسوره كما في المصحف.

أَقْسَامُ التَّفْسِيرِ

وظل الخلف يحمل رسالة السلف جيلاً بعد جيل، حتى وصلت مسيرة التفسير إلى تابعي التابعين، وهنا تعددت اتجاهات التفسير إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية، هي:

-
- (١) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.
 - (٢) هو عبد الملك عبد العزيز بن جريج، أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاهم، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠هـ، توفي سنة ١٤٩هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع طبقات ابن سعد.
 - (٣) تهذيب التهذيب ١٩٨/٧.

أولاً - الاتجاه الأثري (التفسير بالمأثور):

والمأثور: اسم مفعول من أَثَرْتُ الحديث أثراً: نقلته، والأثر اسمٌ منه، وحديث مأثور، أي: منقول^(١).

وعلى ذلك: فهو يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى - في القرآن الكريم - والمنقول عن النبي ﷺ، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين.

وجُلّ الذين يكتبون عن تاريخ التفسير ويتحدثون عن الاتجاه الأثري يَبْذُوهُ بالطبري، فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني؛ لأن تفسير ابن جرير الطبري أُلْفَ في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع... وبالوقوف على هذه الحلقة - وهي إفريقية تونسية - يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جُرَيج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مَدِيناً له بذلك المنهج الأثري النظري الذي دَرَجَ عليه في تفسيره العظيم.

ذلك التفسير هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ويعد صاحبه مؤسس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري الذي صار بعده «ابن جرير الطبري» واشتهر بها.

ذلك هو تفسير «يحيى بن سَلَام» التميمي، البصري، المتوفى سنة ٢٠٠هـ، ويقع في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار، وكان يبني اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي... وتوجد من هذا التفسير نسخة بتونس^(٢).

ويعد ابن جرير الطبري ربيب تلك الطريقة، طريقة يحيى بن سلام، وثمره غرسه، وقد ذكر السيوطي عدداً من مفسري هذا الاتجاه الأثري منهم:

- * يزيد بن هارون ت ١١٧ هـ.
- * شعبة بن الحجاج ت ١٦٠ هـ.
- * وكيع بن الجراح ت ١٩٧ هـ.
- * سفيان بن عيينة ت ١٩٨ هـ، وغيرهم.

(١) المصباح المنير (أثر)، الإسرائيليات والموضوعات (أبو شهبة ص ٦٤).

(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ٢٧.

«ابن جرير الطبري»^(١):

لكن التفسير حين انتهى إلى الطبري في أوائل القرن الثالث الهجري «كان نهراً مزبداً، ذا ركام ورواسب، قد انصب إلى بحرٍ خَضَمَ عُتَابٌ، فامتزج بمائه، وتشرَّب من عناصره، وصفاً إليه من زبده، وتظهر لديه من ركامه ورواسبه»^(٢).

«وابن جرير» فقيه، عالم، تبخَّر في فنون شتَّى من العلم، فهو أحد المشاهير من رجال التاريخ، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوك» فيه مرجع المراجع، وبه صار إمام المؤرخين غير منازع.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام؛ يقول الخطيب البغدادي^(٣):

«جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنَّف أحد مثله...».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير، فاستخدمها بمهارة وحذق، ومن هنا عُذَّ تفسيره ذا أولية بين كتب التفسير: أولية زمنية، وأولية من ناحية الفنية والصياغة، أما أوليته الزمنية: فلأنه أقدم كتاب في التفسير وَصَلَ إلينا، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذَهَبَتْ بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شيءٌ منها، اللهم إلا ما وَصَلَ إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نَحْنُ بصده^(٤).

وأما أوليته من ناحية الفنِّ والصياغة: فذلك أمر يرجع إلَيَّ ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البدعية التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته^(٥).

طريقة الطبري في التفسير:

حين يفسر الطبري آيةً يَضَعُ لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه...» ثم

(١) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين.

(٢) التفسير ورجاله ص ٣٠.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٥٦.

(٤) هذا على اعتبار فقد تفسير «يحيى بن سلام» الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل ابن عاشور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس، فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٥) التفسير والمفسرون ١/٢٠٥.

يقول: يعني تعالى بذلك... ويستشهد على التفسير بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، عارضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب، مستشهداً بالشعر العربي على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه.

وقد يَغْرُضُ أقوال الصحابة والتابعين، إذا تعدّدت في الآية الواحدة، ثم لا يكتفي بمجرد الغرض، وإنما يرجح رأياً على رأي بقوله^(١):

«وأولى الأقوال عندي بالصواب...»، أو: «وقال أبو جعفر: والصواب من القول في هذه الآية...»، أو: «وأولى التأويلات بالآية...»، ثم يؤيد رأيه بقوله: «وبمثل الذي قلنا قال أهل التأويل...»، أو بعرض حجج وأدلة، قائلًا: «وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية؛ لأن...».

وقد عني ابن جرير بالقراءات عناية كبيرة، ولا غرو، فهو من علماء القراءات المشهورين، وله فيها مؤلف، إلا أنه ضاع ضمن ما ضاع من التراث العربي القديم. كما اهتم الطبري بالشعر القديم؛ ويستشهد به على الغريب، وهو في ذلك تابع لابن عباس.

كما كانت له عناية بالمذاهب النحوية البصرية والكوفية، يورد الرأي ويوجهه. ويورد بعض الأحكام الفقهية في تفسيره؛ مختاراً لأحد الآراء، مؤيداً اختياره بالأدلة العلمية القيمة^(٢).

رحم الله الطبري وجزاه عن القرآن وتفسيره خير الجزاء.

ثانياً: الاتجاه اللغوي:

وقد بدا هذا الاتجاه واضحاً في أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث؛ إذ نشأ علم النحو، ونَصِبَتْ علوم اللغة على أيدي الرواد؛ أمثال: أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وغيرهم.

وكان الغرض الأسمى من تأصيل هذه العلوم وتقعيدها خِدمة القرآن الكريم؛ صيانة له من اللحن، ولا يبيّنا بعد اتصال العرب بالعجم.

وقد أثرت هذه الدراسات في تفسير القرآن تأثيراً كبيراً؛ إذ اشتغل اللغويون أنفسهم بالقرآن ولغته، وكان من أشهر هؤلاء العلماء «أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى» المتوفى سنة

(١) راجع: تفسير الطبري.

(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٢ - ٢١٨.

٢٠٨هـ أو ٢١٥هـ، وقد ألف كتابه «مجاز القرآن» سنة ١٨٨هـ^(١)، ويعد هذا الكتاب أقدم مؤلف في معاني القرآن وَصَلَ إلينا.

وأبو عُبَيْدَةَ موسوعةٌ علميةٌ له مؤلفات في مجالات شتى، وقد «أوتي لساناً صارماً جَلَبَ على نفسه عداوات كثيرة، ثم تنفَّسَ به العمر قرابة قرن كامل زَامَلَ فيه أعلاماً كباراً، وجادل خصوصاً كباراً، وشهد تلاميذه وَمَن في طبقتهم يجادلون عنه، ويجادلون فيه، فحرب وبعاد، وواصل وقاطع، ولكن مخالفه كانوا من الكثرة بحيث أرهقوه وضايقوه، حتى جاءه الأجل فلم ينهض لتشيع جنازته أَحَدٌ، وعُلِّلَ ذلك بما ترك من خَزَائِنِ أدبيه»^(٢).

ويحكي أبو عبيدة سبب تأليفه كتاب «مجاز القرآن» فيقول:

«أرسل إليَّ الفَضْلُ بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فَقَدِمْتُ إلى بغداد واستأذنت عليه، فأذِنَ لي، فدخلتُ عليه وهو في مجلس له طويل عريض، فيه بساطٌ واحدٌ قد ملأه، وفي صدره فُرْشٌ عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها فَسَلَّمْتُ عليه بالوزارة، فَرَّدَ وَضَحَكَ إليَّ، واستدنانني حتى جلستُ إليه على فرشة، ثم سألني والطفتني وباسطني، وقال: أنشدني فأنشدته، فَطَرَبَ وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجلٌ في زِيِّ الكُتَّابِ له هَيْئَةٌ، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرفُ هذا؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة عَلَامَةُ أهل البصرة، أقدمناه؛ لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرطه لفعله هذا، وقال لي: إني كنتُ إليك مشتاقاً، وقد سألتُ عن مسألة، أفأذنُّ لي أن أعرفَكَ إياها؟ فقلت: هاتِ، قال: قال الله عز وجل: ﴿طَلَّمَهَا كَأَنَّ مِوْصَ الشَّيْطَانِ﴾ [الصفات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعاذ بما عَرِفَ مثله، وهذا لم يُعْرَفْ! فقلت: إنما كلم الله تعالى القَرَبَ على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس: [من الطويل]

أَيْقِثْلُنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْئُونَةُ زُرُقٍ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ
وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أَوْعَدُوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسن السائل، وعزمتُ مِنْ ذلك اليوم أن أضَعُ كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه؛ فلما رجعت إلى البصرة، عَمِلْتُ كتابي الذي سميته «المجاز»، وسألت عن الرجل السائل، فقبل لي: هو من كُتَّابِ الوزير وجلسائه، وهو إبراهيمُ بْنُ إسماعيلَ الكَاتِبِ»^(٣).

(١) معجم الأدباء ١٩/١٥٨.

(٢) خطوات التفسير البياني د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: معجم الأدباء ١٩/١٦٠.

(٣) معجم الأدباء ١٩/١٥٨.

وبعض العلماء ينكر هذه القصة؛ لأن أبا عبيدة لم يُشِرْ إليها في مقدمة كتابه... (١).

ومن الذين كتبوا عن اتجاهات التفسير مَنْ يُسَلِّكُ أبا عبيدة - من خلال كتابه هذا - في سلك الاتجاه البياني في التفسير، وأكثرهم يعدّه رائداً في الاتجاه اللغوي.

على أن أبا عبيدة لم «يغني بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية: مَا يُعْبَرُ بِهِ عَنِ الْآيَةِ» (٢).

فقد يستعمل أبو عبيدة لفظ المجاز قاصداً به معنى اللفظ، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِنِعْمَتِكَ﴾ [النمل: ١٩] يقول: مجازه: «شدّني إليك، ومنه قولهم: وَزَعْنِي الْجُلُمُ عَنِ السَّفَاهِ، أي: منعني، ومنه: الوزعة الذين يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء، ثم يستشهد بالبيت: [أمن الطويل]

عَلَى جِوْنٍ عَانَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا فَقُلْتُ: أَلَمَّا تَضَعُ وَالشَّيْبَ وَازِعٌ» (٣) وأما أبو زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ، فكان يستعين بتفسيرات السلف مضيئاً له ما أدّى إليه اجتهاده اللغوي، وكذا الزّجاج المتوفى سنة ٣١١هـ (٤).

لقد استلهم الفراء الحسن اللغوي محكماً ذوقه وعقله، كما راعى السّياق العام في الآية؛ ولذا نجده يفضل قراءة تُحَقِّقُ التجانس بين الكلمات المتجاورات على غيرها (٥).

ثالثاً: الاتجاه البياني (٦):

ويذور هذا الاتجاه نجدها في تفسير ابن عباس المبيّث في ثنایا التفسير الأثري، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَبُودُ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةً مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ صُغَاهُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاقْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، أن عمر - رضي الله عنه - سأل الناس عن هذه الآية؟ فما وجد أحداً يشفيه، حتى

(١) راجع خطوات التفسير البياني ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب البيومي أسباباً أخرى ومبررات لرفض هذه القصة.

(٢) فتاوى ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٩٢/٢، ٩٣.

(٤) راجع البيهقي الفراء ص ٢٣٨.

(٥) راجع البيهقي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٦) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهاً ثالثاً بدلاً من هذا الاتجاه يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»، وبعضهم يسلك هذا الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٦.

قال ابن عباس، وهو خَلْفُهُ: يا أمير المؤمنين، إني أجدُ في نفسي منها شيئاً، فَتَلَقَّتُ إليه، فقال: تحوّل ههنا، لِمَ تَحْقِرُ نفسك؟! قال: هذا مثل ضربه الله - عزّ وجل - فقال: أيودُ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أخرج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فُتِيَ عمره، واقترب أجله، حَتَمَ ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرَقَهُ أَحْوَجُ ما كان إليه^(١).

وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد أُلْمِعَ إليه ابن عباس بقوله المُقَارِب: هَذَا مَثَلُ ضَرْبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... إلخ، وهل قال البلاغيون فيما بَعْدُ غَيْرَ ذلك؟!^(٢).

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه، وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهد»^(٣).

وأما تأسيسُ هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عُبَيْدَةَ» صاحب «مجاز القرآن»، وبعد صاحب الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

وفضل هذا الكتاب في الدراسات البلاغية أنه جِئَ تعرّضَ للنصوص القرآنية، أشارَ إلَيَّ ما تدلُّ عليه من حقيقة أو مثَلٍ أو تشبيه أو كناية، وما يتضمَّن من ذكر أو حذف، أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن... وإذا كان عبد القاهر أظهرَ مَنْ نَادَى من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية «النظم»، فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأى في زمنه السابق ما رآه صاحب «الدلائل» في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائد الأول لعلم المعاني عند من يلتصقون الجذور الضاربة في الأعماق^(٤).

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المصحف؛ ومن هنا صار من اليسير أن يرجع الدارس إلى ما ذكر أبو عُبَيْدَةَ في توجيه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى: ﴿يَسَاءَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَنْتُمْ حَرِّكُمْ أَمْ تُنْفِثُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] حيث قال: إنها كناية وتشبيه^(٥).

ومن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسْفَسَ بِتَسْفِئِهِ عَلَى نَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْكَسَ بُتُكُنْهُ عَلَى شَفَا حَرْفٍ مَسَارٍ فَأَتَاهَا بِيَدِهِ فَأَرَاهُ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] حيث أتبع الآية بتحليل بياني، وعُدَّهَا من مجاز التمثيل، حين قال:

(١) تفسير ابن جرير ٤٧/٣.

(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.

(٣) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في خطوات التفسير البياني ص ٣٤ وما بعدها.

(٤) خطوات التفسير البياني ص ٤٦، ٤٧.

(٥) راجع: مجاز القرآن ٧٣/١.

«ومجاز الآية مجازُ التمثيل؛ لأن ما بَنُوهُ على التقوى أَثْبَتُ أساساً من البناء الذي بَنُوهُ على الكفر والنفاق، فهو على شفا جُرُفٍ، وهو ما يجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه^(١)».

تلك هي الخطوة الأولى خطأها أبو عبيدة في التفسير البياني للقرآن الكريم، وإن وُجِّهَتْ إليه كثيرٌ من النقود والمطاعن من علماء كبار؛ أمثال الفراء، والأصمعي، والطبري^(٢).

ثم تَلَتْ هذه الخطوة خطوات الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما.

التفسير بغير المأثور (بالرأي)

المراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد موقفاً، أي: مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة - فالتفسير به محمود وإلا فمذموم، والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتيان عن الزركشي، فقال ما ملخصه: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربع:

الأولى: النقل عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثانية: الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً، وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.

الرابعة: الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع، وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله: «اللَّهُمَّ فَفِّهْ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ».

فَمَنْ فسر القرآن برأيه، أي: باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ، معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله كان تفسيره سائغاً جائزاً خليفاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود، وَمَنْ حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان تفسيره ساقطاً مردولاً، خليفاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم.

(١) مجاز القرآن ١/٢٦٩، وانظر: خطوات التفسير البياني ص ٥١، ٥٢.

(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٥٨ وما بعدها.

فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها التهجم على تبين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، ومنها: حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة، ومنها: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، ومنها: القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل، ومنها: السير مع الهوى والاستحسان.

وبعد هذا فاعلم أن أكثر السلف الصالح - رضي الله عنهم - قد أجازوا تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد.

مناهج المفسرين بالرأي

يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره، وأن يتدبَّرَ بكل العلوم التي ذكرها الإمام الحبر البحر ذي البيان أبو حيان في مقدمة تفسيره هنا؛ ليكون قد أصاب المراد أو كاد.

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله، وشاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل «وخير ما فسرته بالوارد».

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

١ - البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق، ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم.

٢ - إرداف ذلك بالكلام على التركيب من جهة الإعراب والبلاغة، على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

٣ - تقديم المعنى الحقيقي على المجازي؛ بحيث لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة.

٤ - ملاحظة سبب النزول، فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد؛ كما سبق في مبحث أسباب النزول.

٥ - مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها ببعض.

٦ - مراعاة المقصود من سياق الكلام.

٧ - مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة.

٨ - مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون، وسنن الاجتماع، وتاريخ البشر العام، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن.

٩ - مطابقة التفسير لما كان عليه النبي ﷺ في هديه وسيرته؛ لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشماله وتقريراته.

١٠ - ختام الأمر ببيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشرعة والعلوم الكونية.

١١ - رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال وهو ما يأتي:

قال السيوطي في «الإتقان» ما نصه: «وَكُلُّ لَفْظٍ احْتَمَلَ مَعْنِيَيْنِ فَصَاعِداً، فَهُوَ الَّذِي لَا يَجُوزُ لِغَيْرِ الْعُلَمَاءِ اجْتِهَادُ فِيهِ، وَعَلَيْهِمْ اعْتِمَادُ الدَّلَائِلِ دُونَ مَجْرَدِ الرَّأْيِ».

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره، وإذا تساوى والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية؛ كما في قوله - تعالى - : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾، وإن كانت في أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى.

وإن اتفقا في ذلك أيضاً، فإن تنافى اجتماعهما، ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما؛ بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه.

وإن لم يظهر له شيء، فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف؟ أقوال، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما أهد.

أَهْمُ كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ الْجَائِزِ

نذكر منها مجرد أمثلة ومن أراد المزيد فليرجع إلى: «التفسير والمفسرون» لشيخنا الشيخ الذهبي، «ومناهل العرفان» وغيرهما.

١ - مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ :

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة، وتوفي - رحمه الله - سنة ٦٠٦هـ ست وستمائة من الهجرة بالري^(١).

٢ - أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ، وَأَسْرَارُ التَّأْوِيلِ :

ومؤلفه هو: الشيخ الإمام، قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، البيضاوي، الشافعي^(٢)، أصله من «شيراز»؛ في جنوب إيران، وبها كانت نشأته العلمية الأولى، وبها تخرج في الفقه والأصول، والمنطق، والحكمة، والكلام والأدب، وبرع في الأصولين، وضم علوم العربية والأدب إلى علوم الشريعة والحكمة، ولي قضاء «شيراز» مدة، وكانت وفاته بـ«تبريز» خمس وثمانين وستمائة، وقيل: سنة إحدى وتسعين وستمائة، ومن مؤلفاته القيمة: كتاب «المنهاج» وشرحه في أصول الفقه، وكتاب: «الطوابع» في أصول الدين، و«أنوار التنزيل»، و«أسرار التأويل»، وهو ما نحن بصدده وغيرها.

وتفسيره جامع بين التفسير والتأويل على مقتضى القواعد اللغوية والشريعة، وهو متأثر في طريقته في بيان الألفاظ، والتراكيب، ونكت البلاغة - بتفسير الكشاف للزمخشري، ولكنه قرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة، وهو في هذا متأثر بالإمام فخر الدين الرازي.

٣ - النِّجَامُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَالْمُبَيِّنُ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْقُرْآنِ :

ومؤلفه هو، الإمام: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، الخزرجي الأندلسي، القرطبي^(٣)، المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين

(١) انظر ترجمته في: الأعلام ٢٠٣/٧، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٣/٢، وفيات الأعيان ٣/٣٨١، لسان الميزان ٤٢٦/٤، البداية والنهاية ٣/٥٥، طبقات الشافعية ٥/٣٣، النجوم الزاهرة ٦/١٩٨، مفتاح السعادة ١/٤٤٥، مرآة الجنان ٤/٧، مرآة الزمان ٨/٣٥٣.

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (١/٢٤٢)، البداية والنهاية (١٣/٣٠٩)، بغية الوعاة (٢/٥٠)، شذرات الذهب (٥/٣٩٢)، طبقات الشافعية للسبكي (٨/١٥٧)، مرآة الجنان (٤/٢٢٠)، مفتاح السعادة (٢/١٠٣)، هدية العارفين (١/٤٦٢، ٤٦٣).

(٣) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين (٢/٦٥)، الديباج المذهب (ص ٣١٧)، شذرات الذهب (٥/٣٣٥)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٢٨)، نفح الطيب (٢/١١٠)، هدية العارفين (٢/١٢٩)، الوافي بالوفيات (٢/١٢٢).

الورعين، الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، كانت أوقاته كلها معمورة مشغولة ما بين عبادة وتأليف، وكانت وفاته سنة إحدى وسبعين وستمائة ومن مؤلفاته كتاب: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، وكتاب: «التذكار في أفضل الأذكار»، وكتاب: «شرح التفصي» وغيرها.

وتفسير القرطبي من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وذكر عوضاً عنها أحكام القرآن بتوسع، حتى حاف بها على التفسير، واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ.

٤ - لُبَابُ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ :

مؤلف هذا التفسير: هو علاء الدين أبو الحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيمي، البغدادي، الشافعي، الصوفي، المعروف بالخازن^(١)، توفي سنة ٧٤١هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة.

٥ - الْبَحْرُ الْمُحِيطُ لِأَبِي حَيَّانَ :

ومؤلفه هو: الإمام: أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، الغرناطي، الحياتي، الشهير بأبي حيان^(٢)، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة، وتوفي سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

كان - رحمه الله - ملماً بالقراءات متواترها، وصحيحها، وشاذها؛ كما كان على جانب كبير من العلم باللغة وآدابها، والعلم بالنحو والصرف حتى صار إماماً فيهما، وذو رأي معتبر في مسائلهما؛ ولذلك غلب عليه في تفسيره: الإكثار من النحو، والصرف، واللغة - كما أسلفت.

وله مؤلفات منها: «غريب القرآن في مجلد»، و«شرح التسهيل» وهو كتاب جليل، وكتاب «البحر المحيط»؛ في التفسير، وهو ما نحن بصده الآن، وقد عكف على تأليفه لما نصب مدرساً للتفسير في قبة السلطان الملك المنصور، وفي دولة ولده الملك الناصر؛

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٩٧/٣، الأعلام ٥/٥، معجم المطبوعات ٨٠٩.

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين ٢٨٦/٢، بغية الوعاة ٢٨٠/١، البدر الطالع ٢٨٨/٢، حسن المحاضرة ٥٣٤/١، الدرر الكامنة ٧٠/٥، ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٢٣)، ذيل العبر (ص ٢٤٥)، طبقات الشافعية للسبكي ٣١/٦.

وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة، وقد خطا سنه نحو السابعة والخمسين من عمره المبارك.

وقد اعتمد أبو حيان في تفسيره على تفاسير من تقدمه: ولا سيما تفسير الإمامين الجليلين: أبي القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، وأبي محمد، عبد الحق، المعروف بابن عطية، وعلى ثقافته اللغوية والنحوية والصرفية والأدبية، التي يظهر أثرها واضحاً في كتابه، وهو من كتب التفسير بالرأي والاجتهاد الممدوح.

وكتاب التفسير لأبي حيان لم يخل كغيره من كتب التفسير من ذكر الروايات المأثورة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين.

٦ - السراج المُنِير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير:

ومؤلفه هو: الشيخ العلامة: شمس الدين، محمد بن أحمد الشربيني، الشافعي الخطيب^(١)، نشأ بالقاهرة، وعلى شيوخ عصره أخذ، ولما رآه أهلاً للفتوى، والتدريس، أجازوه بهما، فدرس وأفتى، وانتفع به خلق كثير.

وقد كان - رحمه الله - على جانب من الصلاح، والورع، والزهد، وكثرة العبادة، وكان يعتكف طوال شهر رمضان من كل عام، توفي عصر يوم الخميس الثاني من شعبان سنة ٩٧٧ هـ، سبع وسبعين وتسعمائة هجرية.

ومن مؤلفاته: «شرح كتاب المنهاج»، و«شرح كتاب التنبيه»، و«السراج المنير» في التفسير.

وهو: تفسير وسط بين الإطناب والإيجاز، اقتصر فيه على أصح الأقوال غالباً، ولم يذكر من الأعاريب إلا ما كانت الحاجة ماسة إليه، اعتمد فيه صاحبه على تفاسير من سبقه: كالزمخشري، والبيضاوي، والبعوي، والرازي، وغيرهم، وقد ينقل فيه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما التزم فيه: ألا يذكر من الأحاديث إلا صحيحها، وحسنها، دون ذكر الضعيف والموضوع؛ ولذلك: يتعقب الزمخشري، والبيضاوي، في ذكرهما للحديث الموضوع الطويل في فضائل السور: سورة، سورة، كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن روى شيئاً منها في تفسيره^(٢).

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام (٦/٦)، شذرات الذهب (٨/٣٨٤).

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣٣٨ وما بعدها.

٧ - إرشادُ العقلِ السليمِ إلى مزايا القرآن الكريم :

ومؤلفه هو: الإمام، القاضي، المفتي، أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى^(١)، ولد سنة ٨٩٣ هـ ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة، بقرية قريبة من القسطنطينية، ونشأ في بيت عرف بالعلم، والفضل، والدين، وتلمذ على والده، وغيره من العلماء. وعمل من معينه بعد نهل، حتى صار علماً من أعلام العلم، تولى التدريس مدة، ثم ولي القضاء، وصار يتنقل فيه من بلد إلى بلد، حتى انتهى به الأمر إلى الإفتاء، وكان أبو السعود عالماً، أديباً، متمكناً من اللغات الثلاث: العربية، والفارسية، والتركية، وقد مكنت له معرفته بهذه اللغات الاطلاع على الكثير من الكتب التي ألفت بها، فاكسب علماً غزيراً، ولم يدع له التدريس، وولاية القضاء، والتنقل بين البلاد - مجالاً للتأليف، فلم يترك لنا إلا تفسيره هذا، وبعض حواش أخرى، على «تفسير الكشاف»، وعلى «شرح العناية على الهداية»، وهي ناقصة، وبعد هذه الحياة العلمية الحافلة توفي بالقسطنطينية، في أوائل جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة، ودفن بجوار الصحابي الجليل: أبي أيوب الأنصاري، فرضي الله عنه، وأرضاه.

واشتغل العلامة أبو السعود في حياته بتدريس الكتابين المشهورين: الكشاف، وتفسير البيضاوي، حتى في الأوقات التي كان يخرج فيها مع السلطان سليمان القانوني غازياً، كان يشغل بالتدريس لطلبته الذين كانوا لا يفارقونه، وقد كانت نفسه تنوِّق إلى تفسير جامع بين تفسير الكشاف، وتفسير البيضاوي، وأن يضيف إليها ما اكتسبه من غيرهما من الكتب، ومن الفُهوم التي فتح الله بها عليه في تفسير القرآن حتى حقق الله هذه الأمنية في آخر حياته، فكان ثمرة ذلك هذا التفسير العظيم الذي اشتهر بشهرة صاحبه، وعكف أهل العلم من يومها على دراسته، وسماه: «إرشاد العقل السليم، إلى مزايا القرآن الكريم» ولكنّه خلّصه من اعتزاليّات الزمخشريّ، ونهج فيه منهج أهل السنة.

ومن أهم مميزات هذا التفسير: أنه خالٍ من الاستطرادات والتوسع في ذكر الأحكام الفقهية والنحوية، ويكاد يكون خالصاً للتفسير، وقد غُني فيه عناية بالغة بإبراز وجوه البلاغة وأسرار الإعجاز في القرآن الكريم، ولا سيما في «باب الفصل والوصل»، و«وجوه المناسبات بين الآيات».

٨ - رُوحُ المعاني في تفسير القرآن، والسبع المثاني :

ومؤلفه هو: خاتمة المحققين، وعمدة المدققين، وإمام المفسرين، أبو الثناء: شهاب

(١) ينظر ترجمته في الأعلام (٥٩/٧)، شذرات الذهب (٣٩٨/٨)، الفوائد البهية ٨١.

الدين، السيد الإمام، محمود بن عبد الله الآلوسي^(١) البغدادي، الحنفي، مفتي بغداد وعالمها في القرن الثالث عشر الهجري.

ولد سنة ١٢١٧ سبيع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة، في جانب الكرخ من بغداد.

نبغ في العلوم من صغره، وأخذ عن كثير من فحول علماء عصره، منهم: والده، والشيخ خالد النقشبندي، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة، وقد تتلمذ عليه كثيرون، وتخرج على يديه بعض العلماء الفضلاء من بلاد مختلفة، ولما تولى الإفتاء شرع يدرس كل العلوم في داره؛ بجوار جامع الشيخ عبد الله العاقولي بالرصافة، وقد ساعده على ذلك: نبوغه في علوم شتى، وجمع إلى العلم النقلي والعقلي - الأدب وفنونه، فمن ثم عرف بجزالة التعبير، وسلاسة الأسلوب، وحسن التصرف في القول، وبروحه اللطيفة الفكاهة، ومن تعبيراته اللطيفة التي لا تخلو من الفكاهة: تسميته للحروف الزائدة بأنها: «سيف خطيب»، وعن النكات البلاغية بأنها: «كالوردة، إن دعكتها أزلت ما فيها من رائحة وجمال».

وتفسير «روح المعاني» خير تفسير، وأجمعه، وأوفاه، وقد جمع فيه خلاصة كل كتب التفاسير قبله وحواشيه، ولا سيما حاشية: تفسير الكشاف، وحاشية الشهاب الخفاجي، على تفسير البيضاوي، وقد حل بعض رموزها، وعباراتها الخفية التي استعصى فهم المراد منها على العلماء، وله استدراقات قيمة، وتعقبات دقيقة لمن سبقه من العلماء.

وكثيراً ما يدلي برأيه بين الآراء؛ فهو ليس مجرد ناقل، بل له شخصيته العلمية البارزة، وأفكاره النيرة، وليس في تفسيره ما يؤاخذ عليه، إلا كثرة الاستطرادات، والتوسع فيما يستطرد إليه؛ حتى يكاد يغرق القارئ لكتابه في بحر هذه الاستدراقات، ولو أن أحداً نزع ما استطرد إليه من كتابه، لجاءت في رسائل كثيرة؛ وكذلك: ذكره للتفسير الإشاري، فليس ثمة ما يدعو إليه، ولعله فعل ذلك لنزعة تصوفية، وليجيء كتابه جامعاً لكل الألوان التفسيرية، ومرصياً لجميع الأدواق.

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام (٧/ ١٧٧)، أعيان البيان ٩٩، أعلام العراق ٢١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهجنا في التحقيق

اتبعنا في تحقيق الكتاب ما يلي:

أولاً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها.

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب، مع وضع كتاب «الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» لابن حجر مبدوءاً بـ «قال الحافظ: . . . » وكذا استعنا بتخريج الزيلعي على الكشاف.

ثالثاً: تخريج الشواهد الشعرية وتوثيقها مع وضع كتاب «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف» للشيخ محمد عليان.

رابعاً: وضع تعقبات السمين الحلبي في الدر المصون على الكشاف ودفعها.

خامساً: توثيق بعض الآثار الواردة في الكتاب.

سادساً: التعليق على بعض المسائل البلاغية في الكتاب.

سابعاً: تراجم لبعض الرواة.

ثامناً: شرح بعض الألفاظ الغريبة.

تاسعاً: وضع كتابي: «الانتصاف» للإمام أحمد بن المنير الاسكندري، وكتاب: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي.

عاشراً: وضع مقدمة للكتاب.

الحادي عشر: وضع فهرس عامة للكتاب.

وصف النسخ الخطية

- النسخة الأولى: وهي المحفوظة بمكتبة الأحقاف وتقع تحت رقم (٢٦٠) تفسير، في مجلدين، وعدد أوراقهما (٢١٥)ق، (٢٧٧)ق.
- النسخة الثانية: وهي المحفوظة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم (٣٤٠) تفسير، وعدد أوراقها (٢٨٣)ق.
- النسخة الثالثة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٧) تفسير طلعت في مجلدين، وعدد أوراقهما (٣٩٥)، (٤٧٧)ق.
- النسخة الرابعة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٨٨) تفسير، في مجلدين، وعدد أوراقهما (٢٧٣)، (٦٠٢)ق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مُفتتحاً، وبالاتعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً؛ وفصله سوراً وسوره آيات، وميز بينهما بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشيء مخترع؛ فسبحان من استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء سواء بالحدوث عن العدم؛ أنشأ كتاباً ساطعاً بتيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببيانات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم؛ على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء؛ ولم ينبض^(١) منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط في المضادة والمضارة، وإلقائهم الشرائر^(٢) على المعازة والمعازة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط؛ إن أتاهاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رامهم بمأثرة رموه بمآثر؛ وقد جرد لهم الحجة أولاً، والسيف آخراً، فلم يعارضوا إلا السيف وحده، على أن السياف القاضب مخراق لآعب إن لم تمض الحجة حذو؛ فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطم على الكواكب^(٣)، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب.

(١) قوله: «ولم ينبض» أي يتحرك كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «الشرائر» في الصحاح؛ الشرائر الأثقال. الواحدة شريرة يُقال: ألقى عليه شرارته حرصاً ومجبة. وفيه: العاراة شدة الحرب، واسمه للسود. (ع)

(٣) قوله «فطم على الكواكب» في الصحاح: الكوكب النجم، وكوكب الشيء معظمه، وكوكب الروضة نورها، والمعنى الأخير هو المراد هنا، والأول هو ما يأتي. (ع)

والصلاة [والسلام] على خير من أوحى إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم؛ ذي اللواء المرفوع في بني لؤي، وذو الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي؛ المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشاخص^(١) الغرة الواضح التحجيل، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل؛ وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم: أن متن كل علم وعمود كل صناعة - طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة؛ وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل؛ حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عدّ ألف بواحد - ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمنّ عليهم بجزر نواصيتهم وإطلاقتهم.

ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهّر الأبواب القوارح^(٢)؛ من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها - علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم؛ كما ذكر الجاحظ في كتاب «نظم القرآن»، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ؛ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه - لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن؛ وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثه على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله؛ بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ؛ كثير المطالعات، طويل المراجعات؛ قد رجع زماناً ورجع إليه، ورده ورده عليه؛ فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة

(١) قوله: «الشاخص الغرة» في الصحاح: شدخت الغرة، إذا اتسعت. (ع)

(٢) قوله: «بما يبهّر الأبواب القوارح» في الصحاح: قرح الحافر، إذا انتهت أسنانه، وكل ذي حافر يقرح، وكل ذي خف ييزل. (ع)

الكتاب؛ وكان مع ذلك مستمرسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها؛ يقظان النفس ذراكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرزمة وإن خفى مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريش^(١) بتلقيح بنات الفكر؛ قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقة، ووقع في مداحضه ومزالقه.

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية^(٢) العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم/ بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب؛ واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملئ عليهم «الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي؛ أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاءة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم؛ فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأملت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيل [والأذنب]، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإنابة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها - وقليل ما هم - عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملئ، متطلعين إلى إيناسه، حراًصاً على اقتباسه، فhez ما رأيت من عطفني وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس - أدام الله مجده - وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجوم مناقبهم - أعطش الناس كبداً وألهبهم حشئ وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه - في مدة غيبيتي عن الحجاز مع تراحم ما هو فيه من المشادة - بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض؛ فقلت: قد

(١) قوله: «غير ريش» في الصحاح: ناقة ريش، أول ما ريشت وهي صعبة بعد. (ع)

(٢) قوله: «بين أفاضل الفئة الناجية» هي التي سهاها أهل السنة بالمعتزلة، فقوله: «إخواننا في الدين» يقتضي أنه من المعتزلة؛ ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول المعتزلة، فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبهاها على ظاهرها، وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم، عفى الله عنه. (ع)

ضاقَت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع السن، وناهزت العشر التي سميتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر^(١)، ووفق الله وسدّد ففرغ [منه] في مقدار مدّة خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه^(٢) - وكان يقدرّ تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم؛ أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيّني، ونوراً [لي] على الصراط يسعى بين يدي ويميني؛ ونعم المسئول.

-
- (١) قوله: «والفحص عن السرائر» لعله «الشرائد» أو «الشذائد». (ع)
 (٢) قوله: «ففرغ منه في مقدار خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -» : وكان يقدرّ تمامه في أكثر من ثلاثين سنة» كانت مدة خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - سنتين وثلاثة أشهر على الصواب، وكأنه لمع بذكر الثلاثين إلى حديث سفيّنة مرفوعاً «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» أخرجه الترمذي وغيره. فكانه قال يقدرّ تمامه في مدة الخلفاء الراشدين فيسره الله في قدر مدة أولهم وأفضلهم. وكانت أيضاً أقصر من مدة الثلاثة الذين بعده؛ لأن خلافة عمر رضي الله عنه كانت عشرة أشهراً. وعثمان رضي الله عنه اثني عشرة سنة. وعلي رضي الله عنه خمس سنين إلا أشهراً. وقُتِل علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بتسع وعشرين سنة ونصف، وأكمل النصف مدة الحسن بن علي رضي الله عنه، والله أعلم. أهد من تخريج الأحاديث للحافظ ابن حجر.

سورة فاتحة الكتاب

مكية، وقيل: مكية ومدنية؛ لأنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى، وتسمى: أم القرآن؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الشاء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد/١٣ والوعيد، وسورة الكنز والوافية لذلك، وسورة الحمد والمثاني؛ لأنها تشتمل في كل ركعة، وسورة الصلاة؛ لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها، وسورة الشفاء والشفافية، وهي سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عد: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] دون التسمية، ومنهم من مذهبه على العكس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور؛ وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدىء بذكرها في كل أمر ذي بال؛ وهو مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - ومن تابعه؛ ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه - رحمهم الله - ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا ﴿آمين﴾، فلو لا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: «مَنْ تَرَكَهَا، فَقَدْ تَرَكَ مِائَةً وَأَرْبَعِ عَشْرَةَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى» (١).

١ - قال الزيلعي في «الإسعاف» (٢١/١): غريب، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٩/٢) من طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس بلفظ: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك آية من كتاب الله».

فائدة: أخرج الحافظ البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤٠/٢) رقم (٢٣٣٨) بسنده إلى الإمام أحمد قال: من لم يقرأ مع كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: موقوف، ليس بمعروف عنه، والذي في «الشعب» للبيهقي عنه: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك آية من كتاب الله». وتعقب ابن الحاجب ما أورده الزمخشري، بأن قال: «الصواب مائة وثلاث عشرة»، وبهذا اللفظ ذكر الشهرزوري في «المصباح». وزاد: وإنما لم يقل: «أربع عشرة»؛ لأن «براءة» لا بسملة فيها، انتهى. روى البيهقي في «الشعب» =

فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو^(١)؛ لأن الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل وبسم الله أرتحل؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله؛ بـ «بسم الله» كان مضمرّاً ما جعل التسمية مبدأ له، ونظيره في حذف متعلق الجازّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي يَتَجَ مَكِّيٍّ إِلَى رَعَوَى وَقَوْمِهِ﴾ [النمل: ١٢]، أي: اذهب في تسع آيات. وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس: بالرفاء والبنين. وقول الأعرابي: باليمن والبركة، بمعنى: أعرست، أو نكحت؛ ومنه قوله [من الوافر]:

= عن أحمد بن حنبل، أنه قال: «من لم يقل مع كل سورة: بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى».

قلت: وقفت على سبب الغلط في منقول الزمخشري؛ وذلك أن الحاكم روى في ترجمة عبد الله بن المبارك بسند له عن علي القاشاني قال: «رأيت عبد الله بن المبارك يرفع يديه في أول تكبيرة على الجنابة، ثم الثانية أخفض قليلاً، والصلوات مثل ذلك». قال علي: قال عبد الله: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور، فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية». قال عبد الله: وأخبرنا حنظلة بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك آية من كتاب الله تعالى»، فلما لم يخص ابن عباس سورة، حملة ابن المبارك على الكل إلا «براءة» فكان مائة وثلاث عشرة. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «الباء في البسملة تتعلق بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو» قال أحمد: رحمه الله تعالى: الذي يقدره النحاة «أبتدىء» وهو المختار لوجوه: الأول: أن فعل الابتداء يصح تقديره في كل بسملة ابتدىء بها فعل ما بين الأفعال بخلاف فعل القراءة، والعام صحة تقديره أولى أن يقدر، ألا تراهم يقدرون متعلق الجار الواقع خبراً أو صفة أو صلة أو حالاً بالكون والاستقرار حيثما وقع ويؤثرونه لمعموم صحة تقديره، والثاني: أن تقدير فعل الابتداء مستقل بالغرض من البسملة إذ الغرض منها أن تقع مبدأ فتقدير فعل الابتداء أوقع بالمحل، وأنت إذا قدرت «أقرأ» فإنما تعني ابتدىء القراءة والواقع في أثناء التلاوة قراءة أيضاً لكن البسملة غير مشروعة في غير الابتداء. ومنها ظهور فعل الابتداء في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾. وقال عليه السلام: «كل أمر خطير ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر». ولا يعارض هذا ما ذكره من ظهور فعل القراءة في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ فإن فعل القراءة إنما ظهر ثم لأن الأهم هو القراءة غير منظور إلى الابتداء بها. ألا ترى إلى تقدم الفعل فيها على متعلقه لأنه الأهم ولا كذلك في البسملة؛ فإن الفعل المقدر كائناً ما كان إنما يقدر بعدها، ولو قدر قبل الاسم لفات الغرض من قصد الابتداء إذاً على أنه الأهم في البسملة، فوجب تقديره، وسأيت الكلام على هذه النكتة.

قال السمين الحلبي: وأجاب غيره بأن «باسم ربك» ليس متعلقاً بـ «أقرأ» الذي قبله بل بـ «أقرأ» الذي بعده.

وفي هذا نظر؛ لأن الظاهر على هذا القول أن يكون: ﴿اقْرَأْ﴾ الثاني توكيداً للأول، فيكون قد فصل بمعمول المؤكد بينه وبين ما أكده مع الفصل بكلام طويل. انتهى. الدرر.

فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ فَرِيْقٌ: نَحْسُدُ الْآنَسَ الطَّعَامَاً^(١)

فإن قلت: لم قَدَرْتَ المحذوف متأخراً؟ قلت: لأنَّ الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدءون بأسماء ألَهِتهم، فيقولون: باسم اللات، باسم العزى،

(١) ونار قد حضأت لها يَلْبَلِيل
سوى ترحيل راحلة وعين
أتوا ناري فقلت: منون أنتم؟
فقلت: إلى الطعام فقال منهم
لقد فضلتم في الأكل فينا
لكن ذاك يعقبكم سقاما

لشمر بن الحارث الضبي، وقيل لتأبط شراً، وقيل لشمر الغساني، وقيل للفرزدق يصف نفسه بالجرأة واقتحام المخاوف. يقول: ورب نار قد حضأتها بالحاء المهلهلة: أشعلتها وسعرتها، وقيل هو خضأتها، بالمعجمة، ولا أعلمه وإن ذكره بعض النحاة في باب الحكاية، ويعيد: تصغير بعد، والوهن والموهن: بمعنى الفتور أو النوم أو هدوء الصوت، وقيل: نحو نصف الليل. أي أوقدتها في جوف الليل في مغازة لا أريد بها سوى تجهيز ما يلزم لراحلي في السفر ولأجل عين أكاليها أي أسأرها أو أحافظها، فأننا أحفظها من النوم وهي تحفظني من العدو، والضمير في أتوا: لمبهم. ومنون استفهام، وكان حقه: من أنتم، لأنه لا يأتي بصورة الجمع إلا في الوقف، والأصل في تونه الأخيرة السكون للوزن، على أن إجراء الوصل مجرى الوقف كثير في النظم كما صرحوا به وجعلوا هذا منه، وكان هناك قول مقدر مثل «جئنك» فحكى إعراب ضمير الفاعل فيه حتى يظهر استشهاده يونس به في الحكاية. فقالوا: نحن الجن. وكان الظاهر: فقلت عمو. ولكن أتى به مستأنفاً جواب سؤال مقدر تقديره: فماذا قلت لهم؟ فقال: قلت: عمو، أي تنعموا في وقت الظلام، وعطف قوله «فقلت» بالفاء دلالة على التعقيب. وأما رواية «عموا صباحاً» فمن قصيدة أخرى تعزى إلى خديج بن سنان الغساني ومنها [من الوافر]:

نزلت بشعب وادي الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناح

وشبه الليل بطائر، فأثبت له ما للطائر. أو شبه الظلمة بالجناح، وقوله «إلى الطعام» أي هلموا وأقبلوا إليه. دل المقام على ذلك، فقال زعيم منهم، أي سيد وشريف: نحن نحسد الآنس في الطعام أو على الطعام، فهو نصب على نزع الخافض. ويجوز أنه بدل، ويجيء «حسد» متعدياً لاثنتين، والطعاما: مفعوله الثاني. وقال الجوهري: الآنس هنا بالتحريك: لغة في الإنسان، ويجوز قراءته «الإنس» على اللغة المشهورة. لقد فضلتم عنا في الأكل حال كونكم فينا أي فيما بيننا، ولكن ذاك يلحقكم سقاماً في العاقبة. وهذا كله من أكاذيب العرب.

وهو لشمر بن الحارث الضبي في لسان العرب (حسد)، وتاج العروس ٢٥/٨، والحيوان ١٩٧/٦، ولسهم بن الحارث في الحيوان ٤٨٢/٤، ولتأبط شراً في ديوانه ص ٢٥٧، وبلا نسبة في لسان العرب (آنس)، وجمهرة اللغة ص ٥٠٢، وتاج العروس (آنس)، وانظر المزيد من مصادر البيت، والقول في نسبه في ديوان تأبط شراً ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) قال محمود: «لم قدرت المحذوف متأخراً... إلخ» قال أحمد رحمه الله: لأنك لو ابتدأت بالفعل في التقدير لما كان الاسم مبتدأ به فيغوت الغرض من التبرك باسم الله تعالى أول تنطق. وأما إفادة التقديم الاختصاص فيه نظر سيأتي إن شاء الله تعالى.

فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله - عز وجل - بالابتداء؛ وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿إِنَّا نَكُتُبُكَ﴾ [الفاتحة: ٥]، حيث صرح بتقديم الاسم، إرادة للاختصاص. والدليل عليه قوله: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ مَجْرِدَهَا وَمُرْسَهَا﴾ [هود: ٤١]. فإن قلت: فقد قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْرِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، فقدّم الفعل. قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أوّل سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم. فإن قلت: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟^(١) قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتابة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله؛ لقوله عليه - الصلاة والسلام -: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يَبْدَأْ فِيهِ بِأَسْمِ اللَّهِ، فَهُوَ أَتَبَرُّ» (٢) إلا كان فعلاً كلاً فعل، جعل فعله مفعولاً باسم الله، كما

٢ - أخرجه أبو داود (٢٦١/٤) كتاب الأدب: باب الهدى في الكلام حديث (٤٨٤٠) وابن ماجه (١/٦١٠) كتاب النكاح: باب خطبة النكاح حديث (١٨٩٤)، وأحمد (٣٥٩/٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٩٤)، والدارقطني (٢٢٩/١) رقم (١)، وابن حبان (٥٧٨ - موارد) ويرقم (١)، ٢ - الإحسان، والبيهقي (٢٠٨/٣ - ٢٠٩)، كتاب الجمعة: باب ما يستدل به على وجوب التحميد في خطبة الجمعة كلهم من طريق الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

قال أبو داود: رواه يونس وعقيل وشعيب وسعيد ابن عبد العزيز عن الزهري عن النبي - ﷺ - مرسلًا. ١. هـ. وكذا قال البيهقي.

وقال الدارقطني: تفرد به قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وأرسله غيره عن الزهري عن النبي - ﷺ - وقرة ليس بقوي في الحديث، والمرسل هو الصواب.

ورجح المرسل أيضاً الدارقطني في «العلل» (٢٩/٨ - ٣٠)، فقال: يرويه الأوزاعي، واختلف عنه، فرواه عبيدالله بن موسى وابن أبي العشرين والوليد بن مسلم وابن المبارك وأبو المغيرة عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - ورواه محمد بن كثير عن الأوزاعي عن الزهري كذلك لم يذكر قرة، ورواه وكيع عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري قال =

(١) قال محمود: «فإن قلت ما معنى تعلق اسم الله تعالى بالقراءة... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: وفي قوله: «إن اسم الله هو الذي صير فعله معتبراً شرعاً» حيد عن الحق المعتقد لأهل السنة في قاعدتين: إحداهما أن الاسم هو المسمى، والأخرى أن فعل العبد موجود بقدرة الله تعالى لا غير؛ فعلى هذا تكون الاستعانة باسم الله معناها اعتراف العبد في أول فعله بأنه جار على يديه، وهو محل له لا غير؛ وأما وجود الفعل فيه فيالله تعالى أي بقدرته تسليمًا لله في أول كل فعل؛ والزمخشري رحمه الله لا يستطيع هذا التحقيق لاتباع الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين، فيعتقد أن اسم الله تعالى الذي هو التسمية معتبر في شرعية الفعل لا في وجوده؛ إذ وجوده على زعمه بقدرة العبد. فعلى ذلك بنى كلامه. أقول: دعواه أن عند أهل السنة الاسم غير المسمى ممنوعة، وتحقيقه قد ذكر في غير هذا الكتاب.

== رسول الله - ﷺ - مرسلًا.

ورواه محمد بن سعيد يقال له: الوصيف عن الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه، والصحيح عن الزهري المرسل. ١. هـ.

أما الحاكم - رحمه الله - فقد صحح لقرة بن عبد الرحمن على شرط مسلم حديث: «حذف السلام سنة»، ووافقه الذهبي.

قلت: وهذا من أوهامهما - رحمهما الله - فإن قرة بن عبد الرحمن لم يرو له مسلم احتجاجاً، ولكن روى له في المتابعات، فلا نستطيع مثلاً أن نصحح لقطن بن نسير أو غيره ممن روى له مسلم في المتابعات، على شرط مسلم.

والعجب من الذهبي في موافقته للحاكم أكثر، لأنه أورد قرة بن عبد الرحمن في «ميزانه» (٤٧٠/٥) - بتحقيقنا).

وقال: خرج له مسلم في الشواهد ١. هـ.

قلت: ومدار الحديث على قرة بن عبد الرحمن، فإليك أقوال الأئمة فيه.

قال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال أبو زرعة: الأحاديث التي يرووها مناكير، وقال أحمد: منكر الحديث جداً.

وقال ابن معين: ليس بقوي الحديث.

وقال العجلي: يكتب حديثه.

وقال ابن شاهين عن يحيى: ليس به بأس عندي.

وقال الفسوي: ثقة.

وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

وقد لخص الحافظ هذه الأقوال: فقال: صدوق له مناكير.

ينظر: «الجرح والتعديل» (١٣٢/٧)، و«أحوال الرجال» (ص ١٦٥)، «سؤالات ابن طهمان» (٦٣٩)،

و«ثقات المعجلي» (١٣٨٥) و«ثقات ابن شاهين» (١١٦٣)، و«المعرفة والتاريخ» (٤٦٠/٢)،

و«الكامل» (٢٠٧٧/٦)، والتقريب (١٢٥/٢).

قلت: وعلى افتراض أن قرة ثقة فقد خالفه الأكثرون من أصحاب الزهري، وهم يونس وعقيل وشعيب وسعيد بن عبد العزيز، وهم بلا شك أكثر وأوثق من قرة بن عبد الرحمن.

وهذا الذي رجحه الدارقطني، وأبو داود، والبيهقي.

ثم إن قرة قد اضطرب في لفظ هذا الحديث، فمرة يرويه بلفظ: أبتر، ومرة بلفظ: أجزم، ومرة بلفظ: أقطع.

ومع كل ما تقدم فقد حكم النووي في «المجموع» (٧٣/١)، بأنه حديث حسن، وكذلك ابن الصلاح فيما نقله عنه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٩/١)، وقد حكم السبكي أيضاً بصحته تبعاً لابن حبان.

ولهذا الحديث إسناده آخر أشار إليه الدارقطني في «السنن» (٢٢٩/١)، فقال: ورواه صدقة عن محمد بن سعيد عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن النبي - ﷺ -.

وأشار إليه أيضاً في «العلل» (٣٠/٨)، فقال: ورواه محمد بن سعيد يقال له: الوصيف عن الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٢/١٩) رقم (١٤١) من طريق صدقة بن عبد الله عن محمد بن

يفعل الكتب بالقلم. والثاني: أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات^(١) في قوله: ﴿تَنْتَبُتُ بِالدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: [متبركاً] بسم الله أقرأ، وكذلك قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين، معناه: أعروست ملتبساً بالرفاء والبنين، وهذا الوجه/ ٣ أعرب وأحسن؛ فإن قلت: [فكيف] قال الله - تبارك وتعالى - متبركاً باسم الله أقرأ؟ قلت: هذا مقول على السنة العباد، كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخره، وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمّدونه ويمجّدونه ويعظمونه^(٢)، فإن قلت: من حق

= الوليد الزبيدي عن الزهري عن عبد الله بن كعب عن أبيه عن النبي - ﷺ - به.
ومن طريقه السبكي في «طبقات الشافعية» (١٤/١)، وصدقة بن عبد الله ضعيف.
والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩١/٢).

وقال: وفيه صدقة بن عبد الله ضعفه أحمد، والبخاري ومسلم وغيرهم، ووثقه أبو حاتم ودحيم في رواية.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

لم أره هكذا. والمشهور فيه حديث أبي هريرة من رواية قرّة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: «لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع»، أخرجه أبو عوانة في صحيحه، وأصحاب السنن، ولأحمد من هذا الوجه: «لا يفتتح بذكر الله، فهو أبتّر، أو أقطع». وللخليفة في الجامع من طريق مبشر بن إسماعيل عن الزهري بلفظ: «لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع، والراوي له عن مبشر - مجهول». انتهى.

- (١) قوله «تعلق الدهن بالإنبات» هذا يناسب قراءة «تنتبت» من أنبت الرباعي: كما يأتي. (ع)
(٢) يقدم الزمخشري هذا المبحث بكلام قوي عند البسملة حتى يصل في ختام المبحث بقوله: «وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه: تعليم (الله) عباده كيف يتبركون باسمه وكيف يحمّدونه ويمجّدونه ويعظمونه».

قد بين الزمخشري من أسرار هذا الحذف ما أفاء الله به عليه، وفي تقدير هذا المحذوف فعلاً أو اسماً وكلام طويل، وخلاصة هذا كله:

١ - أن الحذف لا يكون إلا لسر بلاغي يستدعيه المقام، ولا يقع هذا السر موقعه في النفس إلا بهذا الحذف من بليغ الكلام كما أورد الزمخشري - رحمه الله - تعالى - هنا في البسملة، وقد فهم البلاغيون هذا فقالوا: إن السر هو: الإسراع إلى المقصود الأهم، وقد يضاف إلى ذلك ضيق المقام عند ذكر المسند أو غيره، وبهذا يكون المذكور هو الأهم، ولهذا قال الشوكاني - رحمه الله -: «ومتعلق الباء محذوف وهو - أقرأ أو أتلو - لأن المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، والإشارة إلى أن البداية أهم لكون التبرك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّمَ﴾ لأن ذلك المقام مقام القراءة فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة».

أقول: وهذا الفهم الدقيق من كلام الله - سبحانه - إنما تأتى لهم من فقههم لكلام العرب، فقد سب أعرابي آخر فأعرض عنه، فقال: إياك أعنى، فرد عليه: وعنتك أعرض، وبذلك قدم الأهم «ينظر البحر المحيط، هذا وقد تناغم عدة معاني مقصودة عند المتكلم مع كونه لأبي حيان ٢٤/١، ونقله صاحب العبارة واحدة بما فيها من ذكر وحذف، فترى المرمى البلاغة القرآنية ص ٣٤٠. د. محمد محمد أبو موسى منها: أهمية المذكور دون سواه، والاختصاص، - نشر مكتبة وهبة والإشعار بالتعظيم كما في «بسم الله» فإنه - سبحانه صاحب الكمالات التي تليق بذاته المقدسة، وكمالاته لا تنتهي، ولهذا لا يعتد بأمر ذي بال إلا بتصديره باسمه - جل جلاله - كما صرح هذا في سنة النبي - ﷺ - وقد كتب كبار العلماء بحثاً نفيسة منفردة في البسمة لما فيها من عجائب وأسرار وآثار ومن أرادها فليراجعها في مواطنها.

٢ - لا بد مع الحذف من قرينة تدل على المحذوف وإلا ما صح الحذف، فالمحذوف كأنه مذكور مع وجود ما يدل عليه، ولكنه لم يذكر في الكلام للأسرار التي كشفت عنها الغطاء فيما سبق وبعد أن فهمنا بداية معنى «أل» كما «وينظر كذلك شرح ابن عقيل بتحقيق الشيخ - محمد محي الدين وتنظر في كيفية تطبيق العلماء عبد الحميد ١٩٦/٢ - ط. دار إحياء التراث العربي لهذا المفهوم في النصوص البليغة، وقد جمع الباحث هذا في يعلم هذا الذي قلناه حق العام لكنه محكوم كتاب علم المعاني: دراسة وتحليل للباحث بمذهبه الاعتزالي كما أشار إلى هذا السيد د. فتحي عبد الرحمن حجازي وزملاته ط ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

الشريف، ولهذا ترى النسفي الذي خلص كتابه من الكشف لكنه في عقيدته سني يرجح كون «أل» في «الحمد لله» للاستغراق، وعبارته هكذا:

«والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة، ولهذا فرق باسم الله لأنه اسم ذات فيستجمع صفات الكمال، وهو بناء على مسألة خلق الأفعال». أما العلامة أبو السعود فقد أحسن القول وأجاد، وكلامه هكذا: «وتعريفه للجنس، ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هي حاضرة في ذهن السامع، والمراد: تخصيص حقيقة الحمد به - تعالى - المستدعي لتخصيص جميع أفرادها به - سبحانه - على الطريق البرهاني... وقد قيل: للاستغراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها في ضمن جميع أفرادها حسبما يقتضيه المقام».

والتأخر في كلام الإمام الرازي يرى أنه ذكر القولين: «الجنسية، والاستغراقية» ولم يرجح أحد القولين على الآخر، ولعله رأها تصلح من الطرفين، وكل منهما يؤدي إلى الآخر، وسنوضح هذا في نهاية المقام وجاء الشوكاني في خاتمة المطاف ورجح كونها للاستغراق، ورد كلام الزمخشري، فهو يقول: «وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وأنها مختصة بالرب - سبحانه - على معنى أن أحد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله - عز وجل - أو على أن حمده هو المفرد فيكون الحصر ادعائياً، ورجح صاحب الكشف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، والصواب ما ذكرناه» ثم استدل على ترجيحه للاستغراق بما ورد في الحديث فيقول:

«وقد جاء في الحديث - اللهم لك الحمد كله».

وقد فهم الشوكاني الاستغراق من كلمة «كله» فإنها تفيد جميع الأفراد وقد صوب كلامه على كلام الكشف، وبهذا يكون قول الزمخشري مردوداً عليه، وفي المسألة كلام طويل حتى قال الإمام الألويسي:

«وقد صار هذا معترك الأفهام، ومزدهم أفكار العلماء الأعلام» ويفهم من جملة أقوال العلماء =

حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون، نحو: كاف التشبيه، ولام الابتداء، وواو العطف وفائه، وغير ذلك، فما بال لام الإضافة وبائها بنيتا على الكسر؟ قلت: أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء، وأما الباء: فلكونها لازمة للحرفية والجر، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة، لثلا يقع ابتداءهم بالساكن إذا كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة، ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة، وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء، ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سم وسم، قال [من الرجز]:

بِاسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سُمَّةٌ^(١)

= الأعلام أن «أل» الداخلة على النكرة كما في «الحمد لله» تفيد الجنس والحقيقة من ذات اللفظ بلا نظر إلى الأفراد، ثم يؤخذ من هذه الإفادة والتخصيص أن جميع الأفراد مقصودون من داخل الحقيقة، لأن الحقيقة تنطبق انطباقاً شمولياً على كل ما تصدق عليه من أفراد، وبهذا يتأتى الاستغراق بمعرفة المقام، فالاستغراق قد أتى على طريق البرهان فكان أقوى في الاستدلال عليه، لأنه لو خرج فرد من أفراد الكلمة لخرجت الحقيقة، فيلزم عدم اختصاص الحقيقة بصاحبها لأن اللام في «الله» للقصر.

والخلاصة من هذه كله:

- ١ - أن العلامة الزمخشري - نظراً لمذهبه الاعتزالي - يرى أن «أل» للجنس والحقيقة كما مر.
- ٢ - وأن غيره كالشوكاني ومن قبله يقول بأنها للاستغراق.
- ٣ - ويرى فريق ثالث أنها تصلح لكلا الأمرين: الحقيقة، والاستغراق على توجيهين قلت: وقد أعدت النظر في هذا كله ورأيت أن الخلاف شكل لا طائل تحته، والمقصود في النهاية واحد، فمن قال بأنها للجنس فإنه لا يمنع إفادتها الاستغراق بالطريق البرهاني - كما بينت آنفاً -، ومن أفاد بأنها للاستغراق فقد نظر إلى الجنسية مع الاختصاص فزانهما يفيدان الاستغراق قطعاً، لانطباق المعنى المقصود في «الحمد» على جميع أفرادها بلا استثناء، فالجنسية مع القرائن تفيد الاستغراق، والاستغراق مأخوذ من معنى الجنس والاختصاص بمعرفة المقام وهكذا...
- وإذا كانت العلاقة هكذا بين الجنس والاستغراق صح إطلاق «أل» على كل منهما لأن كلا من المعنيين يتمازج من الآخر ومعه، وبهذا ينحل الإشكال، ويتضح المقال والله - تعالى - أعلم.
- ينظر تفسير السنفي ٣/١، ٩، إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٩/١، ١٣، مفاتيح الغيب للرازي ١٣٨/١، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٣٥/١ وما بعده، وروح المعاني للآلوسي ٣٩/١، وما بعده، وحاشية الخضري على شرح ابن عقيل في مقدمته ٣/١ - ٦، وفتح القدير ١٧/١، ١٨، ١٩.

(١)

باسم الذي في كل سورة سمه قد وردت على طريق تعلمه
أرسل فيها بإزلا يقرمه فهو بها ينحو طريقاً يعلمه

لرؤية بن العجاج يصف إبلاً. ولفظ «اسم» من الألفاظ العشرة التي سمع بناء أوائلها على السكون كابن وامريء، فإذا ابتدؤوا بها زادوا همزة الوصل ولا حاجة لها في الدرج، وسمع تحريك أول =

وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز: كيد ودم، وأصله: سمو، بدليل تصريحه: كاسماء، وسمي، وسميت، واشتقاقه من السمو، لأن التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره، ومنه قيل للقب النبز: من النبز بمعنى: النبر، وهو رفع الصوت، والنبز: قشر النخلة الأعلى. فإن قلت: فلم حذفت الألف في الخط، وأثبتت في قوله: باسم ربك؟ قلت: قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط؛ لكثرة الاستعمال، وقالوا: طُوِّلَت الباء تعويضاً من طرح الألف، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكتابه: طَوَّل الباء، وأظهر السنان، ودور الميم، و: (الله) أصله الإله. قال [من الطويل]: مَعَادُ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ كَطَبِيبَةٍ^(١)

= بعضها كما في سمة بتثليث أوله. وباسم متعلق بأرسل وبأزه للملاسة. وضمير وردت للسورة. وضمير تعلمه بالفوقية لله على طريق الالتفات إلى الخطاب، ويمكن أنه لمخاطب مبهم، وعلى روايته بالتحية فالضمير لله فقط. ويحتمل من بعد أن ضمير وردت للإبل فكذلك تعلمه بالفوقية. وأما بالتحية فضميره لله أو للراعي. والبازل: الذي انشق نابه من الإبل وذلك في السنة التاسعة وربما بزل في الثامنة، وقرم إلى اللحم ونحوه: اشتاق إليه. والتقريم والإقرام: التشويق إليه والجملة حال من الراعي المرسل أو صفة لبازل، وعليه فلم يبرز ضمير الفاعل لأمن اللبس. فهو أي البازل؛ وينحو: أي يقصد بها، والباء للظرفية أو للتعدي إلى المفعول به كذهبت بزيد، ويجوز أن الضمير للراعي فالباء للتعدي فقط. وروي «نزلت» بدل «وردت» وهو يؤيد جعل الضمير للسورة، وروي البيت الثاني قبل الأول. والمعنى أرسل فيها الراعي ملتبساً بذكر اسم الله بأزلاً حال كونه يشوقه إليها بإغفائه من العمل وحبه عن الإبل ثم إرساله فيها، فذلك البازل يقصد بها طريق يعرفه وهو طريق الضراب، وعلم ما لا يعقل مجاز عن اهتدائه إلى منافعه، على طريق الاستعارة التصريحية والمجاز المرسل، أو شبهه بالعاقل على طريق المكنية، فالعلم تخيل لذلك التشبيه. وكون اسمه تعالى في كل سورة ظاهر على القول بأن البسملة آية من كل سورة، وإلا ورد مثل سورة العصر. وربما يدفع إبطاء القافية باختلافها في الفاعل وفي معنى المفعول وفي الحقيقة والمجاز.

ينظر لسان العرب (سما)، وأسرار العربية ص ٨، والإنصاف ص ١٦، وشرح شافية ابن الحاجب ٢٥٨/٢، وشرح شواهد الشافية ص ١٧٦، ص ١٦٦، تاج العروس (سما)، أساس البلاغة (قرم).

(١) معاذ الإله أن تكون كطبيبة ولا دمية ولا عقيلة ريرب ولكنها زادت على الحسن كله

للمبعث بن حريث في محبوبته أم السليل، يقال: عاذ عياداً وعبادة ومعاداً وعوداً، إذا التجأ إلى غيره، فالمعاذ مصدر نائب عن اللفظ بفعله، والدمية: الصنم والصورة من العاج ونحوه المنقوشة بالجواهر. وعقيلة كل شيء: أكرمه. والربرب: القطيع من بقر الوحش: شبه محبوبته بالظبية وبالدمية والعقيلة في نفسه، ثم وجدها أحسن منها فرجع من ذلك والتجأ إلى الله منه كأنه أثم: أو المعنى لا أشبهها بذلك وإن وقع من الشعراء. وأتى بلا المؤكدة لما قبلها من معنى النفي أي ليست كظبية ولا دمية ولا عقيلة ريرب ولكنها زادت كمالاً على الحسن المعروف كله، أو زادت على الحسن الحسي كمالاً معنوياً، وزادت من الطيب على كل طيب.

ينظر خزانة الأدب ٢٧٧/٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٧٨، الدر ١/٥٧.

ونظيره: الناس، أصله: الأناس. قال: [من مجزوء الكامل]

إِنَّ الْمَنَايَا يَطْلِفُ نَ عَلَى الْأَنْبَاسِ الْآمِينِيَّا^(١)

فحذفت الهمزة، وعوض منها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا الله بالقطع، كما يقال: يا إله، [وإلهه] - من أسماء الأجناس كالرجل والفرس - اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الشريا، وكذلك السنة على عام القحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه، وأما: (الله) بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الاسم اشتق: تآله، وآله، واستأله؛ كما قيل: استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر. فإن قلت: أسم هو أم صفة؟ قلت: بل اسم غير صفة، ألا تراك تصفه ولا تصف به؟ لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل. وتقول: إله واحد صمد، كما تقول: رجل كريم خير. وأيضاً فإن صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات، بقيت غير جارية على اسم موصوف بها، وهذا محال. فإن قلت: هل/أ؟ لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: آله، إذا تحير/، ومن أخواته: دله، وعله، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقُل النظر الصحيح. فإن قلت: هل تفخم لاه؟ قلت: نعم، قد ذكر الزجاج أن تفخيمها سنة، وعلى ذلك العرب كلهم، وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر.

و(الرحمن) فعلان من رحم، كغضبان، وسكران، من غضب، وسكر، وكذلك: (الرحيم) فعيل منه، كمريض وسقيم، من مرض وسقم، وفي: (الرحمن) من المبالغة ما ليس في: (الرحيم)^(٢)؛ ولذلك قالوا: رحمَن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إنَّ

(١) شبه المنايا بأناس يبحثون عن استحق الموت على طريق المكنية والاطلاع تخييل. والمعنى: أن المنايا تأتي للناس على حين غفلة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها. والأناس: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مأخوذ من الإنسان وهو الإبصار لظهورها، أو من الأنس ضد الوحشة. والأمينون: الغافلون عن مجيء المنايا، فهو مجاز مرسل.

والبيت لذي جذن الحميري ينظر خزنة الأدب ٢/٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨، الأشباه والنظائر ١/٣١٢، والجنى الداني ص ٢٠٠، وجواهر الأدب ص ٣١٣، والخصائص ٣/١٥١، وشرح شواهد الشافعي ص ٢٩٦، وشرح المفصل ٢/٥٢٩، ١٢١، أمالي ابن الشجري ١/١٢٤، مجالس العلماء ٨٠، الدرر ١/٥٧.

(٢) قال محمود: "وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم... إلخ". قال أحمد رحمه الله: لا يتم الاستدلال بقصر البناء وطوله على نقصان المبالغة وتامها. ألا ترى بعض صيغ المبالغة كفعل أحد =

الزيادة في البناء لزيادة المعنى. وقال الرَّجَاج في الغضبان: هو الممتلىء غضباً. ومما طُرِّ
على أُذني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مراكبهم بالشقدف؟ وهو مركب خفيف
ليس في ثقل محامل العراق، فقلت في طريق الطائف لرجل منهم ما اسم هذا المحمل،
أردت المحمل العراقي فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت: بلى، فقال: هذا اسمه
الشقنداف، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى، وهو من الصفات الغالبة - كالدبران،
والعيوق، والصعق - لم يستعمل في غير الله - عزَّ وجلَّ -، كما أنَّ: (الله) من الأسماء
الغالبة. وأما قول بني حنيفة في مُسَيِّلَمَةَ: رَحْمَانُ اليمامة، وقولُ شاعرهم فيه: [من البسيط]
..... وأنت غيثُ الوَرَى لا زِلْتَ رَحْمَاناً^(١)

فباب من تعنتهم في كفرهم، فإن قلت: كيف تقول: الله رحمن، أنصرفه أم لا؟^(٢)

= الأمثلة أقصر من فاعل الذي لا مبالغة فيه البتة. وأما قولهم: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا،
فلا دلالة فيه أيضاً على مبالغة رحمن بالنسبة إلى رحيم فإن حاصله أن الرحمة منه بالدلالة على
إتمامها؛ ألا ترى ضارباً لما كان أعم من ضراب، كان ضراب أبلغ منه لخصوصه، فلا يلزم إذاً من
خصوص رحيم أن يكون أقصر من رحمن لعمومه.

(١) سموت بالمجد يابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا
لرجل من بني حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب، يقول: علوت بسبب المجد يابن الأكرمين من جهة
الأب، وليس المراد خصوصه، بل مطلق الأصل، ولو كان المراد خصوصه لأشعر بالذم، وهو
تمييز للأكرمين أو تمييز لـ «سموت»، وأنت كالغيث للورى في كثرة النفع، ولا زلت رحماناً: دعا
بدوامه رحيماً عليهم؛ ورحمن خاص بالله فإطلاقه على غيره جهل أو عناد. وقيل: إن الخاص به
المحلى بال.

ينظر: روح المعاني ٥٩/١، الدر المنصور ٦٢/١.

(٢) قال محمود رحمه الله تعالى: «فإن قلت كيف تقول الله رحمن أنصرفه أم لا... إلخ؟ قال
أحمد: ليت شعري بعد امتناع فعلائة وفعلى ما الذي عين قياسه على عطشان دون ندمان مع أن
قياسه على ندمان معتضد بالأصل في الأسماء وهو الصرف؟ أقول: الذي عينه هو أن باب سكران
وعطشان أكثر من باب ندمان، وإذا احتمل أن يكون من كل واحد منهما فحمله على ما هو الأكثر
أولى؛ ولأن رحمن وعطشان مشتركان في عدم وجود فعلائة. بخلاف ندمان فلهذا كان حمله على
عطشان أولى، ثم قال: وقد نقل غيره خلافاً في صرف رحمن مجرداً من التعريف، وبناء على تعيين
العلة في منع صرف عطشان هل هي وجود فعلى فيصرف رحمن، أو امتناع فعلائة فيمتنع الصرف؟
وهو أيضاً نظر قاصر. وأتم منهما أن يقال: امتنع صرف عطشان وفقاً وامتناع صرفه معلل بشبه
زيادته بالقي الثاني، والشبه دائر على وجود فعلى وامتناع فعلائة؛ فما أن يجعل الأمران وصفي
شبه بهما مجموعهما مستقل، أو كل واحد منهما مستقلاً ببيان الشبه، أو أحدهما دون الآخر على
البدل؛ فهذه أربع احتمالات. فإن كان مقتضى الشبه المجموع أو وجود فعلى خاصة أنصرف
رحمن، وإن كان كل واحد من الأمرين مستقلاً أو الشبه بامتناع فعلائة خاصة منع رحمن من
الصرف؛ فلم يبقَ إلا تعيين ما به حصل الشبه في عطشان بين زيادته وبين ألفي الثاني من
الاحتمالات الأربعة، وعليه ينبنى الصرف وعدمه. والتحقيق أن كل واحد من الأمرين المذكورين =

قلت: أقيسه على أخواته من بابه، أعني: نحو عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه. فإن قلت: قد شرط في امتناع صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى، واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان فعلى، فلم تمنعه الصرف؟ قلت: كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى، كعطشى، فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلاثة كندمانه، فإذا لا عبرة بامتناع التأنيث، للاختصاص العارض، فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص، وهو القياس على نظائره. فإن قلت: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة^(١)، ومعناها: العطف والحنو، ومنها الرحم لانعطفافها على ما فيها؟ قلت: هو مجاز عن إنعامه على عباده؛ لأن الملك إذا عطف على رعيته، ورق لهم، أصابهم بمعرفه وإنعامه، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة، عطف بهم، ومنعهم خيره ومعرفه. فإن قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه^(٢)، والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى، كقولهم: فلان عالم نحير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟ قلت: لما قال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فتناول جلائل النعم،

= مستقل باقتضاء الشبه فيمتنع صرف رحمن لوجود إحدى العلتين المتعلقةتين في الشبه وهي امتناع فعلاثة على هذا التقدير؛ وإنما قلنا ذلك لأن امتناع فعلاثة فيه حاصله امتناع دخول تاء التأنيث على زيادته كامتناع دخولهما على ألفي التأنيث فحصل الشبه بهذا الوجه. ووجود فعلى يحقق أن مذكوره مختص ببناء ومؤنثه مختص ببناء آخر، فيشبه أفعل وفعلى في اختصاص كل واحد منهما ببناء غير الآخر، فهذا وجه آخر من الشبه. ومن تأمل كلام سيبويه فهم منه ما قررته. فإن قيل: محصل ذلك مناسبة كل واحد من الأمرين المذكورين لاقتضاء الشبه، فما الذي دل على استقلال كل واحد منهما علة في الشبه؟ وهلا كان المجموع علة وحينئذ ينصرف رحمن وهو أحد الاحتمالات الأربعة المتقدمة؟ قلت: امتناع صرف عمران ألم يدل على استقلال كل واحد من الأمرين بالشبه المانع من الصرف؛ إذ عمران علماً لا فعلى له وهو غير منصرف وفاقاً. أقول: قد عثر ههنا رحمه الله وإن الجواد قد يعثر لأن اعتبار وجود فعلى أو انتفاء فعلاثة إنما كان في الصفة، أما في الاسم فشرطه العلية لا وجود فعلى ولا انتفاء فعلاثة.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: فالرحمة على هذا من صفات الأفعال ولك أن تفسرها بإرادة الخير فيرجع إلى صفات الذات وكلا الأمرين قال به الأشعرية في الرحمة وأمثالها مما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على الله تعالى؛ ففهم من صرفه إلى صفة الذات، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين؛ لأن في تقديم أعلاهما ثم الإرداف بأدناهما نوعاً من التكرار؛ إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى؛ فذكره بعده غير مفيد ولا كذلك العكس؛ فإنه ترقى من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزمه، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات. وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى. تقول: ما فلان نحيراً ولا عالماً، ولو عكست لوقعت في التكرار؛ إذ يلزم من نفي الأدنى عنه نفي الأعلى وكل ذلك مستمدة في عموم الأدنى وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

وعظائمها، وأصولها، أرفده: (الرحيم)؛ كاللثة والرديف؛ ليتناول ما دق منها ولطف.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾

الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته.

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح؛ قال: [من الطويل]
أَفَادَتْكُمْ النُّعْمَاءُ مَنِي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضُّمِيرَ الْمُحْجِبَا^(١)
والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله/ ٤ب عليه [الصلاة و]
السلام: «الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ، مَا شَكَرَ اللَّهُ عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ» (٣) وإنما جعله رأس الشكر؛
لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها، أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد،

٣ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٢٤/١٠) رقم (١٩٥٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦/٤) حديث رقم (٤٣٩٥)، والحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» في الأصل الرابع والخمسين والمائة؛ كلهم من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً.

قلت: وهذا سند ضعيف لانقطاعه؛ فإن قتادة لم يدرك عبد الله بن عمرو.
والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣/١ - ٣٤)، وعزاه إلى عبد الرزاق في المصنف،
والحكيم الترمذي في نوارد الأصول، والخطابي في الغريب، والبيهقي في الأدب، والديلمي في
مسند الفردوس والتملي.

وأخرجه البغوي في معالم التنزيل (١٤٣/٣) في آخر سورة بني إسرائيل.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما به - مرفوعاً، وفيه
انقطاع؛ وعن ابن عباس مثله.

رواه البغوي في تفسير (سبحان)، وفيه نصر بن حماد وهو ضعيف. انتهى.

(١) وما كان شكري وافياً بشوالكم ولكنني حاولت في الجهد مذهبا

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

أي لم يكن تعظيمي لإياكم وافياً بحق عطايتكم، ولكنني أردت من الاجتهاد في تعظيمكم مذهبا،
وبينه بقوله: إن نعمتكم علي أفادتكم من يدي ولساني وجناني، فهي وأعمالها لكم، قال السيد
الشريف: هو استشهاد معنوي على أن الشكر يطلق على أفعال الموارد الثلاثة. وبيان أنه جعلها
جزاء للنعمة، وكل ما هو جزء للنعمة عرفاً يطلق عليه الشكر لغة، فكأنه قال: كثرت نعمتكم عندي
فوجب علي استيفاء أنواع الشكر لكم، وبالف في ذلك حتى جعل مواردها ملكاً لهم، وقيل: النعماء
جمع للنعمة، لكن ظاهر عبارة اليد أنها بمعناها، ورواية البيت الأول بعد الثاني أحسن موقفاً وأظهر
استشهاداً.

ينظر ابن كثير ٢٢/١، غرائب الفرقان ٩٢/١.

وآداب الجوارح؛ لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان، وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه.

والحمد: نقيضه الذم، والشكر: نقيضه الكفران، وارتفاع الحمد بالابتداء، وخبره الظرف الذي هو «الله» وأصله النصب^(١) الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً، وكفراً، وعجباً، وما أشبه ذلك، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها، ويسدّون بها مسدّها، لذلك لا يستعملونها معها، ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء؛ للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَكَمًا قَالَ سَكَمٌ﴾ [هود: ٦٩]، رفع السلام الثاني؛ للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - حياتهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدّده وحدوثه. والمعنى: نحمد الله حمداً، ولذلك قيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ لأنه بيان لحمدهم له، كأنه قيل: كيف تحمدون؟ فقيل: إياك نعبد. فإن قلت: ما معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في أرسلها العراك^(٢)، وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد ما هو، والعراك ما هو، من بين أجناس الأفعال، والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم^(٣).

(١) قال محمود رحمه الله: «الأصل في الحمد النصب... إلخ» قال أحمد: ولأن الرفع أثبت. اختار سيبويه في قول القائل: رأيت زيداً فإذا له علم علم الفقهاء: الرفع، وفي مثل: رأيت زيداً فإذا له صوت صوت حمار: النصب، والسر في الفرق بين الرفع والنصب أن في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صيغة الفعل إشعار بالتجدد والطرو، ولا كذلك الرفع، فإنه إنما يستدعي اسماً: ذلك الاسم صفة ثابتة، ألا ترى أن المقدّر مع النصب نحمد الله الحمد. ومع الرفع الحمد ثابت لله أو مستقر.

(٢) قال محمود رحمه الله: «وتعريف الحمد نحو التعريف في أرسلها العراك وهو تعريف الجنس ومعناه

ال«خ» قال أحمد رحمه الله: تعريف التكرار باللام إما عهدي وإما جنسي، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس باعتبار يميّزه عن غيره من الأفراد كالتعريف في نحو «فَقَصْنِ يُرَيَّوْثُ أَرْثَوُكُ»، وإما أن ينصرف العهد فيه إلى الماهية باعتبار يميّزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف في نحو «أكلت الخبز، وشربت الماء»، والجنسي هو الذي ينضم إليه شمول الأحاد، نحو: الرجل أفضل من المرأة، وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقها، وإنما يوجب الجنس خاصة: «فالزَمْخَشَرِي جعل تعريف الحمد من النوع الثاني من نوعي العهد، وإن كان قد عبر عنه بتعريف الجنس؛ لعدم اعتناؤه باصطلاح أصول الفقه. وغير الزَمْخَشَرِي جعله للجنس فقضى بإفادته، لاستغراق جميع أنواع الحمد وليس ببعيد.

(٣) يقول الزَمْخَشَرِي: في تعريف «الحمد لله»

«فإن قلت: مع معنى التعريف فيه؟ قلت: هو نحو التعريف في: أرسلها العراك وهو تعريف الجنس... والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم».

قلنا: قد عرض السيد الشريف الجرجاني هذه المسألة عرضاً قوياً مستدلاً على ما يقول، وقد لخص =

وقرأ الحسن البصري: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بكسر الدال؛ لإتباعها اللام، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بضم اللام لإتباعها الدال، والذي جسرهما على ذلك - والإتياع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم: منحدر الجبل ومعبره - تنزل الكلمتين منزلة كلمة، لكثرة استعمالهما مقترنتين، وأشف القراءتين قراءة إبراهيم؛ حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن.

الرب: المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي

== هذا كله في نهاية مقاله حيث قال:

«والحق أن السبب في الاختيار - أي اختيار الجنس دون الاستفراق - هو أن اختصاص الجنس مستفاد من جوهر الكلام، ومستلزم لاختصاص جميع الأفراد، فلا حاجة في تأدية المقصود الذي هو ثبوت الحمد لله - تعالى - وانتفاؤه عن غيره إلى أن يلاحظ الشمول والإحاطة ويستعان فيه بأمر خارج عن اللفظ، بل نقول على ما اختاره يكون اختصاص جميع الأفراد ثابتاً بطريق برهاني أقوى من إثباته ابتداء».

وبمضي السيد الشريف في كلامه موضحاً إلى أن يقول: «ومن هنا يظهر أن الحمل على الجنس دون الاستفراق محافظة على مذهبه».

قلت: أولى بالباحث أن يفهم أولاً معنى «أل» الداخلة على النكرة عند البلاغيين فأقول:

١ - إن «أل» تدخل على المَعْرِف بها ويراد منها «الجنس» والحقيقة بلا نظر إلى الأفراد أصلاً.

٢ - وقد تدخل ويراد منها «الأفراد» ولكن بلا تحديد للبعض أو بتحديد له أو يراد الكل فإذا أريد البعض مع التعيين حينئذ تسمى «لام العهد الخارجي» سواء كان:

(أ) ذكراً (ب) أو كتاباً (ج) علمياً

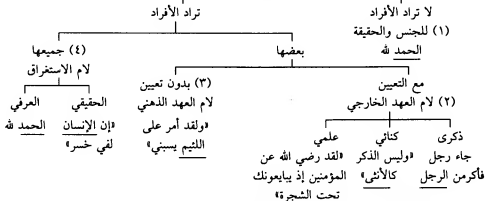
أما إذا أريد البعض بلا تعيين فتسمى «لام العهد الذهني» وهي التي مدخلها كالنكرة في جعل

الجملة التي بعدها «صفة» أو «حالة».

أما إذا أريد جميع الأفراد فتسمى «لام الاستفراق» وتحت فرعان:

(أ) الاستفراق الحقيقي (ب) العرفي

وهذه صورة بيانية لمباحث «أل» مع أمثلتها.



ينظر التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ١١١/٢، ١١٢ ط. عيسى البابي الحلبي.

من أن يرئبني رجل من هوازن (٤). تقول: ربه يربه، فهو رب، كما تقول: نم عليه ينم، فهو نم. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقيد بالإضافة، كقولهم: رب الدار، ورب الناقة، وقوله تعالى: ﴿آتِجْ إِيَّ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَثَوًّى﴾ [يوسف: ٢٣]. وقرأ زيد بن علي - رضي الله عنهما -: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالنصب على المدح، وقيل بما دل عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، كأنه قيل: نحمد الله رب العالمين.

العالم: اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين^(١)، وقيل: كل ما علم به الخالق من

٤ - أخرجه أحمد (٣/٣٧٦)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٣٨٨) حديث (١٨٦٣)، وابن حبان (١٧٠٤) - موارد) والبخاري (٢/٣٥١ - كشف) رقم (١٨٣٤) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/١١٩ - ١٢٣)؛ كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه. وأخرجه ابن هشام في السيرة (٢/٤٤٥). والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٨٣). وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، ورواه البخاري باختصار، وفيه ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى، وبقيّة رجال أحمد رجال الصحيح. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: موقوف. قال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه في قصة حنين، وفيه قول صفوان هذا؛ ومن طريقه أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الدلائل، ورواه جويرية عن مالك عن الزهري مرسلًا، وأخرجه الدارقطني في الغرائب. (تنبيه) وقع فيه أن صفوان قال ذلك لأبي سفيان. والذي في مرسل الزهري أنه قال لابن أخيه والذي في المغازي: أنه قال لأخيه ابن أمه كilde. وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن إسحاق. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «العالم اسم لذوي العلم من الملائكة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: تعليله الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحت فيه نظر؛ فإن «عالمًا» كما قرره: اسم جنس عرف باللام الجنسية، فصار العالم - وهو مفرد - أدل على الاستغراق منه جمعًا. قال إمام الحرمين رحمه الله: التمر أخرى باستغراق الجنس من التمر؛ فإن التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمر ترده إلى تخيل الوجدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب. انتهى كلامه. والتحقيق في هذا وفي كل ما يجمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس: أنه يفيد أمرين: أحدهما أن ذلك الجنس تحت أنواع مختلفة. والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحت منها؛ لكن المفيد لاختلاف الأنواع الجمع، والمفيد لاستغراق جميعها التعريف؛ ألا ترى أنه إذا جمع مجرداً من التعريف دل على اختلاف الأنواع. ثم إذا عرف أفاد استغراقاً غير موقوف على الجمعية، إذ هذا حكم مفردة إذا عرف؛ فقول الزمخشري إذا «إن فائدة جمع العالمين الاستغراق» مردود بثبوت هذه الفائدة وإن لم يجمع؛ وقول إمام الحرمين «إن الجمع يؤيد الإشعار بالاستغراق لما تنخيله من الرد إلى الوجدان» مردود بأن فائدة الجمع الإشعار باختلاف الأنواع، واختلافها لا يتنافى استغراقها بصيغة المفرد المقرر من تعريف الجنس، وإن أراد أن الجمع يخيل الإشارة إلى أنواع محله =

الأجسام والأعراض، فإن قلت: لم جُمع؟ قلت: ليشمل كل جنس مما سُمي به. فإن قلت: هو اسم غير صفة؛ وإنما تجمع بالواو والتون صفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام. قلت: ساغ ذلك؛ لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

قُرئ: «ملك يوم الدين، ومالك، وملك بتخفيف اللام/أ، وقرأ أبو حنيفة - رضي الله عنه -: مَلَكٌ يَوْمَ الدِّينِ، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: مَالِكٌ بالنصب. وقرأ غيره: مَلَكٌ، وهو نصب على المدح؛ ومنهم من قرأ: مَالِكُ، بالرفع. وملك: هو الاختيار، لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لَيْسَ الْمُلْكُ لِلْيَوْمِ﴾ [غافر: ١٦]، ولقوله: ﴿مَلِكِ أَلْسَانٍ﴾ [الناس: ٢]، ولأن المُلْكَ يعم، والمَلِكُ يخص، ويوم الدين: يوم الجزاء. ومنه قولهم: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ» (٥) وبيت الحَمَّاسَةِ: [من الهزج]

٥ - أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٧٩، من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب، عن أبي قلابة، قال رسول الله - ﷺ -: «الذنب لا ينسى، والبر لا ينسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت؛ فكما تدين تدان». ثم قال هذا مرسل. وقد ورد هذا الحديث موصولاً.

أخرجه ابن عدي في الكامل (١٥٨/٦)، من طريق محمد ابن عبد الملك الأنصاري عن نافع عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - قال: الذنب لا ينسى... إلى آخر الحديث ومحمد بن عبد الملك منكر الحديث؛ كما قال البخاري.

وقال النسائي: متروك الحديث، أسند ذلك عنهما ابن عدي في «كامله».

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

هو طرف من حديث مرفوع، أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة مرسلًا، هكذا أخرجه البيهقي في الزهد، ورواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق بسنده عن أبي قلابة عن أبي الدرداء، وهذا منقطع مع وقفه، وله شاهد موصول من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -، أخرجه ابن عدي في ترجمته محمد بن عبد الملك وضعفه.

قلت: وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن أبي أيوب الجبائري عن سعيد بن موسى عن رباح بن

= معهوده فهذا الخيال يعينه من المفرد، فالعالم إذاً جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والإنس والملائكة، وعرف ليفيد هموم الربوبية لله تعالى في كل أنواعه؛ وتوضيح هذا التقرير: أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا آحاد متساوية وهو الذي يسميه غير النحاة النوع الأسفل، لما جاز جمع هذا بحال، لا معرفاً ولا منكرًا، وبهذه الفائدة يرد قول إمام الحرمين «إن التور جمع من حيث اللفظ» لا معنى تحته لجمع الجمع في نحو نوق ونياق وأنيق؛ وأما تعليل الزمخشري جمعه بالواو والتون بإشعاره لصفة العلم فيلحق بصفات من يعقل، فصحيح إذاً الأمر على أنه لا يتناول إلا أولى العلم: وأما على القول بأنه اسم لكل موجود سوى الله، فيحتاج إلى مزيد نظر في تغليب العاقل في الجمع على غير العاقل.

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دَنَاهُمْ كَمَا ذَأَنُوا^(١)

فإن قلت: ما هذه الإضافة؟ قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع، مجرى مجرى المفعول به، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، والمعنى على الظرفية، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين، كقوله: ﴿لَيْنَ الْمُلْكِ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]. فإن قلت: إضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقة؛ فلا تكون معطية معنى التعريف، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال، فكان في تقدير الانفصال، كقولك: مالك الساعة، أو غداً. فأما إذا قصد معنى الماضي، كقولك: هو مالك عبده أمس، أو زمان مستمر، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية، كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: ملك الأمور يوم الدين، كقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾

= زيد عن معمر عن الزهري عن أنس حديثاً موضوعاً، وفيه: إن الله تعالى قال: «يا موسى كما تدين تدان»، والمتهم بوضعه سعيد بن موسى انتهى.

(١) صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان
فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ن - دناهم كما دانوا

لشهل بن شيبان بن ربيعة. وليس في العرب شهل بالمعجمة غيره هو وشهل بن أنمار بن أراش. يقول: صفحنا عن بني ذهل رحمة بهم لعلمهم يرجعون، فلما ظهر الشر بيننا وبالع في الظهور حتى كأنه رجل عريان عن ثيابه، فشبّه الشر بإنسان على طريق المكنية وأثبت له العري تخيلاً. ويروى: وهو غرثان، أي: جائع، فهو على التشبيه أيضاً. وقيل: أراد بالشر: السيف، وعريه: تجرده عن غمده. وزيد الواد قبل الجملة الواقعة خبر لأمسى لتأكيد الربط، تشبيهاً لها بالجملة الواقعة حالاً، ولم يبق سوى عدوان بعضنا على بعض، أو سوى عدوانهم علينا جازيناهم كما ظلمونا، وسمي الثاني ديناً مشاكلة، وهي مجاز علاقة المجاورة وقسم برأسه خلاف بين القوم، ومذهب الجمهور أن سوى لا تخرج عن النصب على الظرفية المكانية إلا في الضرورة كما هنا، ومذهب ابن مالك كالزجاجي أنها بمعنى غير فتصرف في الاختيار، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «سألت الله أن لا يسلب على أمي عدواً من سوى أنفسها» وقول بعض العرب: اتاني سواك، أي: غيرك، وصرح صراحاً بالتحريك: خلص خلوصاً وظهر، وصرح تصريحاً: خلص تخليصاً وأظهر، فما هنا من الأول. ويروى بدل الشطر الثاني: بدا والشر عريان، وفيه إظهار الشر في مقام الإضمار، و«بدا» بدل من صرح، وفيه تبيين وتفسير لمعناه، وأما جواب «لما» فهو قوله: دناهم كما دانوا.

ينظر: أمالي القاضي ٢٦٠/١، وحماسة البحري ص ٥٦، وخزانة الأدب ٤٣١/٣، والدرر ٩٢/٣، وسمط اللآلي ص ٩٤٠، وشرح التصريح ٣٦٢/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٥، وشرح شواهد المغني ٩٤٠/٢، والمقاصد النحوية ١٢٢/٣، أوضح المسالك ٢٨١/٢، وشرح الأشموني ٢٣٦/١، وشرح ابن عقيل ص ٣١٦، وجمع الهوامع ٢٠٢/١، اللسان: دين، المحرر الوجيز ٧١/١، الدرر ٧٢/١.

[الأعراف: ٤٤]، ﴿وَبَاذِكُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَابِ﴾ [الأعراف: ٤٨]، والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: «مَلَكَ يَوْمَ الدين»، وهذه الأوصاف التي أجريت على الله - سبحانه - من كونه رباً مالِكاً للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلال والحقائق، ومن كونه مالِكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به، وأنه به حقيق في قوله: الحمد لله - دليل على أنَّ من كانت هذه صفاته، لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

«إيا»: ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إياك، وإياه، وإيائي، لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب، كما لا محل للكاف في رأيك، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» - فشيء شاذ لا يعول عليه، وتقديم المفعول؛ لقصد الاختصاص^(١)، كقوله

(١) قوله «وتقديم المفعول لقصد الاختصاص».

قلنا: المفعول هو: ما يقع عليه فعل الفاعل كقوله - تعالى - ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وحق المفعول أن يكون بعد الفاعل؛ لأن ترتيب الجملة الفعلية من الآية [البقرة] «فعل وفاعل ومفعول» لالتصاق الفعل بفاعله ثم بعد ذلك تأتي المفاعيل التي يقع عليها فعل الفاعل.

وبهذا يكون التقديم من هذا المقام الأصلي له لفائدة كالاختصاص والاهتمام وغير ذلك ومعنى الاختصاص: تعد شيء على شيء بطريق مخصوص كما هنا في الآية ترى تقديم ما حقه التأخير. وللقصد تقسيمات بحسب الحقيقة والإضافة والصفة والموصوف، وينظر فيه إلى حال المخاطب به. وهي تفرعات بلاغية تنظر في محلها من كتب البلاغة الأصلية.

والذي نعني به هنا أن الزمخشري قال بالاختصاص في هذا التقديم، وقد نازعه فيه أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، وذكر أن كلامه هذا زعم مردود عليه، وبين أن التقديم للاعتناء والاهتمام بالمفعول.

وقد رد كلام أبي حيان شيخنا أبو موسى في بحثه عن بلاغة القرآن في الكتاب ولا تعصب منه في هذا، بل هو فهم دقيق لكلام الزمخشري، وكلام أبي حيان معاً، ومن أراد الإفادة فعليه بمراجعة كلام الجميع والوقوف عند كلامهم، وبذلك يرى ما للزمخشري من حق فيما قال.

وقد تابعت الباحثين في الآية فرأيت ما أفادوه من الاختصاص كما قال الزمخشري وغيره ولا مانع مع الاختصاص من الاهتمام، ولذا كان العلامة الشوكاني أحكم في فهمه لهذا الموطن حيث قال «والصواب أنه لها، ولا تراحم بين المقصديتين».

ينظر علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ٣٦١/١ وما بعدها - د. فتحي حجازي. كما ينظر هذا في النسفي ٥٧/١، وإرشاد العقل السليم لابن السعد ١٦/١ مفتاح الغيب للرازي ٢٩٨/١، حاشية الشهاب على البيضاوي ١١٢/١ روح المعاني للالوسي ٨٧/١، ٨٨، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ١١٩/٢، والإيضاح ٤/٣ وما بعدها، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٥٠ وما بعدها، والبحر المحيط ٩/١.

تعالى: ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ تَأْمُرُوكَ أَغْنَىٰ﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ أَنْتَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].
والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة. وقرئ: «إِيَّاكَ» بتخفيف الياء،
و«إِيَّاكَ» بفتح الهمزة والتشديد، و«هَيَّاكَ» بقلب الهمزة هاء؛ قال طَقْفِيلُ الْغَنَوِيُّ: [من
الطويل]

فَهَيَّاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنَّ تَرَاحَبْتَ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ^(١)

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه: ثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة
وقوة النسخ، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله - تعالى -، لأنه مولى أعظم النعم،
فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع، فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟
قلت: هذا يسمى/ ٥ الالتفات في علم البيان^(٢)، قد يكون^(٣) من الغيبة إلى الخطاب،

(١) لمضرس بن رباعي، وقيل لطفي، وهياك: أصله إياك، قلبت همزته هاء، وهو في محل نصب
بمحذوف وجوباً، والأمر: عطف عليه، والأصل: احذر تلاقي نفسك والأمر فحذف ما عدا ضمير
الخطاب وما عطف عليه لكثرة الاستعمال. ولأن مقام التحذير يقتضي السرعة وإيجاز الكلام، وقيل
أصله: باعد نفسك من الأمر وباعد الأمر من نفسك، فحذف لذلك، وشبه أسباب الدخول في الأمر
بالموارد: أي مواضع ورود إلى نحو الماء، وأسباب الخروج منه بالمصادر: أي مواضع الصدور:
أي الرجوع، فكل منهما استعارة تصريحية، وأما تشبيه الأمر بشيء له موارد ومصادر كالماء على
طريقة المكنية، فهو خارج عن قانون البيان؛ لأن الأمر يطلق على كل شيء، فتخصيصه بغير نحو
الماء ثم تشبيهه به، بالقصد لا بالوضع. وروى هكذا:

فإِيَّاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنَّ تَوَسَّعَتْ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ الْمَصَادِرُ

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

أي فليس عذر المرء لنفسه حسناً: أي قبوله لاعتذارها بعد وقوعها في الورطة، وقوله: وليس له
الخ: جملة حالية وعلى هذا فحقه حرف الزاء. وهو في: شرح شواهد الشافية ص ٤٧٦، ولطفيل
الغنوي أو لمضرس في ديوان طفيل ص ١٠٢، وبلا نسبة في الإنصاف ٢١٥/١، وسر صناعة
الإعراب ٥٥٢/٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٥٢، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/
٢٢٣، وشرح المفصل ١١٨/٨، ٤٢/١٠، ولسان العرب (هيا) (أيا) والمحتسب ٤٠/١، والمعتم
في التصريف ٣٩٧/١، والمنصف ١٤٥/٢.

(٢) قوله «قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان» ٦٢/١ الكشف أقول: الالتفات لغة: مصدر التفت

أي صرفت وجهي إلى جهة أخرى قال من اللسان: قال أي أحد الشعراء ولم يعينه:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يلاحظني من حيث ما أتلفت

وفي الإصطلاح: (أ) عند الجمهور:

التعبير عن معنى بطريق من طرق الكلام الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة بمد التعبير عنه بطريق آخر منها.
ولا بد أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر، ويتروقه السامع (ب) عند السكاكي:

التعبير بإحدى الطرق المتقدمة عن المعنى خلافاً لما يقتضيه الظاهر ولم يشترط تقدم طريق من هذه
الطرق، بل يجوز أن يكون بداية على خلاف الظاهر كما في قول امرئ القيس:

تطاول ليلاً بالإنمء... ولم يقل على الظاهر: تطاول ليلى.

ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَّهْتُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرَ مَحَابٍ فَسَقَتْهُ﴾ [فاطر: ٩].

وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات^(١): [من المقارب]

تَطَاوَلْ لَيْلُكَ بِالْأَثْمِدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَزُقْ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الْأَزْدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَا جَاءَنِي وَخُبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ^(٢)

= وبهذا عرف الفارق بين قول السكاكي والجمهور، واستبان ما يميل إليه الزمخشري رحمه الله. والكلام في الالتفات وتفرعاته ومواطنه وأسراره في مراجع البيان وأصول البلاغيين. «ينظر الإيضاح بتحقيق خفاجي ١١٩/٢ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٤٤٣، والمطلوب ٩٦/٩٥، ولسان العرب (لغت).

(٣) قوله «في علم البيان» قد يكون لعله وقد، وعبرة النسفي: وهو قد يكون. (ع)

(١) قال محمود رحمه الله: «وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات... إلخ». قال أحمد رحمه الله: يعني أنه ابتداءً بالخطاب ثم التفت إلى الغيبة، ثم إلى التكلم وعلى هذا فهما التفاتان لا غير، وإنما أراد الزمخشري والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب: خطاب لحاضر، وغائب، ولنفسه، فوهم بقوله ثلاث التفاتات، أو تجعل الأخير ملتفتاً للتفاتين عن الثاني وعن الأول فيكون ثلاثاً، والأمر فيه سهل.

قال السمين الحلبي: وقد خطأ بعضهم الزمخشري في جعله هذا ثلاثة التفاتات وقال: بل هما التفاتان:

أحدهما: خروج من الخطاب المفتوح به في قوله: «لَيْلُكَ» إلى الغيبة في قوله: «وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ».

والثاني: الخروج من هذه الغيبة إلى التكلم في قوله: «مِنْ نَبَا جَاءَنِي وَخَبْرَتُهُ».

والجواب أن قوله أولاً: «تَطَاوَلْ لَيْلُكَ» فيه التفات؛ لأنه كان أصل الكلام أن يقول: تطاول ليلي، لأنه هو المقصود فالتفت من مقام التكلم إلى مقام الخطاب، ثم من الخطاب إلى الغيبة، ثم من الغيبة إلى التكلم الذي هو الأصل. وقرئ شاذاً: «إِيَّاكَ يُغَيِّدُ» على بنائه للمفعول الغائب، ووجهها على إشكالها: أن فيها استعارة والتفاتاً أما الاستعارة فإنه استعير فيها ضمير النصب لضمير الرفع والأصل: أنت تعبد وهو شائع؛ كقولهم: عساك وعسائي في أحد الأقوال وقول الآخر [من الرجز]:

يَابْنَ الزُّبَيْرِ طَالَمَا عَصَيْتُكَ وَطَالَمَا عُنَيْتُنَا إِيَّاكَ

فالكاف في «عَصَيْتُكَ» ناتية عن التاء، والأصل: عصيت. وأما الالتفات فكان من حق هذا القارئ أن يقرأ: إِيَّاكَ تُغَيِّدُ بِالْخَطَابِ، ولكنه التفت من الخطاب في «إِيَّاكَ» إلى الغيبة في «يُغَيِّدُ»، إلا أن هذا التفات غريب؛ لكونه في جملة واحدة، بخلاف الالتفات المتقدم ونظير هذا الالتفات قوله [من الطويل]:

أَلَّتْ الْهَلَالِي الَّذِي كُنْتُ مَرَّةً سَمِعْنَا بِهِ وَالْأَرْحَبِي الْمَغْلَبَ؟

فقال: «به» بعد قوله: «أنت وكنت». انتهى. الدر المصون.

(٢) لامرؤ القيس بن حجر الجاهلي، وقال ابن هشام: هو غلط، وقائله امرؤ القيس بن عابس الصحابي، وقيل لامرؤ بن معديكرب، والأثم كأحمد، وقد تضم ميمه، وقد يروى بكسرهما: اسم موضع، والعائر اسم جامد يطلق على قذى تدمع منه العين، وعلى الرمد، وعلى كل ما أعل العين، وفي الشعر ثلاث التفاتات، لكن الأول على مذهب السكاكي فقط: وهو أنه كان الظاهر التعبد =

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعهم بفوائد، ومما اختص به هذا الموضوع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقل: إياك، يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به، فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قدّمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها، فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟^(١) قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوقيفه على أداء العبادة، ويكون قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٦]؛ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهْدِنَا الصراط المستقيم، وإنما كان أحسن؛ لتلاؤم الكلام، وأخذ بعضه بحجزة بعض، وقرأ ابن جبيش: «نستعين»، بكسر النون.

= بطريق التكلم فالتفت إلى الخطاب وذلك في البيت الأول. والثاني: عدوله عن الخطاب إلى الغيبة في الثاني. والثالث: التفاته عن الغيبة إلى التكلم في الثالث. والجمهور يجعلون الأول من قبيل التجريد. وأبو الأسود: كنية صاحب الشاعر الذي يرثيه، وقيل هو المخبر واسمه ظالم بن عمرو وهو عم امرئ القيس. وقيل أبي مضاف لياء المتكلم والأسود صفته، ويروى: عن بني الأسود.

ينظر: ديوانه ص ١٨٥، وتخليص الشواهد ص ٢٤٣، وشرح قطر الندى ص ١٣٦، شرح التصريح ١/١٩١، ولعمرو بن معديكرب في ديوانه ص ٢٠٠، ولعمرو أو لامرئ القيس في سمط اللآلي ص ٥٣١، ولامرئ القيس بن عابس في المقاصد النحوية ٢/٣٠، وله أو لامرئ القيس الكندي أو لعمرو بن معديكرب، في شرح شواهد المغني ٢/٧٣٢، وأوضح المسالك ١/٢٥٤، وجمهرة اللغة ص ٧٧٥، وشرح الأشموني ١/١١٥، والبيان لابن محمد الطيبي ٢٨٧، والطرارز لابن حمزة العلوي ٢/١٤٠، البحر المحيط ١/١٤٢، الدر ١/٧٥.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت لم قدمت العبادة على الاستعانة... إلخ». قال أحمد: معتقد أهل السنة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء - تعالى الله عن ذلك - والثواب عندنا - من الإعانة في الدنيا على العبادة ومن صنوف النعيم في الآخرة - ليس بواجب على الله تعالى، بل فضل منه وإحسان. وفي الحديث «أنه عليه الصلاة والسلام قال: لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته»، مضافاً إلى دليل العقل المحيل أن يجب على الله تعالى شيء، لكن قام الدليل عقلاً وشرعاً على أنه تعالى لا يجب عليه شيء، فقد قام عقلاً وشرعاً على أن خبره تعالى صدق ووعد حق، أي يجب عقلاً أن يقع، فإما أن يكون الزمخشري تسامح في إطلاق الاستيجاب وأراد وجوب صدق الخبر، وإما أن يكون أخرجه على قواعد البدعية في اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى وإن لم يكن وعد.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

هدى: أصله أن يتعدى باللام أو بالياء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَالَّذِي لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فعومل معاملة - اختار - في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. ومعنى طلب الهداية - وهم مهتدون - طلب زيادة الهدى بمنح الإلطف، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَقْنَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وعن علي وأبي - رضي الله عنهما - : اهدنا: ثبنا، وصيغة الأمر والدعاء واحدة، لأن كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتان في الرتبة، وقرأ عبد الله: أرشدنا.

«السرائط»: الجادة، من سراط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلکوه، كما سُمي: لقماً؛ لأنه يلتقمهم، والسرائط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: «مصيطر»، في «مسيطر»، وقد تشم الصاد صوت الزاي، وقرىء بهن جميعاً، وفصاحهن إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام، ويجمع سراطاً، نحو: كتاب وكتب. ويذكر ويؤنث كالطريق والسيل، والمراد طريق الحق، وهو ملة الإسلام.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل/١٦، كأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، كما قال: ﴿يَلِّدِينَ اسْتَعْمِلُوا لِمَنْ أَمَنَّ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، فإن قلت: ما فائدة البذل؟ وهلا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدة التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وأكده، كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان؛ فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم، والفضل من قولك: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؟ لأنك ثبت ذكره مجملاً أولاً، ومفصلاً ثانياً، وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل، فجعلته علماً في الكرم والفضل، فكانك قلت: من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان، فهو الشخص المعين، لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع.

والذين أنعمت عليهم: هم المؤمنون، وأطلق الإنعام؛ ليشمل كل إنعام^(١)؛ لأن من

(١) قال محمود رحمه الله: وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام. قال أحمد رحمه الله: إن إطلاق الإنعام يفيد الشمول كقوله: إن إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه، وليس بمسلم فإن الفعل لا عموم =

أُنِعِمَ عليه بنعمة الإسلام، لم تبق نعمة إلا أصابته، واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا، وقيل: هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: «صراط من أنعمت عليهم».

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى أَنَّ المنعم عليهم: هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال.

فإن قلت: كيف صح أن يقع: ﴿غَيْرِ﴾ صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لا توقيت فيه كقوله [من الكامل]: وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللَّئِيمِ يُسَبِّحُنِي^(١)

ولأنَّ المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم، فليس في - غير - إذن الإيهام = لمصدره، والتحقق أن الإطلاق إنما يقتضي إيهاماً وشيوعاً. والنفس إلى المبهم أشوق منها إلى المعيد لتعلق الأمل مع الإيهام لكل نعمة تخطر بالبال.

(١) ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمة قلت لا يعنيني غضبان ممتلىء علي إهابه إنسى وربك سخطه يرضيني

لرجل من بني سلول، ويسبني صفة للئيم وإن قرُن بال، لأنه ليس المراد لئيماً بعينه بدليل مقام التمدح ف «ال» فيه للعهد الذهني لا الخارجي. ومدخولها في المعنى كالنكرة، فجاز وصفه بالجملة وإن كانت لا يوصف بها إلا النكرة، وهذا يفيد اتصافه بالسب دائماً لأحال المرور فقط وهو لمراد، وكان الظاهر أن يقول: فأمضي ثم أقول، ولكن أتى بالماضي دلالة على تحقق ذلك منه، وروي: فأعف ثم أقول: أي أكف عنه وعن مكافأته، ويحتمل أنه أراد صرحت على صيغة الماضي بالمضارع لحكاية الحال، هذا والظاهر أن الجملة حالية، أي: أمر على اللئيم حال كونه يسبني وأنا أسمع فأعرض عنه وأقول إنه لا يقصدني بذلك السب الذي سمعته منه، وليس المراد وصفه بالسب الدائم، لأنه لا يظهر مع تخصيص السب بوقوعه على ضمير المار، على أنه يمكن جعل الحال لازمة فتفيد الدوام. هو غضبان ممتلىء جلده غضباً علي لكن لا أبالي بذلك، فإني وحق ربك غضبه يرضيني، فليدم عليه وليزدد منه، والإهاب: الجلد قبل ديبه بل وقبل سلخه كما هنا.

ينظر في الدرر ٧٨/١، وشرح التصريح ١١/٢، وشرح شواهد المغني ٣١٠/١، والكتاب ٢٤/٣، والمقاصد النحوية ٥٨/٤، ولشمر بن عمرو الحنفي في الأصمعيات ص ١٢٦، ولعميرة بن جابر الحنفي في حماسة البحرني ص ١٧١، وبلا نسبة في الأذهية ص ٢٦٣، والأشياء والنظائر ٩٠/٣، والأضداد ص ١٣٢، وأمالى ابن الحاجب ص ٦٣١، وأوضح المسالك ٢٠٦/٣، وجواهر الأدب ص ٣٠٧، وخزانة الأدب ٣٥٧/١، ٣٥٨، ١٠١/٣، ٢٠٧/٤، ٢٠٨، ٢٣/٥، ٥٠٣، ١٩٧/٧، ١١٩/٩، ٣٨٣، والخصائص ٣٣٨/٢، ٣٣٠/٣، والدرر ١٥٤/٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٢١، وشرح شواهد المغني ٨٤١/٢، وشرح ابن عقيل ص ٤٧٥، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢١٩، ولسان العرب (ثم) (من)، ومغني اللبيب ١٠٢/١، ٤٢٩/٢، ٦٤٥، وفتح الهوامع ٢٩/١، ١٤٠/٢، والدرر المصنوع ٣٥٤/١.

الذي يأبى عليه أن يتعزف، وقرىء بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل: أنعمت، وقيل: المغضوب عليهم: هم اليهود؛ لقوله - عز وجل -: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والضالون: هم النصاري؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، فإن قلت: ما معنى غضب الله؟ قلت: هو إرادة الانتقام^(١) من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده، نعوذ بالله من غضبه، ونسأله رضاه ورحمته. فإن قلت: أي فرق بين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الأولى و﴿عَلَيْهِمْ﴾ الثانية؟ قلت: الأولى: محلها النصب على المفعولية، والثانية: محلها الرفع على الفاعلية، فإن قلت: لم دخلت: «لا» في ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟ قلت: لما في - غير - من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيدا غير ضارب، مع امتناع قولك: أنا زيدا مثل ضارب؛ لأنه بمنزلة قولك: أنا زيدا لأضارب، وعن عمر وعلي - رضي الله عنهما - أنهما قرآ: وغير الضالين، وقرأ أيوب السخيتاني: «ولا الضالين» - بالهمز، كما قرأ عمرو بن عبيد: «ولا جان»، وهذه لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين^(٢). ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شابة، ودابة.

أمين: صوت سمي به الفعل الذي هو/ب استجب، كما أن: «رويد، وحيهل، وهلم»: أصوات سميت بها الأفعال التي هي «أهمل، وأسرع، وأقبل»، وعن ابن عباس -

٦ - أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما في تخريج الزيلعي (٢٧/١) =

(١) قال محمود رحمه الله: «ومعنى الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام... إلخ» قال أحمد: أدرج في هذا ما يقتضي عنده وجوب وعيد العصاة، وليس مذهب أهل السنة، بل الأمر عندهم في المؤمن العاصي موكول إلى المشيئة: فمنهم من أراد الله تعالى عقوبته والانتقام منه فيقع ذلك لا محالة، ومنهم من أراد العفو عنه وإثابته فضلاً منه تعالى، على أن المغضوب عليهم والضالين واقعان على الكفار، ووعيدهم واقع لا محالة ومراد، والله الموفق. أقول: قال الزمخشري رحمه الله: الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام من العصاة إلخ لا يدل على ما فسر، فإن وجوب وعيد العصاة لا يعلم منه. والغضب من الله عند أهل السنة والمعتزلة: عبارة عما ذكره الزمخشري رحمه الله، إلا أن عند أهل السنة أن الله تعالى إن شاء عذب صاحب الكبيرة وإن شاء غفر له، وعند المعتزلة وجوب عذابه: فعند المعتزلة ظاهر أن الغضب عبارة عن إرادة الانتقام، وعند أهل السنة: إن غفر له فلا غضب، وإن لم يغفر له فغضبه عبارة عما ذكره.

(٢) قال السمين الحلبي: وقد فعلوا ذلك حيث لا ساكنان، قال الشاعر [من الرجز]:

فَجَسَدِيَّ حَامَةً هَذَا الْعَالَمِ.

انتهى. الدرر المصنوع.

رضي الله عنهما - : سألت رسول الله ﷺ عن معنى آمين؟ فقال: «أَقْعَلُ» (٦) وفيه لغتان: مَدُّ أَلْفِهِ، وَقَصْرُهَا؛ قال: [من البسيط]

وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ^(١)

وقال: [من الطويل]

آمِينَ فَرَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُغْدًا^(٢)

وعن النبي ﷺ: «لَقَنْتِي جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - آمِينَ عِنْدَ قَرَأَتِي مِنْ قِرَاءَةِ قَاتِحَةٍ

= وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٤/١)، وجويز في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس؛ كما في الدر المنثور (٤٤/١).

قال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه الثعلبي من رواية أبي صالح عنه بإسناد وإو. انتهى.

(١) يا رب إنك ذو منٍّ ومغفرة
الذاكرين الهوى من بعدما رقدوا
بيت بعافية ليل المحبيننا
الساقطين على الأيدي المكبيننا
يا رب لا تسلبني حبها أبداً
ويرحم الله عبداً قال آميناً

لقيس بن معاذ الملوخ مجنون ليلي العامرية، اشتد وجده بها، فأخذه أبوه إلى الكعبة ليدعو الله عسى أن يشفيه، فأخذ بحلقه بابها وقال ذلك. والدعاء لليل المحبين مجاز عقلي، وهو في الحقيقة لهم، وبين أن رقادهم ليس على المعتاد بقوله: الساقطين على الأيدي، المكبين على الوجوه حيرة وسكرة، ثم دعا بأن يديم الله حبها، ودعا لمن يؤمن على دعائه بأن يقول: آمين، وهو اسم فعل، أي استجب يا الله هذا الدعاء، وهو بالمد، ويجوز قصره.

البيت للمجنون ينظر ديوانه ص ٢١٩، ولعمر بن أبي ربيعة ينظر لسان العرب (أمن) وليس في ديوانه، إصلاح المنطق ص ١٧٩، وإنباء الرواة ٢٨٢/٣، وشرح الأشموني ٤٨٥/٢، وشرح المفصل ٣٤/٤، وشرح شذور الذهب ص ١٥١، أمالي ابن الشجري ٢٥٩/١، شذور الذهب ١٥٧، معاني الزجاج ١٧/١، الصحاح: (أمن)، البيان في غريب إعراب القرآن ٤٢/١، مقاييس اللغة ١٣٥/١، القرطبي ٩٠/١، الدر ٨٧/١، فتح القدير ٧٨/١.

(٢) تباعد عني فطحل إذ دعوته آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

لجبير بن الأصبط كان قد سأل فطحلاً فأعرض عنه فدعا عليه، ويروي تباعد مني فطحل وأبي، وآمين: بقصر الهمزة على اللغة العربية الأصلية. وأما بالمد فقليل أعجمي؛ لأنه ليس في لغة العرب فاعيل. وقيل: أصله بالقصر فأشبعت همزته: اسم فعل بمعنى استجب، ورتبه بعدما بعده. قدمه حرصاً على طلب الإجابة ووقوع الدعاء مجاباً من أول وهلة. والفاء للبيانية عما قبلها. أي: حيثما تباعد عني فزد ما بيننا بعداً يا الله، وبعداً: يجوز أن يكون تمييزاً، وأن يكون مفعولاً.

ينظر: تهذيب إصلاح المنطق ٤٢/٢، إصلاح المنطق ص ١٧٩، وشرح الأشموني ٤٨٥/٢، وشرح شذور الذهب ص ١٥٢، وشرح المفصل ٣٤/٤، ولسان العرب (حطل)، (أمن)، ومعاني الزجاج ١٧/١، الصحاح ٢٠٧/٥، مقاييس اللغة ١٣٥/١، والقرطبي ٩٠/١، الدر ٨٧.

الكِتَابِ» وقال: «إِنَّهُ كَالْحَخْمِ عَلَى الْكِتَابِ» (٧)، وليس من القرآن؛ بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، وعن الحسن: لا يقولها الإمام؛ لأنه الداعي، وعن أبي حنيفة - رحمه الله - مثله، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها، وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس عن رسول الله ﷺ (٨). وعند الشافعي يجهر بها. وعن وائل بن حجر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا قَرَأَ: وَلَا الضَّالِّينَ، قَالَ: آمِينَ وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ» (٩). وعن رسول الله ﷺ (١) أنه قال

٧ - قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ (٢٧/١).

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده هكذا. وفي «الدعاء» لابن أبي شيبه من رواية أبي ميسرة أحد كبار التابعين قال: أقرأ جبريل - عليه السلام - النبي - ﷺ - فاتحة الكتاب فلما قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال له: قل: آمين. فقال: آمين، قلت: وعند أبي داود عن أبي زهير قال: آمين مثل الطابع على الصحيفة وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين»، وهو في الدعاء للطبراني. انتهى.

٨ - قال الزيلعي: في «تخريج الكشاف» (٢٧/١) غريب جداً.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

لم أجده عن واحد منهما. انتهى.

٩ - أخرجه أحمد (٣١٥/٤)، والطحاوي (١٠٢٤)، والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢)، وابن حبان (١٠٩/٥) حديث (١٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٥٧/٢)، والطبراني (٤٥/٢٢) (١١٢) عن طريق شعبة عن سلمة بن كهيل عن حجر أبي العنبر عن علقمة بن وائل عن أبيه: وفي لفظه: وأخفى بها صوته.

وصحح هذا الطريق الحاكم وابن حبان.

قال الدارقطني في سننه (٣٣٤/١): كذا قال شعبة: «وأخفى بها صوته» ويقال: إنه وهم فيه؛ لأن سفيان الثوري ومحمد بن سلمة بن كهيل، وغيرهما رووه عن سلمة، فقالوا: «ورفع صوته بآمين» وهو الصواب. ١. هـ.

أما طريق سفيان الذي أشار إليه الدارقطني.

أخرجه ابن أبي شيبه (٤٢٥/٢)، وأحمد (٣١٦/٤) وأبو داود (٢٤٦/١): كتاب الصلاة: باب التأمين وراء الإمام، حديث (٩٣٢)، والترمذي: كتاب الصلاة باب ما جاء في التأمين (٢/٢٧) حديث برقم (٢٤٨)، والدارمي (٢٨٤/١): كتاب الصلاة: باب الجهر بالتأمين، والطبراني (٤٤/٢٢) حديث (١١١)، والدارقطني (٣٣٤/١): كتاب الصلاة: باب التأمين في الصلاة بعد =

(١) قوله: وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعلم أن صاحب الكتاب التزم أن يذكر آخر كل سورة حديثاً لبيان فضلها، ولكن ليست كلها صحيحة فقد قال الجلال السيوطي: اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها: الفاتحة، والزهرراوان، والأنعام، والسبع الطوال مجعلاً، والكهف، ويس، والدخان، والملك، والزلزلة، والنصر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتان. وما عداها لم يصح فيه شيء. هـ. والزهرراوان: البقرة، وآل عمران. والسبع الطوال: من أول البقرة إلى آخر براءة - بعدها مع الأنفال سورة واحدة - قاله الأجهوري على البيهقي في مصطلح الحديث. (ع)

لأبي بن كعب: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِسُورَةٍ لَمْ يُنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ بِمِثْلِهَا؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ؛ إِنَّهَا السُّنْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ» (١٠).

== فاتحة الكتاب والجهر بها، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٧/٢١): كتاب الصلاة: باب جهر الإمام بالتأمين والبغوي (٢٠٨/٢) كتاب الصلاة: باب الجهر بالتأمين في صلاة الجهر، حديث (٥٨٧) من طريق سفيان عن سلمة بن كهيل به.

وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٢٥/٢) وأبو داود (٢٣٦/١): كتاب الصلاة: باب التأمين وراء الإمام، حديث (٩٣٢)، والترمذي (٢٩/٢) كتاب الصلاة: باب ما جاء في التأمين، حديث رقم (٢٤٩)، والطبراني في معجمه الكبير (٤٥/٢٢): حديث (١١٤) من طريق العلاء بن صالح عن سلمة به، وأخرجه من طريق محمد بن كهيل، عن حجر بن عيسى عن وائل؛ ولفظ رواية سفيان: «يمد بها صوته» وعند أبي داود والطبراني: «يرفع بها صوته»، ولفظ العلاء بن صالح: «فجهر بآمين، وسلم عن يمينه وعن شماله حتى رأيت بياض خده، وقد صحح إسناده البيهقي في المعرفة، والحافظ في تلخيص الحبير (٢٣٦/١).

وقد توسع البيهقي رحمه الله في «الخلافيات» في الكلام على هذا الحديث، وترجيح رواية سفيان ومن وافقه.

وانظر تعليقاتنا هناك على هذا الحديث، ففيه البسط والحمد لله على التوفيق.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف».

أخرجه أبو داود من رواية حجر بن عيسى عنه. وإسناده حسن. انتهى.

١٠ - أخرجه الترمذي (٢٩٧/٤): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الحجر، حديث (٣١٢٥)، والنسائي في المجتبى (١٣٩/٢) كتاب الافتتاح. باب تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَإً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، حديث (٩١٤)، وأحمد في مسنده (١١٢/٢)، والدارمي (٤٤٦/٢): كتاب فضائل القرآن: باب فضل فاتحة الكتاب، وابن خزيمة (٢٥٢/١) كتاب الصلاة: باب فضل قراءة الفاتحة، حديث (٥٠١)، وأبو يعلى الموصلي (٣٦٧/١١) حديث (٦٤٨٢). وابن حبان (٥٣/٣) كتاب الرقائق: باب قراءة القرآن حديث (٧٧٥)، والحاكم في المستدرک (٥٥٧/١) وعبد بن حميد (ص ٨٦) حديث (١٦٥)، والبيهقي في الكبرى (٣٧٥/٢)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢٣/٢) باب فضل فاتحة الكتاب، حديث (٣٩٣)، والطبري في تفسيره (١٤٤/٩)، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وصححه ابن خزيمة، وابن حبان.

والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢١/١)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن مردويه، وأبي ذر الهروي في فضائل القرآن.

وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد بن المَعْلَى.

أخرجه البخاري (٦/٨) كتاب التفسير: باب ما جاء في فاتحة الكتاب حديث (٤٤٧٤)، (٢٣٢/٨) كتاب التفسير باب ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَإً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ حديث (٤٧٠٣)، و (٦٧١/٨) كتاب فضائل القرآن: باب فضل فاتحة الكتاب حديث (٥٠٠٦) وأبو داود (٤٦١/١) كتاب الصلاة: باب فاتحة الكتاب حديث (١٤٥٨) والنسائي (١٣٩/٢) كتاب الافتتاح: باب تأويل قول الله عز وجل: ==

وعن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْقَوْمَ لَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ حَتْمًا مَقْضِيًّا، فَيَقْرَأُ صَبِيٌّ مِنْ صِبْيَانِهِمْ فِي الْكِتَابِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَيَسْمَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَرْفَعُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ الْعَذَابَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» (١١).

== «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكَ سَبْعًا مِنَ السَّكَّانِ وَالْقُرُونِ الْعَظِيمِ»، وابن ماجه (١٢٤٤/٢) كتاب الأدب: باب ثواب القرآن حديث (٣٧٨٥) وأحمد (٢١١/٤) والدارمي (٣٥٠/١) كتاب الصلاة: باب أم القرآن هي السبع المثاني، (٤٤٥/٢) كتاب فضائل القرآن باب فضل فاتحة الكتاب، وأبو يعلى (٢٢٥/١٢) رقم (٦٨٣٧) والبيهقي (٣٦٨/٢) كتاب الصلاة، كلهم من طريق شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ - فلم أجبه قال: قلت له: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: أولم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ ثم قال لي: ألا أعلمك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢١/١) وزاد نسبه إلى الطبري وابن حبان وابن مردويه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف.

أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من رواية عبد الحميد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن: أن أبا سعيد مولى عامر بن كريب أخبره: «أن النبي ﷺ - نادى أبي بن كعب - فذكره» وهو مرسل؛ لأن أبا سعيد هذا تابعي. وهذا الحديث قد أخرجه البخاري من وجه آخر عن أبي سعيد بن المعلّى: «أن النبي ﷺ - مر به وهو يصلي، فدعاه - فذكر الحديث، ورواه صاحب الجامع الأصول، فجعلهما واحداً فأخطأ؛ لأن الأول مكى مولى تابعي. والثاني أنصاري مدني من أنفسهم. صحابي. قال البيهقي: يحتمل أن يكون ذلك صدر منه - ﷺ - لأبي بن كعب مرة، ولسعيد بن المعلّى مرة أخرى. انتهى.

١١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٠/١): رواه الثعلبي في تفسيره من حديث أبي معاوية الضرير، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربيعة بن حراش، عن حذيفة، عن النبي ﷺ - ... فذكره سواء. قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربيعة عنه. قلت: إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتاج به. وله شاهد في مسند الدارمي عن ثابت بن عجلان قال: «كان يقال: إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض، فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم» يعني بالحكمة: القرآن، وحديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - في فضائل القرآن سورة سورة. أخرجه الثعلبي من طرق عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - كلها ساقطة. وأخرجه ابن مردويه من طريقين. وأخرجه الواحد في الوسيط. وله قصة ذكرها الخطيب ثم ابن الصلاح عن اعتراف بوضعه؛ ولهذا روى عن أبي عصمة أنه وضعه. انتهى.

سورة البقرة

مدنية، وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾

﴿الْم﴾: اعلم أن الألفاظ التي يتجهى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسطة التي منها ركبت الكلم، فقولك: - ضاد - اسم سمي به: «ضه» من ضرب إذا تهجيته، وكذلك: «را، با»: اسمان؛ لقولك: «ره، به»؛ وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة، وهي أن المسميات لما كانت ألفاظاً كأسمائها، وهي حروف وحدان والأسمى عدد حروفها مرتق إلى الثلاثة، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى، إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسمائها؛ لأنه لا يكون إلا ساكناً. ومما يضاهاها في إبداع اللفظ دلالة على المعنى: التهليل، والحوقة، والجيعة، والبسلة؛ وحكمها - ما لم تلها العوامل - أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفة كأسماء الأعداد، فيقال: «ألف لام ميم»، كما يقال: «واحد اثنان ثلاثة»؛ فإذا وليتها العوامل، أدرکہا الإعراب. تقول: هذه ألف، وكتبت ألفاً، ونظرت إلى ألف؛ وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب، قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من تأثيراتها، فحقك أن تلفظ به موقوفاً؛ ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقى على الحاسب أجناساً مختلفة ليرفع حسابها، كيف تصنع، وكيف تلقىها أغفالاً من سمة الإعراب؟ فتقول: «دار، غلام، جارية، ثوب، بساط». ولو أعربت ركبت شططاً. فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالاسمية؟ وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين؟ / أ قلت: قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليف بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في اسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة، وذلك أن قولك: «ألف»: دلالتة على أوسط حروف: «قال، وقام» دلالة «فرس» على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدالتين؛ ألا ترى أن الحرف: ما دل على معنى في غيره، وهذا كما ترى دال على معنى في نفسه؛ ولأنها متصرف فيها بالإمالة كقولك: «با، تا». وبالتفخيم كقولك: «يا، ها»، وبالتعريف، والتكثير، والجمع والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المتصرفة. ثم إني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك. قال سيويه: قال الخليل: يوماً - وسأل أصحابه -:

«كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف^(١) التي في لك، والباء التي في ضرب؟» فقيل: نقول: «باء، كاف»، فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: «كه، به». وذكر أبو علي في كتاب: «الحجة» في: (يس): وإمالة يا، أنهم قالوا: يا زيد، في النداء؛ فأمالوا وإن كان حرفاً، قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الباء، فلأن يميلوا الاسم الذي هو «يس» أجدر؛ ألا ترى أن هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها؟ فإن قلت: من أي قبيل هي من الأسماء، أمعربة أم مبنية؟ قلت: بل هي أسماء معربة، وإنما سكنت سكون «زيد وعمرو وغيرهما» من الأسماء، حيث لا يمسها إعراب، لفقد مقتضيه وموجه. والدليل على أن سكونها وقف وليس ببناء: أنها لو بنيت لحذى بها حذو: «كيف، وأين، وهؤلاء». ولم يقل: «ص، ق»، ن، مجموعاً فيها بين الساكنين. فإن قلت: فلم لفظ المتهجى بما آخره ألف منها مقصوراً، فلما أعرب مذ فقال: هذه «باء»، ويا، وهاء» وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك: «لا» مقصورة؛ فإذا جعلتها اسماً مددت، فقلت: كتبت «لاء»؟ قلت: هذا التخيل يضمحل بما لخصته من الدليل؛ والسبب في أن قصرت متهجاة، ومدت حين مسها الإعراب: أن حال التهجي خليفة بالأخف الأوجز، واستعمالها فيه أكثر. فإن قلت: قد تبين أنها أسماء لحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ قلت: فيه أوجه: أحدها وعليه إطباق الأكثر: أنها أسماء السور. وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على ذكرها في حد ما لا ينصرف به «باب أسماء السور»، وهي في ذلك على ضربين: أحدهما ما لا يتأني فيه إعراب، نحو: «كهيعص، والقر»، والثاني: ما يتأني فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسماً فرداً ك «ص، و ق، و ن»، أو أسماء عذة مجموعها على زنة مفرد ك «حم، وطس، ويس»؛ فإنها موازنة لـ «قائيل وهابيل»، وكذلك «طسم» يتأني فيها أن تفتح نونها، وتصير ميم مضمومة إلى «طس» فيجعل اسماً واحداً؛ كدارا بحرد؛ ٧ب فالنوع الأول: محكى ليس إلا؛ وأما النوع الثاني: فسائغ فيه الأمران: الإعراب، والحكاية؛ قال قاتل محمد بن طلحة السجاد، وهو شريح بن أوفى الغنبي^(٢): [من الطويل]

(١) قال محمود رحمه الله: «وقد سأل الخليل أصحابه كيف ينطقون بالكاف... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وسألهم أيضاً كيف ينطقون بالقاف من قبل؟ فقالوا: قاف، كقولهم الأول، فأجابهم كجوابه الأول وقال: أما أنا فاقول: اته، فالحق رضي الله عنه أولاً هاء السكت؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك، وثانياً همزة الوصل؛ لأنه ساكن.

(٢) قوله «قال قاتل محمد بن طلحة... إلخ» هكذا نسبته البخاري لشرح في تفسير غافر. ولفظه: ويقال إن (حم) اسم. لقول شريح بن أبي أوفى، فذكره. ونسب ذلك لغير شريح، ففي الطبقات لابن سعد والمستدرک للحاكم من رواية الواقدي عن محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه قال: =

يَذْكُرُنِي حَامِيمٌ وَالرُّمُحُ شَاجِرٌ فَهَلَا تَلَا حَامِيمٌ قَبْلَ التَّقْدِمِ^(١)؟
فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كل ما أعرب من أخواتها؛ لاجتماع سببي منع
الصرف فيها، وهما: العلمية، والتأنيث.

والحكاية: أن تجيء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى؛ كقولك: «دعني من
تمرتان»، وبدأت بالحمد لله، وقرأت: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] قال: [من الوافر]
وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقَّ الْخَيْلِ بِالرُّكُضِ الْمُعَارِ^(٢)

= كان محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه. فنهى علي رضي الله عنه عن قتله. وقال: من رأى
صاحب البرنس الأسود فلا يقتله - يعنيه - فقتله رجل من بني أسد بن خزيمة يقال له: طلحة بن
مدلج، وقيل: شداد بن معاوية العبسي. وقيل عصام بن مقيش وعليه الأكثر. وهو الذي يقول في
قتله. فذكره. قلت: وهو من جملة أبيات. أولها:

وأشعث قوام بآيات ربه
وأشعث قوام بآيات ربه (١)
شككت له بالرمح جيب قميصه
على غير شيء غير أن ليس تابعا
يذكرني حاميم والرمح شاجر
قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
فخز صريعاً للبدن وللنفس
عليا ومن لا يتبع الحق يظلم
فهلا تلا حاميم قبل التقديم

لشريح بن أوفى العبسي يوم الجمل، حين أمر أبو طلحة محمد بن طلحة أن يبرز للقتال، وكان من
قراية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان كلما حمل عليه رجل قال: نشدك بحم لما فيها من
آية ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْوُدَّ فِي الْقُرْبَى﴾ حتى حمل عليه العبسي فقتله وأنشأ يقول: ورب
أشعث من أثر العبادة كثير القيام والعمل بآيات ربه، أو القيام في الليل بتلاوتها، قليل الأذى، وروي
الكرى: أي النوم، وروي القذى: وهو ما يتساقط في العين فيغمضها: كنى بقتله عن قلة النوم فيما
ترى العين: أي في رأي العين. شككت: أي خرقت له بالرمح جيب: أي طرف قميصه، كناية عن
طعنه به في الصدر أو من خلفه حتى نفذ من صدره، أو نظمت وربطت جيب قميصه بصدرة
مطروحاً على يديه ووجهه. وعبر بالفم مبالغة في التنكيل؛ ولأنه أول ما يلقى الأرض من الوجه،
وذلك بلا سبب غير أنه ليس تابعاً لعلي بن أبي طالب، وهكذا حال كل من لا يتبع الحق، وهو أنه
يعاقب ويهان. يذكرني حاميم، والحال أن رمحي مختلط في ثيابه وأضلاعه. وقيل المعنى: والحال
أن الرماح مختلطة والحرب قائمة، وقوله فهلا، فيه نوع توبيخ: أي كان من حقه أن يذكرني بها قبل
التقدم للحرب.

وهو للأشتر النخعي في الاشتقاق ١٤٥، ولعدي بن حاتم الطائي في حماسة البحتري ص ٣٦،
ولشريح بن أوفى العبسي في لسان العرب (حمم)، ولعصام بن مقيش البصري في معجم الشعراء
ص ٢٧٠، وبلا نسبة في الخصائص ١٨٣/٢، ولسان العرب (ندم)، والمقتضب ٢٣٨/١، ٣/

٣٥٦.

وجدنا في كتاب بني تميم
يضممر بالأصائل فهو نهدي (٢)
كأن سرائه والخييل شعث
أحق الخيل بالركض المعار
أقرب مقلص فيه اقورار
غداة وجبفها مسد مغار

=

سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثًا قُلْتُ لِصَيْدَحٍ انْتَجِعِي بِأَلَا^(١)

= كَانَ حَفِيفَ مَنْخَرِهِ إِذَا مَا كَتَمَنَ الرِّبُو كَبِيرَ مُسْتَعَارٍ
لبشر بن خازم الأسدي، وقيل للطرماح. والركض: ضرب الراكب دابته برجله، وعار الفرس: ذهب ههنا وههنا مرحاً عند انفلاته، وأعاره صاحبه فهو معار. قال أبو عبيدة: والناس يرونه أي يظنون المعار من العارية وهو خطأ. ويروي: المعار بكسر الميم. ويروي: يشمر، بدل يضم. والأصائل جمع أصيل كالأصال وهي أواخر النهار. أي يترك بلا علف من أول النهار فيجوع حتى يكون ضامر البطن في آخره، أو يهيا ويرسل للقتال في آخر النهار فما بال أوله. والنهد: غليظ الجنين مرتفع الأضلاع، والأقب: رقيق الخصر، والمقلص: كمعظم على اسم المفعول - المشمر المشرف طويل القوائم، ويجوز جعله على اسم الفاعل بمعنى المشمر المكتنز للحم. يقال: قلصه بالتشديد شمره، فقلص هو أيضاً: أي تشمر، ويقال قلصت الناقة كذلك: إذا استمرت على السير. والاقورار: رقة الجسم ونحافته. والسرادة: أعلى الظهر. والوجيف: سرعة سير الخيل. والمسد: الحبل. شبه السراة به في الامتداد والصلابة، وقوله: والخييل شعث، جملة حالية، والشعث جمع أشعث، أو شعث، وغداة: ظرف له. والحفيف: دوي الجري والطيران. يقال: حف الفرس حفيفاً، وأحففته: إذا حملته على الحفيف، وضمير كئمن للخييل. والربو: الزيادة وما ارتفع من الأرض، والنفس العالي، وانتفاخ الفرس من عدو أو فزع. يقال منه: راب يربو، إذا أخذه الربو: أي إذا ضاقت مناخر الخيل عن إخراج النفس لعجزها، كان منخر فرسي واسعاً كالأكبر - وهو منفخة الحداد - لعلو نفسه وترده. وجعله مستعاراً ليدل على أنه تداوله الأيدي. يقول: وجدنا في كلام جدودنا هذا الكلام، فأحق مبتدأ، والمعار خبره، والجملة محكية محلها نصب بوجدنا.

وهو لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٧٨، وشرح اختيارات المفصل ١٤٣٩/٣، وللطرماح في ملحق ديوانه ص ٥٧٣، ولسان العرب (عير)، وتاج العروس (عير)، ٢٧٤ (عور)، ٢٨٢ (غور)، ولبشر أو للطرماح في شرح أبيات سيويه ٣٢٣/٢، ولابن الطراوة في بغية الوعاة ٣٤١/٢، وبلا نسبة في خزانة الأدب ١٦٨/٩، وسر صناعة الإعراب ٢٣١/١، والكتاب ٣٢٧/٣، ولسان العرب (عير)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ١٢٥، والمقتضب ١٠/٤، ونوادر أبي زيد ص ٣٢.

(١) لذئ الرمة يمدح بلالاً أبا بريدة، وهما لقب وكنية لعامر بن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضيا، وصيّدح: اسم ناقة الشاعر. والناس رفع بالابتداء: أي سمعت هذا الكلام فحكاه على ما كان عليه، ولم ينصب الناس، لأنه يقتضي أن فعل الانتجاع مما يسمع وليس كذلك، لأنه بمعنى يرتحلون طالبيين غيثاً، أو بمعنى يطلبون غيثاً أي مطراً أو كلاً نابتاً منه. وروي ينصب الناس، فيكون ينتجعون غيثاً: بمعنى يتكلمون بطلبه. وروي رأيت الناس. قال ابن القطاع: ولا يصح معه الرفع، وذلك لأن الرؤية لا تقع على اللفظ، وشبه تهيتها وإعدادها للسير إليه ليسوقها أو سوقها إليه بأمره لها بالسير إليه، وطلبه لترتب السير على كل على طريق التصريح، ويجوز أنه شبهها بالعقل فخطأها بذلك على سبيل المكنية: أي اطلبي بلالاً، فإنه أنفع مما يطلبه الناس، ولما سمع بلال ذلك قال: يا غلام اعلف صيدح قتا ونوى، والقت: نوع من الثبات الطري.

ينظر ديوانه ص ١٥٣٥، وجمهرة اللغة ص ٥٠٣، وخزانة الأدب (١٦٧/٩)، وسر صناعة الإعراب (٢٣٢/١)، وشرح التصريح (٢٨٢/٢)، ولسان العرب (صدح) (نجع)، والمقتضب (٤/١٠)، ونوادر أبي زيد ص ٣٢، وبلا نسبة في أسرار العربية (ص ٣٩٠). وخزانة الأدب (٢٦٨/٩) =

وقال آخر: [من مجزوء الوافر]

تَسَادَوْا بِالرُّجِيلِ غَدَاً وَفِي تَرْحَالِهِمْ نَفْسِي^(١)
وروي منصوباً ومجزوراً. ويقول أهل الحجاز في استعمال من يقول: «رأيت زيداً»: «من زيداً؟» وقال سيبويه: سمعت من العرب: «لا من أين يا فتى». فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: «صَ، وقَ، ونَ» مفتوحات^(٢)؟ قلت: الأوجه: أن يقال: ذاك نصب وليس بفتح، وإنما لم يصحبه التنوين؛ لامتناع [الصرف] على ما ذكرت، وانتصابها بفعل مضمر؛ نحو: «أذكر»، وقد أجاز سيبويه مثل ذلك في: «حَمَ، وطَسَ، ويسَ» لو قرئ به. وحكى أبو سعيد السيرافي أنَّ بعضهم قرأ: «يسَ». ويجوز أن يقال: حرَّكت لالتقاء الساكنين، كما قرأ من قرأ: «وَلَا الضَّالِّينَ». فإن قلت: هلا زعمت أنها مقسم بها^(٣)؟ وأنها نصبت

= (٣٩٣)، وشرح الأشموني (٦٤٤/٣).

(١) روي الرحيل بالرفع على أنه مبتدأ، وغداً - أي في غد - خبره، وبالنصب: مصدر لفعل محذوف، وذلك كله على الحكاية. وروي بالجر على الأصل، وغداً. ظرف للرحيل، وفي ترحالهم: أي مع رحيلهم نفسي - أي روحي - فكان محبوبه أخذ روحه وغادره ميتاً لتعلق قلبه به، ويجوز أنه استعارها لمحبوبه على طريق التصريح، لأن به حياته وسروره، فكانه يموت بمفارقتها لاغتمامه. والبيت بلا نسبة في الأشياء والنظائر (١٢٦/٨)، ودرة الغواص ص ٢٣٩ وسر صناعة الإعراب ص ٣٢٢، والمحاسب ٢٣٥/٢، والمقرب ١/٢٩٣.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فما وجه من قرأ ص وق ون مفتوحات... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله تعالى: كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة، وعلى الوجه الثاني يحتمل أن يكون أراد أن الفتح - لالتقاء الساكنين - نشأت عن سكون الحكاية. فإنها إنما تحكى ساكنة مجردة من سمة الإعراب، فلا تكون الحركة إذا إعراباً. إذ لا مقتضى له مع الحكاية، ولا بناء إذ هي معربة عنده على هذا التقدير. ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية فتكون الحركة مثلها في أين وكيف حركة بناء، والأول هو الظاهر من مراده إذ حتم قبل أنها معربة، على أن سيبويه نص في كتابه على ما أورده بلفظه قال: وأما (ص) فلا يحتاج إلى أن يجعل اسماً أعجمياً، لأن وزنه في كلامهم. ولكنه يجوز أن يكون اسماً للسورة فلا يصرف. ويجوز أن يكون أيضاً (يس وص) اسمين غير متمكنين فيلزمان الفتح كما أُلزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو: كيف، وأين. وحيث، وأمس اه كلام سيبويه. وفيه رد على الزمخشري رحمه الله في حتمه أن تكون معربة وأن فتحها نصب أو لالتقاء الساكنين العارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً، وسيأتي له أيضاً ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البتة. أقول: بعد تسليم أن الأول هو الظاهر من مراده، فما ذكره - حكاية عن سيبويه - غير وارد عليه، لأنه اختار أحد الوجهين.

(٣) قال محمود رحمه الله: «هلا زعمت أنها مقسم بها... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: وله البقاء على أنها منصوبة على القسم، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل وسيبويه في أمثاله، ويسلك حيثنَّ في العطف سبيل [من الطويل]:

..... ولا سابق شيشاً إذا كان جاثياً

فإن المقسم به وإن كان منصوباً لأنه محل يعهد وفيه الخبر، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد، وههنا =

قولهم: «نعم» الله لأفعلن، و«أي الله لأفعلن»، على حذف حرف الجر، وإعمال فعل القسم^(١)؟ وقال ذو الرمة: [من الطويل]

أَلَا رَبُّ مَنْ قَلْبِي لَهُ أَلَّةٌ نَاصِحٌ^(٢)

وقال آخر [من الوافر]:

..... فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الشَّرِيدُ^(٣)

قلت: إن القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك، لجمعت بين قسمين على مقسم واحد، وقد استكروها ذلك. قال الخليل في قوله عز وجل: ﴿وَأَكْبَلُ إِذَا يَتَنَّى وَاللَّيْلُ إِذَا يَجْكُ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ١ - ٣]: الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: «مررت بزيد

= أولى بالصحة منه بيت زهير المذكور لأن انتصاب المقسم به إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذي هو أصل في القسم، وانتصاب خبر ليس أصل في نفسه، ليس ناشئاً عن حذف. غايته أن حرف الجر قد يصحب خبرها دخيلاً، فمراعاة الأصل أجدر من مراعاة العارض، فقد تحرر في فتح ص وجهان: أحدهما أن يكون إعراباً وهو إما جري على الوجه الذي أبداه الزمخشري، أو نصب على الوجه الذي نقلته عن سيبويه، ثانيهما أنه لا إعراب ولا بناء وهو عروضة على الوقف في الحكاية. (١) قال السمين الحلبي: وهذا ضعيف؛ لأن ذلك من خصائص الجلالة المعظمة، لا يشركها فيه غيرها. انتهى. الدر المصون.

(٢) ألا رب من قلبي له الله ناصح ومن قلبه لي في الظباء السوانح
لذي الرمة. و «من» نكرة موصوفة. و «قلبي» مبتدأ. «الله» قسم نصب على حذف الجار وإعمال فعل القسم المقدر. و «ناصح» خبر، والجملة صفة «من» و «السوانح» المسرعات جهة اليمين، كما أن «البوارح» المسرعات جهة الشمال. يقول: رب شخص قلبي له ناصح خالص والله. ورب شخص قلبه لي غير خالص بل نافر عني كأنه من الظباء المسرعات نفوراً. وأعاد الموصوف - وإن كان المقصود ذكر الصفة فقط - تنبيهاً على استقلال كل من الصفتين بقصد الإخبار به. هذا، ويحتمل أن المعنى: أن قلبه لي ناصح أيضاً؛ لأن بعض العرب يتيمن بالسوانح. وفيه تلويح بتشبيهه محبوبته بالظبية.

ينظر ملحق ديوانه ص ١٨٦١، والكتاب ٤٩٨/٣، وبلا نسبة في شرح المفصل ١٠٣/٩.

(٣) إذا ما الخبز تأدمه بلحسم فذاك أمانة الله الشريد

«ما» زائدة. وأدم يادم كضرب يضرب، إذا وفق وأصلح، وكذلك آدم بمد الهمزة، فتأدمه: تصلحه وتهيئه للأكل، وأمانة الله رفع على الابتداء، والخبر محذوف، أي: قسمي: أو نصب بفعل القسم المقدر بعد حذف الجار. أي: أقسم بأمانة الله؛ أو جر بواو القسم مقدرة، لكن البصريون خصوا هذا بلفظ الجلالة. يقول: إذا كان الخبز مادوماً باللحم وممزوجاً به، فذلك هو الشريد دون ما عداه وحق أمانة الله.

ينظر الكتاب ٦١/٣، ٤٩٨، شرح المفصل ٩٢/٩، ١٠٤٢/١٢، اللسان: آدم، المخصص ١١٣/١١٦، الأصول لابن سراج ٤٣٣/١، شرح الجمل لابن عصفور ٥٣٢/١، الدر ٨٨/١ ولسان العرب (آدم).

وعمره»، والأولى بمنزلة الباء والتاء، قال سيبويه: قلت للخليل: فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء، ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر، فيكون كقولك: «بالله لأفعلن»، «بالله لأخرجن اليوم»، ولا يقوى أن تقول: «وحقك وحق زيد لأفعلن». والواو الأخيرة: واو قسم، لا يجوز إلا مستكراً. قال: وتقول «وحياتي ثم حياتك لأفعلن»؛ فثم ههنا بمنزلة الواو. هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن تجعل الواو للعطف؛ لمخالفة الثاني الأول في الإعراب. فإن قلت: فقدّرهما مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: «الله لأفعلن» مجروراً، ونظيره قولهم: «لاه أبوك»؛ غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، واجعل الواو للعطف، حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه. قلت: هذا لا يبعد عن الصواب، ويعضده ما روي/ ٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أقسم الله بهذه الحروف» (١٢).

فإن قلت: فما وجه قراءة بعضهم «صَّ وقَّ» بالكسر^(١١)؟ قلت: وجهها ما ذكرت من التحريك للقاء الساكنين، والذي يبسط من عذر المحرك: أن الوقف لما استمر بهذه الأسامي، شاكلت لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات، فعولمت تارة معاملة «الآن» وأخرى معاملة «هؤلاء». فإن قلت: هل تسوّغ لي في المحكية مثل ما سوّغت لي في المعربة^(١٢) من إرادة معنى القسم؟ قلت: لا عليك في ذلك، وأن تقدّر حرف القسم

١٢ - رواه الطبري في تفسيره (٢٠٧/١) رقم (٢٣٦) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وذكره في الدر المنثور (٥٤/١) وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

قال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف.

رواه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق معاوية بن صالح عن علي بن طلحة عنه: بلفظ «الحروف المقطعة في أوائل السور كلها أقسام أقسم الله بها»، ورواه ابن مردويه من هذا الوجه في تفسير طه. قال: «طه وأشباهها قسم أقسم الله بها». وهي من أسماء الله تعالى. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت فما وجه قراءة بعضهم صَّ وقَّ بالكسر... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: وهذا تحقق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكنة، ويدلك على أن فتحها التي قال قبل إنها لالتقاء الساكنين فتحة بناء، أنه إنما أراد السكون العارض في الحكاية لا سكون البناء وهو مخالف لنص سيبويه كما نهت عليه أيضاً.

(٢) قال محمود رحمه الله: «هل تسوّغ لي في المحكية إرادة القسم كما سوّغت لي في المعربة... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: وقد منع الزمخشري أن يكون ص منصوباً على القسم لما تقدم، وأجاز أن يكون حم في الحديث المذكور منصوبة على القسم، بخلاف حم في القرآن، فذلك يتعين أن يكون نصبها على إضمار الفعل، أو مجرورة على القسم. وأما النصب مع القسم فلا يجيزه إلا =

مضمراً في نحو قوله عز وجل: ﴿حَمَّ ۖ وَالْكُنَّبِ ٱلْأَيْبِ ۖ﴾ [الدخان: ١، ٢]، كأنه قيل: أقسم بهذه السورة، وبالكتاب المبين: إنا جعلناه. وأما قوله ﷺ: ﴿حَمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (١٣) فيصلح أن يقضى له بالجزّ والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره. فإن قلت: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ قلت: كان المعنى في ذلك الإشعار، بأن الفرقان ليس إلا كلمة عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ، كما قال - عز من قائل -: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. فإن قلت: فما بالها مكتوبة في المصحف على صور

١٣ - أخرجه الترمذي (١٩٧/٤): كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في الشعار، حديث (١٦٨٢)، وأبو داود (٣٣/٣) كتاب الجهاد: باب الرجل ينادي بالشعار، حديث (٢٥٩٧)، والحاكم في مستدركه (١٠٧/٢) من طريق المهلب بن أبي صفرة عن سمع النبي - ﷺ -. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إلا أن فيه إرسال، والرجل الذي لم يسمه المهلب بن أبي صفرة البراء بن عازب.

وأخرجه أحمد (٢٨٩/٤)، والنسائي في الكبرى (١٥٧/٦ - ١٥٨) كتاب عمل اليوم والليلة: باب كيف الشعار حديث (١٠٤٥١ - ١٠٤٥٢)، والحاكم في مستدركه (١٠٧/٢) موصولاً عن البراء.

والحديث له شواهد من حديث أنس، وشيبة بن عثمان الحجبي، وأبي دجانة الأنصاري.

● أما حديث أنس: فقد أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٥٧٧/٤) حديث رقم (٣٩٩٠).

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦/٦): كتاب المغازي والسير: باب غزوة حنين، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أحمد بن محمد بن القاسم وهو ضعيف. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٦/١) إلى أبي نعيم في دلائل النبوة وابن مردويه في تفسيره.

● أما حديث شيبه بن عثمان الحجبي، فقد أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٣٥٨/٧) حديث برقم (٧١٩٢).

● أما حديث أبي دجانة؛ فقد أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١١٨/٧) جماع أبواب نزول الوحي... باب ما يذكر من حزر أبي دجانة...

وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٣٤٧/٢ - ٣٤٨).

وقال: حديث موضوع.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أصحاب السنن الثلاثة من رواية المهلب بن أبي صفرة عن سمع النبي - ﷺ - يقول: «إن بيتكم العدو فليكن شعاركم حم لا يبصرون»، قال الحاكم: المبهم هو البراء بن عازب - رضي الله عنهما - ثم أخرجه كذلك، وهو في النسائي - أيضاً، وفي الباب عن أنس - رضي الله عنه - في الأوسط للطبراني، وفي الدلائل لأبي نعيم عنه في غزوة حنين، وعن شيبه بن عثمان في الطبراني - أيضاً - وعن أبي دجانة الأنصاري في آخر الدلائل للبيهقي، في حديث طويل. انتهى.

= في الحديث، والفرق عنده أن المانع من إجازته في القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفاً له في الإعراب، إذ المعطوفات كلها مجرورة، ويتعذر عنده القسم في التواني خوفاً من جمع قسمين على مقسم واحد، ولا كذلك الحديث فإنه لم يأت بعده ما يبابه؛ فلذلك خص جواز هذا الوجه بالحديث. وأما على الوجه الذي أوضحته فيعم جواز ذلك القرآن والحديث جميعاً.

الحروف^(١) أنفسها، لا على صور أساميها؟ قلت: لأنَّ الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب: اكتب «كيت وكيت» أن يلفظ بالأسماء، وتقع في الكتابة الحروف أنفسها، عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح، وأيضاً فإن شهرة أمرها، وإقامة السنن الأسود والأحمر لها، وأنَّ اللفظ بها غير متهجاة لا يحل بظائل منها^(٢)، وأنَّ بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده، أمنت وقوع اللبس فيها^(٣)، وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء؛ ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان؛ لاستقامة اللفظ، وبقاء الحفظ، وكان أتباع خط المصحف سنة لا تخالف. قال عبد الله بن درستويه في كتابه: «المترجم بكتاب الكتاب المتمم»: في الخط والهجاء خطان لا يقاسان: خط المصحف، لأنه سنة، وخط العروض؛ لأنه يثبت فيه ما أثبتته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه. الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد^(٤)، كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدّى بالقرآن وبغربة نظمه؛ وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فما بالها مكتوبة في المصحف على صورة الحروف... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضي رضي الله عنه في كتاب الانتصار، في الجواب عما نقل عن عثمان رضي الله عنه: أن عكزها لما عرض عليه المصحف وجد فيه حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستقيمها بالسنتها. فلو كان الكاتب من ثقيف والممثل من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف، قال القاضي: وإنما قال عثمان رضي الله عنه ذلك؛ لأن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء، وهذيلاً كانت تظهر الهمة. والهمة إذا ظهرت في لفظ الممثل كتبها الكاتب على صورتها فما أراد عثمان رضي الله عنه إلا أن تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط، مثل كتابة: الصلوة، والزكوة. بالواو لا بالالف؛ قال القاضي: وإنما أخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة. أما الخط فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم بالخط أه كلامه.

(٢) قوله «لا يحل بظائل منها» في الصحاح: وقولهم لم يحل منه بظائل: أي لم يستفد منه كبير فائدة ولا يتكلم به إلا مع الجحد. (ع)

(٣) قوله «أمنت وقوع اللبس فيها» أي تلك الأمور الأربعة، أمنت القارئ. وقوع اللبس في الفواتح. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله: «الوجه الثاني أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد... إلخ» قال أحمد رحمه الله: إنما أردت هذا الفصل في كلام الزمخشري؛ لأنه غاية الصناعة، ونهاية البراعة، لولا الإخلال بلطيفة لو سلكها لتمت فصاحته. وهي أنه بنى أول الكلام على النفي وطول فيه، حتى انتهى إلى الإثبات، فكان أول الكلام رهيناً لآخره على الضد متى ينقضي على البعد، فهو كما انتقد على أبي الطيب قوله في الخيل [من البسيط]:

ولا ركبت بها إلا إلى ظنفر ولا حصلت بها إلا على أمل

فإنه صدر الصدر والعجز بما صورته الدعاء على المخاطب في العرض مستدركاً بعد. وإنما يؤاخذ بهذا مثل أبي الطيب والزمخشري لأن لهما في مراتب الفصاحة علواً يفتن السامع لمثل هذا النقد.

عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم^(١) عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطولة، وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار، وهم الحزّاص على التساجل^(٢) في اقتضاب الخطب، والمتمالكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي يزت بلاغة^(٣) كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى^(٤) الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء؛ إلا ٨/ب لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر. وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل، ولناصره على الأوّل أن يقول: إن القرآن إنما نزل بلسان العرب، مصبّوياً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سموا به^(٥) مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة، والقول بأنها أسماء السور حقيقة: يخرج إلى ما ليس في لغة العرب، ويؤدّي أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر، وأنه لا سبيل إلى رده، أجابك بأن له محملاً سوى ما يذهب إليه، وأنه نظير قول الناس: «فلان يروي»، قفا نيك، وعفت الديار، ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت؟ فيقول: «أَلَحَكْدُ لِلَّهِ» [الفاتحة: ١] و«بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [التوبة: ١] و«يُوسِكُ اللَّهُ فِيهِ أَوْلَدَكُمْ» [النساء: ١١] و«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» [النور: ٣٥]. وليست هذه الجمل بأسامي هذه القصائد وهذه السور والآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلاكها، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية، واستفيد منها ما يستفاد من التسمية، قالوا ذلك على سبيل المجاز دون الحقيقة. وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً، مستنكرة لعمرى، وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة: «حضر موت»، فأما غير مركبة مثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها؛ لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية، كما سموا: بـ: «تأبط شراً»، وبرق نحره، وشاب قرناها. وكما لو سمي بـ: «زيد منطلق»، أو بيت شعر». وناهيك بتسوية سبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم، دلالة

(١) قوله «ولم تظهر معجزتهم» لعله بفتح الميم والجيم مقابل مقدرة. (ع)

(٢) قوله «على التساجل» أي التفاخر بأن تصنع مثل صنعه في جري أو سقي، وأصله من السجل: بمعنى الدلو الذي فيه ماء. واقتضاب الخطب: ارتجالها: أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «التي يزت بلاغة» أي غلبت وسلبت. (ع)

(٤) قوله «الخارج من قوى» لعله عن. (ع)

(٥) قوله «لم تتجاوز ما سموا به» لعله: بما، أو لعله: فيما. (ع)

قاطعة على صحة ذلك . وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها، فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً، لأنها تسمية مؤلف بمفرده، والمؤلف غير المفرد. ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه، كقولهم: «صاد»، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً، حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً. الوجه الثالث: أن ترد السور مصدرةً بذلك، ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز. وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف. فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستغنياً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِبَيِّنَاتٍ إِذَا لَأَزَبَ أَلْمُطَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فكان حكم النطق بذلك - مع اشتهاؤه أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله - حكم الأفاضيل المذكورة في القرآن، التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة/ ٩ نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالبطانة من غير أن يسمعه من أحد. واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء - وجدتها نصف أسامي حروف المعجم^(١) أربعة عشر سواء، وهي: «الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف،

- (١) قال محمود رحمه الله: «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم... إلخ». قال أحمد: بقي عليه من الأصناف الحروف الشديدة، وقد ذكر تعالى نصفها: الهمزة المعبر عنها بالألف، والكاف، والقاف، والطاء. والمطبقة، وقد ذكر تعالى نصفها: الصاد، والطاء. والمنفتحة، وقد ذكر نصفها: الألف، والحاء، والراء، والسين، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء. وحروف الصفير لما كانت ثلاثاً: السين، والصاد، والزاي؛ لم يكن لها نصف فذكر منها اثنين: السين، والصاد. وتلك العادة المأنوسة فيما يقصد إلى تنصيفه فلا يمكن فيتم الكسر. ألا ترى طلاق العبد وعدة الأمة ونحو ذلك؟ والحروف اللينة وهي ثلاثة: الألف، والياء، والواو. وذكر منها اثنين: الألف، والياء كحروف الصفير. والمكرر وهو الراء. والهواي وهو الألف. والمنحرف وهو اللام. وقد ذكرها. ولم يبق من أصناف الحروف خارجاً عن هذا النمط إلا ما بين الشديد والرخو، فإنه لم يقتصر منها على النصف؛ لأن ما ذكر زائداً على النصف اندرج في غيرها من الأصناف، فلم يمكن الاختصار لها كالشديدة والرخوة فلم يكن بها عناية. وأما حروف الذلاقة والمصمتة فالصحيح ألا يُعدا صنفين، ولمن عددهما صنفين متميزين بخط طويل في جهة تمييزهما، حتى أبعد الزمخشري في مفصله في تمييزهما فقال: حروف الذلاقة التي يعتمد الناطق فيها على ذلق اللسان - أي طرفه - وهو تمييز مردود جداً: لأن من جملةتها: الميم، والباء، والفاء. ولا مدخل لطرف اللسان فيها. ثم لا يتم على هذا التمييز مطابقتها للمصمتة، إذ المصمتة مفسرة عندها بأنها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية فما زاد منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان وبين الصمت؟ فالحق أنهم صنفان ضعيف تمييزهما، فلم يعتبر جريانها على النمط المستمر =

والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون» في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدها مشتتة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: «الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء». ومن المجهورة نصفها: «الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون». ومن الشديدة نصفها: «الألف، والكاف، والطاء، والقاف». ومن الرخوة نصفها: «اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون». ومن المطبقة نصفها: «الصاد، والطاء». ومن المفتحة نصفها: «الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون». ومن المستعلية نصفها: «القاف، والصاد، والطاء». ومن المنخفضة نصفها: «الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون». ومن حروف القلقة نصفها: «القاف، والطاء». ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمدكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائفة للتزليل واختصاراته، فكان الله عز اسمه عَدَدَ على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. ومما يدل على أنه تغمد^(١) بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم: ^(٢) أن الألف واللام لما تكاثرت وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه

= في غيرهما من الأصناف البين امتيازها. وعد الزمخشري في هذا النمط حروف القلقة، وذكر أن المذكور منها النصف: القاف، والطاء؛ وهما فإنها خمسة أحرف، لم يذكر منها في الفواتح سوى الحرفين المذكورين. وعلى الجملة فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه يمكن الاستئناس إليه.

(١) قوله «تغمد» لعله «تعمد» بالعين المهملة. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «ومما يدل على أنه تغمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام... إلخ» قال أحمد رحمه الله: الألف المذكورة في الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشري في هذا الفصل، فعندما عد الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح قال: إنها نصف حروف العربية، فهذا يدل على أن جملتها ثمانية وعشرون حرفاً، فلا بد من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد إما اللينة أو الهمزة، وإلا كانت تسعة وعشرين. والظاهر أن الساقط الهمزة وعندما قال: في تسع وعشرين على عدد الحروف اقتضى هذا دخول الألفين في العدد. والظاهر من كلامه أن الألف عنده هي اللينة، فلذلك علل تسميتها بالألف بأن النطق لما تعذر بها أولاً استقرت الهمزة مكانها وفاء بمراعاة تلك اللطيفة التي قدمها من جعل مسمى الحرف أول اسمه. وأما عند النحاة فالألف المعدودة في حروف المعجم مفردة هي الهمزة؛ وأما اللينة فهي المعدودة مع اللام حيث يقولون: لام ألف، ويكتبونها على صورة «لا».

الفواتح مكررتين. وهي: «فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر». فإن قلت: فهلا عددت بأجمعها في أول القرآن؟ وما لها جاءت مفرقة على السور؟ قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض، وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن، فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره، فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت «صَ و قَ و نَ» على حرف، و «طه و طس و يس و حم» على حرفين، و «آلَمَ وَالرَّ و طَسَمَ»، على ثلاثة أحرف، و «آلَمَصَّ وَالرَّ» على أربعة أحرف، و «كهيعصَّ، وحمَّ عَسَقَ» على خمسة أحرف؟ قلت: هذا على إعادة افتنائهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة؛ وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك. فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة/ ٩ التي اختصت بها؟ قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه - والمبادئ كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة - كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمي الرجل بعض أولاده «زيداً»، والآخر «عمراً»، لم يقل له: لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمر؟ لأن الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك، ولذلك لا يقال: لم سمي هذا الجنس بالرجل وذاك بالفرس؟ ولم قيل: للاعتماد الضرب؟ وللانتصاب القيام؟ ولنقيضه القعود؟ فإن قلت: ما بالهم عدوا بعض هذه الفواتح أية دون بعض؟ قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كعرفة السور. أمّا «آلَمَ» فأية حيث وقعت من السور المفتحة بها؛ وهي ست. وكذلك «آلَمَصَّ» أية، و«آلَمَرَّ» لم تعد أية، و«آلَرَّ» ليست بأية في سورها الخمس، و«طَسَمَ» أية في سورتها، و«طه، ويس» آيتان، و«طس» ليست بأية، و«حمَّ» أية في سورها كلها، و«حمَّ، عَسَقَ» آيتان، و«كهيعصَّ» أية واحدة، و«صَ و قَ و نَ» ثلاثها لم تعد أية. هذا مذهب الكوفيين، ومن عداهم لم يعدوا شيئاً منها أية. فإن قلت: فكيف عد ما هو في حكم كلمة واحدة أية؟ قلت: كما عد «الرحمن» وحده و«مدهامتان» وحدها آيتين على طريق التوقيف، فإن قلت: ما حكمها في باب الوقف؟ قلت: يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده؛ وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعت بها كما ينعت بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله عزّ قائلًا: ﴿آلَمَ ۝ آلَمَ ۝ آلَمَ﴾ (آل عمران: ١، ٢) أي هذه آلَم ثم ابتداء فقال: ﴿آلَمَ لَا إِلَهَ إِلَّا مَرَّ﴾ (آل عمران: ٢). فإن قلت: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب^(١)؟ قلت: نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: ما محل هذه الفواتح من الإعراب... إلخ؟ قال أحمد رحمه =

الأعلام. فإن قلت: ما محلها؟ قلت: يحتمل الأوجه الثلاثة، أما الرفع: فعلى الابتداء، وأما النصب والجرّ، فلما مرّ من صحة القسم بها وكونها بمنزلة: الله، والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور، لم يتصوّر أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأة والمفردات المعدّة.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾

فإن قلت: لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد^(١)؟ قلت: وقعت الإشارة إلى «آلَم» بعد ما سبق التكلم به وتقضى، والمتقضى في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام؛ يحدث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه. ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى: ﴿لَا فَاَرِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]. وقال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَتَيْنِي رَحْمَةً﴾ [يوسف: ٣٧]، ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه، وقع في حد البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: «احتفظ بذلك». وقيل معناه: ذلك الكتاب الذي وعدوا به. فإن قلت: لم ذكر اسم الإشارة - والمشار إليه مؤنث وهو السورة^(٢)؟ قلت: لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته. فإن جعلته خبره، كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير، كما أجرى عليه في التأنيث في قولهم: من كانت أمك. وإن جعلته صفته، فإنما أشير به/ ١٠ إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له؛ تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا؛ وقال الأديباني: [من البسيط]

= الله: وإنما جاز النصب مع القسم فيما لا يعقبه معطوف مجرور. فأما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص وق ون فإنه لا يجيز فيه النصب مع القسم البتة، ويحمله على إضمار فعل، أو على أن الفتح في موضع الجر. وأما على وجه بدنه فيما تقدم فيجوز النصب مع القسم في جميعها فجدد به عهداً. وعلى النصب بإضمار فعل أعربها سيويه في كتابه.

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواء كما يقطعون بشم للإشعار بتراخي المراتب. وقد يكون المعطوف سابقاً في الوجود على المعطوف عليه وسيأتي أمثاله.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم ذكر اسم الإشارة... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: ولو مثل ذلك بقول القائل: حصان كانت دابتك، لكان أقوم وأسلم من الفرق بما في لفظ «من» من الإبهام الصالح للذكر والمؤنث. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَبِيٍّ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فيمن وصل الكلام فجعل (هم العدو) جملة في موضع المفعول الثاني للحسبان، وعدل عن أن يقول: هي العدو، نظراً إلى المفعول الثاني الذي هو في المعنى خبر عن الصبيحة، فذكر وجع لما كان المبتدأ هو الخبر في المعنى. وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشري، وتسمى الجملة بالثناء والياء عقيب قوله: والكلام هو المركب من كلمتين - بهذا الترجيح

تُبْنَتْ نَعْمَى عَلَى الْهَجْرَانِ عَاتِبَةً سَقِيًّا وَرُغْبًا لِذَلِكَ الْعَاتِبِ الزَّارِي^(١)
فَإِنْ قُلْتَ: أَخْبَرَنِي عَنْ تَأْلِيفِ ﴿ذَلِكَ أَلِكْتَبُ﴾ مَعَ ﴿الْعَرِّ﴾. قُلْتَ: إِنْ جَعَلْتَ ﴿الْعَرِّ﴾
اسماً لِلسُّورَةِ فِي التَّأْلِيفِ وَجْهٌ: أَنْ يَكُونَ ﴿الْعَرِّ﴾ مَبْتَدَأً، وَ﴿ذَلِكَ﴾ مَبْتَدَأً ثَانِياً،
وَ﴿أَلِكْتَبُ﴾ خَبْرُهُ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ الْمَبْتَدَأِ الْأَوَّلِ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ الْكِتَابُ
الْكَامِلُ، كَأَنَّ مَا عَدَاهُ مِنَ الْكُتُبِ فِي مَقَابِلَتِهِ نَاقِصٌ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُسَمَّى كِتَاباً، كَمَا
تَقُولُ: هُوَ الرَّجُلُ، أَيْ الْكَامِلُ فِي الرَّجُولِيَّةِ، الْجَامِعُ لِمَا يَكُونُ فِي الرِّجَالِ مِنْ مَرْضِيَّاتِ
الْخِصَالِ. وَكَمَا قَالَ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ^(٢)

- (١) عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار
لقد أراني ونعمى لاهيين بها
نبئت نعمي على الهجران عاتبة
ماذا يحيون من نؤي وأحجار؟
والدهر والعيش لم يهمهم بإمرار
سقياً ورغياً لذلك العاتب الزاري
- لِلنَّبَاةِ الذِّيَابِيَّةِ. وَالْعُوجُ: عَطَفَ رَأْسَ الْبَعِيرِ بِالزَّمَامِ. وَنَعْمٌ: اسْمُ مَحْبُوبَةٍ. وَالدَّمْنَةُ: مَا تَلِدُ مِنَ الْبَعْرِ
وَالرَّمَادُ وَالْقِمَامَةُ، وَالرَّمَادُ مَطْلُقُ الْأَثَارِ. وَالنُّؤْيُ: الْحَاجِزُ حَوْلَ الْخِيَاءِ لِكَلِّهِ يَدْخُلُهُ الْمَاءُ. وَالرَّمَادُ
بِالْأَحْجَارِ: الْأَثَانِي الَّذِي تَنْصَبُ عَلَيْهَا الْقُدُورُ، أَوْ بَقِيَّةُ الْجُدْرَانِ، وَهِيَ بِالشَّيْءِ: أَرَادَهُ، وَأَصْلُهُ الْإِدْغَامُ،
وَفَكَهُ هُنَا لُغَةً، أَيْ لَمْ يَهَمْ كُلُّ نَهْمِهِمَا. وَالْإِمْرَارُ: صَبْرُورَةُ الشَّيْءِ مَرًّا، وَالْإِحْلَاءُ: صَبْرُورَتُهُ حُلُوءًا،
وَجَعَلَ الطَّعْمَ مَرًّا، وَجَعَلَهُ حُلُوءًا. وَيُرْوَى زَارِيَةً بَدَلُ عَاتِبَةٍ. وَالزَّارِي: الْعَاتِبُ، يُقَالُ: زَرَى عَلَيْهِ يَزُرِي
إِذَا عَابَ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ مَاذَا تَحْيُونَ: اسْتِشْعَارٌ لِلخَطَا فِي الْأَمْرِ بِالتَّحِيَّةِ وَرُجُوعٍ عَنْهُ لِأَنَّهُ لَا يَجْدِي شَيْئًا. وَ
«ن» بَيَانٌ لِمَاذَا، وَفِيهِ مَعْنَى التَّحْقِيرِ، وَنَعْمَى: عَطَفَ عَلَى ضَمِيرِ النَّصَبِ، وَالْوَاوُ لِلْحَالِ، أَيْ وَالْحَالُ
أَنَّ الدَّهْرَ وَالْعَيْشَ لَمْ يَتَغَيَّرْ كُلُّ مَنَّهُمَا إِلَى الْبُؤْسِ. شَبَّهَهُمَا بِمَا تَنْصَبُ مِنْهُ الْإِرَادَةُ عَلَى طَرِيقِ الْكِنَايَةِ،
فَأَسَدَ لَهُمَا الْهَمَّ تَخْيِيلًا، أَوْ اسْتِعَارَ لَهُمَا لِمَشَارَفَةِ الْقَرَبِ تَصْرِيحًا، وَشَبَّهَهُمَا بِالْمَطْعُومِ فَأَنْبَتَ لَهُمَا
الْإِمْرَارَ، أَوْ اسْتِعَارَهُ لِنَكْدَرُهُمَا وَنَفْصَهُمَا لِحَاجَمِ كَرَاهِيَةِ النَّفْسِ لِكُلِّ. وَعَلَى الْهَجْرَانِ: أَيْ مَعَ هَجْرَانِهَا،
أَوْ لِأَجْلِ هَجْرَانِهَا. وَسَقِيًّا، وَرَغِيًّا: مَنْصُوبَانِ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ، أَيْ سَقَاهَا اللَّهُ وَرَعَاهَا. وَذَلِكَ إِشَارَةٌ
إِلَى الْإِنْسَانِ أَوْ الشَّخْصِ وَهِيَ الرَّمَادُ، وَوَصَفَهَا بِمَا لِلذِّكْرِ تَعْظِيمًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِنَافِعِهَا.

ينظر: ديوانه (٤٩)، مشاهد الإنصاف ٢٦/١، الدرر المصون ١٠٧/٣.

- (٢) وَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْجٍ دَمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ
لِلْأَشْهَبِ بْنِ رَمِيلَةَ. وَقِيلَ لِحَرِثِ بْنِ مَخْفُضٍ. وَالَّذِي: أَصْلُهُ الَّذِينَ، فَخَذَفَتْ النُّونَ تَخْفِيفًا.
وَرُوي: وَإِنَّ الْأَلَى، وَهُوَ بِمَعْنَى الَّذِينَ، وَهِيَ الْمَذْكُورُونَ فِي أَوَّلِ الْآيَاتِ وَهِيَ: [مِنْ الطَّوِيلِ]
أَلَمْ تَرَ أَنِّي بَعْدَ عَمْرٍو وَمَالِكٍ وَعُرْوَةُ وَابْنُ الْهَوَلِ لَسْتُ بِخَالِدٍ
وَحَانَتْ: أَتَى حِينَ هَلَكَهَا، وَهُوَ كِتَابَةٌ عَنِ الْهَلَاقِ. وَيُقَالُ: حَانَ حِينًا: هَلَكَ، وَأَحَانَهُ اللَّهُ: أَهْلَكَهُ؛
فَهُوَ حَقِيقَةٌ. وَفُلْجٌ - بِالْفَتْحِ - اسْمُ مَوْضِعٍ بِطَرِيقِ الْبَصْرَةِ. وَدَمَاؤُهُمْ: نَفْسُهُمْ. وَهِيَ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ:
أَيْ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الرِّجَالِ الْحَمِيدَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ.
- ينظر الدرر المصون (٨١/١)، والكتاب (١٨٦/١ - ١٨٧)، والخزانة (٥٠٧/٢)، وابن الشجري (٣٠٧/٢)، وشواهد المغني للسيوطي (١٧٥)، وابن يعيش (١٥٥/٣)، ورصف المياني (٣٤١)،
الهمع (٤٩/١)، الدرر (٢٠٤/١)، ولسان العرب (فُلْجٍ)، والمؤتلف والمختلف ص ٣٣، المقاصد =

وأن يكون الكتاب صفة، ومعناه: هو ذلك الكتاب الموعود، وأن يكون ﴿الْمَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذه «الْمَ»، ويكون ذلك خبراً ثانياً أو بدلاً، على أن الكتاب صفة، وأن يكون: هذه «الْمَ» جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت «الْمَ» بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل^(١). أو الكتاب صفة والخبر ما بعده، أو قدّر مبتدأ محذوف، أي هو - يعني المؤلف من هذه الحروف - ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله: «الْمَ تنزيل الكتاب لا ريب فيه». وتأليف هذا ظاهر.

والريب: مصدر رابني، إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه ما روى الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دَغَ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ» (١٤)؛ فَإِنَّ الشُّكَّ رَيْبٌ، وَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما

١٤ - ورد عن جماعة من الصحابة؛ منهم الحسن بن علي، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر.

أما حديث الحسن:

فأخرجه النسائي (٣٢٧/٨) باب الحث على ترك الشبهات.

والترمذي (٥٧٦/٤، ٥٧٧) كتاب صفة القيامة (٢٥١٨)، وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (٢٠٠/١).

وابن حبان في صحيحه؛ كما أورده الهيثمي في موارد الظمان ص ١٣٧ كتاب المواقيت باب ما جاء في الفتوت (٥١٢).

والحاكم في المستدرک (١٣/٢) كتاب البيوع، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ورواه أيضاً (٩٩/٤) وسكت عنه، وقال الذهبي: سنده قوي.

وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٨)، والبيهقي في شرح السنة (٢١٠/٤) (٢٠٢٥ - بتحقيقنا).

وعبد الرزاق في المصنف (١١٧/٣) برقم (٤٩٨٤).

«وإسناده صحيح».

النحوية ٤٨٢/١، المقتضب ١٤٦/٤، والمنصف ٦٧/١، ومغني اللبيب ١٩٤/١، ٥٥٢/٢، صناعة الإعراب ٥٣٧/٢.

(١) قوله - أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل.

خلاصة هذا الموضع أن البلاغيين لاحظوا أن «ذلك» إشارة للبعد بدليل لام البعد، والكتاب منا جد قريب، فلماذا أشير بالبعد إلى قريب؟ وجوابه أن إشارة البعد تدل على بعد المنزلة، فإذا ضمت إليها دلالة آل في الكتاب صار المعنى: هذا الكتاب الرفيع القدر الكامل في كل ما حواه لا شك فيه هدى للمتقين ولعمل هذا هو المراد - والله أعلم.

وهذا الموقع وهو - تعريف. المسند إليه بطريق الإشارة. له عند البلاغيين مبحث متين، وقد جمعوا له معاني كثيرة من خلال دراستهم للقرآن، وكلام خاتم المرسلين، وشعر العرب، ما جعله باباً واسعاً من أبواب البلاغة العربية ومن أراد الوقوف عليه فليراجع مصنفات البلاغيين.

ينظر: المطول ٧٧ وما بعدها والإيضاح بتحقيق خفاجي ٣٢/٢ وما بعدها، وفتح القدير ٣٣/١، وروح المعاني ١٠٥/١، علم المعاني في فتح القدير للشوكاني ٥٢/١ وما بعدها، والجمال في الفتوحات الألهية ١١/١.

تقلق له النفس ولا تستقرّ، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن، ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس، ويشخص بالقلوب من نوائبه، ومنه: أنه مر بظلي حاقف^(١) فقال: «لَا يُرْبُهُ أَحَدٌ بِشْيءٍ» (١٥). فإن قلت: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق؟

= أما حديث أنس:

فأخرجه أحمد في المسند (١٥٣/٣) من طريق يحيى بن إسحاق قال: أخبرني أبو عبد الله الأسدي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً؛ فإنه ليس دونها حجاب»، وقال رسول الله - ﷺ -: «دع ما يريك إلى ما لا يريك».

أما حديث ابن عمر:

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٥٢/٦)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٢٠/٢) و(٣٨٦/٦) من طريق عبد الله بن أبي رومان عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر به.

والخطيب في التاريخ (٣٨٧/٢) من رواية قتبية بن سعيد عن مالك ثم قال: «وهذا الحديث باطل عن قتبية عن مالك، وإنما يحفظ عن عبد الله بن أبي رومان عن ابن وهب عن مالك. واه، تفرد واشتهر به ابن أبي رومان وكان ضعيفاً» ا. هـ.

وقال أبو نعيم في الحلية:

«غريب من حديث مالك تفرد به ابن أبي رومان عن ابن وهب»، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٦٤٥) من رواية عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - - ويراجع فتح الوهاب للغماري (٤٥٥/١) رقم (٤٠٨).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي في آخر الطب، والحاكم في الأحكام والبيع، والطبراني والبخاري، ورواه البيهقي في الشعب بلفظ: «فإن الشريعة، والخير طمأنينة». انتهى.

١٥ - أخرجه النسائي (١٨٣/٥): كتاب الحج: باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد، حديث رقم (٢٨١٨) وأحمد (٤٥٢/٣)، ومالك في الموطأ (٣٥١/١) كتاب الحج: باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد حديث (٧٩)، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٧١/٦) كتاب الهبات: باب ما جاء في هبة المشاع، وأيضاً في (٣٢٢/٩): كتاب الضحايا: باب ما جاء في حمار الوحش... وابن حبان في صحيحه (٥١٣/١١) كتاب الهبة. باب ذكر إباحة قبول المرء الهبة للمشيء المشاع بينه وبين غيره، والطبراني في معجمه الكبير (٢٥٩/٥) حديث برقم (٥٢٨٣)، والحديث صححه ابن حبان.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه في الموطأ. والنسائي في الحج. وابن حبان من رواية عمر بن سلمة الضمري عن البهري، أن رسول الله - ﷺ - خرج يريد مكة وهو محرم، حتى إذا كان بالإنيابة بين الروثة والعرج، إذا ظلي حاتف في ظل وفيه سهم، فأمر رجلاً أن يقف عنده لا يربيه أحد من الناس حتى يجاوزوه. وإسحاق في مسنده: فقال لبعض القوم: «كن حتى يمر الناس ولا يربيه أحد بشيء» ا. هـ. البهري وقع في مسند أبي يعلى أن اسمه مخول، ولفظه: نبحت حيائل لي بالأبواء فوق وقع فيها ظلي، فأقلت والحبل في رجله، فخرجت أقفوه فسبقني إليه رجل فاحتضنها، ثم ترافعنا إلى النبي - ﷺ - فجعله بيننا نصفين. انتهى.

(١) قوله «أنه مر بظلي حاقف» لعله: أنه صلى الله عليه وسلم إلخ. وفي الصحاح أنه عليه السلام مر بظلي حاقف في ظل شجرة، وهو الذي انحنى وثنى في نومه ا. هـ. (ع)

وكم من مراتب فيه؟ قلت: ما نفى أن أحداً لا يرتاب فيه^(١) وإنما المنفى كونه متعلقاً للرب ومظنة له؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوح البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا رَزَقْنَا عَلَىٰ عِبَادَتِهِ فَاْتُوا بِشُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فما أبعد وجود الرب منهم؟ وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب، وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة. فإن قلت: فهلا قدم الظرف على الريب، كما قدم على العَوْل في قوله تعالى: ﴿لَا يَبْهَتُهُمْ﴾ [الصافات: ٤٧]؟ قلت: لأنَّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان/ ١٠ ب المشركون يذعنونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه؛ كما قصد في قوله: ﴿لَا يَبْهَتُهُمْ﴾^(٢) تفصيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة، وقرأ أبو الشعثاء: ﴿لَا رَيْبُ فِيهِ﴾ بالرفع، والفرق بينها وبين المشهورة، أن المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوز. والوقف على ﴿فِيهِ﴾ هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً. ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا صَبْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز. والتقدير: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

﴿فِيهِ هُدًى﴾ الهدى مصدر على فعل، كالسرى والبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]. ويقال: مهدي، في موضع المدح كـ «مهتد»؛ ولأن اهتدى مطاوع هدى - ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله - ألا ترى إلى نحو: غمه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشباه

(١) قوله «أن أحداً لا يرتاب فيه» لعله أن أحداً يرتاب فيه. وقد يقال المراد ما نفى الريب على معنى أن أحداً لا يرتاب فيه. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي وكان هذا الذي ذكره أبو القاسم الزمخشري بناءً منه على أن التقديم يفيد الاختصاص، وكان المعنى أن خمرة الآخرة اختلفت بنفي الغول عنها بخلاف غيرها، وللمازعة فيه مجال.

وقد رام بعضهم الرد عليه بطريق آخر، وهو أن العرب قد وصفت أيضاً خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول؛ قال علقمة [من البسيط]:

تَشْفِي الصَّدَاقَ وَلَا يُؤْذِيكَ صَالِبُهَا وَلَا يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَذْوِيمُ
وما أبعد هذا من الرد عليه، إذ لا اعتبار بوصف هذا القائل. انتهى. الدر.

ذلك، فإن قلت: فلم قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون^(١)؟ قلت: هو كقولك للعزیز المكرم: «أعزك الله وأكرمك»، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته، كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ووجه آخر، وهو أنه سماهم عند مشارفتهم؛ لاكتسَاء لباس التقوى، متقين، كقول رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ» (١٦) وعن ابن

١٦ - أخرجه مالك (٤٥٤/٢ - ٤٥٥) كتاب الجهاد - باب ما جاء في السلب في الثقل: حديث (١٨) وأحمد (٢٩٥/٥، ٣٠٦) والبخاري (٢٤٧/٦) كتاب فرض الخمس - باب من لم يخمس الأسلاب - حديث (٣١٤٢) ومسلم (١٣٧٠/٣): كتاب الجهاد والسير. باب استحقاق القاتل سلب القاتل حديث (١٧٥١/٤١) وأبو داود (١٥٩/٣) كتاب الجهاد - باب في السلب يُعطى القاتل حديث (٢٧١٧) وابن ماجه (٩٤٦/٢): كتاب الجهاد - باب المبارزة والسلب - حديث (٢٨٣٧) والترمذي (١١١/٤) كتاب السير: باب ما جاء في من قتل قتيلاً - حديث (١٥٦٢).

والحميدي (٢٠٤/١) رقم (٤٢٣) والدارمي (٢٢٩/٢) كتاب السير باب من قتل قتيلاً فله سلبه وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» رقم (٧٧٦) وابن الجارود (١٠٧/٦) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٢٦/٣) والبيهقي (٥٠/٩) والبخاري في شرح السنة (٦١٢/٥) - بتحقيقنا من طريق يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير بن أفلح عن أبي محمد مولى أبي قتادة عنه. مطولاً ومختصراً وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (٣٠٧/٥) عن إسحاق بن عيسى والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٢٧/٣) من طريق ابن المبارك كلاهما عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن الأعرج عن أبي قتادة الأنصاري أنه قتل رجلاً من الكفار فنفله - النبي - ﷺ - سلبه ودرعه فباعه بخمسة أواق.

وابن المبارك من قدماء أصحاب ابن لهيعة. وللحديث شاهد من حديث أنس بن مالك.

أخرجه أبو داود (٧٨/٢) كتاب الجهاد: باب في السلب يعطى للقاتل حديث (٢٧١٨) والدارمي (٢٢٩/٢) كتاب الجهاد والسير، باب من قتل قتيلاً فله سلبه وابن حبان (١٦٧١ - موارد) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٢٧/٣) والحاكم (٣٥٣/٣) وأبو داود الطيالسي (١٠٨/٢) - ١٠٩ - منحة) رقم (٢٣٧٤) والبيهقي (٣٠٦/٦ - ٣٠٧) كتاب قسم الفية: باب السلب للقاتل وأحمد (١١٤/٣) من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ - يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه»...

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فلم قيل هدى للمتقين والمتقون مهتدون... إلخ». قال أحمد رحمه الله: الهدى يطلق في القرآن على معنيين: أحدهما الإرشاد وإيضاح سبيل الحق. ومنه قوله تعالى: ﴿رَأَاهُمْ سَمَوَاتِهِمْ فَاسْتَبَسَّوْا السَّمَاءَ عَلَى الْكُدِّ﴾. وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رشد إلى الحق، سواء حصل له الاهتداء أو لا. والآخر خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه: (أولئك الذين هدى الله فيبدها لهم اقتدته) فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً. وأما قول الزمخشري: إن القرآن لا يكون هدى للمعلوم بقاؤهم على الضلالة، فإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء في قلوبهم. وأما إذا أريد معناه الأول، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين، وبين للناس ما نزل إليهم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من حقت عليهم الضلالة. هذا مذهب أهل السنة.

عباس رضي الله عنهما: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ الْحَجَّ فَلْيَنْعَجِلْ؛ فَإِنَّهُ يَمْرُضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ

قال أبو داود: هذا حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه أيضاً ابن حبان. وله شاهد أيضاً من حديث سمرة بن جندب.

أخرجه أحمد (١٢/٥) وابن ماجه (٩٤٧/٢) كتاب الجهاد: باب المبارزة والسلب حديث (٢٨٣٨) والبيهقي (٣٠٩/٦) من طريق نعيم بن أبي هند عن ابن سمرة بن جندب عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قتل فله السلب».

قال البوصيري في «الزوائد» (٤١٦/٢): هذا إسناد فيه ابن سمرة بن جندب واسمه سليمان بن سمرة بن جندب.

ذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن القطان: حاله مجهول وباقي رجال الإسناد ثقات. ١. هـ.

وفي الباب عن سلمة بن الأكوع وعوف بن مالك وابن عباس وجابر.

أما حديث سلمة بن الأكوع.

أخرجه مسلم (١٣٧٤/٣ - ١٣٧٥) كتاب الجهاد والسير: باب استحقاق القاتل سلب القاتل حديث (١٧٥٤/٤٥) من طريق إياس بن سلمة قال: حدثني أبو سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله - ﷺ - هوازن. . . الحديث.

أما حديث عوف بن مالك.

أخرجه مسلم (١٣٧٣/٣) كتاب الجهاد والسير: باب استحقاق القاتل سلب القاتل حديث (٤٣/١٧٥٣) عن عوف بن مالك قال خَرَجْتُ مَعَ مَنْ خَرَجَ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ. وَزَافَقْنِي مَذْدُؤِي مِنَ الْيَمَنِ. وَسَاقَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِخَوِّهِ. عَزَبَ اللَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: قَالَ عَوْفٌ: فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَضَى بِالسَّلْبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي اسْتَكْرَهُ.

أما حديث ابن عباس.

فأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤٥/٨) من طريق إبراهيم بن أدهم عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس.

قال أبو نعيم: غريب من حديث إبراهيم لم نكتبه إلا من هذا الوجه.

تنبيه: عزا الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (١٥٢/٢) هذا الحديث لأبي نعيم في «الحلية» بلفظ: من قتل قتيلاً فله سلبه وليس كما قال فاللفظ هو كما تقدم.

حديث آخر عن ابن عباس.

أخرجه أحمد (٢٨٩/١) من طريق مقسم عنه أن النبي - ﷺ - مر على أبي قتادة وهو عند رجل قد قتله فقال: دعوه وسلبه.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣٣/٥ - ٣٣٤) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط بمعناه ورجال أحمد والكبير رجال الصحيح غير عتاب بن زياد وهو ثقة.

حديث آخر:

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣٤/٥) عنه قال: انتهى عبد الله بن مسعود إلى أبي جهل يوم بدر وهو رقيد فاستل سيفه فضرب عنقه فندر رأسه ثم أخذ سلبه فأتى النبي - ﷺ - فأخبره أنه قتل أبا جهل فاستحلفه بالله ثلاث مرات، وحلف، فجعل له سلبه.

وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن أبي إسحاق أبو إسرائيل الملائي وهو ضعيف.

الضالة، وتُكْتَفُ الْحَاجَةُ» (١٧) فَسَمِيَ الْمَشَارِفُ لِلْقَتْلِ وَالْمَرَضِ وَالضَّلَالِ: «قَتِيلًا وَمَرِيضًا، وَضَالًا»، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، أَي صَائِرًا إِلَى الْفُجُورِ وَالْكَفْرِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَا قِيلَ: هَدَى لِلضَّالِّينَ؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الضَّالِّينَ فَرِيقَانِ: [فَرِيقٌ] عَلِمَ بِقَاوِمِهِمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَهُمْ الْمَطْبُوعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَفَرِيقٌ عَلِمَ أَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى الْهَدْيِ؛ فَلَا يَكُونُ هَدَى لِلْفَرِيقِ الْبَاقِينَ عَلَى الضَّلَالَةِ، فَبَقِيَ أَنَّ يَكُونُ هَدَى لِهَؤُلَاءِ، فَلَوْ جِئَ بِالْعِبَارَةِ الْمَفْصُحَةِ عَنْ ذَلِكَ لَقِيلَ: هَدَى لِلضَّالِّينَ إِلَى الْهَدْيِ بَعْدَ الضَّلَالِ، فَاخْتَصَرَ الْكَلَامَ بِإِجْرَائِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا، فَقِيلَ: هَدَى لِلْمُتَّقِينَ. وَأَيْضًا فَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ سَلَمًا إِلَى

== - حديث جابر:

أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ (٣٠٩/٦) مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْوَلِيدِ ثَنَا هِشَامٌ عَنْ شَرِيكَ عَنْ ابْنِ عَقِيلٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: بَارَزَ عَقِيلٌ بَنَ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَجُلًا يَوْمَ مَوْتِهِ فَقَتَلَهُ فَنَفَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سَيْفَهُ وَتَرْسَهُ. وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الْوَلِيدِ بَنِ صَالِحٍ ثَنَا شَرِيكَ بِهِ وَأَخْرَجَهُ الْحَافِظُ ابْنَ حَجَرَ فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْمُخْتَصَرِ» (١٥٤/٢) مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بَنِ أَحْمَدَ - الطَّبْرَانِي - فِي الْأَوْسَطِ نَا أَحْمَدَ بَنِ خَلِيدٍ نَا إِسْمَاعِيلَ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ بَنِ زُرَّارَةَ نَا شَرِيكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بَنِ مُحَمَّدٍ بَنِ عَقِيلٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: بَارَزَ عَقِيلٌ بَنَ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ مَوْتِهِ رَجُلًا فَقَتَلَهُ فَنَفَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سِلَبَهُ وَخَاتَمَهُ... وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (٣٣٤/٥) وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بَنُ مُحَمَّدٍ بَنُ عَقِيلٍ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ. وَفِيهِ ضَعْفٌ ١. هـ.

وَقَالَ ابْنُ حَجَرَ فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْمُخْتَصَرِ» (١٥٤/٢): حَدِيثٌ حَسَنٌ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرَ فِي تَخْرِيجِ الْكَشَافِ بِهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ، وَفِيهِ قِصَّةُهُ، وَغُلَطُ الطَّبِيِّ فَقَرَأَهُ لِأَبِي دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَالَّذِي فِيهِ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»، لَمْ يَقُلْ: «فَلَهُ سِلَبُهُ». انْتَهَى.

١٧ - أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (٩٦٢/٢) كِتَابَ الْمَنَاسِكِ بَابَ الْخُرُوجِ إِلَى الْحَجِّ، حَدِيثُ (٢٨٨٣) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢١٤/١) وَفِي (٣٢٣/١) وَفِي (٣٥٥/١).

وَذَكَرَهُ الزُّبَيْلِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْكَشَافِ (٤١/١) وَعَزَاهُ إِلَى إِسْحَاقَ بَنِ رَاهُوَيْهِ فِي مُسْنَدِهِ: مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بَنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ عَنْ الْفَضْلِ بَنِ عَبَّاسٍ أَوْ عَنْ أَحَدِهِمَا، عَنْ صَاحِبِهِ. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٤١/٢): كِتَابَ الْمَنَاسِكِ: حَدِيثُ رَقْمَ (١٧٣٢) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٢٥/١) وَعَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ فِي مُسْنَدِهِ ص (٣٧) حَدِيثُ (٧٢٠) وَالِدَارِمِيُّ (٢٨/٢): كِتَابَ الْمَنَاسِكِ: بَابُ مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَسْتَعْجَلْ.

مِنْ طَرِيقِ مَهْرَانَ أَبِي صَفْوَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بَلْفَظٍ «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَسْتَعْجَلْ». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرَ فِي «تَخْرِيجِ الْكَشَافِ»: مَوْقُوفٌ، عَزَاهُ الطَّبِيُّ لِأَبِي دَاوُدَ وَحْدَهُ مَرْفُوعًا، وَقَالَ: لَيْسَ فِيهِ الزِّيَادَاتُ، يَعْنِي قَوْلُهُ فِيهِ يَمْرُضُ إِلَى آخِرِهِ انْتَهَى. وَالحديث بتمامه عند ابن ماجه وأحمد وإسحاق في مسنديهما مرفوعاً، وفيه أبو إسرائيل المكي، وهو صدوق سيء الحفظ. انتهى.

تصدير السورة التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني، بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده.

والمتمقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: «وقاه فاتقى». والوقاية: فرط الصيانة، ومنه: فرس واق، وهذه الدابة تقي من وجاها، إذا أصابه ضلع^(١) من غلظ الأرض، ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه، وهو في الشريعة الذي/ ١١ يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك، واختلف في الصغائر^(٢)، وقيل: الصحيح، أنه لا يتناولها؛ لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر، وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن؛ لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة، كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر.

ومحل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه، ويجوز أن ينصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف، والذي هو أرسخ عرقاً في «البلاغة» أن يضرب عن هذه المحال صفحاً، وأن يقال: إن قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملة ثانية، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة، و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية أخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة؛ بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي، وشدداً من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً

(١) قوله «من وجاها إذا أصابه ضلع» في الصحاح: الوجي: الوجد في الحافر. والضلع: الميل والاعوجاج والظلم: غمز في مشية البعير. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «واختلف في الصغائر... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ومن تمنى القدرة على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر محوثة عنهم ما اجتنبوا الكبائر، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم أن لا يعفو عن مرتكب الكبائر، وهذا هو الخطأ الصراح، والمحاداة لأيات الله البينات وسُنن رسوله صَلَّى الله عليه وسلم الصحاح. والحق أن غفران الصغائر - وإن اجتنبت الكبائر - موكول إلى المشيئة، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضاً. ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرة يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْمَلْ يُسْكَالْ دَرَوْشَكَ يَسْرُ﴾ ومن يَسْمَلْ يُسْكَالْ دَرَوْشَكَ يَسْرُ ﴿١﴾ فإنه ناطق بالمواخاة بالصغائر. ويحiron عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ فإنه مصرح بمغفرة الكبائر. أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فإن التقييد بالمشيئة في هذه يقضي على الآيتين المطلقتين.

بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: في حجة تتبختر انضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتب هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السري، من نكتة ذات جزالة^(١)، ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشقه، وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة: ما في تقديم الرب على الظرف، وفي الرابعة: الحذف، ووضع المصدر الذي هو: «هُدًى» موضع الوصف الذي هو: «هاد» وإيراده منكراً، والإيجاز في ذكر المتقين.

زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه، وتبيننا لنكت تنزله، وتوفيقاً للعمل بما فيه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢)

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة، أو مدح منصوب، أو

(١) قوله - ثم لم تخل كل واحدة. - «من نكتة ذات جزالة»

قلت: في كلامه بيان قوي لكن البلاغيين نظروا في هذه الجمل فوجدوها خلت من حرف العطف، وهذا دليل على كمال الاتصال المعنوي بينها، وكما قالوا إن الفعل هو عين الوصل في الحقيقة؛ لأن المدار في المقاصد على المعاني وتواصلها، ولهذا أغنانا عن الوصل بالواو قوة الاتصال المعنوي، ولهذا سمي بكمال الاتصال، ولنستمع إلى قول القزويني في الإيضاح حيث يقول:

«فإن وزان لا رب فيه في الآية وزان نفسه في قولك جاءني الخليفة نفسه، فإنه لما بولغ في وصف الكتاب ببلوغه الدرجة القصوى من الكمال، بجعل المبتدأ ذلك، وتعريف الخبر باللام، كان عند السامع قبل أن يتأمله مظنة أنه مما يرمى به جزافاً من غير تحقق، فأتبعه - لا رب فيه - نفيًا لذلك، إتيان الخليفة نفسه، إزالة لما عسى أن يتوهم السامع أنك في قولك جاءني الخليفة منجوز أو ساء، وكذا قوله: «كان لم يسمعه» كان في أذنيه وقرأ الثاني مقرر لما أفاده الأول. . . .»

ثم يحدثنا عن إتيان «هدى للمتقين» لما قبلها بدون عاطف - أيضاً - فيقول:

«فإن هدى للمتقين معناه أنه في الهداية بالغ درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محقة وهذا معنى قولك - ذلك الكتاب - لأن معناه كما هو الكتاب الكامل، والمراد فيما له كماله في الهداية؛ لأن الكتب السماوية بحسبها تتفاوت في درجات الكمال».

في قول صاحب الكشف: «وفي اسم الإشارة . . . إلخ» ١٤١/١ ما يفيد أن تعريف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض عديدة مبثوثة في النص القرآني والحديث الشريف وكلام العرب، وقد سار البلاغيون في بحثهم عن هذه الأسرار وجمعوا منها زادا طيباً في مصنفاتهم. ومن هذا الزاد ما أوردوه في هذه الآية حيث قال القزويني «أفاد اسم الإشارة زيادة الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله باستحقاق الهدى من ربهم والفلاح».

«يراجع الإيضاح ٢٥/٢ وما بعدها مع تحقيق خفاجي عليه، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري لأبي موسى ٣١٢، وعلم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ٨٣/١ وما بعدها».

مرفوع بتقدير: أعني الذين يؤمنون، أو هم الذين يؤمنون، وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: ٥]. فإذا كان موصولاً، كان الوقف على المتقين حسناً غير تام، وإذا كان مقتطعاً، كان وفقاً تاماً، فإن قلت: ما هذه الصفة، أواردة بياناً وكشفاً للمتقين؟ أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها؟ أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية/ ١١ ب عليه تمجيداً؟ قلت: يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف، لاشتغالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات، أما الفعل: فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبها، وذكر الصلاة والصدقة؛ لأن هاتين أُمَّا العبادات البدنية والمالية، وهما العيار على غيرهما؛ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ سَمَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ عِمَادَ الدِّينِ، وَجَعَلَ الْفَاصِلَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ؟. وَسَمَّى الزُّكَاةَ قَطْرَةَ الْإِسْلَامِ؟ (١٨) وقال الله تعالى: ﴿وَرِثَ الْوَسْطَىٰ﴾

١٨ - أما حديث الصلاة عماد الدين:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩/٣) حديث برقم (٢٨٠٧).

وذكره المعجلوني في كشف الخفاء (٣١/٢) حديث (١٦٢١).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩٦/١).

وذكره ابن حجر في تلخيص الحبير (٣٠٨/١) كتاب الصلاة باب أوقات الصلاة، تحت رقم (٢٤٣).

والحديث له شاهد من حديث علي بن أبي طالب.

وذكره الديلمي في فردوس الأخبار (٥٦٣/٢) حديث (٣٦١/١) والسيوطي في الدر المنثور (١/٢٩٦).

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٤٢/١) حديث (١٩) - إلى أبي القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب.

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: قال النووي في التنقيح هو منكر باطل، قلت: وليس كذلك بل رواه أبو نعم شيخ البخاري في كتاب الصلاة عن حبيب بن سليم، عن بلال بن يحيى قال جاء رجل إلى النبي - ﷺ - وسأله؟ فقال: «الصلاة عمود الدين»، وهو مرسل رجاله ثقات. ا.هـ.

أما حديث: بين العبد والكفر ترك الصلاة.

أخرجه أحمد (٣٧٠/٣ و ٣٨٩)، والدارمي (٢٨٠/١) كتاب الصلاة: باب في ترك الصلاة، ومسلم (٨٨/١) كتاب الإيمان: باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، الحديث (٨٢/١٣٤)، وأبو داود (٨٥/٥) كتاب السنة: باب في رد الإرجاء، الحديث (٤٦٧٨)، والترمذي (١٣/٥): كتاب الإيمان: باب ما جاء في ترك الصلاة، الحديث (٢٦١٨)، وابن ماجه (٣٤٢/١): كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، الحديث (١٠٧٨)، وأبو نعيم (٢٥٦/٨) - الحلية، والبيهقي (٣٦٦/٣)، ولغظ مسلم من رواية أبي الزبير، عن جابر، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة».

وأخرجه ابن ماجه (١٠٨٠)، من حديث أنس بن مالك بلفظ: «ليس بين العبد وبين [الشرك] إلا»

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿فصلت: ٦ - ٧﴾. فلما كانتا بهذه المثابة، كان من شأنهما استجزار سائر العبادات واستتباعها، ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً، بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترب به، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين، وأما الترك فكذاك؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الزَّكَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؟ ويحتمل ألا تكون بياناً للمتقين، وتكون صفة برأسها دالة على فعل الطاعات، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي، ويحتمل أن تكون مدحاً للموصوفين بالتقوى، وتخصيصاً للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر؛ إظهاراً لإنافتها على سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات.

والإيمان: إفعال من الأمن. يقال: أمنت وأمنتته غيري، ثم يقال: أمنت إذا صدقه، وحقيقته: أمنت التأكيد والمخالفة، وأما تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقر وأعترف، وأما ما

= ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك.

وقال البوصيري (٣٥٧/١): هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي.

أما حديث: «الزكاة فتطرة الإسلام».

أخرجه ابن عدي في الكامل (١٤١٧/٤) والبيهقي في الشعب (١٩٥/٣) حديث (٣٣١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٧٠)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٩٣/٢) حديث برقم (٨١٤)، كلهم من طريق الضحاك بن حمزة عن أبان عن حطان بن عبدالله الرقاشي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - ﷺ - وذكره.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله - ﷺ -، قال يحيى: الضحاك ليس بشيء؛ وقال النسائي: ليس بثقة.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٥/٣) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون، إلا أن بقية مدلس وهو ثقة.

وعزاه الزيلعي إلى إسحاق بن راهويه في مسنده (تخريج الكشاف (٤٢/١)).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أما الحديث الأول: فأخرجه البيهقي في الشعب من طريق عكرمة عن عمر - رضي الله عنه - في حديث في آخره: «والصلاة عماد الدين» قال: وعكرمة لم يسمع من عمر. قال: وأراه عن ابن عمر - رضي الله عنهما -، وله شاهد من حديث علي - رضي الله عنه - بلفظ: «الصلاة عماد الإسلام»، أخرجه الأصبهاني في التريغيب. وغفل ابن الصلاح في مشكل الوسيط فقال: هذا حديث غير معروف. قلت: والطيب عزاه لتخريج الترمذي في حديث معاذ فقيه: «وعموده الصلاة» ولا يخفى بعده.

وأما الحديث الثاني: فرواه مسلم من حديث جابر - رضي الله عنه - بلفظ: «بين الرجل وبين الكفر تركه الصلاة».

وأما الحديث الثالث: فرواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - به سواء. وفيه الضحاك ابن حنبل. وهو ضعيف. انتهى.

حكى أبو زيد عن العرب: ما آمنت أن أجد صحابة - أي ما وثقت - فحقيقته: صرت ذا أمن به، أي ذا سكون وطمأنينة، وكلا الوجهين حسن في ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يعترفون به أو يثقون بأنه حق، ويجوز ألا يكون ﴿يَالْغَيْبِ﴾ صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي يؤمنون غائبين عن المؤمنين به، وحقيقته: ملتبس بالغيب، كقوله ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ تَتَهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتِ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، ويعضده ما روي: «أن أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله ﷺ وإيمانهم، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن أمر محمد كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره، ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية (١٩)، فإن قلت: فما المراد بالغيب إن جعلته صلة؟ وإن جعلته حالاً؟ قلت: إن جعلته صلة كان بمعنى الغائب، إما تسمية بالمصدر من قولك: غاب الشيء غيباً، كما سمي الشاهد بالشهادة، قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٤٦] والعرب تسمى المطمئن من الأرض غيباً، وعن النضر بن شميل: شربت الإبل حتى وارت غيوب كلاها، يريد بالغيب: الخمصة التي تكون في موضع الكلية، إذا بطنت الدابة/ ١٢ انتفخت، وإما أن يكون فيعلا فحفف، كما قيل: قُيِّل وأصله: قُيِّل، والمراد به: الخفي الذي لا يتفد فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير، وإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه، أو نصب لنا دليلاً عليه، ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب، وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبؤات وما يتعلق بها، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد، وغير ذلك، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، فإن قلت: ما الإيمان الصحيح^(١)؟ قلت: أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه، ويصدق بعمله؛

١٩ - أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٢٦٠): كتاب التفسير: باب من سورة البقرة. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥٤٤/ ٢) حديث (١٨٠) باب تفسير سورة البقرة. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤/ ١) حديث (٦٦) وذكره البغوي في تفسيره معلقاً (٤٧/ ١). والسيوطي في الدر المنثور (٢٦/ ١) وعزاه إلى سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع في مسنده وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردويه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وواقعه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن زيد: «ذكروا عند عبد الله بن مسعود. إلخ» وإسناده صحيح. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «إن قلت ما معنى الإيمان الصحيح... إلخ». قال أحمد رحمه الله: يعني بالفاسق غير مؤمن ولا كافر، وهذا من الأسماء التي سماها القدورية وما أنزل الله بها من سلطان. ومعتقد أهل السنة أن الموحّد لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر. وهذا =

فمن أخل بالاعتقاد - وإن شهد وعمل - فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق.

ومعنى إقامة الصلاة: تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها، من أقام العود - إذا قومه - أو الدوام عليها والمحافظة عليها، كما قال عزّ وعلا: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ [المؤمنون: ٩] من قامت السوق إذا نفقت، وأقامها، قال [من المتقارب]: أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقِ الضَّرَابِ لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ حَوْلًا قَمِيطًا^(١)

لأنها إذا حوفظ عليها، كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وأضيعت، كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه، أو التجلد والتشمر لأدائها، وألا يكون في مؤذيتها فتور عنها ولا توان، من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضده: قعد عن الأمر، وتقاعد عنه - إذا تقاعس وتبسط - أو أداها، فعبير عن الأداء بالإقامة؛ لأنّ القيام بعض أركانها، كما عبر عنه بالقنوت - والقنوت القيام - وبالركوع وبالسجود، وقالوا: سبح، إذا صلى؛ لوجود التسبيح فيها؛ ﴿كَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

= هو الصحيح لغة وشرعاً. أما لغة فإن الإيمان هو التصديق وهو مصدق. وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكراراً. وانظر حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة بقوله: المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدقه بعمله فجعل التصديق من حظ العمل حتى يتم له أن من لم يعمل فقد فوت التصديق الذي هو الإيمان لغة. ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح؛ مما يحقق معتقد أهل السنة أن من آمن بالله ورسوله ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح فهو مؤمن باتفاق وإن لم يعمل. وأصدق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن أحذركم ليعمل بعمل أهل النار، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فواق ناقة عمل بعمل أهل الجنة فكتب من أهل الجنة» وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بفواق الناقة لأنه الغاية في القصر، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة، ومع ذلك فقد عده من أهل الجنة. وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين. والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطراً. أقول: تفسير الفاسق بغير مؤمن ولا كافر كما هو مذهب المعتزلة غير موجه والشيء الذي هو لم يصرح به لا يجب علينا تصريحه وتعريفه: فإن عندنا «الضال» من أخل بالعمل فهو فاسق.

(١) لأيمن بن خزيم. وغزالة: امرأة شيب الخارجي، قتله الحجاج فحاربه سنة كاملة، وسوق الضراب: مجاز عن ميدان المحاربة، أو شبه المطاعنة بالرماح والمضاربة بالسيف بالأمتعة التي تُباع وتُشتري في السوق على سبيل المكنية والسوق تخييل. والعراقان: البصرة والكوفة. والقميطة: التام نعت مؤكد، ويقال: قميطة الطائر إنشاء: سفدها. والقمطاط: حبيل تشد به الأسرى والأخصاص، فالمادة دالة على الإحاطة والضم.

والصلاة: فعلة من صلى، كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى: حرك الصلوتين؛ لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده، ونظيره: كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه؛ لأنه ينثني على الكاذبتين^(١)، وهما الكافران، وقيل للداعي: مصل؛ تشبيهاً في تخشعه بالراعي والساجد.

واسناد الرزق إلى نفسه^(٢)؛ للإعلام بأنهم ينفقون الحلال^(٣) الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقاً منه، وأدخل من التبعية صيانة لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهى عنه، وقدم مفعول الفعل؛ دلالة على كونه أهم، كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به، وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة؛ لاقترانه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبيل الخير؛ لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق، وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، وعن يعقوب: نفق الشيء، ونفد واحد، وكل ما جاء م/ما ١٢ب فاؤه نون، وعينه فاء؛ فدلّ على معنى الخروج والذهاب ونحو ذلك إذا تأملت.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

فإن قلت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ أهم غير الأولين أم هم الأولون؟ وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد؛ وفي قوله [من المتقارب]:
إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْهَمَامِ وَلَيْسَ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ^(٤)

(١) قوله «على الكاذبتين» في الصحاح: الكاذبتان ما نشأ من اللحم في أعالي الفخذ اهـ. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «أضاف الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم إنما ينفقون من الحلال الطلق... إلخ». قال أحمد رحمه الله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه حتى يقسمون الأرزاق قسمين: هذا لله بزعيمهم، وهذا لشركائهم. وإذا أثبتوا خالقاً غير الله، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره. أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق في عقديم إلا الله سبحانه، تصديقاً بقوله تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُلْتُ نَعْلَمُ﴾ أيها القدرية.

(٣) قوله «بأنهم ينفقون الحلال» مبني على أن الرزق مختص بالحلال. وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: الرزق أعم. (ع)

(٤) الجار والمجرور متعلق بما قبله في الشعر. والقرم - بالفتح - في الأصل: الفحل المكرم الذي يعفى من العمل لتقديمه وتشويقه إلى ضراب الإبل. استعارة للسيد الرئيس أو للفراس المعد للمكارة. وظاهر القاموس أنه بمعنى السيد حقيقة. ووسط الواو بين النوع لتوكيد ربطها بالمنوت. والهمام: العظيم الهمة، النافذ العزيمة. واستعار الليث للشجاع على طريق التصريح. والكتيبة: الجيش المنظم المنتظم. والمزدحم: المعركة؛ لأنها محل الإزدحام، وأصله، مزتحم، من الانفعال قلبت تاؤه دالاً. ينظر الدر المصون ٩٨/١، الإنصاف لابن الأنباري (٢٧٦) الخزانة (٤٥١/١) =

وقوله: [من السريع]

يَا لَهْفَ زِيَابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْعَنَائِمِ فَالْأَيْبِ^(١)

قلت: يَحْتَمَلُ أَنْ يَرَادَ بِهِؤَلَاءَ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَأَضْرَابِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، فَاشْتَمَلَ إِيمَانَهُمْ عَلَى كُلِّ وَحْيٍ أَنْزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَيَقَنُوا بِالْآخِرَةِ؛ إِيْقَانًا زَالَ مَعَهُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَأَنَّ النَّارَ لَنْ تَمْسَهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَاجْتِمَاعَهُمْ عَلَى الْإِقْرَارِ^(٢) بِالنَّشْأَةِ الْآخِرَى، وَإِعَادَةِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ، ثُمَّ افْتِرَاقَهُمْ فِرْقَتَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: تَجْرِي حَالُهُمْ فِي التَّلَذُّذِ بِالْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاقِحِ عَلَى حَسَبِ مَجْرَاهَا فِي الدُّنْيَا، وَدَفَعَهُ آخَرُونَ فَرَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا احْتِيجَ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أَجْلِ نَمَاءِ الْأَجْسَادِ وَلِمَكَانِ التَّوَالِدِ وَالتَّنَاسُلِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُسْتَغْنُونَ عَنْهُ فَلَا يَتَلَذَّذُونَ إِلَّا بِالنَّسِيمِ وَالْأَرْوَاحِ الْعَبَقَةِ، وَالسَّمَاعِ اللَّذِيذِ، وَالْفَرَحِ، وَالسَّرُورِ، وَاخْتِلَافِهِمْ فِي الدَّوَامِ وَالانْقِطَاعِ، فَيَكُونُ الْمَعْطُوفُ غَيْرَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرَادَ وَصْفَ الْأَوَّلِينَ، وَوَسْطِ الْعَاطِفِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمُ الْجَامِعُونَ بَيْنَ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَهَذِهِ، فَإِنْ قُلْتُ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهِؤَلَاءَ غَيْرَ أَوَّلِكَ، فَهَلْ يَدْخُلُونَ فِي جُمْلَةِ الْمُتَّقِينَ أَمْ لَا؟ قُلْتُ: إِنْ عَظَّمْتَهُمْ عَلَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ دَخَلُوا وَكَانَتْ صِفَةُ التَّقْوَى مُشْتَمِلَةً عَلَى الزَّمَرَتَيْنِ مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ

= القرطبي (٢٧٢/١) البحر (٢١٣/٥).

(١) يَا لَهْفَ زِيَابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْعَنَائِمِ فَالْأَيْبِ

وَاللَّهُ لَوْ لَاقِيَتْهُ خَالِيًا

لَابْنَ زِيَابَةَ فِي جَوَابِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ حِينَ قَالَ لَهُ:

أَيَا ابْنَ زِيَابَةَ إِنْ تَلَقَّنِي

لَا تَلَقَّنِي فِي النِّعَمِ الْعَازِبِ

وَتَلَقَّنِي بِشِدِّ بَيْ أَجْرَدِ

مُسْتَقْدِمِ الْبَرَكَةِ كَالرَّاكِبِ

وَالْعَازِبِ - بِالزَّايِ - الْبَعِيدِ عَنْ أَهْلِهِ. يَعْضُرُ بَابِنَ زِيَابَةَ زَاغًا لِلنِّعَمِ لَا شَجَاعَ. وَالْأَجْرَدُ: الْمُنْجَرِدُ الشَّعْرَ. وَالْبَرَكَةُ فِي الْبَعِيرِ وَالْفَرَسِ: الْعِظْمُ النَّاتِيءُ فِي صَدْرِهِمَا وَعِظْمُهُ مَمْدُوحٌ فِيهِمَا، وَشَبَّهَهُ بِالرَّاكِبِ فِي طَوْلِ عُنُقِهِ وَامْتِدَادِهِ وَيَجُوزُ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ رَاكِبَهُ مُسْتَقْدِمُ الْبَرَكَةِ لَا مُتَخَشِّعٌ مِنْكُمْشَ. يَقُولُ: يَا حَسْرَةَ أَبِي عَلِيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَارِثِ الَّذِي بَلَغَ مُرَادَهُ مِنْهُ. وَفِيهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّهَكُّمِ فَإِنَّهُ كَانَ تَوَعَّدُهُ ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقِيْبِهِ. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، ثُمَّ حَلَفَ أَنَّهُ لَوْ وَجَدَهُ لَقَتْلَهُ، وَلَكِنَّهُ أَبْرَزَ الْكَلَامَ فِي صُورَةِ الْإِيْهَامِ لِلْإِنْصَافِ فِي الْكَلَامِ وَرُجُوعِ السِّفَتَيْنِ مَعَ الْغَالِبِ: كُنَايَةُ عَنْ قَتْلِ الْمَغْلُوبِ وَاسْتِلَابِ سِلَاحِهِ.

الْبَيْتُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ. يَنْظُرُ: الْحِمَاسَةُ (٩٢/١)، الْخَزَانَةُ (٣٣١/٢) وَأَمَالِي ابْنِ الشَّجَرِيِّ (٢/ ٢١٠)، الْهَمْعُ (١١٩/٢)، الدَّرَرُ (١٥٠/٢)، الْمَغْنِي (١٦٣/١)، الْخَزَانَةُ (١٠٧/٥)، الدَّرَرُ (١/ ٩٩)، سَمَطُ الدَّلَائِي ٥٠٤، مَعْجَمُ الشُّعْرَاءِ ٢٠٨، الْجَنَى الدَّلَانِي ٦٥.

(٢) قَوْلُهُ «وَاجْتِمَاعَهُمْ عَلَى الْإِقْرَارِ» لَعَلَّهُ عَطَفَ عَلَى مَجْرُورِ «مَنْ» الْبَيَانِيَّةِ، بِاعْتِبَارِ مَا عَطَفَ عَلَيْهِ مِنْ افْتِرَاقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمُ الْآتِيَيْنِ تَقْدِيرًا. (ع)

وغيرهم، وإن عطفتمهم على: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ لم يدخلوا، وكأنه قيل: هدى للمتقين، وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك، فإن قلت: قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إن عني به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم، فكيف قيل: أنزل بلفظ المضى؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومتروقه واجب، قلت: المراد المنزل كله؛ وإنما عبر عنه بلفظ المضى وإن كان بعضه مترقباً، تغليباً للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب، فيقال: «أنا [وَأَنْتَ فَعَلْنَا]»، «أَنْتَ وَزَيْدٌ فَعَلْنَا»، ولأنه إذا كان بعضه نازلاً، وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠] ولم يسمعوا جميع الكتاب، ولا كان كله منزلاً، ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا؛ ونظيره قولك: كل ما خطب به فلان فهو فصيح، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر، ولا تريد بهذا الماضي [منه] فحسب دون الآتي، لكونه معقوداً بعضه/ ١١٣ ببعض، ومربوطاً آتيه بماضيه، وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على لفظ ما سمي فاعله، وفي تقديم: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ وبناء ﴿يُوقِنُونَ﴾ على: ﴿هُمْ﴾؛ تعريض بأهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، و: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهي صفة الدار؛ بدليل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْزَمُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٨٣] وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا، وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام، كقوله: ﴿وَدَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ [سبا: ١٤] وقرأ «أبو حية»^(١) النُميري: «يُوقِنُونَ» بالهمز، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه، فقلبها قلب واو «وجوه» و«وُقُتَتْ»، ونحوه: [من الوافر]

لَحَبَّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَّى وَجَعَدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوُقُودُ^(٢)

(١) قوله «وقرأ أبو حية» لعله: أبو حية. (ع)

(٢) لجبرير في مدح هشام بن عبد الملك وموسى ابنه وجعدة بنته. وقيل ابنه أيضاً وليس كذلك. واللام للقس. وحب أصله حب - كظرف - نقلت حركة الباء إلى الحاء ثم أدمغت في الأخرى. ومعناه: إنشاء المدح كنعم، ويفيد التعجب أيضاً كـ «ما حبه». وقد فتحت حازه إذا كان فاعله ذا والمؤقدان بالهمزة فاعل. ومؤسى بالهمز أيضاً. وجعدة المخصوص بالمدح على طريقة: نعم الرجل زيد. و «حب»: محول من «حب» الثلاثي كضرب، وإن كان الكثير «أحب» الرباعي؛ لأنه لا يصاغ للمدح إلا من الثلاثي. فإن قلت: أهر محول من «حب» المسند للفاعل، أم من «حب» المبني للمجهول؟ قلت: إن كان من المسند للفاعل فالمؤقدان محبوبان، وإن كان من المسند للمفعول فالتحويل تقدير. فالظاهر أنه مصوغ من المادة من غير ملاحظة إسناد. ويجوز أن «حب» أصله «حب» =

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾: الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها، ونظم الكلام على الوجهين: أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب، فقد ذهبت به مذهب الاستثناف، وذلك أنه لما قيل: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى، اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدّر، وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلطّف بهم، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي: الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم، أحقّاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح؛ ونظيره قولك: أحبّ رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا دونه، وكشفوا الكرب عن وجهه، أولئك أهل للمحبة، وإن جعلته تابعاً للمتقين، وقع الاستثناف على أولئك؛ كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين، غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً، وبالفلاح أجلاً، واعلم أنّ هذا النوع من الاستثناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث؛ كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، وتارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك [منك]؛ فيكون الاستثناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ؛ لانتظامها على بيان الموجب وتلخيصه. فإن قلت: هل يجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح، تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله/ ١٣ ب ﷺ، وهم ظانون أنهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، وفي اسم

= كضرب مبني للمجهول - فالمؤدّان نائب فاعل، ومؤسّى وجعده بدل أو بيان. والمعنى على الخبر لا الإنشاء. وروي: أحبّ المؤقدين، بإضافة أفعال التفضيل إلى صيغة الجمع؛ فمؤسّى وجعده خبر. وسوغ قلب واو المؤقدين وموسى همزة، ضم ما قبلها، فكأنها مضمومة، وهي إذا ضمت تبدل همزة. ويقال: أضاء المكان وأضاءه السراج. وما هنا من الثاني، فهو متعد بمعنى أنارهما الوقود بالضم: أي توقد نار القرى وتلتهبها، وأما بالفتح فهو ما توقد به. وأصل فعول أنه مبالغة في الفاعل كضروب، وكثر بمعنى ما يفعل به الفعل كوقود وسحور، فيحتمل أنه من قبيل اسم المفعول، وأنه من قبيل اسم الآلة شذوذاً. والمعنى: ما أحبهما إلى وقت بأن أظهرتهما النار التي يوقدانهما لقرى الأضياف.

ينظر الدر المصون (١٠١/١)، وديوانه (١١٢)، المحتسب (٤٧/١)، الخصائص (١٧٥/٢)، المغني (٦٨٤/٢)، الأشياء والنظائر (١٢/٢)، (٧٤/٨) وشرح شواهد الشافية ص ٤٢٩، وشرح شواهد المغني ٩٦٢/٢، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ٧٩/١، ومغني اللبيب ٦٨٤/٢، المقرب ١٦٣/٢.

الإشارة الذي هو: ﴿أُولَئِكَ﴾ إيدان بأن ما يرد عقيبه، فالمذكورون قبله أهل؛ لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّدت لهم؛ كما قال حاتم: [من الطويل]
وَلَيْلُهُ صُغْلُوكُ
.....

ثم عدّده خصلاً فاضلة؛ ثم عقب تعديدها بقوله: [من الطويل]
فَذَلِكَ إِنْ يَهْلِكَ فَحَسْبِي ثَنَاؤُهُ وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفاً مُذْمَماً^(١)
ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى هُدًى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى^(٢)، واستقراهم

(١) ويغشى إذا ما كان يوم كريهة صدور العوالي وهو مختضب وما
إذ الحرب أبدت ناجذيتها وشمرت وولى هذان القوم أقدم معلما
فذلك إن يهلك فحسبي ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مذمماً
لحاتم الطائي، يرثي رجلاً بأنه عالي الهمة، وإذا كان يوم حرب يذهب إلى صدور الرماح وينزل
فيما بينها، والحال أنه مختضب بالدم منها. وقوله «أو الحرب» عطف على قوله «كان يوم كريهة»
وإسناد إبداء الناجذ والتشمير عن الساعد مثلاً إلى الحرب مجاز عقلي، لأنها سبب في أن الفرسان
يفعلون ذلك. ويجوز أنه شبهها في قوتها واشتدادها بشجاع يفعل ذلك على طريق الكناية وإبداء
الناجذ والتشمير تخييل. والناجذ: آخر الأضراس وهو ضرس الحلم. والهدان - ككتاب - : الأحق
الثقل، وجمعه هدون - من الهدنة وهي السكون - . وأقدم: جواب الشرط، معلماً للناس بأنه فلان
على عادة الفرسان. أو معلماً فurse مسومها. فذلك الموصوف بتلك الصفات المختص بتلك
الخصال، هو المستحق لأن يقال فيه إن يهلك ويُمَت فيكفني ثناؤه فخراً: أي ذكره بين الناس
بالجميل. وقوله «إن عاش» شرط لا يقتضي الوقوع، لكن ذكره دلالة على أنه محمود الفعال على
أي حال. وقوله «لم يقعد» قليل المدح في الظاهر كثيره عند أولي البصائر: أي بل يقعد على حاله
المشهورة وخصاله الحميدة.
ينظر الدر المصون (١/١٠٢).

(٢) قوله: «ومعنى الاستعلاء في قوله - على هدى - مثل لتمكنهم من الهدى...» إلخ هذا المقصد هو
ما عناء البلاغيون فيما بعد بالاستعارة في الحرف - على - وقد جعلوها استعارة تبعية، أي تابعة
لتشبيه أو تشبيهين سابقين، ولذا قالوا في إجرائها شبهت الهداية بما يستعمل عليه، ثم حذف وأخذ
منه «على» الدالة على الاستعلاء وجعل في المشبه، دليلاً على التمكن التام في الهداية والفلاح
بسبب ما قدموا من سمات وصالحات.

وهذا رأي يخالف ما يفهم من كلام الكشف الذي يرى أن الاستعارة هنا تابعة لمثلها في متعلق
الحرف مع مجروره. وهذا خلاف كلام جمهور البلاغيين، ورأيهم هو المعتمد، وخصوصاً أن
الاستعارة في المعاني الكلية التي تتعلق بها الحروف، ففي الآية التي معنا تكون الاستعارة هكذا:
شبهت الملابس الكلية - المطلقة - بالاستعلاء الكلي - المطلق - ثم سرى التشبيه من الكليات إلى
الجزئيات، وهنا يظهر الحرف «على» في الاستعلاء الجزئي فيستعار للملابسة الجزئية في الهداية.
وبهذا تنضح الاستعارة في الحرف، وفي المقام كلام وفير لجهابذة الفضلاء من العلماء فليراجع في
مصنفاتهم - غفر الله لنا ولهم.

ينظر تعليقات أستاذنا محمد عبد المنعم خفاجي، على الإيضاح للقزويني ٩٢/٥ وما بعدها،
والبلاغة القرآنية ٤٩٢ وما بعدها. وغير ذلك من كتب التراث البلاغي في هذا الموضع.

عليه، وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه؛ ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل، وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتنطى الجهل^(١)، واقاعد غارب الهوى.

ومعنى: ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: منحوه من عنده وأوتوه من قبله، وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير، والترقي إلى الأفضل فالأفضل، ونكر: ﴿هُدًى﴾، ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، ولا يقادر قدره؛ كأنه قيل: على أي هدى، كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً، وقال الهذلي: [من الطويل]
فَلَا وَأَبِي الطَّيْرِ المُرْبَةِ بالضحى^(٢) عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتَ عَلَى لَحْمٍ^(٣)
والنون في: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أدغمت بغنة وبغير غنة، فالكسائي، وحمزة، ويزيد، وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها، وقد أغناها الباقون إلا أبا عمرو؛ فقد روى عنه [فيها] روايتان.

وفي تكرير: ﴿أُولَئِكَ﴾، تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح؛ فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تمييزهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها، فإن قلت: لم جاء مع العاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ

(١) قوله «وامتنطى الجهل» أي اتخذ الجهل مطية، واتخذ الهوى قعوداً. والقعود من الإبل: البكر حين يركب. والغارب: ما بين السنام إلى العنق، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وأبي الطير المربة بالضحى» أي المجتمعة العاكفة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) فلا وأبي الطير المربة بالضحى على خالد لقد وقعت على لحم عشية أمسى لا يبين من السلم

لأبي كبير الهذلي يرثي خالد بن زهير. «ولاه زائدة قبل القسم. واستعظم الطير الواقعة عليه فأقسم بها، وكنى عنها بأبي الطير كما يكنى عن العظيم بأبي فلان. وأصل أبي هنا: أبين، على صيغة جمع المذكر السالم، سقطت نونه للإضافة، ويحتمل أنه مفرد والمراد به النسب؛ لأنه يكنى بأبي الطير. ويجوز أن يريد بأبي الطير خالداً لوقوعها عليه، ويجوز أن يريد به أصلها. ويروى: لعمر أبي الطير المرية غدوة... إلخ. ويروى هذا برفع الطير. ولعله على الابتداء أو الخبرية لمحذوف. أو على تقدير النداء، وإلى مضاف إلى ضمير المتكلم كالذي بعده. ويقال: أرب بالمكان وألب به. أقام فيه ولازمه، فالمرية المقيمة العاكفة وقت الضحى على خالد القتيل. والتفت إلى خطاب الطير فقال لها: لقد وقعت. ويروى علقت، على لحم - بالتحريك - على لمة وتنكيره للتعظيم: أي على لحم عظيم. وأنها لأنها جماعة في المعنى. فإن قرئ بفتح التاء فظاهر، وخاطبه لتزيده منزلة العاقل، ثم أقسم بأبيه أن الطير لا يأكل مثل خالد في العظم عشية أمسى لا يظهر لنا من السلم - وهو شجر الغضاء - كناية عن كونه قتيلاً فيه والطير حوله على ذلك الشجر. وفي البيتين التفاتان.

ينظر خزانة الأدب (٧٥/٥)، ٧٦، ٧٨، ٨١، (٤٧/١١)، شرح أشعار الهذليين (١٢٢٦/٣)، مجالس ثعلب (ص ١٥١، ٢١٢)، ولأبي ذؤيب من خزانة الأدب (٨٥/٥).

بَلْ هُمْ أَصْلَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩] قلت: قد اختلف الخبران ههنا^(١)؛ فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة، وتشبيهم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل.

﴿هُمْ﴾ فصل: وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، أو هو مبتدأ والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك.

ومعنى التعريف في: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو؟ فقول: زيد التائب، أي هو الذي أخبرت بتوبته. أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين، وتحققوا ما هم، وتصوّروا بصورتهم الحقيقية، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة، كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ إن زيدا هو هو، فانظر كيف كرّر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك/ ١٤؛ ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويشطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، اللهم، زينا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة، والمفلح: الفائز بالبغيه كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه،

(١) قوله - «قد اختلف الخبران ههنا» ومقصوده أن العطف يقتضي التغاير بطبيعته حتى يصح الجمع به سواء كانت الواو هي العاطفة أو غيرها بحسب طبيعة الجمليتين.

وكلام البلاغيين في نحو هذه الجمل قائم على أن الجملة الثانية إذا اتفقت مع الأولى التي لها محل من الإعراب كان الوصل بالواو، وهذا واضح تماماً في هاتين الجمليتين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ جملة خبرية لفظاً ومعنى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كذلك، وقد شاركت الثانية الأولى في هذا الإخبار عن «المتقين» في بداية كلامه - سبحانه - وبهذه المشاركة وجب الوصل بالواو العاطفة بخلاف «أولئك كالأنعام بل هم أضل» ومعها «وأولئك هم الغافلون» فإن الثانية بمثابة التوكيد المعنوي للأولى، ولذا يقال بينهما كمال اتصال، وبهذا وجب الفعل؛ لأنه كما سبق لا موضع للوصل هنا حيث لا تغاير.

ولشيخ البلاغيين عبد القاهر كلمة جامعة في هذا الميدان حيث يقول:

«كذلك يكون في الجمل ما تنصل به من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة مؤكدة ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها».

«دلائل الإعجاز» ٢٢٧، الشيخ شاكر - ط. المدني، وشرح التلخيص ٣/ ٣٠٢، وعلم المعاني في فتح القدير ٢/ ٦٦٢، المطول للسعد ص ٢٤٧.

والمفلج - بالجيم - مثله، ومنه قولهم للمطلقة: استفلحي بأمرك بالحاء والجيم، والتركيب دال على معنى الشق والفتح؛ وكذلك أخواته في الفاء والعين؛ نحو: فلق، وفلذ، وفلى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

لما قدّم ذكر أوليائه وخالصة عبادته بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلفى عنده، وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته، فإن قلت: لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف؛ كنهو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْوٍ﴾ (٢) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣ - ١٤) وغيره من الآي الكثيرة؟ قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت؛ لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب، وأنه هدى للمتقين، وسيقت الثانية؛ لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حدّ لا مجال فيه للعاطف، فإن قلت: هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين، فأما إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين، ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم، كان مثل تلك الآي المتلوّة. قلت: قد مرّ لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف، وأنه مبني على تقدير سؤال، فذلك إدراج له في حكم المتقين، وتابع^(١) له في المعنى؛ وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه.

والتعريف في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأضراهم، وأن يكون للجنس متناولاً كلّ من صمم على كفره تصميماً لا يرعوي بعده^(٢) وغيرهم؛ ودل على تناوله للمصريين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم، و: ﴿سَوَاءٌ﴾ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿تَقَالُوا إِنَّ كَلِمَتَهُ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ﴿فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ بَيْنَ﴾ [فصلت: ١٠] بمعنى مستوية وارتفاعه على أنه خبر لأن، و﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ في موضع المرتفع به على الفاعلية؛ كأنه قيل: إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول: إنّ زيداً مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ في موضع الابتداء، و﴿سَوَاءٌ﴾ خبراً مقدّماً بمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأن. فإن قلت: الفعل أبدأ خبر لا مخبر/ ١٤ب عنه

(١) قوله «وتابع له في المعنى» لعله «اتباع له». (ع)

(٢) قوله «بعده وغيرهم» لعله كهؤلاء وغيرهم. (ع)

فكيف صحّ الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلت: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بنبأ، من ذلك قولهم: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن»، معناه: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء^(١)، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً؛ قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يعني: أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء: استواءهما في علم المستفهم عنهما؛ لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن، إما الإنذار وإما عدمه، ولكن لا بعينه، فكلاهما معلوم بعلم غير معين، وقرئ: «ألندرتهم» بتحقيق الهمزتين، والتخفيف أعرب وأكثر، وبتخفيف الثانية بين بين، وبتوسيط ألف بينهما محققتين، وبتوسيطها الثانية بين بين، وب حذف حرف الاستفهام، وب حذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله، كما قرئ: «قد افلح». فإن قلت: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً؟ قلت: هو لاحق^(٢) خارج عن كلام العرب خروجين: أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّ - وحده أن يكون الأوّل حرف لين، والثاني حرفاً مدغماً نحو قوله: الضّالّين، وخَوْيْصَة (٢٠)؛ والثاني: إخطاء طريق

٢٠ - أخرجه مسلم في صحيحه (٣١٢/٩) كتاب الفتن وأشراف الساعة، حديث (١٢٩).

وأخرجه أحمد (٣٢٤/٢).

وأخرجه الطيالسي (٢١٥/٢) كتاب الفتن وعلامات الساعة باب ما جاء في العلامات الكبرى للساعة حديث (٢٧٧٠).

من طريق زياد بن رباح عن أبي هريرة.

قال الحافظ في تخرّيج الكشف:

(١) قال محمود رحمه الله: «والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا النقل استعمال الحرف في أعم معناه. فالهمزة المعادلة لـ «أم» موضوعة في الأصل للاستفهام عن أحد متبادلين في عدم علم التعين فنقلت إلى مطلق المعادلة وإن لم يكن استفهاماً، واستعملت في الجزء الحقيقي. وكذلك حرف النداء موضوع في الأصل لتخصيص المنادى بالدعاء، ثم نقل إلى مطلق التخصيص ولا نداء، كما يكون المجاز بالتخصيص والقصر مثل تخصيص الدابة بذوات الأربع وإن كانت في الأصل لكل ما دب، فقد يكون بالتعميم والتعدي مثل تسمية الرجل الشجاع أسداً نقلاً لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص وهو الحيوان المعروف، إلى كل موصوف بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلي.

(٢) قال السمين الحلبي: وهذا منه ليس بصواب؛ لثبوت هذه القراءة تواتراً، وللقراء في نحو هذه الآية عمل كثير وتفصيل منتشر. انتهى. الدرر المصون.

التخفيف؛ لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين يمين؛ فأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس، والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي، فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ قلت: إما أن يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبراً لإِنَّ والجملة قبلها اعتراض.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

الختم والكتم أخوان؛ لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطية لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه.

والغشاة: الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة. فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية^(١) ثُمَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وإنما هو من باب المجاز^(٢)، ويحتمل أن

= قوله «وخويصة» مسلم من رواية زياد بن رباح عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: «بادروا بالأعمال سناً... فذكره وفيه: «وخويصة أحذكم» انتهى.

(١) قوله «لا ختم ولا تغشية» ولا تغطية.

(٢) قوله - سبحانه - ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾... الآية فيها: أن ذلك من «باب المجاز».

كلام البلاغيين في هذا محدود دقيق خصوصاً لدى العلامة السكاكي، فالمجاز عندهم: إما مفرد وإما مركب فالمفرد هو: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب مع علاقة تصحح هذا الاستعمال وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. ثم يقسم هذا المجاز إلى:

١ - مرسل بعلاقة غير المشابهة، ولهذا له علاقات كثيرة بحسب الوشائج التي بين اللفظ والمعنى المستعمل فيه كالسببية والمسببية وغير ذلك.

٢ - استعارة بعلاقة المشابهة ولها أقسام عديدة تراجع في محلها من كتب البلاغيين. وأما المركب فهو استعمال اللفظ المركب أي جملة من الكلام فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيهاً تمثيلاً مبالغة في التشبيه قال صاحب الإيضاح شارحاً هذا التحديد:

«أي تشبيه إحدى صورتين متزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه به مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه».

وللتمثيل صور شتى ومبالغات ثرة ومنه ما كتب به الوليد بن زيد لما يبيع إلى مروان بن محمد - وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له: «أما بعد فأني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام».

وفي الآية «ختم الله على قلوبهم...» الآية تستطيع أن تجعل القصد إلى الاستعارة أو التمثيل كما بين المفسر - رحمه الله - تعالى - «تراجع الإيضاح ١٠٨/٥، ١٠٩، والمفتاح ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨».

يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل، أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضماثرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجده وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوتق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة، ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعبرين المستبصرين، كأنما غطى عليها وحجبت، وحيل بينها وبين/ ١٥ الإدراك، وأما التمثيل، فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحُسنَة في اللسان والعِي حُسنًا عليه، فقال: [من الكامل]

حَتَمَ الإِلَهَ عَلَى لِسَانٍ عَذَافِرٍ حَتَمًا فَلَيْسَ عَلَى الْكَلَامِ بِقَادِرٍ
وَإِذَا أَرَادَ السُّطُوقَ خِلَتْ لِسَانُهُ لَحْمًا يُحَرِّكُهُ لِيَصْفِرَ نَاقِرُ^(١)

فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى^(٢)، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول

(١) لرجل من فزارة واستعار الختم المانع من زيادة الكتاب ونقصه للمنع من الكلام. وعذافر - بالضم - اسم رجل. ويطلق على الشديد العظيم، وعلى الأسد. والبيت معناه الإخبار عن حال عذافر، وهو الظاهر من التفرع ويعد أنه دعاء عليه. وفاعل يحرك لعذافر. شبه لسانه باللحم الذي ينقره الصقر بجامع تحرك كل بغير استقامة مع عدم التلغظ، وهذا مما يدل على أن البيت إخبار لا دعاء.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت فلم أسند الختم إلى الله تعالى... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: هذا أول عشواء خبيلها في مهواة من الأهواء يبطها، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويل؛ إبتغاء الفتنة استبقاء لما كتب عليه من المحنة، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردتها:

الأولى: مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى. ومقتضاه أنه لا حادث إلا بقدرة الله تعالى لا شريك له، والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث؛ فوجب انتظامه في سلك متعلقات القدرة العامة المتعلقة بالكائنات والممكنات.

الثانية: مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل كأمثال قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ﴿مَلَّ يَنْ خَلَقَ يَزِيدُ﴾ وهذه الآية أيضاً؛ فإن الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصاً. والزمخشري رحمه الله لا يأبى ذلك، ولكنه يدعي الالتجاء إلى تأويلها لدليل قام عنده عليه. فإذا أثبت أن الدليل العقلي على وفق ما دلت عليه، وجب عليه إبقاؤها على ظاهرها بل لو وردت على خلاف ذلك ظاهراً، لوجب تأويلها بالدليل جمعاً بين العقل والنقل.

الثالثة: الفرار من نسبة ما اعتقده قبحاً إلى الله تعالى تنزيهاً، على زعمه أن الإشراك به في اعتقاد أن الشيطان هو الذي يخلق الختم والكافر يخلقه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه. فلقد استوخم من السوء المناهل العذاب وورد من حميم البدة موارد العذاب.

الرابعة: الغلط باعتقاد أن ما يقبح شاهداً يقبح غائباً، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحاً في الشاهد وجب على زعمه أن يكون قبيحاً من الغائب. وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها.

الخامسة: اعتقاده أن ذلك لو فُرض وجوده بقدرة الله تعالى لكان ظلماً، والله تعالى منزّه عن الظلم =

الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح^(١) علواً كبيراً لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه؛ وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ق: ٢٩]، ﴿وَمَا ظَنَنَّهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها،

= بقوله تعالى ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم؛ فإنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه. فكيف يتصور ثبوت حقيقته لله تعالى؟ وكل مفروض محصور بسور ملكه عز وجل: المُلْك لله الواحد القهار.

السادسة: أنه فر من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى فتورط فيه إلى عتقه؛ لأنه قد جزم بأن المنع من قبول الحق لو كان من فعل الله تعالى لكان ظلماً. فيقال له: وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى فيلزمك أن يكون ظلماً - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً -

والخيال الذي يندندن حوله هؤلاء: أن أفعال العبد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها على عبادته ولا عاقبهم ولا قامت حجة الله عليهم. وهذه الشبهة قد أجراها في أدراج كلامه المتقدم، فيقال لهم: لِمَ قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله لما نعاها على عبادته؟ فإن أسندوا هذه الملازمة - وكذلك يفعلون - إلى قاعدة التحسين والتقيح وقالوا: معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل فيلزم طرد ذلك غائباً. قيل لهم: ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القباح والفواحش بمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك من القدرة على رده من الأول منها. وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى، على علم منه عز وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو بمثابة إعطاء سيف بآثر لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل ويسبي به الحريم، وذلك في الشاهد قبيح جزماً. فيقولون: أجل إنه لقيح في الشاهد، ولكن هناك حكمة استأثر الله تعالى بعلمها فرقت بين الشاهد والغائب، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع القدرة على أن لا يقع منه شيء، ولم يحسن ذلك في الشاهد. وفي هذا الموطن تنزلزل أقدامهم وتتنكس أعلامهم، إذا لاحت لهم قواطع اليقين وبوارق البراهين؛ فيقال لهم: ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى ويعاقب العبد عليها لمصلحة وحكمة استأثر الله بها كما فرغتم منه الآن سواء؟ فلم لا يسلك أحدكم الطريق الأعدل وينظر عاقبة هذا الأمر فيصير آخر أول، وليفوض من الابتداء إلى خالقه، ويتلقى حجة الله تعالى عليه بالقبول والتسليم، ويسلك مهتدياً بنور العقل ومقتدياً بدليل الشرع الصراط المستقيم؛ فإن نازعته النفس وحادثه الهواجس ورغب في مستند من حيث النظر يأس به من مفاوز الفكر، فليخطر بباله ما ذكر عند كل عاقل من التمييز بين الحركة الاختيارية والقسرية، فلا يجد عنده في هذه التفرقة ريباً. فإذا استشعر ذلك فلينتبه فقد لطف به إلى أن انحرف عن مضايق الجبر، فأراً أن يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال، فليمسك نفسه دونها بزماد دليل الوحدانية على أن لا فاعل ولا خالق إلا الله تعالى، فإذا وقف لم يقف إلا وهو على الصراط المستقيم والطريقة المثلى، ماراً عليها في أسرع من البرق الخاطف والريح العاصف. فليتأمل الناظر هذا الفصل، ويتخذ وزره في قاعدة الأفعال، يقف على الحق إن شاء الله تعالى.

(١) قوله «والله يتعالى عن فعل القبيح» هذا مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فيجوز عليه تعالى خلق الشر وإرادته كالتخير، وإن كان لا يأمر إلا بالخير. والختم على القلوب عندهم خلق الضلال فيها كما بين في علم التوحيد. (ع)

وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أنَّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي، ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه، وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار، شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم؟ ويجوز أن تضرب الجملة كما هي، وهي ختم الله على قلوبهم مثلاً كقولهم: سال به الوادي، إذا هلك، وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته؛ وإنما هو تمثيل لمثل حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء؛ فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغنام^(١) التي هي في خلوها عن الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عز وجل فعل في تجافياها عن الحق ونبوها عن قبوله، وهو متعال عن ذلك، ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز، وهو لغيره حقيقة، تفسير هذا: أنَّ للفعل ملاسبات شتى، يلايس الفاعل والمفعول به، والمصدر، والزمان والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعاره؛ وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملاسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جراته فيستعار له اسمه، فيقال في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وفي عكسه: سيل مُفْعَم^(٢). وفي المصدر: شعر شاعر، وذيل ذائل، وفي الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر، ونهر جار، وأهل مكة يقولون: صلى المقام، وفي المسبب: بنى الأمير المدينة، وناقة ضبوث/ ١٥ب^(٣) وحلوب، وقال: [من الطويل]

إِذَا رَدَّ عَافِي الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا^(٤)

(١) قوله «نحو قلوب الأغنام» الذي في الصحاح: الغنمة العجمة، والأغتم الأعجم الذي لا يفصح شيئاً، والجمع غتم. (ع)

(٢) قوله «سيل مُفْعَم» في الصحاح: أفعمت الإناء ملأته، وفيه أيضاً: ذيل ذائل، وهو الهوان والخزي. (ع)

(٣) قوله «وناقة ضبوث» في الصحاح: ناقة ضبوث، يشك في سمها فتضبت، أي تجس باليد. (ع)

(٤) فلا تسأليني وإسألني عن خليقتي إذا رد عافي القدر من يستعيرها فكانوا قعوداً فوقها يرقبونها وكانت فتاة الحي ممن يعيرها

لعرب بن الأحوص الباهلي. وقيل: للكمي. يقول: فلا تسأليني عن طبعتي وإسألني غيري عنها، وقت أن يمنع عافي القدر - أي طالب الرزق الذي فيها - من يستعيرها ليطبخ فيها. وإسناد الرد للعافي مجاز عقلي؛ لأن المانع في الحقيقة هو صاحب القدر بسبب طالب الرزق، ولم يسند إلى نفسه تبرهاً من نسبة الرد إليها، إلا أن يراد جنس القدر لا قدره هو فقط؛ فالمعنى: إذا أجذب =

فالشیطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر؛ إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه، أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب.

وجه رابع: وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغنى عنهم الآيات والنذر، ولا تجدى عليهم الألفاظ المحصلة ولا المقربة إن أعطوها، لم يبق - بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعاً واختياراً - طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسره الله ويلجنهم، ثم لم يقسره ولم يلجنهم؛ لثلا يتنقض الغرض في التكليف، عبر عن ترك القسر والإلجاء بالختم؛ إشعاراً بأنهم الذين ترامى أمرهم في التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حد لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإلجاء، وهي الغاية القصوى في وصف لجاجهم في الغي واستشرائهم في الضلال والبغي.

وجه خامس: وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه تهكماً بهم من قولهم: ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ذَاتِنَا وَقَدْ آمَنَّا بِبَيْنَتِكَ وَبَيْنَتِكَ جَحَاطٌ﴾ [نصفت: ٥] ونظيره في الحكاية والتهكم قوله تعالى: ﴿لَوْ يَكُنِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّهِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ۖ لَأَنَّكَ كَفَرُوكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١] فإن قلت: اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغطية^(١) فعلى أيهما يعول؟ قلت: على دخولها في حكم الختم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَمَّ عَلَى سَعْيِهِ، وَحَلَّ عَلَى بَصَرِهِ عَشْرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] ولو فقههم على سمعهم دون قلوبهم، فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجاز في قوله: ﴿وَعَلَى

= الزمان على ما سيأتي. وجمع الضمير في قوله «فكانوا» لأن العافي متعدد في المعنى: أي فكان العفاة قاعدين حولها ينتظرون نضج ما فيها. وكانت فتاة الحي - يعني حية - من جملة من يعير القدر. ويجوز أن ضمير «كانوا» لمن يستعيرها. ويحتمل أن «عافي القدر» بقية ما كان فيها من المرق، والإسناد مجازي أيضاً على معنى أن من يستعيرها يجدها مشغولة، وهو دليل على كثرة طبخه للضيغان. ويجوز أن المراد أن الحالة جذب حتى أن صاحب القدر يرد المستعير حرصاً على ما فيها من بقية المرق ولو قليلة؛ فضمير «كانوا» لمن يستعيرها ويجوز أن عافي القدر: مفعول لم يظهر نصبه للوزن، و «من يستعيرها» فاعل؛ لأنه كان من عادة العرب في الجذب أن يرد المستعير بقية من المرق في القدر للمستعير، فهو كناية عن الجذب؛ لكن لا تتم مناسبة لما بعده. ويجوز أن يكون المعنى إذا منع مستعير القدر عافيها أي طالب الرزق منها ولبخله وعدم نزول الضيغان عنده، لا يملك لنفسه قدراً، فإذا استعار قدراً لطبخ فيها مرة منع طالب الرزق منها. وعلى هذا يحتمل أنه جمع حذف نونه للإضافة فنصبه بالياء، فهذه أربعة وجوه.

ينظر ديوان (٣٧١)، والدر المصون ١/ ٤٢٤.

(١) قال محمود رحمه الله: «اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة حكم الختم، وفي حكم التغطية... إلخ»، قال أحمد رحمه الله وكان جدي رحمه الله يذكر هذا ويزيد عليه أن الأسماع والقلوب لما كانت محوية كان استعمال الختم لها أولى، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق بظواهرها كان الغشاء لها ألحق.

سَمِعْتُمْ؟ [الجائية: ٢٣] قلت: لو لم يكرّر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة؛ وحين استجّد للأسماع تعدية على حدة، كان أدل على شدة الختم في الموضعين، ووحد السمع كما وحد البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تغفوا، يفعلون ذلك إذا أمن اللبس، فإذا لم يؤمن؛ كقولك: فرسهم، وثوبهم، وأنت تريد الجمع رفضوه، ولك أن تقول: السمع مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع، فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله: ﴿وَفِي آكَادِيْنَا وَفَرْ﴾ [فصلت: ٥] وأن تقدّر مضافاً محذوفاً: أي وعلى حواس سمعهم، وقرأ ابن أبي عبلة: وعلى أسماعهم، فإن قلت: هلا منع أبا عمرو والكسائي من إمالة أبصارهم ما فيه من حرف الاستعلاء وهو الصاد؟ قلت: لأنّ الراء المكسورة تغلب المستعلية، لما فيه من التكرير كأن فيها كسرتين، وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال، والبصر نور العين، وهو ما يبصر به الراي ويدرك المرئيات، كما أن البصيرة نور القلب، وهو ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهراً لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار.

وقرىء: ﴿عِشَاوَةٌ﴾ بالكسر والنصب، وعُشَاوَةٌ: بالضم والرفع، وعُشَاوَةٌ: بالفتح والنصب، وعُشْوَةٌ: بالكسر والرفع، وعُشْوَةٌ: بالفتح والرفع والنصب، وعشَاوَةٌ: بالعين غير المعجمة/ ١٦٦ والرفع، من العشا.

والعذاب: مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عن الشيء، إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه، ومنه العذب؛ لأنه يقمع العطش ويردعه، بخلاف الملح فإنه يزيده، ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخاً؛ لأنه ينقخ العطش أي يكسره، وفراتاً؛ لأنه يرفته على القلب. ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذاباً، وإن لم يكن نكالاً - أي عقاباً يرتدع به الجاني عن المعاودة.

والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم نقيض الحقيق، والكبير نقيض الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير، كما أن الحقيق دون الصغير، ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد جثته أو خطره، ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

اللهم أجراً من عذابك ولا تبلنا بسخطك يا واسع المغفرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخٰدِعُونَكَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ۝١٠﴾

افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علمهم وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً والسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم: ﴿مَذْبُذِبِينَ يَبَيِّنُ ذَلِكَ لَكَ يَا هَؤُلَاءِ وَلَا يَكُنْ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وسامهم المنافقين، وكانوا أخبت الكفرة، وأبغضهم إليه، وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتديساً، وبالشرك استهزاء وخداعاً، ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الْعَذَابِ الْأَشَدِّ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم، وفضحهم وسفهمهم، واستجملهم واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل بطغيانهم وعمهمهم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل (ناس): أناس، حذفت همزته تخفيفاً كما قيل: لوفة، في ألوفة^(١)، وحذفها مع لام التعريف كاللزام لا يكاد يقال الأناس، ويشهد لأصله إنسان، وأناس وأناسي، وإنس، وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما سمي الجن لاجتنانهم، ولذلك سموا بشراً، ووزن ناس فعال؛ لأن الزنة على الأصول، ألا تراك تقول في وزن: «قه» افعل، وليس معك إلا العين وحدها؟! وهو من أسماء الجمع كرخال^(٢)، وأما نويس فمن المصغر الآتي على خلاف مكبره كائيسيان ورويجل، ولام التعريف فيه للجنس، ويجوز أن تكون للعهد، والإشارة إلى الذين كفروا الماز ذكرهم؛ كأنه قيل: ومن هؤلاء من يقول، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه، ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق، ونظير موقعه موقع القوم في قولك: نزلت ببني فلان فلم يقروني والقوم لثام.

و«من» في: ﴿مَنْ يَقُولُ﴾: موصوفة، كأنه قيل: ومن الناس ناس يقولون كذا، كقوله: ﴿مَنْ أَلْتَوَيْنِ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، إن جعلت اللام للجنس، وإن جعلتها للعهد فموصولة^(٣)، كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ﴾ ١٦ ب يُوْذَوْنَ أَلْتِيَّ﴾ [التوبة: ٦١]. فإن قلت: كيف

(١) قوله «كما قيل لوفة في ألوفة والألوفة: الزبدة، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «من أسماء الجمع كرخال» الرخل - بالكسر -: الأنثى من ولد الضأن، والجمع رخال بالكسر، وبالضم كذا في الصحاح. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: وكأنه قصد مناسبة الجنس للجنس والعهد للعهد، إلا أن هذا الذي قاله غير لازم، بل يجوز أن تكون «أل» للجنس، وتكون «من» موصولة للعهد، ومن نكرة موصوفة، وزعم الكسائي أنها لا تكون إلا في موضع تخصص به النكرة؛ كقوله [من الرمل]:

رُبُّ مَنْ أَلْفَضَجْتُ غَيْطاً قَلْبُهُ قَدْ تَمَسَّى لِي مَوْتاً لَمْ يُطْعُ =

يجعلون بعض أولئك، والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ قلت: الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً، وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس - مغايراً للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء - لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس؛ فإن الأجناس إنما تنوعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض، وتلك المغايرات إنما تأتي بالتنوع ولا تأتي الدخول تحت الجنسية، فإن قلت: لم اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر؟ قلت: اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتماديهم في الدعارة؛ لأن القوم كانوا يهوداً، وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان؛ لقولهم: ﴿عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكذلك إيمانهم باليوم الآخر؛ لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته، فكان قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْآخِرُ﴾ [البقرة: ٨] خبثاً مضاعفاً وكفراً موجهاً، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم، فهو كفر لا إيمان، فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم، وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي، كان خبثاً إلى خبث، وكفراً إلى كفر، - وأيضاً - فقد أوهموا في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان^(١) من جانبيه، واكتنفوه من قطريه، وأحاطوا بأوله وآخره، وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام، فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْآخِرُ﴾، والأول: في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني: في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه، فسلك في ذلك طريق أدى إلى الغرض المطلوب، وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخَرِّجُوا مِن النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ﴾ [المائدة: ٣٧]، هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها، فإن قلت: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأول؟ قلت: يحتمل أن يراد التقييد

= وهذا الذي قاله هو الأكثر، إلا أنها قد جاءت في موضع لا تخصص به النكرة قال [من الكامل]:

فَكُنْتُ بِشَأْنِ فَضْلٍ عَلَى مَنْ غَيْرِنَا

و«من» تكون موصولة ونكرة موصوفة كما تقدم، وشرطية واستفهامية، وهل تقع نكرة غير موصوفة أو زائدة؟ خلاف، واستدل الكسائي على زيادتها بقول عنترة [من الكامل]:

بِأَشَاءٍ مَنْ قَنَصَ لِمَنْ خَلَّتْ لَهُ خَرُمْتُ عَلَى وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمْ

ولا دليل فيه؛ لجواز أن تكون موصوفة بـ «قنص»؛ إما على المبالغة أو على حذف مضاف. انتهى. الدر.

(١) قوله: «اختاروا الإيمان» لعله احتازوا - بالحاء المهملة والزاي - كما في عبارة البيضاوي. (ع)

ويترك لدلالة المذكور عليه، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر، ولا من الإيمان بغيرهما، فإن قلت: ما المراد باليوم الآخر؟ قلت: يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع؛ لتأخره عن الأوقات المنقضية، وأن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار؛ لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي/١١٧ لا حد للوقت بعده.

والخدع: أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه، من قولهم: ضب خادع وخدع، إذا أمر الحارث يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر، فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح^(١)؛ لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنون وإن جاز أن يُخدَعُوا

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: هذا الفصل من كلام الزمخشري جمع فيه الغث والسمين، ونحن ننبه على ما فيه من الزبد، لئتم للنظر أخذ ما فيه من السنة، أمتاً من التورط في وضر البدعة، مستعينين بالله وهو خير معين. فما خالف فيه السنة قوله: إن الله تعالى عالم بذاته، يريد لا يعلم. وهذا مما وسمت به المعتزلة في المقدمة من أنهم يمجّدون صفات الكمال الإلهي، يبخون بذلك زعمهم التوحيد والتنزيه. ومعتقد أهل السنة أن الله تعالى عالم بعلم قديم أزلي، متعلّق بكل معلوم واجب أو ممكن أو مستحيل ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. وحسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم في ثبوت صفة العلم له تعالى وفي عموم تعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك. ولسنا بصدد ذكرها في هذا الكتاب. ومما خالف فيه السنة: اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مخلوقاً لله تعالى؛ لأنه قبيح على زعمه كالمفهوم من الخداع في هذه الآية. وما جرّه إلى هاتين النزعتين إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعاً، إلا بأنه عالم بذاته حتى تعم عالميته كل كائن فلا يخدع؛ إذ نسبة الذات إلى الكائنات نسبة واحدة، ولا يتم استحالة كونه تعالى خادعاً إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه لأنه قبيح على زعمهم. ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه ولا شرط فيه: فنحن معاشر أهل السنة نعتقد أن الله تعالى عالم بعلم، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعاً؛ لأن علمه عندنا عام التعلق كما وصفنا. ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود إلا عن قدرته لا غير، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة وإظهار المكتوم. هذا هو الموهوم منه في الإطلاق، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلاً لما ذكره من خداع المنافقين كمقابلة المكر بمكرهم، علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلاً سيّئاً خداعاً مقابلة ومشاكلة؛ ولا فهو قادر على هتك سترهم وإنزال العذاب بهم رأي العين فهذا معتقده أهل السنة في هذا الآية وأمثاله لا كالزمخشري وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحّدون فيجحدون، وينزهون فيشركون. والله الموفق للحق. وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصدق شاهد في أنه مجاز نفيه بعقب إثباته في قوله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ففي هذه التهمة نفي احتمال الحقيقة حتى تتعين جهة المجاز. ومما عدّه البيانون من أدلة المجاز صدق نفيه فتأمل هذا الفصل فله على سائر الفصول الفضل.

لم يَجْزْ أَنْ يَخْدَعُوا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: [من البسيط]

وَأَسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّ مُنْخَدِعٍ^(١)

وقول ذي الرمة [من البسيط]:

..... إِنَّ الْحَلِيمَ وَذَا الْإِسْلَامِ يُخْتَلَبُ^(٢)

فقد جاء النعت بالانخداع، ولم يأت بالخدع، قلت: فيه وجوه، أحدها: أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون، صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم - حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار - صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم، والثاني: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه؛ لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته، ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غنى عن فعل

(١) واستمطروا من قُرَيْشٍ كل منخدع إن الكريم إذا خادعته انخدعا

كانت العرب إذا أصابها جدد فزعت إلى قُرَيْشٍ ليستسقوا لهم، لأنهم ولاة البيت وحماة حريمه، كما فعل قوم عاد لما قحطوا. وكذلك استسقى عمر بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم. واستسقى أبو سفيان النبي صلى الله عليه وسلم فأجابته واستسقى له مع ما كان بينهما من العداوة. يقول: طلب القوم من كل منخدع من قُرَيْشٍ المطر: أي أن يطلب لهم المطر. وقال السيد: واستمطروا، أي استقوا وطلبوا، فأفاد أنه على صيغة الأمر. وفي الصحاح: أي سلوه أن يعطي كالمطر مثلاً، وهو يؤيد كلام السيد. ويجوز تشبيه كل منخدع من قُرَيْشٍ بالسحاب على سبيل المكنية، فيطلب منه المطر. والمنخدع المغلوب لكرمه، وبينه قوله: إن الكريم. ويروى البيت هكذا

لا خير في الحب لا ترجى نوافله فاستمطروا من قُرَيْشٍ كل منخدع
ويروى «من فريق» بدل «قُرَيْشٍ». وقوله: «لا ترجى... إلخ» جملة حالية للحب. وفريق بعينه من الحجاز.

البيت للفردق، ينظر لسان العرب (مطر)، وديوان الأدب (٢/٤٣١)، وليس في ديوانه، ولأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٥٨، وتاج العروس (مطر).

(٢) تزداد للعين إبهاجاً إذا سمرت وتخرج العين فيها حين تنتقب

تلك الفتاة التي علقها عرضاً إن الحليم وذا الإسلام يختلب

لذي الرمة في محبوبته مي. وسمرت المرأة: كشفت عن وجهها. وروي: إسفاراً، بدل إبهاجاً. والمراد أن إبهاجها بسفرها لعيني يزداد إذا كشفت عن وجهها. وخرجت العين - كتعبت - حارت. وروي «منها» بدل «فيها» أي من أجلها. وتنتقب: أي تُرسل النقاب على وجهها. وعرضاً أي بين غير قصد ولا شعور. وخلب - من باب قتل -: خدع أي هي الشابة التي اعترضني حبها حيث لا أشعر. ثم تسلي بأن العاقل المسلم كثيراً ما ينخدع.
ينظر ديوانه ص (٦) وفيه الكريم بدل الحليم.

القبايح؛ فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يدلّس على عباده ويخدعهم، والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ؛ لأنه خليفته في أرضه، والناطق عنه بأوامره ونواهي مع عباده، كما يقال: قال الملك كذا ورسم كذا؛ وإنما القائل والراسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه، مصداقه قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهِيَّكُمْ إِلَٰهًا يَبْعَثُ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، والرابع: أن يكون من قولهم: أعجبني زيد وكرمه، فيكون المعنى يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص، ولما كان المؤمنون من الله بمكان، سلك بهم ذلك المسلك، ومثله: ﴿وَاللَّهُ رَاسُودُهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُرْسُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وكذلك: ﴿إِنَّ إِلَٰهِيَّ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، ونظيره في كلامهم: علمت زيدا فاضلاً، والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه؛ لأنه كان معلوماً له قديماً؛ كأنه قيل: علمت فضل زيد؛ ولكن ذكر زيد توطئة وتمهيد لذكر فضله، فإن قلت: هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلت: وجهه أن يقال: عني به «فعلت» إلا أنه أخرج في زنة: «فاعلت»؛ لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعي إليه، ويعضده قراءة من قرأ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهو أبو حية، و: ﴿يُخَادِعُونَ﴾: بيان ليقول، ويجوز أن يكون مستأنفاً كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين وما/ ١٧ب رفقهم في ذلك؟ فقيل: يخادعون، فإن قلت: عمّ كانوا يخادعون؟ قلت: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإفادهم عن المحاربة وعمّا كانوا يترقون به من سواهم من الكفار، ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغانم، ونحو ذلك من الفوائد، ومنها اطلاعهم - لا اختلاطهم

(١) قال السمين الحلبي: وهذا منه غير مرض؛ لأنه إذا صح نسبة مخادعهم إلى الله تعالى بالأوجه المتقدمة فلا ضرورة تدعو إلى ادعاء زيادة اسم الله تعالى، وأما «أعجبتني زيد وكرمه» فإن الإعجاب أسند إلى زيد بجملته، ثم عطف عليه بعض صفاته تمييزاً لهذه الصفة من بين سائر الصفات للشرف، فصار من حيث المعنى نظيراً لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّالِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَ مَسْئَةٌ سَاءُتُمْ مِنْهُمْ وَقَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ «جاءت زيدا» «جاءت زيدا» أي جُزئته، وموافقاً لأفعل متعدياً نحو: «باعدت زيدا وأبعدته»، والإغناء عن أفعل نحو: «وازيئت الشيء»، وعن المجرد نحو: سافرت وقاسيت وعاقبت، والآية فيها فاعل يحتمل المعنيين الأولين: أما المشاركة فالمخادعة منهم ثم الله تعالى تقدم معناها، ومخادعة الله إياهم من حيث إنه أجرى عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، ومخادعة المؤمنين لهم كونهم امتثلوا أمر الله تعالى فيهم، وأما كونه بمعنى المجرد فينبه قراءه ابن مسعود وأبي حنيفة: «يخدعون» انتهى. الدرر المصون.

بهم - على الأسرار التي كانوا حراساً على إذاعتها إلى منابذهم، فإن قلت: فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها؟ قلت: لم يظهر عليهم لما أحاط به علماً من المصالح التي لو أظهر عليهم لانقلبت مفسد واستبقاء إبليس وذريته ومتركتهم، وما هم عليه من إغواء المنافقين وتلقينهم النفاق أشد من ذلك، ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة، فإن قلت: ما المراد بقوله: «وما يخادعون إلا أنفسهم؟» قلت: يجوز أن يراد: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأن ضررها يلحقهم، ومكرها يحق بهم، كما تقول: فلان يضار فلاناً وما يضار إلا نفسه، أي: دائرة الضرر راجعة إليه وغير متخفية إياه، وأن يراد حقيقة المخادعة أي: وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمتنونها بالأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به، وأنفسهم كذلك تمنىهم وتحذثهم بالأمانى وأن يراد: وما يخدعون، فجاء به على لفظ: «يقاعلون» للمبالغة، وقرئ: «وما يخدعون»، ويخدعون من خدع، ويخدعون - بفتح الباء - بمعنى يخدعون، ويخدعون، ويخدعون على لفظ ما لم يسم فاعله، والنفس: ذات الشيء وحقيقته، يقال: عندي كذا نفساً، ثم قيل للقلب: نفس؛ لأن النفس به؛ ألا ترى إلى قولهم: المرء بأصغريه، وكذلك بمعنى الروح، وللدنفس نفس؛ لأن قوامها بالدم، وللنفس نفس؛ لفرط حاجتها إليه، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه، كقولهم: فلان يؤامر نفسه - إذا تردد في الأمر اتجه له رأيان وداعيان لا يدري على أيهما يعرج، كأنهم أرادوا داعي النفس، وهاجس النفس فسموهما: نفسيين، إما لصدورهما عن النفس، وإما لأن الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والأميرين له، شبهوهما بذاتين فسموهما نفسيين، والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم، والمعنى بمخادعتهم ذواتهم: أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم، ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وأراؤهم.

والشعور علم الشيء علم حس^(١) من الشعار، ومشاعر الإنسان: حواسه، والمعنى: أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتماذي غفلتهم كالذي لا حس له.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض، والمجاز/١٨ أ أن يستعار لبعض أعراض القلب، كسوء الاعتقاد، والغفل، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى،

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «والشعور علم الشيء علم حس... إلخ». قال أحمد رحمه الله: إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس إلخ: أنه لما كانت مفسدة النفاق عائدة على المنافق عوداً بيناً جلياً محسوساً. نعى عليهم جهلهم بالمحسوس فنفى شعورهم به ولا كذلك معرفة الحق وتمييزه عن الباطل فإنه أمر عقلي نظري.

والجبن، والضعف، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك، والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر، أو من الغل والحسد والبغضاء؛ لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلا وحنقاً ويغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْيَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] ويتحرقون عليهم حسداً ﴿إِنْ تَسْكَمْ حَسَنَةً نَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وناهيك مما كان^(١) من ابن أبي وقول سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ: «اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله، لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصاة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك» (٢١)، أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور، لأن قلوبهم كانت قوية، إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به: أن ريح الإسلام تهب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياماً ثم يقر، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله، وإما لجراعتهم وجسارتهم في الحروب فضعفت جبناً وخوراً^(٢) حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة، قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» (٢٢)، ومعنى زيادة الله

٢١ - أخرجه البخاري (٢٣٥/١٢): كتاب الأدب: باب كنية المشرك، (٦٢٠٧)، وأخرجه أيضاً في (٥/١٥٣) كتاب الجهاد: باب الردف على الحمار (٢٩٨٧) مختصراً وأيضاً في (٥٩٧/١١) كتاب اللباس: باب الارتادف على الدابة، حديث (٥٩٦٤) مختصراً.

ومسلم (٣٩٨/٦) كتاب الجهاد والسير: باب في دعاء النبي - ﷺ - وصبره، حديث (١٧٩٨) والترمذي (٦١/٥): كتاب الاستئذان: باب ما جاء في: السلام على مجلس فيه المسلمون وغيرهم، حديث (٢٧٠٢) والنسائي في الكبرى (٣٥٦/٤): كتاب الطب: باب عيادة المريض راكباً مردفاً على الدابة، حديث (٧٥٠٢) وأحمد (٢٠٣/٥) وعبد الرزاق (٤٩٠/٥) حديث (٩٧٨٤). كلهم من طريق، ابن شهاب الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد به.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

متفق عليه من رواية عروة عن أسامة بن زيد، أن رسول الله - ﷺ - ركب على حمار على قطيفة فركبه، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة. فذكره مطولاً. انتهى.

٢٢ - أخرجه البخاري (٤٣٥/١) كتاب التيمم حديث (٤٣٦) كتاب التيمم حديث (٣٣٥)، ومسلم (٣٧١ - ٣٧٠/١) كتاب المساجد حديث (٥٢١/٣).

من حديث جابر وله شواهد سيأتي تخريجها في موضعها.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث جابر - رضي الله عنه - انتهى.

(١) قوله: «وناهيك مما كان» لعله: بما كان. (ع)

(٢) قوله: «جبناً وخوراً» الخور بالتحريك: الضعف كما في الصحاح. (ع)

إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكان الله هو الذي زادهم ما ازدادوه إسناداً للفعل إلى المسبب له، كما أسنده إلى السورة في قوله: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِيحًا إِنَّ رِيحَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لكونها سبباً، أو كلما زاد رسوله نصرة وتبسطاً في البلاد ونقصاً من أطراف الأرض ازدادوا حسداً وغلا وبغضاً، وازدادت قلوبهم ضعفاً وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم وجبناً وخوراً، ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع، وقرأ أبو عمرو في رواية الأصمعي: مريض، ومريضاً، بسكون الراء:

يقال: أَلِمَ فهو ﴿أَلِيمٌ﴾ كَوَجِعَ فهو وَجِيعٌ؛ ووصف العَذَابُ به، نَحْوُ قوله: [من الوافر]

تَجِيئةً بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(١)

وهذا على طريقة قولهم: جَدَّ جَدَّهُ، والألم في الحقيقة للمؤلم كما أَنَّ الجَدَّ للجذاء.

والمراد بكذبهم قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ﴾، وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته، وتخيل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَشْرَفُوا﴾ [نوح: ٢٥]، والقوم كفرة؛ وإنما خصت الخطيئات استعظاماً لها وتنفيراً عن ارتكابها، والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو قبيح كله،

(١) أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع
وسوق كشيبة دلفت لأخرى كان زهاءها رأس صليح
وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

لعمرو بن معد يكرب صاحب ربحانة أخت ذُرَيْد بن الصمة، التمس منه زواجها فأجابها ومطله، وقيل: ربحانة اسم موضع بعينه. والسميع: المسمع على اسم المفعول، أو المسموع. أو المسمع على اسم الفاعل، أو السامع وأصل فعيل أن يكون بمعنى فاعل كعليم. وكذا ما جاء بمعنى مفعول كجريح وقيل. ونذر من الرباعي بمعنى مفعول اسم فاعل كوجيع، وبمعنى مفعول اسم مفعول كسميع بمعنى مسمع اسم مفعول. وكثر سماعاً بمعنى مفاعل كجليس وشريك. وسميع: مبتدأ، خبره يؤرقني أي هل داعي الشوق من ربحانة يسهرني والحال أن أصحابي نيام؟ والاستفهام للتعجب «سوق كشيبة» عطف على الداعي أو على ضمير يؤرقني. والكتيبة: الجماعة المنتظمة المنتظمة. ودلف دلفاً من باب تعب مشى بتؤدة. وقيل تقدم وأسرع. كان زهاءها: أي مقدارها. والصليح: الذي لا شعر فيه، ولعله شبهها بذلك الرأس في التجرد والانكشاف والظهور والتمام كما يقال: جيش أقرع، وألف أقرع: أي تام مجازاً. وخيل: أي وأصحاب خيل قد تقدمت لها بمثلها. والتحية: الدعاء بالحياة، فأخبر عنها بالضرب الوجيع على سبيل التهكم. وضمير «بينهم» للخيل بمعنى الجيش. وانتقل من ذُكر ربحانة إلى ذُكر الحرب لأنه كان أعار على ذُرَيْد في طلبها.

ينظر شواهد الكتاب ٢/٣٣٣، والنوادر ١٥٠، وابن عيش ٢/٨٠، الخزانة ٤/٥٣، والدر المصون

١/٣٢٩، فتح القدير ١/٢٧٨.

وأما ما يروى عن إبراهيم - عليه السلام - : «أَنَّهُ كَذَبَ ١٨ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ» (٢٣)، فالمراد التعريض، ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمى به، وعن أبي بكر - رضي الله عنه - وروى مرفوعاً : «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ» (٢٤) وقرئ : «يكذبون»، من كذبه

٢٣ - أخرجه البخاري (١٥٨/١٠) : كتاب النكاح : باب اتخاذ السراي ومن أعتق جارية ثم تزوجها، حديث برقم (٥٠٨٤) وأيضاً في (٣٦/٧) كتاب أحاديث الأنبياء : باب قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ لِبَرِّيهِم مِّثْلًا﴾ وحديث (٣٣٥٧ - ٣٣٥٨)، ومسلم في صحيحه (١٣٤/٨) : كتاب الفضائل : باب من فضائل إبراهيم الخليل (٢٣٧١).

وأبو داود، (٢٦٤/٢) : كتاب الطلاق : باب في الرجل يقول لامرأته : يا أختي، حديث (٢٢١٢)، والترمذي (٣٢١/٥) : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة الأنبياء - عليهم السلام -، حديث (٣١٦٦) والنسائي في السنن الكبرى (٩٨/٥) كتاب المناقب باب سارة - رضي الله عنها - حديث (٨٣٧٤ - ٨٣٧٥)، وأحمد (٤٠٣/٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (٣٦٦/٧)، كتاب «المخلع والطلاق» : باب الرجل يقول لامرأته : يا أختي يريد الأخوة في الإسلام.

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف».

متفق عليه واللفظ للبخاري من رواية ابن سيرين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - رفعه : «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله عز وجل... الحديث. وأخرجه الترمذي في تفسير الأنبياء، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عنه. انتهى.

٢٤ - روي هذا الحديث مرفوعاً وموقوفاً:

أما المرفوع، فقد عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٤٦/١) إلى ابن عدي في الكامل.

أما الموقوف فقد أخرجه أحمد (٥/١) وأبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٢٣٦/٥) كتاب الأدب باب ما جاء في الكذب، حديث برقم (٢٥٦٠٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٩٦/١٠) كتاب الشهادات : باب من كان منكشف كذبه مظهره لا يستتر به لا تجوز شهادته، وابن المبارك في الزهد (ص ٢٥٥) باب من كذب في حديث ليضحك به القوم، حديث (٧٣٦). وقال الدارقطني في كتابه العلل (٢٥٨/١) حديث (٥٠)، رواه عن قيس إسماعيل بن أبي خالد، وبيان بن بشر، وأبو إسحاق السبيعي، ومجالد بن سعيد، وكلهم وقفه ولم يرفعه إلا إسماعيل، فإنه اختلف عنه فيه، فرفعه عنه يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية، وجعفر بن زياد الأحمر وعمرو بن ثابت بن أبي المقدام، ووقفه غيرهم عن إسماعيل، والصحيح منه قول من وقفه، وروي عن أبي أسامة، وعن يزيد بن هارون عن إسماعيل بن أبي خالد مرفوعاً. ولا يثبت رفعه عنهما.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

روي مرفوعاً وموقوفاً على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أما المرفوع : فأخرجه ابن عدي من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عنه. قال الدارقطني في العلل : رفعه يحيى بن عبد الملك وجعفر الأحمر، وعمر بن ثابت عن إسماعيل. ووقفه غيرهم وهو أصح. وروى عن أبي أسامة يزيد بن هارون عنه أيضاً مرفوعاً. ولا يثبت عنهما هـ. وأما الموقوف : فأخرجه أحمد وابن أبي شيبة في الأدب كلاهما عن وكيع عن إسماعيل وابن المبارك في الزهد عن إسماعيل كذلك. ولم يجد الطيبي المرفوع فأخرج بدله عن صفوان بن سليم. قيل : يا رسول الله : المؤمن يكون جباناً؟ قال نعم، يكون بخيلاً؟ قال : نعم. يكون كذاباً؟ قال : لا. أخرجه مالك وهو مرسل. انتهى.

الذي هو نقيض صدقه؛ أو من كَذَبَ الذي هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق
ف قيل: صدق، ونظيرهما: بان الشيء وبين، وقلص الثوب وقلص. أو بمعنى الكثرة
كقولهم: مَوْتُ البهائم، وبركت الإبل، أو من قولهم: كذب الوحشي إذا جرى شوطاً ثم
وقف لينظر ما وراءه؛ لأن المناقح متوقف متردد في أمره، ولذلك قيل له: مذبذب، وقال
- عليه السلام -: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْعَتَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ
مَرَّةً» (٢٥).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ
وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْقَهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَشْقَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا
إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رَجِعَتْ يُعْتَزُّهُمْ وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ﴾ (١٦)

«وإذا قيل لهم معطوف على (يكذبون)، ويجوز أن يعطف على (يقول آمنا)؛ لأنك
لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحاً، والأول أوجه.

والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه: الصلاح، وهو
الحصول على الحال المستقيمة النافعة، والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن، لأن
في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية
والدنيوية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُنَالِكَ الْخَرَتْ وَالسُّلُوكُ﴾
[البقرة: ٢٠٥]، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومنه قيل لحرب
كانت بين طيء: حرب الفساد، وكان فساد المنافقين في الأرض، أنهم كانوا يمايلون
الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدي

٢٥ - أخرجه مسلم (٢١٤٦/٤) كتاب صفات المنافقين: باب (٥٠) حديث (٢٧٨٤/١٧)، والنسائي (٨/١٢٤)
كتاب الإيمان: باب مثل المنافق حديث (٥٠٣٧)، وأحمد (٣٢/٢)، والخطيب في «تاريخه» (٢٦٨/١٤)
من حديث عبد الله بن عمر.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه مسلم من رواية موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: قوله تعير
بهملة؛ أي: تردد. انتهى.

إلى هيج الفتن بينهم، فلما كان ذلك من صنعهم مؤدياً إلى الفساد قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾، كما تقول للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تلق نفسك في النار، إذا أقدم على ما هذه عاقبته، و﴿إِنَّمَا﴾: لقصر الحكم على شيء، كقولك: إنما ينطق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب، ومعنى ﴿إِنَّمَا عَنْ مُضِلُّونَ﴾: أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد، و﴿وَالَا﴾: مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: ﴿أَيُّنَ ذَلِكَ يَقْدِرُ﴾ [القيامة: ٤٠]، ولكونها في هذا المنصب من التحقيق، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم، وأختها التي هي «أما»: من مقدمات اليمين وطلائعها: [من الطويل]

أما والذي لا يعلم الغيب غيرُهُ (١)

[من الطويل]

أما والذي أبكى وأضحك (٢)

(١) أما والذي لا يعلم الغيب غيره
لقد كنت أختار القرى طاوي الحشا
وإني لأستحيي يميني ويسنها
ويحيي العظام البيض وهي رميم
محاذرة من أن يقال لريم
وبين فمي داجي الظلام بهيم

لحاتم الطائي. وأصل «أما» مركبة من همزة الاستفهام وما النافية. فصارت حرفاً لاستفتاح القسم وتوكيد الكلام وأقسم بالذي يعلم الغيب والضمان وهو الله تعالى، لأن جواب القسم من هذا القبيل. وذكر البيض دفعاً لتوهم أنها المكسية باللحم أو كناية عن طول مدتها عارية عنه، فيشتد بياضها لجفاف دمها وهي رميم بالية. واستواء المذكر والمؤنث في فعل بمعنى فاعل كما هنا قليل، والكثير في الذي بمعنى مفعول. لقد كنت أختار القرى: أي جمع الضيفان وإكرامهم. ويجوز أن يروى: اجتاز القرى بالجيم والزاي وضم القاف: يصف نفسه بالعفة. ويروى: أختار الجوى بمعنى حرقة القلب من الجوع ونحوه حال كوني عفوفاً. وعلى الأولى فالمعنى: حال كوني جائعاً، فطبي الحشا أي المعدة والأمعاء كناية عن ذلك، وكثر استعمال الطبي في هذا المعنى، حتى قيل منه: طوى يطوي كرضي يرضى بمعنى جاع، فهو طيان كجوعان وزنا ومعنى. محاذرة: أي حذراً من قول الناس إنه لريم لا كريم. وكان يستحي أن يمد يده للطعام إلى فمه، مع أن الليل شديد الظلمة حائل بينهما فيمنعه أن يراها. والبهيم: الذي انتهمت فيه الأشياء لظلمته.

ينظر ديوانه ص ١٧٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٧١٥)، شرح شواهد المغني (١/ ٢٠٧)، لسان العرب (رمم)، ولا نسبة في جواهر الأدب ص ٣٣٨، مغني اللبيب (١/ ٦٨):

(٢) أما والذي أبكى وأضحك والذي
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى
أبي صخر عبدالله بن سلمى الهذلي. و «أما» استفاحية ومقدمة وطلعية لليمين. والواو بعدها للقسم، أي: وحق الذي أبكى وأضحك حقيقة، أو الذي سر وضر كناية، وهو أنسب بالمقام.

تقبيح ما كانوا عليه؛ لبعده من الصواب، وجزءه إلى الفساد والفتنة، والثاني: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام، ودخولهم في/١٩ أعدادهم؛ فكان من جوابهم أن سفهوه لفرط سفههم، وجهلهم لتماذي جهلهم، وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة. فإن قلت: كيف صح أن يسند «قيل»: إلى «لا تفسدوا، وآمنوا» وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح؟ قلت: الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل، وهذا إسناد له إلى لفظه، كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام، فهو نحو قولك: «ألف» ضرب من ثلاثة أحرف، ومنه: «زَعَمُوا مَطِيَّةَ الْكَذِبِ» (٢٦).

و«ما» في «كما»: يجوز أن تكون كافة مثلها في (ربما)، ومصدرية مثلها في ﴿يَمَّا رَحِبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥].

واللام في «الناس» للعهد، أي كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه. أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه؛ لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم، أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة، ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل.

والاستفهام في ﴿أَتُؤْمِنُ﴾: في معنى الإنكار، واللام في ﴿الشُّهَاءُ﴾: مشار بها إلى الناس، كما تقول لصاحبك: إن زيدا قد سعى بك، فيقول: أو قد فعل السفيه، ويجوز أن تكون للجنس، وينطوي تحته الجاري ذكرهم على زعمهم واعتقادهم؛ لأنهم عندهم أعرق الناس في السفه، فإن قلت: لم سفهوه واسترقوا عقولهم، وهم العقلاء المراجيح؟ قلت: لأنهم لجهلهم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفياً؛ ولأنهم كانوا في رياسة وسطة في

٢٦ - قال الزيلعي: ذكر المصنف في التغاين، حديثاً مرفوعاً عن النبي - ﷺ - ولم أجده بهذا اللفظ، والذي وجدته: «بش مطية الرجل» زعموا. ا.هـ. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٢٦)، باب ما يقول الرجل إذ ذكى، حديث (٧٧٠) وأبو داود في سننه (٢٩٤٠/٤) كتاب الأدب: باب قول الرجل زعموا، حديث (٤٩٧٢)، وأخرجه أحمد في مسنده (٤٠١/٥)، وابن المبارك في الزهد (ص ١٢٧) حديث (٣٧٧)، والطحاوي في مشكل الآثار (٦٨/١)، والبيهقي في «شرح السنة» (٤٠٦/٦) حديث (٣٢٨٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٣٣٤).

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه ابن سعد في الطبقات من رواية الأعمش عن شريح قال: زعموا كنية الكذب، وقد ذكره المصنف مرفوعاً في سورة التغاين، ولم أجده بهذا اللفظ. والذي في الأدب المفرد للبخاري من حديث أبي مسعود الأنصاري - رضي الله عنه - مرفوعاً: «بش مطية الرجل زعموا»، وكذا أخرجه أحمد، وإسحاق، وأبو يعلى، وهو من رواية أبي قلابة عنه، وفي رواية البخاري بين أبي قلابة وبين أبي مسعود: أبو المهلب. انتهى.

قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء، ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب، فدعواهم سفهاء؛ تحقيراً لشأنهم، أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشباعه ومفارقتهم دينهم وما غاظهم من إسلامهم وقت في أعضادهم، قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفة بم عزل، والسفة سخافة العقل وخفة الحلم، فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بـ ﴿لَا يَكْمُرُونَ﴾، والتي قبلها بـ: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤذي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دينوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاور، والتناحر، والتحارب، والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد؛ ولأنه قد ذكر السفة وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له. مساق هذه الآية بخلاف ما سقت له أول قصة المنافقين فليس يتكرر؛ لأن تلك في بيان مذهبيهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين، وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم/ ١٩ب ما في قلوبهم، وروى: «أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: انظروا كيف أردت هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصدّيق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً، فنزلت» (٢٧).

ويقال: لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريباً منه، وهو جاري ملاقي ومراوقي، وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا.

وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه، ويجوز أن يكون من «خلا» بمعنى: مضى،

٢٧ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٩/١).

وعزه للواحد والثلثي، عن ابن عباس.

قال الحافظ في تخرّيج الكشف:

أخرجه الواحد في الأسباب من رواية السدي الصغير محمد بن مروان، عن أبي صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه؛ وذلك أنهم خرجوا ذات يوم... فذكره، وفي آخره: «فرجعوا إلى رسول الله ﷺ -، فأخبروه فنزلت»، ومحمد بن مروان متروك منهم بوضع الحديث، وسياقه في غاية النكارة. انتهى.

وخلاك ذم: أي عداك ومضى عنك، ومنه: القرون الخالية، ومن «خلوت به»: إذا سخرت منه، وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان يعيث به، ومعناه: وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحذّثوهم بها، كما تقول: أحمد إليك فلاناً، وأذمه إليك، وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة، والدليل على أصالتها قولهم: تشيطن، واشتقاقه من «شطن» إذا بعد؛ لبعده من الصلاح والخير، ومن «شاط» إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة، ومن أسمائه الباطل. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم، فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن^(١)؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما، لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهرائي المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا﴾ [آل عمران: ١٦]، وأما مخاطبة إخوانهم، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية، والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة، ووفور نشاط، وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد، فإن قلت: أنى تعلق قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؟ قلت: هو توكيد له، لأن قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾/٢٠ معنى الثبات على اليهودية، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ رد للإسلام ودفع له منهم، لأن المستهزء بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء، تأكيد لثباته أو بدل منه؛ لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف، كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فقالوا: فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام فقالوا: إنما نحن مستهزؤون، والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة - من الهزء وهو القتل السريع - وهزأ يهزأ: مات على المكان، عن بعض العرب: مشيت فلغبت فلظننت لأهزأ

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: وبني هذا التقرير على أن الجملة الاسمية أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بأن مردفة بإنما على أنه قد حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضاً في قوله ﴿رَبَّنَا إِنَّمَا أَكْرَأُكَ وَالْبُتَيْنَا الرَّسُولُ﴾. وعلى الجملة فلقد أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء وأجمل ما أراد.

في الغي وأمدّه: إذا وصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهماكاً فيه. فإن قلت: لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال؟ قلت: كفاك دليلاً على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن محيصن: (ويمدّهم)، وقراءة نافع: ﴿وَلِيُخَوِّذَهُمْ بَمدُوهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] على أن الذي بمعنى: أمهله إنما هو مدّ له مع اللام كأملى له، فإن قلت: فكيف جاز أن يوليهم الله مدداً في الطغيان وهو فعل الشياطين؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِيُخَوِّذَهُمْ بَمدُوهُمْ فِي أَلْفَيْ﴾^(١) [الأعراف: ٢٠٢] قلت: إما أن يحمل على أنهم لما منعهم الله ألطافه التي يمنحها المؤمنين، وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه، بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها، تزايد الانسراح والنور في قلوب المؤمنين، فسمى ذلك التزايد مدداً، وأسند إلى الله سبحانه؛ لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم، وإما على منع القسر والإلجاء، وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله؛ لأنه يتمكينه وإقداره والتخيلة بينه وبين إغواء عباده، فإن قلت: فما حملهم على تفسير المدّ في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ قلت: استجزمهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذهبه بقاء النظم على حسنه، والبالغة على كمالها وما وقع به التحذير سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة، فهو من تعاهد النظم والبالغة على مراحل، ويعضد ما قلناه قول الحسن في تفسيره: في ضلالتهم يتمادون، وأن هؤلاء من أهل الطبع، والطغيان: الغلو في الكفر، ومجاوزة الحد في العتو، وقرأ زيد بن علي - رضي الله عنه -: «في طُغْيَانِهِمْ» بالكسر وهما لغتان، كـ «الْفُيَّان، وَلُفْيَان، وَغُفْيَان وَغُفْيَان». فإن قلت: أي نكتة في إضافته إليهم^(٢)؟ قلت: فيها أن

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: كيف جاز أن يوليهم الله مدداً من الطغيان... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: ما يمنعه أن يقره على ظاهره ويبقيه في تصابه إلا أنه توحيد محض وحق صرف، والقدريّة من التوحيد على مراحل.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: ما النكتة في إضافة الطغيان إليهم... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: كل فعل صدر من العبد اختياراً فله اعتباران: إن نظرت إلى وجوده وحدوثه وما هو عليه من وجه التخصيص، فأنسب ذلك إلى قدرة الله وحده وإرادته لا شريك له. وإن نظرت إلى تميزه عن القسر الضروري فأنسبه في هذه الجهة إلى العبد، وهي النسبة المعبر عنها شرعاً بالكسب في أمثال قوله تعالى: ﴿كَيْفَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وهي المتحققة أيضاً إذا عرضت على ذهنك الحركتين الضرورية الرعشية مثلاً والاختيارية، فإنك تميز بينهما لا محالة بتلك النسبة. فإذا تقرر تعدد الاعتبار فمدهم في الطغيان مخلوق لله تعالى فأضافه إليه. ومن حيث كونه واقعاً منهم على وجه الاختيار المعبر عنه بالكسب أضافه إليهم. ففرع على أصول السنة بحسن ثمار فروعك في الجنة، لا كما تفرع القدرة فإنهم يخبون ولكن على أنفسهم. ألهمنا الله التحقيق وإيّدنا بالتوفيق.

الطغيان والتماذي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحتة أبديهم، وأن الله يرى منهم رذاً لا اعتقاد الكفرة القائلين: لو شاء الله ما أشركنا، ونفياً لوهم من عسى يتوهم^(١) عند إسناد المد إلى ذاته لو لم يضاف الطغيان إليهم؛ ليميط الشبه، ويقلعه، ويدفع في صدر من يلحد في صفاته؛ ومصدق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين، أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله: ﴿وَلَا يَخَوِّنُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، والعمه: مثل العمى، إلا أن العمى عام في البصر/ ٢١ والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحير والتردد، لا يدري أين يتوجه، ومنه قوله: بالجاهلين العمه، أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق، وسلك أرضاً عمها: لا منار بها^(٢).

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة؛ لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر^(٣)؛ ومنه: [من الرجز]
أَخَذْتُ بِالْجُمَةِ رَأْسًا أَزْعَرَا وَبِالثَّنْيَا الْوَاضِحَاتِ الدُّرَدَرَا
وَبِالطَّوِيلِ الْعُمَرِ عُمرًا حَيْدَرَا كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا^(٤)
وعن وهب: قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل: «تَفَقَّهُوْنَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتَعَلَّمُوْنَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَتَتَّبِعُوا الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ»، فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى، وما كانوا على هدى؟ قلت: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم^(٥) كأنه في

(١) قوله: «ونفياً لوهم من عسى... إلخ» يريد الرد على أهل السنة القائلين: إن الله تعالى هو الفاعل في الحقيقة للخير والشر. ويتنصر للمعتزلة القائلين بأنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده. (ع)

(٢) قوله «وسلك أرضاً عمها» أي ومنه قولهم سلك... إلخ. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «الشراء يستدعي بدل العوض... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ومن هذا القبيل منع مالك رضي الله عنه أن يشتري إحدى أوزتين مذبحتين يختارها المشتري منهما، لأنه يعد مختاراً لكل واحدة منهما، ثم بائعاً بالأخرى فيدخله الربا، وهو الذي يعبر عنه متأخرو أصحابه بأن من ملك أن يملك هل يعد مالكا أولاً؟ وربما قالوا: من خير بين شيتين عد منتقلاً على أحد القولين.

(٤) «الجمعة»: كثيرة الشعر، والباء للبدل، و«زعر» كتب فهو أزعر، أي قليل الشعر. ويقال للموضع الذي لا نبات فيه. والثنايا: مقدم الأسنان. والمراد الثغر كله. والدردر - بالفتح - مغازر الأسنان. والحيدر: القصير. واشترى: استبدل. والمراد أنه أخذ امرأة عجوزاً تبقيه بدل امرأة شابة جميلة، وروي أن جبلة بن الأيهم قديم مكة فطاف بالكعبة، فوطئ رجل إزاره، فلطمه فشكى إلى عمر رضي الله عنه فحكم بالقصاص من جبلة، فاستمهل إلى الغد وهرب ليلاً إلى الروم، وتنصر بعد الإسلام، ثم ندم على ما فعل فضرب به المثل.

ينظر النواذر ص ١٥٢، معاني القرآن للفراء ٣٣/١، الطبري ٥٦٢/١، البحر ١٧٧/١، الدر المصون ٢٠٦/١.

(٥) قوله: «وإعراضه لهم» في الصحاح: اعترض لك الخير، إذا أمكنك. (ع)

أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوا به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة.

و«الضلالة»: الجور عن القصد وفقد الاهتداء، يقال: ضلّ منزله، وضلّ دريص نفقه^(١)، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين. والريح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي: الشف، من قولك: أشف بعض ولده على بعض، إذا فضله، ولهذا على هذا شف، والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشترى للربح، وناقّة تاجرة: كأنها من حسننها وسمنها تباع نفسها، وقرأ ابن أبي عبيدة: (تجارتهم)، فإن قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلت: هو من الإسناد المجازي^(٢)، وهو أن يسند

(١) قوله «وَضَلُّ دريص نفقه» في الصحاح: الدرص ولد الفأرة واليربوع وأشباه ذلك. وفي المثل «ضُلّ دريص نفقه أي جحره». (ع)

(٢) قوله - سبحانه - «فَمَا رَبحَتْ يَتَرْتَهُمْ» هو من الإسناد المجازي وفي هذا البيان دليل على أن الإسناد في قوله «رَبحَتْ» إلى «تجارتهم» فيه خروج على حقيقة الإسناد، والأصل: ربّحوا في تجارتهم، وهذا مما يؤخذ من كلامه بدقة واتساع ولكن لماذا جعل هذا عقلياً؟ ذلك أن العقل هو الحكم في هذا الإسناد لا اللغة كما هو واضح في المجاز اللغوي، ولهذا حينما تكونت فكرته قالوا في تحديده:

«إسناد الفعل أو ما يقوم مقامه إلى غير فاعله الحقيقي لملازمة - علاقة - مع وجود قرينة صارفة وممانعة من الإسناد الحقيقي».

وقد يسمى بالمجاز الحكمي لأن العقل يحكمه، فإذا قلت «شفى الطبيب المريض» سارع العقل إلى فهم هذا الإسناد في «شفى» على المجاز لا الحقيقة، ولهذا يقال: إن الطبيب سبب في الشفاء فقط، والشافي في الحقيقة هو «الله» جل جلاله.

يقول الشيخ عبد القاهر في ذلك:

«ولا يفرنك أنك ترى الرجل يقول: أتى بي الشوق إلى لقائك وأشياء ذلك مما نجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يشكل أمرها، فليس هو كذلك أبداً، بل يرق ويلطف حتى يتمتع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تصرفها، والنادرة تأتي لها».

ويحدد الشيخ عبد القاهر هذا المجاز مع أنه متقدم في زمانه على صاحب هذا التفسير فيقول: «وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل لضرب من التأول فهي مجاز» وبعد هذا نخرج إلى أسرار هذا النظم القرآني البديع في النقاط التالية:

١ - المبالغة في إثبات المعنى المقصود، والمقام في هذا المضمار في حاجة إليه بحيث لا يصلح سواء في هذا المقام كما ترى في الآية.

٢ - الإيجاز البليغ الذي هو سمة القرآن، وعلامة بلاغة البيان، فحينما نسمع: «ربحت تجارتهم» تنحدر إلينا المعاني في هذا الأسلوب لتعطينا صورة الخسران الكامل وتعود بهذا كله إلى صورة إيمانهم بالله - سبحانه - التي انضحت تماماً لأولى النهي وأنهم خسروا خسراناً مبیناً وهذا ما عبر عنه المولى - جلّت حكمته - بقوله - وما كانوا مهتدين -.

٣ - المجاز العقلي فن بليغ وجميل ينشط العقول، ويقرع القلوب، ولهذا ترى الأريب حينما يقف =

الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشتريين، فإن قلت: هل يصح: ربح عبدك وخسرت جاريك، على الإسناد المجازي؟ قلت: نعم إذا دلت الحال؛ وكذلك الشرط في صحة: رأيت أسداً، وأنت تريد المقدام، إن لم تقم حال دالة لم يصح، فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة كان ثم مبايعة على الحقيقة^(١)؟ قلت: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً، وهو المجاز المرشح؛ وذلك نحو قول العرب في البليد: كان أذني قلبه خطلاً، وإن جعلوه كالحمار، ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة، فادعوا لقلبه أذنين، وادعوا لهما الخطل^(٢)، ليمثلاو البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معانية؛ ونحوه: [من الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْتُ التُّسْرَ عَزُّ أَبْنٍ ذَائِيَةٍ وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَ لَهُ صَذْرِي^(٣)
لما شبه الشيب بالنسر، والشعر الفاحم بالغراب، أتبعه ذكر التعشيش والوكر/٢١ب، ونحوه قول بعض فُتَّاكِهِمْ في أُمِّهِ: [من الوافر]
فَمَا أُمُّ الرُّدْذَيْنِي وَإِنْ أَذْلَتْ بِعَالِمَةٍ بِأَخْلَاقِ الْكِرَامِ

== عند هذا النظم القوي المتين تنساب إليه قوى خفية فيرى نفسه ينتفض خاشعاً أمام كلام العليم الخبير، وهذا ما نجده في كلام الله ورسوله، وفي بلاغة العرب النجباء. في كل زمان ومكان.

ينظر المطول للسعد ٥٧، والإيضاح للقرظوني بتحقيقه ٧٧/١ ودلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر ٢٨٧، ٢٢٨ بتحقيق خفاجي وبحوث المطابقة لعلي العبدري ١٩٦، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢١٤ وما بعدها، وخصائص التراكيب لأبي موسى - أيضاً - ٦٦، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني د. فتحي حجازي ٤٢٤/٢ وشرح السعد بتحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ١٠٢/١.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا النوع قريب من التميم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء [من البسيط]:
وإن صخرأ لتأتهم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

لما شبهته في الاهتداء به بالعلم المرتفع، أثبت ذلك ما يناسبه ويحققه، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر باشتعال النار في رأسه.

(٢) قوله «وادعوا لهما الخطل» أي الاسترخاء. (ع)

(٣) شبه الشيب بالنسر بجامع البياض، واستعاره له تصريحاً. وشبه الشباب بالغراب - وهو ابن ذاية - بجامع السواد كذلك. وعزه يعزه عزاً، كنصره نصراً: إذا غلبه وقهره. والتعشيش في الوكرين ترشيح للاستعارتين، والمراد بهما الرأس والحية. ويحتمل أن التركيب كله استعارة تمثيلية. يقول: لما رأيت الشيب غلب الشباب وحل محله، تحرك لأجله قلبي واضطرب، فالصدر مجاز. ويروى: جاشت له نفسي.

إِذَا الشَّيْطَانُ قَضَعَ فِي قَفَاهَا تَنَفَّقْنَا بِالْحُبْلِ الثَّوَامِ^(١)
 أي إذا دخل الشيطان في قفاه، استخرجناه من نافقائه بالحبل المثنى المحكم، يريد:
 إذا حردت^(٢) وأساءت الخلق، اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوء من خلقها، استعار
 التقصيع أولاً، ثم ضم إليه التنفق، ثم الحبل الثوام؛ فذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه
 ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه؛ تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته، فإن
 قلت: فما معنى قوله: ﴿فَمَا بَحَتْ بِجَنَاحَيْهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَبِئِينَ﴾؟ قلت: معناه أن الذي يطلبه
 التجار في متصرفاتهم شيان: سلامة رأس المال، والريح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين
 معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى، فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق في أيديهم
 إلا الضلالة، لم يوصفوا بإصابة الريح، وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية؛
 لأن الضال خاسر دامر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح، وما كانوا
 مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيهم ويخسر.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي
 ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۖ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان، ولضرب

(١) دلت المرأة وأدلت: حسن تمنعها مع رضاها. ودلت وأدلت أيضاً: تغنجت وتشكلت. والاسم:
 الدل، والدالة، والدلال. وقيل: هو قريب من معنى الهدى. ومنه: كانوا ينظرون إلى هدى عمر
 ودله فيتشبهون به. ونفى علمها بأخلاق الكرام: كناية عن إساءتها الخلق. ويرى: بقائلة بأخلاق
 الكرام، أي بمكثرتهم ولا معتنية بها، أو ليست فاعلة لها والمالك واحد. وقصع اليربوع: اتخذ
 القاصعاء أو دخل فيها، وهي جحره الذي يدخل فيه. وتنفق: اتخذ النافقاء أو خرج منها، وهي
 الطرف الثاني من الجحر الذي يخرج منه، وتنفقه الصائد: استخرجه منها، فلجحره بابان إذا أتاه
 الصائد من الأول خرج من الثاني فاستعار التقصيع الذي هو فعل اليربوع لدخول الشيطان في قفاه،
 واستعار التنفق لإخراجه منه على طريق التصريحة والثانية ترشيح للأولى وبالعكس. والحبل: جمع
 حبال جمع حبل ككتب جمع كتاب: والثوام: الثني من الحبل، وجمعه: ثوالم، وثوام كغراب. أي
 بالحبل المثنى المفتولة، وهي على رواية الحبل بالإنفراد، فيخرج على أن الثوام ليس جمعاً بل اسم
 جمع يعامل معاملة المفرد، أي بالحبل القوي لأنه مجموع حبال مفتولة، وهذا ترشيح للتنفق
 وترشيح الترشيح ترشيح، فيكون ترشيحاً للتقصيع أيضاً، والحبال من ملائعات التنفق في نحو
 الاصطياد. ويجوز أن يشبه الشيطان باليربوع، فإذا أردنا اصطياده من جهة هرب من جهة أخرى حتى
 نصطاده بأقوى حيلة، فنكون مكنية والتقصيع والتنفق بالحبل تخييل. وجعل ذلك كله في قفاه لأن
 الحمق يُنسب إليه عادة، أو لأن الشيطان يأتيها من حيث لا تشعر، كأنه من خلفها. ثم إن هذا
 الكلام كناية أو تمثيل للمراد، وهو أنها إذا أساءت الخلق ترضيناها بالتحيل والترفق. ينظر الدر
 المصون (١/١٢٨).

(٢) قوله «يريد إذا حردت» في الصحاح: الحرد - بالتحريك - الغضب. (ع)

العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر - شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبوي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا لَوْلَا وَنَا بِقَوْلِهِمْ إِلَّا الْمَكِيدُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ومن سور الإنجيل سورة الأمثال، والمثل في أصل كلامهم: بمعنى المثل، وهو النظير؛ يقال: مثل، ومثل، ومثيل، كشبه، وشبه، وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل، ولم يضربوا مثلاً، ولا راوه أهلاً للتيسير، ولا جديراً بالتداول والقبول، إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثم حوفظ عليه وحى من التغيير، فإن قلت: ما معنى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْآيَةِ اسْتَوْفَدَ نَاراً؟﴾، وما مثل المنافقين ومثل الذي استوفد ناراً؟ حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟ قلت: قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام، للحال أو الصفة أو القصة، إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوفد ناراً، وكذلك قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الْآيَةِ وَبِهَا النَّارُ﴾ [محمد: ١٥]، أي وفيما قصصنا عليك من العجائب، قصة الجنة العجيبة، ثم أخذ في بيان عجائبها - ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠ / ١٢٢]: أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة، ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي صفتهم وشأنهم المتعجب منه، ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثله في الخير والشر، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن، فإن قلت: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ قلت: وضع الذي موضع الذين؛ كقوله: ﴿وَحُضِّمْتُ كَالَّذِي خَاسَوْا﴾ [التوبة: ٦٩]، والذي سَوَّغَ وضع الذي موضع الذين، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران: أحدهما: أنَّ «الذي» لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجمله، وتكاثر وقوعه في كلامهم، ولكونه مستطالاً بصلته، تحقيق بالتخفيف، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرتة ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين، والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون، وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع، والواحد فيهن واحد^(١)، أو قصد جنس المستوفدين، أو أريد

(١) قال السمين الحلبي: وليس لمرجح أن يرجح قول الزمخشري بأنهم قالوا: إِنَّ الميمَ في قولهم: «مِ الله» بقية ايمُن، فإذا انتهكوا ايمُن بالحذف حتى صار على حرف واحد فأزلى أن يقال بذلك فيما بقي على حرفين؛ لأن «أل» زائدة على ما هيية «الذي» فيكونون قد حذفوا جميع الاسم، وتركوا ذلك الزائد عليه بخلاف ميم «ايمُن»، وأيضاً فإنَّ القول بأنَّ الميمَ بقية ايمُن قول ضعيف مردودُ أبيه قول الجمهور. انتهى. الدر المصون.

الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً، على أَنَّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد؛ إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد، ونحوه قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالِاتِ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، ووقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها، ومن أخواته: وقل في الجبل إذا صعد وعلا، والنار: جوهر لطيف مضيء حار محرق، والنور: ضوءها وضوء كل نير، وهو نقيض الظلمة، واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأنَّ فيها حركة واضطراباً، والنور مشتق منها، والإضاءة: فرط الإنارة، ومصدق ذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وهي في الآية متعددة، ويحتمل أن تكون غير متعددة مسندة إلى ما حوله، والتأنيث للحمل على المعنى؛ لأنَّ ما حول المستوقد أماكن وأشياء، ويعضده قراءة ابن أبي عبة: «ضاءت»، وفيه وجه آخر، وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار، ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها، على أنَّ «ما» مزيدة أو موصولة في معنى الأمكنة، و﴿حَوْلَكُمْ﴾: نصب على الظرف، وتأليفه للدوران والإطافة، وقيل للعام: حول؛ لأنه يدور، فإن قلت: أين جواب «لما»؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن جوابه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥]، وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدالِّ عليه، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى، كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين/ ٢٢ب على فوت الضوء، خابئين بعد الكدح في إحياء النار، فإن قلت: فإذا قَدَّرَ الجواب محذوفاً فبم يتعلق: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ قلت: يكون كلاماً مستأنفاً؛ كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره، اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقليل له: ذهب الله بنورهم، أو يكون بدلاً من جملة التمثيل^(١) على سبيل البيان، فإن قلت: قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني^(٢)؟ قلت: مرجعه الذي استوقد؛ لأنه في معنى الجمع، وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في ﴿حَوْلَكُمْ﴾، فللحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى، فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ قلت: إذا طفئت النار

(١) قال السمين الحلبي: وقد ردَّ عليه بعضهم هذا بوجهين: أحدهما أن هذا تقدير مع وجود ما يفني عنه، فلا حاجة إليه؛ إذ التقديرات إنما تكون عند الضرورات. والثاني: أنه لا يُبَدَّلُ الجملة الفعلية من الجملة الاسمية. انتهى. الدرر المصون.

(٢) قوله: «فما مرجعه في الوجه الثاني» لعله السابق. (ع)

بسبب سمائي ربح أو مطر، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد، ووجه آخر، وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله، ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام، وتلك النار متقاصرة مدة اشتعالها قليلة البقاء، ألا ترى إلى قوله: ﴿كَلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، ويتهدوا بها في طرق العبث، فأطفأها الله وخيب أمانيهم، فإن قلت: كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟ قلت: هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تدبره، فإن قلت: هلا قيل ذهب الله بضوئهم؛ لقوله: ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَتْ﴾؟ قلت: ذكر النور أبلغ؛ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً، ألا ترى كيف ذكر عقبيه: ﴿وَوَرَّكُم فِي ظُلُمْتِكُمْ﴾، والظلمة: عبارة عن عدم النور وانطاماسه، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهم لا يتراءى فيها شيحان وهو قوله: ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾، فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة؟ قلت: هذا على مذهب قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل، ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح، والفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً، ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله: أخذه ﴿كَلَّمَآ دَمَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥]، ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه: ذهب به الخيلاء، والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه، ﴿وَمَا يَمْنِكُ فَلَا مُمْسِكٌ لَهُ﴾ [فاطر: ٢] فهو أبلغ من الإذهاب، وقرأ اليماني: «أذهب الله نورهم»، وترك: بمعنى طرح وخلى، إذا علق بواحد، كقولهم: تركه ترك ظلي ظله، /٢٣أ فإذا علق بشيئين، كان مضمناً معنى صير، فيجرب مجرى أفعال القلوب كقول عترة: [من الكامل]

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُهُ (١)

(١) فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بناته والمعصم

لعترة بن شداد العبي من معلقة. يقول: فخرت بالرمح اليابس الصلب ثيابه، أي: قلبه وأحشائه، فهي كناية عنها. أو شككت ثيابه بمعنى نظمها بيدنه بإدخال الرمح فيها. ويروى: إهابه، أي جلدته. وليس الكريم... إلى آخره: اعتراض دال على أن عادة الكرام أن يجودوا بكل شيء حتى بالأرواح للرمح. وفيه نوع تهكم. فتركته: أي صيرته. جزر السباع - بالتحريك - أي نصيبها وطعمتها من اللحم. ونهشه وناشه: تناوله بفمه وكدمه. وقضمه يقضمه، من باتني علم وضرب: عضه بمقدم أسنانه. فقله «يقضمن» بدل. وعبر بالحسن عن الشيء الحسن مبالغة: أي يأكلن بناته الحسن ومعصمه الحسن. ويروى بدل هذا الشرط: ما بين قلة رأسه والمعصم. وما زائدة، و«بين» ظرف للنوش. ويجوز أن «ما» موصولة بدل من ضمير المفعول. وقلة الرأس: أعلاه، كقلة الجبل وقته. =

ومنه قوله: ﴿وَرَكَّبَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين، والظلمة عدم النور، وقيل: عرض ينافي النور، واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا: أي ما منعك وشغلك، لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية، وقرأ الحسن: «ظُلُمَاتٍ» بسكون اللام، وقرأ اليماني: «فِي ظُلْمَةٍ» على التوحيد، والمفعول الساقط من ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدر المنوي، كَانَ الفعل غير متعدّ أصلاً، نحو: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، فإن قلت: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ قلت: في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتوڑطوا في حيرة، فإن قلت: وأين الإضاءة في حال المنافق؟ وهل هو أبداً إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ قلت: المراد ما استضاء به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجرة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرم، ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم، وما افتضحوا به بين المؤمنين، واتسموا به من سمة النفاق، والأوجه أن يراد الطبع؛ لقوله: ﴿صُمُّ بَكْمُ عُتَى﴾، وفي الآية تفسير آخر: وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضئنة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات، وتنكير النار للتعظيم، كانت حواسهم سليمة، ولكن لما سدوا عن الإصاحة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا؛ كأنما أيفت مشاعرهم، وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك؛ كقوله: [من البسيط]

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(١)

= ينظر ديوانه ص (٢١٠)، خزانة الأدب (١٦٥/٩، ١٦٦)، شرح شواهد المغني (٤٨٠/١)، وبلا نسبة في تخلص الشواهد ص (٤٤٥)، سر صناعة الإعراب (٦٩٤/٢).

(١) إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلاً علي وجبنا عن عدوهم لبثت الخلتان الجهل والجبن

لقعن بن أم صاحب بن ضمرة. وضمرة أبوه. وأم صاحب: كنية أمه. يقول: إن يسمعوا. وروي: بأذنوا، كسمعوا وزناً ومعنى، من جهتي بهتان وزور أذاعها، فكأنهم يطبقون بها بين الناس من فرحهم بما تقل عني. فالطيران استعارة مصرحة لذلك. قال ابن مالك تبعاً للفراء: ويجوز إجابة المضارع بالماضي وإن منعه الجمهور في الاختيار. وأي شيء سمعوه من قول صالح كتموه، فالدفن استعارة تصريحية أيضاً. وهم صم: أي كالصم، فهو تشبيه بليغ واستعارة على الخلاف. وإن ذكرت عندهم بسوء أذنوا وأنصتوا. ويروي «سبة» بالضم: ما يسب به. وقد يروي: سبة، بتحتية ساكنة =

[ومن الرجز]

أَصُمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَوِيْعٌ

[ومن الطويل]

أَصُمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أَرِيدُهُ وَأَسْمَعُ خَلْقَ اللَّهِ حِينَ أَرِيدُ^(١)

[ومن المتقارب]

فَأَصْمَمْتُ عَمْرًا وَأَعْمَيْتُهُ عَنِ الْجُودِ وَالْفَخْرِ يَوْمَ الْفَخَارِ^(٢)

فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان^(٣)؟ قلت: طريقة قولهم: «هم ليوث»

= فهمزة. ويروى: وما يسمعون. ويروى: صموا، على لفظ الماضي، بدل صم. ويروى بسوء كلهم أذن: أي فكلهم أذن؛ فهو على تقدير الغاء، لأنه جواب الشرط. ويحتمل أنه على التقديم والتأخير: أي كلهم أذن إن ذكرت بسوء وهو أنسب بما قبله. وجعلهم نفس الأذن مبالغة. ويجوز أن الأذن وصف يقع على الواحد والمتعدد، وذلك لجهلهم وبأسهم علي، وجبنهم وضعفهم عن عدوهم. وقيل: هو على تقدير جمعوا جهلاً. والخلتان الخصلتان. والجبن بضمين لغة فيه. وفيه إطناب بالتوشع، لأنه أتى بمثنى وفسره باسمين ثانيهما معطوف على الأول وهو حسن.

ينظر لسان العرب (شور)، و(أذن)، تاج العروس (أذن).

(١) صم صمماً، كتب تبعاً. فأصم - بفتح الصاد - فعل مضارع. ولو جعلته اسماً على الخبرية لضمير محذوف لكانت مناسبة لأسمع المعطوف عليه. والمعنى أن حالي تكون كحال الأصم؛ فهو مجاز عن ذلك. وأسمع: أي أفعل بمقتضى السماع، فهو مجاز أيضاً. ويجوز أنه كناية. يقول: لا أسمع لما أكره. وأسمع كلام خلق الله حين أريده، بأن يكون محبوباً إلي، أو حين أريد السماع.

(٢) يقول: لما أظهرت مفاخري ومكاري، أصممت عمراً: أي صيرته كالأصم. وأعميته: أي صيرته كالأعمى فالصمم والعمي: استعارتان مصرحتان. والمراد ألجمته وأسكته عن الكلام في الفخر والجدود حين مفاخرتي إياه. وقيل أصمته وأعميته: وجدته أصم ووجدته أعمى: أي كأنه كذلك على ما مر.

ينظر لسان العرب (فخر)، ومقاييس اللغة (٤/١٣٤)، أساس البلاغة (عمي)، تاج العروس (فخر).

(٣) قوله - تعالى - «صم بكم عني فهم لا يرجعون» كيف طريقته عند علماء البيان؟

درج القدماء على المزج بين التشبيه والتمثيل ومنهم صاحب الكشاف وأبو السعود، وهي مصطلحات لا تنافر بينها، والمحدثون فهموا هذا التفريع بدقة وألفوا في ذلك مصنفات خصوصاً من يجنح للمدرسة السكاكية، ولكن الذي كان يقع فيه الخلط هو الفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة، وبات الأمر واضحاً حيث عرف الفرق بين التشبيه والاستعارة أولاً، لأن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه، وإدخال المشبه في جنس المشبه به بحيث أصبح فرداً من أفراد، وبهذا جاز إطلاقه عليه أي إطلاق المشبه به على المشبه.

يقول القزويني: «وهنا شيء لا بد من التنبيه عليه، وهو أنه إذا أجري في الكلام لفظ دلت القرينة على تشبيه شيء بمعناه فيكون ذلك على وجهين: أحدهما أن لا يكون المشبه مذكوراً ولا مقدوراً كقولك غنت لنا غليظة وأنت تريد امرأة، ولقيت أسداً وأنت تريد رجلاً شجاعاً، ولا خلاف أن هذا ليس بتشبيه وأن الاسم فيه استعارة.

للمشجعان، وبحور للأسخياء، إلا أنَّ هذا في الصفات، وذاك في الأسماء، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً، تقول: رأيت ليوناً، ولقيت صماً عن الخير، ودجا الإسلام، وأضاء الحق، فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة؛ لأنَّ المستعار له مذكور وهم المنافقون/٢٣ب، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوّاً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام، كقول زهير: [من الطويل]

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذِّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمِ^(١)

= والثاني: أن يكون المشبه مذكوراً أو مقدراً، فاسم المشبه به إن كان خيراً أو في حكم الخير... فالأصح أنه يسمى تشبيهاً، وأن الاسم فيه لا يسمى استعارة.

هذا هو أظهر الفروق بين التشبيه والاستعارة. أما التشبيه البليغ فقد درج الأقدمون وكثير من المحدثين على أن المحذوف الوجه والأداة هو البليغ؛ لأن حذف الوجه يفيد التعميم والشمول فيما يؤخذ من الصفات الملائمة للمشبه فقولنا زيد أسد أبلغ من ذكر «زيد أسد في الجراءة»، وأما حذف الأداة فلا فائدة الاتحاد بين الطرفين كان زيداً صار أسداً في شجاعته لا فارق إلا صورة الجسم وكأنها لم تكن، وهذا الحكم هو الذي وقف عنده كثير من البلاغيين.

ولكن أهل الذوق البلاغي منهم نظروا في الأساليب الرفيعة خصوصاً القرآن والسنة، وكلام العرب انخلص فوجدوا أن التشبيهات القرآنية كثيراً ما وردت بالأداة، وقد لوحظ الإشارة إلى الوجه أو ذكره، وانظر قول بعضهم: «الأصدقاء كالنار قليلاً متاع وكثيرها بوار» فلو أننا حذفنا الأداة والوجه لكان ذلك إفساداً للمعنى المقصود، إذ المعنى على «الأصدقاء نار»، ومن أجل هذا كله قالوا: إن البلاغة في التشبيه لا تكون بالحذف أو الذكر من غير نظر إلى المقصود، فالغرض من التشبيه هو الذي يحدد ذكر الأداة أو حذفها وكذلك الوجه، فإذا كان القصد إلى معنى يتحقق بذكر الأداة فلا بد من ذكرها وهذا وارد كثيراً في القرآن والسنة وشعر العرب، وإذا كان المعنى لا يتحقق إلا مع الحذف حذف الأداة أو الوجه، فالحذف والذكر يدوران مع المعنى المقصود حذفاً وذكرأ وكلام الله - تعالى - هو الحجة والمرجع.

«ينظر أسرار البيان د. علي حسن العماري ٨٦، ٨٧ والبلاغة القرآنية ٤٨٨ وما بعدها، الإيضاح للقرظوني ١٢٩/٤ وما بعدها».

(١) فشد فلم يفزع بيوتاً كثيرة لدى حيث ألفت رحلها أم قشعم

لدى أسد شاكي السلاح مقذف له لبـد أظفاره لم تقلم

لزهير بن أبي سلمى من معلقته يمدح حصين بن ضمضم بأنه شد على عدوه بحسن تدبير فلم يفزع بيوتاً كثيرة. أو المعنى شد عليه وحده، فلم يفزع بيوتاً، أي أهل بيوت تساعده، و «حيث» بدل من «لدى» ويحتمل أن لدى لمكان مبهم مضاف لحيث المعنى بإضافته للجمله. وأم قشعم: اسم للمنية. شبهها بالمسافر على طريق المكنية. والرحل تخيل و «لدى» الثاني بدل من الأول. وجرد من الممدوح لكماله في الشجاعة شخصاً آخر، فاستعار له الأسد استعارة تصريحية. وشاكي: أي تام السلاح تجريد؛ لأنه يلائم المشبه. قال الفراء: هو مقلوب شايك: أي ذي شوكة وحدة. ومقذف: أي ضخم، كأنه قذف باللحم ورمي به. له لبـد: أي شعور متلبدة على منكبيه. أظفاره لم =

ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً، قال أبو تمام: [من المتقارب]

وَيَضَعُدُ حَتَّى يَظُنُّ الْجَهْلُورُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ^(١)
وبعضهم: [من البسيط]

لَا تَحْسَبُوا أَنَّ فِي سِرِّيَّالِهِ رَجُلًا فففيه غيثٌ وَلَيْتَ مُسْبِلٌ مُسْبِلٌ^(٢)

وليس لقاتل أن يقول: طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعاراً؛ لأنه في حكم المنطوق به؛ نظيره قول من يخاطب الحجاج: [من الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَحَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ^(٣)

= تقلم: كل هذا ترشيح لأنه يلائم المشبه به. وفي قوله أظفاره لم تقلم: نوع من الإطناب يسمى الإبغال ختم به البيت للمبالغة في التشبيه، كقول الخنساء في أخيها صخر: كأنه علم في رأسه نار.

ينظر ديوانه ص ٢٤، لسان العرب (قذف)، (مكن)، تهذيب اللغة (٧٦/٩)، جمهرة اللغة (ص ٩٧٤)، تاج العروس (قذف).

(١) لأبي تمام يمدح خالد بن يزيد الشيباني ويذكر أباه. فضمير «بصعد» ليزيد. واستعار الصعود من العلو الحسي للعلو المعنوي على طريق التصريح، ثم بنى عليه ما يبنى على العلو في المكان ترشيحاً وتنميماً للمبالغة في التشبيه، لأن ذلك الظن لا يبنى إلا على رؤيته صاعداً حقيقة. والظن - كالعلم - يتعدى بنفسه تارة وبالحرف أخرى. وخصَّ الجهل ليفيد أن ذلك الظن خطأ. ويشبه أن يكون تجريداً للاستعارة، لكن أخفاء ظهور الترشيح، وأفاد السعد أن ذكر الجهل احتراص من توهم احتياج الممدوح والمقام، لدعوى أنه في غاية الكمال، واشتهرت روايته لظن بالماضي، وهو على تقدير القسم وقد: أي والله لقد ظن الجهل ذلك.

(٢) للزمخشري. شبه الممدوح بالغيث في كثرة الخير والكرم، وباليث في كثرة الشجاعة، واستعارهما له على طريق الاستعارة التصريحية، وبنى على ذلك نهى الناس عن أن يظنوا أن في ثوبه رجلاً، للدلالة على تناسي التشبيه وادعاء الاتحاد. والمسبل: كثير الانسياب، فهو راجع للغيث. والمسبل الذي كثرت أشباله: أي أولاده من الأسود، فهو راجع لليث، ففيه لف ونشر، وفيه شبه التضاد حيث جمع بين ما يخشى وما يرجى. وفيه الجناس اللاحق بين غيث وليث، وبين مسبل ومسبل.

(٣) أسد علي وفي الحروب نعاماً فتحأ تنفر من صفير الصافر
هلا كررت على غزالة في الوغي بل كان قلبك في جناحي طائر

لعمران بن حطان قاتل الحجاج. روي أن شبيب الخارجي وأمه جهيزة وامرأته غزالة، كانوا في غاية الفراسة فدخلوا الكوفة في ألف وثلاثين فارساً، وفيها حينئذ الحجاج ومعه ثلاثون ألف مقاتل فحاربوه سنة كاملة حتى هرب منهم فعيَّره عمران بذلك: أي أنت كالأسد، ولا يصح استعارة عند الجمهور لنية ذكر المشبه. وجوزها التفتازاني على أن المذكور فرد من أفراده لا عينه. و«على» متعلق بأسد، لما فيه من معنى الشجاعة والقوة. و«في الحروب» متعلق بنعاماً، لما فيه من معنى الجبن والضعف. وهذا ظاهر على مذهب العلامة، لأن الأسد مستعار لمطلق شجاع، والنعام لمطلق جبان. وأما على مذهب الجمهور فهما جامدان لبقائهما على حقيقتهما، إلا أن يقال: لما =

ومعنى ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾: أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أين يقدّمون أم يتأخرون؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه؟!

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَرَقٌّ يَّجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓءَآذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حُدُّرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١١﴾ يَكَاذُ الْبَرُّ يَحْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾

ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر، ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز؛ فكَذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشيع؛ أنشد الجاحظ: [من الكامل]

يُوحُونَ بِالْخُطْبِ الطُّوَالِ وَتَارَةً وَخَيِ الْمُلَاحِظِ خَيْفَةَ الرُّقْبَاءِ ^(١)
ومما ثنى من التمثيل في التنزيل قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١١﴾ وَلَا أَظْلَمْتُ وَلَا أُنْثَرُ ۝١٢ وَلَا أَلْظَلُّ وَلَا أَلْقُرُ ۝١٣ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْيَاءُ وَلَا الْأَثَرُ ۝١٤﴾ [فاطر: ٢١]، وألا ترى إلى ذي الرُّمّة كيف صنع في قصيدته؟: [من البسيط]

أَذَاكَ أَمْ نَمَشَ بِالْوَشْيِ أَكْرَعُهُ
أَذَاكَ أَمْ خَاصَبَ بِالسَّيِّ مَزْنَعُهُ ^(٢)

وقع في مقام التشبيه لوحظ فيهما الوصف الذي بُنيت عليه المشابهة. ويجوز تعلقهما بمعنى التشبيه، أو بمحذوف حال من المبتدأ المحذوف على رأي سيبويه. والفتخ - بالتحريك - لين وانفراج في الأصابع والأجنحة. والفتخاء: وصف منه. وتنفر: صفة نعامه، أي تفزع وتهلع خوفاً من أدنى صوت تسمعه. وصفها بغاية الضعف ليدل على أن المشبه كذلك ثم وبخه بقوله: هلا كررت على تلك المرأة في الحرب. لم تفعل ذلك بل كان قلبك يخفق ويضطرب، كأنه في جناحي طائر، وهو من التشبيه البليغ. ويروى: هلا برزت إلى غزالة.

ينظر: جمهرة اللغة ص (٩٢٣)، وعمران بن حطان في الأغاني (١٢٢/١٨).
أنشده الجاحظ، وروي «يرمون» استعارة الرمي لإخراج الكلام من الفم بكثرة على طريق التصريح. ^(١)
ويقال: وحى له، وإليه وحياً، وأوحى له وإليه إيهاء: إذا ألقى إليه الكلام، أو أشار له به، وألهمه إياه. فالوحي مصدر وحى أو اسم مصدر أوحى، واللمحظ: الإشارة بطرف العين يُمَنَّةً أو يُسْرَةً. واللاحظ وصف بحسب الأصل، وهو اسم لطرف العين. ولذلك جمع على لواظ، ونسب الوحي إليها لأنها آلة. ويجوز أنه جمع لاحظة عتق للنسائي أي يتكلمون بالخطب الطوال تارة عند الأمن، ويوحون وحياً بالواظ تارة أخرى، لخوفهم من الرقباء، فلكل مقام عندهم مقال.

أَذَاكَ أَمْ نَمَشَ بِالْوَشْيِ أَكْرَعُهُ مسفع الخد عاد ناسط شبيب ^(٢)

فإن قلت: قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً، وإظهاره الإيمان بالإضاعة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فما ذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق والصواعق؟ قلت: لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حية الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فإن قلت: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات؟ وهلا صرح به كما في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْغُيُوبِ﴾ [غافر: ٥٨]، وفي قول امرئ القيس: [من الطويل]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابساً لَدَى ٢٤/أ وَكَرَّهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي (١)

أذاك أم خاضب بالسبي مرتعه أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب
لذي الرمة يصف ناقته شبهها أولاً بحمار الوحش، ثم قال: أذاك الحمار تشببه ناقتي أم نمش. والنمش بالتحريك -: تفرق اللون. وكحذر: متفرق اللون. والشوى: لون يخالف لون بقية الشيء. والأكرع: جمع كراع وهو الساق والمسمع: الأسود - من السفعة - وهي السواد: والناشط: الخارج من أرض لأخرى. والشيب - كحذر أيضاً - الممن من بقر الوحش. ثم قال أذاك الثور يشبهها، أم خاضب؟ وهو الظليم الذي احمرت ساقاه، أو اصفرتا من أكل الربيع. والسبي: المستوى من الأرض، واسم موضع بعينه. والمرتع: مصدر أو اسم مكان مظروف في أوسع منه. ومنقلب: راجع من المرعى إلى أفراده الثلاثين. فيكون أسرع ما يكون، فهي كذلك سريعة السير. وأكرعه فاعل بالظرف أو فاعل نمش. ومرتعه: فاعله بالظرف، أو مبتدأ والظرف خبر له.
وهو لـ «ذي الرمة» في ديوانه ص ٧٤، ولسان العرب (نشط)، وتهذيب اللغة ٣٨٢/١١، وكتاب العين ٢٢٣/٦، ٢٧١، ومقاييس اللغة ١٧٧/٣، ٤٢٦/٥، وتاج العروس (نشط)، ٢١/٢٠٠ (سفع)، ومجمل اللغة ١٥٢/٣، ٤٠١/٤، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٥٤، وبلا نسبة في لسان العرب (نمش)، وتاج العروس (نمش).

(١) لامرئ القيس يصف العقاب وهي تأكل صغار الطير إلا قلوبها، فلذلك كثرت عندها، ويصف نفسه بالشجاعة، حيث وصل إلى رؤية ذلك فقال: كأن قلوب الطير حال كونها رطياً بعضها ويابساً بعضها، حال كونها عند وكر العقاب - أي عشاها -: العناب، وهو ثمر أحمر رطب، فهو راجع للبيض الرطب. والحشف: الجاف الرديء من الثمر البالي الهالك، فهو راجع للبيض اليابس، فقيه لف ونشر مرتب، وفيه طباق التضاد بين الرطب واليابس. ويجوز أن رطياً ويابساً نصب على البدل من قلوب الطير، أي كأن الرطب واليابس منها: العناب والحشف، وبدل البعض لا يجب فيه ضمير يرجع للمبدل منه، وإن كان الأولى ذلك.

ينظر البيت في ديوانه ص ٣٨، وشرح التصريح ٣٨٢/١، وشرح شواهد المغنى ٣٤٢/١، ٢/٥٩٥، ٨١٩، واللسان (أدب)، والمنصف ١١٧/٢، وأوضح المسالك ٣٢٩/٢، ومغني اللبيب ١/٢١٨، ٣٩٢/٢، ٤٣٩، ودلائل الإعجاز (٦٦)، وروح المعاني ٣٤/١٣، والدر المصون ٩٠/٤.

قلت: كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطوياً ذكره على سنن الاستعارة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمِلُّغُ أَحْمَاقٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرْجَى﴾ [الزمر: ٢٩]، والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يخطونه: أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفردة، لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل والمذهب الجزل، بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى، معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحجة ذلك فتشبهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً، بأخرى مثلها؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوَرَةَ...﴾ [الجمعة: ٥] الآية؛ الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمرّ بدفيه من الكذب والتعبد؛ وكقوله: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْوَرْدَةِ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٥]، المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئاً واحداً، فلا، فذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل؛ وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق، فإن قلت: الذي كنت تقدّره في المفرد من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك: «أو كمثل ذوي صيب» هل تقدّر مثله في المركب منه؟ قلت: لولا طلب الراجع في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَمْثَلَهُمْ فِي مَا دَلَاهُمْ﴾ ما يرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره؛ لأنني أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا عليّ أوليّ حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤] الآية، كيف ولي الماء الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره، ومما هو بين في هذا قول لبيد: [من الطويل]

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمٌ خَلَوْهَا وَعَدُوا بِلَاقِعٍ^(١)

(١) لم يرد تشبيه الناس بالديار ذاتها، وإنما أراد تشبيه حالهم بحال الديار مع أهلها. وقوله: «وأهلها بها» جملة حالية. و«يوم خلوها» نصب بعامل المجرور قبله المحذوف. و«عدوا بلاقع» أي وهي في غد بلاقع، جمع بلقع: أي قفر خالي، والشائع استعمال «الغد» كاليد، فظهرت واه هنا على الأصل. وغير بالغد وممراده به الزمن القريب، كما يقال أفعله بكرة. والمراد بعد أيام قليلة، فالجامع سرعة الفناء والزوال بعد البهجة والنضرة. ولك جعله من تشبيه المفرد بالمفرد بجامع أن الناس =

لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم، بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها، وتركها خلاء خاوية، فإن قلت: أي التمثيلين أبلغ^(١)؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته؛ ولذلك أخر، وهم

= تكون فيها الأرواح. فهي زاهية باهية، ثم تنزع منها فتصير خالية خاوية كالدار تكون عامرة بأهلها فتصبح خراباً. وهذا على رفع أهلها. وأما على جره عطفاً على الديار فينتعين الأول، ويكون «بها» متعلق بمحذوف حال من أهلها. والباء بمعنى «في» على التقديرين.

وهو للبيد في ديوانه ص ١٦٩، وأمالى المرتضى ٤٥٣/١، وشرح المفصل ٤/٦، والشعر والشعراء ٢٨٤/١، ولسان العرب (غدا)، ولذي الرمة في ملحق ديوانه ص ١٨٨٧، وللبيد أو لذي الرمة في تاج العروس (غدا)، وبلا نسبة في خزنة الأدب ٤٧٩/٧، والكتاب ٣٥٨/٣، والمنصف ٦٤/١، ١٤٩/٢.

(١) قوله - تعالى - «أو كصيب من السماء...» الآية فيه تعشيلان على المفرد أو المركب فأَي التمثيلين أبلغ؟

المراد بالتمثيل في كلام فحول العلماء المتقدمين: التشبيه، وهذه قضية لها كلام سيأتي في محله، لكن القصد هنا في أن الكلام في الآية وما قبلها يحتمل تشبيه المفردات ببعضها كل فيما يقابله، ويحتمل تشبيه التركيب بحيث ينظر إلى الهيئة الحاصلة من اجتماع هذه المفردات على الصورة المقصودة التي تؤدي المعنى المراد لدى المتكلم، وخصوصاً إذا كان رب العالمين هو المتكلم فهو العليم الخبير بذات الصدور، لهذا وجب أن نفرق بين المتعدد والمركب في التشبيه، فأقول: الفرق بينهما في أمور أجملها فيما يلي:

١ - المتعدد له أوجه متعددة لا تتداخل، فهي مفردات متوالية، بخلاف المركب فإن وجه الشبه فيه هيئة متزعة من صورتين هما طرفا التشبيه كما بين المفسر العلامة.

٢ - في المتعدد يصح تفريق التشبيه، لأن كل مفرد وضع بجانب الآخر أما المركب ففيه (أ) نوع يصح فيه تفصيل الأجزاء، وتشبيه كل جزء منه بما يقابله في الطرف الآخر كما في قوله - تعالى - «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» فلو قلت في غير القرآن: اليهود كالحمير صح التشبيه، لكن ذلك لا يقصد أبداً في الآية.

(ب) ونوع آخر إذا فرقت أعضاؤه فسد فيه تشبيه مفردة، كما في قول الشاعر [من الكامل]:

وكان أجرام النجوم لواحفاً درر نشرن على بساط أزرق

فهذا من التشبيه الذي يوجد فيه الحسن الملائم للمقام حينما ترى صورته كذلك فإذا فضت ترى مفردات هزيلة لا تحسن في التشبيه، إذ ما معنى تشبيه النجوم بالدرر فقط؟!!

٣ - في المتعدد لا ترى للترتيب مزية بخلاف المركب فإن كل جزئية فيه نراها في مكانها لا تفارقه كموضع العين والأنف والقدم فلا يصح وضع العين مكان الأنف أو القدم وهكذا في المركب، ترى لكل كلمة في مكانها وقعاً لتؤدي أداء في صورة المقصود لا يصلح في مكانها سواها من التركيب أو من غيره.

٤ - فائدة التشبيه المتعدد الاختصار فقط أما المركب فإن ثمرته أن الناظر فيه يكوّن صورة ينتزعها من الأجزاء متواصلة متألّفة كما ترى في الإنسان بصورته المكونة من أعضاء جسمه فإن كل عضو على حده لا مزية فيه، ولكن حسنه يتجلى إذا تواصل مع بقية أعضاء الجسم حوله ولننظر الآية السابقة «مثل الذين حملوا التوراة...» الآية، وانظر قول الشاعر [من الطويل]:

وتنكير صيب؛ لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل، كما نكرت النار في التمثيل الأول، وقرئ: «كصائب»، والصيب أبلغ. والسماء: هذه المظلة، وعن الحسن: أنها موج مكفوف. فإن قلت: قوله: ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ﴾ ما الفائدة في ذكره، والصيب لا يكون إلا من السماء؟ قلت: الفائدة فيه أنه جاء بالسماء معرفة فنفى أن يتصوَّب من سماء، أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق، لأن كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهُ﴾ [فصلت: ١٢]، الدليل عليه قوله: [من الطويل]

وَمِنْ بُغْدِ أَرْضٍ بَيْئَسًا وَسَمَاءٍ^(١)

والمعنى أنه غمام مطبق آخذ بآفاق السماء، كما جاء بصيب، وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتنكير، أمد ذلك بأن جعله مطبقاً، وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ مائه، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَيَزِيلُ بَيْنَ السَّمَاءِ بَيْنَ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ [النور: ٤٣]، فإن قلت: بم ارتفع ظلمات؟ قلت: بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف. والرد: الصوت الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدثها الريح فتصوّت عند ذلك من الارتعاد، والبرق الذي يلعب من السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع، فإن قلت: قد جعل الصيب مكاناً للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر، فأيهما أريد فما ظلماته؟ قلت: أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحماً مطبقاً فظلماته سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل، وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر، وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة

(١) فأوه لذكرها إذا ما ذكرتها ومن بعد أرض بيننا وسماء

«أوه» بالشديد مع فتح الواو وكسرهما مبني على السكون. وروي بضم الهمزة وسكون الواو. وفيه لغة ثالثة بإبدال الواو ألف مبد مبني فيها على الكسر: اسم فعل للتوَجُّع. وما زائدة بعد إذا للدلالة على تعميم الأوقات. يقول: أتوَجَّع من تذكر المحبوبة كلما تذكرتها، ومن بعد ما بيننا من قطعة أرض وقطعة سماء تقابل تلك القطعة فأطلق الأرض والسماء على بعض كل منهما، وذكرهما لإفادة ذلك، لكن المقرر عندهم أن التوَيْن إنما يفيد التبعض في الأفراد لا في الأجزاء، فلا يتم ما تقدم إلا بعد ادعاء أن السماء تطلق على بعض تلك المظلة، والأرض على بعض هذه المقلة؛ ليكون البعض فرداً من الأفراد لا جزءاً من الأجزاء. وذكر السماء دلالة على تناهي البُعد في الأرض، لأنه يظهر فيها قبل ظهوره في السماء. ويجوز أن المراد تشبيه البُعد بينهما بالبُعد بين السماء والأرض. وعليه فالتوَيْن للتحويل والتعظيم.

ينظر: المحتسب ٣٩/١، الخصائص ٨٩/٢، الهمع ١٦/١، الدرر ٣٨/١، معاني القرآن ٢٣/٢، المنصف ١٢٦/٣، الأصول لابن سراج ٣٣٠/٣، ابن يعيش ٣٨/٤، ارتشاف الضرب ٤٧٤/١، اللسان (أو)، النكت والعيون ٥٧/١، المحرر الوجيز ٧١/١، القرطبي ١٠١، الدرر ٧٣/١.

الليل، فإن قلت: كيف يكون المطر مكاناً للبرق والرعد وإنما مكانهما السحاب؟ قلت إذا كانا في أعلاه ومصبه وملتبسين في الجملة فهما فيه، ألا تراك تقول: فلان في البلد، وما هو منه إلا في حيز يشغله/ ٢٥ جرمه، فإن قلت: هلا جمع الرعد والبرق أخذاً بالأبلغ كقول البحري: [من الكامل]

يَا عَارِضاً مُتَلَفِعاً بِبُرُودِهِ يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ وَرُعُودِهِ^(١)
وكما قيل: ظلمات؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد العينان، ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل - يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً - روعي حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع، والثاني: أن يراد الحدثان كأنه قيل: وإرعاد وإبراق؛ وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات، لأن المراد أنواع منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف، وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب، كما قال: ﴿أَوَهُمْ قَاتِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه، ألا ترى إلى حسان كيف عول على بقاء معناه في قوله: [من الكامل]

يُسْقَوْنَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ بَرْدِي يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٢)

(١) يا عارضاً متلفعاً ببروده
إن شئت عدت لأرض نجد عودة
لوجود في ريع بمنعرج اللوى
فحللت بين عقيقه وزروده
قفر تبدل وحشة من غيبه
للبحري يخاطب السحاب لأنه شبهه لتكافئه وتراكمه بإنسان متلفع بشيابه. وإثبات التلّفُع بالبرود والاختيال تخييل وبنى على ذلك إثبات المشية له. وجمع البرق والرعد مع أنهما مصدران للدلالة على الكثرة والتعدد المرات. والعقيق والزرود موضعان بعينهما. والمنعرج - على زنة اسم المفعول - المكان الذي يتعطف فيه السائر يُمنّة ويسرة. واللوى الرمل الملتوي. والأغيد: الناعم الجميل، مؤنثه غيداء، والغيد - كالبيض - جمعه. والجدود: الأمطار.
يلتمس من السحاب المعترض في الأفق أن يمتطر في ريع الأحبة بالمكان المنعطف، ثم وصف الريع بأنها قفر لا نبات فيه، وصار فيه وحشة بالوحوش بدل الأُس بالآحَة.

(٢) لهُ در عصابة نسادتهم
يسقون من ورد البريص عليهم
يوماً بجلق في الزمان الأول
برد يصفق بالرحيق السلسل

لحسان بن ثابت يذكر أيام ملوك الشام الغسانيين. والعصابة: الجماعة على رأي واحد. وجلق - بالتشديد - اسم أعجمي لبلد. «وفي الزمان» متعلق بمحذوف صفة ليوم الواقع ظرفاً للمنادمة. وهي المحادثة على الشراب. والبريص اسم واد. ويروي - بفتحان -: علم لنهر بدمشق وجبل بالحجاز واسم للبحر. ويصفق: أي يمتزج. وقيل «يصفى» ينقله من إناء إلى آخر. ولعله رواه «يصفى» من التصفية. والرحيق: الصافي. والسلسل: السهل المساغ «ومن ورد» مفعول أول، و«عليهم» قيل متعلق بمحذوف حال من الضمير المنوي في ورد. والظاهر أنه متعلق بورد أي أقبل =

حيث ذكر يصفق؛ لأن المعنى: ماء بردى، ولا محل لقوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لكونه مستأنفاً؛ لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول، فكان قائلًا قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَسْنِعَمَ فِي آذَانِهِمْ﴾، ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل: يكاد البرق يخطف أبصارهم، فإن قلت: رؤس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن^(١)؛ فهلا قيل: أناملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها، كقوله: ﴿فَأَغْشَوْا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ، وأيضاً ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، فإن قلت: فالأصبع التي تسد بها الأذن أصبع خاصة^(٢)، فلم ذكر الاسم العام دون الخاص؟ قلت: لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بأداب القرآن، ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنا عنها بالمسبحة والسباحة والمهلفة والدعاء، فإن قلت: فهلا ذكر بعض هذه الكنايات؟ قلت: هي ألفاظ

= ونزل. و «بردى» مفعول ثانٍ. و «يصفق» جملة حالية. والمعنى: أن كل من ورد عليهم البريص يسقونه ماء بردى حال كونه على مامر. ويجوز أن يكون معناه تتلاطم أمواجه فالباء للملابسة. ويحتمل أن فيه قلباً. والأصل يصفق الرحيق السلسل به، ولعل ذلك كناية عن كرمهم لإكثارهم العطاء. وقيل الرحيق السلسل الخمر الصافية السهلة. والمعنى على التشبيه، أي بماء كأنه الخمر. والظاهر بقاءه على حقيقته، ويكون ذلك قبل تحريمها وهو أوقع في مقام المدح. فإن قلت: «بردى» مؤنث، فلم قال «يصفق» بالذكر؟ قلت: هناك مضاف مذكر حذف، فقام المضاف إليه مقامه في الإعراب والتذكير. والأصل: ماء بردى.

ينظر ديوانه ص ١٢٢، وجمهرة اللغة ص ٣١٢، وخزانة الأدب ٤/٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ١١/١٨٨، والدرر ٥/٣٨، وشرح المفصل ٣/٢٥، ولسان العرب (برد)، (برص)، (صفق)، ومعجم ما استعجم ص ٢٤٠، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/٤٥١، وشرح الأشموني ٢/٣٢٤، وشرح المفصل ٦/١٣٣، ولسان العرب ١١/٣٤٥ (سلسل)، وجمع الهوامع ٥١/٢.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت المجعول من الأصابع في الأذان رؤوسها... إلخ» قال أحمد رحمه الله: لأن فيه إشعاراً بأنهم يبالغون في إدخال أصابعهم في آذانهم فوق العادة المعتادة في ذلك فراراً من شدة الصوت.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فالأصبع التي تسد الأذن... إلخ». قال أحمد رحمه الله: لا ورود لهذين السؤالين. أما الأول فلأنه غير لازم أن يسدوا في تلك الحالة بالسبابة ولا بد فإنها حالة حيرة ودهش، فأى أصبع اتفق أن يسدوا بها غير معرجين على ترتيب معتاد في ذلك، فذكر مطلق الأصابع أدل على الدهش والحيرة. أو فلعلهم يؤثرون في هذا الحال سد آذانهم بالوسطى، لأنها أصم للأذن وأحجب للصوت فلم يلزم اقتصارهم على السبابة. وأما السؤال الثاني فمفترع على الأول، وقد ظهر بطلانه؛ وأيضاً ففيه مزيد ركاقة. إذ الغرض تشبيه حال المتأفكين بحال أمثالهم من ذوي الحيرة، فكيف يليق أن يكتفي عن أصابعهم بالمسبحات؟ ولعل السنتهم ما سبحت الله قط. ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعاني في الأذهان تصوير المحسوسات، فذلك خليق بذكر الصرائح واجتناب الكنايات والرموز.

مستحذثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد، وإنما أحدثوها بعد، وقوله: ﴿يَنْزِلُ السَّمَاءَ﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، كقولك: سقاء من العيمة^(١)، والصاعقة: قصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا: تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامه، وهي نار لطيفة حديدة، لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حذتها سريعة الخمود، يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقَتْ نحو النصف ثم طفت، ويقال: صعقت الصاعقة إذا أهلكته، فصعق؛ أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَرَّ مَوْثِقُ صَيْقَلٍ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقرأ الحسن: «من الصواعق»/٢٥ب؛ وليس بقلب للصواعق، لأنّ كلا البناءين سواء في التصرف، وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله، ألا تراك تقول: صعقه على رأسه، وصعق الديك، وخطيب مصقع: مجهر بخطبته، ونظيره: «جذب» في: «جذب» ليس بقلبه لاستوائهما في التصرف، وبنائها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد، أو للرعد، والتاء مبالغة كما في الراوية، أو مصدرأ كالكاذبة والعافية، وقرأ ابن أبي ليلى: «حذار الموت»، وانتصب على أنه مفعول له؛ كقوله: [من الطويل]

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادْخَارَهُ^(٢)

والموت: فساد بنية الحيوان، وقيل: عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة، وإحاطة الله بالكافرين مجاز، والمعنى: أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به

(١) قوله «سقاء من العيمة» هي شهوة اللين، وقيل شدة شهوته. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر. وذو أود قومته فتقوم

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكريماً

لحاتم الطائي. وقيل للأحنف بن قيس. يقول: ورب عوراء، أي كلمة قبيحة، قد أعرضت عن المؤاخاة بها فلم تضرني. ورب ذي أود - أي اعوجاج - كالعصي المعوجة، قومته وعدلته بالمحاربة فتقوم. وقسم الأعراس إلى قسمين: لكل منهما علة مخصوصة فقال: وأغفر عوراء الكريم، أي قبيحته، لأجل ادخاري إياه، فادخاره: مفعول له نصب بأغفر، وإن عرض بالإضافة. وأعرض عن شتمني للرجل اللئيم تكريماً مني كي لا أكون مثله. ويجوز أن المعنى: عن مؤاخاة اللئيم لشمته لي تكريماً مني. فتكرماً: مفعول نصب بأعرض. والقول بأن تكريماً علة لأعرض وأغفر: قول من لم يذق طعم الكلام.

البيت لحاتم الطائي ينظر ديوانه ص ٢٢٤، وخزانة الأدب ١٢٢/٣، ١٢٣، ١٢٤، وشرح أبيات سيبويه ٤٥/١، وشرح شواهد المغني ٩٥٢/٢، الكتاب ٣٦٨/١، وشرح المفصل ٥٤/٢، واللمع ص ١٤١، والمقاصد النحوية ٧٥/٣، ونوادر أبي زيد ص ١١٠، أسرار العربية ص ١٨٧، وخزانة الأدب ١١٥/٣، ولسان العرب (عور) (خصص)، وشرح ابن عقيل ص ٢٩٦، المقتضب ٣٤٨/٢، الكامل (١٦٥) والعين (٧٥/٣) والأشمنوني (١٨٩/٢) وروح المعاني (١٧٤/١) والدر المصون (١٣٨/١) فتح القدير ٢٣٢/١.

حقيقة، وهذه الجملة اعتراض لا محل لها^(١)، والخطف: الأخذ بسرعة، وقرأ مجاهد «يخطف» بكسر الطاء، والفتح أفصح وأعلى، وعن ابن مسعود: «يخطف»، وعن الحسن: «يَخْطُفُ»، بفتح الياء والخاء، وأصله: يخطف، وعنه: «يخطف»، بكسرهما على إتباع الياء الخاء، وعن زيد بن علي: «يخطف»، من خطف، وعن أبي: «يخطف»، من قوله: ﴿وَيَخْطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [المنكيات: ٦٧]، ﴿كَلَمًا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفى وفتّر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لزداد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق^(٢) فأعماهم، وأضاء: إما متعد بمعنى: كلما نَوَّرَ لهم ممشى ومسلكاً أخذوه والمفعول محذوف، وإما غير متعد بمعنى: كلما لمع لهم ﴿مَسْوًى﴾ في مطرح نوره وملقى ضوءه، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: «كلما ضاء لهم»، والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتد فهو سعي، فإذا ازداد فهو عدو، فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة: كلما، ومع الإظلام: إذا؟ قلت: لأنهم حراس على وجود ما مهمهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحيس، وأظلم: يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر، وأن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل^(٣)، وتشهد له قراءة يزيد بن قتيب: «أظلمت»، على ما لم يسم فاعله، وجاء في شعر حبيب بن أوس: [من الطويل]

هُمَا أَظْلَمَا حَالِي ثُمْتُ أَجْلِيَا ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيَبِ^(٤)

(١) قال السمين الحلبي: كأنه يَغْنَى بذلك أن جملة قوله: «يَجْعَلُونَ أصابعهم»، وجملة قوله: «يكاد البرق» شيء واحد؛ لأنهما من قصة واحدة فوق ما بينهما اعتراضاً. انتهى. الدر المنصور.

(٢) قوله «أوفى ضوء البرق» لعله وفي. (ع)

(٣) قوله «منقولاً من ظلم الليل» في الصحاح «ظلم الليل بالكسر وأظلم» بمعنى، عن الفراء. (ع)

(٤) أحاولت إرشادي فعقلي مرشدي أم استمتت تأديبي فدهري مؤدبي

هما أظلمتا حالتي ثمت أجلياً ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

شجى في حلوق الحادثات مشرق به عزمه في الترهات مغرب

لأبي تمام. ويقال لحبيب بن أوس. وحاول الشيء: أراده وحام حول تحصيله. واستام الشيء: قصده وتنتج سماته وتعرفه بها. ويروى: أم اشتقت. وقوله «عن وجه أمرد أشيب» فيه تجريد، أي عن وجه رجل أمرد كناية عن حسن الخلق. أشيب كناية عن جودة الرأي اللازمة لكمال الرجولية. والأول كناية عن العضي في طرق الهزل. والثاني كناية عن العضي في طرق الجد، فلذلك اجتماعاً معاً في زمان واحد. ويحتمل أنه شاب مع أنه أمرد من كثرة حوادث الدهر. والشجى: ما تشب في الحلق لا يصعد ولا ينزل. والمشرق المغرب: الذهاب شرقاً وغرباً. والمراد التعميم: والتره: =

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول/٢٦ العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه، ومعنى ﴿قَاتِلُوا﴾: وقفوا وثبتوا في مكانهم، ومنه: قامت السوق، إذا ركدت، وقام الماء: جمّد، ومفعول ﴿شَاءَ﴾ محذوف، لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، ولقد تكاثر هذا الحذف في «شاء» و«أراد» لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله: [من الطويل]

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ^(١)

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَخَفَّخْنَاهُ مِنْ دُونِ الَّذِي﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْجِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤]، وأراد: ولو شاء الله لذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، وقرأ ابن أبي عيلة: «لأذهب بأسماعهم»، بزيادة الباء كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والشيء: ما صح أن يعلم ويخبر عنه، قال سيبويه - في ساقه الباب المترجم بباب مجاري أواخر الكلم من العربية: وإنما يخرج التأنيث من التذكير، ألا ترى

= فارسي معرّب بمعنى الطريق الصغيرة غير الجادة. والجمع ترهات وتراريه. ثم استعير للباطل وصار اسماً له، والمعنى: إن أردت مرشدي فهو عقلي، أو مؤدبي فدهري. فالاستفهام بمعنى الشرط مجازاً، ويحتمل أنه توبيخي والفاء تعليلية لمحذوف، أي لا ينبغي إرادة إرشادي ولا تأييدي. فإن دهري وعقلي تكلفاً بذلك. وبين ذلك بقوله «هما أظلمتا» واستعمال أظلم متعدياً لغة رديئة. وحالي: مفعول. والإظلام استعارة لتغيص العيش وتكدير خاطر. وأجالياً: أزالا وكشفاً ظلماهما. والظلامان: استعارة للتكدر والتنفّص. وقوله «شجى» بدل من الأمرد، أي كالشجى. وشبهه الحوادث بحيوانات لها حلق على طريق المكنية والحلوق تخييل لذلك. والمعنى أن الحوادث صارت لا تؤثر فيه ومضى به عزمه في جميع طرق الهزل كما مضى به في الجد، وبين مشرق مغرب بلباق التضاد.

ينظر ديوانه (١٥٧/١)، والدر المصون (١٤٢/١).

(١) ملكت دموع العين حين رددتها إلى ناظري والعين كالقلب تدمع ولو شئت أن أبكي دماً لبكيتها عليه ولكن ساحة الصبر أوسع لابن يعقوب إسحاق بن حشّان الخديمي، يرثي أبا الهيثم عامر بن عماد أمير عرب الشام، يقول: غلبت دموع عيني وقدرت عليها حين رددتها إلى مكانها. ويروى «ثم رددتها» والحال أنها تدمع دمعا كالقلب في الحمرة والحرقة. أو تدمع على وجه التبعية للقلب. ويروى «فالعين في القلب» مبالغة في فكره وحزنه المضمر فيه. وذكر مفعول المشبهة مع أنه صار في استعمالهم نسياً منسياً لأنه شيء مستغرب فحسن ذكره. وضمن «أبكي» معنى أدمع، فعاده إلى الدم مع أنه لا يتعدى إلا إلى المبكي عليه. وشبه الصبر بكريم أو بيت له ساحة على سبيل المكنية. والمراد أنه يترك الجزع ويعبدل إلى الصبر فينصف به.

ينظر الكامل (٣/٤)، الدلائل (١١٦) شرح الحماسة (١٠٥٣/٣)، الدر المصون (١٤٣/١).

أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنى؟، والشيء: مذكر، وهو أعم العام، كما أن الله أخص الخاص يجري على الجسم والعرض والقديم، تقول: شيء لا كالأشياء؛ أي معلوم لا كسائر المعلومات، وعلى المعلوم والمحال فإن قلت: كيف قيل: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل^(١) وفعل قادر آخر^(٢)؟ قلت: مشروط في حد القادر ألا يكون الفعل مستحيلاً؛ فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها، فكأنه قيل: على كل شيء مستقيم قدير، ونظيره: فلان أمير على الناس أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس، وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه، فإن قلت: مم اشتقاق القدير؟ قلت: من التقدير؛ لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

لما عَدَّ الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختلفت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند

(١) قال محمود رحمه الله: «وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع. أما على الأصل، فلأن الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنة. وأما على الفرع، فلأننا وإن فرعنا على معتد القدرة - والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم الذي يصح وجوده فلا يتناول المستحيل - إذًا على هذا التفرع ما يراه إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين. وأما المقذور بين قادرين، فإنها رطبة إنما يستاق إليها القدرة الذين يعتقدون أن ما تعلق به قدرة العبد استحالة أن يتعلّق به قدرة الرب، إذ قدرة العبد خالقة فيستغني الفعل بها عن قدرة خالق آخر - تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً - وأما أهل السنة فالقادر المخلّق عندهم واحد، وهو الله الواحد الأحد، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل فيخلقه، وتتعلق به قدرة العبد تتعلّق اقتران لا تأثير؛ فلذلك لم يخلق مقدور بين قادرين على هذا التفسير. وقد حشى الزمخشري في أدرج كلامه هذا سلب القدرة القديمة وجدها، وجعل الله تعالى قادراً بالذات لا بالقدرة، دس ذلك تحت قوله: وفي الأشياء ما لا تعلق به لذات القادر، ولم يقل لقدرة القادر، فليفتن لدفائه. وكم من ضلالة استدسها في هذه المقالة والله الموفق. فإن قيل: أيها الأشعرية، إذا كان الشيء عندكم هو الموجود، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه، والله تعالى يقول وهو أسدق القائلين ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ قلنا: القدرة تتعلّق بمقدورها فتوجد فيكون حينئذ شيئاً؛ فلما كان مآل ما تعلق به القدرة إلى الشيء حتماً، صح إطلاق الشيء عليه، وهو من وادي: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وإذا سموا الشيء باسم ما يؤول إليه غالباً، فما يؤول إليه حتماً أجدر.

(٢) قوله «وفعل قادر آخر» لعله مبني على مذهب المعتزلة أن العبد هو الفاعل لأفعاله الاختيارية. ومذهب أهل السنة أن فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى. (ع)

الله ويرددها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾، وهو فن من الكلام جزل، فيه هز وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إن فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك، نهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيهه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازماً من طبعه ملاً يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة/ ٢٦ب، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف، يستفتح الآذان للاستماع، ويستشهز الأنفس للقبول، وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة: أن كل شيء نزل فيه: (يَأْيُهَا النَّاسُ) فهو مكّي، و(يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فهو مدني (٢٨)، فقله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم): خطاب لمشركي مكة، و«يا» حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله «أي» والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب، تنزيلاً له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً، فإن قلت: فما بال الداعي

٢٨ - هذا الحديث روي مرسلًا ومسنَدًا:-

أما المرسل: - فقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٤٠/٦): كتاب فضائل القرآن: باب ما نزل من القرآن بمكة والمدينة، وأبو عبيد القاسم (٢٠٢/٢) باب منازل القرآن بمكة والمدينة، حديث (٨١٧).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٣/١).

وعزاه إلى ابن عبيد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الضريس وابن المنذر وأبي الشيخ بن حبان في التفسير عن علقمة.

أما المسند: فقد أخرجه الحاكم (١٨/٣) كتاب الهجرة، والبيهقي في دلائل النبوة (١٤٤/٧) جماع أبواب نزول الوحي: باب ذكر السور التي نزلت بمكة، والتي نزلت بالمدينة.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٣/١)، وعزاه إلى البزار والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه ابن أبي شيبة قال: حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم بهذا. وأخرجه البزار من رواية الأقيس ابن الربيع عن الأعمش موصولاً بذكر عبد الله بن مسعود فيه. وقال: لا نعلم أحداً أسنده إلا قيس، واعترض بما رواه الحاكم والبيهقي في الدلائل عنه. وابن مردويه في تفسير الحج. كلهم من طريق وكيع أيضاً قال: حدثنا أبي عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله... (فائدة): هذا محمول على أن المراد بالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة؛ لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخطبوا ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ﴾. وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخطبوا: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. أفاده الشيخ بهاء الدين بن عقيل. انتهى.

يقول في جواره: يا رب^(١)، ويا الله، وهو أقرب إليه من جبل الوريد، وأسمع به وأبصر؟ قلت: هو استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقرّبين، هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله، و«أي» وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن «ذو» والذّي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجميل. وهو اسم مبهم مقتدر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو «أي» والاسم التابع له صفته، كقولك: يا زيد الظريف؛ إلا أن «أيًا» لا يستقل بنفسه استقلال: «زيد» فلم ينفك من الصفة، وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أي من الإضافة، فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة: لأن كل ما نادى الله له عباده - من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ووعدته ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه - أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان - عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقترضت الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ، فإن قلت: لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجّهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، أو إلى كفار مكة خاصة، على ما روى عن علقمة والحسن، فالمؤمنون عابدون ربهم، فكيف أمروا بما هم ملتبسون به؟ وهل هو إلا كقول القائل: [من الخفيف]

قَلَوُا أَنِّي فَعَلْتُ كُنْتُ كَمَنْ تَسْأَلُهُ وَهُوَ قَائِمٌ أَنْ يَقُومَا^(٢)

وأما الكفار فلا يعرفون الله، ولا يقرّون/٢٧ أ به فكيف يعبدونه؟ قلت: المراد بعبادة

(١) قوله «يقول في جواره: يا رب» في الصحاح: جَارَ الثور يجار، أي صاح. وجَارَ الرجل إلى الله عز وجل: أي تضرع. (ع)

(٢) نِعْمَةُ اللَّهِ فَيْك لَا تَسْأَلُ اللَّهَ - إِلَيْهَا تُعْمِي سِوَى أَنْ تَدُومَا
فَلَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كُنْتُ كَمَنْ تَسْأَلُ اللَّهَ - إِلَيْهَا تُعْمِي سِوَى أَنْ تَدُومَا
أَلَهُ وَهُوَ قَائِمٌ أَنْ يَقُومَا

النِّعْمَةُ بالكسر، والتَّعْمِي بالضم، وكذلك التَّعْمَاءُ بالفتح بمعنى واحد. يقول: نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا فَيْك كَافِيَةٌ لَا نَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً أُخْرَى مَنْصُومَةً إِلَيْهَا، سِوَى أَنْ تَدُومَ هِيَ أَوْ أَنْتَ أَوْ أَنْتَمَا. فَلَوْ أَنِّي - بالنقل للوزن - فَعَلْتُ، أَي سَأَلْتُ اللَّهَ غَيْرَهَا كَانَتْ حَالِي مَعَ اللَّهِ كَحَالِكَ مَعَ مَنْ تَسْأَلُ الْقِيَامَ وَهُوَ قَائِمٌ، فَهُوَ تَشْبِيهُ مَرْكَبٍ، وَإِلَّا فَهُوَ سَائِلٌ وَمَنْ تَسْأَلُهُ مَسْتَوِلٌ. يَعْنِي أَنَّ السَّوْأَلَ يَكُونُ تَحْصِيلاً لِلْحَاصِلِ، لِأَنَّهُ لَا نِعْمَةَ سِوَاهَا أَعْظَمَ مِنْهَا فِي ظَنِّهِ. وَفِيهِ مِبَالِغَةٌ فِي تَعْظِيمِهَا.

المؤمنين: ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها، وأما عبادة الكفار، فمشرط فيها ما لا بد لها منه وهو الإقرار، كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهما، وما لا بد للفعل منه، فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر، حيث لم يتفعل إلا به، وكان من لوازمه، على أن مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به ﴿وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فإن قلت: فقد جعلت قوله: ﴿اعْبُدُوا﴾ متناولاً شيئين معاً: الأمر بالعبادة، والأمر بازديادها، قلت: الازدياد من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر، فإن قلت: ﴿رَبِّكُمْ﴾ ما المراد به؟ قلت: كان المشركون معتقدين ربوبيتين: ربوبية الله، وربوبية آلهتهم، فإن خصوا بالخطاب، فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والأرض، والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً، وكان قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة، وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به: «ربكم» على الحقيقة، والذي خلقكم: صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم، ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة، إلا أن الأول أوضح وأصح، والخلق: إيجاد الشيء على تقدير واستواء، يقال: خلق النعل، إذا قدرها وسواها بالمقياس، وقرأ أبو عمرو: «خَلَقَكُمْ» بالإدغام، وقرأ ابن السميع: وخلق من قبلكم، وفي قراءة زيد بن علي: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلَكُمْ﴾ وهي قراءة مشككة، ووجهها على إشكالها أن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً؛ كما أقحم جرير في قوله: [من البسيط]

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِي لَا أَبَاكُمْ (١)

(١) يا تيم تيم عدي لا أبالكُم لا يلقينكم في سوءة عمر
تعرضت تيم لي جهلاً لأهجوها كما تعرض الاست الخارئ الحجر

لجرير، تعرض له عمر بن لجأ، ويقال بن لجام التيمي بالهجو فخطب قبيلته بذلك. وحذف المضاف إليه مع بقاء المضاف على حالة الإضافة مضطرب، إن اقترن بذكر مثله ليدل عليه؛ وإلا فهو سماعي. ومثل هذا التركيب يجوز فيه ضم الأول فهو مفرد والثاني مضاف لما بعده، وفتح على أنه مضاف للمذكور، أو لمحذوف مماثل له، أو على أنهما مركبان اسماً واحداً مضافاً لما بعدهما؛ فتيم الأول هنا مضاف لعدي، والثاني مقحم بينهما مضاف لعدي محذوفاً عند سيبويه أو مضاف للمذكور، والأول مضاف لمحذوف مثل المذكور عند المبرد وتبعه ابن مالك. أو هما معاً مركبان كخمس عشرة، مضافان لعدي عند الفراء وتبعه الأعلام. ولو كان الثاني بدلاً أو بياناً أو توكيداً والأول مفرداً، لضم الأول وهم غير تيم قريش. وقولهم «لا أباله» دعاء بعدم الأب. وقيل محتمل للذم، أن لا أباً له رشيداً، بل هو ابن زنا. ويحتمل المدح، أي ليس محتاجاً إلى الأب بل مفاخره ذاتية، لكن ما هنا من الأول. و«لكم» خبر «لا» عند ابن الحاجب. وخبرها محذوف عند غيره ولكم متعلق بمحذوف صفة. أو اللام زائدة والضمير مضاف إليه. وأما على الأول مبني على فتح مقدر وحذف تنوينه للبناء. وعلى الثاني منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه لشبه الإضافة. وعلى الثالث منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه للإضافة. وهذا كله على لغة قصره كفتى. وأما نصبه =

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في: لا أبالك^(١). ولعل للترجي أو الإشفاق، تقول: لعل زيدا يكرمني، ولعله يهينني، وقال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَحْتَفَتُونَ﴾ [طه: ٤٤]، ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ يَتَّبِعُونَ﴾ [الشورى: ١٨]، وقد جاءت على سبيل الإطعام في مواضع من القرآن، ولكن لأنه إطعام من كريم رحيم، إذا أطعم فعل ما يطعم فيه لا محالة، لجري إطعامه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به. قال من قال: إن «لعل» بمعنى: «كي»، و«لعل»: لا تكون بمعنى: «كي»؟! ولكن الحقيقة ما ألفت إليك، وأيضاً فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا: عسى، ولعل، ونحوهما من الكلمات أو يخلوا إخاله، أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة، فإذا عثر على شيء من ذلك منهم، لم يبق للمطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب، فعلى مثله ورد كلام مالك/٢٧ ب الملوك ذي العز والكبرياء، أو يجيء على طريق الإطعام دون التحقيق؛ لئلا يتكل العباد؛ كقوله: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوْبُوا إِلَى اللَّهِ

= بالآلف على لغة إعرابه بالحروف فلا يظهر إلا في الثالث، وفيه أن المضاف معرفة و «لا» لا تعمل إلا في التكرات، إلا أن يقال زيادة اللام صيرته في صورة التكرة فعملت فيه. و «لا يلقينكم» نهي عن الإلقاء في المكروه. وروي بالفاء بدل القاف، من ألفى إذا وجد لكن روي «لا يوقمنكم» وهو يؤيد الأول. والمراد النهي عن إقرار عمر على هجوه الموقع لهم في السوءة وهي هجو جرير لهم. واللام في لأهجوها لام العاقبة. وقد شبه نفسه - بل فمه - باست الخارية، أي دبره. ومهد لذلك التشبيه فيما تقدم بالتعبير بالسوءة. ولقد هجا نفسه من حيث لم يشعر. والاسْت: من الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون فزادوها همزة الوصل.

ينظر: ديوانه ص ٢١٢، والأزهيّة ص ٢٣٨، والأغاني ٣٤٩/٢١، وخزانة الأدب ٢٩٨/٢، ٣٠١، ٩٩/٤، ١٠٧، والخصائص ٣٤٥/١، والدرر ٢٩/٦، وشرح أبيات سيبويه ١٤٢/١، وشرح شواهد المغني ٨٥٥/٢، وشرح المفصل ١٠/٢، والكتاب ٥٣/١، ٢٠٥/٢، واللامات ص ١٠١، ولسان العرب (أبي)، والمقاصد النحوية ٢٤٠/٤، والمقتضب ٢٢٩/٤، ونوادير أبي زيد ص ١٣٩، وبلا نسبة في الأشياء والنظائر ٢٠٤/٤، وأمالى ابن الحاجب ٧٢٥/٢، وجواهر الأدب ص ١٩٩، ٤٢١، وخزانة الأدب ٣١٧/٨، ١٩١/١٠، ووصف المباني ص ٢٤٥، وشرح الأشموني ٢/ ٤٥٤، وشرح ابن عقيل ص ٥٢٢، وشرح المفصل ١٠٥/٢، ٢١/٣، ومغني اللبيب ٤٥٧/٢، وجمع الهوامع ١٢٢/٢.

(١) قال السمين الحلبي: إلا أن بعضهم يزّد هذا القول ويجعله فاسداً؛ من جهة أنه لا يؤكّد الحرف إلا بإعادة ما اتصل به، فالموصول أولى بذلك، وخرج الآية والبيت على أن «من قبلكم» صلة للموصول الثاني، والموصول الثاني وصلته خبر لمبتدأ محذوف، والمبتدأ وخبره صلة الأول، والتقدير: والذين هم من قبلكم.

تَوْبَةً نَّصُومًا عَنِّي رِزْقَكُمْ أَن يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَخَائِكُمْ ﴿[التحریم: ۸]﴾، فإن قلت: فلهلّ التي في الآية ما معناها، وما موقعها؟ قلت: ليست مما ذكرناه في شيء، لأن قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم؛ لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً، ولكن «لهلّ»: واقعة في الآية موقع المجاز^(١) لا الحقيقة، لأن الله - عز وجل - خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى^(٢)، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليرجع أمرهم - وهم مختارون بين الطاعة والعصيان - كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وألا يفعل، ومصادقه قوله عز وجل: ﴿يَتْلُوكُمْ أَتَىٰ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٠]، وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار، فإن قلت: كما خلق المخاطبين لعلمهم يتقون، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلم قصره عليهم دون من قبلهم؟ قلت: لم يقصره عليهم، ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعاً، فإن قلت: فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا^(٣)؟ أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم؟ قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة، وأشدّ إلزاماً لها، وأثبت لها في النفوس، ونحوه أن تقول لعبدك: احمل خريطة الكتب، فما ملكتك يعني إلا لجز الأنفال، ولو قلت: لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع.

(١) قال محمود رحمه الله: «لهل واقعة في الآية موقع المجاز... إلخ». قال أحمد رحمه الله: كلام سديد إلا قوله: وأراد منهم التقوى والخير؛ فإنه كلام أبرزه على قاعدة القدرية. والصحيح والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين. والطلب والأمر عند أهل السنة مابين للإرادة، ألهمنا الله صواب القول وسداده.

(٢) قوله «وأراد منهم الخير والتقوى» مبني على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد إلا الخير وإن وقع خلافه. ومذهب أهل السنة أنه يريد الخير والشر، وكل ما أراه يقع، لإجماع السلف على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت فهلا قيل تعبدون... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: كلام حسن إلا قوله خلقتكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة؛ فإنه مفرع على تلك النزعة المتقدمة آنفاً. والعبادة المحررة في ذلك على قاعدة السنة أن يقال: اعبدوا ربكم الذي خلقكم على حالة من حَقِّكم معها أن تستولوا على أقصى غاية العبادة وهي التقوى لما ركب فيكم من العقول، وبينه لكم من البواعث على تقواه، فكان جديراً بكم أن لا تدعوا من جهدكم في التقوى شيئاً.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قدّم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولاً؛ لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بدّ لهم منه، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطبّية على هذا القرار، ثم ما سواه عزّ وجل من شبه عقد النكاح بين المظلة وإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها - أشباه النسل المنتج من الحيوان - من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم، ليكون لهم ذلك معتبراً، ومتسلاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد/ ١٢٨ والاعتراف؛ ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها، فيتيقنوا عند ذلك أن لا بدّ لها من خالق ليس كمثلهما، حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر، والموصول مع صلته إمّا أن يكون في محل النصب وصفاً كالذي خلقكم، أو على المدح والتعظيم، وإمّا أن يكون رفعاً على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح، وقرأ يزيد الشامي: «بساطاً»، وقرأ طلحة: «مهاداً»، ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للناس: أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده، فإن قلت: هل فيه دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكروية؟ قلت: ليس فيه إلا أن الناس يفتروشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح، أو شكل الكرة، فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع، لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها، وإذا كان متسهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض، فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل، والبناء مصدر سمي به المبنى - بيتاً كان أو قبة أو خباء أو طرافاً - وأبنية العرب: أخبيتهم، ومنه بنى على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديداً، فإن قلت: ما معنى إخراج الثمرات بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيته؟ قلت: المعنى أنه جعل الماء سبباً في خروجها ومادة لها، كماء الفحل في خلق الولد، وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة حكماً ودواعي يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبداً وأفكاراً صالحة، وزيادة طمأنينة، وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته، ليس ذلك في إنشائها بغتة من غير تدرّج وترتيب، و«من» في: ﴿مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ للتبعض بشهادة قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله:

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٢٧]، ولأن المنكرين أعني: ماء، ورزقاً. يكتنفانه، وقد قصد بتذكيرهما معنى البعضية فكأنه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء، فأخرجنا به بعض الثمرات، ليكون بعض رزقكم، وهذا هو المطابق لصحة المعنى، لأنه لم ينزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات، ولا جعل الرزق كله في الثمرات، ويجوز أن تكون للبيان^(١)، كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً، فإن قلت: فيم انتصب / ﴿رِزْقًا﴾؟ قلت: إن كانت «من» للتبعض، كان انتصابه بأنه مفعول له، وإن كانت مبنية، كان مفعولاً لأخرج، فإن قلت: فالثمر المخرج بماء السماء كثير جَمَ فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك: فلان أدركت ثمرة بستانه، تريد ثماره، ونظيره قولهم: كلمة الحويدرة؛ لقصيدته، وقولهم للقرية: المدرة؛ وإنما هي مدر متلاحق، والثاني: أن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض، لالتقائها في الجمعية، كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ تَرَكُوا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الدخان: ٢٥] و﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ويعضد الوجه الأول قراءة محمد بن السميع: من الثمرة، على التوحيد، و﴿لَكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم، فإن قلت: بم تعلق: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾؟ قلت: فيه ثلاثة أوجه: أن يتعلق بالأمر، أي اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له: ﴿أَنذَادًا﴾؛ لأن أصل العبادة وأساسها التوحيد، وألا يجعل لله نداً ولا شريكاً، أو بلعل، على أن ينتصب تجعلوا انتصاب، «فأطلع» في قوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ أَتَىٰكَ الْأَشْجَبُ الْأَشَبُّ أَشْبَبَ السَّمَكِ فَأُطْلِعَ إِلَيْكَ إِلَهُ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧] في رواية حفص عن عاصم، أي خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه، أو بالذي جعل لكم، إذا رفعته على الابتداء، أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء، والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوىء، قال جرير: [من الوافر]

أَتَيْمًا يَجْعَلُونَ إِلَهِي نَدًا وَمَا تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدًا^(٢)

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ إذ لم يتقدم ما يبين هذا، وكأنه يعني أنه بيان لـ «رزقاً» من حيث المعنى، و «رزقاً» ظاهر أنه مفعول به، ناصبه «أخرج». ويجوز أن يكون «من الثمرات» في موضع المفعول به، والتقدير: فأخرج ببعض الماء بعض الثمرات. انتهى. الدر المصون.

(٢) الاستفهام إنكاري. وتيم: اسم رجل واسم قبيلة، وهو مفعول مقدم. و «إلى» متعلق بتجعلون على طريق التضمين، أي تنسبونه إلى أو إلى بمعنى لي. ويجوز تعلقه بنداً وهو مفعول ثانٍ. والواو للحال أي والحال أن تيماً ليس نداً لصاحب حسب ومآثر، فكيف يكون نداً لي. ويروى: أتيتم تجعلون، فهو مبتدأ والمعنى ما تقدم وقيل إلى متعلق بمحذوف حال من تيماً أو من نداً. والند: الكفء وال ضد.

ينظر البيت في ديوانه (١٦٤)، مجالس العلماء (١١٤)، والدر المصون (١/ ١٥٠).

وناددت الرجل: خالفته ونافرته، من نَدَّ ندوداً إذا نفر، ومعنى قولهم: ليس لله نَدٌّ ولا ضدٌّ نفى ما يسدُّ مسدّه، ونفى ما ينافيه، فإن قلت: كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه، قلت: لما تقربوا إليها وعظموها وسموها آلهة، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله، قادرة على مخالفته ومضادته، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم، كما تهكم بهم بلفظ النَدِّ، شنع عليهم واستفزع شأنهم بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له نَدٌّ قط، وفي ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه: [من الوافر]

أَرِيْباً وَاحِداً أَمْ أَلْفَ رَبٍّ أَوْيْنُ إِذَا تَقَسَّمتِ الأمورُ؟^(١)

وقرأ محمد بن السميعف: فلا تجعلوا لله ندا، فإن قلت: ما معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قلت: معناه: وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير، والدهاء والفطنة، بمنزلة ٢٩ لا تدفعون عنه، وهكذا كانت العرب، خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة، لا يصطلي بنارهم^(٢) في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها، ومفعول: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتوبيخ فيه أكد، أي أنتم العزافون المميزون، ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل، ويجوز أن يقدر: وأنتم تعلمون أنه لا يمانل، أو: وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو: وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله، كقوله: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَوَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(١) أريباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسّمت الأمور كذلك يفعل الرجل البصير تركت اللات والعزى جميعاً

لعمرو بن زيد بن نفيل بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن ربيعة. والهزمة للاستفهام. وفيه ضرب من التعجب وإظهار الخطأ في عبادة الأرباب وتشنيع على عبادهم. «ورباً» مفعول. أدين: أي أطيع. والمراد بالآلف الكثرة، لا خصوص ذلك العدد. إذا تقسّمت الأمور: أي إذا اتخذت كل طائفة ديناً من الأديان. وقوله: اللات والعزى: أي وغيرهما من الأصنام؛ لأنه لا فرق بينهما. والبصير: المتبصر في الأمر.

(٢) قوله: «لا يصطلي بنارهم» لعله يصطلي بدون «لا» أو لعله: لا يصطلي إلا بنارهم، بزيادة «إلا» فليحرر. ويمكن أن يراد اختصاصهم بكمال المعرفة، وأن غيرهم لا يصل إلى شيء مما لديهم من ذلك. (ع)

لما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويحققها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أنَّ من أشرك فقد كابر عقله، وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه. عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي، أم هو من عند نفسه كما يدعون، بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويدققوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته، فإن قلت: لم قيل: ﴿مَّا زَكَّاكَ﴾ على لفظ «التنزيل» دون «الإنزال»؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم^(١)، وهو من مجازة لمكان التحدي، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات غب آيات، على حسب النوازل وكفاء الحوادث^(٢)، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً، وشيثاً فشيثاً حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزل الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة: قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفتريات، وهذه غاية التبكيت، ومنتهى إزاحة العلل، وقرئ: «على عبادنا» يريد رسول الله ﷺ وأمته، والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وواوها إن كانت أصلاً، فيما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها؛ لأنها طائفة من القرآن محدودة محوذة على حيالها، كالبلد المسور؛

(١) قال السمين الحلبي: قال بعضهم: «وهذا الذي ذُهب إليه في تضعيف الكلمة هنا، هو الذي يُعبر عنه بالتكثير، أي يُفعل ذلك مرة بعد مرة، فيُبدل على ذلك بالتضعيف، ويُعبر عنه بالكثرة». قال: «وَقَدْ عَلَّ عن قاعدة؛ وهي أن التضعيف الدال على ذلك من شرطه أن يكون في الأفعال المتعدية قبل التضعيف غالباً نحو: جُرُحْتُ زَيْداً وَفُتِحَتِ الْبَابُ، ولا يُقال: جُلُسْتُ زَيْداً، ونَزَلَ لم يكن متعدياً قبل التضعيف، وإنما جَعَلَهُ متعدياً تضعيفه. وقوله «غالباً» لأنه قد جاء التضعيف دالاً على الكثرة في اللازم قليلاً نحو: «مُوتَ الْمَالُ» وأيضاً فالتضعيف الدال على الكثرة لا يَجْعَلُ القاصرَ متعدياً كما تقدم في مُوتَ الْمَالِ، ونَزَلَ كان قاصراً فصار بالتضعيف متعدياً، فدل على أن تضعيفه للنقل لا للتكثير، وأيضاً كان يحتاج قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ إلى تأويل، وأيضاً فقد جاء التضعيف حيث لا يمكن فيه التكثير نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ﴿لَزَكَّاكَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْتُمْ مَلَكًا رَسُولًا﴾ إلا بتأويل بعيد جداً، إذ ليس المعنى على أنهم اقترحوا تكرير نزول آية، ولا أنه عَلَّقَ تكرير نزول مَلَكٍ رسولٍ على تقدير كون ملائكة في الأرض. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وكفاء الحوادث» أي مقابلها ومساويها. أفاده الصحاح. (ع)

أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد/٢٩ب، كاحتواء سورة المدينة على ما فيها، وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة، قال النابغة: [من الكامل]
وَلِرَهْطِ حَرَابٍ وَقَدْ سُورَةٌ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمُطَارٍ^(١)
لأحد معينين؛ لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، وهي - أيضاً - في أنفسها مترتبة: طوال، وأوساط، وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين، وإن جعلت وأوها متقلبة عن همزة؛ فلأنها قطعة وطائفة من القرآن، كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه، فإن قلت: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ قلت: ليست الفائدة في ذلك واحدة، ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزيور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور، وبوّب المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم، ومن فوائده: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبّل وأفخم^(٢) من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلاً، أو طوى فرسخاً، أو انتهى إلى رأس بريد - نفس ذلك منه ونشطه للسير، ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً، وأجزاء، وعشوراً، وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة^(٣)، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فيعظم

(١) ولرهط حراب وقد سورة في المجد ليس غرابها بمطار
قوم إذا كثر الصباح رأيتهم وقرا غداة الروح والإنفار
للنابغة الذبياني. والسورة - بالضم -: الرتبة، يقول: ولقوم حراب بن زهير وقد بن مالك درجة في الشرف دائمة العز. وحراب بالراء. وروي بالزاي. وقد بالمهمل. وروي بالمعجمة. وقد وقد: أخوان. وليس غرابها بمطار استعارة تمثيلية لدوام العز لهم؛ أو كناية عنه، لأن أصله: أنه إذا كثر الشجر والنبات، يقيم فيه الغراب ولا يطيره شيء لحب الخصب وعدم الجذب. والأوجه أن السورة أصلها المرتبة الحسية، فاستعيرت للمعنوية، ثم جرت فيها المكينة حيث شئت بمكان الخصب، وإثبات الغراب والإطارة تخيل لذلك التشبيه. ثم قال: هم قوم إذا كثر الصباح في الحرب رأيتهم وقرا أي صما. فهو من الوقر أي ثقل الأذن، بمعنى أن كثرة الصباح لا تزعجهم كأنهم صم وقيل من الوقار والسكينة. وغداة الروح والإنفار: صبيحة الخوف والإفزع. وقيل: أصله أن الغراب يقع على رأس البعير يتلفظ منها الهوام، فلا يحرك رأسه لئلا ينفر الغراب فنبه مرتبتهم برأس البعير على طريق المكينة. وقيل لارتفاعها لا يصلها الغراب حتى يطار من فوقها. فالمعنى لا غراب فوقها فيطار.

ينظر ديوانه ص ٥٥، ولسان العرب (قدد)، (سور)، (طير)، وأساس البلاغة (غرب)؛ وتاج العروس (قدد)، (سور) (طير).

(٢) قوله «وأنبل وأفخم» أي أفضل وأعظم. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «إذا حذق السورة» حذق الشيء، أي مهر فيه. أفاده الصحاح. (ع)

عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغيب به،، ومنه حديث أنس - رضي الله عنه -: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، جَدُّ فِينَا» (٢٩) ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل، ومنها أَنَّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع. ﴿تَنْ مِثْلِهِ﴾ متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا^(١)، أو لعبدنا، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿قَاتُوا﴾، والضمير للعبد، فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قلت: معناه قاتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو قاتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك؛ ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج وقد قال له: لأحملنك على الأدهم: مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب، أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد، ولم يقصد أحداً يجعله مثلاً للحجاج، ورّد الضمير إلى المنزل أوجه؛ لقوله تعالى: ﴿قَاتُوا بِسُورَةٍ / ٣٠ تَنْ مِثْلِهِ﴾، ﴿قَاتُوا بِمِثْرِ سُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ﴿هود: ١١﴾، ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولأن

٢٩ - أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣/٧): كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، حديث برقم (٣٦١٧)، ومسلم (١٣٨/٩): كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث (٢٧٨١)، وأحمد في المسند (١٢٠/٣، ١٢١ - ٢٤٥)، وأخرجه عبد بن حميد في مسنده (ص ٤٠٠)، حديث برقم (١٣٥٤).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

هذا طرف من حديث أخرجه أحمد وابن أبي شيبه قال: حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس - رضي الله عنه -: أن رجلاً كان يكتب للنبي - ﷺ -، وقد قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا - أي: عظم... الحديث. وأخرجه ابن حبان من هذا الوجه بلفظ: «جدّ فينا ذو شأن» وقد ذكره الجوهري في الصحاح من حديث أنس - رضي الله عنه - بلفظ المصنف. وأصله عند البخاري من رواية عبد العزيز بن صهيب. وعند مسلم في رواية ثابت، كلاهما عن أنس دون القدر الذي اقتصر عليه المصنف. ولم يصب الطبقي في عزوه له إلى الصحيحين. وعزاه الزمخشري في تفسير الجن إلى رواية عمر - رضي الله عنه - أيضاً كما سيأتي. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «الضمير يحتمل عوده لما نزلناه... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ومعنى هذا الترجيح أن المتحدثي عليهم في التفسير الأوجه جملة المخاطبين، أي أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضاً، عجزوا عن الإتيان بطلاقة منه. وأما على التفسير المرجوح، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم يكون معارضاً للمتحدثي بأنه يأتي بمثل ما أوتي به أو ببعضه. ولا شك أن عجز الخلاق أجمعين أبهى من عجز واحد منهم. ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿١٨﴾.

القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب، والكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط به، فحقه ألا يفك عنه برد الضمير إلى غيره، ألا ترى أن المعنى: وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله، فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أن محمداً مُنزل عليه فهاتوا قرآناً من مثله؛ ولأنهم إذا خاطبوا جميعاً - وهم الجم الغفير - بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم، كان أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأتي واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأنّ هذا التفسير هو الملائم لقوله: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ والشهداء جمع شهود بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة، ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى من مكان من الشيء، ومنه الشيء الدون، وهو الدنيّ الحقيق، ودون الكتب، إذا جمعها، لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها، يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحط منه قليلاً، ودونك هذا: أصله خذه من دونك، أي من أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب، فقليل زيد دون عمرو في الشرف والعلم، ومنه قَوْلُ مَنْ قَالَ لِعَدُوِّهِ وَقَدْ رَآهُ بِالْثَنَاءِ عَلَيْهِ: أَنَا دُونَ هَذَا وَقَوْفُ مَا فِي نَفْسِكَ، (٣٠) واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حدّ إلى حدّ وتخطى حكم إلى حكم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي: لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، وقال أمية: [من البسيط]

يَا نَفْسُ مَا لَكَ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (١)

٣٠ - عزاء الزيلعي في تخريج الكشاف إلى البزار في مسنده (٥٢/١).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه البزار من رواية علي بن أبي ربيعة قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فجعل يثني عليه. وكان يبلغه عنه خلاف ذلك، فقال: أنا دون هذا الذي تقوله، ولكن فوق ما في نفسك. ١. هـ.

(١) يا نفس مالك دون الله من واق ولا لتسبح بنات الدهر من راق
لامية بن أبي الصلت يقول: يا نفس ليس لك حافظ دون الله، أي متجاوز الله، أو متجاوزة الله، فهو حال من الواقى أو من النفس. واستعار البنات للحوادث بجامع ملازمة كل لمنشئه على طريق التصريحية، ثم شبه الحوادث بالأفاعي بإذها كل لغيره على طريق المكنية ولسعها تخيل. ويجوز أنه استعار اللسع للإصابة على طريق التصريحية. والراقي طبيب اللسع. ومن زائدة في الموضعين لتوكيد الاستغراق: أي لا حافظ لك إلا الله، ولا جابر لك إلا هو.

أي إذا تجاوزت وقاية الله ولم تنالها لم يقك غيره، و﴿يَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بادعوا أو بشهداءكم، فإن علقتة بشهداءكم فمعناه: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى: [من الطويل]

تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونُهُ (١)

أي تريك القذى قدامها وهي قدام القذى، لرقنتها وصفائها، وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته: غاية التهكم بهم، ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ يَنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي من دون أوليائه ومن غير المؤمنين، ليشهدوا لكم أنكم أنتم بمثله، وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأن شهداءهم وهم مدارة القوم^(٢)، الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقالة والمناقلة، تأبى عليهم الطباع وتجمع بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساد واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته، وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز، وإن علقتة بالدعاء فمعناه: ادعوا من دون الله شهداءكم، يعني لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا: الله يشهد أن ما ندعيه حق، كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهداتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام، وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخاذهم، وأن الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثاً غير قولهم: الله يشهد أنا صادقون، وقولهم هذا:

(١) وساق إذا شفتنا كميث بمعشر وصهباء زياد إذا ما تفرق
تريك القذى من دونها وهي دونه إذا ذاقها من ذاقها يتمطّق

للأعشى في مدح المحلق عبد الرحيم بن خيثم بن شداد. والكميش: السريع. وماضي العزم: أي سريع في سقي الناس ولو كثروا. والزياد - كرمان -: رغبة اللبن ونحوه. والترقوق: التشرش والانصباب. وترقوق: أصله ترقوق، فحذف منه إحدى التاءين، أي تتحرك. تريك: أي الصهباء وهي الخمر، لأن فيها لون الصبغة. والقذى ما يتساقط في الشراب والعين. دونها: أي قدمها حائلاً بينها وبينك، والحال أنها دونه أي قدمه حائلة بينه وبينك إذا ذاقها: أي الخمر، من ذاقها: من أراد ذوقها، يتمطق: أي يصوت بفتح فمه ومص لسانه وشفته، أو يطبق فمه ويفتحه تلذذاً بها فيصوت. وقيل إن ضمير «تريك» عائد للزجاجة يصفها بالصفاء، فلعله أطلق الصهباء عليه لتلونها بلون الخمرة. وضمير «ذاقها» عائد لها بمعنى الخمرة، فيكون في الكلام استخدام. وروي «وهي فوقه» بدل «دونه» وفيه نوع تأييد لعود الضمير على الخمرة.

ينظر ديوانه ص ٢٦٩، تهذيب اللغة (١٦/٩، ١٨٠/٤)، أساس البلاغة (مطلق)، تاج العروس (مطلق)، وبلا نسبة في لسان العرب (مطلق)، (دون)، جمهرة اللغة ص (٩٢٤)، تاج العروس (دون).

(٢) قوله «مدارة القوم» المدارة جلد يدار ويخرز على هيئة الدلو، لكنها تكون واسعة الجوف قصيرة الجوانب لتغمس في الماء وإن كان قليلاً فتمتلئ منه. أفاده الصحاح فهي هنا مجاز. (ع)

تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة، وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال: قرشي والحمد لله، فقيل له: قولك: «الحمد لله» في هذا المقام ريبة، أو ادعوا من دون الله شهداءكم: يعني أَنَّ الله شاهدكم، لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد، وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم، والجن والإنس شاهدوكم، فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى، لأنه القادر وحده على أن يأتي بمثله دون كل شاهد من شهدائكم؛ فهو في معنى قوله: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ...﴾ [الإسراء: ٨٨] الآية.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ آلَئِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَلِجَارَةِ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون أمر النبي ﷺ وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسره وامتياز حقه من باطله، - قال لهم: فإذا لم تعارضوه، ولم يتسهل لكم ما تبغون، وبأن لكم أنه معجوز عنه، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق، فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب، وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدي به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله، فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب، فهلا جيء به «إذا» الذي للوجوب دون: «إن» الذي للشك، قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل، كالمشكوك فيه لديهم لانكاهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام، والثاني: أن يتحكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الائق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتكم لم أبق عليكم، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكماً به، فإن قلت: لم عبر عن الإتيان بالفعل، وأي فائدة في تركه إليه؟ قلت: لأنه فعل من الأفعال، تقول: أتيت فلاناً، فيقال لك: نعم ما فعلت، والفائدة فيه: أنه جار مجري الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه، ألا ترى أَنَّ الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة/ ١٣١ كذا، وشتمته ونكلت به، ويعد كيفيات وأفعالاً، فتقول: بشما فعلت، ولو ذكرت ما أنبته عنه، لطال عليكم؛ وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل، لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله^(١)، فإن قلت: ﴿وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ ما محلها؟ قلت: لا محل لها؛ لأنها جملة اعتراضية، فإن قلت:

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يُلْزَمُ ما قال؛ لأنه لو قال: «فإن لم تأتوا ولن تأتوا» كان المعنى على ما ذكر، ويكون قد حذفت ذلك اختصاراً، كما حذفت اختصاراً مفعول «لم تفعلوا ولن تفعلوا»، ألا ترى أَنَّ التقدير: فإن لم تفعلوا الإتيان بسورة من مثله، ولن تفعلوا الإتيان بسورة من مثله». انتهى الدر.

ما حقيقة: «لن» في باب النفي؟ قلت: «لا»، و«لن» اختان في نفي المستقبل، إلا أن في «لن» تأكيداً وتشديداً، تقول لصاحبك: لا أقيم غداً، فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غداً؛ كما تفعل في: أنا مقيم، وإنني مقيم، وهي عند الخليل في إحدى الروايتين عنه أصلها: «لا أن»، وعند الفراء: «لا»، أبدلت ألفها نوناً، وعند سيبويه وإحدى الروايتين عن الخليل: حرف مقتضب؛ لتأكيد نفي المستقبل، فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء، لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لا سيما والطاعون فيه أكثر عدداً من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة، فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة، صح عندهم صدق رسول الله ﷺ، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا، استوجبوا العقاب بالنار؛ فقل لهم: إن استبستم العجز فاتركوا العناد؛ فوضع ﴿فَأَتَقُوا النَّارَ﴾ موضعه؛ لأن اتقاء النار لصيقه وضيمه ترك العناد، من حيث إنه من نتائجه؛ لأن من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي، يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منابه وإبرازه في صورته؛ مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها.

والوقود: ما ترفع به النار، وأما المصدر فمضموم، وقد جاء فيه الفتح، قال سيبويه: وسمعنا من العرب من يقول: وقدت النار وقوداً عالياً، ثم قال: والوقود أكثر، والوقود الحطب، وقرأ عيسى بن عمر الهمداني - بالضم - تسمية بالمصدر، كما يقال: فلان فخر قومه وزين بلده، ويجوز أن يكون مثل قولك: حياة المصباح السليط، أي: ليست حياته إلا به/ ٣١؛ فكان نفس السليط حياته، فإن قلت: صلة «الذي» و«التي» يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب، فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ قلت: لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب، أو سمعوه من رسول الله ﷺ، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] فإن قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكورة في سورة التحريم، وههنا معرفة؟ قلت: تلك الآية نزلت بمكة، فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة، ثم نزلت هذه بالمدينة^(١)؛ مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً، فإن قلت: ما معنى قوله تعالى:

(١) قال محمود رحمه الله: «هذه الآية نزلت بالمدينة بعد نزول آية التحريم بمكة... إلخ». قال أحمد =

﴿وَوُودَهَا النَّاسُ وَلِحَجَارَةٍ﴾؟ قلت: معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران، بأنها لا تنقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أولاً بوقود ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماءه، وتلك - أعاذنا الله برحمته الواسعة - توقد بنفس ما يحرق ويحمي بالنار، وبأنها لإفراط حرها وشدة ذكائها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار، اشتعلت وارتفع لهبها، فإن قلت: أثار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة؟ قلت: بل هي نيران شتى، منها نار توقد بالناس والحجارة، يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: ﴿فَوَأْنَسُكُوا وَأَلْبَسُوا نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، ﴿وَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] ولعل لكفار الجن وشياطينهم نارا وقودها الشياطين، كما أنَّ لكفرة الإنس نارا وقودها هم، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب، فإن قلت: لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً. قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً أو عبدوها من دونه: قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه، فقلوه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في معنى الناس والحجارة، و ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] في معنى وقودها، ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم، جعلها الله عذابهم، فقرنهم بها محماة في نار جهنم، إبلاغاً في إيلاهم وإغراقاً في تحسيرهم^(١)، ونحوهم ما يفعله بالكافرين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق، حيث يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، وقيل: هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل ﴿أَعَدَّتْ/ ١٣٢﴾، هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم، وقرأ عبد الله: «أعدت»، من العتاد بمعنى العدة.

﴿وَنَشِيرَ الْآزِفِ﴾ ءَامُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَبِّهَاتٍ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

من عادته - عز وجل - في كتابه أن يذكر الترغيب مع التهيب، ويشفع البشارة

= رحمه الله يعني بالآية قوله تعالى: ﴿فَوَأْنَسُكُوا وَأَلْبَسُوا نَارًا وَوُودَهَا النَّاسُ وَلِحَجَارَةٍ﴾ لكني لم أفق على خلاف بين المفسرين أن سورة التحريم مدنية وما اشتملت عليه من القصة المشهورة أصدق شاهد على ذلك. فالظاهر أن الزمخشري وهم في نقله أنها مكية.

(١) قوله «وإغراقاً في تحسيرهم» لعله: وإغراقاً، بالغين المعجمة. (ع)

بالإنذار إرادة التنشيط، لاكتساب ما يزلف، والتشيط عن اقتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب، فقاء ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي، وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب، فإن قلت: مَنْ المأمور بقوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّرُ؟﴾ قلت: يجوز أن يكون رسول الله ﷺ، وأن يكون كل أحد، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بَشِّرِ الْمَشَائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلُمِ بِالنُّورِ الثَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣١) لم يأمر بذلك واحداً بعينه؛ وإنما كل أحد مأمور به، وهذا

٣١ - أخرجه أبو داود (٢٠٩/١) كتاب الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم، حديث (٥٦١).

والترمذي (٤٣٥/١) كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة حديث (٢٢٣).

من حديث إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس، عن بريدة بن الحصيب عن النبي - ﷺ - قال:

«بشر المشائين...».

ورواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (٧٥٢، ٧٥٥)، والبيهقي في شرح السنة (١١٨/٢) رقم (٤٧٤ - بتحقيقنا).

وله شواهد من حديث:

أنس، وسهل بن سعد، وأبي الدرداء، وابن عباس وابن عمر، وزيد بن حارثة، وأبي موسى الأشعري، وأبي أمامة، وعائشة، وأبي سعيد الخدري، وحارثة ابن وهب الخزاعي.

أما حديث أنس:

فأخرجه ابن ماجه (٢٥٦/١) كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة حديث (٧٨١).

والحاكم (٢١٢/١) من طريق ثابت البناني عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: فذكره.

أما حديث سهل بن سعد:

رواه ابن ماجه (٢٥٦/١) كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة (٧٨٠) من حديث

زهير بن محمد التميمي عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً.

ورواه الحاكم (٢١٢/١)، وابن خزيمة (٣٧٧/٢) رقم (١٤٩٨، ١٤٩٩).

والطبراني في الكبير (١٤٧/٦) رقم (٥٨٠٠).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه...

ووافقه الذهبي.

وأما حديث أبي الدرداء:

فرواه ابن حبان في صحيحه، كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٥٣/١).

وأما حديث ابن عباس:

رواه الطبراني (٣٥١/١٠) رقم (١٠٦٨٩) قال: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا العباس بن بكار

العيني ثنا أبو هلال عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس مرفوعاً به...

قال الهيثمي في المجمع (٣٣/٢).

«وفيه العباس بن عامر الضبي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله موثقون» اهـ.

الوجه أحسن وأجزل؛ لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من

وأما حديث ابن عمر:

أخرجه الطبراني في الكبير (٣٥٨/١٢) رقم (١٣٣٣٥):

قال الهيثمي في المجمع (٣٣/٢).

«فيه داود ابن الزبيرقان ضعفه ابن معين وابن المديني وأبو زرعة، وقال البخاري: مقارب الحديث»
١.هـ.

وأما حديث زيد بن حارثة:

فرواه الطبراني في الكبير (٨٦/٥) رقم (٤٦٦٢) مرفوعاً بلفظ: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بنور يوم القيامة ساطع».

قال الهيثمي في المجمع (٣٣/٢):

«رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه ابن لهيعة، وهو مختلف في الاحتجاج به» ١.هـ.

وأما حديث أبي موسى الأشعري:

رواه الطبراني في الكبير والبخاري (٢١٧/١) (كشف/٤٣٢)، قال الهيثمي (٣٣/٢ - ٣٤).

«رواه الطبراني في الكبير والبخاري، وفيه محمد بن عبد الله بن عمير بن عبيد - وهو منكر الحديث»
١.هـ.

وأما حديث أبي أمامة:

رواه الطبراني أيضاً مرفوعاً بلفظ: «بشر المدلجين إلى المساجد في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفرح الناس ولا يفزعون».

قال الهيثمي في المجمع (٣٤/٢):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه سلمة العبسي عن رجل من أهل بيته، ولم أجد من ذكرهما» ١.هـ.

وأما حديث عائشة:

قال الهيثمي (٣٣/٢): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الحسن بن علي الشروي، قال الذهبي: لا يعرف، وفي حديثه نكرة قال الأزدي: لا يتابع عليه» ١.هـ.

وأما حديث أبي سعيد الخدري:

فرواه أبو يعلى في مسنده (٣٦١/٢) رقم (١١١٣) قال الهيثمي في المجمع (٣٣/٢):

«فيه عبد الحكم بن عبد الله وهو ضعيف» ١.هـ.

وأما حديث حارثة بن وهب الخزاعي:

فرواه ابن شاهين في كتاب الترغيب له.

كما ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٥٤/١)، والسيوطي في الأزهار المتناثرة (ص ٣٣).

وعزاه السيوطي في الأزهار أيضاً. لأبي موسى المديني عن حطيم الحراني مرسلًا.

ولسعيد بن منصور عن عطاء بن يسار مرسلًا.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود. والترمذي والبخاري. من طريق إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس عن بريدة

وقال الدارقطني: تفرد به إسماعيل. وله شاهد من رواية ثابت عن أنس وسهل بن سعد - رضي الله

عنهما - أخرجه ابن ماجه والحاكم. وأخرجه ابن حبان عن أبي الدرداء - رضي الله عنه -

والطبراني من رواية ابن عباس وابن عمر وزيد بن حارثة وأبي موسى وأبي أمامة - رضي الله عنهم - =

قدر على البشارة به، فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه؛ إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرًا بالعمو والإطلاق، ولك أن تقول: هو معطوف على قوله: ﴿فَأَقْصُوا﴾^(١) كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جئتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحسانني إليهم، وفي قراءة زيد بن علي - رضي الله عنه -: «وَيُشْر» على لفظ المبني للمفعول عطفًا على ﴿أَعَدَّتْ﴾^(٢)، والبشارة: الإخبار مما يظهر سرور المخبر به، ومن ثم قال العلماء: إذا قال لعبيده: أيكم بشرني بقدم فلان فهو حر، فبشروه فرادى، عتق أولهم، لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين، ولو قال مكان «بشرني» أخبرني: عتقوا جميعاً، لأنهم جميعاً أخبروه، ومنه: البشارة لظاهر الجلد، وتباشير الصبح: ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما ﴿فَبَيَّرْتُمُهَا بِكَذَّابٍ أَيْمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزاء به وتآلمه واغتمامه، كما يقول الرجل لعدوه: أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك، ومنه قوله: [من الكامل]

..... فَأَعْتَبُوا بِالصُّيْلَمِ^(٣)

 = بأسانيد ضعيفة. وحديث زيد في الكامل لابن عدي. وحديث أبي موسى عند البزار. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة في ترجمة أحمد بن محمد بن صدقة. وقال: تفرد به قتادة بن الفضل عن الحسن بن علي البيروتي، ورواه الطيالسي وأبو يعلى من حديث أبي سعيد، وإسناده ضعيف أيضاً. ورواه عمر بن شاهين في الترغيب له من حديث حارثة بن وهب الخزاعي. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا قد رُوِيَ الشيخ بأن «فاتقوا» جواب الشرط، فالمعطوف يكون جواباً؛ لأن حكمه حكمه، ولكنه لا يصح؛ لأن تبشيره للمؤمنين لا يترتب على قوله: «فإن لم تفعلوا». انتهى. الدر المنصور.

(٢) قال السمين الحلبي: وهو غلط؛ لأن المعطوف عليه من الصلة، ولا راجع على الموصول من هذه الجملة، فلا يصح أن يكون عطفًا على أعدت. انتهى. الدر المنصور.

(٣) غضبت تميم أن تقتل عامراً يوم النصار فأعتبوا بالصيلم
 لبشر بن أبي حازم الأسدي. وتميم، وعامر: قبيلتان. وهل: استفهام إنكاري. أي ليس المجرب للأمور مثلهما كمن لم يجربها. ويجوز أنه أمره بالسؤال لأن الذي يسأل ويعلم ليس كمن لم يعلم. وأن تقتل: أي من أن تقتل. وروي: تقتل عامر، بالبناء للمجهول. والنصار اسم ماء لبني عامر، أي غضبت علينا تميم من قتل حلفائهم فكانها عتبت علينا لضعفها. فأعتبناهم، أي أزلنا عتابهم =

والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم، قال الحطيئة: [من البسيط]

كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا تَنْفَكَ صَالِحَةٌ مِنْ آلٍ لَمْ يَظْهَرْ الْغَيْبُ تَأْتِيَنِي^(١)

والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة، واللام للجنس، فإن قلت: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع؟ قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحاً؛ لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه، وإذا دخلت/ ٣٢ على المجموع، صلح أن يراد به جميع الجنس، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه؛ لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية، والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه، فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف.

والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه، قال زهير:

[من البسيط]

..... تَسْقِي جَنَّةً سَحْقًا^(٢)

= بالصيلم: وهو السيف الكثير القطع، من صلحه إذا قطعه. وشبه إجابتهم بالمحاربة بالسيف بإجابة من يزيل العتاب على سبيل التصريحة التكمية. لأن الأول مكروه والثاني محبوب.

ينظر ديوانه ص ٤٨٠، ولسان العرب (عتب)، (صلم)، وتهذيب اللغة: ٢/ ٢٧٨، ١٢/ ١٩٩، وتاج العروس: (عتب)، (صلم)، والعقد الفريد: ٥/ ٢٤٨، وسمط اللاكبي ص ٥٠٣.

(١) للحطيئة واسمه جروول بن أوس بن حرمة بن مخلوم بن مالك الغطفاني، حين وفدت العرب على النعمان بن المنذر فأحضر حللاً عظيمة وقال: إني ملبسها غداً لمن شئت، فلما كان الغد تخلف ابن سعدى خوف إلياسها غيره وهو حاضر فطلبه الملك وألبسه الحلل، فحسدته سادات العرب من قومه، وضمنوا للحطيئة مائة بعير لو هجاء، فقال: كيف الهجاء له، والحال أن لا تنفك فعلة صالحة تأتيني من آل لأم حال كوني ملتبساً بظهر الغيب، أو حال كونهم ملتبيين بظهر الغيب. وأقحم الظهر لأن الغائب كأنه وراء الظهور، أو لتقوية الغيب، لأنهم إذا أرادوا تقوية شيء أسندوا له الظهور لقوته، وكثيراً ما يجرون الصفة مجرى الاسم، إما لعدم الاحتياج إلى ذكره كما في صالحة، أو لأنها كافية في تعيين الموصوف إن احتيج إليه.

ينظر ديوانه (٨٦)، الدر المصون ١/ ١٥٨.

(٢) إن الخليط أجداً البين فافترقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

وفسارتشك برهن لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

كان عيني في غربي مقشلة من النواضع تسقي جنة سحقا

لزهير بن أبي سلمى. والخليط المعاشر. والبين: الانفصال والبعد، وأسماء: اسم محبوبته. وأصله من الوسامة وهي علامة الحسن. وقيل أصله جمع اسم. وعلق: مبنى للمجهول. والقلب: نائب فاعل. وما علق - بالتخفيف -: مفعوله، أي ما تعلق به منها وهو الحب والتحسر والتحرؤن على =

أي نخلاً طويلاً، والتركيب دائر على معنى الستر، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرّة، من مصدر جنه إذا ستره، كأنها سترة واحدة لفرط تفافها، وسميت دار الثواب: «جنة» لما فيها من الجنان، فإن قلت: الجنة مخلوقة أم لا؟ قلت: قد اختلف في ذلك، والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام، كالنبي والرسول والكتاب ونحوها، فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟ قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان، فإن قلت: أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح ألا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر؛ وألا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية؟ فهلا شرط ذلك؟ قلت: لما جعل الثواب مستحقاً بالإيمان والعمل الصالح، والبشارة مختصة بمن يتولاهما، وركز في العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء، إذا لم يتعقبه بما يفسده ويذهب بحسنه، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً، وأعلم بقوله تعالى لنبيه ﷺ وهو أكرم الناس عليه وأعزهم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٢٥]، وقال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالداخل تحت الذكر، فإن قلت: كيف صورة جري الأنهار من تحتها؟ قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية، وعن مسروق: أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظلمة، والأنهار في خلالها مطردة، ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت أتق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً، والسرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها، وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر/١٣٣

= سفرها. ولم يعينه دلالة على الكثير والتحويل ولما اشتغل قلبه بها. فكانها أخذته معها؛ ولذلك ادعى أنها أخذته رهناً على سبيل الاستعارة المصروفة، ورشحها بقوله: لا فكاك له: وغلق الرهن - بالكسر -: إذا امتلكه الدائن ويش صاحبه من رجوعه إليه، ثم قال: كأن عيني من شدة البكاء وكثرة الدموع عينان في دلوين عظيمتين ممتلئتين ماء، تحملهما ناقة مقتلة مذلة معتادة على العمل من الإبل النواضح التي يستقى عليها، تسقي تلك الناقة جنة «سحقاً» بضمعين: جمع سحق، أي نخلاً طويلاً أوجه السماء، أو بعيدة عن محل الماء، فهي دائمة ذاهبة آية. ولقد خاطب نفسه أولاً كأنه يخبرها بسفر أسماء لفرط جزعه، ثم التفت كأنه يشتكي للناس في قوله: كأن عيني.

ينظر ديوانه ص ٣٧، ولسان العرب: (سحق)، (قتل)، (جنن)، ومجمل اللغة: ١٠٠/١، ومقاييس اللغة: ٤٢١/١، وتاج العروس: (سحق)، (قتل)، (جنن).

الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قرن واحد كالشيثين لا بد لأحدهما من صاحبه، ولما قدّمه على سائر نعمتها، والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال لبردى: نهر دمشق، والنيل: نهر مصر، واللغة العالية: «النهر» بفتح الهاء، ومدار التركيب على السعة، وإسناء الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازي كقولهم: بنو فلان يطوهم الطريق، وصيد عليه يومان، فإن قلت: لم نكرت الجنات وعزّت الأنهار؟ قلت: أما تنكير الجنات فقد ذكر، وأما تعريف الأنهار فإن يراد الجنس، كما تقول: لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب واللوان الفواكه، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب، أو يراد أنهارها، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله: ﴿وَأَسْتَعْلَ الْأَرْضُ مَكِينًا﴾^(١) [مریم: ٤] أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله: ﴿فَبِمَا أَتَتْهُ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ مَآسٍ وَأَنْتَبَهَتْ مِنْ لَبَنٍ لَّدَ بَغَيْرِ طَعْمٍ...﴾ [محمد: ١٥] الآية.

وقوله: ﴿كَلَّمَا رَزَقُوهُ﴾: لا يخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة؛ لأنه لما قيل: إن لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس آخر لا تشابه هذه الأجناس؟ ف قيل: إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله، فإن قلت: ما موقع: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾؟ قلت: هو كقولك: كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك، فموقع: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ موقع قولك من الرمان، كأنه قيل: كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو عنبها أو غير ذلك رزقاً، قالوا ذلك، فمن الأولى والثانية كلتاهما لا ابتداء للغاية؛ لأنّ الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة، وتنزيله تنزيل أن تقول: رزقني فلان، فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من رمان، وتحريره أن «رزقوا»: جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات، ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات، مبتدأ من ثمرة، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفضة على هذا التفسير؛ وإنما المراد النوع من أنواع الثمار، ووجه آخر: وهو أن يكون ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾: بياناً على منهج قولك: رأيت منك أسداً، تريد أنت أسد، وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار، والجنات الواحدة، فإن قلت: كيف قيل: ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾؟

(١) قال السمين الحلبي: بمعنى أن الأصل: واشتعل رأسي، فعوض «أل» عن ياء المتكلم، وهذا ليس مذهب البصريين، بل قال به بعض الكوفيين، وهو مردود بأنه لو كانت «أل» عوضاً من الضمير لما جمع بينهما، وقد جمع بينهما، قال النابغة:

ترجيب قطاب الجيب منها رقيقاً
يخس الثدائي يسه المتجرّد
فقال: الجيب منها. انتهى. الدر المصون.

وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ قلت: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل^(١)، وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مَنَّاهَا﴾، وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ﴾؟ قلت: إلى المرزوق في الدنيا والآخرة/ ٣٣ ب جميعاً؛ لأنَّ قوله: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أَوَّلَىٰ بِمَا﴾ [النساء: ١٣٥]، أي بجنسي الغنى والفقير؛ لدلالة قوله: غنياً أو فقيراً على الجنسين، ولو رجع الضمير إلى المتكلم به، لقبل أولى به على التوحيد، فإن قلت: لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟، وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً آخر؟ قلت: لأنَّ الإنسان بالمألوف آتس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدّم معه ألف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً، أفرط ابتهاجه واغباطه، وطال استعجابه واستغرابه، وتبين كنه النعمة فيه، وتحقق مقدار الغبطة به، ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً، حسب أنَّ ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين، فحين أبصروا الرمان من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأن الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة، ثم يبصرون رمانة الجنة تشيع السكن، والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلكة، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، كان ذلك أبين للفضل، وأظهر للمزية، وأجلب للسرور، وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما، وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها، دليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أنَّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم، ويستدعي تبجحهم في كل أوان، عن مسروق: «نَحْلُ الْجَنَّةِ نَضِيدٌ مِنْ أَضْلَاهَا إِلَىٰ قُرْعِهَا، وَتَمَرُهَا أَشْأَلُ الْقَلَالِ، كُلَّمَا نَزَعْتَ ثَمَرَةً عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ، وَأَنهَارُهَا تَجْرِي فِي غَيْرِ أَحْدُودٍ، وَالْعُنُقُودُ أَثْنَا عَشْرَةَ ذِرَاعاً» (٣٢). ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿أنوا به﴾: إلى الرزق، كما أن هذا إشارة إليه، ويكون المعنى: أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم

٣٢ - أخرجه ابن أبي شيبة (٢٨/٧) رقم (٣٣٩٥٩)، وهناد بن السري في الزهد (٩٠/١) رقم (٩٥)، ورواه في (٩٤/١) رقم (١٠٣، ١٠٤). ويحيى بن صاعد في زوائد زهد ابن المبارك رقم (٥٤٤).

(١) قال محمود رحمه الله: «معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من التشبيه بغير الأداة، وهو أبلغ مراتب التشبيه، كقولهم: أبو يوسف أبو حنيفة.

متجانساً في نفسه؛ كما يحكى عن الحسن: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فيقول الملك: كل، فاللون واحد، والطعم مختلف، وعنه عليه السلام: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَنَاوَلُ الثَّمَرَةَ لَيَأْكُلَهَا فَمَا هِيَ بِوَاصِلَةٍ إِلَى فِيهِ حَتَّى يُبَدِّلَ اللَّهُ مَكَانَهَا بِمِثْلِهَا» (٣٣) فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى، قالوا ذلك، والتفسير الأول هو هو، فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿وَأَتَوَاهُ بِهِ﴾ مُتَشَبِّهًا؟ من نظم الكلام؟ قلت: هو كقولك: فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل، ورأى من الرأي كذا وكان صواباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا آيَةً أَهْلِهَا أَذِلَّةٌ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير، والمراد بتطهير/ ١٣٤ الأزواج: أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من الأقدار والأدناس، ويجوز لمجيئه مطلقاً: أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا، مما يكتسبن بأنفسهن، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشيء المفسدة، ومن سائر عيوبهن ومثالبهن وخشهن وكيدهن، فإن قلت: فهلاً جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ قلت: هما لغتان فصيحتان، يقال: النساء فععلن، وهن فاعلات وفواعل، والنساء فعلت، وهي فاعلة؛ ومنه بيت الحماسة [من الكامل]:

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالدُّخَانِ تَقَنَّعَتْ وَأَسْتَعَجَلَتْ نَضَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ^(١)

٣٣ - أخرجه البزار (رقم ٣٥٣٠) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٨/١) للطبراني، والحديث رواه الحاكم في قصة طويلة في كتاب الفتن من المستدرک (٤٤٩/٤ - ٤٥٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة» ا. هـ. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف». أخرجه الطبراني والبزار والحاكم من حديث ثوبان بلفظ: ولا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا أخلف الله مكانها مثلاً، ولفظ البزار: «إلا أعيد في مكانها مثليها، على الثنية، وسيأتي في آخر الزخرف».

(١) وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت نصب القدور فملت
دارت بأرزاق العنساء مغالط بيدي من قمع العشار الجلة
ولقد رأبت ثأبي العشيرة بينها وكفيت جانبها اللتيا والتي

لسلمي بن ربيعة بن جفنة الضبي وشبه استار الأبقار بالدخان أو سوادهن به باستارهن بالقناع على طريق التصريح أو شبه الدخان به على طريق المكنية. وملت: شوت الليل بأن تضع اللحم أو الخبز على الجمر فينضج. ويروي «درت» بدل «دارت» أي كثر بذلها. والعفاة: طلاب الرزق. والمغالق: سهام الميسر التي تغلق الحظوظ وتثبت للغالب. والقمع: قطع السنام جمع قمع. والعشار: النوق التي مضى على حملها عشرة أشهر. والجلة: السنام العظييمات السنام، جمع جليل كصبية =

والمعنى وجماعة أزواج مطهرة^(١)، وقرأ زيد بن علي: «مطهرات» وقرأ عبيد بن عمير: «مُطَهَّرَةٌ»، بمعنى متطهرة، وفي كلام بعض العرب: ما أحوجني إلى بيت الله، فأطهر به أطهرة، أي فأنظف به تطهرة، فإن قلت: هل أقبل طاهرة؟ قلت: في «مُطَهَّرَةٍ» فخامة لصفتهم ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهراً طاهره، وليس ذلك إلا الله عز وجل المرید بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم.

والخلد: الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال امرؤ القيس [من الطويل]:

أَلَا أُنَعِّمُ صَبَاحاً أَتِيهَا الطُّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
وَهَلْ يَنْعَمَنَّ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالٍ؟^(٢)

= جمع صبي، أي إذا جذب الزمان، حتى أن الأيكار مع فرط حيائهن وصونهن، يقبلن على الدخان ويشوين على الجمر، ويأكلن ولا يصبرن لنضج القدور من الجوع بذلت للناس بكثرة. ويحتمل أن مخدراته تباشر تضيق قرى الضيفان بأنفسهن فيذله لهم. والأول أبلغ. ورأيت: أصلحت. والثاني الفساد وكفيت من جنى منها. ويروى «جانباها» بالموحدة الداعية الصغيرة والكبيرة. والتيا: تصغير التي كغيرها من الموصولات التي سمع تصغيرها، وزيدت الألف في آخرها عوضاً عن ضم التصغير، وهي بفتح اللام. وقال الأخفش بضمها على قياس التصغير وإن كان شاذاً في الأسماء المبنية كما هنا. واستغنت عن الصلة لنقلها بالتصغير عن معنى الموصولية وحمل عليها «التي» لأنها لما ذكرت في مقابلتها كان معناها الداعية العظيمة فلم يكن قصد إلى معنى الموصولية أيضاً. وقيل يجوز حذف الصلة بدليل. فيقدر هنا: التيا صغرت، والتي عظمت. ثم إن هذا من قبيل الأمثال السائرة. وأصله أن رجلاً تزوج امرأة قصيرة فقاسى منها الشدائد، ثم زوج طويلة أيضاً فقاسى ضعف ذلك، فطلقهما وقال: بعد التيا والتي لا أتزوج أبداً.

ينظر: خزنة الأدب ٣٦/٨، ٤٤، والدرر ١٨٤/١ وشرح ديوان الحماسة ص ٥٥، وشرح المفصل ١٠٥/٥، ونوادر أبي زيد، ص ١٢١، ولعلبائه بن أرقم في الأصمعيات ص ١٦٢، وشرح اختيارات المفصل ص ٨١٦، وجمع الهوامع ٦٠/١، والدرر المصون ١٦١/١.

(١) قوله «وجماعة أزواج مطهرة» لعل الواو مزيدة من الناسخ. أو لعل أصله ولهم فيها جماعة أزواج. (ع)

ينظر: ديوانه (٢٧)، الكتاب ٢/٢٢٧، المحاسب ٢/١٣٠، أمالي ابن الشجري ١/٢٧٤، الدرر ٢/١٠٧، الدرر المصون ١/١٦٢.

(٢) لامرؤ القيس. وألا استغناحية. وأنعم صباحاً: تحية الجاهلية، أي طاب عيشك. ويخفف فيقال عم، كما روي هنا. وكذلك «يعمن» روي هنا أيضاً. ونعم ينعم كضرب يضرب: ونعم ينعم كسهل يسهل. ونعم ينعم كعلم يعلم. ونعم ينعم بكسر عينهما وهو شاذ، بمعنى صار ناعماً ليئناً. وخص الصباح لأنه وقت الغارات. والطلل: ما بقي من آثار الديار. والبالى: الفاني. والمراد تحية أهل الطلل ثم تذكر الخطأ في تحيتهم فقال: لا يتنعم من كان في الزمن الماضي وهو اليوم فان، فلاستغفاهم إنكارياً: والمخلد: طويل العمر بحيث لا يفنى. والأوجال: جمع وجل وهو الخوف، =

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

سيقت هذا الآية؛ لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد، والمراء من الكفار واستغريه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجزه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية؛ ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف تمثل له بالضيء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟ ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً لم يستنكر ولم يستبدع، ولم يقل للمتمثل: استحي من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيب في تمثيله، محق في قوله، سائق للمثل على قضية مضربه، محتذ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه؛ ولبیان أن المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بنظر العقل، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل، علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة/ ٣٤ بـ ساحتها، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله، وأن الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم، وغضبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم، أوعرفوا أنه الحق إلا أن حب الرئاسة وهوى الإلف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوا عاندوا^(١) وكابروا وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها

= والباء للملابسة. ويجوز أنها للظرفية تخيلاً.

(١) قوله «فإذا سمعوا عاندوا» لعل زيادة الفاء في خبر أن شبه اسمها بالشرط. (ع)

بأحق الأشياء فقالوا: أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة^(١)، وأضعف من فراشة، وأكل من السوس، وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض، ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالزوان والنخالة^(٢) وحب الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزناير، والتمثل بهذه الأشياء بأحق منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمانة ولا إقناع، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معولاً، وعن الحسن وقناة: «لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمَثَلَ، ضَحِكَتِ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا يُشَبِّهُ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ» (٣٤).

والحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، واشتقاقه من الحياة، يقال: حيي الرجل، كما يقال: نسي وحشي وشظي الفرس إذا اعتلت هذه الأعضاء^(٣) جعل الحي لما يعتريه من الانكسار والتغير، منتكس القوة منتقص الحياة، كما قالوا: هلك فلان حياء من كذا، ومات حياء، ورأيت الهلاك في وجهه من شدة الحياء، وذاب حياء، وجمد في مكانه خجلاً، فإن قلت: كيف جاز وصف القديم سبحانه به^(٤)، ولا يجوز عليه التغير والخوف والذم، وذلك في حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ الْعَبْدُ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّاهُمَا صِفْراً حَتَّى يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا»

٣٤ - أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٩٣/١) رقم (٢٧٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٨/١).

(١) قوله «وأصرد من جرادة» في الصحاح: صرد الرجل بالكسر فهو صرد ومصراد: يجدد البرد سريعاً.
(ع)

(٢) قوله «كالزوان والنخالة» في الصحاح: الزوان حب يخالط البر. (ع)
(٣) قوله «إذا اعتلت هذه الأعضاء» عرق النسا والحشا والشظي. وفي الصحاح: الشظي عظم مستدق ملزق بالذراع، فإذا تحرك في موضعه قيل: قد شظي الفرس. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله: «إن قلت كيف جاز وصف الله تعالى بالاستحيائية... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: ولقاتل أن يقول: ما الذي دعاه إلى تأويل الآية مع أن الحياء الذي يخشى نسبة ظاهره إلى الله تعالى مسلوب في الآية كقولنا: الله ليس بجسم ولا بجوهر في معرض التنزيه والتقديس. وأما تأويل الحديث فمستقيم، لأن الحياء فيه ثبت لله تعالى. ولزم مخشري أن يجيب بأن السلب في مثل هذا إنما يطرا على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه. إذ مفهوم نفى الاستحياء عنه في شيء خاص، ثبوت الاستحياء في غيره، فالحاجة داعية إلى تأويله لما أفضى إليه مفهومه. وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوباً مطلقاً، كقولنا: الله لا يحول ولا يزول؛ فإن ذلك لا يشهد ومحال، بل يقال: هو مقدس منزّه مطلقاً.

(٣٥) قلت: هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخييب العبد وأنه لا يردّ يديه صفراً من عطائه، لكرمه بترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياء منه، وكذلك معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾: أي لا يترك ضرب المثل بالعوضة ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على/ ١٣٥ السؤال،

٣٥ - أخرجه أبو داود (٤٦٨/١) كتاب الصلاة، باب الدعاء حديث (١٤٨٨).

والترمذي (٥٢٠/٥) كتاب الدعوات حديث (٣٥٥٦)، وابن ماجه (١٢٧١/٢) كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء. حديث (٣٨٦٥)، وأحمد (٤٣٨/٥)، وابن حبان في صحيحه (١٦٠/٣) كتاب الرقائق رقم (٨٧٦)، والحاكم (٤٩٧/١)، وصححه ووافقه الذهبي. ورواه الطبراني في الكبير (٢٥٦/٦)، والبيهقي في شرح السنة (١٥٩/٣) رقم (١٣٧٩)، وله شاهد من حديث أنس، جابر.

أما حديث أنس:

أخرجه الحاكم (٤٩٧/١ - ٤٩٨)، من طريق أبي عبد الله الصفار ثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، ثنا بشر بن الوليد القاضي ثنا عامر بن يساف عن حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، قال: حدثني أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - ﷺ -: إن الله رحيم كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه، ثم لا يضع فيهما خيراً.

وصحح إسناده وتعبه الذهبي بأن عامر ذو مناكير، ورواه عبد الرزاق (٢٥١/٢) رقم (٣٢٥٠) عن معمر عن أبان عن أنس مرفوعاً.

وأبو نعيم في الحلية (١٣١/٨).

والبيهقي في شرح السنة (١٥٩/٣) رقم (١٣٨٠) - بتحقيقنا).

وأما حديث جابر:

فرواه أبو يعلى في مسنده (٣٩١/٣) قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ قال: ذكر أبي عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله تعالى حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه؛ فيردهما صفراً ليس فيهما شيء».

قال الهيثمي في المجمع (١٥٢/١٠):

«رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وقد وثق على ضعفه وبقيّة رجالهما رجال الصحيح» ١. هـ. قال الحافظ في تخرّيج الكشاف:

أخرجه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان والحاكم من حديثه بلفظ «إن ريكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»، قال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم ولم يرفعه. وفي الباب عن أنس - رضي الله عنه -. أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبان عنه. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبان. وأخرجه الحاكم من طريق حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة قال: حدثني أنس بن مالك - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال: «إن الله رحيم حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع يديه، ثم لا يضع فيهما خيراً»، وعن جابر أخرجه أبو يعلى. وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر، وهو متروك، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أخرجه الطبراني. انتهى.

وهو فنٌ من كلامهم بديع، وطراز عجيب؛ منه قول أبي تمام [من الكامل]:

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَغْرُبُ كُلُّهَا أَتَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ؟^(١)

وشهد رجل عند شريح، فقال: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعد عني، فقال: لله بلادك، وقبل شهادته، فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار، وسبوط الشهادة لامتنع تجعيدها، والله دَرُ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها، لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه، وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه: [من الطويل]

إِذَا مَا اسْتَحْيَيْنَ الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنِ بِسَبْتِ^(٢) فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ^(٣)

وقرأ ابن كثير في رواية شبيل: «يستحي» بياء واحدة، وفيه لغتان: التعدي بالجار، والتعدي بنفسه، يقولون: استحييت منه واستحييته، وهما محتملتان ههنا.

وضرب المثل: اعتماده وصنعه، من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وفي الحديث: «أَضْطَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ» (٣٦) و «مًا» هذه إيهامية^(٤)، وهي التي إذا

٣٦ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشف (٥٧/١): «غرب» ا.هـ.، وروى البخاري (٥١١/١١) =

(١) لأبي تمام. وفناء الدار: ما امتد من جوانبها، وجمعه أفنية. ويقال: هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم من أي قبيلة هو، أي من أطرافهم. ويعرب: اسم قبيلة، وبناء الجار: اتخاذ، سماء بناء للمشاكلة التقديرية حيث قرنه بما يبني وهو المنزل وهو مجاز بجامع مطلق الاتخاذ أو علاقته المجاورة الذهنية أو اللفظية، وهذه العلاقة تجري في كل مشاكلة. ولم يرتضه بعضهم، واختار أنها إن لم يوجد لها علاقة فهي قسم رابع لا حقيقة ولا مجاز ولا كناية. ينظر البيت في ديوانه ٤٧/٣، الدر المصون ١/١٦٣.

(٢) قوله بسبت في إناء من الورد) في الصحاح: السبت بالكسر جلود البقر المدبوغه بالقرظ اهـ وهو في البيت مجاز كالإناء من الورد. (ع)

(٣) كفانا الربيع العيس من بركاته فجاءته لم تسمع حذاء سوى الرعد

إذا ما استحيين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت في إناء من الورد

للمتنبي. والعيس: الإبل. والربيع: المطر. والحذاء: الغناء للإبل، والاستثناء متصل على تشبيه الرعد بالحذاء، وجعله من أفراد، أي: كفانا حاجة العيس لكثرت، حتى كأنه يعرض نفسه على النوق. ويقال: استحيى واستحى كما هنا أي إذا خشين من عرض نفسه عليهن، أو امتنعن منه. وروي «استحجن» بالجيم فالموحدة، أي أطعنه في عرض نفسه عليهن. وجملة «يعرض نفسه» حالية. واستعار السبت بالكسر - وهو الجلد المدبوغ بالقرظ - لمشافر النوق على طريق التصريح. وكذلك استعار الإناء من الورد للبركة التي كثر زهرها ونورها. وإن لم يكن ذلك الإناء موجوداً و «في» بمعنى «من». ويجوز أنه جعل الأرض ظرفاً للشرب.

ينظر البيت في الدر المصون ١/١٦٢.

(٤) قال محمود رحمه الله: «وما هذه إيهامية... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وفيها وهم إمام الحرمين =

اقتربت باسم نكرة أبهتة إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً؛ كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد أي كتاب كان، أو صلة للتأكيد، كالتى في قوله: ﴿فَمَا تَقْضِيهِمْ لِيَسْتَفْتَهُمُ﴾ [النساء: ١٥٥]، كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة، هذا إذا نصبت: ﴿بَعُوضَةٍ﴾، فإن رفعتها فهي موصولة^(١)، صلتها الجملة؛ لأن التقدير: هو بعوضة، فحذف صدر الجملة كما

 = كتاب اللباس، باب الخاتم حديث (٥٨٧٤)، من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس - رضي الله عنه - قال: صنع النبي - ﷺ - خاتماً قال: «إِنَّا اتَّخَذْنَا خَاتِماً وَنَقَشْنَا فِيهِ نَقْشاً؛ فَلَا يَنْقُشُ عَلَيْهِ أَحَدٌ»، قال: فإني لأرى بريقه في خنصره.

ورواه مسلم (٣١٨/٧) كتاب اللباس والزينة، باب لبس النبي - ﷺ - خاتماً من ورق حديث (٢٠٩٢)، وروى مسلم (٣٢٠/٧) كتاب اللباس والزينة، باب في طرح الخواتم حديث (٢٠٩٣) عن ابن شهاب، أخبره أن أنس بن مالك أخبره أنه رأى في يد رسول الله - ﷺ - خاتماً من ورق يوماً واحداً، ثم إن الناس اضطربوا الخواتم من ورق فلبسوها، فطرح النبي - ﷺ - خاتمه، فطرح الناس خواتمهم.

والحديث رواه البخاري (٥٠٤/١١) كتاب اللباس، باب حديث (٥٨٦٨)، وأبو داود (٤٨٩/٢)، كتاب الخاتم، باب في ما جاء في ترك الخاتم، حديث (٤٢٢١)، والنسائي (١٩٥/٨)، كتاب الزينة، باب طرح الخاتم وترك لبسه.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:

أخرجه مسلم من حديث أنس - رضي الله عنه - انتهى.

= في تقرير نصوصية العموم في قوله عليه الصلاة والسلام: «أيا امرأة نكحت بغير إذن وليها... الحديث» فإنه قرر العموم والإبهام في أي، ثم قال: فإذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ في اقتضاء العموم، فاعتقد أن المؤكدة هي الشرطية، وإنما هي حرف مزيد لهذا الغرض. وأما «ما» الشرطية فاسم كمن. والله الموفق.

(١) قال محمود: «هذا إذا نصبت بعوضة، فإن رفعتها فهي موصولة... إلى قوله: وجه آخر جميل وهو أن تكون... إلخ». قال أحمد: حملها على الاستفهامية بالمعنى الذي قرره: فيه نظر؛ لأن قوله تعالى «فما فوقها» في الحقارة فيكون معناه: فما دونها. وإما أن يراد فما هو أكبر منها حجماً. وعلى كلا التقديرين يتقدر الاستفهام؛ لأنه إنما يستعمل في مثل: ما دينار وديناران، أي إذا جاد بالكثير فما القليل. وإذا ذهب في الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالاً، إذ يكون المراد: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالمحقرات، فما البعوضة وما هو أحقر منها. وقد فرضنا أنها في أحد الوجهين نهاية في المحقرات، وفي الوجه الآخر ليست نهاية، بل النهاية في قوله (فما فوقها) أي دونها. فإذا حمل ما بعد الاستفهام على النهاية في الوجهين جميعاً لم يتلزم التنبيه المذكور. بل ينعكس الغرض فيه؛ إذ المقصود في مثل قولنا: فلان لا يبالي بعباءة الألوفاً فما الدينار الواحد - التنبيه على أن إعطاء القليل منه محقق بعباءة الكثير بطريق الأولى، ولا يتحقق في الآية على هذا التقدير أنه لا يستحيي من ضرب المثل بالمحقرات التي لا تبلغ النهاية، فكيف يستحيي من ضرب المثل بما يبلغ النهاية في الحقارة كالبعوضة. هذا عكس لنظم الأولوية، ولو كانت الآية مثلاً واردة على غير هذا التكلم كقول القائل: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالبعوضة التي هي نهاية =

حذف في ﴿تَمَامًا عَلَىٰ آلِ ذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، ووجه آخر حسن جميل، وهو أن تكون التي فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ لِلْأَنْدَادِ مَا شَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُحَقَّرَةِ مثلاً، بله البعوضة فما فوقها، كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران، والمعنى: إن الله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ وبما لا يدركه^(١)؛ لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه، أو بالمعدم، كما تقول العرب: فلان أقل من لا شيء في العدد، ولقد ألم به قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢]، وهذه القراءة تعزى إلى رؤية بن العجاج، وهو أضعف العرب للشيوخ والقيصوم، والمشهود له بالفصاحة، وكانوا يشبهون به الحسن، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه، وهو المطابق لفصاحته، وانتصب ﴿بَعُوضَةً﴾ بأنها عطف بيان لمثلاً. أو مفعول ليضرب، و ﴿مَثَلًا﴾ حال عن النكرة مقدمة عليه. أو انتصبا مفعولين فجرى: (ضرب) مجرى: (جعل)، واشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبعض والعضب؛ يقال: بعضه البعوض، وأنشد: [من الوافر]

لَنِعْصَمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبِي دُثَارٍ إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا^(٢)

ومنه: بعض الشيء؛ لأنه قطعة منه، والبعوض في أصله صفة على فعول كالقِطْعُ/ع ٣٥ب

= في الحقارة، فما الأنعام التي هي أبهى من البعوضة أو أبعد منها عن الحقارة بما لا يخفى، لكان تقرير الزمخشري متوجهاً. وما أراه والله أعلم إلا واهماً في هذا الوجه. وما طولت النفس ووسعت العبارة في الاعتراض عليه، إلا أنه محل ضيق ومعنى متعاض لا يخلص إلى الفهم إلا بهذا المزيد من البسط. وناهيك بموضع العكس على فهم الزمخشري بل مع تعود فهمه وإصابة نسجه. خصوصاً في تنسيق المعاني وتفصيلها والله الموفق. وما تبجحه بالعثور على الوجه الذي ظن أن رؤية بن العجاج راعاه في قراءته، فكلام ركيك توهم أن القراءة موكولة إلى رأي القارئ وتوجيهه لها ونصرتة بالعربية وفصاحته في اللغة، وليس الأمر كذلك، بل القراءة على اختلاف وجوها وبعده حروفها: ستة تنوع، وسماع يقضي بنقله، الفصح وغيره على حد سواء، لا حيلة للفصح في تعسر شيء منه عما سمعه عليه، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بدد كل فصاحة وعزل كل بلاغة. فالصحيح والمعتقد أن كل قارئ معزول إلا عما سمعه فوعاه، وتلقته من الأفواه، فأداه إلى أن ينتهي ذلك إلى استماع من أنصح من نطق بالضاد: سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فتأمل هذا الفصل فإن فاهمه قليل.

(١) قوله «وبما لا يدركه» لعله: أو بما. (ع)

(٢) المراد بالبيت: الكله التي تمنع البعوض ليالي الصيف عمن فيها: وأبو دثار: اسم رجل. والذثار: ما يلبس فوق الثياب إذا خاف بعض القوم بعض البعوض، أي قطعه ولسعه. ويحتمل أن المعنى: نعم المأوى والملجأ بيت أبي دثار، أخاف بعض الناس من شر بعضهم. ففيه التورية وهي من بدیع الكلام.

ينظر البيت في اللسان (بعض) الدر المصون ١/ ١٦٤.

فغلبت، وكذلك الخמוש^(١) ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: فيه معنيان: أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو القلة والحقارة، نحو قولك - لمن يقول: فلان أسفل الناس وأندلهم - هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة، والثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، لأنهما أكبر من البعوضة، كما تقول لصاحبك - وقد ذم من عرفته يشع بأدنى شيء فقال: فلان يخل بالدرهم والدرهمين -: هو لا يبالي أن ييخل بنصف درهم فما فوقه، تريد بما فوقه ما يخل فيه وهو الدرهم والدرهمان، كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين، ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في «صحيح مسلم» عن إبراهيم عن الأسود قال: دَخَلَ شَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ بِمِثْنٍ وَهُمْ يَضْحَكُونَ، فَقَالَتْ: مَا يَضْحَكُكُمْ؟ قَالُوا: فَلَانٌ خَرَّ عَلَى طُئْبٍ فَسَطَّاطٌ فَكَادَتْ عُنُقُهُ أَوْ عَيْنُهُ أَنْ تَذْهَبَ، فَقَالَتْ: لَا تَضْحَكُوا، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكَ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيتَ بِهَا عَنْهُ خَطِيئَةٌ» (٣٧) يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة، وهي نحو نخبة النملة في قوله - عليه الصلاة والسلام -: «مَا

٣٧ - أخرجه أحمد (٢٧٩/٦) ومسلم (٤٨ - ٢٥٧٢) من طريق هشام بن عروة، عن عائشة ومالك (٢/ ٩٤١) في العين، باب ما جاء في أجر المريض من طريقة مسلم (٥ - ٢٥٧٢) عن يزيد بن خصيفة كلاهما عن عروة به.

وأخرجه مسلم (٥١ - ٤٥٧٢) من طريق عمرة عن عائشة.

وأخرجه أحمد (٣٩٦/٦، ٢٦١) من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة.

وأخرجه (٢٥٧/٦) من طريق ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة.

وأخرجه أحمد (٤٨/٦، ١٨٥) من طريق عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير عن عباد بن عبد الله بن الزبير عن عائشة.

وأخرجه أحمد (٢٤٨/٦) من طريق حمزة بن عبد الله بن الزبير عن عائشة.

وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أخرجه البخاري (١٠٧/١٠) في الطب، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤٢، ٥٦٤١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٢) في البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن (٢٥٧٣/٥٢)، والترمذي (٢٩٨/٣)، في الجنائز، باب ما جاء في ثواب المريض (٩٦٦)، وأحمد (٤/٣، ٢٤، ٦٣، ٨١)، وأبو يعلى (١٢٣٧)، والبيهقي في شرح السنة (٣/ ١٨٢) (٤١٥) بلفظ «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إِلَّا كُفِّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

وعند الترمذي وأحمد عن أبي سعيد وحده دون أبي هريرة.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف».

أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة. انتهى.

(١) قوله «وكذلك الخמוש» في الصحاح: الخמוש - بالفتح -: البعوض. (ع)

أَصَابَ الْمُؤْمِنَ مِنْ مَكْرُوهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِحَطَايَاهُ حَتَّى تُخْبَةَ الثُّمَلَةَ (٣٨) وهي عصفها، ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع، كالخروخ على طنب الفسطاط، فإن قلت: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلت: ليس كذلك، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، «وقد صَرَّبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلًا لِلدُّنْيَا» (٣٩)، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها، ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاذ إلا تحركها، فإذا سكنت فالكسكون يواربها، ثم إذا لوححت لها

٣٨ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٧/١): «قلت: غريب جدًا».

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٣٩ - وذلك في حديث سهل بن سعد الذي رواه الترمذي (٥٦٠/٤) كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله - عز وجل - حديث (٢٣٢٠)، قال: حدثنا قتيبة حدثنا عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

ورواه ابن ماجه (١٣٧٦/٢) كتاب الزهد، باب مثل الدنيا حديث (٤١١٠).

ورواه الحاكم (٣٠٦/٤) مثل حديث ابن ماجه.

وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وتعقبه الذهبي فقال: «ذكرنا بن منظور ضعفه»، والطبراني في الكبير (١٧٨/٦) رقم (٥٩٢١).

وأبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٣)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٤٦٥)، وابن عدي في الكامل (٥/١٩٥٦).

وللحديث شواهد من حديث أبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر.

أما حديث أبي هريرة: أخرجه البيهقي في الشعب (٣٢٦/٧) رقم (١٠٤٧٠)، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى مشركاً منها شيئاً».

والبزار في مسنده رقم (٣٦٩٣).

قال الهيثمي في المجمع (٢٩١/١٠):

«رواه البزار وفيه صالح مولى التوأمة وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقي رجاله ثقات» أ.هـ.

أما حديث ابن عباس:

أخرجه أبو نعيم (٣٢/٧) بلفظ المصنف، ولم يذكر الماء.

أما حديث ابن عمر:

أخرجه الخطيب في التاريخ (٩٢/٤) من طريق محمد بن أحمد بن عون، حدثنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله - ﷺ - قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

ورواه القضاي في مسند الشهاب رقم (١٤٣٩).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

«كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» أخرجه الترمذي. انتهى.

بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة، وتفاصيل خلقتها، ويصبر بصرها، ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَمْلِكُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وأنشدت لبعضهم: [من الكامل]

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلْيَلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نَيَاطِهَا فِي تَخَرُّهَا وَالْمُخْ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ الشُّحْلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ^(١)

﴿وَأَمَّا﴾: حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت: أما زيد فذاهب؛ ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل لفائدتين/٣٦: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدرتين به - وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون - إحماد عظيم لأمر المؤمنين، واعتداد بعلمهم أنه الحق، ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم، وعنادهم، ورميهم بالكلمة الحمقاء، و﴿أَلْحَى﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، يقال: حق الأمر، إذا ثبت ووجب، وحقّت كلمة ربك، وثوب محقق: محكم النسخ، و﴿مَادَّآ﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، فيكون كلمتين، وأن يكون «ذا» مركبة مع «ما» مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة، فهو على الوجه الأول مرفوع المحل على الابتداء، وخبره ذا مع صلته، وعلى الثاني منصوب المحل في حكم «ما» وحده، لو قلت: ما أراد الله، والأصوب في جوابه أن يجيء على الأول مرفوعاً، وعلى الثاني منصوباً، ليطابق الجواب السؤال، وقد جوزوا عكس ذلك تقول في جواب من قال: ما رأيت؟ خير، أي المرثي خير، وفي جواب ما الذي رأيت؟: خيراً، أي رأيت خيراً، وقرئ قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُكَ مَاذَا يُفْقِنُ قُلِي الْمَعْوَى﴾ [البقرة: ٢١٥]، بالرفع والنصب على التقديرين، والإرادة نقيض الكراهة، وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك وما إلى قلبك، وفي حدود المتكلمين: الإرادة معنى يوجب للحي حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه، وقد اختلفوا في إرادة الله، فبعضهم على

(١) للزمخشري، وإن كانت عادته في الكتاب ألا ينسب شعره لنفسه. يقول: يا أله يا مبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل. والبهيم: المظلم، لانتهام الأشياء فيه. والأليل: أنفل تفصيل من الليل - وإن كان جامداً - للمبالغة في الظلمة. والنياط: عرق غليظ منوط بالقلب متصل به عروق رقيقة. والنحر: أسفل العنق، والمخ: ما في وسط العظام. والنحل: جمع ناحل، أي دقيق. والفرطات: ذنوبه التي فرطت منه، و «ما كان» مفعول «اغفر». والزمان الأول: زمن الشباب.

أن للباري مثل صفة المرید منا التي هي القصد، وهو أمر زائد على كونه عالماً غير ساء، وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها وهو غير ساء ولا مكروه، ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها، والضمير في ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: للمثل، أو لأن يضرب، وفي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ استرذال واستحقار، كما: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: يَا عَجَبًا لِأَبْنِ عَمْرٍو هَذَا (٤٠)!

﴿مَثَلًا﴾: نصب على التمييز؛ كقولك لمن أجاب بجواب غث: ماذا أردت بهذا جواباً، ولمن حمل سلاحاً ردياً: كيف تنتفع بهذا سلاحاً؟ أو على الحال، كقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأصراف: ٧٣]، وقوله: ﴿يُنْزِلُ يَوْمَ كَثِيرًا يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جار مجرى التفسير والبيان للجمليتين المصدرتين بأما، وأن فريق العالمين بأنه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداده به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأن الجهل بحسن مورده من باب الضلالة التي زادت الجهلة خطياً في ظلماتهم، فإن قلت: لم وصف المهديون بالكثرة، والقلة صفتهم^(١)، ﴿وَقِيلَ مِّنْ عِبَادِ الشَّكُورِ﴾ [سبا: ١٣]، ﴿وَقِيلَ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»، «وجدت الناس أخْبَرَ ثَقْلُهُ»؟ قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم،

٤٠ - أخرجه مسلم (٢/٢٤٧ - نووي) كتاب الحيض، باب حكم صفائر المعتسلة حديث (٣٣١)، وابن ماجه (١/١٩٨) كتاب الطهارة، باب ما جاء في غسل النساء من الجنابة، حديث (٦٠٤)، وأحمد في المسند (٤٣/٦)، والبيهقي في السنن (١/١٨١). وابن أبي شيبه (٧٣/١) رقم (٧٩٣).

قال الجافظ ابن حجر في تخریج الكشف: هو قطعة من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض من رواية عبيد بن عمير، قال: «بلغ عائشة أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن... الحديث» فقالت عائشة: «يا عجباً لابن عمرو هذا، يأمر النساء... انتهى».

(١) قال محمود رحمه الله: فإن قلت: «كيف وصف المهديون بالكثرة... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله: جوابه صحيح، وتنظيره بالبيت وهم؛ لأن الشاعر إنما ذهب إلى أن عدد الكرام وإن كان قليلاً في نفسه فالواحد منهم لمعوم نفعه وانسياط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلاً. وعدد اللثام وإن كثروا فلا كثرون منهم يعدون بواحد من غيرهم، لغل أيديهم وانقباضها عن الجود، وعدم تعدي نفع منهم إلى غيرهم، كقول ابن يزيد [من الرجز]:

الناس ألف منهم كواحد وواحد كآلف إن أمر عرا

وأما الآية فمضمونها أن عدد المهديين كثير في نفسه، ومضمون الآيات الأخر أن عددهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين، فعبّر عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته، وتارة بالقلة نظراً إلى غيره، فليس معنى البيت من الآية في شيء.

وحين يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً، فإن القليل من المهديين كثير في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة، فسَمُوا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً^{٣٦} ب [من البسيط]:

إِنَّ الْكَرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا^(١)
وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب^(٢)؛ لأنه لما ضرب المثل، فضل به قوم واهتدى به قوم، تسبب لضلالهم وهداهم، وعن مالك بن دينار - رحمه الله - أنه دخل على محبوبس قد أخذ بمال عليه وقيد، فقال: يا أبا يحيى، أما ترى ما نحن فيه من القيود؟ فرفع مالك رأسه فرأى سلّة، فقال: لمن هذه السلّة؟ فقال: لي، فأمر بها تنزل، فإذا دجاج وأخبصة، فقال مالك: هذه وضعت القيود على رجلك، وقرأ زيد بن علي: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» وكذلك: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَتَنَاتِ»^(٣)، والفسق: الخروج عن القصد، قال زُؤَيْبَةُ [من الرجز]:

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا^(٤)

(١) القل - بالفتح -: القليل، وهو المراد. وبالضم: بمعنى القلة، ويستعمل بمعنى القليل أيضاً. وبالكسر: الارتعاد غضباً. يقول: إن الكرام في الدنيا كثير لكثرة خيرهم. لأن الكريم يقام ألف لثيم، والحال أنهم قليل في العدد كما أن غيرهم - يعني اللثام - قليل في الخير وإن كثروا في العدد. فوجه الشبه اجتماع الكثرة والقلة في كل على التوزيع. ينظر الدر المصون: ١٦٧/١.

(٢) قال محمود رحمه الله: «ونسبة الإضلال إلى الله تعالى من إسناد الفعل إلى السبب... إلخ». قال أحمد رحمه الله: جرى على سنة السببية في اعتقاد أن الإشراف بالله وأن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل، بل من مخلوقات العبد لنفسه على زعم هذه الطائفة - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وانظر إلى ضيق الخناق، بغلبة الحكايات لإطلاقات المشايخ فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى واقتحام الهلكة. وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الإضلال لا خالقه كما أن السلة سبب في وضع القيود في رجلني محبوبس. وإسناد الفعل لله عز وجل مجاز لا حقيقة، كما أن إسناد الفعل إلى البلد كذلك! يا له من تمثيل صار به مثله، وتنظير صار به حائداً عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة. نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة، وهو ولي التوفيق.

(٣) فواسقاً عن قصدها جوائرا
لرؤية بن العجاج، وقيل لذي الرمة، يصف نوقاً تمشي في المغاوز، خارجات عن طريق الاستقامة، مجاوزات حده. ويبيّن ذلك بقوله: يذهبن: وروي: يهوين، أي يسرعن تارة في مكان مرتفع، وتارة في غور: أي في مكان كثير الانخفاض. فغوراً: نصب على الظرفية. وغائراً: وصف مؤكّد. ينظر ديوانه: ص ١٩٠، وأساس البلاغة (فسق)، وللعجاج في ملحق ديوانه ٢/٢٨٨، والكتاب: ٩٤/١، ولسان العرب: (فسق) وتهذيب اللغة: ٨/٤١٤، وتاج العروس (فسق)، وجواهر الأدب ص ٣٣، والخصائص: ٢/٤٣٢، وشرح التصريح: ١/٢٨٨، وشرح شذور الذهب ص ٤٣١ =

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين^(١) أي بين منزلة المؤمن والكافر، وقالوا: إن أوّل من حدّ له هذا الحدّ أبو حذيفة واصل بن عطاء رضي الله عنه وعن أشياعه^(٢)، وكونه بيّن بين: أنّ حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، وهو كالكافر في الذمّ واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته، وألا تقبل له شهادة، ومذهب مالك بن أنس والزيدية: أنّ الصلاة لا تجزئ خلفه، ويقال للخلفاء المردة من الكفار: الفسقة، وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله، ﴿يَسْأَلُ الَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]، يريد اللمز والتنازع، ﴿إِنَّكَ الْمُنْتَفِقِينَ هُمْ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقص في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين؛ ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ جَبَالًا وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا، فَتَخَشَّيْ إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَعَزَّكَ وَأَظْهَرَكَ - أَنْ تَرْجَعَ إِلَيَّ قَوْمِيكَ^(٤١)، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روافده، فيثبته بتلك الرزمة على مكانه؛ ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوّجت امرأة فاستوثرها، لم تقل هذا إلا وقد نهبت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش^(٣).

والعهد: الموثق، وعهد إليه في كذا: إذا وصاه به ووثقه عليه، واستعهد منه: إذا اشترط عليه واستوثق منه، والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله: أحبار اليهود المعتنتون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً، فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم

٤١ - أخرجه ابن هشام في السيرة (٥٩/١) رقم (٤٥١)، وأحمد في المسند (٤٦١/٣ - ٤٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٤٤٧/٢)، والطبراني في الكبير (٨٧/١٩ - ٩٠) رقم (١٧٤).
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن إسحاق في المغازي في قصة العقبة من رواية كعب بن مالك - فذكر القصة، وفيها: «فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فذكره بطوله»، وأخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه. انتهى.

والمحتسب: ٤٣/٢، والدر المصون: ١٦٨/١.

(١) قوله «وهو النازل بين المنزلتين» هذا عند المعتزلة، وأما عند أهل السنة فهو مؤمن، والفسق لا يخرج عن الإيمان. (ع)

(٢) قوله «وعن أشياعه» هم المعتزلة. (ع)

(٣) قوله «وعلى المرأة بأنها فراش» بناء على أن الوثارة لبن الفراش خاصة. (ع)

من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْتُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنتُمْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١١٢]، أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعِثَ إليهم رسول - يصدق الله بمعجزاته - صدقوه واتبعوه، ولم يكتفوا ذكره فيما تقدمه من الكتب/ ١٣٧ المنزلة عليهم، كقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِي بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله في الإنجيل لعيسى - صلوات الله عليه -: «سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل، وما أريته إياهم من الآيات، وما أنعمت عليهم، وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به، وما ضيعوا من عهده إليهم»، وحسن صنعه للذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهده، ونصره إياهم، وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غدروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده، لأن اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد صلى الله عليه وسلم من التحريف والجحود وكفروا به كما كفروا بمحمد ﷺ، وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأول الذي أخذه على جميع ذرية آدم، الإقرار بربوبيته^(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة وقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، وعهد خص به العلماء، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ الْأَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وعهد خاص به آل عمران: [١٨٧]، والضمير في ميثاقه للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم، ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه، كما أن الميعاد والميلاد، بمعنى الوعد والولادة، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، أي من بعد توثيقه عليهم، أو من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه وإنذار رسله، ومعنى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل: قطعهم الأرحام وموالات المؤمنين، وقيل: قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض، فإن قلت: ما الأمر؟ قلت: طلب الفعل ممن هو دونك وبعته عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور؛ لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به، فقيل له: أمر، تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به، كما قيل له شأن، والشأن: الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده، ﴿هُمُ الْخَائِرُونَ﴾؛ لأنهم استبدلوا النقص بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقابها بثوابها.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ

(١) قوله «الإقرار بربوبيته» لعله من الإقرار. (ع)

معنى الهمزة التي في ﴿كَيْفَ﴾: مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أظطير بغير جناح؟، وكيف ظطير بغير جناح؟ فإن قلت: قولك: أظطير بغير جناح إنكار للطيران؛ لأنه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإمامة والإحياء، قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان، فإن قلت: فقد تبين أمر الهمزة، وأنها لإنكار الفعل والإيدان باستحالته في نفسه، أو لقوة الصارف عنه، فما نقول في: ﴿كَيْفَ﴾، حيث كان إنكاراً للحال التي يقع عليها كفرهم؟ قلت: حال الشيء تابعة لذاته، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع/٣٧ ب ثبوت الحال؛ فكان إنكار حال الكفار لأنها تتبع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر، وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ، وتحريره: أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

والواو في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾: للحال، فإن قلت: فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماضٍ، ولا يقال جثث وقام الأمير، ولكن وقد قام، لا أن يضمّر قد؟ قلت: لم تدخل الواو على: ﴿كنتم أمواتاً﴾ وحده، ولكن على جملة قوله: ﴿كنتم أمواتاً﴾ إلى ﴿تُرْجَمُونَ﴾، كأنه قيل: كيف تكفرون بالله، وقصتكم هذه وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم بعد الموت، ثم يحاسبكم، فإن قلت: بعض القصة ماضٍ وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً؟ قلت: هو العلم بالقصة، كأنه قيل: كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها^(١)، فإن قلت: فقد آل المعنى إلى قولك: على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة فما وجه صحته؟ قلت: قد ذكرنا أن معنى الاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ الإنكار^(٢)، وأن إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكانه قيل: ما

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ ما معناه: هذا تَكَلُّفٌ، يعني تأويله هذه الجملة بالجملة الاسمية. قال: «والذي حَمَلَهُ على ذلك اعتقاده أن الجملَ مندرَجَةٌ في حكم الجملة الأولى». قال: «ولا يتعيّن، بل يكون قوله تعالى: «ثم يميتكم» وما بعده جملاً متسائفةً أَخْبَرَ بها تعالى لا داخلَةً تحت الحال؛ ولذلك غَايَزَ بينها وبين ما قبلها من الجملِ بحرف العطف وصيغة الفعل السابِقَيْنِ لها في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ﴾. انتهى الدر.

(٢) قوله - سبحانه - ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَالْقَوْ...﴾ الآية.

أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه! فإن قلت: إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتاً فأحياءهم ثم يميتهم، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع؟ قلت: قد تمكنوا من العلم بهما بالدلائل الموصلة إليه، فكان ذلك بمنزلة حصول العلم، وكثير منهم علموا ثم عاندوا، والأموات: جمع ميت، كالأقوال في جمع قَيْل^(١)، فإن قلت: كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جماداً، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البنى؟ قلت: بل يقال ذلك لعدم الحياة، كقوله ﴿بَلَدَةٌ مَيِّتًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، ﴿وَوَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ [يس: ٣٣]، ﴿أَتَوْتُمْ عِبْرَ نُحْيَاوُ﴾ [النحل: ٢١]، ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما في أن لا روح ولا إحساس، فإن قلت: ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلت: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر: وبالرجوع: النشور، وأن يراد به النشور، وبالرجوع: المصير إلى الجزاء، فإن قلت: لم كان العطف الأول بالفاء والإعقاب بضم؟ قلت: لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت - إن أريد به النشور - تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء - أيضاً - متراخ عن النشور، فإن قلت: من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي ذكرها الله، ألا أنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أم على نعم جسمان حقها أن تشكر ولا تكفر؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً، لأن ما عدده آيات/٣٨ وهي مع كونها آيات من أعظم النعم، ﴿لَكُمْ﴾: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم

= فيه «كيف» في موضع الهمزة المفيدة للإنكار والتعجب، وهذا ما أفاده المفسر العلامة وشرحه مطبقاً...

أقول: «كيف» اسم استفهام للسؤال عن الحال، وجوابه بيان حال المسؤول عنه، كما إذا قلت كيف محمداً؟ فجوابه: صحيح أو سقيم، مشغول أو فارغ ونحو ذلك.

وهذه الأداة جعلها البلاغيون من أدوات التصور أي تصور أحد أركان الإسناد: المسند أو المسند إليه، أو العلاقة بينهما، أو أكثر من واحد منها.

وكما تفيد السؤال عن الحال تفيد معاني أخرى بقرينة الحال كما في الآية هنا فقد جاءت للتعجب مع الإنكار فهي في موضع الهمزة كما قرر المفسر العلامة.

والتعجب في اللغة يحدده صاحب اللسان بقوله «أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله» ويتضمن هذا إنكاراً، ولهذا قال صاحب اللسان - أيضاً - «العجب والعجب: إنكار ما يرد عليك لفلة اعتياده».

وبهذا نصل إلى أن التعجب: انفعال النفس بالشيء أو الأمر الغريب النادر لأنها لم تر مثله ويأتي بأدوات كثيرة من أدوات الاستفهام ومنها: هل، وما، وأي، وأني مع الهمزة وكيف.

ينظر اللسان (عجب) الإيضاح للقرطبي ٧٢/٣، المطول ٢٣٥، البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨٢.

(١) قوله «كالأقوال في جمع قيل» ملك من ملوك حمير. وأصله «قيل» بالتشديد. ومن جمعه على أقبال لم يجعل أصله مشدداً. كذا في الصحاح. (ع)

ودينكم، أما الانتفاع الدنيوي فظاهر، وأما الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التذكير بالآخرة وبثوابها وعقابها، لاشتغاله على أسباب الأنس واللذة من فنون المطاعم والمشارب والفواكه والمناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية، وعلى أسباب الوحشة والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسيب والاحتشاش والسموم والغموم والمخاوف؛ وقد استدل بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾، على أَنَّ الأشياء التي يصح أن ينتفع بها^(١) ولم تجري مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقاً لكل أحد أن يتناولها ويستمتع بها، فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة؟ قلت: إن أراد الأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية: جاز ذلك، فإنَّ الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية، و﴿حَكِيمًا﴾: نصب على الحال من الموصول الثاني، والاستواء: الاعتدال والاستقامة، يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً، من غير أن يلوي على شيء، ومنه استعير قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي قصد إليها بإرادته ومشيتته بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر، والمراد بالسماء جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق، والضمير في ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾: ضمير مبهم، و﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾: تفسيره؛ كقولهم: ربه رجلاً^(٢)، وقيل: الضمير راجع إلى السماء، والسماء في معنى الجنس، وقيل: جمع

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «وقد استدلَّ بقوله (خلق لكم) على أن الأشياء التي يصحُّ أن ينتفع بها... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هذا استدلال فرقة من القدرية ذهب إلى أن حكم الله تعالى الإباحة في ذوات المنافع التي لا يدل العقل على تحريمها قبل ورود الرُّسُل تلقِّيها من العقل وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق داعية إليها، فخلقها مع خطرهما على العباد خلاف مقتضى الحكمة: فوجب عندهم بمقتضى العقل أن يعتقدوا إباحتها في حكم الله عزَّ وجل، وهذا زلل ناشئ عن قاعدة التحسين والتقيح الباطلة. وأما استدلال الزمخشري لهذه الفرقة بالآية فغير مستقيم، فإنَّ دعواهم أن العقل كافٍ في إباحة هذه الأشياء. فإن دلت الآية على الإباحة فنحن نقول بموجبها ويكون إذا إباحة شرعية سمعية. وإن لم تدل على الإباحة لم يبق في الاستدلال بها مطمع. قال السمين الحلبي: وقد رُدَّ عليه هذا؛ فإنه ليس من المواضع التي يُفسَّر فيها الضمير بما بعده؛ لأنَّ النحويين حَضَرُوا ذلك في سبعة مواضع: ضمير الشأن، والمجرور بـ «رُبَّ» والمرفوع بنغم وبنس وما جرى مجراهما، وبأول المتنَّازعين، والمفسَّر بخبره، وبالمُبدل منه، ثم قال هذا المعترض: «إلا أن يُتَخَيَّلَ فيه أن يكون «سبع سموات» بدلاً وهو الذي يقتضيه تشبيهه برُبه رجلاً، فإنه ضمير مبهم ليس عائداً على شيء قبله، لكن هذا يُضعف بكون هذا التقدير يُجَعِّلُه غير مرتبط بما قبله ارتباطاً كلياً، فيكون أخيراً بإخبارين: أحدهما: أنه استوى إلى السماء.

والثاني: أنه سَوَّى سبع سموات، وظاهر الكلام أن الذي استوى إليه هو المُسَوَّى بعينه. انتهى. الدر.

سمااء، والوجه العربي هو الأول، ومعنى تسويتهم: تعديل خلقهم، وتقديمه، وإخلاؤه من العوج والفتور، أو إتمام خلقهم ﴿وَمَوْ كَلَّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾؛ فمن ثم خلقهم خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، فإن قلت: ما فسرته به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه (ثم) لإعطائه معنى التراخي والمهلة قلت: (ثم) ههنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السموات على خلق الأرض، لا للتراخي في الوقت كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٧]، على أنه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به، لأن المعنى [أنه] حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك - أي في تضاعيف القصد إليها - خلقاً آخر. فإن قلت: أما يناقض هذا قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]؟ قلت: لا؛ لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء، وأما دحواها فمتأخر، وعن الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر، عليها دخان ملتزق بها، ثم أصدع الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض، فذلك قوله: ﴿كَانَتْ رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهو الالتزاق/ ٣٨ ب.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٠] وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [٢٣]

﴿وَإِذْ﴾: نصب بإضمار اذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا، والملائكة: جمع ملاك على الأصل، كالشماثل في جمع شمال، والحق التاء لتأنيث الجمع، و﴿جَاعِلٌ﴾ من جعل الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكانا مفعولي، ومعناه مُصَيِّرٌ في الأرض خليفة، والخليفة: من يخلف غيره، والمعنى: خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته، فإن قلت: فهلا قيل: خلافت، أو خلفاء؟ قلت: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما يُستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم فوحد لذلك، وقرئ: «خليفة» بالقاف ويجوز أن يريد: خليفة مني، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، فإن قلت: لأي غرض

أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيئوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم، وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة. ﴿أَجْعَلْ فِيهَا﴾: تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير^(١)، ولا يريد إلا الخير، فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلت: عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة، وقرئ: «يُسْفِكُ»، بضم الفاء، وَيُسْفِكُ، وَيُسْفِكُ، من أسفك، وسفك، والواو في ﴿وَنَحْنُ﴾: للحال، كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان، والتسبيح: تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقدسه، من سبح في الأرض والماء، وقُدس في الأرض: إذا ذهب فيها وأبعد، و﴿يَحْمَدُكَ﴾: في موضع الحال، أي نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك؛ لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك، ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم، فإن قلت: هلا بين لهم تلك المصالح؟ قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة، على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، واشتقاقهم ﴿آدَمَ﴾ من الأدمة، ومن أديم الأرض، نحو اشتقاقهم: (يعقوب): من العقب، و (إدريس): من الدرس، و (إبليس): من الإبلas، وما آدم إلا اسم أعجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل، كآزر، وعازر، وعابر، وشالغ، وفالغ، وأشباه ذلك: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: أي أسماء المسميات^(٢)، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، لأن الاسم

(١) قوله «هو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير» هذا وما بعده عند المعتزلة. وأما عند أهل السنة فهو تعالى يفعل الخير والشر ويريدهما. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «أي أسماء المسميات... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهو يفر من اعتقاد أن الاسم هو المسمى، لأن ذلك معتقد أهل السنة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية بقوله ﴿أَلَيْسَ لَهُمْ أَسْمَاءُ؟﴾ ويتغافل عن قوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ فإن الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً. ولم يجر إلا ذكر الأسماء، فدل على أنها المسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم، وأن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات وإطلاعه على حقائقها وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار وعلى تسميتها أيضاً فإن طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها فقد ثبت بهاتين النكتتين أن المراد بالأسماء المسميات. وأما استدلاله بقوله (أنثوني بأسماء هؤلاء) فغايتة إضافة الأسماء إلى الذوات، فلم يأن يقولوا لو كانت الأسماء هي الذوات =

لا بد له من مسمى، وعوض منه اللام كقوله: ﴿وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ﴾ [مریم: ٤٤]، فإن قلت: هلا/ ١٣٩ زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل: وعلم آدم مسميات الأسماء؟ قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات، لقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، ﴿أَلَيْسَ لَهُمْ بَشَرٌ مِّثْلُ آبَائِهِمْ﴾ فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم، وجب تعليق التعليم بها، فإن قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت: أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية، ﴿فَمَنْ عَرَضَهُمْ﴾: أي عرض المسميات؛ وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم، وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في زعمكم أنني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا، فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ استحضار لقوله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأنشرح، وقرئ: «وعلم آدم» على البناء للمفعول، وقرأ عبد الله: «عرضهن»، وقرأ أبي: «عرضها»، والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها؛ لأن العرض لا يصح في الأسماء، وقرئ: «أنبيهم»، بقلب الهمزة ياء، «وأنبهم»، بحذفها والهاء مكسورة فيهما.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤)
 وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى جِينِ ﴿٣٦﴾

= لزمت إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا ما لا مطمع فيه فإن هذه الإضافة مثلها في قولك: نفس زيد وحقيقته، فالمراد إذا نبئوني بحقائق هؤلاء، ولا نكير في هذه الإضافة؛ فإن الأسماء بمعنى المسميات. والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم والمضاف إليهم فصحت الإضافة لما بين الأعم والأخص من التغاير، وهذا هو المصحح للإضافة في مثل نفس زيد وأشباهه. فهذه نبذة من مسألة الاسم والمسمى تختص بهذه الآية. وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عُدّها المتكلمون من فن الكلام، فالغالب عليها أنها مسألة لفظية لا يرجع اختلاف الأشعرية والمعتزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة.

السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف^(١) وإخوته له؟ ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه، وقرأ أبو جعفر: «للملائكة اسجدوا» بضم التاء للإتباع، ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتباع إلا في لغة ضعيفة، كقولهم: «الحمد لله»^(٢)، «إِلَّا إِيَّائِيسَ»، استثناء متصل، لأنه كان جتيّاً واحداً بين أظهر الألف من الملائكة مغموراً بهم، فغلبوا عليه في قوله: ﴿سَجَدُوا﴾، ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يجعل منقطعاً ﴿أَيُّ﴾ امتنع مما أمر به ﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾ عنه، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. من جنس كفر الجن وشياطينهم، فلذلك أبى واستكبر؛ كقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْإِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار، و﴿أَنْتَ﴾ تأكيد للمستكن في ﴿أَسْكُنْ﴾؛ ليصح العطف عليه، و﴿رَعْدًا﴾ وصف للمصدر، أي أكلا رعداً واسعاً رافهاً، و﴿حَيْثُ﴾: للمكان المبهم، أي: أي مكان من الجنة ﴿شَيْئًا﴾: أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة، حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة، حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفاتنة للحصر، وكانت الشجرة فيما قيل: (الحنطة)، أو (الكرمة)، أو (التينة)، وقرئ: «ولا تقربا» بكسر التاء، و«هذي» و«الشجرة»، ٣٩/ ب كسر الشين، و«الشيرة» بكسر الشين والياء، وعن أبي عمرو أنه كرهها، وقال يقرأ بها براءة مكة وسودانها، ﴿وَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله، ﴿فَنَكُونُ﴾ جزم عطف على ﴿نَقَرًا﴾، أو نصب جواب للنهي، الضمير في ﴿عَنَّا﴾ للشجرة، أي فحملهما الشيطان على الزلة بسببها، وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها، و(عن): هذه، مثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]، وقوله: [من السريع]

- (١) قوله «لآدم وأبو يوسف» لعله وأبو يوسف. (ع)
 (٢) قال السمين الحلبي: قلت: وهذا أكثر شذوذاً، وأضعف من ذاك مع ما في ذاك من الضعف المتقدم؛ لأن هناك فاصلاً وإن كان ساكناً، وقال أبو البقاء: «وهي قراءة ضعيفة جداً، وأحسن ما تُحتمل عليه أن يكون الراوي لم يَضِطَّ عن القاري، وذلك أن القاري أشار إلى الضم تنبيهاً على أن الهمزة المحذوفة مضمومة في الابتداء، فلم يُذكر الراوي هذه الإشارة. وقيل: إنه نوى الوقف على التاء ساكنة ثم حركها بالضم إتياعاً لحركة الجيم، وهذا من إجراء الوضيل مخبري الوقف؛ ومثله: ما روي عن امرأة رأت رجلاً مع نساء فقالت: «أفي سؤة أنته» نوب الوقف على «سؤة» فسكت التاء ثم ألقت عليها حركة همزة «أنته». قلت: فعلى هذا تكون هذه الحركة حركة التقاء ساكنين، وحينئذ يكون كقوله: «قالت اخرج» وبابه، وإنما أكثر الناس توجية هذه القراءة لجلالة قاريها أبي جعفر يزيد بن القعقاع شيخ نافع أهل المدينة، وترجمتها مشهورة. انتهى. الدر.

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلِ^(١) وَعَنْ شُرْبِ^(٢)

وقيل: فأزلهما عن الجنة^(٣) بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: زل عن مرتبته، وزل عنى ذاك: إذا ذهب عنك، وزل من الشهر كذا، وقرئ: «فأزلهما»، «وَمَا كَأَنَّ فِيهِ» من النعيم والكرامة. أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة؛ في (عنها)، وقرأ عبد الله: «فوسوس لهما الشيطان عنها»، وهذا دليل على أنَّ الضمير للشجرة، لأنَّ المعنى صدرت وسوسته عنها، فإن قلت: كيف توصل إلى إزلالهما وسوسته لهما بعدما قيل له: «فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ» [ص: ٧٧]. قلت: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء، وقيل: كان يدنو من السماء فيكلمهما، وقيل: قام عند الباب فنادى، ورُوي أنه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون، قيل: «أَفْطُوا»: خطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية، والصحيح أنه لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومشتعبيهم جعلاً كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: «قَالَ أَهْبَأْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» [طه: ١٢٣] ويدل على ذلك قوله: «فَمَنْ يَتَّبِعْ هَذَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»، «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَّيْنَتَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [٢٦]، وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم، ومعنى بعضكم لبعض «عَدُوٌّ»: ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض، والهبوط: النزول إلى الأرض، «مُسْتَقَرٌّ» موضع استقرار: أو استقرار «وَتَتَّعٌ» وتمتع بالعيش، «إِلَى حِينٍ»: يريد إلى يوم القيامة، وقيل: إلى الموت.

«فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَأَبَ الرَّجِيمُ» [٢٧] قُلْنَا أَهْبَأْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هَذِي فَمَنْ يَتَّبِعْ هَذَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٢٨] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٢٩]

(١) قوله «وقوله ينهون عن أكل» في الصحاح: جزور نهي - على فعلة -: أي ضخمة سمينة.

(٢) يمشون رسماً فوق قننته يمشون عن أكل وعن شرب يصف مضيقاً أشبع أضيافه، فهم يمشون ويرسمون رسماً فوق أعلى الجبل. وقته الجبل وقتله: أعلاه، حال كونهم متباهين في السمن تناهياً ناشئاً عن أكل كثير وشرب كثير. ينظر لسان العرب: (نوه)، (نهي).

(٣) قال محمود رحمه الله: «وقيل فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول زل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ويشهد له قوله تعالى «كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ».

معنى تلقي الكلمات؛ استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها، وقرىء بنصب (آدم) ورفع (الكلمات)، على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به، فإن قلت: ما هن؟ قلت: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَّمْنَا نَفْسَنَا...﴾ الآية [الأعراف: ٢٣]، وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، (٤٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم»، (٤٣) واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء، لأنها كانت تبعاً له، كما طوى ذكر/ ٤٠ النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك، وقد ذكرها في قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا عَلَّمْنَا نَفْسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿قَالَ عَلِيُّ﴾: فرجع عليه بالرحمة والقبول، فإن قلت: لم كرر: ﴿وَقُلْنَا أَفْطُوا؟﴾ قلت: للتأكيد ولما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِنَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هَذِي﴾، فإن قلت: ما جواب الشرط الأول؟ قلت: الشرط الثاني مع جوابه؛ كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك، والمعنى: فإما يأتينكم مني هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم؛ بدليل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله: ﴿فَمَنْ يَجْعَلْ هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]، فإن قلت:

٤٢ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢١٠/١) رقم (٢٤٠٣)، قال: حدثنا أبو بكر قال: نا ابن فضيل وأبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابن مسعود فذكره. قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: موقوف، أخرجه ابن أبي شيبة في أوائل الصلاة من رواية إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابن مسعود: فذكره ولم يقل: «ما قال أبونا آدم حين اقترف الخطيئة». انتهى.

٤٣ - أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٤٥/٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي وابن جرير في التفسير (٥٤٢/١) رقم (٧٧٥). وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٥/١) رقم (٤١١)، وذكره السيوطي في الدرر (١١٦/١)، وعزاه للغريابي وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف، أخرجه الحاكم في ترجمة آدم، من فضائل الأنبياء، من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عنه... انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت لم جيء بكلمة الشك وإتيان الهدى كائن... إلخ؟». قال أحمد رحمه الله: هاتان زتان زلهما فلزهما في قرن: الأولى: إيراد السؤال بناء على أن الهدى على الله تعالى واجب. والثانية: بناء الجواب على أن الوجوب الشرعي يثبت بالعقل قبل ورود الشرع. والحق أن الله تعالى لا يجب عليه شيء - تعالى عن الإيجاب رب الأرباب -. وإنما يدخل تحت =

فلم جيء بكلمة الشك^(١)، وإتيان الهدى كائن لا محالة لوجوبه؟ قلت: للإيذان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل، وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً، كان الإيمان به وتوحيده واجباً؛ لما ركب فيهم^(٢) من العقول، ونصب لهم من الأدلة وممكنهم من النظر والاستدلال، فإن قلت: الخطيئة التي أهبط بها آدم^(٣) إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء؟ وإن كانت صغيرة، فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء، كما فعل إبليس ونسبته إلى الغي والعصيان، ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة؟ قلت: ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى، تعظيماً للخطيئة وتفظيماً لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذرئته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة، فكيف يدخلها ذو خطايا جمّة، وقرئ: «فمن تبع هُديّ» على لغة هذيل، «فلا خوف» بالفتح.

﴿يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَعْقِبَ آلِي أَنْتُمْ عَلَيَّكَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿٥٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿إِسْرَءِيلَ﴾: هو يعقوب - عليه السلام - لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله،

= ربة التكاليف المربوب لا الرب. وأما وجوب النظر في أدلة التوحيد، قائماً بثبت بالسمع لا بالعقل، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع، بل محض العقل كافٍ فيه باتفاق.

(١) قوله «واجباً لما ركب فيهم» هذا عند المعتزلة. وأما عند أهل السنة فلا حكم قبل الشرع. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت الخطيئة التي أهبط بها آدم من الجنة... إلخ». قال أحمد رحمه الله تعالى: مقتضاه تأويل الآي المشعر ظاهرها بوقوع الصغائر من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها. على أن تجوز الصغائر عليهم قد قال به طوائف من أهل السنة. وفي طي وقوعها إطفاء وزيادة في الالتجاء إلى الله تعالى والتواضع له والاشفاق على الخطائين والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له يدعو للخطائين كثيراً. وعلى الجملة فالقدري يجوز الصغائر على الأنبياء ويقول: إن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر في حق الناس فلا جرم التزم الزمخشري ورود السؤال؛ لأن آدم عليه السلام معصوم من الكبائر باتفاق فيلزم على قاعدة القدرية أن تكون صغيرة واجبة التكفير والمحو، غير مؤاخذ عليها ولا مستوجب بسببها عقوبة ولا شيئاً مما وقع، وهذا لا جواب للزمخشري عنه إلا الإنصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة والمذاهب الماحلة ولقد شئنا السؤال بقوله إن الذي جرى على آدم عليه السلام كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة. ومعاذ الله أن يكون الحالان سواء والعاقبتان كما تعلم: أن آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم؛ وأن إبليس خالد في العذاب الأليم.

وقيل: عبد الله، وهو بزنة إبراهيم وإسماعيل، غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة، وقرىء «إسرائيل» و «إسرائيل»، وذكرهم النعمة: أَلَا يُحِثُّوْا بِشُكْرِهَا، ويعتدوا بها، ويستعظموها، ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم: من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وغير ذلك، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشر به في التوراة والإنجيل، والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً، يقال: أوفيت بعهدي، أي بما عاهدت عليه كقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وأوفيت بعهدك: أي بما عاهدتك عليه، ومعنى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾، وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿يَسْأَلُ صِدْقًا مَّا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم ﴿وَأَقِمُّوا زُهْدِيْنَ﴾: فلا تنقضوا عهدي، وهو من قولك: زيداً رهبت، وهو/ ٤٠ ب أوكد في إفادة الاختصاص من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقرىء: «أوف» بالتشديد: أي أبلغ في الوفاء بعهدكم، كقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ ما عاهدوا عليه ووعدوه من الإيمان بنبي الرحمة والكتاب المعجز، ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا أَمْسُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أول من كفر به، أو أول فريق أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به، كقولك: كسانا حلة، أي كل واحد منا، وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفةهم به وبصفته، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه والمستفتحين على الذين كفروا به، وكانوا يعدون اتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم على العكس كقوله: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُتَشَكِّكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا نَعَزُّ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْآيَةُ﴾ [البينة: ١ - ٤]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، ويجوز أن يراد: ولا تكونوا مثل أول كافر به، يعني من أشرك به من أهل مكة، أي: ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكوراً في التوراة موصوفاً، مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له، وقيل: الضمير في «به» لما معكم؛ لأنهم إذا كفروا بما يصدّقه فقد كفروا به، والاشتراء استعارة للاستبدال؛ كقوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله: [من الرجز]

كَمَا أَشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَ^(١)

وقوله [من الطويل]:

(١) مر شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١٦ فراجع إن شئت. اهـ مصححة.

..... فَأِنِّي شَرَيْتُ الْجِلْمَ بِغَدَاكَ بِالْجَهْلِ^(١)

يعني: ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً وإلا فالثمن هو المشتري به، والثلث القليل الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو أصبحوا أتباعاً لرسول الله ﷺ فاستبدلوا - وهي بدل قليل ومتاع يسير - بآيات الله وبالحق الذي كل كثير إليه قليل، وكل كبير إليه حقير، فما بال القليل الحقير، وقيل: كانت عامتهم يعطون أجارهم من زروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلم، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع، وكان ملوكهم يدزون عليهم الأموال؛ ليكتموا أو يحزفوا.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٣٦﴾

الباء التي في ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء خلطته به، كأن المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه، ﴿وَتَكْفُرُوا﴾: جزم داخل تحت حكم النهي، بمعنى: ولا تكتموا، أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي: ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك

(١) ألا زعمت أسماء الأحبها
جزيتك ضعف الود لولا اشتكيته
فإن تزعميني كنت أجهل فيكم
فإنني شريت الحلم بعدك بالجهل
لأبي ذؤيب الهذلي. وزعمت: أي ظننت أنه الحال والشأن لا أحبها، فقلت لها: بلى أحبك لولا ينازعني: أي لولا أن ينازعني شغلي ويصرفني عن مودتك. أو لو لم ينازعني شغلي لوددتك: جزيتك ضعف الود: أي وددتك قدر المعتاد مرتين، أو قدر ودك مرتين. لولا اشتكيته: أي لولا أن مللته وسئمته، أو لو لم تشتكيه لضاعفته وأكثرته، فلولا هنا يحتمل أنها كلمة واحدة فيقدر بعدها «أن» المصدرية، ويحتمل أنها كلمتان بمعنى لو لم، لكنه استعمال نادر. ويجوز في «لولا» الثانية أنها حرف تحضيض وتوبيخ كهلا، يعني كان الأحق بالشكوى كثرة المودة الموجبة للهمة، لا كثرة الهجر. و «ما» نافية، و «إن» و «من» زائدتان. وأجهل: فعل مضارع مرفوع. وقبل: أفضل تفضيل منصوب. فيكم: أي بسببكم، أو فيما بين قبيلتكم. وعبر بضمير جمع المذكر للتعظيم. فإني شريت: جواب الشرط، واشترى الشيء: أخذه بالثمن، وشرأ: باعه به، فالمراد هنا: استبدلت العقل بعد فرائك بالجهل، فهو مجاز مرسل علاقته بالإطلاق. والمعنى: أنه اعتذر عن عدم ودها بشغله وشكواها وعقله.

ينظر ديوانه (٣٦/١)، الهمع: (١٤٨/١)، ابن عقيل: (٤٢٣/١)، الدر المصون: ٢٠٧/١.

وتشرب اللبن، فإن قلت: لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى ينهوا عن الجمع بينهما، لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتموا الحق^(١)؟ قلت: بل هما متميزان؛ لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كتابتهم في التوراة ما ليس/ ٤١ أ منها، وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ، أو حكم كذا، أو يحموا ذلك، أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه، وفي مصحف عبد الله: «وتكتمون»، بمعنى كاتمين، «وَأَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ»: في حال علمكم أنكم لا بسون كاتمون، وهو أفتح لهم، لأن الجهل بالقبيح ربما عذر راكمه «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» يعني: صلاة المسلمين وزكاتهم «وَأَذْكُرُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ» منهم؛ لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل: (الركوع): الخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله، ويجوز أن يراد بالركوع: الصلاة، كما يُعْبَرُ عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بأن يصلي مع المصلين، يعني في الجماعة، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة وصلوها مع المصلين، لا منفردين.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٤) وَأَسْعَيْنَا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ﴾: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم^(٢)، والبر: سعة الخير والمعروف، ومنه البر لسعته، ويتناول كل خير، ومنه قولهم: صدقت وبررت، وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد ﷺ ولا يتبعونه، وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها، وعن محمد بن واسع: بلغني أن ناساً من أهل الجنة أطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة، قالوا: كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها، «وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» وتركونها من البر كالمنسيات، «وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ»: تبكيت مثل قوله: «وَأَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ»: يعني تتلون التوراة وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول بالعمل، «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»: توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون، لقبح

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: السؤال غير موجه، لأنه ادعى فيه عدم التمييز بين الفعلين. وغاية ما قدره تلازمهما. والمتلازمان متغايران متميزان، إلا أن يعني بعدم التمييز عدم الانفكاك، فلا نسلم له تعدد جمعهما في النهي إذا بل النهي عن أحدهما على هذا التقدير مستلزم للنهي عن الآخر، وإن لم يصرح به.

(٢) قوله - تعالى - «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» فيه الهمزة للتقرير والتوبيخ والتعجب من حالهم.

ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقبحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول، لأنَّ العقول تأباه وتدفعه، ونحوه: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]. ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿يَالْقَبْرِ وَالْعَلْوَةِ﴾ أي بالجمع بينهما، وأنَّ تصلُّوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، وما يجب فيها - من إخلاص القلب، وحفظ النيات، ودفع الوسواس، ومراعاة الآداب، والاحتباس من المكاره مع الخشية والخشوع، واستحضار العلم بأنَّه انتصاب بين يدي جبار السموات، ليسأل فكَّ الزقَاب عن سخطه وعذابه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] أو: واستعينوا على البليات والثواب بالصبر عليها والاتجاه إلى الصلَاة عند وقوعها، وكان رسولُ الله ﷺ «إذا حزبه أمر فزع إلى الصلَاة» (٤٤) وعن ابن عباس أنَّه نعي إليه أخوه «فُتِم» وهو في سفر، فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلَّى ركعتين أطالَ فيهما الجُلُوسَ، ثُمَّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: «واستعينوا بالصبر والصلَاة»، (٤٥) وقيل:

٤٤ - أخرجه أبو داود (٤٢٠/١) كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي - ﷺ - من الليل حديث (١٣١٩)، وأحمد (٣٨٨/٥).

والبغوي في شرح السنة (٥٢٦/٢) رقم (١٠١١)، وابن جرير في التفسير (١٢/٢) رقم (٨٥٠)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٥٣/٣) باب إرسال حذيفة بن اليمان إلى عسكر المشركين. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه الطبري في تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ، فأخرجه أبو داود وأحمد من رواية عبد العزيز أخي حذيفة عن حذيفة بلفظ: «كان إذا حزبه أمر صلى». وأخرجه البيهقي في الدلائل في قصة الخندق مطولاً. انتهى.

٤٥ - أخرجه ابن جرير في التفسير (١٤/٢) رقم (٨٥٢)، وسعيد بن منصور في سننه (٦٣٢/٢) كتاب =

= أقول: الهزمة أوسع أدوات الاستفهام استعمالاً ولهذا جاء للتصور والتصديق بخلاف هل فإنها للتصديق فقط، وبقية أدوات الاستفهام فإنها للتصور فقط.

فالهزمة للتصديق وهو انقياد الذهن وإذعانه لوقوع النسبة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها، وهذا ما يفهم من قولك أقام زيد؟، وأزيد قام، فالمسؤول عنه نسبة القيام إليه في الواقع أحاصلة أم لم تحصل؟

وتأتي للتصور - أيضاً - وهو: إدراك غير النسبة المذكورة آنفاً كقولك: أتمر في الطبق أم عنب؟ فالمطلوب تعيين المسند إليه، وقد يطلب تعيين المسند كما في قولك:

أزيد في المنزل أم في العمل؟، وللهزمة معانٍ أخرى تدرِك من خلال المقام ومن رام هذا الكلام فعليه بالمصنغات البلاغية وانتقال الأداة لهذه المعاني بطريق «ينظر الإيضاح للقرظوني ٥٨/٣، ٥٩، والمطلوب ٢٣٩ التلازم بين معناها الأصلي: الاستفهام والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٢٥٩ وما بعدها، ومن البلاغة والمعنى المنقولة إليه، وذلك في جميع العربية في نور القرآن والسنة النبوية لفتحي حجازي وزميله الأدوات على غرارها. ٩٨، وعقود الجمان للسيوطي ١٧٤/١.

الصَّبر الصوم، لآته حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصَّبر/ ٤١ ب ويجوز أن يراد بالصَّلاة الدَّعاء، وأن يستعان على البلايا بالصَّبر، والاتِّجاء إلى الدَّعاء، والإبتها إلى الله تعالى في دفعه. ﴿وَأَنفَاهَا﴾ الضمير للصَّلاة أو للإستعانة، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل، ونهوا عنها من قوله: ﴿أَذْكُرُوا يَمَعِيَ...﴾ [البقرة: ١٢٢] إلى ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقة ثقيلة من قولك: كبر عليّ هذا الأمر، ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ [الشورى: ١٣]. فإن قلت: ما لها لم تنقل على الخاشعين والخشوع في نفسه ممّا يثقل؟ قلت: لأنهم يتوقَّعون ما آذخ للصابرين على متاعها فتَهون عليهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكُلُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رِيعَهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦] أي يتوقَّعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده، ويطمعون فيه، وفي مصحف عبد الله: «يعلمون»، ومعناه: يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، ولذلك فسر: (يظنون): يتيقنون، وأمّا من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب، كانت عليه مشقة خالصة فتثقلت عليه كالمنافقين والمرائين بأعمالهم، ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجرة زائدة على مقدار عمله، فتراه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صدر ومضاحكة لحاضريه، كأنه يستلذّ مزاولته بخلاف حال عامل يستخره بعض الظلمة، ومن ثمّ قال رسول الله ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٤٦). وكان يقول: «يا بلال، رَوْحَنَا» (٤٧)، والخشوع:

= التفسير، ورواه من طريقه البيهقي في الشعب (١١٤/٧) رقم (٩٦٨٢)، وذكره السيوطي في الدر (١٣١/١) وعزاه لابن المنذر.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف، أخرجه سعيد بن منصور. والطبري من طريق عينة بن عبد الرحمن عن أبيه: أن ابن عباس... فذكره، وأخرجه البيهقي في الشعب من هذا الوجه. ٤٦ - أخرجه النسائي (٦١/٧) كتاب عشرة النساء، باب حبّ النساء: من طريق ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، والطَّيِّبُ، وجعل قرة عيني في الصلاة...». وأخرجه في السنن الكبرى (٢٨٠/٥) كتاب عشرة النساء، باب حبّ النساء رقم (٨٨٨٧)، (٨٨٨٨)، وأحمد (١٢٨/٣)، ١٩٩، (٢٨٥)، والحاكم (١٦٠/٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٩٩/٦) رقم (٣٤٨٢).

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه النسائي والحاكم وأحمد وابن أبي شيبه والبزار من حديث أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، والطَّيِّبُ، وجعلت قرة عيني في الصلاة، وسيأتي في آل عمران. انتهى.

٤٧ - أخرجه أبو داود (٢٩٦/٤) في الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥) وأحمد (٣٦٤/٥)، والطبراني في الكبير (٢٧٦/٦) برقم (٦٢١٤)، والخطيب في التاريخ (٤٤٤/١٠) من طريق سعد بن كدام بن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل.

= [عند أبي داود والطبراني والخطيب. رجل من خزاعة. وعن أحمد: رجل من أسلم].

الإخبات والتطامن، ومنه: الخشعة للرملة المتطامنة، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، ومنه: خضعت بقولها إذا ليتته.

﴿يَسْتَبِيحُ لِمَنْ يَدْعُوهُ يَسْتَبِيحُ إِلَيْهِ أَنْتُمْ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا يَجْرَى فَنَسْ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٨﴾

قال: ليتني صليت فاسترحت. فكانهم عابوا عليه ذلك. فقال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها».

وأخرجه الخطيب عن حفص بن غياث عن ثابت الشامي عن سالم بن أبي الجعد عن رجل قال سمعت النبي - ﷺ - وحضرت الصلاة - يقول: أرحنا بها يا بلال.

وأخرجه أبو داود (٤٩٨٦)، وأحمد (٣٧١/٥)، والخطيب (٤٤٣/١٠) عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد، عن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا من الأنصار نعوذه فحضرت الصلاة. فقال لبعض أهله: يا جارية اتوني بوضوء لعلي أصلي فاستريح. قال: فأنكرنا ذلك عليه. فقال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: قم يا بلال فأرحنا بالصلاة.

وتابعه أبو حمزة الشامي رواه الطبراني (٦٢١٥)، والخطيب (٤٤٤/١٠) عن سالم به. ورواه الخطيب عن أبي خالد عن سفيان الثوري عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد عن ابن الحنفية عن علي مرفوعاً «يا بلال قم فأرحنا بالصلاة».

وقال: لم يرو هذا الحديث كذا عن الثوري مسنداً غير أبي خالد عبد العزيز بن أبان والمحموظ عنه ما أخبرنا البرقاني أخبرنا علي بن عمر الحافظ أخبرنا ابن ميسر حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عثمان عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية عن النبي - ﷺ - «أرحنا يا بلال».

وأخرجه الخطيب عن حسين بن علوان عن أبي حمزة الشامي عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن علي بن الحنفية عن بلال أن رسول الله - ﷺ - قال: «أرحنا بها يا بلال» يعني الصلاة. وقال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء (١٦٥/١). أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بلال. وأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه أبو داود من رواية سالم بن أبي الجعد. قال: قال رجل من خزاعة سمعت النبي - ﷺ - يقول: «يا بلال أقم الصلاة وأرحنا بها»، ورجاله ثقات: لكن اختلف فيه على سالم اختلافاً كثيراً. ذكره الدارقطني في العلل. ورواه أحمد من رواية سالم المذكور عن رجل من أسلم به. ورواه أحمد أيضاً وأبو داود من وجه آخر عن سالم: «أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي علي صهر لنا من الأنصار. فحضرت الصلاة، فذكر قصة. وفيها. أقم يا بلال. فأرحنا بالصلاة» أخرجه الدارقطني في العلل من رواية سالم، عن ابن الحنفية عن علي - رضي الله عنه - وقال: تفرد أبو خالد القرني عن الثوري هكذا، ومن طريق حمزة الشمالي عن ابن الحنفية عن بلال. وأخرجه إبراهيم الحزبي من رواية سالم عن ابن الحنفية مرسلاً. وقال: معناه: نصلي ونروح إلى منازلنا. وليس من الاستراحة والأثقال وإلا لقال: أرحنا منها. انتهى. وينكر على هذا أن في رواية أحمد: أن الأنصاري قال يا جارية. انتني بوضوئي؛ لعلي أصلي فاستريح. انتهى.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾: نصب عطف على ﴿يَمَنِّي﴾، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على الجَمِّ الغفير من الناس، كقوله تعالى: ﴿بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] يقال: رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة ﴿يَوْمًا﴾: يريد يوم القيامة، ﴿لَا تُجْزَى﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، ومنه الحديث في جذعة ابن نيار: «تُجْزَى عَنْكَ وَلَا تُجْزَى عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» (٤٨)، و ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي قليلاً من الجزء، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْلُبُونَ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٠] ومن قرأ «لا تجزى» من أجزاء عنه إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئاً من الإجزاء، وقرأ أبو السرار الغنوي: «لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً»، وهذه الجملة منصوبة المحل صفة لـ: «يوماً». فإن قلت: فأين العائد منها إلى الموصوف؟ قلت: هو محذوف تقديره: لا تجزي فيه، ونحوه ما أنشده أبو علي: [من الرجز]

تَرَوْحِي أَجْدَرُ أَنْ تَقِيلِي^(١)

٤٨ - أخرجه البخاري (١٢٣/٣) كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر حديث (٩٥٥)، من طريق الشعبي عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال: خطبنا النبي - ﷺ - يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك»، ومن نسك قبل الصلاة، فإنه قبل الصلاة ولا نسك له، فقال أبو بردة بن نيار خال البراء: يا رسول الله، فإني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، وأحببت أن تكون شاتي أول شاة تذبح في بيتي، فذبحت شاتي، وتغديت قبل أن أتى الصلاة قال: «شأنك شاة لحم»، قال: يا رسول الله، فإن عندنا عناقاً لنا جذعة هي أحب إلي من شاتين، أفتمجزي عني؟، قال: نعم، ولن تجزي عن أحد بعدك. ورواه مسلم (١٢٤/٧ - نووي) كتاب الأضاحي، باب وقتها، حديث (١٩٦١). وأبو داود (١٠٥/٢ - ١٠٦) كتاب الضحايا، باب ما يجوز في الضحايا من السنن حديث (٢٨٠٠)، والدارمي (٨٠/٢) كتاب الأضاحي، باب في الذبح قبل الإمام، وابن حبان في صحيحه (٢٣١/١٣) رقم (٥٩١٠، ٥٩١١)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٣/٣ - ٢٨٤، ٣١١)، ورواه في (٢٧٦/٩، ٢٧٧).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث البراء - رضي الله عنه - قال: «ضحى خال لي يقال له أبو بردة بن نيار» - فذكر الحديث. انتهى.

(١) تروحي يا خيرة الغسيل تروحي أجدر أن تقيلي

غداً بجنبى بارد ظليل

لأبي علي أحيحة بن الجلاح. يقول لناقته: بكري بالرواح: أو جدي السير فيه. والغسيل: صنوان النخل. شبه ناقتة بالمختار منه لعراقتها في الكرم وارتفاعها. وكرر الأمر للتوكيد. هذا ويقال: تروح الثبت إذا طال. فتروحي: أي امتدّي وارتفعي. والخطاب لعنار النخل لا لناقته قاله العيني مخالفاً جميع الشراح لهذا الرجز. وقد يؤكد أنه روى بدل «تروحي» الأول «تأبري» والتأبير: وضع طلع =

أي: ماء أجدر بأن تقيلي فيه، ومنهم من ينزل فيقول: اتسع فيه، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله: أم مال أصابوا، ومعنى التنكير: أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقنات الكلبي القطاع للمطامع، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنَّا شَفَعَةً وَلَا يُؤَدُّ مِنَّا عَدْلًا﴾، أي: فدية لأنها معادلة للمفدى، ومنه الحديث: «لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ/٤٢أ (٤٩)، أي: توبة ولا

٤٩ - أخرجه البخاري (٤١٠/٦) كتاب الجزية والموادعة، باب ذمة المسلمين وجوارهم حديث (٣١٧٢)، من طريق إبراهيم التيمي عن أبيه قال: «خطبنا علي فقال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة...».

والمدينة حرم الله ما بين غير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدثاً - فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، ومن تولى غير مواليه فعليه مثل ذلك، وذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه مثل ذلك...».

وأطرافه في البخاري رقم (١١١، ١٨٧٠، ٣٠٤٧، ٣١٧٩، ٦٧٥٥، ٦٩٠٣، ٧٣٠٠)، ورواه مسلم (١٤٨/٥ - نووي) كتاب الحج، باب فضل المدينة حديث (١٣٧٠)، وأبو داود (٦٢٠/١) - (٦٢١) كتاب المناسك، باب في تحريم المدينة حديث (٢٠٣٤)، والترمذي (٤٣٨/٤) كتاب الولاء والهبة، باب ما جاء فيمن تولى غير مواليه، أو ادعى إلى غير أبيه حديث (٢١٢٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٠/٩) رقم (٣٧١٦)، وأحمد في المسند (٨١/١)، وأبو يعلى في مسنده (١/ =

= الذكور من النخل في الإناث لتنمو ثمرتها ويمكن أن يقال: إنه ترشيح للتشبيه. والظاهر أنه انتقل من رجز إلى آخر لأحيحة، فقد روي عنه:

تأبري يا خيرة الغسيل تأبري من حنذ فشولي

إذ صن أهل النخل بالفحول

هذا هو خطاب الغسيل. وحنذ - بالتحريك - موضع قريب من المدينة. وقيل اسم قرية. وقيل اسم ماء. والمعنى: أن ريح الصبا تهب من جهته فتحمل طلع الذكور منه إلى الإناث فيغنيها عن التأبير الصناعي. وشولي أي ارتفعي وامتندي، أي تأبري بنفسك، حيث يخل أهل النخل بطلع الذكور التي تلحق الإناث. وأجدر: نصب بمحذوف، أي وأتى مكاناً أجدر وأحق بأن تقيلي فيه وتستريحي من السير. ويجوز نصبه بتروحي، بتضمينه معنى اطلبي. فحذف باء الجر ولفظ فيه لعلهما. وغدا نصب بتقلي، بجنب: أي في جنبي، فهو بدل من فيه المحذوفة، أي: في حافتي ماء بارد ظليل، أي مظلل بالأشجار، أو في جانبي مكان ذي ظل لا حر فيه. وحينئذ فالمعنى أجدر أن تقيلي بجانيه، فأظهر في محل الإضمار لإظهار صفة المكان. وأفعل التفضيل المجرد إن لم تتصل به «من» لفظاً فهي متصلة به تقديراً، على أن محل ذلك إذا أريد به التفضيل على معين. والظاهر أن أجدر هنا ليس كذلك، فلا حاجة لتقديرها. ويجوز أن يكون أجدر فعلاً ماضياً أي دخل في الجدارة والحقية «أن تقيلي» أي حقت ووجبت قيلولتك، فلا حذف أصلاً. وقال العيني: يجوز أن يكون بارد ظليل على حذف حرف العطف للضرورة، أي بجنب بارد وجنب ظليل.

ينظر التصريح: ١٠٣/٢، والمقاصد النحوية: ٣٦/٤، وأوضح المسالك ٢٩١/٣، ٣٩٠، وخزانة الأدب، ٥٧/٥، وشرح الأشموني: ٣٨٥/٢.

فدية، وقرأ قتادة: «ولا يَقْبَلُ منها شفاعَةٌ»، على بناء الفعل للفاعل وهو الله عز وجل، ونصب الشفاعه، وقيل: كانت اليهود تزعم أَنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا، فإن قلت: هل فيه دليل على أَنَّ الشفاعه لا تُقبل للعصاة^(١)؟ قلت: نعم، لأنَّه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعه شفيح فلمع أنها لا تُقبل للعصاة، فإن قلت: الضمير في ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا﴾ إلى أي التفسير يرجع؟ قلت: إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها، وهي التي لا يؤخذ منها عدل، ومعنى لا يقبل منها شفاعه: إن جاءت بشفاعة شفيح لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزى عنها شيئاً، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها، ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾: يعني ما دلَّت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة والتذكير بمعنى: العباد والأناسي، كما تقول: ثلاثة أنفس^(٢).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ آتِنَاهُ لَكَ وَمَا تَشَاءُونَ﴾
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ لِّمَنْ رَزَقْنَاهُ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾

= (٢٢٨) رقم (٢٦٣)، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث علي - رضي الله عنه - رفعه: «المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل - الحديث»، ورواه عبد الرزاق وقال في آخره: والصرف والعدل: التطوع والفريضة. واتفقا عليه من حديث أنس نحوه. ولمسلم من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رفعه: «المدينة حرم». فمن أحدث - فذكره، وغفل الطيبي فعزاه لأبي داود من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: «من تعلم صرف الكلام ليسيبي به قلوب الناس - لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً». انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «هل فيه دليل على أَنَّ الشفاعه لا تقبل للعصاة... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: أما من جحد الشفاعه فهو جدير أن لا ينالها. وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة، فأولئك يرجون رحمة الله. ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين، وإنما أذخرت لهم. وليس في الآية دليل لمنكرها، لأن قوله يوماً أخرجه منكراً، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. قد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدد أياها واختلاف أوقاتها. منها قوله تعالى: ﴿فَلَا أَصَابَ مَيْسَرٌ وَلَا ذُلٌّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مع قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١) فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين، متغايرين: أحدهما محل للتساؤل: والآخر ليس محلاً له، وكذلك الشفاعه، وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة، ورزقنا الله الشفاعه وحشرنا في زمره أهل السنة والجماعة.

(٢) قال السمين الحلبي: النحاة نَصُّوا على أنه ضرورة، فالأولى أن يعود على الكفار الذين اقتضتهم الآية كما قال - ابن عطية. انتهى. الدر المصون.

أصل ﴿يَالِ﴾: أهل، ولذلك يصغر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً، وحُصِّن استعماله بأولى الخطر والشأن كالملوك وأشباههم، فلا يقال آل الإسكاف والحجّام، و﴿فَزَعُونَ﴾: علم لمن ملك العمالة، كقيصر: لملك الروم، وكسرى: لملك الفرس، ولعتو الفراعنة اشتقوا: تَفَزَعْنَ فَلَانً، إذا عتا وتجبّر، وفي مُلْح بعضهم: [من الكامل] قَدْ جَاءَهُ الْمَوْسَى الْكَلُومُ فَرَادَ فِي أَقْصَى تَفَزُعَيْنِهِ وَقَرِطُ عُرَائِهِ^(١) وقرئ: «أنجيناكم»، ونجيتكم. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، قال عمرو بن كلثوم: [من الوافر]

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسَفًا أَبَيْنَا أَنْ يَقِرَّ الْخَسَفُ فِينَا^(٢) وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى ييغونكم، ﴿سَوَّ الْأَلْبَابَ﴾: ويريدونكم عليه، والسوء: مصدر السيئ: يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل، يراد قبحهما، ومعنى ﴿سَوَّ الْأَلْبَابَ﴾ والعذاب كله سيئ: أشده وأفظعه، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائره، و﴿يَذَّبَحُونَ﴾: بيان لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا﴾ [التوبة: ٣٠]، وقرأ الزهري: «يذبحون» بالتخفيف كقولك: قطعت الثياب وقطعتها، وقرأ عبد الله: «يقتلون»، وإنما فعلوا بهم ذلك لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنّه يولد مولود يكون على يده هلاكه، كما أنذر نمرود، فلم يغن عنهما اجتهادهما في التحفظ، وكان ما شاء الله، والبلاء المحنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾

(١) الضمير للصبي. وقيل للذكر. والموسى: آله الحلق والختان، من أوسى رأسه حلقه. وقال الفراء وغيره هي فعلى ويؤنث. يقال: رجل ماس مثل مال، أي خفيف طياش. وقيل: هو مفعول. وذلك كناية عن ختانه به، لأنه يورث النمو والفتوة. وقيل: عن حلق العانة، لأنه زمن بلوغ الأشد. واختار السعد الأول لأنه أنسب بالمقام. والكَلُوم: كثير الكلم - أي الجرح - والتفرعن: العتو والتجبّر، مأخوذ من فرعون لشهرته بالطغيان والظلم والتكبر. والعرام كغراب: الشدة والحدة والخبث. ويمكن أنه من الفرع، لارتفاعه وعلوه على غيره. ينظر الدر المصون: (٢١٨/١).

(٢) لعمرو بن كلثوم من معلقته. «وما» زائدة. «الملك» بالسكون: لغة فيه. ويقال: سامه ذلاً، إذا أولاه إياه والحق به. وقيل: إذا كلفه ما فيه ذل وأكرهه عليه. والخسف - بفتح الخاء وضمها -: الذل. يقول إذا ألحق بالناس الذل متعاه إقرار الذل فينا، ولم نقد له كسائر الناس، لشجاعتنا على جميع من سوانا.

البيت من معلقته المشهورة ينظر شرح المعلقات التبريزي (٣٩٥)، والشنقيطي (١٠٨)، والدر المصون ٢١٨/١، القرطبي ٢٦١/١.

﴿فَرَقْنَا﴾: فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم، وقرئ: فرقنا، بمعنى: فصلنا، يقال: فرق بين الشيئين، وفرق بين الأشياء؛ لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط، فإن قلت: ما معنى ﴿بِكُمْ﴾؟ قلت: فيه أوجه: أن يراد أنهم كانوا يسلكونه^(١)، ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما، وأن يراد/٤٢ ب فرقناه بسببكم^(٢)، وبسبب إنجائكم، وأن يكون في موضع الحال^(٣) بمعنى فرقناه ملتبساً بكم؛ كقوله: [من الوافر]

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَا.....

أي تدوسها ونحن راكبوها، وروى أن بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم، قالوا: لا نرضى حتى نراهم، فقال: اللَّهُمَّ أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى إليه: أن قل بعصاك هكذا، فقال بها على الشيطان، فصارت فيها كوى، فتراموا وتسامعوا كلامهم: ﴿وَأَنْتَ نَنْظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكون فيه.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(١) قال محمود رحمه الله: «يحتمل أنهم كانوا يسلكون... إلخ». قال أحمد رحمه الله: فتكون الباء على هذا الوجه استعانة مثلها في كتبت بالقلم.

(٢) قال محمود رحمه الله: «ويحتمل أن يكون المراد فرقناه بسببكم». قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه سببية، كما تقول: أكرمك بإحسانك إلي.

(٣) قال محمود رحمه الله: «ويحتمل أن يكون في موضع الحال... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه للمصاحبة مثلها في: أسدت ظهري بالحائط، والوجه الأول ضعيف من حيث أن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببني إسرائيل. والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز: أن البحر إنما انفرق بعضا موسى، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْكَلُوبِ الْكَلْبِ﴾، فالقاة التفريق العصا، لا بنو إسرائيل.

(٤) كان خبولنا كانت قديماً تسقي في قحوفهم الحليب

فمرت غير نافرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريب

لأبي الطيب المتنبي. وتسقي: بالتضعيف. والقحوف: جمع قحف بالكسر، وقيل بالضم: وهو العظم الذي فوق الدماغ وإناء صغير من خشب. والحليب: اللبن المحلوب، أي كأنها كانت معتادة بهم فمرت عليهم مطمئنة. تدوس جماجمهم: أي رءوسهم ونحن على ظهورها. والتريب: لغة في التراب.

ينظر ديوانه ٢٥٦/١، البحر المحيط ٣٥٥/١، حاشية القطب على الكشاف ١٠٧١/٢، والدر المصون ٢٢١/١.

لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاناً ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وقيل: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، لأن الشهور غررها بالليالي، وقرئ: ﴿وَعَثَا﴾، لأن الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور: ﴿وَمِنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد مضيه إلى الطور، ﴿وَأَنْتُمْ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾: بإشراركم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾: حين تبتنم، ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: إرادة أن تشكروا^(١) النعمة في العفو عنكم.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُعْطِيهِمْ لَكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾: يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً، وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل: يعني التوراة، كقولك: رأيت الغيث والليث، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَضَيْكُمُ الْوَحْيَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكرًا: أو التوراة، والبرهان: الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام، وقيل الفرقان: انفراق البحر، وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ أَلْفُرْقَانٍ﴾ [الأنفال: ٤١] يريد به يوم بدر، حمل قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: على الظاهر وهو البخع^(٢)، وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً، وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد، وزوي: أنَّ الرجل كان يبصر ولده، ووالده وجاره وقريبه، فلم يمكنهم المضي لأمر الله، فأرسل الله ضبابةً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحييتوا بأفنية بيوتهم، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم، وقيل لهم: اصبروا، فلعن الله من

(١) قال محمود: «ومعناه إرادة أن تشكروا». قال أحمد رحمه الله: أخطأ في تفسير «لعل»؛ بالإرادة؛ لأن مراد الله تعالى كائن لا محالة. فلو أراد منهم الشكر لشكروا ولا بد. وإنما أجراه الزمخشري على قاعدته الفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد، منه ما يقع ومنه ما يتعذر - تعالى الله عن ذلك -، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. والتفسير الصحيح في «لعل» هو الذي حرره سيبويه رحمه الله في قوله: (لعله يتذكر أو يخشى) قال سيبويه: الرجاء منصرف إلى المخاطب كأنه قال: كوناً على رجائكما في تذكركه وخشيته وكذلك هذه الآية معناها لتكونوا على رجاء الشكر لله عز وجل ونعمه. فينصرف الرجاء إليهم وينزه الله تعالى.

(٢) قوله: «وهو البخع» في الصحاح: بخع نفسه بخعاً، أي: قتلها غماً. (ع)

مدّ طرفه أو حلّ حبوته أو اتقى بيد أو رجل، فيقولون: آمين، فقتلوههم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالوا: يا ربّ، هلكت بنو إسرائيل، البقية البقية، فكشفت السحابة ونزلت التوبة، فسقطت الشفار من أيديهم، وكانت القتلى سبعين ألفاً، فإن قلت: ما الفرق بين الفآت؟ قلت: الأولى للتسبيح لا غير، لأنّ الظلم سبب التوبة، والثانية: للتعقيب لأنّ المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، من قَبِلَ أَنَّ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم، ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم، فيكون المعنى: فتوبوا، ١٤٣/ فأتبعوا التوبة القتل تمة لتوبتهم، والثالثة متعلّقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن يتنظم في قول موسى لهم، فتتعلّق بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الإلتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتأب عليكم بارؤكم، فإن قلت: من أين اختصّ هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] و متميّزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقرير بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة، - في أمثال العرب: أبلد من ثور - حتّى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفكّ ما ربّعه من خلقهم، ويشتر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ٥٥﴾
ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَدَنِ مَوْتِكَ لِمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ
الْمَنَّاءَ وَالسَّلَٰوَىٰ كُلًّا مِنْ طَبَقَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾

قيل: القائلون السبعون الذين صعقوا، وقيل: قاله عشرة آلاف منهم، ﴿جَهْرَةً﴾: عياناً، وهي مصدر من قولك: جهر بالقراءة وبالدعاء، كأنّ الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها على المصدر، لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال بمعنى ذوي جهرة، وقرئ «جهرة»: بفتح الهاء، وهي إما مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر، وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام راذهب القول وعزّهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال^(١)، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة

(١) قوله «أن يكون في جهة محال» هذا مذهب المعتزلة. ومن استجاز عليه الرؤية هم أهل السنة، =

الأجسام^(١) أو الأعراض، فإذوه بعد بيان الحجة ووضوح البرهان، ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل، فسَلَطَ الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكافرين، ودلالة على عظمهما بعضم المحنة، و﴿الْفَصِيحَةُ﴾: ما صعقهم، أي: أماتهم، قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم، وقيل: صيحة جاءت من السماء، وقيل: أرسل الله جنوداً سمعوا بحسها فحروا صعقين متيين يوماً وليلة، وموسى - عليه السلام -، لم تكن صعقته موتاً ولكن غشية، بدليل قوله: فلما أفاق، والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله: ﴿وَأَنشَرُّنَظْرُونَ﴾، وقرأ علي رضي الله عنه «فَأَخَذْتُكُمُ الصَّعْقَةَ»، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذا قاتكم الموت، ﴿وَعَلَّلْنَا﴾: وجعلنا الغمام يظلكم؛ وذلك في التيه، سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلمهم من الشمس؛ وينزل بالليل عمود من نار يسرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى، وينزل عليهم ﴿الْمَنَّ﴾: وهو الترنجيب مثل الثلج، من طلوع/ ٤٣ ب الفجر إلى طلوع الشمس، لكل إنسان صاع، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم، ﴿السلوى﴾ وهي السمانى فيذبح الرجل منها ما يكفيه، ﴿كُؤُوا﴾ على إرادة القول، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ عليه.

= الوجهة ليست شرطاً للرؤية عندهم، فلا يلزم كونه من جملة الأجسام أو الأعراض كما بين في علم التوحيد. (ع)

(١) قال محمود رحمه الله: «فيه دليل على أن موسى عليه السلام رادهم القول، وعرفهم أن رؤية من لا يجوز عليه... إلخ». قال أحمد رحمه الله: لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها، فبنى الأمر على أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنه، وأثنى له ذلك وشم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه هو كل السبب. وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية الأعراف في دار الدنيا، فأخبره الله تعالى أنه لا يراه في الدنيا، وصار ذلك عنده وعند بني إسرائيل أصلاً مقرراً، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة أن الله تعالى لا يرى في دار الدنيا، لأنه أخبر أنه لا يرى والخبر واجب الصدق وكما أخبر أنه لا يرى في دار الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة وتخصيص ذلك بالمؤمنين، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤية في الدنيا تعنتاً أو شكاً في الخبر، فأنزل الله تعالى بهم تلك العقوبة. وكيف تخيل الزمخشري وشيعته أن موسى عليه السلام طلب من الله ما لا يجوز عليه. وهل هو لو كان الأمر على ما تخيل إلا كبني إسرائيل. ومعاذ الله، لقد برأه من ذلك وكان عند الله وجيهاً. وأما الأدلة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلاً والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة، فأكثر من أن تحصى وهي مستقصاة في فن الكلام، وإنما غرضنا في هذا الباب مباحثة الزمخشري والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه وأخذه قوماً منه. والله موفق.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةً نَنَزَّلَ لَكُمْ حَطَّاتِكُمْ وَنَسْرِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿الْقَرْيَةُ﴾: بيت المقدس، وقيل: أريحا من قرى الشام، أمروا بدخولها بعد التيه،
﴿الْبَابُ﴾: باب القرية، وقيل: هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت
المقدس في حياة موسى - عليه الصلاة والسلام - . أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب
شكراً لله وتواضعاً، وقيل: «السجود»: أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين، ليكون دخولهم
بخشوع وإخبات، وقيل: طوطى لهم الباب ليخفصوا رؤوسهم فلم يخفصوها، ودخلوا
متزحفين على أوراكهم ﴿حِطَّةً﴾: فعلة من الحط كالجلسة والركبة، وهي خير مبتدأ
محذوف، أي مسألتنا حطة، أو أمرك حطة، والأصل: النصب بمعنى: حطَّ عنا ذنوبنا
حطَّةً، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات؛ كقوله: [من الرجز]

صَبْرٌ جَبِيلٌ فَكَلَانًا مُبْتَلًى^(١)

والأصل: صبراً، على: اصبر صبراً، وقرأ ابن أبي عبله بالتصّب على الأصل، وقيل
معناه: أمرنا حطة، أي أن نحط في هذه القرية ونستقرّ فيها، فإن قلت: هل يجوز أن
تنصب حطة في قراءة من نصبها بـ «قولوا»، على معنى: قولوا هذه الكلمة؟ قلت: لا
يبعد، والأجود أن تنصب بإضمار فعلها، ويتنصب محل ذلك المضمّر بـ «قولوا»، وقرئ
«يغفر لكم»: على البناء للمفعول بالياء والتاء، ﴿وَنَسْرِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي من كان محسناً
منكم، كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة،
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٢): أي وضعوا مكان حطة، ﴿قَوْلًا﴾: غيرها، يعني: أنهم أمروا

(١) شكى إلي جملي طول السرى صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

يقول: اشتكى بعيري إلي تبعه من طول سير الليل. وصبراً: مصدر قام مقام فعله. أي اصبر يا بعير
صبراً جميلاً ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب. أو التقدير: فقلت له اصبر صبراً، فكل منا مصاب
بالبلاء. أو مختبر وممتحن هل يصبر على مشاق السفر أم لا. ويرى: صبر جميل، أي أحق بنا
على حذف الخبر. أو أمرنا صبر، فيكون من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لنياية الخبر عن
الفعل. والصبر الجميل: هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق.

البيت من شواهد الكتاب ٣٢١/١، أمالي المرتضى ٧٢/١، المشكل (١٠٧)، مجاز القرآن /
٣٠٣، التهذيب (شكا)، الفخر ٨٩/٣، الدر المنثور ٢٣٢/١.

(٢) قوله - تعالى -: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا... الآية.

في هذه الآية تشابه مع آية في سورة الأعراف وهي: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الآية ١٦٢].

بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالقوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به، لم يؤاخذوا به، كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك ونتوب إليك، أو اللهم اعف عنا، وما أشبه ذلك، وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة، وقيل: قالوا بالنبطية: «حطا سمقثا»، أي: حنطة حمراء، استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا، وفي تكرير: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: زيادة في تقبيح أمرهم^(١)، وإيدان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم، وقد

فبين الآيتين مع التشابه مفارقات، وخلاصة ذلك على الترتيب الآتي:

١ - زيادة لفظ «منهم» في آية الأعراف وذلك لأن مبني القصة في الأعراف على التمييز بلفظة «من» دائماً «ومن قوم موسى...».

أما في سورة البقرة فإن بناء القصة على التقرير والتخويف، ولهذا جاء التعبير للجميع لأن الكل يتحمل تبعه البعض.

٢ - عبر عن العذاب في آية البقرة بقوله «فأنزلنا» وفي الأعراف «فأرسلنا» وذلك أن الآية في البقرة جاءت صادرة من المولى - سبحانه - مباشرة، والصادر من جهة الله يكون إنزالاً «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية...» لهذا قال «فأنزلنا» أما في سورة الأعراف فإن الكلام يبدو صدوره من رسولهم بدليل قوله - تعالى - «وإذ قيل لهم...» ولهذا ناسب المقام لفظ «فأرسلنا».

٣ - في آية الأعراف جاء الكلام على الإضمار بعد الإظهار، وهذه طبيعة الأسلوب فقال: «فأرسلنا عليهم» أما في البقرة فقال «فأنزلنا على الذين ظلموا» فأظهر في موضع الإضمار، وذلك لنكتة بلاغية تلوح من السياق ويقتضيها المقام، وذلك لتعظيم الأمر وبيان سبب نزول العذاب، وفيه توبيخ لهم وتقريع.

ويرى بعض الباحثين أن الظلم الثاني غير الأول، فالأول: ظلمهم لأنفسهم والثاني: ظلمهم في علاقتهم بربهم، وهذا أشد من الأول لأنه خسر عبادة ربه بخلاف الأول فقد خسر نفسه.

هذا في آية البقرة أما في آية الأعراف فإن الظلم الأول هو الثاني ولهذا أضمر في الثاني.

٤ - ختمت آية البقرة بقوله ﴿يَقْسُورُونَ﴾ وآية الأعراف بقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وذلك لتحقيق التعادل بين الآيتين، ففي آية البقرة جاء «الظلم» مرتين، وفي آية الأعراف جاء الظلم في البداية، ثم أضمر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فجاء الختام ببيان ظلمهم ليكون الظلم في الآيتين متعادلاً، وبذلك يتسق النمط القرآني في القصة الواحدة.

فانظر هناك الله إلى دقة الأداء القرآني، وأن كل آية نظمت على مقامها فجاءت كلماتها في مواقعها تماماً، ولكل كلمة دورها في الأداء للغاية المقصودة، ولو أبدلت كلمة بأخرى لاختل ميزان المعاني، ولكن الله - سبحانه - يعلمنا كيف نضع الألفاظ بإزاء المعاني المرادة بحيث تكشف عنها كشف دقيقاً معجزاً، وهذا من الإعجاز البياني في كلام رب العالمين.

ينظر تفسير الرازي ١٢٨/٢ وما بعدها ط. دار الغد العربي - الأولى ١٩٩١ م، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٧١/٣، ومن تشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية د. إبراهيم الجعلي ٥ وما بعدها - ط. الأولى. الحسين الإسلامية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

(١) قال محمود رحمه الله: «وفي تكرير (الذين ظلموا) زيادة في تقبيح... إلخ». قال أحمد رحمه =

جاء في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف: ١٣٣] على الإضممار، والرجز: العذاب، وقرئ - بضم الراء - وروى: أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

﴿وَإِذْ آمَسَّتْ سِنَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسِيبًا ۚ قَالَ كُلَّ أَتَّاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

عطشوا في النية، فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، واللام إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روي أنه حجر طوري حمله معه، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، وقيل: أهبطه آدم/ ١٤٤ من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة، ففرّ به، فقال له جبريل: يقول لك الله تعالى: ارفع هذا الحجر، فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، وإما للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة، وروى أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة، فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فيبيس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى إليه: لا تفرق الحجارة، وكلمها تطعك، لعلهم يعتبرون، وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من آس الجنة^(١)، طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار، ﴿فَانفَجَرَتْ﴾: الفاء متعلقة بمحذوف، أي فاضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا في قوله: ﴿فَنَابَّ عَلَيْكُمْ﴾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ، وقرئ: «عشرة»: بكسر الشين، ويفتحها وهما لغتان، ﴿كُلُّ أَتَّاسٍ﴾:

= الله: وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمّر، وهو مفيد لذلك. إذ هو من قبيل الإشهار لهذا المعين مع إمكان الاختصار بالإضممار.

(١) قوله: «من آس الجنة»: ضبط في بعض النسخ بالضم والتشديد وكتب على هامشه: «كذا بخط جار الله ومعناه الأساس، والصواب ضبطه بالفتح والمد والتخفيف أي شجر الآس لأنه صفة العصا سها فيها المصنف كذا بهامشه، اهـ عليان. والظاهر أن ضبطه بالضم والتشديد بمعنى الأساس أليق لأن الكلام في وصف الحجر لا العصا. اهـ مصححة.

كل سبط، ﴿مَنْشَرِيَّتَ﴾: عينهم التي يشربون منها، ﴿كُلُوا﴾: على إرادة القول، ﴿وَمِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾: مما رزقكم من الطعام وهو المَن والسُلوى ومن ماء العيون، وقيل: الماء ينبت منه الزروع والثمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب، والعثي: أشد الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْآرَضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَلَذَّيْ هُوَ أَدْنَىٰ يٰأَلَذَّيْ هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُوا بِعَهْدِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ يٰأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾﴾

كانوا فلاحه فنزعوا إلى عَكْرِهِمْ فأجموا ما كانوا فيه^(١)، من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء، ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾: أرادوا ما رزقوا في التيه من المَن والسُلوى، فإن قلت: هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، قيل: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً، يراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف، ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف، ونحن قوم فلاحه أهل زراعات، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك، ومعنى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾: يظهر لنا ويوجد، والبقل، ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطيب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع، والكرفس، والكراث، وأشباهاها، وقرىء: «وقثائها»: بالضم، والفوم: الحنطة، ومنه فوموا لنا، أي: اخبزوا، وقيل: الثوم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وثومها، وهو للعدس والبصل أوفى، ﴿أَلَذَّيْ هُوَ أَدْنَىٰ﴾: الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال: هو داني المحل وقريب المنزلة، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك، فيقال: هو بعيد المحل وبعيد الهمة يريدون الرفعة/ ٤٤ب والعلو، وقرأ زهير الفرقي: «أدنا» بالهمزة من الدناءة، ﴿أَهْبِطُوا مَصْرًا﴾ وقرىء «اهبطوا»، بالضم: أي انحدروا إليه من التيه، يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه، إذا خرج، وبلاد التيه: ما بين بيت المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ، ويحتمل أن يريد العلم، وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه،

(١) قوله: «فأجموا ما كانوا فيه» أي: كرهوا. أفاده الصحاح. (ع)

وهما التعريف والتأنيث، لسكون وسطه كقوله: ﴿وَوُكَا﴾ و﴿لُوطًا﴾، وفيهما العجمة والتعريف، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد، وأن يريد مصرًا من الأمصار، وفي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش: «اهبطوا مصر» - بغير تنوين - كقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وقيل هو: «مصرائيم» فعرب^(١) ﴿وَمُصْرِيَّتٌ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه، أو ألصقت بهم حتى لزمهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقة^(٢)، إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم، خيفة أن تضاعف عليهم الجزية، ﴿وَيَاكُوفُ يَضْرِبُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، أي صاروا أحقاء بغضبه، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة والخلافة بالغضب، أي ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وقد قتلت اليهود - لعنوا - شعيا وزكريا ويحيى وغيرهم، فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت: معناه: أنهم قتلوه بغير الحق عندهم؛ لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا؛ وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوه، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم، وقرأ علي رضي الله عنه «ويقتلون» بالتشديد، ﴿ذَلِكَ﴾: تكرر للإشارة، ﴿يَا عَصَا﴾: بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء، مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، وقيل: هو اعتداؤهم في السبت، ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيها وغلوا حتى قست قلوبهم ففسدوا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

إن الذين آمنوا بالسننهم من غير مواطاة القلوب وهم المنافقون، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾: والذين تهوّدوا، يقال: هاد يهود، وتهوّد إذا دخل في اليهودية، وهو هائد، والجمع هود، ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: وهو جمع نصران، يقال: رجل نصران، وامرأة نصرانة، قال: نصرانة لم

(١) قال السمين الحلبي: وعلى هذا إذا قيل بأنه علّم لمكان بعينه، فلا ينبغي أن يُصرف البتة لانضمام العُجْمَةِ إليه، فهو نظير «فاه وجوز وجمنص» ولذلك أجمع الجمهور على منعه في قوله «ادخلوا مِصْرَ». والمِصْرُ في أصل اللغة: «الحُدُ الفاصِل بين الشيئين» وخُكي عن أهل قَجَز أنهم إذا كتبوا يَبِيعُ دَارٍ قالوا: اشترى فلان الدار بِمِصْرُهَا «أي»: حدودها. انتهى. الدر المنصون.

(٢) قوله: «أهل مسكنة ومدقة» أي: مرتبة. أفاده الصحاح. (ع)

تحنف، والياء في نصراني: للمبالغة كالتي في أحمرّي، سمو لأنهم نصرروا المسيح، ﴿وَالنَّصَارَى﴾: وهو من صبا إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة، ﴿مَنْ آمَنَ﴾: من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في ملة/ ١٤٥ الإسلام دخولا أصيلاً، ﴿وَعَيَّلَ صَدِيقًا فَلَهُمْ أَتْرُفُهُمُ﴾: الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم، فإن قلت: ما محل من آمن؟ قلت: الرفع إن جعلته مبتداً خبره، «فلهم أجرهم»: والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن المعطوف عليه، فخير إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم أجرهم، والفاء لتضمن، ﴿مَنْ﴾: معنى الشرط.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٨) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ (١٩) فَعَلَّانَهَا كُتْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٢٠)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: بالعمل على ما في التوراة، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: حتى قبلتم وأعطيتكم الميثاق، وذلك أن موسى - عليه السلام - جاءهم بالألواح فأروا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفع وظلله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقي عليكم، حتى قبلوا، ﴿خُذُوا﴾: على إرادة القول، ﴿مَّا آتَيْنَاكُمْ﴾: من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجذ وعزيمة، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا: خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بتوفيقكم للتوبة لخسرتم، وقرئ: خذوا ما آتيتكم، وتذكروا، واذكروا^(١) و﴿السَّبْتِ﴾: مصدر سبت اليهود إذا عظمت يوم السبت^(٢)، وإن ناساً منهم اعتدوا فيه، أي: جاوزوا ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه

(١) قوله «وتذكروا واذكروا» أي بتشديد الذال والكاف، وأصله: وتذكروا. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ فإن هذا اللفظ موجود واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل فعل اليهود ذلك، اللهم إلا أن يريد هذا السبت الخاص المذكور في هذه الآية. والأصل فيه المصدر كما ذكرت، ثم سمي به هذا اليوم من الأسبوع لاتفاقي وقوعه فيه، كما تقدم أن خلق الأشياء ثم وقطع، وقد يقال يوم السبت فيكون مصدراً، وإذا ذكر معه اليوم أو مع ما أشبهه من أسماء الأزمنة بما يتضمن عملاً وخذناً، جاز نصب اليوم ورفعته نحو: اليوم الجمعة، اليوم العيد، كما يقال: اليوم الاجتماع والعودة، فإن ذكر مع «الأحد» وأخواته وجب الرفع على المشهور، وتحقيقها مذكور في كتب النحو. انتهى. الدر.

واشتغلوا بالصيد، وذلك أن الله ابتلاهم، فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفزقت، كما قال: ﴿تَأْتِيهِمْ جِثَاءُهُمْ يَوْمَ سَيِّئِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِقُونُ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بِلَهُؤُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم، ﴿وَرَدَّهُ خَبِيرِينَ﴾: خبران، أي كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرود، ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: يعني المسخة: ﴿نَكَالًا﴾: عبرة تنكل من اعتبر بها أي تمنعه، ومنه النكل: القيد، ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: لما قبلها، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: وما بعدها من الأمم والقرون^(١) لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، أو أريد بما بين يديها: ما بحضرتها من القرى والأمم، وقيل: نكالاً: عقوبة منكلة لما بين يديها؛ لأجل ما تقدمها من ذنوبهم وما تأخر منها، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل متقى سمعها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَلْنَحُهَا هُرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٧٦) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٧٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ (٧٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٩) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَن جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٨٠) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٨١) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٨٢) ﴿

كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتله ابنه بنو أخيه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بدينه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله، ﴿قَالُوا أَنَلْنَحُهَا هُرُوءًا﴾: أنجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو، أو مهزواً بنا، أو الهزو/ ٤٥ ب نفسه؛ لفرط الاستهزاء، ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه، وقرئ: «هزواً» بضمتين، و «هزءاً»: بسكون الزاي، نحو كفؤا وكفؤاً، وقرأ حفص: «هزواً»: بالضمتين والواو، وكذلك «كفؤاً»، والعياذ واللياذ من واد واحد.

(١) قوله: «وما بعدها من الأمم والقرون» لعله: والقرى، نظير قوله الآتي: من القرى والأمم. (ع)

في قراءة عبد الله: «سل لنا ربك ما هي؟» سؤال عن حالها وصفتها، وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر، والفاراض: المُسنّة، وقد فرضت فروضاً فهي فاراض؛ قال جفاف بنُ نُذْبَة [من الطويل]:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَغْطَيْتُ ضَيْفَكَ فَارِضاً تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلٍ^(١)
وكانها سميت فارضاً؛ لأنها فرضت سنّها أي قطعته وبلغت آخرها، والبكر: الفتية، والعوان التّصف؛ قال [من الوافر]:

..... نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُؤُونٍ^(٢)

وقد عوّنت^(٣)، فإن قلت: ﴿بَيْنَ﴾: يقتضي شيئين فصاعداً^(٤)، فمن أين جاز دخوله على ﴿ذَلِكَ﴾، قلت: لأنه في معنى شيئين؛ حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفاراض والبكر، فإن قلت: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين؛ وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلت: جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدّم، للاختصار في الكلام، كما جعلوا، (فعل):

(١) لخفاف بن ندية يهجو العباس بن مرداس بالبخل. والفاراض: الناقة المسنة تساق إليه، أي لا تركب، بل تحتاج إلى من يضربها ويسوقها من خلفها. لا تقوم على رجل: أي: لا رجل لها قوة تعتمد عليها في قيامها.

ينظر: الأضداد (٣٧٦)، اللسان «فرض»، القرطبي (٣٠٤/١)، مجمع البيان (٢٩٣/١)، البحر (١/٢٤٨)، الدر المصون (١/٢٥٥).

(٢) ظمائن كنت أعهدهن قدماً وهن لدى الإقامة غير جون
حصان مواضع النقب الأعالي نواعم بين أبكار وعون
للطرماح. والظمائن النساء في الهودج. والضعائن - بالضاد -: المطايا. والضعائن - بالغين -: جمع ضغينة، وهي الحقد والميل والاعوجاج. وضغته: إذا أخذته في حضنك. وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري. وناقة ذات ضغن: أي حنين إلى وطنها. وامرأة ذات ضغن تحب غير زوجها. والجون - بالضم -: جمع جوناة أي سوداء. والحصان - بالفتح -: المحصنة. والنقب: جمع نقاب، ككتب وكتاب. والعون أصله بضم الواو جمع عوان، وهي النصف - بفتحيتين - أي الوسط من النساء والبهائم، فسكن تخفيفاً. يقول: تلك النساء ظمائن؛ أي مسافرات غير لونهن السفر، وكنت أعهدهن في قديم الزمان حين الإقامة غير سود وهن محصّنات الوجوه، وإذا حفظت حفظن كلهن عادة. والأعالي: صفة للنقب أو المواضع، وهذا لا يكون إلا في النساء كما ترى. وروى بعضهم «ضعائن» بدل «ظمائن» ولعله تحريف. وهن ناعمات، دائرات بين أبكار صغيرات وعون أواسط.

ينظر: المنصف (٥٨/٣)، اللسان (عون) الدر ٢٥٥/١.

(٣) قوله: «وقد عونت» في الصحاح: وتقول منه: عونت المرأة تعوناً، وعانت تعوناً. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت بين يقتضي شيئين... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وقد مر نظير هذا عند قوله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) فجدد به عهداً.

نائباً عن أفعال جمّة تذكر قبله، تقول للرجل: نعم ما فعلت، وقد ذكر لك أفعالاً كثيرة وقصة طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك، وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا، قال أبو عبيدة: قلت: لِرُؤْبَةٍ في قوله [من الرجز]:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ - وَيَلْتَقِي كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيْعُ الْبَهَقِ^(١)

إن أردت الخطوط فقل: كأنها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما، فقال: أردت كأن ذاك، ويليك! والذي حسن منه: أنَّ أسماء الإشارة تثنيتهما وجمعهما وتأنيتها ليست على الحقيقة، وكذلك الموصولات؛ ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع، ﴿مَا تَوَمَّرُونَ﴾: أي ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله أمرتك الخير أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول به بالمصدر، كضرب الأمير.

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك وحالك، وأبيض يقق ولهق، وأحمر قاني وذريحي، وأخضر ناضر ومدهام، وأورق خطبائي وأرمك ردائي، فإن قلت: «فاقع» ههنا واقع خبراً عن اللون، فلم يقع توكيداً لصفراء، قلت: لم يقع خبراً عن اللون؛ إنما وقع توكيداً لصفراء، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون من سببها وملتبس بها، فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها، فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة؟ وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديدة الصفرة صفرتها، فهو من/٤٦ قولك: جدّ جدّه، وجنونك مجنون، وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، والسرور لذّة في القلب عند حصول نفع أو توقّعه، وعن عليّ رضي الله عنه: (من لبس نعلًا صفراء قلّ همّه ٥٠) لقوله تعالى:

٥٠ - قال الزبيلي (١/٦٥): «غريب عن علي، ولم أجده إلا عن ابن عباس» ١ هـ.

(١) لرؤية بن العجاج يصف بقرة وحشية، وقيل فرساً، وقيل خيلاً فيها لون السواد ولون البلق - أي البياض - ويروى: من بياض وبلق؛ فلعل البياض بياض يرهقه قتره، كأنه: أي ذلك المذكور أو المجتمع منهما، توليع البهق في الجلد. أو كأنه حال كونه في الجلد توليع البهق، أي تخطيطه من البياض المشوب بكثرة الناشئ من البهق، وهو داء يتغير منه لون الجلد. روي أن أبا عبيدة قال له: إن أردت الخطوط فقل: كأنها. وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما. فقال أردت كأن ذاك، فقد أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في صحة الإشارة بالمفرد منه إلى المتعدد بتأويله بالمذكور ونحوه.

ينظر: ديوانه (١٠٤)، مجالس العلماء (٢٧٧)، المحتسب ١٥٤/٢، المغني (٦٧٨/٢)، اللسان (بهق)، مجاز القرآن (١/٤٣)، مجالس نعلب (٢/٣٧٥)، حاشية الكشف للفتازاني (١/٢٢)، (٥٣٠) الدر المصون (١/٢٥٦).

﴿تَسْرُ الْأَنْطَرِينَ﴾، وعن الحسن البصري: ﴿صَفَرَاءَ فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾: سوداء شديدة السّواد، (٥١) ولعلّه مستعار من صفة الإبل؛ لأن سوادها تعلوه صفرة، وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿جماليات صفر﴾، [المرسلات: ٣٣]. قال الأعشى [من الخفيف]:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَاهَا كَالزَّبِيبِ^(١)

﴿مَا مِنْ﴾: مرة ثانية، تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها، وعن النبي ﷺ: ﴿لَوْ اعْتَزُّوا أَذْنَى بَقَرَةٍ فَذَبَحُوهَا لَكَفَتْهُمْ، وَلَكِنْ شَدُّوا فَشَدُّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (٥٢) والأسقفاء شوم، وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى

وقال الحافظ في «تخريج الكشاف»: موقوف لم أجده.

وحديث ابن عباس:

أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٩/١) رقم (٧١٠)، والطبراني في الكبير (٣٢٠/١٠) رقم (١٠٦١٢)، والخطيب في الجامع (٣٩٢/١) رقم (٩١٥)، والعقيلي في الضعفاء (٤٤٦/٣) رقم (١٤٩٦) في ترجمة الفضل بن الربيع، وعزاء السيوطي في الدر (١٥١/١) للدليمي أيضاً، وذكره ابن أبي حاتم في العلل (٣١٩/٢)، وقال: «قال أبي: هذا حديث كذب موضوع» ١.هـ.

وقال الهيثمي في المجمع (١٤٢/٥):

«رواه الطبراني، وفيه ابن العذراء غير مسمى ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» ١.هـ.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: موقوف، لم أجده: لكن أخرجه العقيلي والطبراني والخطيب من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: من لبس نعلأ صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه: فقال: كذب. موضوع. انتهى.

٥١ - أخرجه ابن أبي حاتم (٢٢٠/١) رقم (٧١٤)، (٢٢١/١) رقم (٧٢٠)، وابن جرير (١٩٩/٢) رقم (١٢١٨)، وسعيد بن منصور (٥٦٤/٢) رقم (١٩٢)، وذكره السيوطي (١٥١/١) وعزاه لعبد بن حميد أيضاً.

٥٢ - أخرجه الطبري في التفسير (٢٠٦/٢) رقم (١٢٤٥)، عن ابن عباس موقوفاً بلفظ: «لو اعترضوا =

(١) إن قيساقيس الفعّال أبا الأشد

كل عام يمدني بجموم

تلك خيلي منه وتلك ركابي

للأعشى في أبي الأشعث بن قيس. والفعال - بالفتح: فعل الخير، والأصداء: جمع صدى، وهو ذكر البوم. كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة وتصيح: أدركوني. حتى يؤخذ بثأره. وشعوب: اسم للمنية، ويمكن أنه جمع شعب بمعنى طريق، أي أمست متفرقة في الطرق. وذلك كناية عن قتله. والجمع للتعظيم، أو اعتباري. والجموم: جمع جم بثلاث أوله بمعنى الكثير. والنجيب: الكريم من الخيل والإبل. والركاب: المطايا. هن أي الركاب، صفر: جمع أصفر أو صفراء، أولادها يغلب عليها السواد كالزبيب. والمراد بالصفرة سواد ترهقه صفرة، لأن هذا أعز ألوان الإبل عندهم.

ينظر: ديوانه (٣٣٥)، الأضداد (١٣٨)، اللسان (خشب)، الدر المصون ١/ ٢٥٧.

قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم، فكتب إليه: بأيهما أبدأ؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتني: بأي نوع منها أبدأ؟ وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرت أن تعطي فلاناً شاة سألتني: أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرت بشيء فلا تراجعني، وفي الحديث: «أَعْظَمُ النَّاسِ جُزْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ فَحَرِّمْ لِأَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (٥٣). «إِنَّ الْبَقَرَ كَتَبَتْ عَلَيْهِ» : أي إن البقر الموصوف بالتعوين والضفيرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح، وقرىء: تشابه، بمعنى تشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين، وتشابهت ومتشابهة ومتشابه، وقرأ محمد ذو الشامة: إن الباقر يشابه، بالياء والتشديد، جاء في الحديث: «لَوْ لَمْ يَسْتَنْتُوا لَمَّا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبَدِ» (٥٤) أي: لو لم يقولوا: إن شاء الله، والمعنى: إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل، ﴿لَا ذُلٌّ﴾: صفة لبقرة، بمعنى بقرة غير ذلول، يعني لم

= بقرة فذبحوها لأجزاء عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى فشدد الله عليهم، ولم يذكر فيه: «والاستقصاء شؤم»، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم (٢١٥/١) رقم (٦٩٨)، وذكر السيوطي في الدر (١٥٠/١) أن ابن أبي حاتم وابن مردويه أخرجا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لولا أن بني إسرائيل قالوا: «وإنا إن شاء الله لمهتدون» ما أعطوا أبدأ، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها - لأجزاء عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم».

وهو عند ابن أبي حاتم (٢٢٣/١) رقم (٧٢٧) دون قوله: «ولو أنهم اعترضوا... إلخ».

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

ابن مردويه والبخاري وابن أبي حاتم، كلهم من طريق الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي سنده عباد بن منصور، وفيه ضعف، والطبري من كلام ابن عباس موقوفاً، ومن كلام أبي العالية دون قوله: «والاستقصاء شؤم»، فليس هو في المرفوع ولا الموقوف قلت: قوله: «والاستقصاء شؤم»، من كلام الزمخشري. انتهى.

٥٣ - أخرجه البخاري (٢٧٨/١٣) كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال حديث (٧٢٨٩)، ومسلم (١٨٣١/٤) كتاب الفضائل، باب توقيفه - ﷺ - حديث (٢٣٥٨).

وأبو داود (٦١٢/٢) كتاب السنة، باب لزوم السنة حديث (٤٦١٠)، وأحمد (١٧٦/١)، وابن جبان في صحيحه (٣١٤/١) رقم (١١٠)، والحميدي (٣٧/١) رقم (٦٧)، والبخاري في شرح السنة (٢٤٣/١) رقم (١٤٤).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - انتهى.

٥٤ - أخرجه ابن جرير (٢٠٥/٢) رقم (١٢٤٢) عن ابن جرير مرسلأ.

ورواه أيضاً ابن جرير (٢٠٦/٢) رقم (١٢٤٤) عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله - ﷺ - كان يقول: «إنما أمر القوم بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد عليهم، والذي نفس محمد بيده لو لم يستنتوا لما بينت لهم آخر الأبد».

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه ابن جرير من طريق ابن جرير مرفوعاً. وهو معضل. انتهى.

تَذَلُّلٌ لِلْكَرَابِ^(١) وإثارة الأرض، ولا هي من التواضع التي يسنى عليها لسقي الحروث، و(لا) الأولى: للنفي، والثانية: مزيدة، لتوكيد الأولى، لأنَّ المعنى: لا ذلول تثير وتسقي، على أَنَّ الفعلين صفتان للذلول، كأنَّه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «لا ذلول» بمعنى لا ذلول هناك، أي: حيث هي، وهو نفي للذلول؛ ولأنَّ توصف به فيقال: هي ذلول، ونحوه قولك: مررت بقوم لا بخيل ولا جبان، أي فيهم، أو حيث هم، وقرئ: «تسقي» بضم التاء من أسقى، ﴿سَلَّمْتُ﴾: سلمها الله من العيوب، أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه كقوله [من البسيط]:

أَوْ مَغْبَرِ الظَّهْرِ يُنْشِي عَنْ وَلِيِّهِ مَا حَجَّ رَبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا اغْتَمَرَ^(٢)

أو مخلصه اللون، من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفرتها شيء من الألوان ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾: لا لمعة في نقبتها^(٣)، من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى ٤٦/ب قرنهما وظلفها، وهي في الأصل مصدر وشاء وشياً وشية، إذا خلط بلونه لوناً آخر، ومنه: ثور موشى القوام، ﴿جَنَّتْ بِالْحَقِّ﴾: أي بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها، ﴿فَذَبَّحُوهَا﴾: أي فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها، وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: استغفال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وأنهم لتطويلهم المفرط

(١) قوله «لم تذلل للكراب» في الصحاح: كبرت الأرض إذا قلبتها للحرث. وفي المثل: الكراب على البقر، ويقال: الكلاب على البقر. (ع)

(٢) أنشد سيبويه. ويقال: أعبرت الشاة فهي معبرة، إذا كثُر صوفها لتركها سنة من غير جز، فالظهر المعبر: المتروك من الجز فيكثر وبره، أو لأنه لا وبر عليه فيجز. ولعل المراد هنا المتروك من الحمل عليه. وقيل: المنجرد الشعر. ونبا عنه ينو: انحرف. وأنيته: حرفته وأبعده، فما هنا معناه يمنع غيره عن ركوب وليته. وظاهر كلام بعضهم أنه يقال: نبى يني، كرمى يرمي، إذا انحرف. وأن ما هنا منه، أي ينفر عن وليته: أي برذعته، لأنها تلي الجلد. وبره باختلاس الحركة للوزن، بمعنى صاحبه. والمعنى: أنه بعيد متروك من العمل فهو مصعب ينفر من الراكب، لأنه لم يسافر أصلاً حتى أن صاحبه لا حج ولا اعتمر، وظاهر كلام بعضهم أن «ريه» هي رب التي هي حرف جر، فتكون جارة للضمير بلا تمييز لتقدم مرجعه، ودالة على تحقيق النفي مجازاً عن معنى التكثير وهي اعتراض بين المتعاطفين، وإسناد الفعلين للضمير البعير مجاز عقلي، لأنه من آلات الحج والاعتماد. وقائل ذلك فسر به بأنه منجرد الظهر ينفر من برذعته لذبره من كثرة الأسفار. ما سافر لحج ولا اعتمر، وإنما يسافر إلى الأعداء. ولو جعل معناه كما تقدم لجاز. فالمعنى أنه مصعب لم يركب ولم يسافر أصلاً، حتى أنه لم يسافر لحج ولا عمرة وهو ظاهر.

والبيت لرجل من باهلة: ينظر شرح أبيات سيبويه ٤٢٢/١، الكتاب ٣٠/١، الإنصاف ٥١٦/٢، خزائن الأدب ٢٦٩/٥ لسان العرب (عبر) والمقتضب ٣٨/١، المقرب ٢٠٤/٢، الدر المصون ١/١٩٦.

(٣) قوله: «لا لمعة في نقبتها» في الصحاح: النقبة اللون والوجه. (ع)

وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، ورؤي: أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة^(١) وقال: اللهم إني أستودعكها لابني حتى يكبر، وكان برأ بوالديه، فشبّت وكانت من أحسن البقر وأسمه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء منسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة (٥٥). فإن قلت: كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرة من شق البقر غير مخصوصة، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات، فذبحوا المخصوصة، فما فعل الأمر الأول؟ قلت: رجع منسوخاً؛ لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة، والنسخ قبل الفعل جائز، على أن الخطاب كان لإيهامه تناولاً لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها، ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالاً له؛ فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا: خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم، ﴿فَأَذَرْتُهُمْ: فاختلقتم واختصمتم في شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً، أي يدفعه ويضحه، أو تدافعتم، بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض، فدفع المطروح عليه الطّارح، أو لأن الطّرح في نفسه دفع، أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه، ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ: مظهر لا محالة ما كنتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً، فإن قلت: كيف أعمل «مخرج» وهو في معنى المضى؟ قلت: وقد حكى ما كان^(٢) مستقبلاً في وقت التدارؤ، كما حكى الحاضر في قوله: ﴿بِاسْطِ ذُرَاعِيهِ﴾ [الكهف: ١٨] وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما: (إذا رأتم)، و (فقلنا)، والضمير في ﴿أَشْرِيوْهُ﴾: إما أن يرجع إلى النفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان، وإما إلى القاتل لما دلّ عليه من قوله: (ما كنتم تكتُمون)، ﴿بِعَظْمِهَا: ببعض البقرة، واختلف في البعض الذي ضرب به، فقيل: لسانها، وقيل: فخذاها اليمنى، وقيل: عَظْبِهَا، وقيل: العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن، وقيل: الأذن، وقيل: البضعة بين الكتفين، والمعنى: فضربوه فحیی، فحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

٥٥ - قصة فتى بني إسرائيل رواها أبو الشيخ في العظمة (١٧٦٥/٥) رقم (١٢٦٤) مختصراً.
وذكرها السيوطي في الدر (١٥٤/١)، وعزاها لعبد بن حميد، وأبي الشيخ في العظمة في قصة طويلة.

(١) قوله «فأتى بها الغيضة» في الصحاح: الغيضة الأجمة، وهي مغيض ماء يجتمع فيه فينبت فيه الشجر. (ع)

(٢) قوله «قلت وقد حكى ما كان» لعله «قد» بدون وار. (ع)

أَلَمْ تَوَقَّ؟»، وروي: أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبُوهُ، قَامَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَوْدَاجَهُ تَشَخَّبَ دَمًا، وَقَالَ: قَتَلَنِي فَلَانُ وَفَلَانُ لِابْنِي عَمِّهِ، ثُمَّ سَقَطَ مَيِّتًا، فَأَخَذَا وَقَتَلَا وَلَمْ يَوْرَثْ قَاتِلُ بَعْدَ ذَلِكَ، ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ أَلَمْ تَوَقَّ؟﴾: إِمَّا أَنْ يَكُونَ خُطَابًا لِلَّذِينَ حَضَرُوا حَيَاةَ الْقَتِيلِ بِمَعْنَى وَقَلْنَا لَهُمْ؛ كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَرَبِّكُمْ يَأْتِينِي﴾: وَدَلَالَتُهُ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾: تَعْمَلُونَ عَلَى قَضِيَّةٍ عَقُولَكُمْ، وَأَنْ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَنْفُسِ كُلِّهَا لِعَدَمِ الْاِخْتِصَاصِ، حَتَّى لَا تَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ خُطَابًا لِلْمُنْكَرِينَ/٤٧أ في زمن رسول الله ﷺ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا أَحْيَاهُ ابْتِدَاءً؟ وَلَمْ شَرْطَ فِي إِحْيَائِهِ ذَبْحَ الْبَقَرَةِ وَضَرْبَهُ بَعْضُهَا؟ قُلْتَ: فِي الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ حُكْمٌ وَفَوَائِدُ؛ وَإِنَّمَا شَرْطُ ذَلِكَ لِمَا فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ مِنَ التَّقَرُّبِ وَأَدَاءِ التَّكَالِيفِ، وَاِكْتِسَابِ الثَّوَابِ وَالْإِشْعَارِ بِحَسَنِ تَقْدِيمِ الْقَرِيبَةِ عَلَى الطَّلَبِ، وَمَا فِي التَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ لِتَشْدِيدِهِمْ مِنَ اللَّطْفِ لَهُمْ، وَلِأَخْرَجِهِمْ فِي تَرْكِ التَّشْدِيدِ وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى امْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَارْتِسَامِهَا عَلَى الْفُورِ، مِنْ غَيْرِ تَفْتِيشٍ وَتَكْثِيرِ سَوَالٍ، وَنَفْعِ الْيَتِيمِ بِالتَّجَارَةِ الرَّابِعَةِ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى بَرَكَةِ الْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَتَجْهِيلِ الْهَازِئِ بِمَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ، وَلَا يَطْلُعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ كَلَامِ الْحُكَمَاءِ، وَبَيَانِ أَنَّ مَنْ حَقَّ الْمَتَقَرَّبُ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَتَنَوَّقَ^(١) فِي اخْتِيَارِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ، وَأَنْ يَخْتَارَهُ فَنِي السَّنِّ غَيْرِ قَحْمٍ وَلَا ضَرَعٍ، حَسَنَ اللَّوْنِ بَرِيًّا مِنَ الْعُيُوبِ يُونُقُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَغَالِي بِشَمْنِهِ، كَمَا يَرُودُ عَنْ عَمْرِ بْنِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُ: أَنَّهُ ضَخِيَ بِنَجِيَّةٍ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ (٥٦)، وَأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْخُطَابِ نَسْخَ لَهُ، وَأَنَّ النَّسْخَ قَبْلَ الْفِعْلِ جَائِزٌ وَإِنْ لَمْ يَجْزِ قَبْلَ وَقْتِ الْفِعْلِ وَإِمَّاكُنْهُ؛ لِأَدَائِهِ إِلَى الْبَدَاءِ، وَلِيَعْلَمَ بِمَا أَمَرَ مَنْ مَسَّ الْمَيِّتَ بِالْمَيِّتِ وَحَصُولَ الْحَيَاةِ عَقِيْبِهِ أَنَّ الْمَوْثُرَ هُوَ الْمَسْبَبُ لَا الْأَسْبَابُ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَيْنِ الْحَاصِلَيْنِ فِي الْجَسْمَيْنِ لَا يَعْقِلُ أَنْ تَتَوَلَّدَ مِنْهُمَا حَيَاةٌ، فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا لِلْقِصَّةِ لَمْ تَقْصُ عَلَى تَرْتِيبِهَا، وَكَانَ حَقُّهَا أَنْ يَدْقَمَ ذِكْرُ الْقَتِيلِ وَالضَّرْبِ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِذَبْحِهَا، وَأَنْ يَقَالَ: ﴿وَإِذْ قَتَلْنَا نَفْسًا فَادْرَأَتْهُمْ فِيهَا﴾

٥٦ - أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٥٤٦/١) كِتَابَ الْمَنَاسِكِ، بَابَ تَبْدِيلِ الْهَدْيِ حَدِيثَ (١٧٥٦)، وَعَزَاهُ فِي الْكَنْزِ (٢٣٣/٥) رَقْمَ (١٢٧٢٢) إِلَى أَبِي دَاوُدَ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكَشَافِ»:

أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ الْجَهْمِ بْنِ الْجَارُودِ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ. قَالَ: «أَهْدَى عَمْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَجِيَّةً فَأَعْطَى بِهَا ثَلَاثِمِائَةَ دِينَارٍ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَأَبِيعُهَا وَاشْتَرِي بِشَمْنِهَا بَدَنًا؟ قَالَ: لَا أَنْحَرُهَا إِلَّا بِهَا. انْتَهَى.

(١) قَوْلُهُ «أَنْ يَتَنَوَّقَ» فِي الصَّحَاحِ: تَنَوَّقَ فِي الْأَمْرِ، أَيْ تَأَنَّقَ فِيهِ. وَيُقِيدُ أَيْضًا أَنْ «الْقَحْمَ» الْمَسْنُ الْفَانِي، وَ «الضَّرَعُ» بِالتَّحْرِيكِ الضَّعِيفُ النَّحِيفُ. وَ «الْأَنُقُ» الْفَرْحُ وَالسُّرُورُ. (ع)

فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قصّ تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولما جذد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كلّ واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآفة العظيمة، وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل؛ لأنّه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في ثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعدما استوفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى؛ دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿أَشْرِيُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤)

معنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾: استبعاد القسوة من بعد ما ذكر ممّا يوجب لين القلوب ورقّتها ونحوه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوها عن الاعتبار، وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها، و﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى إحياء القتل، أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾: فهي في قسوتها مثل الحجارة، ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾: منها، و«أشد» معطوف على الكاف، إما على معنى أو مثل/٤٧ب أشد قسوة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وتعضّده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة، وإمّا على: أو هي في أنفسها أشد قسوة والمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أفسى منها وهو الحديد مثلاً، أو من عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أفسى من الحجارة، فإن قلت: لم قيل: أشد قسوة، وفعل القسوة ممّا يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب^(١) قلت: لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأفسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل: اشتدّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة، وقرئ: قساوة، وترك ضمير المفضل عليه لعدم

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم قيل: أشد قسوة... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: ولأن سياق هذه الأقاصيص قصد فيه الإسهاب لزيادة التقريع، حتى جعلت القصة الواحدة قصتين كما مر الآن. ولا شك أن قوله (أو أشد قسوة) أدخل في الإسهاب من قول القائل: أو أفسى.

الإلباس؛ كقولك: زيد كريم، وعمره أكرم، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾: بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقرير لقوله: (أو أشد قسوة)؛ وقرئ «وإن» بالتخفيف، وهي (إن): المخففة من الثقلة التي تلزمها اللام الفارقة، ومنها قوله تعالى: ﴿وإن كل لما جميع﴾ [يس: ٣٢]. والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، وقرأ مالك بن دينار: «ينفجر» بالنون، ﴿يَشَقُّ﴾: يتشق، وبه قرأ الأعمش، والمعنى إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً ﴿يَهْبِطُ﴾: يتردى من أعلى الجبل، وقرئ بضم الباء، والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به، وقرئ «يعملون» بالياء والتاء، وهو وعيد.

﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِن بَعْضٌ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَفَنظَمُونَ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾: أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم، كقوله ﴿فَأَمِّنْ لَهُ لوط﴾ [العنكبوت: ٢٦] يعني اليهود، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾: طائفة فيمن سلف منهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾: وهو ما يتلونه من التوراة، ﴿ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ﴾: كما حَرَفُوا صفة رسول الله ﷺ؛ وآية الرجم، وقيل: كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس، وقرئ «كَلِمَ الله». ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾: أنهم كاذبون مفترون، والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة في ذلك، ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾: يعني اليهود، ﴿قَالُوا﴾: قال منافقوهم^(١)، ﴿ءَامَنَّا﴾: بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به، ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ﴾: الذين لم ينافقوا، ﴿إِن بَعْضٌ﴾: الذين نافقوا، ﴿قَالُوا﴾: عاتبين عليهم:

(١) قال محمود رحمه الله: «قال منافقوهم... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وصح عود الضمير في اللفظ إلى جهة واحدة مع اختلاف المرجوع إليه، لأنهما صنفان مندرجان في الأول. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَلِمَةُ إِلَٰهَةٍ قُلْتُ فَأَنجِئْنَاهُمْ فَأَنصُرُهُمْ﴾ فالضمير الأول للأزواج، والثاني للآولياء وهو راجع إلى جهة واحدة وهي جهة المخاطبين لاشتمالهم على الصنفين جميعاً، والله أعلم.

﴿أَتَحْذَرُونَهُمْ يَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما بين لكم في التوراة من صفة محمد، أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلب في دينهم: أتحدّثونهم، إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم فيناقفون المؤمنين وينافقون اليهود، ﴿لِيَحْذَرُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم به، وقولهم هو في كتابكم/١٤٨ هكذا محاجة عند الله، ألا تراك تقول: هو في كتاب الله هكذا، وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد، ﴿يَتْلُمُ﴾: جميع، ﴿مَا يُبْرُونَ وَمَا يَعْلُونَ﴾: ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٧٨﴾ قَوْلِي لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلِي لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾: لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها، ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾: التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: إلا ما هم عليه من أمانهم، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وما تمنّيهم أجازهم من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وقيل: إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد، قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به: أهذا شيء رويته، أم تمنّيته، أم اختلقته^(١)، وقيل: إلا ما يقرءون من قوله [من الطويل]:

تَمْنَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ (٢)

والاشتقاق من منى إذا قدر؛ لأنّ المتمني يقدر في نفسه ويحزر ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا، وإلا أمانتي: من الاستثناء المنقطع، وقرئ: أمانتي، بالتخفيف، ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان، ثم العوام الذين قلّدوهم، ونبه على أنهم في الضلال سواء؛ لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه،

(١) قوله «أم تمنّيته أم اختلقته» لعله أي أم الخ. (ع)

(٢) تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

لحسان بن ثابت في مريّة عثمان بن عفان رضي الله عنهما. يقول: تمنى كتاب الله، أي تلاه وتابع في تلاوته تمنى داود عليه السلام الزبور: أي كتلاوته الزبور على رسل بالكسر: أي تؤدّه وسكينة. وروي بدل الشطر الثاني

وآخرها لاقى حمام المقادر

والحمام: الموت، لأنه مقدر، من حم الله الشيء: قدره.

ينظر: القرطبي (٦/٢)، المحرر الوجيز (١/٣٣٠)، مجمع البيان (١/٣٢٢)، اللسان (منى)، والدر ٢٦٩/١.

وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم، ﴿يَكُونُونَ الْكُتَّابُ﴾: المحترف، ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾^(١): تأكيد، وهو من محاز التأکید، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا، كتبه يمينك هذه، ﴿مِمَّا يَكْفُرُونَ﴾: من الرشا.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْبَاءًا تَقْدُودَةً﴾ لَنْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ لَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ مِمَّا مِنْ كَسَبٍ سَيِّئَةٍ وَأَخْطَأَتِ بِهِمْ خَطِئْتُهُمْ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٧﴾

﴿إِلَّا أَنْبَاءًا تَقْدُودَةً﴾: أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل، وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً، ﴿لَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ﴾: متعلق بمحذوف تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، و ﴿أَمْ﴾: إما أن تكون معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة، ﴿مِمَّا﴾: إثبات لما بعد حرف النفي، وهو قوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ﴾: أي بلى تمسكم أبداً، بدليل قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ﴿مِمَّا كَسَبَ سَيِّئَةٍ﴾: من السيئات، يعني كبيرة من الكبائر^(٢)، ﴿وَأَخْطَأَتِ بِهِمْ خَطِئْتُهُمْ﴾: تلك واستولت عليه، كما يحيط العدو ولم يتفص عنها^(٣) بالتوبة، وقرئ: خطاياهم وخطيئته، وقيل: في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته، وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله، ألا أراك ذا لحية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا مَسْبُودُونَ إِذْ أَنشَأَ نِازِلًا وَدَّى الْقُرَيْيَةِ وَأَلَيْسَ لَكُمُ الْمَسْكُونُونَ وَقُولُوا لِلثَّالِثِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا

(١) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة قوله بأيديهم... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: وربما قال الزمخشري في مثل هذا: إن فائدته تصوير الحالة في النفس كما وقعت، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة».

(٢) قوله: «يعني كبيرة من الكبائر» فسرهما بذلك لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة. وهو أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد فيها إلا الكافر. وفسروا الخطيئة بالشرك. وفي الخازن قال ابن عباس: هي الشرك يموت عليه صاحبه اه وهو الذي يحيط بفاعله ويسد أبواب النجاة أمامه في كل جهة. (ع)

(٣) قوله: «ولم يتفص عنها» أي يتخلص. (ع)

فَلَيْلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾: إخبار في معنى التهيئ^(١)، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الإمتثال والإنهاء، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبد الله وأبي «لا تعبدوا»: ولا بدّ من إرادة ٤٨/ب القول، ويدلّ عليه أيضاً قوله ﴿وَقُولُوا﴾، وقوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الإسراء: ٢٣]، إمّا أن يقدر: وتحسنون بالوالدين إحساناً، أو وأحسنوا، وقيل: هو جواب قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٢): إجرأ له مجرى القسم، كأنه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون، وقيل: معناه: ألا تعبدوا، فلما حذفت (أن): رفع، كقوله [من الطويل]:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضَرُ الْوَعَى^(٣)

ويدل عليه قراءة عبد الله: «ألا تعبدوا»، ويحتمل «أن لا تعبدوا»، أن تكون (أن) فيه مفسرة، وأن تكون أن مع الفعل بدلاً عن الميثاق، كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم وقرئ بالتاء حكاية لما خاطبوا به، وبالياء لأنهم غيب، ﴿حُسْنًا﴾: قولاً هو حسن في نفسه^(٤)، لإفراط حسنه، وقرئ «حسناً»، و«حسنى» على المصدر - كبشرى،

(١) قال محمود رحمه الله تعالى: «لا تعبدون إخبار في معنى النهي... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وجه الدليل منه أن الأول لو لم يكن في معنى النهي لما حسن عطف الأمر عليه، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر، ولا كذلك الأمر والنهي لالتقائهما في معنى الطلب.

(٢) قال محمود رحمه الله: «وقيل هو جواب قوله (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ)... إلخ». قال أحمد رحمه الله: لو قدر القسم مضافاً إلى المذكورين لكان أوجه، فيقول (وَإِذْ أَقْسَمْتُ لا تعبدون إلا الله... إلخ).

(٣) ألا أيهذا الزاجري أحضر الوعى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟
لطرفه بن العبد من معلقته. وألا أداة استفتاح. وحرف النداء محذوف. وأي منادى. واسم الإشارة نعت له. والزاجر نعت لاسم الإشارة مضاف لياء المتكلم إضافة الوصف لمفعوله. وروي بدله «اللاتمي»: وروي «أحضر» منصوباً بإضمار أن، ومرفوعاً على إهمالها وحسن حذفها ذكرها فيما بعد. يقول: يا أيها الزاجر لي عن حضور الحرب وشهود لذات النصر والظفر والغنيمه. أو شهود لذات الشراب ومغازلة النساء المستعدين لإتلاف المال، لست مخلدٌ لي لو طاعتك. فالاستفهام إنكاري.

ينظر ديوانه ص ٣٢، والإنصاف ٥٦٠/٢، وخزانة الأدب ١١٩/١، ٥٧٩/٨، والدرر ٧٤/١، وسر صناعة الإعراب ٢٨٥/١، وشرح شواهد المغني ٨٠٠/٢، والكتاب ٩٩/٣، ١٠٠، ولسان العرب (أن)، (دنا)، والمقاصد النحويّة ٤٠٢/٤، والمقتضب ٨٥/٢، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٤٦٣/١، ٥٠٧/٨، ٥٨٠، ٥٨٥، والدرر ٣٣/٣، ٩٤/٩، ووصف المباني ص ١١٣، وشرح شذور الذهب ص ١٩٨، وشرح ابن عقيل ص ٥٩٧، وشرح المفصل ٧/٢، ٢٨/٤، ٥٢/٧، ومجالس ثعلب ص ٣٨٣، ومغني اللبيب ٣٨٣/٢، ٦٤١، وجمع الهوامع ١٧/٢.

(٤) قال محمود: «أي قولاً هو حسن في نفسه... إلخ». قال أحمد: وفيه من التأكيد والتخصيص على =

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: على طريقه الالتفات ^(١) أي توليتم عن الميثاق ورفضتموه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾: قيل: هم الذين أسلموا منهم، ﴿وَأَنْتُمْ تُخْرِجُونَ﴾: وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق، والتولية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَقُولُونَ عَلَيْهِمِ الْإِيمَانُ وَالْعُدْوَانُ وَإِن يَأْتِوكُمُ اسْتَرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾: لا يفعل ذلك بعضكم ببعض، جعل غير الرجل نفسه، إذا اتصل به أصلاً أو ديناً، وقيل: إذا قتل غيره فكانما قتل نفسه، لأنه يقتص منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بالميثاق واعترفتهم على أنفسهم بلزومه، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾: عليها، كقولك: فلان مقرر على نفسه بكذا شاهد عليها، وقيل: وأنتم تسهون اليوم، يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾: استبعاد لما أسند إليهم ^(٢) من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم، والمعنى ثم أنتم بعد

= إحسان مناولة الناس، أنه وضع الصدر فيه موضع الاسم. وهذا إنما يستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف، كرجل عدل، وصوم وفطر، وقرى حسناً فهو على هذا من الصفات المشبهة.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي قاله إنما يجيء على قراءة: «لا يُعْبَدُونَ» بالغيبة، وأما على قراءة الخطاب فلا تنفك البتة، ويجوز أن يكون أراد بالالتفات الخروج من خطاب بني إسرائيل القدماء إلى خطاب الحاضرين في زمن النبي ﷺ، وقد قيل بذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾: قيل: يعني بهم الذين أسلموا في زمانه عليه السلام كعبد الله بن سلام وأضرابه، فيكون التفاتاً على القراءتين. والمشهور نضب «قليلًا» على الاستثناء لأنه من موجب. وزوي عن أبي عمرو وغيره: «إلا قليل» بالرفع. وفيه ستة أقوال، أصحها: أن رفعه على الصفة بتأويل «إلا» وما بعدها بمعنى غير. وقد عقد سيبويه - رحمه الله - في ذلك باباً في كتابه فقال: «هذا باب ما يكون فيه «إلا» وما بعدها وصفاً بمنزلة غير ومثل»، وذكر من أمثلة هذا الباب: «لو كان معنا إلا رجل إلا زيد لخلينا» و«لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا». انتهى. الدرر المصون.

(٢) قال محمود رحمه الله: أدخل ثم استبعاداً... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا نظير ما تقدم آنفاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَسَتْ قُلُوبُكُمُ﴾ الآية.

ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون^(١) غير أولئك المقربين تنزيلاً، لتغير الصفة منزلة وتغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به، وقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾: بيان لقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءُ﴾ وقيل: «هؤلاء» موصول بمعنى الذي^(٢)، وقرئ: «تظَاهرون»: بحذف التاء وإدغامها، وتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تظهرون: أي تتعاونون عليهم، وقرئ: «تفدوهم»، «وتفادوهم»، «وأسرى»، «وأسارى» ﴿وَمَوًى﴾: ضمير الشأن، ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره، ﴿إِخْرَاجَهُمْ أَفْتَوْهُمْ يَبْعِثُ الْكِتَابِ﴾: أي بالفداء، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: أي بالقتال والإجلاء، وذلك أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا حلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه، فغيرتهم العرب وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم، فيقولون: أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، ولكننا نستحي أن نذل حلفاءنا، والخزي: قتل بني قريظة وأسره وإجلاء بني النضير، وقيل: الجزية، وإنما رذ من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب، لأن عصيانه أشد، وقرئ: «يرذون»، «ويعملون». بالياء ١٤٩/ والتاء. ﴿فَلَا يَخْفُفُ عَنْهُمْ﴾: عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم، وكذلك عذاب الآخرة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِرُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة، آتاه إياها جملة واحدة، ويقال: قفاه إذا أتبعه من القفا، نحو ذنبه، من الذنب، وقفاه به: أتبعه إياه، يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ [المؤمنون: ٤٤] وهم: يوشع، وأشمويل، وشمعون، ودادو، وشعيا، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقييل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم، وقيل: ﴿عِيسَى﴾: بالسريانية أي شوع، و﴿مَرْيَمَ﴾: بمعنى الخادم،

(١) قال محمود رحمه الله: «والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء الشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك... إلخ». قال أحمد رحمه الله: هو بيان لتغير الصفة الموجب لتنزيلهم منزلة المغايرين لهم بالذات.

(٢) قوله: «موصول بمعنى الذي» لعلمه الذين. (ع)

وقيل: المريم بالعربية من النساء، كالزير من الرجال^(١)، وبه فسر قول رؤبة [من الرجز]:

قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُ^(٢)

ووزن «مريم» عند النحويين «مفعِل»، لأن فعلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب^(٣)، ﴿أَلْبَيْتَتِ﴾: المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات، وقرىء: «وأيادها»، ومنه: آجده، بالجيم إذا قواه، يقال: الحمد لله الذي آجديني بعد ضعف، وأوجدني بعد فقر، ﴿رُوحَ الْقُدُّوسِ﴾: بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق، ووصفها بالقدس، كما قال: ﴿وَرُوحَ مِنْهُ﴾: [النساء: ١٧١] فوصفه بالإختصاص والتقريب للكرامة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾، [الشورى: ٥٢] وقيل: باسم الله الأعظم، الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يابني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ بِالْحَقِّ﴾: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾: عن الإيمان به، فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ، والتعجب من شأنهم، ويجوز أن يريد: ولقد آتيناكم ما آتيناكم ففعلتم ما فعلتم، ثم وبخهم على ذلك، ودخول الفاء، لعطفه على المقدّر، فإن قلت: هلا قيل وفريقاً

(١) قوله «كالزير من الرجال» في الصحاح: هو الذي يحب محادثة النساء ومجالستهن. (ع)

(٢) قلت لزير لم تصله مريمه ضليل أهواء الصبا تندمه

لرؤبة بن العجاج يعاتب أبا جعفر الدوانيقي على البطالة ومغازلة النساء. سُئِيَ بذلك لأنه زاد في الخراج دوائق أيام خلافته، كذا في الكشف. والزير من يُكثير مودة النساء وزيارتهن. والمريم: من تكثر مودة الرجال وزيارتهم. قال أبو عمرو: من رام يريم، ومعناه بقي أو ذهب. وريمت السحابة تريماً: دامت. لدوامها على المودة، أو لخروجها من بيتها. والضليل كثير الضلال. والصبا: الميل إلى الجهل الفتوة. وتندمه: بمعنى ندمه، فهو مصدر مرفوع فاعل ضليل. ولعل معناه أن ندمه ضال ضائع في أهواء الصبا. ويروى «ندمه» بصيغة اسم الفاعل. وضليل: مرفوع على الابتداء، وندمه خبره. ولعل معناه أن الرجل كثير الضلال يعني نفسه هو الذي يندمه ويجعله نادماً، أي يأمره بالندم. وقال عبد الحكيم علي البيضاوي نقلاً عن الكشف: أي قلت له من كثر ضلاله يكون ندم نفسه وموقعها في الندامة. واللام في قوله لزير للتعليل؛ أي قلت ذلك القول لأجله، هذا توجيه ما قيل فيه. ولو جعلت ضليل صفة زير كالجرح الأول، وتندمه فعل أمر مقول القول، حرك بالضم لالتقاء ساكنين مع هاء السكت ولمناسبة الغافية لجاز: أي قلت له تندم وتب، لكن فيه تكلف شاذ. ينظر ديوانه ص ١٤٩، وتهذيب اللغة: ٢٤٤/١٣، وتاج العروس: (زور)، (ضلل)، ولسان العرب: (زور) وكتاب العين: ٩/٧.

(٣) قوله «عثير وعليب» العثير: الغبار. وعليب: اسم واد. (ع)

(٤) قوله «ومنه آجده بالجيم» أصله ما يقال: ناقة آجد، أي قوية موقنة الخلق أفاده الصحاح. (ع)

قتلتهم^(١)؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية^(٢)، لأن الأمر فطيع فأريد استحضره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد، لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، وقال - ﷺ - عند موته:

«ما زالت أكلتُ خبير تعاذني، فهذا أوان قطعت أبهري» (٥٧) ﴿عَلَفْتُ﴾: جمع أغلف، أي: هي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد - ﷺ - ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يخن، كقولهم: (قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه)، [فصلت:

٥٧ - أخرجه البخاري (٧/٧٣٧) كتاب المغازي/باب مرض النبي - ﷺ - ووفاته (٤٤٢٨) معلقاً قال: وقال يونس عن الزهري قال عروة قالت عائشة - رضي الله عنها - «كان النبي - ﷺ - يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخبير فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم». وعزاه في الكنز (٣٢١٨٩) لابن السني في «اليوم والليلة» وأبي نعيم في «الطب» من حديث أبي هريرة.

وله شاهد من حديث ابن عباس؛ أن رسول الله - ﷺ - مات من اللحم الذي كانت اليهودية سمته فانقطع أبهره من السم على أس السنة كان يقول: ما زلت أجد منه حساً». قال الهيثمي (٣٨/٩).
«رواه الطبراني وإسناده حسن».

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه البزار وأبو نعيم في الطب وابن عدي في الكامل. من طريق سعيد بن محمد الوراق عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وسعيد ضعيف، لكن رواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن عمر بسنده: «أن امرأة يهودية أتت النبي - ﷺ - بشاة مصلية - فذكر القصة - وفيها: أن هذه الشاة مسمومة، وأن بشر بن البراء مات منها. فقتلها رسول الله - ﷺ -». وأخرج هذا القدر أبو داود من رواية خالد الطحان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة مرسلاً. ورواه الطبري من حديث بريدة قال: «خرجنا إلى خبير - فذكر القصة. قال: فلما أطمأن رسول الله - ﷺ - يعني بخبير - أهدت زينب بنت الحارث إليه شاة - فذكر القصة فيه، =

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: هلا قيل: وفريقاً قتلتم... إلخ» قال أحمد رحمه الله: والتعبير بالمضارع يفيد ذلك دون الماضي، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَلْزَمَهُ مِن كِلَيْهِمْ فَغَيْرَ بِالْمَاضِي ثُمَّ قَالَ: فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، فعدل عنه إلى المضارع إرادة لتصوير اخضرارها في النفس. وعليه قول ابن مديكرب يصور شجاعته وجرأته [من الوافر]:

فلإني قد لقيت القرن أسمى بسهب كالصحيفة صحصحان

فأخذه فأضربه فيهبوي صريعاً لليدين وللجران

(٢) قوله: «أن تراد الحال الماضية» لعله: أن تراد حكاية الحال. (ع)

٥]، ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة^(١)، كذلك لأنها خلقت على الفطرة، والتمكن من

وقال: يا أم بشر، ما زالت أكلة خبير التي أكلت مع إبنك تعادني. فهذا أوان قطعت أبهري، قلت: من قوله: «فلما اطمأن الخ» ليس هو في حديث بريدة، وإنما هو من كلام الطبري. وهو في مغازي ابن إسحاق بهذا اللفظ الأول. وفيه قال ابن إسحاق: فحدثني مروان بن عثمان عن أبي سعيد بن المعلى: «أن النبي - ﷺ - قال لأم بشر - وقد دخلت عليه: يا أم بشر، إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهري - الحديث»، وكذا أخرجه الطبراني، وأبو نعيم في الدلائل من رواية أبي الأسود عن عروة مختصراً. وذكره الواقدي في المغازي مطولاً بغير سند. وذكره ابن سعد في الطبقات عنه بأسانيد وفيه: ورفعهما إلى ولادة بشر بن البراء فقتلوا. وروى أبو عبيدة والحري في غريبهما من حديث أبي جعفر الباقر نحو الأول مرسلأ. قال الأصمعي: تعادني من العدا. وهو الشيء الذي يأتي لوقت دون وقت، وذكره البخاري تعليقاً من رواية عيينة عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - ووصله البزار والحاكم من هذا الوجه، واتفق الشيخان على حديث أنس - رضي الله عنه -: «أن امرأة يهودية أتت النبي - ﷺ - بشاة مسمومة، فأكل منها الحديث، وفيه: فقال: ما زلت أعرفها في لهوات النبي - ﷺ -»، وروى أحمد والحاكم من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن أم بشر قالت: «دخلت على رسول الله - ﷺ - في وجهه الذي قبض فيه، فقلت: ما يتهم نفسك، فإني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكله معك بخير. قال: وأنا لا أتهم غيرها. فهذا أوان انقطع أبهري».

وأخرج البيهقي في الدلائل هذه القصة عن الزهري، وفيها: قال الزهري: قال جابر: «واحتجم يومئذ على الكاهل، وبقي ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي فيه. قال: ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خبير عداداً حتى كان هذا أوان انقطاع الأهرمني»، وأخرج أبو داود من رواية الزهري عن جابر كذلك. وروى الطبراني والدارقطني من رواية يحيى بن عبد الرحمن بن لبيبة عن أبيه عن جده لبيبة الأنصاري - رضي الله عنه - قال: «أهدت يهودية إلى النبي - ﷺ - شاة مصلية مسمومة. فأكل منها هو وبشر ابن البراء بن مصرور. فمرضاً مرضاً شديداً - فذكر القصة. وفيها: ثم أمر بها فصلت»، وروى معمر عن الزهري أنه قال: أسلمت. فتركها رسول الله - ﷺ - . قال معمر: هكذا قال. والناس يقولون: إنها لم تسلم وإنها قتلت. قال البيهقي: ثم السهيلي: يجمع بينهما بأنه صفح عنها فلم يقتلها، لأنه كان لا ينتقم لنفسه. فلما مات بشر من تلك الأكلة قتلها به قصاصاً. انتهى.

- (١) قال محمود رحمه الله: «ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من نواب الزمخشري على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة، وأني له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ألا تراه كيف أخذ من رد الله على هذه الطائفة أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر، أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم، تمهيداً لقاعدته الفاسدة في خلق الأعمال. وسبيل الرد عليه أن الله تعالى إنما كذبهم ورد عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان وسلب التمكن وعزلوا ذلك بأن قلوبهم غلف وصدق الله ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة والتمكن من الإيمان والثبات والتيسر له. وإنما هم اختاروا الكفر على الإيمان فوق اختيارهم الكفر مقارناً لخلق الله تعالى إياه في قلوبهم بعدما أنشأهم على الفطرة، فقيام حجة الله تعالى عليهم: بأنه خلقهم متمكنين من الإيمان غير مقسورين على الكفر، =

قبول الحق، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائف عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألفاظ التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين، «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ»: فإيماناً قليلاً يؤمنون / ٤٩ب وما مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم^(١)، وقيل: «غلف»: تخفيف «غلف» جمع «غلاف»، أي: قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى عن أبي عمرو: قلوبنا غلف، بضمتين: «كَتَبَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، هو القرآن، «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ»: من كتابهم لا يخالفه، وقرئ: «مصدقاً»، على الحال، فإن قلت: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلت: إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه، وقد وصف: «كتاب» بقوله: «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، وجواب لما محذوف وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك، «يَسْتَنِيحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا»: يستنصرون على المشركين، إذا قاتلوه، قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وقيل معنى: «يَسْتَنِيحُونَ»: يفتحون عليهم، ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه، والسين للمبالغة، أي يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم، «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا»: من الحق، «كَفَرُوا بِهِ»: بغياً، وحسداً، وحرصاً على الرياسة، «غَلَّ الْكَافِرُونَ»: أي عليهم وضعا للظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم، واللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس ويدخلوا فيه دخلاً أولياً.

= وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة في اعتقادهم أن الله تعالى خالق ذلك في قلوبهم على وفق اختيارهم. هذا هو الحق الأبلغ والصراط الأبهج والله الموفق. وقول الزمخشري: إن كفرهم إنما خلقوه لأنفسهم بسبب منع الطواف الله تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم وكانت سبباً في خلقهم الإيمان في قلوبهم: كل هذا تستر من الإشراك واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذهب إليه من أن «قليلًا» يُراد به النفي، فصحيح، لكن في غير هذا التركيب»، أعني قوله تعالى: «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» لأن «قليلًا» انتصب بالفعل المثبت فصار نظير «فَمَثُ قَلِيلًا» أي: قمت قايماً قليلاً، ولا يذهب ذاهباً إلى أنك إذا أتيت بفعل مُثَبِّتٍ وجعلت «قليلًا» منصوباً نعتاً لمصدر ذلك الفعل يكون المعنى في المثبت الواقع على صفة أو هيئة انتفاء ذلك المثبت رأساً وعدم وقوعه بالكلية، وإنما الذي نقل النحويون: أنه قد يُراد بالقلة النفي المخض في قولهم: «أقل رجل يقول ذلك، وقُلماً يقوم زيد»، وإذا تقرّر هذا فحمل القلة على النفي المخض هنا ليس بصحيح انتهى. قلت: ما قاله أبو القاسم الزمخشري - رحمه الله - من أن معنى التقليل هنا النفي قد قال به الواحدي قبله، فإنه قال: «أني: لا قليلاً ولا كثيراً، كما تقول: قُلماً يفعل كذا، أي: ما يفعله أصلاً». انتهى. الدر المصون.

﴿يَسْمَا أَشْرَكُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبْلَهُ وَبَعْضُ عَلَى عَصَبٍ وَلَا تَعْرِفِينَ عَذَابَ مُهِيتٍ ﴿٩٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا نَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

«ما»: نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بشس بمعنى بشس شيئاً، ﴿أَشْرَكُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: والمخصوص بالذم، ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾: واشتروا بمعنى باعوا، ﴿بَعِيًّا﴾: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة اشتروا، ﴿أَنْ يُنْزِلَ﴾: لأن ينزل أو على أن ينزل، أي حسدوه على أن ينزل الله، ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: الذي هو الوحي، ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾: وتقتضي حكمته وإرساله، ﴿قَبْلَهُ وَبَعْضُ عَلَى عَصَبٍ﴾: فصاروا أحقاء بغضب مترادف، لأنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه، وقيل: كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل: بعد قولهم: عزيز ابن الله، وقولهم: «يد الله مغلولة»، وغير ذلك من أنواع كفرهم، ﴿بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾: مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾: مقيد بالتوراة، ﴿وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾: أي: قالوا: ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾: منها غير مخالف له، وفيه رد لمقاتلتهم، لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها^(١)، ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغ قتل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمْ الْعَصِيبَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٨﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَكُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾: يجوز أن يكون حالاً، أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها، وأن يكون اعتراضاً بمعنى: وأنتم قوم عادتكم الظلم، وكزز رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما أمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قولك، ﴿وَعَصَيْنَا﴾/ ٥٠ أمرك، فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟

(١) قال محمود رحمه الله: «أنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذه النكتة يعينها هي الموجب لكفر القدريّة على أحد قولي مالك والشافعي والغاضي رضي الله عنهم، فإن العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقة بصدق بعضها بعضاً. فجدد أحداها كفر به ثم كفر بالجميع، نسأل الله تعالى العصمة.

قلت: طابque من حيث أنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا: ﴿هَيْمًا﴾، ولكن لا سماع طاعة، ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْغِبْلَ﴾: أي تداخلهم حبه، والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبيغ، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: بيان لمكان الإشراب، كقوله: ﴿نَمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا﴾: [النساء: ١٠]. ﴿يَكْفُرُهُمْ﴾: بسبب كفرهم، ﴿يَتَسَكَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِمْ يُنْشِكُكُمْ﴾: بالتوراة، لأنه ليس في التوراة عبادة العجايل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم، كما قال قوم شعيب: ﴿صَلَاتِكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم وقبح في صحة دعواهم له.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٨) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٩) وَلَنَجْذِثَهُمْ أَجْرُكَ النَّاسِ عَلَى حَيَوْهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجَّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿خَالِصَةً﴾: نصب على الحال من الدار الآخرة، والمراد الجنة، أي سالمة لكم، خاصة بكم، ليس لأحد سواكم فيها حق، يعني: إن صَحَّ قولكم، لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، و ﴿النَّاسِ﴾: للجنس وقيل: للعهد، وهم المسلمون، ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾: لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب، كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى، كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفيين في غلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزّي المحاربين، فقال: يا بني، لا يبالي أبوك على الموت سقط، أم عليه سقط الموت، وعن حذيفة رضي الله عنه أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. (٥٨) يعني: على التمني، وقال عمار بصفين: «الآن آلاقي الأحبة محمداً وحزبه»، (٥٩) وكان كل واحد من

٥٨ - أخرجه الحاكم (٥٠٢/٤).

وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف»:

أخرجه الحاكم من طريق زيد بن سلام عن أبيه عن جده: «أن حذيفة لما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة». انتهى.

٥٩ - أخرجه الزوار رقم (١٢٦٩٠ - كشف).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

العشرة يحب الموت ويحنّ إليه، وعن النبي ﷺ: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي» (٦٠) ﴿يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد ﷺ وبما جاء به، وتحريف كتاب الله، وسائر أنواع الكفر والعصيان، وقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾: من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿وَلَنْ تَقْعَلُوهُ﴾ [البقرة ٢٤] فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا، لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذر، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت: التمني من أعمال القلوب، وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت: أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى، وليت: كلمة التمني، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا، لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك، فإن قلت: لم يقولوه، لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون، قلت: كم حكى

 أخرجه الطبراني، والبخاري من رواية ربيعة بن ناجد قال: قال لي عمار يوم صفين: «اليوم الآتي =
 الأحبة: محمداً وحزبه»، ورواه أبو نعيم في الحلية. من رواية أبي سنان قال: «رأيت عمار بن ياسر
 يوم صفين دعا بشراب، فأتى بقدح من لبن فشرب منه، ثم قال: صدق الله ورسوله: اليوم الآتي
 الأحبة: محمداً وحزبه». انتهى.

٦٠ - قال الزيلعي (٧٥/١) رقم (٥٤): «غريب بهذا اللفظ».
 وأخرجه ابن جرير (٣٦٣/٢) رقم (١٥٦٧)، وابن أبي حاتم (٢٨٤/١) رقم (٩٤١) عن ابن عباس
 موقوفاً بلفظ: «لو تمنوا الموت أشرق أحدهم بريقه» ١. هـ.
 وأخرجه البخاري (٥٩٥/٨) كتاب التفسير، باب ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، حديث (٤٩٥٨).
 قال الحافظ في الفتح: وقد أخرج ابن مردويه بإسناد ضعيف عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه
 عن العباس مثله ١. هـ.
 قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

لم يخرج. وقد أخرجه الطبري من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - موقوفاً. وأخرج البيهقي
 في الدلائل من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أن النبي - ﷺ -
 قال لليهود: «إن كنتم صادقين في مقالكم فقولوا: اللهم أمتنا. فوالذي نفسي بيده، لا يقولها رجل
 منكم إلا غص بريقه ومات مكانه. قالوا: فأنزل الله ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وفي البخاري من رواية
 عبد الكريم الجزري عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو جهل: «إن رأيت
 محمداً عند الكعبة لأتبه حتى أطأ على عنقه. فقال النبي - ﷺ -: «لو فعل لأخذته الملائكة» زاد
 الإسماعيلي -: «عياًناً». قال ابن عباس: ولو أن اليهود تمنوا الموت لمتوا. ولو خرج الذين يباهلون
 رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا، وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه مثله.
 وزاد بعد قوله: «المتوا»، «ورأوا مقاعدهم من النار». انتهى.

عنهم من أشياء قالوا بها المسلمون من الإفتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين / ٥٠ ب فيه ولا محمل له إلا الكذب البحث ولم يبالوا، فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنَّ التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خاف لا سبيل إلى الإطلاع عليه ﴿وَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: تهديد لهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: هو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى مفعولين في قولهم: وجدت زيداً ذا الحفاظ^(١)، ومفعولاه: «هم أحرص»، فإن قلت: لم قال: ﴿عَلَى حَيَورٍ﴾ بالتكثير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي «على الحياة»، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس، فإن قلت: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت: بلى، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد، ويجوز أن يراد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف: لدلالة أحرص الناس عليه، وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا - لعلمهم بحالهم - أنهم صاثرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك، وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز وألف مهرجان، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: هو قول الأعاجم: زي هزار سال^(٢)، وقيل: «ومن الذين أشركوا» كلام مبتدأ، أي ومنهم ناس، ﴿يُودُّ أَحَدَهُمْ﴾: على حذف الموصوف، كقوله: ﴿وَمَا يَنَالُ إِلَّا لَكُمْ مَقَامٌ تَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤] والذين أشركوا - على هذا - مشارٌ به إلى اليهود، لأنهم قالوا: عزيز ابن الله، والضمير في: ﴿وَمَا هُوَ﴾: لأحدهم، و﴿أَن يَعْتَرَّ﴾: فاعل «بمزحزحه»، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، وقيل: الضمير لما دلَّ عليه «يعمر» من مصدره، وأن «يعمر» يدل منه، ويجوز أن يكون «هو» مبهماً، وأن «يعمر» موضحه، والزحزحة: التباعد والإنحاء، فإن قلت: «يودُّ أحدهم» ما موقعه؟ قلت: هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الإستئناف. فإن قلت: كيف اتصل لو يعمر بيودُّ أحدهم؟ قلت: هو حكاية لودادتهم، و«لو»: في معنى التمني، وكان القياس: لو أعمار، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله: ﴿يُودُّ أَحَدَهُمْ﴾ كقولك: حلف بالله ليفعلن.

(١) قوله: «وجدت زيداً ذا الحفاظ» في الصحاح: يقال إنه لذو الحفاظ، وذو محافظة، إذا كانت له ألفة. (ع)

(٢) قوله: «زي هزار سال» زي بالفارسية بمعنى: عش. وهزار بمعنى: ألف. وسال بمعنى: عام. (ع)

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

روي: أن عبد الله بن سوريا من أخبار «فدك» حاج رسول الله ﷺ، وسأله عن يهبط عليه بالوحي، فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لأمنا بك، وقد عادانا مرارا، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله فلقية ببابل غلاما مسكينا، فدفع عنه جبريل وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى / ٥١ أي حق تقتلون، (٦١) وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا. وروي: أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان ممّره على مدارس اليهود، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم، فقالوا: يا عمر، قد أحبينك، وإننا لنطمع فيك فقال: والله ما أجيتكم لحبكم، ولا أسألكم لأنني شاك في ديني، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، ثم سأله عن جبريل؟ فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم: وما منزلتهما من الله تعالى قالوا: أقرب منزلة، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدو لجبريل. فقال عمر: لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين، ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر، ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال النبي ﷺ: لقد وافقك ربك يا عمر. فقال عمر: لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر، (٦٢) وقرئ: «جبرئيل»، بوزن قفشليل^(١)

٦١ - قال الحافظ: لم أقف له على سند، وقال الزيلعي (٧٦/١) رقم (٥٥): «حديث غريب» ا. هـ. وذكره الواحدي (١٧٩/١ - ١٨٠)، والبخاري (٩٦/١).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

هكذا ذكره الثعلبي، والواحدي، والبخاري، فقالوا: روى ابن عباس: «أن حبرا من أخبار اليهود من فدك يقال له عبد الله بن سوريا فذكره»، ولم أقف له على سند. ولعله من تفسير الكلبي عن أبي صالح عنه. انتهى.

٦٢ - أخرجه ابن جرير في التفسير (٣٨٤/٢) رقم (٦١٣)، وذكره البخاري (٩٦/١) عن قتادة وعكرمة والسدي، وذكره السيوطي في الدر (١٧٥/١) مع اختلاف يسير في اللفظ مختصراً.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

(١) قوله «بوزن قفشليل» في الصحاح: القفشليل المغرفة، فارسي معرب. (ع)

و«جبرئيل» بحذف الباء، و«جبريل» بحذف الهمزة، و«جبريل» بوزن قنديل، وجبرال بلام شديدة، و«جبرائيل» بوزن جبراعيل، و«جبرائيل» بوزن جبراعل، ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة، وقيل معناه: عبد الله، الضمير في ﴿زَلَّكَ﴾: للقرآن، ونحو هذا الإضمار - أعني إضمار ما لم يسبق ذكره - فيه فخامة لشأن صاحبه، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾: أي حفظه إياك وفهمكه، ﴿يَا ذِي أَلْوَى﴾: بتيسيره وتسهيله: فإن قلت: كان حق الكلام أن يقال: على قلبي^(١)، قلت: جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به، كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدواً لجبريل، فإنه نزل على قلبك، فإن قلت: كيف استقام قوله، فإنه نزل: جزاء للشرط^(٢)؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه، فلوا أنصفوا لأحبه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم، والثاني: إن عاداه أحد، فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتابه وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن

= أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية داود بن أبي هند عن الشعبي، قال: «كان لعمر، فذكره سواه، وأخرجه الطبري من طريق أسباط عن السدي. قال في قوله: ﴿قل من كان عدواً لجبريل...﴾ الآية قال: «كان لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أرض بأعلى المدينة - إلى آخره - إلا أنه قال فقال عمر: والذي بعثك بالحق لقد جئتكم وما أريد إلا أن أخبركم». انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: كان حق الكلام أن يقال على قلبي... إلخ». قال أحمد رحمه الله: الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ، ومرة تكون بالمعنى غير متبعة للفظ، فعمل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام أن يحكي معنى قول الله تعالى له: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ بلفظ المتكلم ونظير هذا قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقُولُ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الذي جعل لكم الأرض مهدياً إلى قوله ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ أَسْمَاءَ مَا يَفْقَرُ فَأَنْشَرُوا بِوَيْلَةٍ مِمَّا﴾ فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم مما يفهم أنه قول الله عز وجل لا على سبيل الحكاية على المعنى، لأن معنى قولهم: فأنشروا، وإنما يقولون: فأنشروا، على لفظ الغيبة ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى، لأن معنى قولهم: فأنشروا، هو معنى قول الله عن ذاته: فأنشروا، ولا يستبطل لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة إلى التكلم الذي يسمى التثافت، فإن في هذا مزيداً. ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَعْصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِوَيْلَةٍ مِمَّا يَنْتَابِ سَقَى﴾ فأول الكلام يفهم قول موسى وآخره يفهم قول الله تعالى. والطريق الجامع في ذلك ما قرره والله أعلم.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت كيف استقام قوله فإنه نزل جزاء للشرط... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقاً لسببين: أحدهما أنه جملة اسمية، والآخر أنه ماضٍ صحيح.

ولموافقته لكتابتهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له، كقولك: إن عاداك فلان فقد أذيتة وأسأت إليه، أفرد الملكان بالذكر^(١) لفضلهما كأنهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أن التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات، وقرئ: ميكال، بوزن قطار، وميكائيل كميكاعيل، وميكائيل كميكاعل، وميكثل كميكعل، وميكثيل كميكعيل. قال ابن جنى: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه/ ٥١ ب ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: أراد عدو لهم فجاء بالظاهر، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١١﴾ أَوْكَلَّمَا عَنْهُدَا

(١) في قوله - تعالى -: «من كان عدو الله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال... الآية». فيه إفراد الملكية بالذكر، وهذا إشارة إلى فن جليل من فنون القول البالغ وهو ذكر الخاص بعد العام، وهو نوع من أنواع الإطناب البلاغي لنكتة يريد بها، المتكلم، والباحث في مسارات هذا اللون في كلام الله ورسوله يلحظ أن هذا اللون يفيد: ١ - التوكيد ٢ - التشريف ٣ - الإعظام ٤ - التنبيه على خصوصية فن الخاص ٥ - التهويل والتضطيق وغير ذلك من المعاني التي يدركها أهل الفروق البلاغي في مقامات هذا الأسلوب.

في الآية التي معنا: تنبيه على خصوصية في «جبريل وميكال» كما شرح ذلك المفسر العلامة. وهذا ما سنراه في قوله - تعالى - أيضاً -

﴿وَسَكَّرَدُّوْا قُلُوبَكُمْ حَيْثُ أَتَاوُا الْقُرْآنَ وَأَتَقَرُّوْا بِتَأْوِيلِ الْأَلْبَابِ﴾ [من الآية ١٩٧ البقرة] ففيه تخصيص لأولى الأبواب بالخطاب لأنهم القابلون لأوامر الله الناهضون بها.

ونرى التهويل والإعظام في هذا اللون عند قوله - تعالى -
«كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين».

فذكر «وأغرقنا آل فرعون» مع دخوله في عمومية ما قبله دليل على معنى يقصده الله - سبحانه - وراء هذا التخصيص، وقد فهم العلماء أن ذلك ما يفيد «التهويل والتضطيق وإعظام الفرق والعذاب الذي نزل بهم».

وفي هذا تخويف لكفار - مكة الذين يسبرون على هذا الدرب مع الظالمين -.

ومن أراد استيفاء هذا اللون الجميل فليراجع مصنفات البلاغيين.

«ينظر الإيضاح ٣/ ٢٢٤، وما بعدها، المطول للسعد ٢٩٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٣/ ١٩١، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢/ ٢٩٠، ٤/ ٢٥٢، روح المعاني للالوسي ٢/ ٨٦، ١٠/ ١٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٩٤، ٤/ ٥٠٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٨٩٤، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٦١، ٤/ ٤٠، ٢/ ٣١٨، كما ينظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٤/ ٢٩، والسفني ٢/ ١٠٨، علم المعاني في فتح القدير للشوكاني - د. فتحي حجازي ٢/ ٧٠٧ وما بعدها.

(٢) قوله «فما بال الملائكة وهم أشرف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فالأنبياء أشرف. (ع)

عَهْدًا بَيْنَهُمْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدْءَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَسْبَ أَسَرِّ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾: إلا المتمردون من الكفرة، وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره، وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال ابن سوريا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فتنبئك لها (٦٣) فنزلت، واللام في ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: للجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب، ﴿أَوْكُلَمَا﴾: الواو: للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا: وقرأ أبو السَّمَّال بسكون الواو على أَنَّ الفاسقون بمعنى الذين فسقوا، فكأنه قيل: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة، وقرئ «عاهدوا وعهدوا» واليهود موسومون بالعدو ونقض العهد، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا، ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦]، والنبد الرمي بالذمام^(١) ورفضه، وقرأ عبد الله «نَقَضَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ»: وقال فريق منهم، لأنَّ منهم من لم ينقض، ﴿بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بالتوراة وليسوا من الدين في شيء، فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به، ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾: يعني التوراة، لأنهم بكفروهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها، وقيل: كتاب الله القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك^(٢)، يعني أن علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه، مثل بما يرمى بها وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه، وعن الشعبي: هو بين أيديهم يقرؤنه، ولكنهم نبذوا العمل به، وعن سفيان: أدرجوه في الديباج والحريز وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۚ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

٦٣ - أخرجه ابن جرير (٣٩٨/٢) رقم (١٦٣٧)، وابن أبي حاتم (٢٩٤/١) رقم (٩٧٦)، وذكره السيوطي في الدر (١٨١/١)، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق، حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير عنه بهذا انتهى.

(١) قوله «بالذمام» في الصحاح: الذمام الحرمة. (ع)
(٢) قوله «لا يدخلهم فيه شك» لعله علماً لا يدخلهم فيه شك. (ع)

يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّيِّئَةَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ يُبَايِعُ هَهُنَا وَهَهُنَا وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا فَتْنَةٌ فَنَسَخْنَاهَا مَا تَفَكَّرْتُمْ فَتَتَّعِلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفْرِقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ مَوَاقِفُ هَهُنَا وَهَهُنَا وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْفَ مَا سَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿وَاتَّبِعُوا﴾: أي نبذوا كتاب الله واتبعوا، ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ﴾، يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرأها ﴿عَلَىٰ تِلْكَ سُلَيْمَنَّ﴾: أي: على عهد ملكه وفي زمانه، وذلك أَنَّ الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان - عليه السلام - حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنَّ﴾: تكذيب للشياطين ودفع لما بهت به ^(١) سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسماه كفراً، ﴿وَلَيْكِنَّ الشَّيْطَانُ﴾: هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾، باستعمال ٥٢/ السحر وتدوينه، ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّيِّئَةَ﴾: يقصدون به إغواءهم وإضلالهم، ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾: عطف على السحر، أي ويعلمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل: هو عطف على ما تتلو، أي واتبعوا ما أنزل، ﴿هَهُنَا وَهَهُنَا﴾: عطف بيان للملكين علمان لهما، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به؛ ولكن ليتقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً [من الهزج]: عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ رَ لَكِن لِسَوْقِيهِ ^(٢) كما ابتلى قوم طالوت بالنهر، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

(١) قوله «لما بهت به» أي قالت عليه ما لم يفعله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) عرفت الشر لا للشر ر لكن لسوقيه

فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

لأبي نواس. ومعنى «لكن» هنا. للإضراب الانتقالي. ويمكن أن يتوهم من قوله «لا للشر» أنه لم يعرف الشر لأجل شيء من متعلقاته رأساً فدفع هذا التوهم بقوله: لكن عرفته لتوقيه، فهي للاستدراك. أي عرفته لأجل التحفظ منه. و «من الناس» بيان لمن مؤكد للعموم، ويقع جزم في جواب الشرط، أي من جهل الشر وقع فيه، كالمار إذا جهل البشر المغطاة في طريقه. واستروحا بذلك لجواز تعلم نحو السحر للتمكن من تجنبه. ويجوز أن «من الناس» صفة للشر، و «من» بيانية أو ابتدائية. ويروى «من الخير» أي من لم يميز الشر من الخير يقع في الشر.

[البقرة: ٢٤٩]، وقرأ الحسن: «على الملكين»: بكسر اللام، على أنَّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل: وما يعلم الملكان أحداً حتى ينتهيا وينصحاها ويقولوا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ وَشَنَّةٌ﴾: أي ابتلاء واختبار من الله، ﴿وَلَا تَكْفُرْ﴾: فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾: الضمير لما دلَّ عليه من أحد، أي فيتعلم الناس من الملكين، ﴿مَا يُعْرِثُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَزَوْجِهِ﴾: أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالتفت في العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز والخلاف^(١) ابتلاء منه، لا أنَّ السحر له في نفسه بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِصَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله وربما لم يحدث ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ لأنهم يقصدون به الشر، وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرَّ إلى الغواية، ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أي استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله، ﴿مَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَاقٍ﴾: من نصيب، ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: أي باعوها، وقرأ الحسن: الشياطين، وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون، وقد ذكر وجهه فيما بعد، وقرأ الزهري: «هاروث وماروث»: بالرفع على: هما هاروث وماروث، وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت - وهو الكسر كما زعم بعضهم - لانصرفا، وقرأ طلحة «وما يعلمان» من أعلم، وقرئ: «بين المرء»: بضم الميم وكسرها مع الهمز، والمرت، بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف^(٢)، كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف، وقرأ الأعمش: وَمَا هُمْ بِضَارِيٍّ، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفصل بينهما بالظرف، فإن قلت: كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن؟ قلت: جعل الجار جزءاً^(٣) من المجرور^(٤)، فإن قلت:

(١) قوله «الفرك والنشوز» في الصحاح الفرك بالكسر البغض ولا يستعمل إلا بين الزوجين وقوله لا أن السحر ... إلخ: مبني على مذهب المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير له. وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره وإن كان تأثير كل شيء في غيره لا يكون إلا بإذن تعالى وهذا هو ظاهر الكتاب وظاهر السنة. (ع)

(٢) قوله «على تقدير التخفيف والوقف» أي في لغة من وقف بالتضعيف. (ع)

(٣) قوله «قلت جعل الجار جزءاً» ونظيره لا أبالك. (ع)

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا التخريج ليس بجيد؛ لأن الفصل بين المتضايقين بالظرف والمجرور من ضرائر الشعر، وأقبح من ذلك ألا يكون ثم مضاف إليه؛ لأنه مشغول بعامل جر فهو المؤثر فيه لا - الإضافة، وأما جعله حرف الجر جزءاً من المجرور فليس بشيء؛ لأن هذا مؤثر فيه وجزء الشيء لا يؤثر فيه. وفي قول الشيخ نظر؛ أما كون الفصل من ضرائر الشعر فليس كما قال؛ لأنه قد فصل بالمفعول به في قراءة ابن عامر فبالظرف وشبهه أولى، وأما قوله: «لأن جزء الشيء لا يؤثر فيه» فإنما ذلك في الجزء الحقيقي وهذا إنما قال: ننزله منزلة الجزء ويدل على ذلك قول النحويين: الفعل كالجزء من الفاعل، ولذلك أنت لتأنيته، ومع ذلك فهو مؤثر فيه. انتهى. الدر المصون.

كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: على سبيل التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٣) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ يَرَى ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلَّهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٧٥) ﴿

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾: برسول الله والقرآن، ﴿وَاتَّقَوْا﴾: الله فتركوا ما هم عليه من نبيذ كتاب الله واتباع كتب / ٥٢ب الشياطين، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، وقرئ: «لَمَثُوبَةٌ»، كمشورة ومشورة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أن ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم، فإن قلت: كيف أثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم^(١) لذلك، فإن قلت: فهذا قيل لمثوبة الله خير؟ قلت: لأن المعنى: لشيء من الثواب خير لهم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾: تمنياً^(٢)، لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: وليتهم آمنوا، ثم ابتدئ لمثوبة من عند الله خير، كان المسلمون يقولون لرسول الله - ﷺ - إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله، أي راقبنا وانتظرنا، وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية، وهي «راعيانا» فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا، افترصوه وخاطبوا به الرسول - ﷺ - وهم يعنون به تلك المسبة، فنهى المؤمنين عنها وأمرهم بما هو في معناها، وهو: ﴿انظُرْنَا﴾ من نظره إذا انتظره، وقرأ أبي: «انتظرنا» من النظرة، أي أمهلنا حتى نحفظ وقرأ عبد الله بن مسعود: «راعونا»، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير: وقرأ الحسن: «راعنا»، بالتثنية من الرعن وهو الهوج، أي: لا تقولوا قولاً راعنا منسوباً إلى الرعن رعيئاً، كدارع ولاين،

(١) قال السمين الحلبي: أي: ليتهم آمنوا على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له؛ فعلى هذا لا يلزم أن يكون لها جواب؛ لأنها قد تجاب بالفاء حيثيذ، وفي كلامه اعتزال. انتهى. الدر المنصور.

(٢) قال محمود رحمه الله: «ويجوز أن يكون قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ تمنياً... إلخ» قال أحمد رحمه الله: التمني مجاز عن إرادة الله تعالى لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعلل بالإرادة والرد عليه على سبيل ثم. قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «لم يعهد في كلام العرب وقوع الجملة الابتدائية جواباً لـ «لو» إنما جاء هذا المختلف في تخريجه، ولا تثبت القواعد الكلية بالمحتمل. انتهى. الدر المنصور.

لأنه لما أشبه قولهم: راعينا، وكان سبباً في السب اتصف بالرعن ﴿وَأَسْمَعُوا﴾: وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله - ﷺ - ويلقي عليكم من المسائل بأذان واعية وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعانة وطلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتهم عنه، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة، وروي: أن سعد بن معاذ سمعها منهم، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله - ﷺ - لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها فنزلت. (٦٤) ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾: وللإهود الذين تهاونوا برسول الله - ﷺ - وسبوه ﴿عَدَاؤُكُمُ الَّذِينَ﴾: من الأولى للبيان، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب، والمشركون؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، والثانية: زيادة لاستغراق الخير، والثالثة لابتداء الغاية، والخير الوحي، وكذلك الرحمة كقوله تعالى: ﴿أَمْزِمْ يَسْمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، والمعنى: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، ﴿وَاللَّهُ﴾ يختص بالنبوة، ﴿مَنْ يَشَأْ﴾: ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم؛ كقوله/٥٣ تعالى: ﴿إِنْ فَضَّلْنَاكَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ﴾ [الإسراء: ٨٧].

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦١) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٦٢) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَنْبَدِلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٦٣) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٤) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَقِضْهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٦٥)

رُوي أنهم طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم

٦٤ - أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة؛ كما ذكره السيوطي في الدر (١/١٩٥)، وهو من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
وقال الحافظ: والسدي هذا الصغير متروك وكذا شيخه. انتهى.

عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ فنزلت، وقرئ: «ما ننسخ من آية: وما «ننسخ» بضم النون، ومن أنسخ، أو ننسأها، وقرئ: «ننسخها» و«ننسخها» بالتشديد، و«ننسخها» و«تنسخها»، على خطاب رسول الله - ﷺ -، وقرأ عبد الله: «ما ننسخ من آية أو ننسخها» وقرأ حذيفة: «ما ننسخ من آية أو ننسخها»، ونسخ الآية: إزالتها بإبدال أخرى مكانها وإنساخها، الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل - عليه السلام - بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها، ونسؤها، تأخيرها وإذهابها، لا إلى بدل، وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب، والمعنى أَنَّ كُلَّ آية يذهب بها على ما توجه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل، «ثَأْتِ:» بآية خير منها للعباد، أي بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك، «عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»: فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير، «لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، فهو يملك أموركم ويديرها ويجريها على حسب ما يصلحكم، وهو أعلم بما يتبعكم به من ناسخ ومنسوخ، لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومديرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقرره على ذلك بقوله: «أَلَمْ تَلَمْ:» أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتبعدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى - عليه السلام - من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالأعلى عليهم كقولهم: «تَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا»، [الأصراف: ١٣٨]، «أَرَأَيْتَ لَهِجْرَةً»، [النساء: ١٥٣]، وغير ذلك، «وَمَنْ يَبْدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ»: ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة، وشك فيها، واقترح غيرها، «فَقَدْ صَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ»: روي: أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم يروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبله، وبالمؤمنين إخواناً. ثم أتيا رسول الله - ﷺ - وأخبراه فقال: «أصبتما خيراً وأفلحتما» (٦٥) فنزلت. فإن قلت: بم تعلق قوله: «وَمَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ»^(١)؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بـ «وَدَّ»، على

٦٥ - قال الحافظ «لم أجده مستنداً وهو في تفسير الثعلبي بلا سند ولا راو» ا.هـ.

وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٧٩/١): «غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند ولا راو».

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: بم تعلق قوله من عند أنفسهم... إلخ؟» قال أحمد رحمه الله: =

معنى أنهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدنين والميل مع الحق، لأنهم وذا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق، فكيف يكون تمنيه من قبل الحق؟ وإما أن يتعلق/ ٥٣ ب بحسدا، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل أنفسهم، ﴿فَأَعْمُوا وَأَمْدَحُوا﴾: فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الذي هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو يقدر على الانتقام منهم، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما، ﴿يَعْبُدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: تجدوا ثوابه عند الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾: لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ونحوه: ﴿وَقَالُوا كُتِبُوا هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا يَتَدَوَّأُ﴾ [البقرة: ١٣٥]، واليهود: جمع هائد، كعائذ وعوذ، وبازل وبزل، فإن قلت: كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت: حمل الاسم على لفظ «من» والخبر على معناه، كقراءة الحسن إلا من هو صالو الجحيم، وقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدٌ فِيهَا﴾ [الجن: ٢٣]، وقرأ أبي بن كعب: «إلا من كان يهودياً أو نصرانياً». فإن قلت: لم قيل: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [الجن: ٢٣] وقولهم: «لن يدخل الجنة» أمانة واحدة^(١)؟ قلت: أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو أمنيته^(٢) أن لا ينزل على المؤمنين

= يبعد الوجه الثاني دخول عند. ويقرب الأول قوله تعالى ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم قيل تلك أمانيههم وقولهم لن يدخل الجنة أمانة واحدة... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإن البرهان المطلوب منهم ههنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم. ويحقق هذا قوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فإنما يعني الجنة ونعيمها، رداً عليهم في نفي غيرهم عن دخولها ففي هذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها ليس إلا ما طولوا بإقامة البرهان على صحته وهو أمانة واحدة والله أعلم. والجواب القريب: أنهم لشدة تمنيههم لهذه الأمانة ومعادتهم لها وتأكدتها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة =

خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم: أي تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم، وقوله: ﴿فَلْ هَكَأُوهَا يُقْنَتُكُمْ﴾: متصل بقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانً﴾، و ﴿وَلَيْكَ آمَانِيَّتُهُمْ﴾: اعتراض، أو أريد أمثال تلك الأمانة أمانيتهم، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، يريد أن أمانيتهم جميعاً في البطلان مثل أمانيتهم هذه، والأمانة أفعولة من التمني، مثل الأضحوة والأعجوبة، ﴿هَكَأُوهَا يُقْنَتُكُمْ﴾: هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وأن كل قول لا دليل عليه، فهو باطل غير ثابت، و «هات»: صوت بمنزلة هاء، بمعنى أحضر، ﴿بَلَى﴾: إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره، ﴿وَمُوَحِّسِينَ﴾: في عمله ^(١) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: الذي يستوجهه. فإن قلت: «من أسلم وجهه» كيف موقعه؟ قلت: يجوز أن يكون ﴿بَلَى﴾ رداً لقولهم، ثم يقع، «من أسلم»: كلاماً مبتدأ، ويكون «من»: متصمناً لمعنى الشرط، وجوابه: «فله أجره»، وأن يكون «من أسلم»: فاعلاً لفعل محذوف، أي بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله «فله أجره»: كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَانِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَانِي لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهِ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿عَلَى شَيْءٍ﴾: أي على شيء يصح ويعتد به، وهذه مبالغة عظيمة، لأن المحال

= منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداة واحداً. ونظيره قولهم: معاً جياح، فجمعوا الصفة ومؤداة واحدة، لأن مرصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها. وهذا المعنى أحد ما روي في قوله تعالى ﴿إِنَّ مَوْلَاهُ لَشَرُّهُ لَقَلِيلٌ ﴿١٢٧﴾﴾ فإنه جمع قليلاً وقد كان الأصل إفراده، فيقال لشروءة قليلة كقوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فَتْرٍ كَلَسَ﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها. ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الأحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازياً بديعاً، فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله الموفق.

(٢) قوله «وهو أمانيتهم» لعله: وهي. (ع)

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا منه جنوح إلى الاعتزال» انتهى. الدر المصون.

والمعدوم/ ٥٤ أ يقع عليهما اسم الشيء^(١)، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الإعتداد به إلى ما ليس بعده^(٢)، وهذا كقولهم: أقل من لا شيء، ﴿يَهْمُ يَتَلَوْنَ الْكِتَابَ﴾: الواو للحال، والكتاب للجنس، أي قالوا ذلك، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً: ﴿كَذَلِكَ﴾: أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج، ﴿قَالَ﴾: الجهلة، ﴿الَّذِينَ﴾: لا علم عندهم، ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم، قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم، وروي: أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أجبار اليهود، فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعميسى والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه، وكفروا بموسى والتوراة، (٦٦) ﴿قَالَ يَحْكُمُ﴾: بين اليهود والنصارى ﴿يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ﴾: بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه، وعن الحسن: حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار ﴿أَنْ يَذْكُرَ﴾: ثاني مفعولي منع، لأنك تقول: منعه كذا، ومثله: ﴿وَمَا نَعْنَأُ أَنْ تُرْسِدَ﴾، [الاسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِرُوا﴾ [الكهف: ٥٥] ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن، ولك أن تنصبه مفعولاً له بمعنى كراهة أن يذكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمعنون الناس أن يصلوا فيه، وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا، وقيل: أراد به منع المشركين رسول الله ﷺ - أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع

٦٦ - أخرجه ابن جرير (٥١٣/٢) رقم (١٨١١)، وابن أبي حاتم (٣٣٨/١ - ٣٣٩) رقم (١١١٠)، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (١٩٠/٢) رقم (٦٢٥)، وذكره السيوطي في الدر (٢٠٣/١). قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الطبري من رواية ابن إسحاق، حدثني محمد بن أبي محمد، حدثني سبيد أو عكرمة عن ابن عباس به، وفيه: «أن قاتل اليهود اسمه رافع بن حريملة». انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «هذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وتفسيره الشيء مخالف لفرقي أهل السنة والبدعة، فإنه عند أهل السنة قاصر على الموجود وعند المعتزلة يطلق على الموجود وعلى المعدوم الذي يصح وجوده، فليس متناولاً للحال بحال عندهما، وقد تقدم له مثله.

(٢) قوله «إلى ما ليس بعده» لعل المعنى: إلى حد ليس بعده حد. (ع)

المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن أذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن أذى الصالحين، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] والمنزول فيه الأخنس بن شريق، ﴿وَسَيِّئٌ فِي حَرَابِهِ﴾: بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان، وينبغي أن يراد بـ «من»: منع العموم كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين، ﴿أُولَئِكَ»: المانعون، ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾: أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله، ﴿إِلَّا عَائِدِينَ﴾: على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم، وقيل: ما كان لهم في حكم الله، يعني: أن الله/ ٥٤ ب قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقويه حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روى: أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متكرراً / مسارقة، وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أنهك ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة، وقيل: نادى رسول الله - ﷺ -: «ألا لا يحججن بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان» (٦٧) وقرأ أبو عبد الله: «إلا خيفاً»، وهو مثل صميم^(١)، وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد: فجوّزه أبو حنيفة - رحمه الله -، ولم يجوزه مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره، وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿حَرْئٍ﴾: قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية، وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية ورومية وعمورية.

٦٧ - أخرجه البخاري (٢٨٧/٤) كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، حديث (١٦٢٢).

ومسلم (١٢٦/٥) كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان حديث (١٣٤٧).

وذكره السيوطي في الدر (٢١٠/٣) تفسير سورة مريم: وعزاه أيضاً لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

(١) قوله «وهو مثل صميم» في الصحاح: قوم صوم وصيم. (ع)

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٍ﴾ (١١٥)

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: أي بلاد المشرق والمغرب، والأرض كلها لله هو مالكيها ومتوليها، ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾: ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَوْلِي وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠]، ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾: أي جهته التي أمر بها ورضيها؛ والمعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص [إسكانها] في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٍ﴾: الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم، ﴿عَلِيمٌ﴾: بمصالحهم، وعن ابن عمر نزلت في صلاة المسافر على الراحلة: أينما توجهت، وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا، وقيل: معناه: فأينما تولوا للدعاء والذكر ولم يرد الصلاة، وقرأ الحسن: «فأينما تولوا»، بفتح التاء من التولي يريد: فأينما توجهوا القبلة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَيْنُونَ﴾ (١١٦)

﴿وَقَالُوا﴾: وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَنَهُ﴾: تنزيه له عن ذلك وتبعيد، ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هو خالقه ومالكة، ومن جملة الملائكة وعزير والمسيح، ﴿كُلُّ لَكُمْ قَيْنُونَ﴾: منقادون، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، والتنوين في ﴿كُلُّ﴾: عوض من المضاف إليه، أي كل ما في السموات والأرض، ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولداً له قانتون، مطيعون، عابدون، مقرون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم، فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله قانتون^(١)؟ قلت: هو كقوله: سبحانه ما سخر كن لنا، وكأنه جاء بـ (ما) دون (من)، تحقيراً لهم، وتصغيراً لشأنهم، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا بعيد جداً؛ لأن المجمعول ولداً لم يجر له ذكر، ولأن الخبر يشترك فيه المجمعول «ولداً» وغيره. قوله: «لم يجر له ذكر» بل قد جرى ذكره فلا بعد فيه. انتهى. الدر المصون.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٧)

١٥٥/ يقال: بدع الشيء فهو بديع؛ كقولك: بزغ الرجل^(١) فهو: بزيع، و﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾: من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أي: بديع سمواته وأرضه، وقيل: البديع بمعنى المبدع، كما أن السميع في قول عمرو: [الوافر] أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ^(٢)

بمعنى المسمع، وفيه نظر، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾: من كان التامة، أي أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام، وتمثيل، ولا قول ثم، كما لا قول في قوله [من الرجز]:
إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاءُ لِلْبَطْنِ: الْحَقِي^(٣)

وإنما المعنى: أن ما قضاء من الأمور، وأراد كونه؛ فأنما يتكُون، ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر، فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، أكد بهذا استبعاد الولادة، لأن من كان بهذه الصفة من القدرة، كانت حاله مابينة لأحوال الأجسام في تولدها، وقرئ: «بديع السموات» مجروراً على أنه بدل من الضمير في له، وقرأ المنصور بالنصب على المدح.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهْتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٨)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وقال الجهلة من المشركين، وقيل من أهل الكتاب، ونفى

(١) قوله «بزغ الرجل» بزغ بالزاي كظرف وزناً ومعنى. أفاده الصحاح وصرح كقولك بأنه لا يوصف به الأحداث. (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١٠ فراجع إن شئت الله.

(٣) إذ قالت الأنساء للبطن: الحقي قدماً فأضت كالفنيق المحنق
لأبي النجم العجلي. والنسع - بالكسر -: حزام عريض يشد به وسط الدابة وستر الهودج. والحق: فعل أمر، أي التصق يا بطن بالظهر وانضم. وقدموا: نصب على المصدر بمحذوف أو بما قبله على أنه مفعول له. وأض يثض أيضاً: إذا صار بصير، أو رجع يرجع، أي صارت الناقة كالفنيق. ويروى: فأحتن، أي حقدت واغتاضت الناقة، وأصله بكسر الحاء فسكن تخفيفاً كما تقدم في ضمير ودير. والفنيق: الفحل المنعم المكرم. يقال: أفنقه، إذا نعمه. وجارية فنقة: ناعمة. والمحنق: المغيظ، من الحق وهو الحقد والغيط. ويروى «إذ قالت» بدل «إذا قالت». والحق: بوصل الهمزة وقطعها. والمحنق بسكون الحاء، فيكون من الرجز، لا من الطويل. وقدم قدماً، كنصر نصرأ، إذا تقدم. والظاهر أن هذه الرواية هي الصواب لكثرة رجز أبي النجم. وإثبات القول للأنساع ومخاطبتها البطن من باب التمثيل. والمعنى أنه شد عليها أدوات السفر فاغتاضت غيظاً شديداً، كالفحل المكرم الذي غاظه غيره.

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿١٢٦﴾

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكُنْبَ﴾: هم مؤمنو أهل الكتاب، ﴿يَتْلُوهُ حَقٌّ وَلَا وَيُوعَى﴾: لا يحرفونه، ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله - ﷺ - ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ﴾: بكتابهم دون المحرفين، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾: من المحرفين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾: حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّثَابَهُ لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَابْتَلَا مِنْ مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾: اختبره بأوامر ونواه، واختبار الله عبده مجاز عن تمكنه عن اختيار^(١) أحد الأمرين: ما يريد الله، وما يشتهي العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك، وقرأ أبو حنيفة - رضي الله عنه - وهي قراءة ابن عباس - رضي الله عنه -: «إبراهيمُ ربُّه»: رفع إبراهيم ونصب ربه، والمعنى: أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أم لا؟ فإن قلت: الفاعل في القراءة المشهورة يلي الفعل في التقدير، فتعلق الضمير به إضمار قبل الذكر، قلت: الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربه إبراهيم، فاما ابتلى إبراهيم ربه، أو ابتلى ربه إبراهيم، فليس واحداً منهما بإضمار قبل الذكر، أما الأول: فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكراً ظاهراً، وأما الثاني: فإبراهيم فيه مقدّم في المعنى، وليس كذلك: ابتلى ربه إبراهيم، فإن الضمير فيه قد تقدم لفظاً ومعنى فلا سبيل إلى صحته، والمستكن في ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى: فقام بهنّ حق القيام وأذاهنّ أحسن التأدية من غير تفریط وتوان، ونحوه: ﴿وَالْإِسْرَافَ الَّذِي وَكَّلَ ﴿١٢٩﴾﴾ [النجم ٣٧] وفي الأخرى لله تعالى بمعنى: فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً، ويعضده ما روي عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، ﴿وَجَعَلْنَا مُسَلِّمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿وَرَأَيْتُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿رَبَّنَا لَقَبَلْنَا نِسَاءً﴾ [البقرة: ١٢٧]، فإن قلت: ما العامل في إذ؟ قلت: إما مضمّر نحو: واذكر إذ ابتلى أو إذ ابتلاه كان كيت وكيت، وإما: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾، فإن قلت: فما موقع قال؟ قلت: هو على الأول استئناف، كأنه قيل: فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات؟ فقيل: قال: إني جاعلك للناس إماماً، وعلى الثاني

(١) قوله «تمكينه عن اختيار» لعله من.

جملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون بياناً لقوله: (ابتلى)، وتفسيراً له، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام قبل ذلك في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقيل في الكلمات: هنّ خمس في الرأس: الفرق، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق، وخمس في البدن: الختان، والإستحداد، والإستنجاء، وتقليم الأظفار، ونف الإبط، وقيل: ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً: عشر في براءة ﴿التَّكْوِينُ الْكَبِيرُ﴾ [التوبة: ١١٢]، وعشر في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعشر في المؤمنون: ﴿وَسَأَلَ سَائِلٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ [٥٦] [المعارج: ٣٤]، وقيل: هي مناسك الحج، كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، والتعريف، وغيرهنّ، وقيل: ابتلاه بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، وذبح ابنه، والنار، والهجرة، والإمام: اسم من يؤتم به على زنة الآله، كالإزار لما يؤتز به، أي يأتون بك في دينهم، ﴿وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِي﴾: عطف على الكاف، كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي، كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً، ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: وقرئ: «الظالمون»، أي من كان ظالماً من ذريتك. لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم، وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته؛ ولا يقبل خبره، ولا يقدم للصلاة، وكان أبو حنيفة - رحمه الله - يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن عليّ - رضوان الله عليهما -، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمي بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه، وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل، فقال: ليتني مكان ابنك، وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ أجره لما فعلت، وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم: ﴿أَلَيْتَ﴾: اسم غالب للكعبة، كالنجم للشريا، ﴿مَتَاةً لِلنَّاسِ﴾: مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يشوبون إليه أي يشوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم، ﴿وَأَنَّا﴾: موضع أمن، كقوله: ﴿حَرَمًا مَّأْنًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [المنكبوت: ٦٧] ولأن الجاني يأوي إليه فلا يتعرض له حتى يخرج، وقرئ: «مئابات»، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم ﴿سَوَاءَ أَلْمَكَتُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج ٢٥]، ﴿وَأَعْبُدُوا﴾: على إرادة القول، أي: وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، وعن النبي ﷺ - «أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا اتخذته مصلًى - يريد

أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركاً به وتيمناً بموطىء قدم إبراهيم - فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت»، (٦٨) وعن جابر بن عبد الله: «أن رسول الله ﷺ استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة، حتى إذا فرغ، عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (٦٩) وقيل: مصلى مدعى، ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه سأل المطلب بن أبي وداعة/٥٦: هل تدري أين كان موضعه الأول؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم، وعن عطاء ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾: عرفة والمزدلفة والجمار، لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها، وعن النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقرأ: «واتخذوا» بلفظ الماضي عطفًا على «جعلنا»: أي واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به

٦٨ - قال الزيلعي (٨٠/١):

«غريب بهذا اللفظ» ١. هـ.

وعزه الحافظ في «تخريج الكشاف» إلى أبي نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر: «أن النبي - ﷺ - أخذ بيد عمر - رضي الله عنه - فمر على المقام فقال له: يا نبي الله، هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم، قال: ألا نتخذ مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ - الآية.

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال عمر - رضي الله عنه - «وافقتني ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾... إلخ.

أخرجه البخاري (٢٠/٩) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ حديث (٤٤٨٣)، وأطرافه في البخاري (٤٠٢، ٤٧٩٠، ٤٩١٦)، ورواه الترمذي (٢٠٦/٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٥٩، ٢٩٦٠).

وابن ماجه (٣٢٢/١) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (١٠٠٩)، وأحمد في المسند (١/٢٤، ٣٦ - ٣٧)، وابن حبان في صحيحه (٣١٩/١٥) رقم (٦٨٩٦)، والبيهقي في شرح السنة (١٨٩ رقم (٣٧٨٠).

٦٩ - أخرجه مسلم (٩٢١/٢) كتاب الحج: باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة حديث (٢٣٦/١٢٦٣)، (٨٨٦/٢ - ٨٩٢) كتاب الحج: باب حجة النبي - ﷺ - حديث (١٢١٨/١٤٧)، وأبو داود (٤٥٥/٢ - ٤٦٤) كتاب المناسك باب صفة حجة النبي - ﷺ - حديث (١٩٠٥)، والترمذي (٢١٢/٣) كتاب الحج: باب ما جاء من الحجر إلى الحجر حديث (٨٥٧)، والنسائي (٢٣٠/٥) كتاب الحج: باب الرمل من الحجر إلى الحجر، وابن ماجه (١٠٢٢/٢) كتاب المناسك: باب حجة رسول الله - ﷺ - حديث (٣٠٧٤).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

هكذا ذكره والذي في صحيح مسلم في الحديث الطويل في صفة الحج، «أنه قرأ الآية لما فرغ من الطواف ثم صلى». انتهى.

وإسكان ذريته عنده قبله يصلون إليها، ﴿عَهْدًا﴾: أمرناهما، ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾: بأن طهرا، أو أي طهرا، والمعنى طهرا من الأوثان، والأنجاس، وطواف الجنب، والحائض، والخبائث كلها، أو أخلصا لهؤلاء لا يغشه غيرهم، ﴿وَالْمَكِّيَّيْنَ﴾: المجاورين، الذين عكفوا عنده، أي أقاموا لا يرحلون، أو المعتكفين، ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعني القائمين في الصلاة، كما قال: ﴿لِلْقَائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ [الحج: ٢٦]، والمعنى: للطائفتين والمصلين، لأن القيام والركوع والسجود هيأت المصلي.

﴿وَلَوْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

أي: اجعل هذا البلد أو هذا المكان، ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾: ذا أمن، كقوله: ﴿بَيْتُهُ آمِنٌ﴾ [الحاقة: ٢١]. أو آمنا من فيه، كقوله: ليل نائم، و﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾: بدل من أهله، يعني وارزق المؤمنين من أهله خاصة، ﴿وَبِئْسَ الْكُفْرُ﴾: عطف على من آمن كما عطف، ﴿وَبِئْسَ دُرِّيًّا﴾: على الكاف في جاعلك^(١) فإن قلت: لم خص إبراهيم - صلوات الله عليه - المؤمنين حتى ردّ عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة فعرف الفرق بينهما؛ لأن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإلزاماً للحجة له، والمعنى: وارزق من كفر فأمّته، ويجوز أن يكون ﴿وَبِئْسَ الْكُفْرُ﴾: مبتدأ متضمناً معنى الشرط، وقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾: جواباً للشرط، أي ومن كفر فانا أمّته، وقرئ: فأمّته فأضطره^(٢) فألزه إلى عذاب النار، لزم المضطر الذي لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، وقرأ أبي: فمتمّعه قليلاً ثم نضطره، وقرأ يحيى بن وثاب: فإضطره، بكسر الهمزة، وقرأ ابن عباس: فأمّته قليلاً ثم اضطره، على لفظ الأمر، والمراد: الدعاء من إبراهيم دعا ربه بذلك، فإن قلت: فكيف تقدير الكلام على هذه القراءة؟ قلت: في (قال): ضمير إبراهيم، أي قال إبراهيم بعد مسألته

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ فإن هذه الحروف قد أدغمت في غيرها، أدغم أبو عمرو الداني اللام في: ﴿وَيَذَرُ لَكُمْ﴾ والضاد في الشين: ﴿يَتَعَسَّ سَكِينُهُمْ﴾ والشين في السين: ﴿الْمَرْيُ سَيْلًا﴾ وأدغم الكسائي الفاء في الباء: ﴿تَحْيِيْفُ يَهُمُ﴾ وحكى سيبويه أن: «مضجعاً» أكثر فدل على أن: «مطجعاً» كثيراً.

وقرأ يزيد بن أبي حبيب: «أضطره» بضم الطاء كأنه للإبتاع. وقرأ أبي: «فتمّته ثم نضطره» بالنون. واضطر افتعل من الضّرّ وأصله: اضتر فأبدلت التاء طاء؛ لأن تاء الافتعال تبدل طاء بعد حروف الإطباق، وهو معتد وعليه جاء التنزيل. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «فأضطره» التلاوة: ثم أضطره. (ع)

اختصاص المؤمنين بالرزق: ومن كفر فامتعه قليلاً ثم أضطره، وقرأ ابن محيصن: فأطره، بإدغام الضاد في الطاء كما قالوا: اطجع، وهي لغة مرذولة؛ لأن الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها، ولا تظغم هي فيما يجاورها وهي حروف «ضم شفر».

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَنُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿يَرْفَعُ﴾: حكاية حال ماضية، و﴿الْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة، وهي الأساس، والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها الثابتة، ومنه قدّك الله، أي: أسأل الله أن يقدّك أي يثبتك، ورفع الأساس: البناء^(١) عليها، لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر، ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء^(٢)، لأن كل ساف/٥٧ قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد: رفعها بالبناء، لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات، ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت - أي استوطاً - يعني جعل هيئته القاعدة المستوطنة مرتفعة عالية بالبناء، وروي: أنه كان مؤسساً قبل إبراهيم فبنى على الأساس، وروي: أن الله تعالى أنزل البيت ياقوته من يواقيت الجنة له بابان من زمرد: شرقي وغربي، وقال لآدم - عليه السلام -: أهبط لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً، وتلقته الملائكة فقالوا: بَرَّ حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام (٧٠)

٧٠ - قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

«أخرجه الفاكهي في كتاب مكة من رواية الضحاك هو ابن مزاحم. قال: قال حذيفة: وسلمان الفارسي: «سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن الله أنزل البيت من ياقوته حمراء نزلت به الملائكة مع آدم، فنزلت به في الحرم، وترك آدم في الهند في جبل يقال له: وأشب بأرض الهند، وترك إبليس بالحرم، فحوّل الله إبليس إلى أرض الهند، وحوّل آدم إلى الحرم... الحديث، وفي إسناده ضعف. وانتطاع ورواه أيضاً من طريق ابن إدريس عن أبيه عن عطاء أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل كعباً قال: أخبرني عن بناء هذا البيت ما كان أمره؟ فقال: إن هذا البيت أنزله الله من السماء ياقوته حمراء مجوفة مع آدم. وفي رواية النحاس بن قهم: سمعت عطاء يقول: قال آدم: يا =

(١) قوله «ورفع الأساس البناء» لعله الأسس - بضمين. (ع)

(٢) قوله «المراد بها سافات البناء» قوله «سافات» عبارة أبي السعدي. والفخر «سافات» بالقاف بدل الفاء. والصواب أنه بالفاء كما في الصحاح في باب الفاء: الساف: كل عرق من الحائط. (ع)

وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجله، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة، فهو البيت المعمور، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه وعزّه جبريل مكانه، وقيل: بعث الله سبحانه أظلمته، ونودي: أن ابن علي ظلها لا تزدد ولا تنقص، وقيل: بناء من خمسة أجبل طورسينا، وطورزيتا، ولبنان، والجودي، وأسمه من حراء، وجاء جبريل بالحجر الأسود من السماء، وقيل: تمخض أبو قبيس فانشق عنه، وقد خبى فيه في أيام الطوفان، وكان ياقوتة بيضاء من الجنة، فلما لمست الحيف في الجاهلية اسودّ، وقيل: كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، ﴿وَرَبَّكَ﴾: أي يقولان ربنا، وهذا الفعل في محل نصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّوْمِيُّ﴾: لدعائنا، ﴿أَلَيْمٌ﴾: بضائنا ونياتنا، فإن قلت: هلا قيل: قواعد البيت، وأي فرق بين العبارتين؟ قلت: في إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإيهام من تفخيم لشأن المبين، ﴿سُلَيْمٌ لَكَ﴾: مخلصين لك أوجهنا، من قوله: ﴿أَسَلَّمْ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] أو مستسلمين، يقال: أسلم له، وسلم، واستسلم، إذا خضع وأذعن، والمعنى: زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك، وقرئ: «مسلمين» على الجمع، كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التشية على حكم الجمع لأنها منه ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾: واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةً سُلَيْمَةً لَكَ﴾، و﴿مِنْ﴾: للتبعض أو للتبيين، كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [النور: ٥٥]. فإن قلت: لم خصاً ذريتهما بالدعاء؟ قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة، ﴿فَوَا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا، صلح بهم غيرهم وشايعهم على الخير؛ ألا ترى أن المقدمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد، كيف يتسبون لسداد من وراءهم؟ وقيل: أراد بالامة أمة محمد ﷺ ﴿وَأَرْبَا﴾: منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين، أي وبصرنا متعبداتنا في الحج، أو وعرفناها، وقيل: مذابحنا، وقرئ: وأزنا/ ٥٧ ب يسكون الراء قياساً على فخذ في فخذ، وقد استردلت؛ لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها، فإسقاطها

 رب أين توجهني؟ قال: تبني لي بهامة بيتاً مما يلي البحر يطفأ حوله، كما تطوف الملائكة حول عرشي. ويصلي عنده كما تُصلي الملائكة عند عرشي. فأقبل نحو البيت. مما يلي الصفا. فطاف بالبيت وصلى عنده. قال النهاس: وحذّثني عقيل على بن سفيان. حدثنا عطاء عن عبد الله بن عمرو بمثله وقال الفاكهي في كتاب مكة أيضاً: حدثنا ابن عمرو، حدثنا سفيان عن ابن أبي ليبد قال «حج آدم فتلقت الملائكة فقالوا: أير نسكك. فقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام» وهكذا هو في جامع سفيان بن عيينة. انتهى.

إجحاف، وقرأ أبو عمرو بإشمام الكسرة، وقرأ عبد الله: وأرهم مناسكهم، ﴿وَبِ عَلَيْنَا﴾ :
 ما فرط منا^(١) من الصغائر أو استتاباً لذنيتهما، ﴿وَأَنبَتَ فِيهِمَ﴾ : في الأمة المسلمة، ﴿رَسُولًا
 مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ : من أنفسهم، ورؤي أنه قيل له: قَدْ اسْتَجِيبَ لَكَ وَهُوَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَبَعَثَ اللَّهُ
 فِيهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى أَخِي عِيسَى
 وَرُؤْيَا أُمِّي» (٧١). ﴿يَتْلُوا عَلَيْكَ آيَاتِكَ﴾ : يقرأ عليهم، ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل

٧١ - رُوي من حديث العرياض بن سارية وأبي أمامة.

أما حديث العرياض بن سارية:

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في
 طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين
 وضعتني، أنه خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام.

أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣١٣/١٤) رقم (٦٤٠٤) واللفظ له.

ورواه أحمد (١٢٧/٤، ١٢٨).

والحاكم (٦٠٠/٢).

والطبراني في معجمه (٢٥٢/١٨) رقم (٦٢٩).

والبزار (١١٣/٣) رقم (٢٣٦٥) - (كشف).

وأبو نعيم في الحلية (٨٩/٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٣٠/٢)، والبخاري في شرح السنة (٧/

١٠) رقم (٣٥٢٠) - (بتحقيقنا).

أما حديث أبي أمامة:

فأخرجه أحمد في المسند (٢٦٢/٥)، من طريق أبي النضر ثنا الفرج بن فضالة ثنا لقمان بن عامر
 قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله، ما كان أول بدء أمرك، قال: دعوة أبي إبراهيم
 وبشري عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام.

وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٨٣/١) للطبائسي، والبيهقي في الشعب.

وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٥/٨):

«رواه أحمد وإسناده حسن، وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني» أ.هـ.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه أحمد والبزار وابن حبان. والطبراني والحاكم من حديث العرياض بن سارية: سمعت
 رسول الله ﷺ يقول «إني عبد الله وخاتم النبيين، وأبى آدم منجدل في طينته وأخبركم عن
 ذلك. دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت - الحديث» وأحمد من حديث أبي
 أمامة - رضي الله عنه - «قلت: يا رسول الله. ما كان بدء أمرك قال: دعوة أبي إبراهيم؛ وبشري

عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام»، ورواه البيهقي في الشعب. ثم
 قال: «أما دعوة إبراهيم فهي قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبَتْ فِيهِمَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وأما بشارة عيسى فهي قوله
 تعالى: ﴿يَبْقَىٰ إِلَهُكُمُ الْحَيُّ ۚ وَإِلَهُكُمْ مُّسَوِّمًا إِنَّا بَيْنَ يَدَيْهِ الْقُرْآنَ وَنُفِثَ رُسُلًا يَأْتِي مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
 أُنذَرُ﴾. قال: وأما رؤيا أمه فذكر ابن إسحاق في السيرة قال: «كانت أمنة بنت وهب أم رسول الله

(١) قوله «وب علينا ما فرط منا» لعله على تضمين تب معنى اغفر. (ع)

وحدانيتك وصدق أنبيائك، ﴿وَعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: الشريعة، وبيان الأحكام، ﴿وَزَكِّيهِمْ﴾: ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، كقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٥) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦)

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾: إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم، و ﴿مَنْ سَفِهَ﴾: في محل الرفع على البذل من الضمير في يرغب، وصح البذل، لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: امتنها واستخف بها، وأصل السفه: الخفة، ومنه زمام سفه، وقيل: انتصاب النفس على التمييز، نحو: عُيِّنَ رَأْيُهُ وَالْمُ رَأْسُهُ، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله [من الوافر]:

وَلَا يَفْزَاةَ الشُّعْرِ الرُّقَابُ^(١)

= ﴿٣٥﴾ - تحدث أنها أتيت، ولأبي يعلى عن شذاد بن أوس رفعه: «أما دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى بن مريم، وأن أمي رأت في المنام نوراً قالت: فجعلت أتبع بصري النور، فجعل النور يسبق بصري حتى أضاء لي مشارق الأرض ومغاريها»، وللحاكم في المستدرک من طريق ابن إسحاق عن: ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - ﷺ - قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك قال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام... انتهى.

(١) فما قومي بشعلبة بن سعد
وقومي - إن سألت - بنو لؤي
ولا بفزارة الشعر الرقابا
بمكة علموا مضر الصوابا
لحارث بن ظالم المري، يدعي أنه من قريش، وأن أمه خرجت به إلى مرة وهو صغير، فنسب إليهم. وثعلبة وفزارة ومضر: أسماء قبائل، ووصف ثعلبة بابن لها للأصل فإنه اسم أبي القبيلة. والشعر: جمع أشعر كحمر وأحمر. والرقاب: تمييز معرفة على رأي الكوفيين. وأشعر الرقية يطلق على الأسد، وعلى أغم القفا - وهو المراد. يقول: ليس قومي هؤلاء الأخسة، وإنما أنا من بني لؤي. وإن سألت: اعتراض بين المبتدأ وخبره. ومضر والصواب: مفعولان لعلوم.
ينظر الأغاني ١١/١١٩، الإنصاف ص ١٣٣، شرح أبيات سيبويه ٢٥٨/١، شرح اختيارات المفضل ٣/١٣٣٥، الكتاب ١/٢٠١، المقاصد النحوية ٣/٦٠٩، المقتضب ٤/١٦١، خزنة الأدب ٧/٤٩٢، شرح المفصل ٦/٨٩، الحامسة الشجرية ١/٢٤٧، البحر ١/٥٦٥، الدر المصون ٣٧٤/١.

[ومن الوافر]:

أَجَبَ الظُّهْرَ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ^(١)

وقيل معناه: سفه في نفسه، فحذف الجار، كقولهم: زيد ظني مقيم، أي في ظني، والوجه هو الأول، وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث: «الْكِبَرُ أَنْ تَسْفَهُ الْحَقَّ وَتَغْمِصَ النَّاسَ»^(٢)، (٧٢) وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط، فقد بالغ في إذالة

٧٢ - روي من حديث أبي هريرة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وأبي ریحانة، وثابت بن قيس بن شماس، وسواد بن عمرو الأنصاري، وابن عباس، وابن عمر، وجابر، وعقبة بن عامر، والحسين بن علي.

- أما حديث أبي هريرة:

(١) فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

للنابغة الذبياني يرثي النعمان المعافي بن الحارث الأصغر ملك العرب. وقيل لجري، وليس بذاك. يقول: فإن يتبين هلاك النعمان يتبين هلاك ربيع الناس. شبهه بالربيع وهو المطر، أو النهر، أو فصل الربيع. أو الخصب، في أن كلا يعم خيره الناس. وشبهه بالشهر الحرام في أن كلا أمان للناس من الحروب والمخاوف. وروي: والبلد الحرام. أي مكة. شبهه بها في الأمان أيضاً. ويجوز أن المعنى إن يهلك هو يهلك تبعاً له عطاؤه وجاهه الشيبان بالربيع وبالشهر الحرام في النفع والأمان، وكل ذلك على سبيل الاستعارة التصريحية. ويجوز أنه كان يحفظ لهم ربيعهم عن رعي غيرهم وحرمة شهرهم عن هتكها، بأن يغار عليهم فيه، فلا استعارة إلا في هلاك الشهر. وروي تأخذ: بالحركات الثلاث، وكذلك كل مضارع معطوف على جواب الشرط، فالجزم على المعطف، والرفع على الاستئناف. والنصب بإضمار إن لشبه الشرط بالنفي. لكنه قليل. والذنب - بالكسر -: ذنب البعير والفرس، وعقب كل شيء. وشبه العيش الضنك الضيق الناقص ببعير مهزول على طريق المكنية. والذنب، والظهر، والسنام - بالفتح - تخييل. وأجب الظهر: منقطعه، أي وتمسك بعده بطرف عيش وبقيّة منه ضيقة قليلة، كالبعير المقطوع الظهر. وبين ذلك بقوله: ليس له سنام. وأجب: صفة مشبهة ممنوع من الصرف، فيجر بالفتحة على الصفة لعيش. وقيل نصب على الحال. وروي بالرفع على الخبرية لمحدوف. ويروى الظهر بالرفع، فاعلاً للصفة، أو بدلاً من الضمير فيها وفتحة النحاة، وبالنصب تشبيهاً بالمفعول أو تمييزاً على مذهب من ميز بالمعرفة وضعفوه وبالجزم بإضافة أجب إليه فيجر أجب بالكسرة، وحسنوا هذا.

ينظر ديوانه ص ١٠٦، والكتاب ١/١٩٦، وشرح أبيات سيبويه ١/٢٨، وشرح المفصل ٦/٨٣، ٨٥، والمقاصد النحوية ٣/٥٧٩، ٤/٤٣٤، والأغاني ١١/٢٦، وخزانة الأدب ٧/٥١١، ٩/٣٦٣، وأسرار العربية ص ٢٠٠، لسان العرب، (حب)، ٨/١ (ذنب)؛ والمقتضب ٢/١٧٩، والإنصاف ١/١٣٤، والاستقامة ص ١٠٥، والأشباه والنظائر ٦/١١، وأمالى ابن الحاجب ١/٤٥٨، وشرح عمدة الحفاظ ص ٣٥٨، وشرح ابن عقيل ص ٥٨٩، وشرح الأشموني ٣/٥٩١.

(٢) قوله «وتغمص الناس» أي تستصغروهم وتعييهم. أفاده الصحاح. (ع)

ينظر: المحتسب ١/١٠٩، الخصائص ٢/٣٣٨، البحر المحيط ١/٥٧١، الدر المصون ١/٣٧٦.

فأخرجه أبو داود (٤٥٧/٢) كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر حديث (٤٠٩٢)، من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة؛ أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - وكان رجلاً جميلاً، فقال: يا رسول الله، إني رجل حُبِّب إلى الجمال، وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال بشراك نعلي، وإما قال: يا بشع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٨١/١٢) رقم (٥٤٦٧)، بلفظ: «إنما الكبر من سفه الحق وغمض الناس»، والحاكم (١٨١/٤ - ١٨٢).

- وأما حديث ابن مسعود:

فأخرجه الترمذي (٣٦١/٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر حديث (١٩٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٨٠/١٢) رقم (٥٤٦٦)، من طريق علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال الرجل: يا رسول الله، إن الرجل ليحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر من بطر الحق وغمض الناس».

ورواه الحاكم (٢٦/١) قريباً من ذلك، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتجا جميعاً برواته» ا.هـ.

وأصل الحديث رواه مسلم (٣٦٦/١ - نووي) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه حديث (٩١).

وأبو داود (٤٥٧/٢) كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر حديث (٤٠٩١).

والترمذي (٣٦٠/٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر حديث (١٩٩٨).

وابن ماجه (١٣٩٧/٢) كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع حديث (٤١٧٣).

- وأما حديث عبد الله بن عمرو:

قلت: يا رسول الله، أمن الكبر أن أصنع طعاماً فأدعو أصحابي، قال: لا الكبر أن تسفه الحق وتغمض الناس.

قال الهيثمي في المجمع (١٣٦/٥):

(رواه البزار وأحمد في حديث طويل... ورجال أحمد ثقات» ا.هـ.

- وأما حديث أبي ریحانة:

أخرجه أحمد (١٣٣/٤) ثنا أبو المقبرة قال ثنا جرير قال: سمعت كريب بن أبرهة وهو جالس مع عبد الملك بدير المرات، وذكروا الكبر فقال كريب: سمعت أبا ریحانة يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إنه لا يدخل شيء من الكبر الجنة، قال: فقال قائل: يا رسول الله، إني أحب أن أتجمل بسبق سوطي وشع نعلي، فقال النبي - ﷺ -: «إن ذلك ليس بالكبر، إن الله عز وجل جميل يحب الجمال، إنما الكبر من سفه الحق وغمض الناس بعينه» ا.هـ.

قال الهيثمي في المجمع (١٣٦/٥):

«رواه أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط»، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٧٩/٦) رقم (٨١٥٣).

- وأما حديث ثابت بن قيس:

أخرجه الطبراني (٦٩/٢) رقم (١٣١٨) حدثنا علي بن سعيد الرازي ثنا محمد بن مسلم بن وارة ثنا محمد بن سعيد بن سابق ثنا عمرو بن أبي قيس عن ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى عن عبد =

= الرحمن بن أبي ليلى عن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري به، ورواه البزار كما في كشف الإستاد (٣٥٧٨).

قال الهيثمي في المجمع (٧/٧):

«رواه الطبراني، وفيه محمد بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ، وجده عبد الرحمن لم يدرك ثابت بن قيس» ١.هـ.

- وأما حديث سواد بن عمرو الأنصاري:

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١١٢/٧ - ١١٣) أرقام (٦٤٧٧، ٦٤٧٨، ٦٤٧٩)، من طرق عن محمد بن سيرين عن سواد بن عمرو الأنصاري.

قال في المجمع (١٣٧/٥):

«رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» ١.هـ.

- وأما حديث ابن عمر:

أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٣٩/٥) رقم (٤٦٦٥)، حدثنا أبو زرعة قال: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن قال: حدثنا عيسى بن موسى الدمشقي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من سحب ثيابه لم ينظر الله إليه، فقال أبو ريحانة: والله لقد أمرضني ما حدثتنا به، فوالله إني لأحب الجمال حتى إنه لأجعله في شرك نعلي وعلاق سوطي، أفمن الكبر ذلك؟ فقال رسول الله - ﷺ -: إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ولكن الكبر من سفة الحق وغمص الناس».

قال الهيثمي في المجمع (١٣٦/٥):

«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه موسى بن عيسى الدمشقي قال الذهبي: مجهول، وبقية رجاله رجال الصحيح» ١.هـ.

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٨٦/١) للبزار، والطبراني في مسند الشاميين.

- وأما حديث ابن عباس:

أخرجه عبد بن حميد رقم (٦٧٣ - منتخب) ثنا يزيد بن هارون أنا سالم بن عبيد عن أبي عبد الله عن عبد الرحمن بن أبي ليلى سمع ابن عباس يقول: فذكر حديثاً طويلاً.

- وأما حديث جابر:

فأخرجه عبد بن حميد في مسنده، كما في المنتخب رقم (١١٥١).

أنا عبيد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله فذكر حديثاً طويلاً.

- وأما حديث عطية بن عامر:

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٨٧/١) لأبي القاسم الأصفهاني في كتاب الترغيب والترهيب له.

- وأما حديث الحسين بن علي:

أن عبد الله بن عمرو قال:

«يا رسول الله، أين الكبر أن يكون لأحدنا النجبية الفارغة؟ قال: لا، قال: فمن الكبر أن يكون لأحدنا الحلتان الحسنان؟ قال: لا. قال: فمن الكبر أن أتخذ طعاماً فأدعو قومي، فيمشون خلفي، ويأكلون عندي؟ قال: لا، قال: فما الكبر يا رسول الله؟ قال: أن تسفه الحق وتغمص الناس».

نفسه^(١)، وتعجزها، حيث خالف بها كل نفس عاقه، ﴿وَلَكِنَّهُ أَصْطَفَيْنَاهُ﴾، بيان لخطأ رأي من رغب عن ملته، لأن من جمع الكرامة عند الله في الدارين، بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه ﴿إِنَّ قَائِلَهُ﴾: ظرف لاصطفيناه، أي: اخترناه في ذلك الوقت. أو انتصب بإضمار (اذكر): استهاداً على ما ذكر من حاله، كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله، ومعنى قال له: أسلم، أخطر بباله النظر في الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام، و﴿قَالَ أَتَلَمَّتْ﴾: أي فتنظر وعرف، وقيل: أسلم: أي

قال في المجمع (١٣٦/٥):

«رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه عبد الحميد بن سليمان وهو ضعيف». ا. هـ.

قال الحافظ في تخریج الکشاف:

أخرجه البزار من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عمر: «قيل: يا رسول الله، أمن الكبير أن يتخذ الرجل الطعام، فيكون عليه الجماعة، ويلبس القميص النظيف» قال: ليس ذلك بالكبر. وإنما الكبير أن يسفه الحق وتغمص الناس، وذكر فيه قصة. وقال: لا نعلم رواه عن عمرو عن ابن عمر إلا ابن إسحاق ا. هـ. وأخرجه الطبراني من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قلت: يا رسول الله، أمن الكبير أن الیس الثوب الحسن؟ قال: لا. قلت: فما الكبير؟ فذكره»، ورواه البخاري في الأدب المفرد من طريق الصعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال: لا نعلمه إلا عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله: الكبير أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: لا... الحديث»، وأخرجه أيضاً من رواية عبد العزيز بن محمد. وأخرجه البزار، من رواية أبي بكر بن أبي سيرة.

وأخرجه أحمد في الزهد من رواية هشام بن سعد كلهم عن زيد بن به. وقال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر فذكر حديثاً، وفيه: فقال معاذ: «يا رسول الله، أمن الكبير أن يكون لأحدنا الدابة فيركبها، أو النعلان، أو الثياب يلبسها، أو الطعام يجمع عليه أصحابه؟ قال: لا. ولكن الكبير أن يسفه الحق ويغمص المؤمنين»، وموسى ضعيف. وفي الطبراني من رواية عبد الحميد بن سليمان. عن عمارة بن غزية عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها: أن عبد الله ابن عمرو قال: «يا رسول الله، أمن الكبير أن الیس الحلة الحسنة؟ الحديث»، وأخرجه الطبراني في الأوسط. ومسند الشاميين عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر نحوه. وفي الباب عن أبي هريرة: أخرجه ابن حبان والحاكم من طريق ابن سيرين عنه، وعن ابن مسعود. أخرجه إسحاق وأبو يعلى والحاكم: أن مالك بن مرارة الرهاوي. قال «يا رسول الله، إن لي من الجمال ما ترى، وإنني لا أحب أحداً أن يفضلني بشركين فما فوقهما. أفهذا من البني؟»، قال: لا. الحديث»، وعن أبي ربحانة. أخرجه أحمد والطبراني. وعن ثابت بن قيس. أخرجه الدارمي والطبراني. وعن سواد بن عمرو والحسين بن علي أخرجهما الطبراني. وعن ابن عباس. أخرجه عبد بن حميد وعن عقبه بن عامر أخرجه أبو مسلم في الجامع من السنن له. انتهى.

(١) قوله «في إذالة نفسه» أي إهانتها. أفاده الصحاح. (ع)

أذعن وأطع، وروى: أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم، فنزلت.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمُ

مُسْلِمُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

ورى: وأوصى، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام، والضمير في ﴿بِهَا﴾: لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْكَافِرِينَ﴾، على تأويل الكلمة والجملة، ونحوه رجوع الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ [الزخرف: ٢٨] إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرَأَئِمًا مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِلَهِیَ فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقوله: كلمة باقية. دليل على أن التأنيت على تأويل الكلمة، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾: عطف على إبراهيم، داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه، أيضاً، وقرىء: ويعقوب، بالنصب عطفاً على بنيه، ومعناه ووصى بها إبراهيم بنيه وناقلته يعقوب، ﴿بَنِيَّ﴾: على إضمار القول عند البصريين، وعند الكوفيين يتعلق بوصى، لأنه في معنى القول، ونحوه قول القائل: [الرجز]

رَجُلَانِ مِنْ ضُبَّةٍ أَخْبَرَانَا: إِنَّا رَأَيْنَا رَجُلًا غُرَبَانًا^(١)

بكسر الهمزة: فهو بتقدير القول عندنا، وعندهم يتعلق بفعل الإخبار، وفي قراءة أبي وابن مسعود: أن يا بني ﴿اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام، ووفقكم للأخذ به، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته، فإن قلت: فأين نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهى عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكانه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة، ألا ترى إلى قوله - عليه الصلاة والسلام -: «لَا صَلَاةَ لِبَجَارٍ

(١) رجلان بالسكون للتخفيف والوزن؛ كما يسكن عضد. وضبة: اسم قبيلة. وروي بدله «من مكة» والإخبار فيه معنى القول، فلذلك كسرت بعده «إن» على الحكاية، أي قالوا لنا ذلك القول؛ وهو: أنا رأينا. ومذهب الكوفيين أن الجملة المحكية في محل نصب بالفعل المذكور. ومذهب البصريين بقول مقدّر. وقال بعضهم: الظاهر أنها مفسرة فلا محل لها. وروي بالفتح على حذف الجار، أي بآنا رأينا.

الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ» (٧٣) فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلا في المسجد؛ وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم، وتقول في الأمر - أيضاً -: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات؛ وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميئته، وإظهاراً لفضلها على غيرها، وأنها حقيقة بأن يحث عليها.

﴿لَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ

إِلَهُكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَحِداً وَنَحْنُ لِمُؤَسِّلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿لَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾: هي أم المنقطعة^(١)، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والشهداء جمع شهيد، بمعنى الحاضر: أي ما كنتم حاضرين يعقوب - عليه السلام - إذ حضره الموت، أي حين احتضر، والخطاب للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك^(٢) وإنما حصل لكم العلم

٧٣ - أخرجه الدارقطني (٤٢٠/١) والحاكم (٢٤٦/١) والبيهقي (٥٧/٣) من طريق سليمان بن داود اليمامي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

وسكت عنه الحاكم وقال البيهقي: وهو ضعيف.

والحديث ذكره الحافظ في «التلخيص» (٦٦/٢) وقال: فائدة حديث: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» مشهور بين الناس وهو ضعيف ليس له إسناد ثابت وأخرجه الدارقطني عن جابر وأبي هريرة وفي الباب، عن علي وهو ضعيف أيضاً.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الدارقطني والحاكم من رواية أبي سلمة عن أبي هريرة، وفيه سليمان بن داود اليماني وهو ضعيف، والدارقطني وابن عدي، والعقيلي من حديث جابر، وفيه محمد بن مسكين وهو ضعيف، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة عمر بن راشد عن أبي ذئب عن الزهري عن عروة عن عائشة، وقال كان عمر بن راشد يضع الحديث وقد صخ موقوفاً عن علي - رضي الله عنه - أخرجه ابن أبي شيبة. انتهى.

(١) قوله «هي أم المنقطعة» هي تفسر ببل والهمزة. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «الخطاب فيه للمؤمنين بمعنى ما شاهدتم... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول؛ لكان مضمون الكلام نفى شهود المخاطبين وهم اليهود على هذا التفسير الثاني، لوفاة يعقوب والوصية بالإسلام، وحيثئذ يكون ذلك كإقامة حجته على جحد الإسلام وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين والغرض ضد ذلك. وإنما كان الكلام يقتضي النفي حيثئذ، لأن الاستفهام من الله تعالى لا يحمل على ظاهره، فتعين صرفه إلى الإنكار، لأن السياق يقتضيه. ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين وفاة يعقوب ووصيته على التفسير الأول، لا سيما والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أولادهم، تنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْلُتْ نَفْساً﴾، =

به من طريق الوحي، وقيل: الخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي، إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنينه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية، فالآية منافية لقولهم، فكيف يقال لهم: «أم كنتم شهداء؟» ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية؟ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، وقد علمتم/ ٥٨ ب ذلك، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه برآء؟ وقرئ «خَضِرَ» بكسر الضاد، وهي لغة، ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: أي شيء تعبدون؟ و﴿مَا﴾: عامٌ في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن؛ وكفاك دليلاً قول العلماء (من) لما يعقل، ولو قيل: من تعبدون، لم يعم إلا أولي العلم وحدهم، ويجوز أن يقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفعيه، أم طيب، أم غير ذلك من الصفات؟ و﴿إِذْ حَضَرَ وَيَسْمَعُ وَيَسْخَرُ﴾: عطف بيان لأبائك، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأنَّ العمَّ أب والخالة أم، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما، ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام -: «عَمَّ الرَّجُلُ صَنُو أَبِيهِ» (٧٤) أي: لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي

٧٤ - أخرجه مسلم (٦٣/٤ - نووي) كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها حديث (٩٨٣).

وأبو داود (٥١٠/١) كتاب الزكاة، باب في تعجيل الزكاة، حديث (١٦٢٣).

وأحمد (٣٢٢/٢).

والدارقطني (١٢٣/٢) باب تعجيل الصدقة قبل الحول.

والبيهقي (١١١/٤) كتاب الزكاة، باب تعجيل الصدقة.

كلهم من طريق الأعرج عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله - ﷺ - عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول الله - ﷺ -.. فقال، رسول الله - ﷺ -: «ما ينقم ابن جميل، إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً. قد احتبس أذراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليّ ومثلها معها»، ثم قال: «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه».

وله شاهد من حديث علي مرفوعاً بلفظ:

«أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه».

أخرجه أحمد في المسند (٩٤/١).

وله شاهد آخر من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنَّ عم الرجل صنو أبيه».

أخرجه الطبراني (٨٧/١٠) رقم (٩٩٨٥).

قال الهيثمي في المجمع (٨٢/٣):

«وَلَا تَلْتَمِزْ يَهُودَ» إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر.

النحلة، وقال - عليه الصلاة والسلام - في العباس: «هَذَا بَقِيَّةُ آبَائِي» (٧٥)، وقال: «رُدُّوا عَلَيَّ أَبِي، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَفْعَلَ بِهِ قَرِيْشٌ مَا فَعَلْتَ ثَقِيفٌ بِعُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ» (٧٦) وقرأ

= «رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وزاد: أن عم الرجل صنو أبيه، وفيه محمد ابن ذكوان وفيه كلام وقد وثق» ١. هـ.

وأيضاً ما رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي رافع قال: بعث رسول الله - ﷺ - عمر بن الخطاب ساعياً على الصدقة، فأتى العباس بن عبد المطلب فأغلق له العباس فأتى عمر النبي - ﷺ - فذكر له ذلك فقال له - ﷺ - يا عمر: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه، إن العباس كان أسلفنا صدقة العام عام أول.

قال الهيثمي في المجمع (٨٢/٣):

«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسماعيل المكي وفيه كلام كثير وقد وثق» ١. هـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أبي هريرة. في قصة العباس وخالد بن الوليد وابن جميل لما امتنعوا من إعطاء الصدقة. انتهى.

٧٥ - أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٢/٦) رقم (٣٢٢١٢) من طريق ابن عيينة عن داود بن شابر عن مجاهد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «احفظوني في العباس، فإنه بقية آبائي وإن عم الرجل صنو أبيه».

ورواه الطبراني في الكبير (٨٠/١١) رقم (٧ - ١١١) من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «استوصوا بعبي العباس خيراً، فإنه بقية آبائي، وإنما عم الرجل صنو أبيه».

قال الهيثمي في المجمع (٢٧٢/٩):

«رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف ووثقه ابن حبان، وقال: ربما أخطأ وبقية رجاله وثقوا» ١. هـ.

ورؤي عن الحسن بن علي نحو حديث ابن عباس.

قال الهيثمي في المجمع (٢٧٢/٩):

«رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم» ١. هـ.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة. حدثنا ابن عيينة عن داود بن شابر عن مجاهد. قال: قال رسول الله - ﷺ -: «احفظوني في العباس، فإنه بقية آبائي. وإن عم الرجل صنو أبيه»، ورواه الطبراني في الأوسط من رواية موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جده عن الحسن عن النبي - ﷺ - قال: «احفظوني - فذكر مثله» ورواه في الكبير من حديث ابن عباس من وجهين. انتهى.

٧٦ - أخرجه ابن أبي شيبة (٤٨٤/١٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/٣١٥)، وابن عساكر (٧/٢٣٦ - تهذيب).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»:

قال ابن أبي شيبة في المغازي في مصنفه: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة. قال: «لما وادع رسول الله - ﷺ - أهل مكة الحديث» إلى أن قال: «فانطلق العباس فركب بغلة النبي - ﷺ - الشهاة، وانطلق إلى قريش، ليدعوهم إلى الله فأبأوا عليه. فقال رسول الله - ﷺ -: ردوا عليَّ أبي، فإن عم الرجل صنو أبيه. إني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود: دعاهم إلى الله فقتلوه. أما والله لئن ركبوها منه لأضرمتهنَّ عليهم ناراً. انتهى.

أبي: وإله إبراهيم، بطرح آبائك، وقرىء: أليك، وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف بيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون، قال [من المتقارب]:

..... وَفَدَّيْنَنَا بِالْأَيْتَانِ^(١)

﴿إِلَهًا وَجِدًا﴾ بدل من إله آبائك؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ نَأْمُرُكَ بِأَنَّكَ تَكُونُ عَلَىٰ أَلْفِ مِائَةٍ أَلْفًا وَبِأَنَّكَ تَكُونُ عَلَىٰ أَلْفِ مِائَةٍ أَلْفًا وَبِأَنَّكَ تَكُونُ عَلَىٰ أَلْفِ مِائَةٍ أَلْفًا﴾ [الملق: ١٥ - ١٦] أو على الاختصاص، أي نريد بإله آبائك إلهاً واحداً، ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾: حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله، لرجوع الهاء إليه في له، ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة، أي ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مدعون.

﴿بَلِّغْ أُمَّةً قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْهَوْنَ عَنْ أَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢)

﴿بَلِّغْ﴾: إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون، والمعنى: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم، وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «يَا بَنِي هَاشِمٍ، لَا يَأْتِيَنِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ» (٧٧)، ﴿وَلَا تُنْهَوْنَ عَنْ أَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولا تؤاخذون بسيئاتكم كما لا تنفعكم حسناتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: بل تكون ملة إبراهيم، أي أهل ملته كقول عدي بن حاتم: «إني من دين» (٧٨) يريد من أهل دين، وقيل: بل نتبع ملة إبراهيم، وقرىء: «ملة إبراهيم»:

٧٧ - قال الحافظ: لم أجد.

وقال الزيلعي (١٩٤/١) في تخريج أحاديث الكشاف:

«غريب جداً». انتهى.

٧٨ - أخرجه أحمد (٢٥٨/٤)، وابن حبان (٢٢٨٠ - موارد)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٤٢/٥)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٤٧٠)، من طريق محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن الشعبي عن عدي بن حاتم به.

=

(١) فلما تبين أصواتنا بكين وفدَّيْنَنَا بِالْأَيْتَانِ

يقول: لما تبين النساء أصواتنا في الحرب وعرفنها، بكين شفقة ورحمة لنا، وفدَّيْنَنَا: أي كل واحدة تقول: فداكم أبي، أو تقول لصاحبها: فداك أبي. والأيتان: جمع أب معرب إعراب جمع التصحيح.

بالرفع، أي ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته، و ﴿حَنِيفًا﴾: حال من المضاف إليه؛ كقولك: رأيت وجه هند قائمة، والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق، والحنف: الميل في القدمين، وتحنف إذا مال، وأنشد [من الوافر]:

وَلَكِنَّا خُلِفْنَا إِذْ خُلِفْنَا حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينٍ^(١)

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدعي اتباع إبراهيم وهو على الشرك. ﴿قُولُوا﴾ خطاب للمؤمنين، ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين، أي قولوا: لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل، وكذلك قوله: ﴿بَلْ يَلْعَنُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يجوز أن يكون على: بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم، أو كونوا أهل ملته.

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فَإِنَّ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ سَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

والسبب: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله - ﷺ - ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾: حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، و ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة^(٢)، ولذلك صح دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه، ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ﴾: من باب التبكيت؛ لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ وَبِئْسَ مَا يَرْبُؤُا لَهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فلا يوجد إذا

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن سعد من رواية ابن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة. قال: إني من دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. انتهى.

(١) الحنف والحنف: الميل. والحنيف: المائل عن الباطل إلى الحق. يقول: خلقنا حال كوننا مائلاً ديننا عن الأديان الباطلة كلها إلى دين أبينا إبراهيم، لأن العرب اتفقت على أنه حق، وذلك من وقت ابتداء خلقنا، فإذا: ظرف للخلق الأول بعد تقييده بالحال بعده. ينظر: الدر المصون (١/ ٣٨٤).

(٢) قال محمود رحمه الله: «واحد في معنى الجماعة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً حتى ينتزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الأحاد مطابقة، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات. وذلك الدلالة على العمومية. وإنما لزم فيها العموم من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الأفراد لما بين الأعم والأخص من التلازم في جانب النفي. إذ سلب الأعم أخص من سلب الأخص فيستلزمه، فلو كان لفظاً ما لا إشعار له بالتعدد والعموم وضعاً لما جاز دخول بين عليه.

دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين، فقيل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير، أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتمدوا، وفيه أن دينهم الذي هم عليه: وكل دين سواء مغاير له غير مماثل، لأنه حق وهدى وما سواء باطل وضلال. ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه: هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبيكت صاحبك، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه، ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، وعملت بالقدم أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها، وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «بما آمنتم به» وقرأ أبي: «بالذي آمنتم به» ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾: عما تقولون لهم ولم ينصفوا فما هم إلا ﴿فِي شِقَاقٍ﴾: أي في مناوأة ومعاندة^(١) لا غير، وليسوا من طلب الحق في شيء. أو: وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها، ﴿تَسْتَكْبِرُكُمُ اللَّهُ﴾: ضمان من الله، لإظهار رسول الله - ﷺ - عليهم، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير، ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين، ﴿وَهُوَ أَلْسَنُ الْكَلِمِ﴾: وعيد لهم، أي يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه، أو وعد لرسول الله - ﷺ - بمعنى: يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَنْقُلُوهُ عَنِذُونَ﴾

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: مصدر مؤكد منتصب على قوله، ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ كما انتصب، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: عما تقدمه، وهي (فعل) من صبغ، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغفسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمناً بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون، صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتك؛ وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة، كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس

(١) قوله: «في مناوأة ومعاندة» في الصحاح: ناوأت الرجل مناوأة ونواء، عاديته. وربما لم يهمز. وأصله الهمز. (ع)

فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: يعني أنه يصبغ عباده بالإيمان، ويظهرهم به من أوضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْ﴾: عطف على آمنا بالله، وهذا العطف يرد قول من زعم أن ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: بدل من: ملة إبراهيم أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التثامه واتساقه^(١)، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُونَ﴾^(١٢٦) أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ تِلْكَ أَمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

قرأ زيد بن ثابت «أتحاجوننا»: بإدغام النون، والمعنى: أتجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوة منا، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: نشترك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي دون عربي إذا كان أهلاً للكرامة، ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾: يعني أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالاً يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك، ثم قال: ﴿وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُونَ﴾، فجاء بما هو سبب الكرامة، أي ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه، لكرامته بالنبوة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا، لأننا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان، ﴿ثُمَّ نَقُولُونَ﴾: يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلة للهمزة في «أَتُحَاجُّونَنَا»: بمعنى أي الأمرين تأتون: الحاجة في حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، وأن تكون منقطعة بمعنى: بل أنقولون، والهمزة للإنكار - أيضاً - وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾: يعني أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَتْ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ﴾: أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحينية، ويحتمل معنيين: أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم، لأنهم كتموا هذه

(١) قوله «واتساقه» في الصحاح: الاتساق الانتظام. وفيه أيضاً: التنسيق التنظيم. (ع)

الشهادة وهم عالمون بها، والثاني: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها، وفيه تعريض بكتماهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته، (ومن) في قوله: ﴿شَهَادَةُ عِنْدُكَ مِنَ اللَّهِ﴾: مثلها في قولك: هذه شهادة متي لفلان إذا شهدت له، ومثله: ﴿هَرَاءَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١].

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ آلِي كَاؤُوا عَلَيْهَا فُلٌ يَّاللَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾: الخفاف الأحلام، وهم اليهود، لكرهتهم التوجه إلى الكعبة/ ١٦٠، وأنهم لا يرون النسخ، وقيل: المنافقون؛ لحرصهم على الطعن والاستهزاء، وقيل: المشركون، قالوا: رغب عن قبله آياته ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم، فإن قلت: أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه^(١)؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم، ﴿هَا وَلَهُمْ﴾: ما صرفهم ﴿عَن قِبَلِهِمُ﴾: وهي بيت المقدس، ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: أي بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها، ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: من أهلها، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: وهو ما توجه به الحكمة والمصلحة، من توجيههم تارة إلى بيت المقدس، وأخرى إلى الكعبة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾: ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ونحوه قوله - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَأَنْطَوُا^(٢) التُّبَجَةَ﴾ (٧٩) يريد الوسيطة بين السمينة

٧٩ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٩١/١):

(١) قال محمود رحمه الله: «أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله تعالى: ولهذه السكنة أجرى من حذو النظر في إدراج مناظرتهم العمل بمقتضى الذي هو كذا، السالم عن معارضة كذا، فيقول: دره للمعارض قبل ذكر الخصم له، وهي نكتة بديعة أحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية. فظن لها. فإنها من الملح.

(٢) قوله «وأنطوا التُّبَجَةَ» لغة في أعطوا. (ع)

والمعجفاء وصفاً بالثَّج وهو: وسط الظهر، إلا أنه ألحق تاء التأنيث مراعاة لحق الوصف، وقيل: للخيار: وسط^(١) لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأعوار والأوساط محمية محوطة، ومنه قول الطائي [من البسيط]:

كَانَتْ هِيَ الْوَسْطَ الْمَحْمِيَّ فَكَانَتْ بَهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرَفًا^(٢)

وقد اكتريت بمكة جمل أعرابي للحج فقال: أعطني من سطاته، أراد من خيار الدنانير، أو عدولاً، لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض، ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، رُوي: «أَنَّ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْحَدُونَ تَبْلِيغَ الْأَنْبِيَاءِ، فَيُطَالِبُ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيُؤْتَى بِأَمَةِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - فَيُشْهَدُونَ، فنقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد - ﷺ - فيسأل عن حال أمته، فيزيههم ويشهد بعدالته» (٨٠)

= ذكره القاضي عياض في الشفاء في الفصل الأول في فصل: فصاحته - عليه السلام - ...
قلت (أي الزبلي): غريب أيضاً، وأعاده في سورة الكوثر: ١. هـ.

قال الحافظ: يأتي في سورة الكوثر.

٨٠ - أخرجه ابن جرير (١٥١/٣) رقم (٢١٩٢) عن زيد بن أسلم، أن قوم نوح يقولون يوم القيامة: لم يبلغنا نوح، فيدعى نوح - عليه السلام - فيسأل: هل بلغتهم؟ فيقول: نعم. فيقال: من شهودك؟ فيقول: أحمد - ﷺ - وأمته، فتدعون فتسألون فتقولون: نعم قد بلغهم، فنقول قوم نوح - عليه السلام -: كيف تشهدون علينا ولم تذكرونا؟ قالوا: قد جاء نبي الله - ﷺ - فأخبرنا أنه قد بلغكم، وأنزل عليه أنه قد بلغكم فصَدَّقناه، قال: فيصدق نوح - عليه السلام - ويكذبونهم قال: لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً. ورواه ابن جرير (٣٦٩/٨) رقم (٩٥١٥)، عن السدي نحوه في تفسير سورة النساء الآية ٤١.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف، أخرجه الطبري عن زيد بن أسلم موقوفاً. وأخرجه في =

(١) قال محمود رحمه الله: «وقيل للخيار وسط... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا مما اقتضى

المجاز فيه التعميم.

(٢) وغيضة الموت أعني البذ قدت لها

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت

لأبي تمام يخاطب المعتصم. والغيضة: مغيض الماء، يجتمع فيه ثم يفيض ويذهب فينبت فيه الشجر والنبات. والمراد هنا: موضع العسكر. والبذ: اسم قلعة لبابك الخرمي. والعرمرم: الجيش الكثير. وخروق الأرض: طرائفها. والمعتسف: الحائد عن الطريق لكثرة. شبه ذلك الموضع بالغيضة على سبيل التهكم بأصحابه، لأنها تُضاف للماء، فأضافها للموت. وشبه الجيش في الانقياد بالإبل على طريق المكينة وقودهم تخيل، وكثي بالوسط عن التي لا يصل إليها الخلل لأنها محمية بالأطراف فاكتنفت وأحاطت بها الحوادث، يعني جيوش المعتصم، حتى أصبحت تلك الغيضة طرفاً فلقها الخلل ومكارة الجيش.

ينظر: ديوانه (١٩٢)، الدر المنون (٣٩٢/١).

وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فإن قلت: فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم^(١) قلت: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيم على المشهود له، جيء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، ﴿كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يزيكم ويعلم بعدالكم، فإن قلت: لم أشرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخر^(٢) قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم، ﴿أَنْتَ كُنْتَ عَلَيْهِمْ﴾: ليست بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعولي جعل، يريد: وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها

= تفسير النسائي من قول السدي أيضاً. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري. قال: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمه: هل بلغتكم؟ فيقولون: ما أئانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمداً وأمه. فيشهدون أنه بلغ ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... الآية﴾، ورواه البيهقي في البعث والنشور من رواية أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله - ﷺ - يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الثلاثة والأربعة والرجلان، حتى يجيء النبي وليس معه أحد، فتدعى أمة محمد؛ فيشهدون أنهم بلغوا. فيقال لهم: وما علمكم أنهم بلغوا فيقولون: جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا فيه أنهم قد بلغوا فصدقنا، قال: فيقال: صدقتم. وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: وجه الاستدلال بالآية أنه وصف الله تعالى في أولها بالرقيب وفي آخرها بالشهيد على وجه التخصيص أولاً ثم التعميم ثانياً: وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد، إذ الآية في مثل قول القاتل لمن شكره: كنت محسناً إلي وأنت لكل أحد محسن. وكأنه لما قال ﴿كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وكان ذلك مخصصاً لرقبته تعالى على بني إسرائيل. أراد أن يصفه بما هو أهله حتى ينفي وهم الخصوصية فقال في التقدير: وأنت على كل شيء كذلك، فوضع «شهيداً» موضع «كذلك» المشار به إلى رقيبته، فلا يتم الاستدلال بها إلا على هذا الوجه. وفيه غموض على كثير من الأفهام والله الموفق.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: لم أشرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخر... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: لأن العنة عليهم في الطرفين، ففي الأول بثبت كونهم شهداء وفي الثاني بثبت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية خصوصاً من هذا الرسول المعظم ولو قدم شهيداً لانتقل الغرض إلى الامتنان على النبي عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد. وسياق الخطاب لهم والامتنان عليهم ياباه. وإنما أخذ الزمخشري الاختصاص من التقديم لأن فيه إشعار بالأهمية والعناية، وكثيراً ما يجري أي ذلك في أثناء كلامه، وفيه نظر.

وهي الكعبة، لأن رسول الله - ﷺ - كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى
 صخرة بيت المقدس/ ٦٠ ب بعد الهجرة تالفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة فيقول: وما
 جعلنا القبلة التي تجب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة، يعني: وما ردّدناك
 إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء ﴿لِتَعْلَمَ﴾: الثابت على الإسلام الصادق فيه، ممن هو على
 حرف ينكص، ﴿عَلَّ عَقِبَيْهِ﴾ لقلقه فيرتد؛ كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا يَسْتَكْفِرُوا﴾
 [المثدر: ٣١]، ويجوز أن يكون بياناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلته، يعني أنّ أصل
 أمرك أن تستقبل الكعبة، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لغرض؛ وإنما
 جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا - وهي بيت المقدس، لئلا نمتحن الناس
 وننظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -:
 (كَانَتْ قِبْلَتُهُ بِمَكَّةَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ) (٨١) فإن قلت:
 كيف قال: ﴿لِتَعْلَمَ﴾: ولم يزل عالماً بذلك؟ قلت: معناه: لتعلمه علماً يتعلق به الجزاء،
 وهو أن يعلمه موجوداً حاصلًا ونحوه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾
 [آل عمران: ١٤٢]، وقيل: ليعلم رسول الله والمؤمنون؛ وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم
 خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل: معناه لتمييز التابع من الناكص، كما قال: ﴿يُمَيِّزُ اللَّهُ
 الْخَبِيثَ مِنَ الْقَبِيلِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فوضع العلم موضع التمييز، لأن العلم به يقع التمييز به،
 ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾: هي إن المخففة التي تلزمها اللام الفارقة، والضمير في: ﴿كَانَتْ﴾:
 لما دلّ عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من الردة، أو التحويلة، أو الجعلة،
 ويجوز أن يكون للقبلة، ﴿لَكَبِيرَةً﴾: لثقلها شاقة، ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: إلا على الثابتين
 الصادقين في اتباع الرسول الذين لطف الله بهم وكانوا أهلاً للطفه، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ
 عَمَلَكُمْ﴾: أي ثباتكم على الإيمان، وأنكم لم تزلوا ولم ترتابوا، بل شكر صنيعكم وأعدّ
 لكم الثواب العظيم، ويجوز أن يراد: وما كان الله ليترك تحويلكم لعلمه أن تركه مفسدة

٨١ - أخرجه أحمد في المسند (٣٢٥/١)، والبخاري في المسند (٢١٠/١ - ٢١١) رقم (٤١٨ - كشف)،
 والطبراني في المعجم الكبير (٦٧/١١) رقم (٦٦ - ١١)، من حديث مجاهد عن ابن عباس قال:
 كان النبي - ﷺ - يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر ستة عشر
 شهراً، ثم اتصرف إلى الكعبة.

واللفظ للطبراني في الكبير.
 وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٩٢/١) لابن راهويه في مسنده، وابن سعد في الطبقات.
 قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه إسحاق وابن سعد والبخاري. والطبراني من رواية مجاهد عن ابن عباس: قال: «كان رسول
 الله - ﷺ - يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر
 شهراً»، قال البخاري: لا يعلم رواه عنه إلا الأعمش ولا عنه إلا أبو عوانة. انتهى.

وإضاعة لإيمانكم، وقيل: من كان صلى إلى بيت المقدس قبل التحويل فصلاته غير ضائعة. عن ابن عباس - رضي الله عنه -: لَمَّا وَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ^(١) قَالُوا: كَيْفَ يَمُنُّ مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيلِ مِنْ إِخْوَانِنَا فَتَزَلَّتْ: ﴿لَهُ وَفَّ رَجِيمٌ﴾: «لَا يَضِيعُ أَجُورُهُمْ وَلَا يَنْزُكُ مَا يُضِلُّهُمْ» (٨٢). ويحكي عن الحجاج أنه قال للحسن: ما رأيك في أبي تراب، فقرأ قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ثم قال: وعليهم منهم، وهو ابن عم رسول الله - ﷺ - وختنه على ابنته، وأقرب الناس إليه، وأحبهم، وقرئ: «إِلَّا لِيُعْلَمَ» على البناء للمفعول، ومعنى العلم: المعرفة، ويجوز أن تكون (من) متضمنة لمعنى الاستفهام معلقاً عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو، وقرأ ابن أبي إسحاق «على عقبه» بسكون القاف، وقرأ البيهقي «لكبيرة» بالرفع/٦١، ووجهها أن تكون (كان) مزيدة، كما في قوله [من الوافر]:

..... وَجِيرَانِ لَنَا - كَانُوا - كِرَامٌ؟

والأصل: وإن هي لكبيرة، كقولك: إن زيد لمنطلق ثم وإن كانت لكبيرة وقرئ: «ليضيح» بالتشديد.

﴿فَدَرَى تَقَلُّبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوَّيْتَنَكَ قِبَلَهُ رَضْنَهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وَلَكِنْ أَتَيْتِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِهُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَارِعٍ قِبَلَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَارِعٍ قِبَلَهُ بَعْضٌ وَلَكِنْ أَكْبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ

٨٢ - أخرجه أبو داود (٦٣١/٢) كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨٠)، والترمذي (٢٠٨/٥) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٦٤)، وابن حبان (٤/٦٢١) رقم (١٧١٧)، والحاكم (٢/٢٦٩).
والدارمي (١/٢٨١) كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة، وأحمد في المسند (١/٢٩٥، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٤٧).

وقال الحاكم:

«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الحاكم من رواية سماك عن عكرمة عنه. انتهى.

(١) هو في الذي بعده.

(٢) فكيف إذا مررت بدار قوم وجيران لنا - كانوا - كرام؟

للفرزدي. يقول: فكيف يكون الحال إذا مررت بدار قوم وجيران لنا كرام، فكانوا: زائدة للدلالة على الماضي، وأن الجيران كانوا ثم انقضوا. وكرام - بالجر -: صفة جيران.

بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الْظَالِمِينَ ﴿١٦٥﴾

﴿قَدْ رَأَى﴾: ربما نرى، ومعناه: كثرة الرؤية^(١) كقوله [من البسيط]:

قَدْ أَتْرَكَ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ^(٢)

﴿تَقَلُّبُ وَجْهِكَ﴾: تزدّد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم، ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل - عليه السلام - والوحي بالتحويل، ﴿فَلَنَوَيْتُكَ﴾: فلنعطيتك ولنمكنك من استقبالها، من قولك: وليته كذا. إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس، ﴿تَرْضَنَهَا﴾: تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتھا ووافقت مشيئة الله

(١) قال محمود رحمه الله: «معناه كثرة الرؤية... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من المواضع التي تبلغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته. ومنه: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد كثرة مودتهم للإسلام في القيامة وعند معاينة جزائه وثوابه، وكذلك: ﴿وَقَدْ تَمَلَّكَتُ أَفَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسائله يقيني مؤكد، ومع ذلك يكفرون به.

(٢) قد أترك القرن مصفراً أنامله كان أنوابه مجت بفرصاد أوجرته ونواصي الخيل معلمة سمر أعمالها من خلفها نادي للهللي. وقيل: لعبيد بن الأبرص. وقد للتكثير والترك بمعنى التصيير. واصفرار الأنامل: كتابة عن الموت. والغرصاد: ماء الثوت، وهو أحمر. والإيجار: السقي كرهاً. ونواصي الخيل: شعور رءوسها. والمعلمة: المشهورة بعلامات. والسمراء: القناة. وعاملها في الأصل: هو ما يلي السنان منها، فاستعاره لما يأتي مبالغة. ويقال: نادته الداهية ناداً، إذا فدحته وبلغت منه، وخفف الناد هنا بإبدال الهمزة ألفاً، أي كثيراً ما أترك قريني في الشجاعة قتيلاً ملطخة أنوابه بدمه أسقيته رماً عاملها من خلفها شدة ضربي. ويروي: نادي، بالمثلثة. والثاد - بالهمز وقد يخفف -: الندى والمطر. وأما الثادي - اسم فاعل - فهو السحاب الكثير المطر، أي سقيته، والحال أن نواصي الخيل مسومة رماً عاملها من خلفها شدة ضربي الشبيهة بالندى أو بالسحاب، وذلك مناسب للإيجار. ويروي: سمر، كحمر، فهو خبر ثانٍ. وأعاملها: مضارع. وناد: مفعول أوجرته وفيه نوع التهكم. وروي لزهير تكميل البيت الأول بقوله:

..... يميد في الرمح ميد المائح الأسن

أي الممتن. يقال: أسن الماء فهو أسن، بالمد وتركه، إذا أنتن. والبيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه ص ٦٤، وخزانة الأدب ٢٥٣/١١، ٢٥٧، ٢٦٠، وشرح أبيات سيبويه ٣٦٨/٢، ولعبيد بن الأبرص أو للهللي في الدرر ١٢٨/٥، وشرح شواهد المغني ص ٤٩٤، وللهللي بدون تحديد في الأزهية ص ٢١٢، والجنى الداني ص ٢٥٩، وشرح المفصل ٨/ ١٤٧، والكتاب ٢٢٤/٤، ولسان العرب (قدد)، ومغني اللبيب ص ١٧٤، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٧٦، ووصف المباني ص ٣٩٣، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٢٠، ولسان العرب (أسن)، والمقتضب ٤٣/١، وجمع الهوامع ٧٣/٢.

وحكمته ﴿شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه، قال [من المتقارب]:

وَأَظْعَنُ بِالْقَوْمِ شَطَرَ الْمُلُو لِكِ (١)

وقرأ أبي: تلقاء المسجد الحرام، وعن البراء بن عازب: قدم رسول الله - ﷺ - المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم وجه إلى الكعبة^(٢) (٨٣)، وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله - ﷺ - في مسجد بني سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فسمى المسجد مسجد القبليتين (٨٤)، و﴿شَطَرَ الْمَسْجِدِ﴾: نصب على الظرف، أي اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أي في جهته وسنّته^(٣)؛ لأن استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد، وذكر

٨٣ - أخرجه البخاري (٦٠/٢) كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان حديث (٣٩٩)، وأطرافه في (٤٠، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢)، ومسلم (١٢/٣ - ١٣ - نووي) كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة حديث (٥٢٥)، والترمذي (١٦٩/٢) كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في ابتداء القبلة حديث (٣٤٠)، (١٩١/٥)، كتاب التفسير حديث (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١/٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١/٣٢٢) كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة حديث (١٠١٠)، وابن حبان في صحيحه (٦١٧/٤ - ٦١٨) رقم (١٧١٦)، وأحمد في المسند (٢٨٣/٤ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٣٠٤)، والبيهقي في السنن (٢/٢) كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

وابن خزيمة في صحيحه مختصراً (٢٢٢/١) رقم (٤٢٨)، والدارقطني (٢٧٣/١)، وابن الجارود في المتقى رقم (١٦٥)، والبيهقي في شرح السنة (٩٥/٢) رقم (٤٤٥).

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

متفق عليه من طريق أبي إسحاق عنه، وفيه: «وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت - الحديث»، وفي رواية لابن حبان: «وكان يحب أن يحول نحو البيت». انتهى.

٨٤ - قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

«أخرجه الواقدي في المغازي، ونقله عن ابن سعد ثم أبي الفتح اليعمري» ١.هـ.

(١) ويرى هذا البيت هكذا:

وأظعن بالرمح شطر الملوك

كحسبى إذا خفق المجدح

ينظر اللسان (جدج)، والدر المصون ٣٩٩/١.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وشرحه هذا على التحقيق متضاد؛ لأنه شرح «قد نرى» بربما نرى، ورب على مذهب المحققين إنما تكون لتقليل الشيء في نفسه، أو لتقليل نظيره، ثم قال: ومعناه كثرة الرؤية، فهو مضاد لمداول رب على مذهب الجمهور، ثم هذا الذي ادعاه من كثرة الرؤية لا يدل عليه اللفظ؛ لأنه لم توضع للكثرة «قد» مع المضارع سواء أريد به الماضي أم لا، وإنما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية، وهو القلب. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود رحمه الله: «الشطر النحو والسمت... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وقد نقل أصحابنا =

المسجد الحرام دون الكعبة؛ دليل في أن الواجب، مراعاة الجهة دون العين، ﴿يَقُولُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: أن التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلي إلى القبلتين، ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ قرء بالياء والتاء؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ﴾: جواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط، ﴿يَكُلُّ عَائِزَةً﴾: بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق، ما تبعوا ﴿فَلْيَتَكَلَّمُوا﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة؛ إنما هو عن مكابرة، وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَنَّا وَلَا يَتَّبِعُونَ﴾: حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا، لكننا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم، وقرء: «بتابع قبلتهم»: على الإضافة، ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا قِبْلَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يعني أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم، كما لا ترجى موافقتهم لك، وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس، أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه، وثباته عليه، فالمحقق منهم لا يزل عن ٦١ ب مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله؛ لشدة شكيمته في عناده، وقوله: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَنَّا وَلَا يَتَّبِعُونَ قبلتهم﴾: كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتبعتم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر، ﴿إِنَّكَ إِذَا لَيْتَ أَقْلِيلِيكَ﴾: المرتكبين الظلم الفاحش، وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير، واستفطاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهيج وإلهاب للثبات على الحق، فإن قلت: كيف قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَنَّا وَلَا يَتَّبِعُونَ قبلتهم﴾، ولهم قبلتنا^(١) لليهود قبله

= المالكية خلافاً عن المذهب في الواجب فقيل: الجهة. وقيل: العين، هذا مع البعد. وأما حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام فمن خرج عن سمت ثم لم تصح صلاته قولاً واحداً، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال. أما على قول العين فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل زيادة على مسامحة الكعبة شرفها الله تعالى، لأنها تعلم بالضرورة - وإن لم نشاهد - أن بعضهم يصلي إلى غير عنينا. إذ لا يفي سمتها بذلك على هذا التقدير. لكن الجواز في مثل هذا مع البعد متفق عليه. وأما على قول الجهة فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلاً إلى الجهات الثلاث، لأنها كلها جهات الكعبة، والسمت غير مراعى على هذا المذهب، وإنما جاء هذا الخط من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسمت. ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هندسي في كتاب الإحياء فلا نطول بذكره. والتحقق عند الفتوى: أن المعبر مع البعد الجهة لا السمت.

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم جاء على التوحيد وهما قبلتان... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا ما أجيب به عن قوله تعالى ﴿كَانَ نُصَيْرٌ عَلَى طَعَامٍ وَجَرٍ﴾ مع أنه متعدد وهو المن والسلوى، فقيل إنهم أرادوا أنهم من طعام الترفه، وآثروا طعام الفلاحة والأجلاف، فلما اتحد الطعامان المذكوران في الرفاهية جعلوا طعاماً واحداً. وهذا المعنى في إنكار الطعام أبلغ، لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم ﴿كَانَ نُصَيْرٌ عَلَى طَعَامٍ﴾ حتى أكدوه بقولهم ﴿وَجَرٍ﴾ وللمخشري عنه جواب آخر سلف بمكانه.

وللنصارى قبله؟ قلت: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبله واحدة.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكَنْتَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكُونُوا لَآلِ الْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٦٦] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّهَا فَاسْتَبِقُوا أَلْحَبْرَةَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٨﴾

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جليلة يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾: لا يشبه عليهم أبناءهم وأبناء غيرهم، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله - ﷺ - فقال: أنا أعلم به مني بابني، قال: ولم؟ قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي، فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه، وجاز الإضمار، وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام، وقيل: الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة، وقوله: (كما يعرفون أبناءهم): يشهد للأول وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام. فإن قلت: لم اختص الأبناء^(١)؟ قلت: لأن المذكور أشهر وأعرف، وهم لصحبة الآباء الأزم، وبقلوبهم ألتصق، وقال: ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: استثناء لمن آمن منهم، أو لجهالهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَمِنْهُمْ أَتِيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلَكَنْتَ﴾ [البقرة: ٧٨]. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾: يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف، أي هو الحق، أو مبتدأ خبره: (من ربك)، وفيه وجهان: أن تكون اللام للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله - ﷺ -، أو إلى الحق الذي في قوله ليكنتمون الحق، أي: هذا الذي يكتمونونه هو الحق من ربك، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره، يعني أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل، فإن قلت: إذا جعلت الحق خبر مبتدأ فما محل من ربك؟ قلت: يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون حالاً، وقرأ علي - رضي الله عنه -: الحق من ربك، على الإبدال من الأول، أي يكتمونون الحق، الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم، أو في أنه من ربك، ﴿وَلِكُلِّ﴾: من أهل الأديان المختلفة، ﴿وُجْهَةٍ﴾: قبله، وفي قراءة أبي: ولكل

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت لم خص الأبناء ولم يقل أولادهم... إلخ». قال أحمد رحمه الله: بنى كلامه هذا على أن الإناث لا يدخلن في لفظ الأبناء كما يدخلن في لفظ الأولاد، وليس الأمر كذلك، بل اللفظان سواء في شمول الإناث، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف إذا وقف على بنه وبنى بنه، كما يدخلن في لفظ الأولاد. هذا مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

قبلة، ﴿هُوَ مُؤَيَّتٌ﴾ وجهه، فحذف أحد المفعولين، وقيل هو الله تعالى، أي الله موليا إياه، وقرئ: «ولكل وجهة» على الإضافة، والمعنى / ١٦٢ وكل وجهة الله موليا، فزيدت اللام؛ لتقدم المفعول كقولك: لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه، وقرأ ابن عامر: هو مولاها أي هو مولى تلك الجهة وقد وليها، والمعنى: لكل أمة قبلة تتوجه إليها، منكم ومن غيركم، ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾: أنتم، ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: واستبقوا إليها^(١) غيركم من أمر القبلة وغيره، ومعنى آخر: وهو أن يراد: ولكل منكم يا أمة محمد، وجهة، أي: جهة يصلى إليها جنوبية، أو شمالية، أو شرقية، أو غربية، فاستبقوا الخيرات، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾: للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه، ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي الجهات المسامحة للكعبة، وإن اختلفت، أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِمُنْفِعٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٦) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمْ يَنْمَنِي عَلَيْكَ وَلَغَلِمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٧) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥٨) فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ أَكْثَرَ مِمَّا زَكَّيْتُمْ وَأَنْشُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١٥٩) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٦٠) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَعْيَاهُ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦١)

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾: أي: ومن أي بلد خرجت للسفر، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: إذا صليت، ﴿وَإِنَّهُ﴾: وإن هذا المأمور به، وقرئ: «تعملون» بالناء والياء، وهذا التكرير، لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مضاف الفتنه والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصيلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليشتبوا ويعزموا ويجذوا، ولأنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلفت فوائدها، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحجاً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء.

(١) قوله «استبقوا إليها» لعله واستبقوا. (ع)

فإن قلت: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين؟ قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعمته في التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بداله فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم، وقرأ زيد بن علي - رضي الله عنهما - «أَلَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، على أن ألا للتنبيه ووقف على حجة، ثم استأنف منيها، ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾: فلا تخافوا مطاعنهم في قبلكم، فإنهم لا يضرونكم، ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾: فلا تخالفوا أمري وما رأيته مصلحة لكم، ومتعلق اللام محذوف، معناه: وإلتامي النعمة عليكم وإرادتي اعتداءكم أمرتكم بذلك؛ أو يعطف على علة مقدرة، كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم ولأنتم نعمتي عليكم، وقيل: هو معطوف على: ﴿يَلَّا يَكُونُ﴾، وفي الحديث: «تَمَامُ النُّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ» (٨٥) وعن علي - رضي الله عنه -: «تَمَامُ النُّعْمَةِ الْمَوْتُ عَلَى الْإِسْلَامِ»/٦٢ ب ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾: إما أن يتعلق بما قبله، أي: ولأنتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده، أي: كما ذكرتكم بإرسال الرسول، ﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ بالطاعة، ﴿أَذْكُرْتُمْ﴾: بالثواب، ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾: ما أنعمت به عليكم، ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾: ولا تجحدوا نعماني، ﴿أَنْتُمْ بِلِ آيَاتِي﴾: هم أموات بل هم أحياء، ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: كيف حالهم في حياتهم، وعن الحسن: أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرواحهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشيا، فيصل إليهم الوجع، وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها، وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ويوصل إليها النعيم وإن كانت في حجم الذرة، وقيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر،

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْعَمَلِ وَالشَّرِّ وَالْإِسْرِ﴾

٨٥ - أخرجه الترمذي (٥٤١/٥) كتاب الدعوات، حديث (٣٥٢٧).

وأحمد في المسند (٢٣١/٥) عن معاذ بن جبل.

وذكره السيوطي في الدر (٢/٢٦٥).

وعزه «الابن أبي شيبه»، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، والطبراني، والبيهقي في الأسماء والصفات، والخطيب عن معاذ بن جبل «١. هـ».

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف:

أخرجه أحمد، والترمذي، والبخاري من حديث معاذ، وسيأتي في سورة الرحمن. انتهى.

الصَّبْرُ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾: ولنصيبكم بذلك إصابتة تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه، ﴿وَيُنْصَرِّفُ الصَّبْرُ﴾: المسترجعين عند البلاء؛ لأن الاسترجاع: تسليم وإذعان، وعن النبي ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتها، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»، (٨٦) وروي: أنه طفىء سراج رسول الله ﷺ: فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فقل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم، كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»، (٨٧) وإنما قلل في قوله: (بشيء): ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه، وليخفف عليهم ويربهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزييلهم؛ وإنما وعدهم ذلك قبل كونه؛ ليوطنوا عليه نفوسهم، (ونقص): عطف على (شيء)، أو على الخوف، بمعنى: وشيء من نقص الأموال، والخطاب في: (بشر): لرسول الله ﷺ، أو لكل من يتأتى منه البشارة، وعن الشافعي - رحمه الله - في الخوف: خوف الله، والجوع: صيام شهر رمضان؛ والنقص من الأموال: الزكوات والصدقات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات؛ موت الأولاد^(١)، وعن النبي ﷺ:

٨٦ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٦/٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٥/١٢) رقم (١٣٠٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٦/٧) رقم (٩٦٨٩)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به مرفوعاً.

وعلي عن ابن عباس منقطع، وقد تقدم الكلام على هذا.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبري، والطبراني، والبيهقي في الشعب من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الآية: إن المؤمن إذا أسلم لأمر الله، واسترجع عند المصيبة أحرز ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة. وتحقيق سبيل الهدى، وقال رسول الله ﷺ: - من استرجع... فذكره. انتهى.

٨٧ - أخرجه أبو داود في المراسيل رقم (٤١٢)، حدثنا قتيبة حدثنا يحيى - يعني ابن سليم - عن عمران القصير قال:

طفىء مصباح النبي ﷺ - فاسترجع قالت عائشة: إن هذا مصباح: قال: «كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة»، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عمران القصير، قال: طفىء مصباح النبي ﷺ فاسترجع، فقالت عائشة - رضي الله عنها -: إنما هذا مصباح. فقال: كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «وعن الشافعي رضي الله عنه: الخوف خوف الله.. والجوع: صيام شهر =

«إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد»، (٨٨) والصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرافة، وجمع بينها وبين الرحمة، كقوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ﴿رَهْؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، والمعنى: عليهم رافة بعد رافة، ورحمة أي رحمة، ﴿وَأَوَّلَتْكِ هُمْ إِلَهُمَّ تَدُونَ﴾: لطريق الصواب، حيث استرجعوا وسلموا لأمر الله.

﴿إِنَّ أَصْفَاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

والصفا والمروة: علمان للجبلين، كالصمان والمقطم/٦٣ والشعائر: جمع شعيرة، وهي العلامة، أي: من أعلام مناسكه ومتعبداته، والحج: القصد، والإعتماد: الزيارة، فغلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين، وهما في المعاني كالنجم والبيت في الأعيان، وأصل ﴿يَطَّوَّفُ﴾: يتطوَّف، فادغم، وقرئ: «أن يطوف»: من طاف، فإن قلت: كيف قيل: إنهما من شعائر الله، ثم قيل: لا جناح عليه أن يطوف بهما؟ قلت: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، يروى: أنهما كانا رجلاً وامراً زنياً

٨٨ - أخرجه الترمذي (٣٣٢/٣) كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب حديث (١٠٢١)، وابن حبان في صحيحه (٢١٠/٧) رقم (٢٩٤٨)، وأحمد في مسنده (٤١٥/٤)، والبيهقي في الشعب (١١٨/٧ - ١١٩) رقم (٩٦٩٩، ٩٧٠٠).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف:

أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب، وأخرجه أحمد وغيره وصححه ابن حبان، ورواه البيهقي في الشعب مرفوعاً وموقوفاً، انتهى.

= رمضان، والنقص من الأموال: الزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات: موت الأولاد قال أحمد: وفي تفسيره هذا نظر، لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل، مذكور قبل وقوعه توطئاً عليه عند الوقوع، ولعله ما من بلية ذكرها إلا وقد تقدمت لهم قبل نزول الآية، إذ الخوف من الله تعالى لم يزل مشحوناً في قلوب المؤمنين، ويبعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص وقد عبر عنها الشرع بالزكاة التي هي النمو ضد النقص وورد «ما نقص مال من صدقة» ويمكن أن يقال هي نقص حساً؛ وإنما سميت زكاة باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو فالعوض المرجو من كرم الله خلف فلما ذكرها الله تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها عبر عنها بالزكاة تسهياً لإخراجها على المكلف لأنه إذا استشعر العوض من الله تعالى ونمو ماله بذلك، هان عليه بذلها وسمحت نفسه لذلك.

في الكعبة، فمسحوا حجرتين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبداً من دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان، كره المسلمون الطواف بينهما، لأجل فعل الجاهلية، وأن لا يكون عليهما جناح في ذلك، فرفع عنهم الجناح، واختلف في السعي، فمن قائل: هو تطويق بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل وتركه، كقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وغير ذلك، ولقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْثُ﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْثُ فَهُوَ حَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ويروى ذلك عن أنس، وابن عباس، وابن الزبير، وتنصره قراءة ابن مسعود: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، وعن أبي حنيفة - رحمه الله -: أنه واجب وليس بركن، وعلى تاركه دم، وعند الأولين لا شيء عليه، وعند مالك والشافعي: هو ركن، لقوله - عليه السلام -: «اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ» (٨٩) وقرئ: ومن يطوق بمعنى: ومن يتطوع،

٨٩ - روي هذا من حديث ابن عباس، وصفية بنت شيبة، وحبيبة بنت أبي تجرة، وتملك العبدية. - أما حديث ابن عباس:

فرواه الطبراني (١٨٤/١١) رقم (١١٤٣٧) قال: حدثنا محمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن الفضل بن صدقة عن ابن جريج، وإسماعيل بن مسلم عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: سئل رسول الله - ﷺ - عام حج عن الرمل، فقال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ فَاسْعَوْا». قال الهيثمي في المجمع (٢٤٢/٣):

«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الفضل بن صدقة، وهو ضعيف» ١. هـ.

وقال في المجمع أيضاً (٢٥١/٣):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه الفضل بن صدقة وهو متروك» ١. هـ.

وأما حديث صفية بنت شيبة: قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «اسْعَوْا! فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ» ١. هـ.

عزاه الهيثمي في المجمع (٢٥١/٣) للطبراني في الكبير، وقال: «فيه المثنى بن الصباح، وثقه ابن معين في رواية، وضعفه جماعة» ١. هـ.

وأما حديث حبيبة بنت أبي تجرة: أنها قالت: «رأيت رسول الله - ﷺ - يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى إني لأرى ركبته من شدة السعي، وهو يقول: اسْعَوْا! فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ».

أخرجه أحمد في المسند (٤٢١/٦، ٤٢١ - ٤٢٢)، والشافعي في المسند (٣٥١/١) رقم (٩٠٧)، والحاكم في المستدرک (٧٠/٤)، والدارقطني (٢٥٦/٢)، والبغوي في شرح السنة (٨٤/٤) رقم (١٩١٤) - بتحقيقنا.

وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٠/٣):

«رواه أحمد والطبراني في الكبير... وفيه عبد الله بن المؤمل، وثقه ابن حبان، وقال: يخطئ، وضعفه غيره» ١. هـ.

- وأما حديث تملك العبدية:

قالت: نظرت إلى رسول الله - ﷺ - وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة، وهو يقول: «أيها =

فأدغم، وفي قراءة عبد الله: ومن يتطوع بخير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾: من أحبار اليهود، ﴿مَا آتَاكَ﴾: في التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾: من الآيات الشاهدة على أمر محمد - ﷺ - ﴿وَالْهُدَىٰ﴾: والهداية بوصفه إلى أتباعه والإيمان به، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾: ولخصناه، ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾: في التوراة، لم ندع فيه موضع إشكال، ولا اشتباه على أحد منهم، فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولبسوا على الناس، ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾: الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٧٥﴾

﴿وَأَصْلَحُوا﴾: ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرط منهم، ﴿وَبَيَّنَّا﴾: ما بينه الله

= الناس، إنه كتب عليكم السعي فاسعوا، رواه البيهقي (٩٨/٥) كتاب الحج، باب وجوب الطواف بين الصفا والمروة، وأن غيره لا يجزي عنه.

قال الهيثمي في المجمع (٢٥١/٣):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه المثنى بن الصباح، وقد وثقه ابن معين في رواية، وضعفه جماعة».

وقال الزيلعي في نصب الراية (٥٧/٣):

«نفرد به مهرا بن أبي عمر قال البخاري: في حديثه اضطراب».

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: سئل رسول الله - ﷺ - عام حج عن الرمل فذكره. رواه الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والطبراني، والدارقطني، والحاكم من رواية عبد الله بن المؤمل عن عمر بن عبد الرحمن بن نحيس عن عطاه بن أبي رباح عن حبيبة بنت أبي تجرة، قالت: رأيت رسول الله - ﷺ - يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه، وهو وراءهم يسعى حتى إني لأرى ركبته من شدة السعي، وهو يقول: «اسعوا» فإن الله كتب عليكم السعي، وعبيد الله ضعيف. وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن عبد الله بن شيبه عن جدته صفية بنت شيبه عن حبيبة بنت أبي تجرة. قالت: اطلعت بكرة بين الصفا والمروة فأشرفت على رسول الله - ﷺ - وإذا هو يسعى، ويقول لأصحابه: «اسعوا» فإن الله كتب عليكم السعي، وأخرجه الطبراني والبيهقي من رواية ابن عيينة عن المثنى بن الصباح عن المغيرة بن حكيم، عن صفية عن تملك العبدية قالت: نظرت إلى رسول الله - ﷺ - وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة، وهو يقول: «أيها الناس، إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا». والمثنى ضعيف، وأخرجه الطبراني من رواية حميد بن عبد الرحمن عن المثنى بن الصباح فلم يذكر تملك. انتهى.

في كتابهم فكنتموه، أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم، ليمحوا سمة الكفر عنهم، ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾^(١٦)
 ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴾^(١٧)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: يعني الذين ماتوا من هؤلاء الكافرين ولم يتوبوا، ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً، وقرأ الحسن: «والملائكة والناس أجمعون» والملائكة والناس أجمعون، بالرفع عطفاً على محل اسم الله، لأنه فاعل في التقدير، كقولك: عجبت من ضرب زيد وعمرو، تريد من أن ضرب زيد وعمرو، كأنه قيل: أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، وفي الناس المسلم والكافر، قلت: أراد بالناس من يعتد بلعنه ٦٣ ب وهم المؤمنون، وقيل: يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾: في اللعنة، وقيل: في النار إلا أنها أضمرت تفضيلاً؛ لشأنها وتهويلاً، ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴾: من الإنظار أي لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

﴿ وَلِلَّهِ الْكَرَّمُ وَالْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾^(١٨)

﴿ إِلَهٌ وَحِيدٌ ﴾: فرد في الإلهية لا شريك له فيها ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً، و﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته، ﴿ أَلَرَأَيْتَ أَكْرَهُ ﴾: المولى لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فإن كل ما سواه إما نعمة وإما منعم عليه، وقيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت^(١٩).

(١) قوله - سبحانه - ﴿ وَلِلَّهِ الْكَرَّمُ وَالْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى نهاية الآية التي بعدها هذا الخطاب للمشركين، ومقامهم الإنكار، ولهذا عجبوا حينما نزلت هذه الآية - كما بين ذلك العلامة المفسر، ولكن المتكلم هو الله العليم بذات الصدور، ولهذا أراد أن ينزلهم منزلة غير المنكرين، فجاء خطايبهم بدون توكيد. والبلاغيون في هذا المجال يقولون: إنه خطاب خالي الذهن يكون بلا توكيد، والمتردد بتوكيد واحد، والمنكر بتوكيدات تدفع الإنكار، وتدفع ما في نفسه من أدواء، ولكن إذا كان المخاطب لديه من الدلائل التي لو تأملها لاقتنع بالقضية من عند نفسه، هنا ينزل المنكر منزلة خالي الذهن بهذا الاختيار الجديد، ويسمى هذا التنزيل: خطاب على غير ظاهر الحال، وهذا المقام له تفرعات عديدة، ومقامات فريدة، ومن أجل ذلك ترى المفسر العلامة يورد أنهم تعجبوا فأخبرهم المولى - سبحانه - في الآية التي بعدها بما يجب عليهم أن يفعلوه، وهو تدبر آيات الله في السموات والأرض والليل والنهار والبحر والأرض فهم إن فعلوا ذلك علموا عن يقين أن الإله واحد، وهو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاتِّخَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاتِّخَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: واعتقابهما؛ لأن كل واحد منهما يعقب الآخر، كقوله: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢] ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾: بالذي ينفعهم مما يحمل فيها أو ينفع الناس، فإن قلت: قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾: عطف على أنزل أم أحيأ؟ قلت: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة؛ لأن قوله: (فأحيأ به الأرض): عطف على أنزل، فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة؛ ويجوز عطفه على أحيأ على معنى فأحيأ بالمطر الأرض وبث فيها من كل دابة؛ لأنهم يمتنون بالخصب ويعيشون بالحيا^(١). ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾: في مهابها: قبولاً، ودبوراً، وجنوباً، وشمالاً، وفي أحوالها: حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة، وعقماً، ولواقح، وقيل: تارة بالرحمة، وتارة: بالعذاب، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾: سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يمطر حيث شاء، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة، وعن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَجَّ بِهَا» (٩٠) أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها، وقرئ: الْفُلُكُ بضمتين، وتصريف

٩٠ - ذكره الثعلبي في التفسير.

وقال الزبيلي في تخريج أحاديث الكشاف (٩٩/١): «غريب جداً» ١. هـ.

== يقول سعد الدين التفتازاني:

«ويجعل المنكر كغير المنكر إذا كان معه أي مع المنكر ما إن تأمله أي شيء من الدلائل والشواهد إن تأمل المنكر ذلك الشيء ارتدع عن إنكاره، ومعنى كونه مع المنكر أن يكون معلوماً له أو محسوساً عنده، كما تقول لمنكر الإسلام - الإسلام حق - من غير تأكيد لما معه من الدلائل الدالة على نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - لكنه لا يتأملها ليرتدع عن الإنكار».

وقد فهم المفسرون هذا المنحى البلاغي في الأساليب الخبرية والإنشائية وركزوا مهمهم في التطبيقات الفائقة في آيات الكتاب العزيز، ناظرين إلى مقامات الآيات التي وردت مع التوكيد أو بدونه سواء كان هذا على ظاهر الحال أو خلاف ظاهر الحال. ومن أراد الوقوف على نحو هذه الأسرار، واستجلاء هذه الآثار فعليه بمطالعة كتب المفسرين، ينظر روح المعاني للألوسي ٤١/٢٣، المطول ص ٥٠، والإيضاح ٩٨/١، وخصائص التراكيب لأبي موسى ٤٨ وما بعدها، وبحوث المطابقة لعلي البديري ١٦٨ وما بعدها؛ ودلائل الإعجاز بتعليق وشرح خفاجي ٣١١، وعلم المعاني ٥٤.

(١) قوله «ويعيشون بالحيا» في الصحاح: الحيا - مقصور -: المطر والخصب. (ع)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا لَوْ أَنك لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمُ الْحَسْرَةَ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿أنداداً﴾: أمثالاً من الأصنام، وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم؛ واستدل بقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا﴾ [البقرة ١٦٦]، ومعنى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب، ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾: كتعظيم الله^(١)، والخضوع له، أي: كما يحب الله تعالى، على أنه مصدر من المبني للمفعول؛ وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس، وقيل: كحبهم الله، أي: يسوون بينه وبينهم في محبتهم؛ لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقربون إليه، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره؛ بخلاف المشركين فإنهم يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفاعونا عند الله، ويعبدون الصنم/١٦٤ زماناً ثم يرفضونه إلى غيره، أو يأكلونه كما أكلت باهلة إلهها من حيس عام المجاعة، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: إشارة إلى متخذي الأنداد، أي: لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشرهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه، وقرئ: ولو ترى، بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب، أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً، وقرئ: إذ يرون، على البناء للمفعول، وإذ في المستقبل كقوله: ﴿وَلَمَّا تَرَ أَفْعَىٰ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾: بدل من ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾، أي: تبرأ المتبوعون وهم الرؤساء من الأتباع، وقرأ مجاهد، الأول: على البناء للفاعل، والثاني: على البناء

(١) قال محمود رحمه الله: «يحبونهم كحب الله: يعظمونهم كما يعظم الله... إلخ». قال أحمد: فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأول، ولكن هذا الفاعل مسمى وفعله مبني للفاعل عند فكه من السبك.

للمفعول، أي تبرا الأتباع من الرؤساء، ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾: والواو للحال، أي: تبرزوا في حال رؤيتهم العذاب، ﴿وَنَقَلْتُمْ﴾: عطف على تبرا، و﴿الْأَسْبَابُ﴾: الوصل التي كانت بينهم، من الإتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب، والأتباع، والاستتباع؛ كقوله: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿لَوْ﴾: في معنى التمني، ولذلك أوجب بالغاء الذي يجاب به التمني، كأنه قيل: ليت لنا كرامة فنتبرأ منهم، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك الإراء الفطيع، ﴿يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾، أي ندامات وحسرات، ثالث مفاعيل أرى: ومعناه أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم، فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم، ﴿وما هم بخارجين﴾: هم بمنزلته في قوله [من الكامل]:

هُم يَفْرِشُونَ اللَّبَدَ كُلَّ طِمْرَةٍ^(١)

في دلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص.

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾^(١٣٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ^(١٣٩) ﴿

﴿حَلَالًا﴾: مفعول كلوا، أو حال مما في الأرض، ﴿طَيِّبًا﴾: طاهراً من كل شبهة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾: فتدخلوا في حرام، أو شبهة، أو تحریم حلال، أو تحليل حرام، و (من): للتبعيض؛ لأن كل ما في الأرض ليس بمأكول، وقرئ: خطوات بضميتين، وخطوات بضمة وسكون، وخطوات بضميتين وهمزة، جعلت الضمة على الطاء

(١) قال محمود رحمه الله: «هم ههنا بمنزلته في قوله هم يفرشون... إلخ» قال أحمد رحمه الله: أشد ما أخفى في هذه الكلمات معتقداً ورب صدره كلمات فهو ينفس عن نفسه خلق الكتمان بما ينفته منه في بعض الأحيان، وكشف ذلك أن يقال: لما استشعر دلالة الآية لأهل السنة على أنه لا يخلد في النار إلا الكافر. وأما العاصي - وإن أصر على الكبائر - فتوجيهه يخرجها منها ولا بد وفاء بالوعد. ووجه الدلالة منها على ذلك أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ، ومثل هذا النظم يقتضي الاختصاص والحصر لغة. وستمز للزمخشري مواضع يستدل فيها على الحصر بذلك، فقد قال في قوله تعالى: ﴿أَيُّ أَتَعْلَمُوا إِلَهًا يَنْزِلُ مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ يُنْزِلُهَا﴾^(١٣٨) أن معناه لا ينشر إلا هم، وأن المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الألوهية فيهم. وكذلك يقول في أمثال قولهم ﴿وَقُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقُونَ﴾^(١٣٩) أن معناه الحصر أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم، فإذا ابتنى الأمر على ذلك لزم حصر نفي الخروج من النار في هؤلاء الكفار دون غيرهم من الموحدين. لكن الزمخشري يأبى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة بفائدة تتم له على القاعدة، فيجعل الضمير المذكور يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم لاختصاصه بهم، وهم عنده بهذه المثابة، لأن العصاة وإن خلدوا على زعمه إلا أن الكفار أحق بالخلود وأدخل في استحقاقه منهم. فسيحان من امتحنه بهذه المحنة على حذقه وفطنته. والله ولي التوفيق.

306

لها، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي، كما يفهم العقلاء ويعون، ويجوز أن يراد بما لا يسمع: الأصم الأصلح، الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير، من غير فهم للحروف، وقيل معناه: ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كممثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته؛ فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى ظَاهِرِ حَالِهِمْ وَلَا يَفْقَهُونَ أَهَمَّ عَلَى حَقِّ أَمِّ بَاطِلٍ؟ وقيل معناه: ومثلهم في دعائهم الأصنام كممثل الناعق بما لا يسمع، إلا أَنْ يَقُولَ: ﴿إِلَّا دُعَاءَ وَبِدَاعَ﴾: لا يساعد عليه، لأنَّ الأصنام لا تسمع شيئاً^(١)، والنعيق: التصويت، يقال: نعى المؤذن، ونعى الراعي بالضأن، قال الأخطل [من الكامل]:

فَانْعَقَ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ قِلَانِمَا مَثْنُكَ تَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا^(٢)

وأما (نقى الغراب) فبالغين المعجمة ﴿هَمْ﴾ هم صم، وهو رفع على الذم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

تَعْبُدُونَ﴾

﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: من مستلذاته، لأن كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالاً^(٣) ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾: الذي رزقكموها، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: إن صبح أنكم تخصصونه بالعبادة، وتقرون أنه مولى النعم، وعن النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي وَالْجِنَّ وَالْإِنْسُ

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وَلَحَظَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي هَذَا الْقَوْلِ تَعَامُّ التَّشْبِيهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَكَمَا أَنَّ الْمُنْعَوِقَ بِهِ لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ فَكَذَلِكَ مَدْعُو الْكَافِرِ مِنَ الصَّنَمِ، وَالصَّنَمُ لَا يَسْمَعُ، فَضَعُفَ عِنْدَهُ هَذَا الْقَوْلُ» قال: «ونحن نقول: التشبيه وَقَعَ فِي مُطْلَقِ الدُّعَاءِ لَا فِي خُصُوصِيَّاتِ الْمَدْعُو، فَتَشْبِيهُ الْكَافِرِ فِي دُعَائِهِ الصَّنَمِ بِالنَّاجِيَةِ بِالْبَهِيمَةِ لَا فِي خُصُوصِيَّاتِ الْمُنْعَوِقِ بِهِ». انتهى. الدر المصون.

(٢) للأخطل ونعق يتنق نعيماً - بالعين المهملة - إذا صوت بغنمه. ونقى الغراب نفاقاً - بالمعجمة - إذا صاح أي: صوت لغنمك يا جرير، واكتف بذلك عن المفاخر فلست من أهلها، إنما أنت راعي غنم. منتك: حدثك نفسك ووعدتك وسؤلت لك في الفضاء الخالي عن الناس ضلالاً وكذباً. لا هدى وصدقا كما تزعم، وذمه جرير بقوله:

والشغليبي إذا تمنحنح للقرى
حك استه وتمثل الأمثالا
ورد عليه الأخطل بقوله [من البيط]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأهمم: بولي على النار

ينظر: ديوانه (٢٥٠)، البحر المحيط (١/٦٥١) والدر المصون ٤٣٩/١.

(٣) قوله «كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالاً» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فقد يكون حراماً، كما بين في موضعه. (ع)

فِي نَبَاٍ عَظِيمٍ، أَخْلَقْتُ، وَيُعْبَدُ غَيْرِي وَأَرْزُقُ وَيُشْكُرُ غَيْرِي» (٩١).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْمَةَ وَالَّذِمَّ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٢)

قريء: «حَرَّمَ» على البناء للفاعل، و«حَرَّمَ» على البناء للمفعول، و«حَرَّمَ» بوزن كرم، ﴿أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾، أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزى، ﴿غَيْرَ بَآغٍ﴾: على مضطرٍّ آخر بالاستيثار عليه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾: سَدَّ الجوعة/١٦٥ فإن قلت: في الميمات ما يحل وهو السمك والجراد، قال رسول الله ﷺ: «أَجِلْتُ لَنَا مَيْمَتَانِ وَدَمَانِ» (٩٢). قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة، ألا ترى أنَّ

٩١ - أخرجه البيهقي في الشعب (١٣٤/٤) رقم (٤٥٦٣)، من طريق بقية حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير ابن نفيير وشرع بن عبيد الحضريَّين عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ - قال: قال الله عز وجل... فذكره.

وعزاه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف للطبراني في مسند الشاميين.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للترمذي في «نوادير الأصول» في الأصل التاسع والثمانين بعد المائة، ولم أجده فيه من نسختي من النوار؛ فليُنظر.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من رواية بقية، حدثنا صفوان بن عمير، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفيير. وشرع بن عبيد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ - قال: قال الله عز وجل: «إني والجن والإنس...» فذكره سواء. انتهى.

٩٢ - أخرجه الشافعي في مسنده (١٧٣/٢): كتاب الصيد، والذبايح، الحديث (٦٠٧)، وأحمد (٢/٩٧)، وابن ماجه (١١٠٢/٢). كتاب الأطعمة: باب الكبد والطحال، الحديث (٣٣١٤)، والدارقطني (٢٧٢/٤): باب الصيد والذبايح والأطعمة. الحديث (٢٥) والبيهقي (٢٥٤/١): كتاب الطهارة: باب الحوت يموت في الماء والجراد، وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص - ٢٦٠) رقم (٨٢٠) والبيهقي في «شرح السنة» (٣٩/٦) - بتحقيقنا، كلهم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ -: «أجلت لنا ميتينتا ودمان فأما الميتينتا فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال».

قال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ١. هـ.
وأخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٥٨/٢) وأعله بعبد الرحمن، وقال كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثرت ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك.
وقال: حدثنا أحمد بن المثنى - أبو يعلى - قال سمعت يحيى بن معين يقول يقول عبد الرحمن، وأسامة. وعبد الله، بنو زيد بن أسلم ليسوا بشيء.
وهذا فيه نظر فإن عبد الله وثقه أحمد بن حنبل.

وقد أسند ابن حبان في المجروحين (٥٨/٢)، عن أحمد بن حنبل قال: عبد الله لا بأس به.
وأسند ابن عدي في «الكامل» (١٨٥/٤) عن أحمد أنه قال: ثقة وقد أخرجه الدارقطني (٢٧٢/٤) من طريق معترف عن عبد الله بن زيد به، وأخرجه البيهقي (٢٥٤/١) من طريق ابن أبي أويس قال: =

القائل إذا قال: أكل فلان ميتة، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دماً، لم يسبق إلى الكبد والطحال، ولا اعتبار العادة والتعارف، قالوا: من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث - وإن أكل لحماً في الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْهُ لَحِمًا مَّحْرُومًا ﴾ [النحل: ١٤] وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث - وإن

= ثنا عبد الرحمن، وأسامة، وعبد الله، بنو زيد بن أسلم، عن أبيهم به.

وقال: أولاد زيد بن أسلم كلهم ضعفاء جرحهم يحيى بن معين وكان أحمد بن حنبل وعلي بن المديني يوثقان عبد الله بن زيد إلا أن الصحيح من هذا الحديث الأول - يعني الموقوف - الذي أخرجه من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر موقوفاً. وقال هو في معنى المسند.

قال ابن الترمكاني في «الجوهر النقي» (٢٥٤/١): بل رواه يحيى بن حسان عن سليمان بن بلال مرفوعاً كذا قال ابن عدي في الكامل ١. هـ. قلت. وهو ثقة.

وثقه أحمد، والنسائي، والمجلي، وابن حبان، والبيهقي، وابن يونس. وقال أبو حاتم: صالح الحديث ينظر التهذيب (١٩٧/١١).

إلا أن أبا زرعة رجح الموقوف فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٧/٢) رقم (١٥٢٤): سئل أبو زرعة عن حديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أحللت لنا ميتتان ودمان». ورواه عبد الله بن نافع، عن أسامة بن زيد عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي - ﷺ - ورواه القعني، عن أسامة وعبد الله بن زيد، عن أبيهما، عن ابن عمر موقوف. قال أبو زرعة الموقوف أصح.

وكذا صحح الموقوف أبو حاتم كما في «تلخيص الحبير» (٢٦/١) وقد تويع بنو زيد بن أسلم على رفع الحديث.

تابعهم أبو هشام الأيلي عند ابن مردويه في «تفسيره» كما في «نصب الراية» (٢٠٢/٤) فقال: وله طريق آخر قال ابن مردويه في «تفسيره»، ثنا عبد الباقي بن قانع، ثنا محمد بن بشر بن مطر، ثنا داود بن راشد، ثنا سويد بن عبد العزيز، ثنا أبو هشام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر قال قال: قال رسول الله: «يحل من الميتة اثنان، ومن الدم اثنان: فأما الميتة فالسمك والجراد، وأما الدم فالكبد والطحال».

وسكت عنه الزيلعي فلم يبين علته.

قال الحافظ في «التلخيص» (٢٦/١): تابعهم شخص أضعف منهم، وهو أبو هشام كثير بن عبد الله الأيلي. أخرجه ابن مردويه في تفسيره. - وكثير قال البخاري ومسلم: منكر الحديث وقال النسائي والدارقطني: متروك.

ينظر التاريخ الكبير (٩٥٠/٧) والضعفاء الصغير (٣٠٦) للبخاري والكنى للإمام مسلم (٨٧٥/٢). والضعفاء والمتروكين للنسائي (٥٣١) والدارقطني (٤٤٥).

وقال الحافظ: الرواية الموقوفة التي صححها أبو حاتم، وغيره، هي في حكم المرفوع لأن قول الصحابي أحل لنا وحرم علينا كذا مثل قوله «أمرنا بكذا ونهينا عن كذا فيحصل الاستدلال بهذه الرواية لأنها في معنى المرفوع».

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه أحمد، والشافعي، وابن ماجه، والدارقطني من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -.

سماه الله تعالى دابة في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٥٥]. فإن قلت: فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلت: لأن الشحم داخل في ذكر اللحم؛ لكونه تابعا له وصفة فيه، بدليل قولهم: لحم سمين، يريدون أنه شحم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسَرُّونَ بِهِ. ثُمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٢)
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥)
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦)

﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾: ملاء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه، ﴿إِلَّا النَّارَ﴾: لأنه إذا أكل ما يتلئس بالنار لكونها عقوبة عليه، فكانه أكل النار، ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل الدية التي هي بدل منه؛ قال [من الطويل]:

أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرُكَ بِضَرَّةٍ (١)

(١) دمشق خذيتها واسلمي أن ليلة تمر بعمودي نعشها ليلة القدر بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

لأعرابي تزوج امرأة فلم توافقه، فقبل له: إن حمى دمشق سريعة في موت النساء. فحملها إليها وقال لها ذلك، ونزل دمشق - وهي مدينة بالشام - منزلة العاقل فناداها. والظاهر أن هذا التنزيل من باب الاستعارة المكنية والنداء تخييل، وكذلك الأمر بالعلم، والمرور: المشي، فإسناده لليلة مجاز عقلي من الإسناد للزمان، وهو في الحقيقة لحملة النعش، أو بمعنى المضي فهو حقيقة والباء للملاسة، وهو كناية عن موتها. والعودان: طرفا النعش. وجعل تلك الليلة كليلة القدر عنده لشدة ترقبها وتمنيها والتشوق إليها، ثم التفت إلى خطابها ودعا على نفسه بقوله: أكلت دماً، أي دية، لأنها بدل الدم وأخذها عار عند العرب، لدالاتها على الجبن وحب المال دون الشار. وإن لم أرعك: من راعه يروعه إذا أخافه. والمراد أنه يغيظها بتزوج ضرة عليها جميلة طويلة العنق. فبعد مهوى القرط: كناية عن ذلك. والقرط: حلي الأذن. ومهواه: مسقطه من المنكب، والنشر: الرائحة الطيبة. ويحتمل أنه دعا على نفسه بالجذب حتى يحتاج لفصد النوق وأكل دمه، وكذلك كانت تفعل الجاهلية في الجذب. ويحتمل أن المراد: شربت دماً، فهو تعليق على الممتنع عنده دلالة على تحقيق التزوج، لأنه يرجع إلى أن عدم التزوج ممتنع كما أن شرب الدم ممتنع. ونظيره ما أنشد أبو يباس [من الطويل]:

أما لك عمر إنما أنت حية
 ثلاثين حولاً لا أرى منك راحة
 دمشق خذيتها لا تفتك قليلة
 فإن أنفلت من عمر صعبة سالماً
 إذا هي لم تقتل تعش آخر العمر
 لهنك في الدنيا لباقية العمر
 تمر بعمودي نعشها ليلة القدر
 تكن من نساء الناس لي بيضة العفر

ولعل «العمر» في القافية الأولى بمعنى الدهر. ولهنك هاؤه بدل من همزة إن عند البصريين، وعند =

وقال ^(١) [من الرجز]:

يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافًا ^(٢)

أراد ثمن الإكاف، فسماه إكافاً لتلبسه بكونه ثمناً له، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾: تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكرمة الله إياهم بكلامه وتركيتهم بالثناء عليهم، وقيل: نفي الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه، وقيل: لا يكلمهم بما يحبون، ولكن بنحو قوله: ﴿اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن؟! تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب، وقيل: فما أصبرهم، فأى شيء صبرهم، يقال: أصبره على كذا وصبره بمعنى، وهذا أصل معنى فعل التعجب، والذي روي عن الكسائي أنه قال: قال لي قاضي اليمن بمكة، اختصم إلي رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له: ما أصبرك على الله، فمعناه: ما أصبرك على عذاب الله، ﴿ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ تَرَلَّ﴾: أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتب بالحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾: في كتب الله، فقالوا في بعضها: حق وفي بعضها: باطل، وهم أهل الكتاب، ﴿لِي شِقَاقٍ﴾: لفي خلاف، ﴿بَيِّنَةٍ﴾: عن الحق، والكتاب للجنس، أو كفرهم ذلك؛ بسبب أن الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين - فقال بعضهم: سحر، وبعضهم: شعر، وبعضهم: أساطير - لفي شقاق بعيد، يعني: أن أولئك لو لم يختلفوا ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا.

﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ

= غيرهم أصله: الله إنك. وبيضة العقر: زعموا أنها بيضة الديك لا يبيض في عمره غيرها. وقيل: هي مثل لما لا وجود له أصلاً. فالمعنى: أنه يتزوج جميلة لا يتزوج غيرها، أو أنه لا يتزوج أصلاً. وصعبة هي امرأته.

البيت لعروة الرحال. ينظر: الحماسة ٢/٤٦٣ والدر المصون ١/٤٤٤.

(١) إن لنا أحمرة عجافاً يأكلن كل ليلة إكافاً
الأحمرة: الحمير. والعجاف: المهزول. والأكاف: البرذعة، فالمراد: يأكلن كل ليلة علفاً تشتري بثمر إكاف، بأن يباع الإكاف ثم يشتري بثمرها علفاً لها، فأوقع الأكل على الإكاف بواسطتين، ولعل بيع براذعها لضعفها عن العمل. ويمكن أنه مجرد تقديم، وإنما خص الإكاف لاختصاصه بالحمير.

(٢) قوله «كل ليلة إكافاً» هو ما يوضع على ظهر الحمار عند ركوبه أو تحميله، أفاده الصحاح. (ع)

ينظر: البحر المحيط ١/٦٦٧ والدر المصون ١/٤٤٤.



فَإِنَّمَا هِيَ إِفْبَالٌ وَإِذْبَارٌ^(٢)

(٢) فما عجول على بو تطيف به
لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت
يوماً بأوجد مني حين فارقتي
لها حنينان: إصغار وإكبار
فإنما هي إقبال وإدبار
صخر وللدهر إحلاء وإمرار

362

وعن الميرز: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: «ولكن البر»، بفتح الباء، وقرىء: «ولكن البار»، وقرأ ابن عامر ونافع: «ولكن البر» بالتخفيف، ﴿وَالْكِتَابِ﴾: جنس كتب الله، أو القرآن، ﴿عَلَى حَبِيبٍ﴾: مع حب المال والشع به، كما قال ابن مسعود: «أَنْ تُؤَيِّتَهُ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْحٍ، تَأْمُلُ الْعَيْشَ وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلُومَ: قُلْتَ: لِفُلَانٍ: كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا (٩٣)، وقيل: على حب الله، وقيل: على حب الإيتاء،

٩٣ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٥/٩) رقم (١٦٣٢٤) ومن طريقه أخرجه الطبراني في الكبير (٩٣/٩) رقم (٨٥٠٣)، وعزاه الزيلعي (١٠٠/١ - ١٠١) في تخريج أحاديث الكشاف للحاكم، وأبي نعيم، والبيهقي في الشعب. كلهم روه موقوفاً، دون قوله: ولا تمهل حتى... إلخ.

وهي في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رجل للنبي - ﷺ -: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح حريص تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان».

أخرجه البخاري (٢٥/٦) كتاب الوصايا، باب الصدقة عند الموت حديث (٢٧٤٨)، ورواه في كتاب الزكاة (٣٣/٤)، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح حديث (١٤١٩).

ومسلم (١٣٣/٤) - نووي) كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح حديث (١٠٣٢).

وأبو داود (١٢٦/٢) كتاب الوصايا، باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية حديث (٢٨٦٥). والنسائي (٦٨/٥ - ٦٩) كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل، و(٢٣٧/٦). كتاب الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية، وابن ماجه (٩٠٣/٢) كتاب الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت حديث (٢٧٠٦) مطولاً، وأحمد (٢٥/٢)، ٢٣١، ٤١٥، ٤٤٧، وابن حبان في صحيحه (١٠٥/٨) رقم (٣٣١٢)، وابن خزيمة (١٠٣/٤) رقم (٢٤٥٤)، والبيهقي (١٨٩/٤) -

الدهر مما ذكر من الحنين ورجوعه للبو، تأباه جزالة المعنى. ويمكن عوده على الطيف المعلوم من تطيف. ويروي بدل هذا الشطر • ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت • وأصله إذ تكرت أي تذكرت. ويروي • ترتع ما غفلت حتى إذا ذكرت • أي ترعى مدة غفلتها عنه، فإذا تذكرته فإنما هي ذات إقبال وذات إقبال، أو مقبلة ومذبذبة، أو هي نفس الإقبال والإدبار مبالغة. أي تلتفت تارة أمامها وتارة خلفها وتلتفي عن الرعي. وقيل المراد إقبال النهار وإدبار الليل وعكسه. ويمكن أن وجهه استقلال المدة، أي فإنما مدة الدهر إقبال وإدبار دائرين بين الليل والنهار، فالضيمر عائد على معلوم من السياق، لكن لا يظهر على الرواية الثانية. ويوما: نصب بأوجد وجاز تقدمه على أفعل التفضيل، لأنه ظرف، وكذلك تنبيهاً على أن المراد باليوم مطلق الزمن غالباً. وبأوجد: خبر عجول. ويروي «بأوجع» أي ليست أشد حزناً مني حين فارقتني أخي، وحين نصب بأوجد أيضاً. ووجهه أنه في معنى عاملين، أي ليس وجدها يوماً أشد من وجدي حين الفراق، فالأول للآول، والثاني للثاني، ثم تسلت بقولها: وللدهر إحلاه وإمرار. ويقال: أحلى الشيء وأمر، صار حلواً وصار مرأ. ويجوز أنهما متعديان. والمراد: أن الدهر ينعم العيش تارة ويبشسه أخرى. فالإحلاه والإمرار استعارتان لذلك.

يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه، وقدم ذوي القربى، لأنهم أحق، قال - عليه الصلاة والسلام - : «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذي رحمك اثنتان لأنها صدقة وصلة» (٩٤) وقال - عليه الصلاة والسلام - «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»^(١)،

= (١٩٠) كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الصحيح الشحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف:
أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن زبيد عن مرة عنه. قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾، قال: «أن يؤتیه» فذكره... إلى قوله: «ويخشى الفقر» ولم يذكر ما بعده، ومن طريقه أخرجه الطبراني والحاكم، وذكره أبو نعيم في الحلية في ترجمة مسعر، فأخرجه من طريقه عن زبيد به، وهكذا رواه مسعر والناس عن زبيد موقوفاً رواه مغلل بن يزيد عن الثوري مرفوعاً، وتفرّد برفعه ثم ساقه، وأخرجه البيهقي من رواية شعبة عن زبيد موقوفاً، ومن طريق سلام بن سليم المدائني عن محمد بن طلحة عن زبيد مرفوعاً: وسلام ضعيف رواه الطبري من ثلاثة طرق عن زيد موقوفاً. ولم يذكر أحد منهم ولا تمهل، وإنما هو في حديث أبي هريرة. اتفق الشيوخان عليه بلفظ: «قال رجل للنبي - ﷺ -: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان، كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان». انتهى.

٩٤ - أخرجه الترمذي (٣٨/٣) كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرباة حديث (٦٥٨)، والنسائي (٩٢/٥) كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، وابن ماجه (٥٩١/١)، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة حديث (١٨٤٤)، وأحمد في المسند (١٧/٤)، وابن حبان في صحيحه (١٣٣/٨) رقم (٣٣٤٤)، وابن خزيمة في صحيحه (٧٧/٤) رقم (٢٣٨٥)، والدارمي (٣٩٧/١) كتاب الزكاة، باب الصدقة على القرباة، والحميدي (٣٦٣/٢) رقم (٨٢٣)، والطبراني في الكبير (٢٧٥/٦) أرقام (٦٢٠٤ - ٦٢١٢)، والحاكم في المستدرک (٤٠٦/١ - ٤٠٧). وللطبراني في الكبير (٢٤٤/٨) رقم (٧٨٣٤) عن أبي أمامة أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الصدقة على ذي قربة يضعف أجرها مرتين».

قال الهيثمي في المجمع (١٢٠/٣):

«رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الله بن زحر وهو ضعيف» ا.هـ.
وله أيضاً في الكبير (١٠١/٥) رقم (٤٧٢٣)، من حديث أبي طلحة، أن رسول الله - ﷺ - قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة».

قال الهيثمي في المجمع (١١٩/٣):

«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه من لم أعرفه» ا.هـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وابن أبي شيبه، والدارمي، كلهم من حديث سلمان بن عامر بلفظ: «الصدقة على المسكين حسنة» الترمذي. وفي الباب عن ابن طلحة، وأبي أمامة. أخرجه الطبراني. انتهى.

(١) قوله «ذي الرحم الكاشح» في الصحاح: تقول طوى فلان عن كشمه، إذا قطعك. والكاشح الذي يضر لك العداوة. (ع)

(٩٥) وأطلق، ﴿ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ والمراد: الفقراء منهم لعدم الإلباس، والمسكين:

٩٥ - ورد ذلك من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأبي أيوب، وحكيم بن حزام وأبي هريرة. فأما حديث أم كلثوم: فرواه الحميدي (١٥٧/١) (٣٢٨)، وابن خزيمة (٢٣٨٦)، والحاكم (١/٤٠٦)، والبيهقي (٧٠/٧)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٤٨) من طريق الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عنها مرفوعاً أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وكذا رواه الطبراني في الكبير (٨٠/٢٥) (٢٠٤).

وقال ابن طاهر كما في نصب الراية (٤٠٦/٤) سنده صحيح.

وقال المنذري في الترغيب (٦٨٣/١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩/٣): رجاله رجال الصحيح.

وأما حديث أبي أيوب: فرواه أحمد (٤١٦/٥)، والطبراني في الكبير (١٣٨/٤)، (١٣٩)، (٣٩٢٣)، وابن أبي شيبه وإسحاق بن راهويه، وأبو يعلى الموصلي في «مسانيدهم» عن أبي معاوية، ثنا الحجاج عن الزهري عن حكيم بن بشير عنه مرفوعاً: «إن أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

وقال الدارقطني في العلل، كما في نصب الراية (٤٦/٤). لم يروه عن الزهري غير الحجاج بن أرطاة، ولا يثبت.

وقال الهيثمي في المجمع (١١٩/٣): فيه الحجاج بن أرطاة، وفيه كلام.

وأما حديث حكيم بن حزام: فرواه أحمد (٤٠٢/٣) عن سعيد بن سليمان ثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الزهري عن أيوب بن بشير عنه أن رجلاً سأل النبي - ﷺ -: أي الصدقة أفضل قال: على ذي الرحم الكاشح.

وأخرجه أحمد (٤١٦/٥)، والطبراني في الكبير (٢٢٦/٣) (٣١٢٦) عن حجاج بن أرطاة عن الزهري به.

وقال المنذري (٦٨٢/١): رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن؛ وكذا قال الهيثمي.

وأما حديث أبي هريرة: فرواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» (٩١٤) عن إبراهيم بن يزيد المكي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عنه عن النبي - ﷺ -: أنه سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

وقال أبو عبيد: وحدثننا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب عن النبي - ﷺ -: مثل ذلك، ولم يسنده عقيل. ١. هـ.

وطرق الحديث معلولة إلا طريق أم كلثوم فهي صحيحة؛ وعلى ذلك فالحديث صحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشف: أخرجه عبد الرزاق، والحاكم، والبيهقي، والطبراني، من رواية ابن عينة عن الزهري. عن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أم كلثوم بنت عقبة. ورواه أبو عبيد في كتاب الأموال من رواية إبراهيم بن يزيد المكي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. وأخرجه من طريق عقيل عن الزهري مرسلاً. لم يذكر أباه هريرة، ورواه أحمد من رواية سفيان بن حسين عن الزهري عن أيوب بن بشير عن حكيم بن حزام، ورواه أيضاً هو وإسحاق والطبراني من طريق الحجاج بن أرطاة عنه عن حكيم بن بشير عن أبي أيوب. فهذه الطرق كلها تدور على «الزهري» مع اختلاف عليه، وأحفظهم سفيان بن عنبسة، وعقيل أحفظ منه. وروايته أشبه بالصواب. انتهى.

الدائم السكون إلى الناس، لأنه لا شيء له، كالمسكير: للدائم السكر، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له، كما يقال للص القاطع: ابن الطريق، وقيل: هو الضيف، لأن السبيل يعرف به^(١) ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾: المستطعمين، قال رسول الله - ﷺ -: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه». (٩٦) ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم، وقيل: في ابتياع الرقاب وإعتاقها، وقيل في فك الأسارى.

٩٦ - روى من حديث علي بن أبي طالب، الحسين ابن علي، أبي هريرة، وفاطمة الزهراء، والهرماس ابن زياد.

- أما حديث علي:

فأخرجه أبو داود (٥٢٣/١) كتاب الزكاة، باب حق السائل حديث (١٦٦٦)، من طريق فاطمة بنت حسين عن أبيها عن علي عن النبي - ﷺ - قال: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

- وأما حديث الحسين:

فرواه أبو داود (٥٢٣ - ٥٢٢/١) كتاب الزكاة، باب حق السائل حديث (١٦٦٥)، وأحمد في المسند (٢٠١/١)، وأبو يعلى (١٥٤/١٢) رقم (٦٧٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٩/٨)، والطبراني في الكبير (١٤١/٣) رقم (٢٨٩٣)، والقضاعي في مسند الشهاب رقم (٢٨٥).

- وأما حديث فاطمة الزهراء:

عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٠٥/١) لابن راهويه في مسنده مرفوعاً بلفظ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس»^{١.هـ}.

- أما حديث أبي هريرة:

فرواه ابن عدي في الكامل (١٥٠٣/٤ - ١٥٠٤)، من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

ورواه في (١٦٨٧/٥) من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن أبي هريرة مرفوعاً.

- أما حديث الهرماس بن زياد:

فرواه الطبراني في الكبير (٢٠٣/٢٢ - ٢٠٤) رقم (٥٣٥)، قال الهيثمي في المجمع (١٠٤/٣):

«رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف»^{١.هـ}.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود من رواية فاطمة بنت الحسين بن علي عن أبيها عن علي - رضوان الله عليه - ومن رواية الحسين بن علي، من غير ذكر أبيه. في إسنادهما يحيى بن أبي يعلى، وقيل: يعلى بن أبي يحيى: وهو مجهول. وقد رواه إسحاق بن راهويه من طريقه، فجعله من رواية فاطمة بنت الحسين عن فاطمة، ورواه الطبراني من حديث الهرماس بن زياد. وفيه عثمان بن فايد. وهو ضعيف: وقال مالك في الموطأ: أخبرنا زيد بن أسلم، أكان رسول الله - ﷺ - فذكره ووصله ابن عدي من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة. وعبد الله ضعيف. ورواه أيضاً من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن أبي هريرة. وعمر ضعيف. انتهى.

(١) قوله «لأن السبيل يعرف به» أي يتقدم به ويبرزه للمقيمين، كما يعرف الأنف بدم الرعاف. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت: قد ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه ثم قفاه بإيتاء الزكاة، فهل دل ذلك على أن في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلت: يحتمل ذلك، وعن الشعبي: أن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية، ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبارز، وفي الحديث: «نسخت الزكاة كل صدقة» (٩٧) يعني: وجوبها، وروى: «ليس في المال حق سوى الزكاة» (٩٨) ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾: عطف على من آمن، وأخرج، ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: منصوباً على الاختصاص والمدح؛ وإظهاراً لفضل الصبر/١٦٦ في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال، وقرئ: والصابرون، وقرئ: والموفين، والصابرين، و﴿الْبَاسَاءِ﴾: الفقر والشدّة، ﴿وَالْفَرَكَ﴾: المرض والزمانة، ﴿مَدَقَاتٍ﴾: كانوا صادقين جادين في الدين.

﴿يَتَذَكَّرُ الْبَلَاءُ مَا تَنَبَّأَ عَلَيْكُمْ أَلَقِصَّاسُ فِي الْقَتْلِ الْخُرُ بِالْخُرِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَنِ لَمْ مِنْ أَخِيهِ سَيَّ قَائِلًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءَهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْوِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ

٩٧ - أخرجه البيهقي (٢٦٢/٩) كتاب الضحايا، والدارقطني (٢٨١/٤)، من حديث علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن، ونسخ غسل الجنابة كل غسل، ونسخ صوم رمضان كل صوم، ونسخ الأضحية كل ذبيح. قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الدارقطني، والبيهقي من حديث علي - رضي الله عنه - وإسناده ضعيف. وأخرجه عبد الرزاق من قول علي موقوفاً. انتهى.

٩٨ - قال النووي في «المجموع» (٣٠٤/٥): وأما حديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة» فضعيف جداً لا يعرف.

قال البيهقي في السنن الكبيرة: والذي يرويه أصحابنا في التعليق «ليس في المال حق سوى الزكاة» لا أحفظ فيه إسناداً. ١. هـ.

لكن ورد هذا الحديث بغير هذا اللفظ وهو: «إن في المال حقاً سوى الزكاة».

أخرجه الترمذي (٤٨/٣) كتاب الزكاة: باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة حديث (٦٥٩) وابن ماجه (٥٧٠/١) كتاب الزكاة: باب ما أدى زكاته ليس بكنز حديث (١٧٨٩) من طريق أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس به.

وقال الترمذي: هذا حديث إسناده ليس بالقوي وأبو حمزة ميمون الأعور ضعيف وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث قوله «إن في هذا المال حقاً سوى الزكاة» وهذا أصح.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن ماجه من رواية أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس بهذا وترجم عليه - باب ما أدى زكاته فليس بكنز - وقال البيهقي: والذي يرويه أصحابنا في التعليق: «ليس في المال حق سوى الزكاة»، لا أحفظ له إسناداً، وقد رواه الترمذي وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه بلفظ: «إن في المال حقاً سوى الزكاة» قال الترمذي: ليس إسناده بذلك. وقد رواه بيان، وإسماعيل عن الشعبي قال. وهو أصح. انتهى.

أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَنْ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَذَكَّرُ الْأَنْبِيَاءُ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

عن عمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وعطاء، وعكرمة، وهو مذهب مالك والشافعي^(١) رحمه الله عليهم -: أن الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى أخذاً بهذه الآية ويقولون: هي مفسرة لما أبهم في قوله: ﴿الْأَنْفُسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولأن تلك واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها، وعن سعيد بن المسيب، والشعبي، والنخعي، وقتادة، والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه: أنها منسوخة بقوله: ﴿الْأَنْفُسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] والقصاص ثابت بين العبد والحر، والذكر والأنثى، ويستدلون بقوله - ﷺ -: «المسلمون تنكأ ماؤهم» (٩٩) وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس، بدليل أن جماعة لو قتلوا واحداً

٩٩ - أخرجه الطيالسي (٣٧/٢) - منحة) وأحمد (٢١١/٢) وأبو داود (١٨٣/٣) كتاب الجهاد: باب في السرية ترد على أهل العسكر حديث (٢٧٥١) وابن ماجة (٨٩٥/٢) كتاب الديات: باب المسلمون تنكأ ماؤهم حديث (٢٦٨٥) وابن الجارود في المنتقى (٧٧١) والبيهقي (٢٩/٨) كتاب الجنابات: باب فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين وابن أبي شيبة (٤٣٢/٩) والبيهقي (٢٩/٨) في «شرح السنة» (٣٨٨/٥) بتحقيقنا والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٠) من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبي عن جده قال: قال رسول الله - ﷺ -: «المسلمون تنكأ ماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وللحديث شاهد من حديث علي.

أخرجه أحمد (١٢٢/١) وأبو داود (٦٦٧/٤) كتاب الديات باب أيقاد المسلم بالكافر حديث (٤٥٣٠) والنسائي (١٩/٨) كتاب القسامة: باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس وأبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» (ص - ١٧٩) رقم (٤٩٥) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/١٩٢) وفي «مشكل الآثار» (٩٠/٢) والدارقطني (٩٨/٣) كتاب الحدود والديات (٦١) والحاكم (١٤١/٢) والبيهقي (٢٩/٨) والبيهقي (٢٩/٨) في «شرح السنة» (٣٨٨/٥) بتحقيقنا من طريق الحسن عن قيس بن عباد قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علي فقلنا: هل عهد إليك رسول الله - ﷺ - شيئاً لم يعهده للناس عامة قال: لا إلا ما كان في كتابي هذا فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه المؤمنون تنكأ ماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده ومن أحدث حدثاً فعلى نفسه ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(١) قال محمود رحمه الله: «مذهب مالك والشافعي رضي الله عنهما أن الحر لا يقتل بالعبد والذكر لا يقتل بالأنثى... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وهذا من الزمخشري وهم على الإمامين، فإنهما يقتضيان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما. وأما الحر والعبد عندهما فهو الذي وهم الزمخشري عنهما.

قتلوا به، وروي: «أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما

= وفي الباب عن ابن عباس ومقل بن يسار وعائشة وعطاء بن أبي رباح مرسلًا.

- حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجة (٢/٨٩٥) كتاب الديات: باب المسلمون تنكافأ دماؤهم حديث (٢٦٨٣) من طريق حنشل عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال: المسلمون تنكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم ويؤد على أقصاهم. وذكره الحافظ البوصيري في الزوائد (٢/٣٥٣) وقال: هذا إسناد ضعيف لضعف حنشل واسمه حسين بن قيس.

- حديث مقل بن يسار:

أخرجه ابن ماجة (٢/٨٩٥) كتاب الديات: باب المسلمون تنكافأ دماؤهم حديث (٢٦٨٤) وابن عدي في «الكامل» (٥/٣٣٢) من طريق عبد السلام بن أبي الجنوب عن الحسن عن مقل بن يسار قال: قال رسول الله - ﷺ -: «المسلمون يد على من سواهم وتنكافأ دماؤهم». واللفظ لابن ماجة.

أما لفظ ابن عدي: لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده والمسلمون يد على من سواهم تنكافأ دماؤهم.

وقال ابن عدي: وعبد السلام بن أبي الجنوب بعض ما يرويه لا يتابع عليه منكر.

وذكره الحافظ البوصيري في «الزوائد» (٢/٣٥٣ - ٣٥٤) وقال هذا إسناد ضعيف عبد السلام ضعفه ابن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة والبخاري وابن حبان.

- حديث عائشة:

أخرجه الدارقطني (٣/١٣١) كتاب الحدود والديات حديث (١٥٥) من طريق مالك بن محمد بن عبد الرحمن عن عمرة عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله - ﷺ - كتابان: إن أشد الناس عتوا في الأرض رجل ضرب غير ضاربه أو رجل قتل غير قاتله ورجل تولى غير أهل نعمته فمن فعل ذلك فقد كفر بالله وبرسوله ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً وفي الآخر: المؤمنون تنكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين. وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/٣٩٥) ومالك هذا هو ابن أبي الرجال أخو حارثة ومحمد قال أبو حاتم: هو أحسن حالاً من أخويه أ. هـ.

- مرسل عطاء:

أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص - ٢٩٠) رقم (٨٠٣) ثنا ابن أبي زائدة عن مقل بن عبد الله الجزري عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله - ﷺ -: المسلمون أخوة تنكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم ومشدهم على مضغفهم ومتسريهم على قاعدتهم. قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود، والنسائي، والحاكم من طريق قيس بن عباد عن علي في قصة. ورواه ابن داود وابن ماجة من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وزاد: «ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»، وفي الباب عن عائشة: رواه البخاري في تاريخه، والدارقطني، وعن ابن عباس، ومقل بن يسار في ابن ماجة، وعن جابر في المعجم الأوسط للطبراني. انتهى.

طَوَّلَ على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحرَّ منكم بالعبد منا، والذكر بالأنثى، والائنين بالواحد، فتحاكموا إلى رسول الله - ﷺ - حين جاء الله بالإسلام، فنزلت، وأمرهم أن يتباؤوا (١٠٠) ﴿فَمَنْ عَفَى لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: معناه: فمن عفى له من جهة أخيه (١)، شيء من العفو، على أنه كقولك: سير يزيد بعض السير، وطائفة من السير، ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به، لأنَّ (عفا): لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة، وأخوه: هو ولي المقتول، وقيل له أخوه، لأنه لابسه، من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به، كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أدنى ملاسة أو ذكره بلفظ الأخوة، ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام، فإن قلت: إن عفى يتعدى بعن لا باللام، فما وجه قوله: ﴿فَمَنْ عَفَى لَكُمْ﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣] وقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة: ١٠١] فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً، قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه، وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفى له عند جنائته، فاستغنى عن ذكر الجناية، فإن قلت: هلا فسرت عفى

١٠٠ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» غريب جداً وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «معنى الآية: فمن عفى له من جهة أخيه... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ويقوي هذا التأويل القول بأن موجب العمد أحد الأمرين من القصاص أو الدية. والخيار إلى الولي. وهو أحد القولين في مذهب مالك رضي الله عنه ومشهورهما. إذ لو جعلنا موجب العمد القود على القول الآخر، لكان في ذلك تضيق على الولي. والآية مشعرة بالتخفيف والسعة وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو عود الضميرين جميعاً إلى الولي، وقالوا على هذا الوجه يكون العفو إعطاء البذل، كأنه قال: فمن أعطى شيئاً من أخيه أي بدلاً من أخيه. ويكون «من» مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ بِسَلَامٍ﴾. ونظيره في استعمال العفو في العطاء عندي قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَمُوتُوا أَوْ يَمُوتُوا أَوْ يَمُوتُوا بِكَوْنِهِمْ عَقْدَةً أَلَا كَيْفَ﴾ إذا حمل الذي بيده العقدة على الزوج. وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه. ويقول أصحابه: عفو على أحد وجهين: إما من استرجاع النصف الواجب إن كان قد سلم جميع المهر، وإما على دفع النصف الآخر الذي سقط عنه إن كان لم يسلمه، فيكون العفو على هذا مستعملاً في الإعطاء. ويقوي هذا الوجه فيه أنه لا قصاص قوله ﴿فَالْيَاغُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ لأن المخاطب بالاتباع بالمعروف إنما هو الولي، فإذا جعلنا الضميرين له اتساق الكلام سياقة واحدة إلى جهة واحدة، وصار المعنى: فمن أعطى من الأولياء بدلاً من أخيه، فليتبع بالمعروف في طلب ما أعطى. ولما خالفه الولي عن التقاضي خاطب القاتل بحسن الأداء، فليتظم الكلام موجهاً إلى وجهة واحدة. وأما على الوجه الذي قرره الزمخشري، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل وتقدير الكلام: فمن عفى له من القاتلين عن جنائته شيء من العفو فليتبع الولي هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف، فيكون المخاطب أول الآية القاتل، وآخرها الولي، بخلاف الوجه الذي قرره والله أعلم. وكلا الوجهين حسن جيد.

بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس بثبت، ولكن أعفاه، ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام -: «وَأَعْفُوا لِلْحَيِّ» (١٠١) فإن قلت، فقد ثبت قولهم: عفا أثره إذا محاه وأزاله، فهلا جعلت معناه: فمن محي له من أخيه شيء؟ قلت: عبارة قلقلة في مكانها، والعفو في باب الجنائيات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس، فلا يعدل عنها/٦٦ ب إلى أخرى قلقلة نائية عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترىء - إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله - على اختراع لغة وإدعاء على العرب ما لا تعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها^(١). فإن قلت؟: لم قيل: شيء من العفو؟ قلت: للإشعار بأنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب إلا الدية، «فَأَيُّهَا بِالْمَعْرُوفِ»: فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع؛ وهذه توصية للمعفو عنه والعافي جميعاً، يعني: فليتبع الولي القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة، وليؤذ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان، بأن لا يطمله ولا

١٠١ - أخرجه مالك (٩٤٧/٢) كتاب الشعر: باب السنة في الشعر حديث (١) والبخاري (٣٥١/١٠) كتاب اللباس باب إعفاء اللحي حديث (٥٨٩٣) ومسلم (٢٢٢/١) كتاب الطهارة: باب خصال الفطرة حديث (٥٢، ٢٥٩/٥٣) وأبو داود (٤٨٣/٢) كتاب الترجل: باب في أخذ الشارب حديث (٤١٩٨) والترمذي (٩٥/٥) كتاب الأدب: باب ما جاء في إعفاء اللحية حديث (٢٧٦٣، ٢٧٦٤) والنسائي (١٦/١) كتاب الطهارة باب إعفاء الشارب وإعفاء اللحي حديث (١٥) وفي (٨/١٨١ - ١٨٢) كتاب الزينة: باب إعفاء الشوارب وإعفاء اللحية حديث (٥٢٢٦) وأبو عوانة (١٨٩/١) وابن أبي شيبه (٣٧٦/٨) وابن المنذر في «الأوسط» (٢٣٩/١) والطحاي في «شرح معاني الآثار» (٤/٢٣٠) والبيهقي (١٥١/١) كتاب الطهارة، وفي «الأدب» رقم (٨٣٠) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٤٧/٦) وفي «الجامع لأخلاق الراوي» (٣٧٥/١) رقم (٨٦٣) والبعوي في «شرح السنة» (٦/٢١٩ - بتحقيقنا) من طرق عن نافع عن ابن عمر به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إِذَا ثَبَّتَ أَنَّ «عَفَا» بِمَعْنَى مَحَافَلًا يَنْبَغُ حُجْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ إِسْنَادُ «عَفَا» لِمَرْفُوعِهِ إِسْنَادًا حَقِيقِيًّا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَفْعُولٌ بِهِ صَرِيحٌ، وَإِذَا كَانَ لَا يَتَعَدَّى كَانَ إِسْنَادُهُ لِمَرْفُوعِهِ مَجَازًا؛ لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ مُشَبَّهٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ، فَقَدْ يَتَعَادَلُ الْوُجْهَانِ: أَعْنَى كَوْنُ عَفَا الْإِزَالَةَ لِمَرْفُوعِهِ فِي الْجَنَائِيَّاتِ وَ «عَفَا» الْمُتَعَدِّي بِمَعْنَى «مَحَا» لِتَعْلُوقِهِ بِمَرْفُوعِهِ تَعْلُوقًا حَقِيقِيًّا» فَإِنْ قِيلَ: تَضَمَّنَ «عَفَا» مَعْنَى «تَرَكَ» فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّضَمِينَ لَا يَنْقَاسُ، وَقَدْ أَجَازَ ابْنُ عَطِيَّةٍ أَنَّ يَكُونُ عَفَا بِمَعْنَى تَرَكَ. وَقِيلَ: إِنَّ «عَفَى» بِمَعْنَى فُضِّلَ، وَالْمَعْنَى: قُتِمَ فُضِّلَ لَهُ مِنَ الطَّافَتَيْنِ عَلَى الْآخَرَى شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الذِّيَّاتِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ. انتهى. الدر المصون.

يبخسه، ﴿ذَلِكَ﴾: الحكم المذكور من العفو والدية، ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّيْكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الإنجيل العفو وحرّم القصاص والدية، وخيرت هذه الأمة بين الثلاث: القصاص، والدية، والعفو، توسعة عليهم وتيسيراً، ﴿فَمَن آتَنَكَ بِذَلِكَ﴾: التخفيف، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل^(١)، أو القتل بعد أخذ الدية، فقد كان الولي في الجاهلية يؤمن القاتل بقبوله الدية، ثم يظفر به فيقتله، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة، وعن قتادة: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «لَا أَعَافِي أَحَدًا قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِهِ الدِّيَةَ» (١٠٢) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾: كلام فصيح^(٢) لما

١٠٢ - أخرجه أبو داود (١٧٣/٤) كتاب الديات، باب من قتل بعد أخذ الدية حديث (٤٥٠٧) من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ - «لَا أَعُفِي من قتل بعد أخذه الدية». وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥/١٠) رقم (١٨٢٠٠)، وابن جرير في تفسيره (٣٧٦/٣) رقم (٢٦٠٣) عن قتادة مرسلًا قال: وذكر لنا أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذه الدية.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧٣/١)، وعزاه لابن المنذر أيضاً.
ونسبه السيوطي في الدر (١٧٣/١) لسمويه في فوائده من حديث سمرة.

- (١) قوله «من قتل غير القاتل» بيان للتجاوز والاعتداء. (ع)
(٢) في قوله - تعالى - ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأْوَلِي الْآلَتِمْ لَمَلَّكُمْ تَكْفُونَ﴾ إعجاز أسلوب في منتهى البلاغة، وكلام المفسر العلامة فيه طيب دقيق وقد شاع بين البلاغيين موازنة بين قول العرب: «القتل أنفى للقتل» وهذه الآية وفي القول الكريم إعجاز، وفي كلام العرب ما يدل على ضعف الإنسان، وقد بين أهل البلاغة الفروق بين العبارتين، وإن كان كلام الله في السماء وكلام البشر في الثرى وخلاصة ما بينه أهل البيان في النقاط التالية:

١ - تقديم الجار والمجرور «لكم» فيه خطاب للإنسان في إنسانيته العالية، ولهذا كان التقديم مفيداً للاختصاص وهذا مما يطابق قوله في الختام «يا أولى الألباب»، وبهذا تدرك حقيقة من حقائق الحياة، وهن أن هذا التشريع الإلهي العالي للإنسانية وحدها، وهذا بخلاف ما قيل «القتل أنفى للقتل» فإنه بدأ بما يثير في النفس الهمجية والوحشية التي لا تتفق مع الإنسان في حقيقته.

٢ - قال «في القصاص» ليدل على أنه جزء فعل لا بداية عدوان، وفيه أنه على قدر الاعتداء قلة وكثرة، وهذا المعنى لا يوجد في القول العربي.

٣ - «القصاص» بهذه الصيغة فيه دلالة على أن الذي يؤخذ منه من حقه الدفاع والمنازعة حتى يستقر الحكم ويستبين، ولهذا اختارها المولى على «الاختصاص» إذ هذا شريعة الفرد والقصاص شريعة المجتمع.

٤ - أن لفظة «قصاص» تفضل كلمة «قتل» من جهة أنه لا شبهة تحوم حولها فأما «القتل» فإنه إما جريمة واعتداء وإما جزء، أما كلمة «القصاص» فإنها جزء فقط، ولهذا كان اصطفاً كلمة «قصاص» منزهة عن العيب والشبهات، وهذا أدب أسلوبى إلهي.

فيه من الغرابة^(١)، وهو أنَّ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكَم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يُقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل؛ لوقوع العلم بالاعتصاف من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع منه سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين، وقرأ أبو الجوزاء: ولكم في القصص حياة أي فيما قص عليكم من حكم القتل، القصاص، وقيل القصص: القرآن، أي: «ولكم في القرآن حياة للقلوب»، كقوله تعالى: ﴿رُحِمَ عَنْ قَتْلِهِ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَيَجِيءُ مَن حَمَلَ عَنِ بَيْنَتِهِ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأمّة.

٥ - «القصاص» فيه شمول للقتل فما دونه بخلاف القتل فإنه يخص هذه الغريزة البشرية بأقبح معانيها، ولهذا كان تكرارها في المثل بمثابة العيب المكرر، وهذا ما لا تراه في «القصاص».

٦ - التعبير «بالقصاص» يجعل الإنسان أمام سمة طيبة لو التزم بها لكان مطيعاً لربه بخلاف «القتل» فإن صورة عدوانية بكل ما تحمله هذه الكلمة.

٧ - «القصاص» فيه شمول لأخذ الدية والعفو وغير ذلك من الأحكام بخلاف القتل فإنه لا شيء فيه سوى وحشية الدماء.

٨ - تعريف «القصاص» بالآلف واللام دليل على أنه مقيد بقيود شرعية لتكريم الإنسانية.

٩ - تنكير كلمة «حياة» لتنفيذ أنها حياة صالحة شاملة لكل ألوان الحياة، وبهذا تكون حياة عظيمة لأنها في ظل تشريع العظيم الذي يدير للإنسان ما يصلحه في كل زمان ومكان.

١٠ - نداه الإنسان بقوله «يا أولى الأبواب» يفيد أن القرآن لا يتنادى جميع البشر بما هم عليه من غفلات بل إنه يتنادى عليهم من باب العقل، ولهذا ختم بقوله «لعلكم تتقون» ليفيد أن استعمال اللب في الحياة من وراء شرع الله له جزاء المتقين في الأولى والآخرة. هذه بعض سمات الأسلوب الإلهي، ومن أعمن النظر وأدرك بالبصيرة يجد أسراراً وخمناً عجيباً في أساليب القرآن العظيم.

ينظر وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي ٣/ ٤٠٣ وما بعدها. ط. دار المعارف بمصر، الإيضاح للقرطبي ٣/ ٢٠١ وما بعدها، والمطول للسعد ٢٨٧.

(١) قال محمود رحمه الله: «كلام فصيح لما فيه من الغرابة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: قوله جعل أحد الضدين محلاً للآخر: كلام إما وهم فيه أو تسامح، لأن شرط تضاد الحياة والموت اجتماعهما في محل واحد تقديرًا، ولا تضاد بين حياة غير المقتص منه وموت المقتص، والبلاغة التي أوضحها في الآية بينة بدون هذا الإطلاق.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٧١) ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ عِلْمٌ ﴾ (١٧٢) ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ (١٧٣)

﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ : إذا دنا منه وظهرت أماراته، ﴿ خَيْرًا ﴾ مالا كثيرا، عن
عائشة - رضي الله عنها - : أَنَّ رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمئة/ ١٦٧ دينار، فقالت : ما
أرى فيه فضلاً، (١٠٣) وأراد آخر أن يوصي فسألته : كم مالك؟ فقال : ثلاثة آلاف، قالت :
كم عيالك؟ قال : أربعة، قالت : إنما قال الله : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وإن هذا الشيء يسير فاتركه
لعيالك، (١٠٤) وعن علي - رضي الله عنه - : أَنَّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة
فمنعه، وقال : قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ : والخير هو المال، وليس لك (١٠٥)

١٠٣ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٣/٩) رقم (١٦٣٥٤)، قال : أخبرنا الثوري عن منصور بن صفية
قال : حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير، أن عائشة سئلت عن رجل مات وله أربعمئة دينار، وله عدة
من الولد فقالت عائشة : ما في هذا فضل عن ولده. ١. هـ.

وروى رقم (١٦٣٥٥) عن ابن جريج قال : أخبرني منصور بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة مثل
حديث الثوري، إلا أنه قال : فلامته عائشة وقالت : إن ذلك لقليل أو نحو ذلك.
قال الحافظ في تخريج الكشاف :

أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن منصور بن صفية حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير : « أن عائشة
سئلت عن رجل مات وله أربعمئة دينار وله عدة من الولد، فقالت عائشة : ما في هذا فضل عن
ولده، وعن ابن جريج عن منصور بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة مثله. وزاد : « فلامته عائشة
وقالت : إن ذلك لقليل. قلت : منصور بن عبد الرحمن هو ابن صفية، فكانه سمعه من أمه، ومن
عبد الله كلاهما عن عائشة - رضي الله عنها - . انتهى.

١٠٤ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٢٩/٦) رقم (٣٠٩٤٦)، حدثنا معاوية عن محمد بن شريك
عن ابن أبي مليكة عن عائشة قال : قال لها رجل : إني أريد أن أوصي، قالت : كم مالك؟ قال :
ثلاثة آلاف قالت : فكم عيالك؟ قال : أربعة قالت : فإن الله يقول : « إن ترك خيراً وإنه شيء يسير؛
فدعه لعيالك فإنه أفضل ».

وأخرجه البيهقي في الكبرى أيضاً (٢٧٠/٦) كتاب الوصايا، باب : من استحب ترك الوصية إذا لم
يترك شيئاً كثيراً.

قال الحافظ في تخريج الكشاف :

أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن محمد بن شريك عن ابن أبي مليكة عن عائشة : « أن
رجلاً قال لها : إني أريد أن أوصي - فذكره. - انتهى.

١٠٥ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٢/٩) رقم (١٦٣٥١) عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه
قال : دخل عليّ على مولى لهم في الموت، فقال : يا عليّ، ألا أوصي؟ فقال علي : لا إنما قال
الله تبارك وتعالى : « إن ترك خيراً، وليس لك كثير مال. قال : وكان له سبعمائة درهم، ورواه ابن =

مال، والوصية فاعل كتب، وذكر فعلها للفواصل، ولأنها بمعنى أن يوصى، ولذلك ذكر
الراجع في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سَعَمَ﴾ والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت
بآية الموارث، ويقول - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ أَلَّا لَا
وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ» (١٠٦) وبتلقي الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر، وإن كان من الأحاد،

= أبي شيبة (٢٢٩/٦) رقم (٣٠٩٤٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٠/٦) كتاب الوصايا، باب:
من استحب ترك الوصية إذا لم يترك شيئاً كثيراً.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف:

أخرجه عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن هشام عن أبيه قال: «دخل علي - رضي الله عنه - على مولى
له في الموت، فقال: ألا أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وليس لك
كثير مال. قال: وكان له سبعمائة درهم»، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر عن هشام به.
انتهى.

١٠٦ - أخرجه أبو داود (٢٩٠/٣) كتاب الوصايا: باب الوصية للوارث حديث (٢٨٧٠) والترمذي (٤/
٤٣٣) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢١٢٠) وابن ماجه (٩٠٥/٢) كتاب الوصايا:
باب لا وصية لوارث حديث (٢٧١٣) وأحمد (٢٦٧/٥) والطيالسي (١١٧/٢) - منحة) رقم
(٢٤٠٧) وسعيد بن منصور (٤٢٧) والدولابي في «الكنى» (٦٤/١) وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان»
(٢٢٧/١) والبيهقي (٢٤٦/٦) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين، كلهم من إسماعيل بن
عياش عن شريح بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول في خطبته
عام حجة الوداع: إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٤٩) من طريق الوليد بن مسلم قال: ثنا ابن جابر ثنا
سليم بن عامر سمعت أبا أمامة فذكر الحديث.
وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم عمرو بن خارجة وأنس بن مالك وابن عباس وجابر وعلي
وعبد الله بن عمرو ومعتل بن يسار وزيد بن أرقم والبراء ومجاهد مرسلاً.
- حديث خارجة:

أخرجه الترمذي (٤٣٤/٤) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢١٢١) والنسائي (٦/
٢٤٧) كتاب الوصايا: باب إبطال الوصية للوارث وابن ماجه (٩٠٥/٢) كتاب الوصايا: باب لا
وصية لوارث وأحمد (١٨٦/٤، ١٨٧) والدارمي (٤١٩/٢) كتاب الوصايا: باب الوصية للوارث
والطيالسي (١٣١٧) وأبو يعلى (٧٨/٣) رقم (١٥٠٨) والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب الوصايا: باب
نسخ الوصية للوالدين، كلهم من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن
خارجة أن النبي - ﷺ - خطب على ناقته وأنا تحت جرائنها إن لعباها ليسيل بين كتفي فسمعته
يقول: إن الله عز وجل أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث.
قال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طريق آخر.

أخرجه الدارقطني (١٥٢/٤) كتاب الوصايا حديث (١٠) والبيهقي (٢٦٤/٦) كتاب الوصايا: باب
نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق زياد بن عبد الله عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن
عمرو بن خارجة مرفوعاً بلفظ: لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة.

=

وضعف البيهقي سنده.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠٢/٤) رقم (٤١٤٠) من طريق عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن خارجة بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - قال يوم الفتح وأنا عند ناقته: ليس لوارث وصية قد أعطى الله عز وجل: كل ذي حق حقه وللعاهر الحجر.

وقال البيهقي: رواه الطبراني وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي وثقه ابن معين وضعفه الناس.

١.هـ.

قلت ووثقه أيضاً يعقوب بن سفيان فقال في «المعرفة والتاريخ» (١/٤٣٥): مدني ثقة. لكن عبد الملك هذا ضعفه الجمهور.

قال البخاري في «الضعفاء» (٢٢٠): يعرف وينكر.

وقال أبو زرعة الرازي: منكر الحديث. سؤالات البرذعي (ص ٣٥٦).

وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث. علل الحديث (٢٤٣٥).

وقال النسائي: مدني ليس بالقوي. الضعفاء والمتروكين (٤٠٣).

وقال الدارقطني: مدني يترك. سؤالات البرقاني (٣٠١).

- حديث أنس:

أخرجه ابن ماجة (٩٠٦/٢) كتاب الوصايا: باب لا وصية لوارث حديث (٢٧١٤) والدارقطني (٤/

٧٠) كتاب الفرائض حديث (٨) والبيهقي (٦/٢٦٤ - ٢٦٥) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد عن أنس به.

قال البوصيري في «الزوائد» (٢/٣٦٨): هذا إسناده صحيح رجاله ثقات.

- حديث ابن عباس:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب الفرائض: حديث (٨٩) والبيهقي (٦/٢٦٣) كتاب الوصايا: باب

نسخ الوصية للوالدين والأقربين من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال البيهقي: (عطاء هو الخراساني لم يدرك ابن عباس ولم يره قاله أبو داود وغيره).

وأخرجه البيهقي (٦/٢٦٣ - ٢٦٤) من طريق يونس بن راشد عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس.

قال الحافظ في «التلخيص» (٣/٩٢): حديث حسن.

- حديث جابر:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب الفرائض: حديث (٩٠) من طريق فضل بن سهل ثنى إسحاق بن

إبراهيم الهروي ثنا سفيان عن عمر عن جابر به.

قال الدارقطني: الصواب مرسل.

قال أبو العلي بابي في «التعليق المغني» (٩٧/٤): إسحاق بن إبراهيم الهروي ثم البغدادي أبو

موسى وثقه ابن معين وغيره وقال عبد الله بن علي بن المديني: سمعت أبي يقول: أبو موسى الهروي روى عن سفيان عن عمرو عن جابر: لا وصية - الحديث كأنه سفيان عن عمرو مرسلًا كذا

في الميزان. ١.هـ.

وللحديث طريق آخر.

أخرجه الدارقطني (٤/١٥٢) كتاب الوصايا حديث (١٢) من طريق نوح بن دراج عن أبان بن تغلب

عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: لا وصية لوارث ولا إقرار

بدين.

لأنهم لا يتلقون بالقبول إلا الثبوت الذي صحت روايته، وقيل: لم تنسخ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين، وقيل: ما هي بمخالفة لآية الموارث، ومعناها:

= - حديث علي:

أخرجه الدارقطني (٩٧/٤) كتاب الفرائض حديث (٩١) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق الهمداني عن عاصم بن ضمرة عن علي قال: قال رسول الله - ﷺ -: الدين قبل الوصية ولا وصية لوارث.

ومن طريق يحيى أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٩٠/٧).

ويحيى بن أبي أنيسة:

قال أحمد: متروك الحديث.

وقال ابن المديني: لا يكتب حديثه.

وقال ابن معين: ليس بشيء.

وقال البخاري: لا يتابع في حديثه وليس بذلك.

وقال النسائي: متروك الحديث.

أسند ذلك ابن عدي في «الكامل» عنهم.

- حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه الدارقطني (٩٨/٤) كتاب الفرائض حديث (٩٣) وابن عدي في «الكامل» (٨١٧/٢) من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي - ﷺ - قال في خطبته يوم النحر: لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة.

- حديث معقل بن يسار:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢١١/٥) من طريق علي بن الحسن بن يعمر ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال معقل بن يسار: كنا بمنى وكان رسول الله - ﷺ - يخطب ولعاب ناقته بين كتفي ففهمت من كلامه. قال: لا وصية لوارث.

قال ابن عدي: هذا الحديث باطل بهذا الإسناد.

- حديث زيد بن أرقم والبراء:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٥٠/٦) من طريق موسى بن عثمان الحضرمي عن أبي إسحاق عن البراء وزيد بن أرقم قالوا: كنا مع النبي - ﷺ - يوم غدير خم ونحن نرفع غصن الشجرة عن رأسه فقال: إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهلي لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواله الولد للفراس وللعاقر الحجر ليس لوارث وصية.

قال ابن عدي: موسى بن عثمان: حديثه ليس بمحفوظ.

وقال أبو حاتم: متروك ينظر اللسان (١٢٥/٦) والميزان (٢١٤/٤).

- مرسل مجاهد:

أخرجه البيهقي (٢٦٤/٦) كتاب الوصايا: باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين، من طريق الشافعي عن ابن عينة عن سليمان الأحول عن مجاهد به.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود، والترمذي: وحسنه وابن ماجه. من حديث أبي أمامة والترمذي أيضاً وصححه، والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن خارجه، وابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد، أنه حدثه عن أنس بن مالك به. انتهى.

كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين^(١) من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] أو كتب على المحتضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم، وأن لا ينقص من أنصبتهم، ﴿يَا لَمَرُوفٍ﴾: بالعدل، وهو أن لا يوصي للغني ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث، ﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد، أي حق ذلك حقاً، ﴿فَمَنْ يَدَّلُ﴾: فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود، ﴿بَدَمًا سَمِعَ﴾: وتحققه، ﴿فَإِنَّمَا إِشْرُ عَلَى الَّذِينَ يَدُلُّونَهُ﴾: فما إنهم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصي والموصى له؛ لأنهما بريان من الحيف، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَتَّبِعُ عِلْمَ﴾: وعيد للمبدل، ﴿فَمَنْ خَافَ﴾: فمن توقع وعلم، وهذا في كلامهم شائع يقولون: أخاف أن ترسل السماء، يريدون التوقع والظن الغالب الجاري مجرى العلم، ﴿جَفًّا﴾: ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية، ﴿أَوْ إِنَّمَا﴾: أو تعمداً للحيف، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾: بين الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: حينئذ، لأن تبديله تبديل باطل إلى حق، ذكر من يبذل بالباطل ثم من يبذل بالحق ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم^(٢).

﴿يَتَّيَمُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ١٨٢ ﴿إِنَّمَا مَعْدُوذَاتُ فَمَنْ كَانَتْ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١٨٣

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم. قال علي - رضي الله عنه -: أولهم آدم، يعني: أن الصوم عبادة قديمة أصلية، ما أدخل الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: بالمحافظة عليها، وتعظيمها، لأصالتها وقدمها، أو لعلكم تتقون المعاصي؛ لأن الصائم أظلف لنفسه^(٣) وأردع لها من موقعة السوء، قال - عليه الصلاة والسلام -: «فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ» (١٠٧) أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين، لأن الصوم شعارهم، وقيل معناه: أنه

١٠٧ - أخرجه البخاري (١٤٢/٤) كتاب الصوم: باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة حديث =

(١) قوله «من توريث الوالدين والأقربين من» لعله في. (ع)

(٢) قوله «أن كل تبديل لا يؤثم» لعل المعنى أن ليس كل تبديل يؤثم. (ع)

(٣) قوله «لأن الصائم أظلف لنفسه» في الصحاح: ظلف نفسه عن الشيء منعه عنه. وظلقت نفسي عن

كذا - بالكسر -: كلست. (ع)

كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان، كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موتان، فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده، فجعلوه خمسين/ ٦٧ يوماً، وقيل: كان وقوعه في البرد الشديد والحر الشديد، فشق عليهم في أسفارهم ومعايشهم فجعلوه بين الشتاء والربيع، وزادوا عشرين يوماً كفارة لتحويله عن وقته، وقيل: الأيام المعدودات: عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، كتب على رسول الله - ﷺ - صيامها حين هاجر، ثم نسخت بشهر رمضان، وقيل: كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء وبعد أن يناموا، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿أَيُّ لَكُمْ يَكُنْ أَلْيَسَارَ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٧]، ومعنى ﴿تَمُدُّونَهُ﴾ موقات بعدد معلوم، أو قلائل، كقوله: ﴿ذَرَاهِمَ مَمْدُودَةً﴾ [يوسف: ٢٠] وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد ويتحكر فيه، والكثير يهال هيلاً ويحش حشاً، وانتصاب «أياماً» بالصيام، كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾: أو راكب سفر، ﴿فَمِدَّةً﴾: فعلية عدة، وقرئ بالنصب بمعنى: فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة، وقيل: مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدة، ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: واختلف في المرض

= (١٩٠٥)، (٨/٩) كتاب النكاح: باب قول النبي - ﷺ - «من استطاع منكم الباءة فليتزوج» حديث (٥٠٦٥) ومسلم (١٠١٨/٢) كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه... حديث (١٤٠٠/١) وأبو داود (٦٢٤/١) كتاب النكاح: باب التحريض على النكاح حديث (٢٠٤٦) والنسائي (١٧١/٤) كتاب الصوم: باب فضل الصيام، (٥٦/٦) كتاب النكاح: باب الحث على النكاح وابن ماجه (٥٩٢/١) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل النكاح حديث (١٨٤٥) والدارمي (١٣٢/٢) كتاب النكاح: باب الحث على التزويج، وأحمد (٣٧٨/١)، (٤٤٧) والطبراني (٣٠٣/١) - منحة رقم (١٥٤٥) وأبو يعلى (٤٦/٩ - ٤٧) رقم (٥١١٠) والبيهقي (٧٧/٧) كتاب النكاح: باب الرغبة في النكاح، وفي «شعب الإيمان» (٣٨٠/٤) رقم (٥٤٧٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٥٦/٣) كلهم من طريق إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعاً. وأخرجه البخاري (١٢/٩) كتاب النكاح: باب من لم يستطع الباءة فليصم حديث (٥٠٦٦) ومسلم (١٠١٩/٢) كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه حديث (٣، ١٤٠٠/٤) والترمذي (٣٩٢/٣) كتاب النكاح: باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه حديث (١٠٨١) والنسائي (١٧٠ - ١٦٩/٤) كتاب الصيام: باب فضل الصيام، (٥٧/٦ - ٥٨) كتاب النكاح: باب الحث على النكاح، والدارمي (١٣٢/٢) كتاب النكاح: باب الحث على التزويج، وأحمد (١/ ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٢) وعبد الرزاق (١٦٩/٦) رقم (١٠٣٨٠) والحميدي (٦٣/١) رقم (١١٥) وابن حبان (٤٠٣٤) والبيهقي (٧٧/٧) كتاب النكاح: باب الرغبة في النكاح والبلغوي في «شرح السنة» (٣/٥) - بتحقيقنا) كلهم من طريق الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال الحافظ في تخریج الکشاف:

قوله «قال - عليه السلام - فعليه بالصوم» صدره: يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم إلخ. متفق عليه من حديث ابن مسعود. انتهى.

المبيح للإفطار، فمن قائل: كل مرض، لأن الله تعالى لم يخص مرضاً دون مرض كما لم يخص سفرأ دون سفر، فكما أن لكل مسافر أن يفطر؛ فكذلك كل مريض، وعن ابن سيرين أنه دخل عليه في رمضان وهو يأكل فاعتلّ بوجع أصبعه، وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه، فقال: إنه في سعة من الإفطار، وقائل: هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَكُفُّمُ الْيَسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وعن الشافعي: لا يفطر حتى يجهد الجهد غير المحتمل، واختلف - أيضاً - في القضاء، فعامة العلماء على التخيير، وعن أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه -: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرَخِّصْ لَكُمْ فِي فِطْرِهِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَلَيْكُمْ فِي قَضَائِهِ، إِنْ شِئْتَ قَوَاتِرَ، وَإِنْ شِئْتَ فَفَرَقَ» (١٠٨) وعن علي، وابن عمر، والشعبي، وغيرهم، أنه يُقْضِي كَمَا فَاتَ مُتَتَابِعاً (١٠٩)، وفي قراءة أبي: «فعدة من أيام أخر متتابعات» فإن قلت: فكيف قيل: ﴿فَعِدَّةٌ﴾: على التثنية، ولم يقل: فعدتها، أي فعدة، الأيام المعدودات؟ قلت: لما قيل: فعدة والعدة بمعنى المعدود فأمر بأن يصوم أياماً معدودة مكانها، علم أنه لا يؤثر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ﴾: وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا، ﴿وَفِدْيَةٌ مِّمَّا كَانُوا يُصِلُونَ﴾: نصف صاع من بز أو صاع من غيره عند أهل العراق، وعند أهل الحجاز مد، وكان ذلك في بدء الإسلام: فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتدّ عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، وقرأ ابن عباس: «يطوقونه»، تفعيل من الطوق إما بمعنى الطاقة أو القلادة، أي يكلفونه أو يقلدونه ويقال لهم صوموا، وعنه «يطوقونه» بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه، «ويطوقونه» بإدغام التاء في الطاء، «ويطيقونه» «ويطيقونه» بمعنى/٦٨ أ يطوقونه، وأصلهما: يطيقونه ويتطيقونه، على أنهما من فعمل وتفعيل من الطوق، فأدغمت الياء في

١٠٨ - رواه الدارقطني (١٩٢/٢)، وقال الحافظ في تخريج الكشاف: الدارقطني من روايته. انتهى.
١٠٩ - أما أثر علي: فرواه عبد الرزاق في المصنف (٢٤٢/٤) رقم (٧٦٦٠) عن الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي قال: تبعاً والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٩/٤) كتاب الصيام، باب قضاء شهر رمضان.

- وأما أثر ابن عمر: فأخرجه عبد الرزاق (٢٤٢/٤) رقم (٧٦٥٨)، والبيهقي (٢٥٩/٤) كتاب الصيام، باب قضاء شهر رمضان.

- وأما أثر الشعبي: فرواه، عبد الرزاق (٢٤٢/٤) رقم (٧٦٥٩) عن الثوري عن منصور عن إبراهيم وعن داود عن الشعبي.

قالا: تبعاً.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق عنهما.

قال: يقضيه تبعاً. انتهى.

الواو بعد قلبها ياء كقولهم: تدبر المكان وما بها ديار، وفيه وجهان: أحدهما: نحو معنى يطبقونه، والثاني: يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز، وحكم هؤلاء الإفطار والغدية، وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ، ويجوز أن يكون هذا معنى يطبقونه، أي: يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم، ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: فزاد على مقدار الغدية، ﴿فَبِمَا حَبَّرَ لَهُ﴾: فالتطوع أخير له أو الخير، وقرئ «فمن يطوع»، بمعنى يتطوع، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾: أيها المطبقون أو المطلقون، وحملتكم على أنفسكم وجهدتم طاقتكم، ﴿حَبَّرَ لَكُمْ﴾: من الغدية وتطوع الخير، ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر - أيضاً -، وفي قراءة أبي: والصيام خير لكم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

الرمضان: مصدر رمض إذا احترق - من الرمضاء - فأضيف إليه الشهر وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل: «ابن داية» للغراب بإضافة الابن إلى داية البعير؛ لكثرة وقوعه عليها إذا دبرت، فإن قلت: لم سمي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾؟ قلت: الصوم فيه عبادة قديمة، فكانهم سموه بذلك لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته، كما سموه: ناتقاً؛ لأنه كان ينتقهم، أي: يزعجهم إضجاراً بشدته عليهم، وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر، فإن قلت: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» (١١٠). «مَنْ أَذْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ» (١١١). قلت: هو من باب الحذف،

١١٠ - أخرجه البخاري (٢٥٠/٤): كتاب صلاة التراويح: باب فضل من قام رمضان، الحديث (٢٠٠٩)، ومسلم (٥٢٣/١): كتاب المسافرين: باب الترغيب في قيام رمضان، الحديث (٧٥٩/١٧٣). ومالك (١١٣/١) كتاب الصلاة في رمضان: باب الترغيب في الصلاة في رمضان (٢). وأبو داود (٤٣٦/١) كتاب الصلاة: باب في قيام شهر رمضان (١٣٧١) والنسائي (٢٢/٣) كتاب قيام الليل: باب ثواب من قام رمضان إيماناً واحتساباً (١٦٠٣). والترمذي (١٧١/٣ - ١٧٢) كتاب الصوم: باب الترغيب في قيام رمضان وما فيه من الفضل (٨٠٨).

وابن ماجه (٤٢٠/١) كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام شهر رمضان (١٣٢٦).

لأمن الإلباس؛ كما قال [من الطويل]:

..... بِمَا أَغْنَى النَّطَاسِيَّ حَذِيمًا^(١)؟

= وأحمد (٢٨١/١، ٢٨٩، ٤٠٨، ٤٢٣) والدارمي (٢٦/٢) كتاب الصوم: باب في فضل قيام شهر رمضان.

والبيهقي (٤٩٢/٢) وابن خزيمة (٣٣٦/٣) رقم (٢٢٠٢) من طرق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الحافظ في تخریج الکشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

١١١ - جزء من حديث رواه الترمذي (٥٥٠/٥) كتاب الدعوات باب قول رسول الله - ﷺ -: «رغم أنف رجل».

حديث (٣٥٤٥) من حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله - ﷺ -: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة».

وأحمد (٢٥٤/٢).

وابن حبان في صحيحه (١٨٩/٣) رقم (١٩٠٨)، والحاكم (٥٤٩/١) مختصراً، وسكت عنه، وكذا الذهبي، وروى مسلم (٣٤٩/٨ - نووي) كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك والديه حديث (٢٥٥١) من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ -: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة».

قال الحافظ في تخریج أحاديث الکشاف:

أخرجه الترمذي من رواية عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رفعه: «رغم أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له - الحديث» قلت: هذا ليس موافقاً للفظ المصنف، والموافق له ما أخرجه ابن حبان. انتهى.

(١) فهل لكم فيما إلي فإنسي بصير بما أغنى النطاسي حذيمًا؟

يقول: فهل لكم رغبة فيما ينسب إلي من إصابة الرأي، فإني بصير بحل الأمور المعضلة. وكفى عن ذلك بقوله: بما أغنى حذيمًا النطاسي، وهو طبيب ماهر حاذق. وحذيم - بكسر فسكون - أراد به ابن حذيم، لأنه كنيته، فحذف جزء الاسم لأمن اللبس. والنطاسي نسبة للنطاس وزان القرطاس، وهو في لغة الروم بمعنى الحاذق الماهر في الطب. وتخفيفه هنا إما من تصرف العرب، وإما لأجل الوزن. وقيل معناه: فهل لكم رأي وتبصر فيما يرجع نفعه إلي، ثم أعرض عن مشاورتهم بقوله: فإني أعلم وأعرف منكم بما أعصى النطاسي، ولا يخفى أنه لا موقع للمفاء حينئذ، إلا أن يكون المعنى بأنه يطلب منهم الرشوة.

والبيت لأوس بن حجر، ينظر ديوانه ص ١١١، وخزانة الأدب: ٤/٣٧٠، ٣٧٣، ٣٧٦، وشرح شواهد الشافعية ص ١١٦، ١١٧، ولسان العرب: (نطس)، (حذم)، (إلى)، وجمهرة اللغة ص ٨٣٨، ١٣٢٧، والخصائص: ٤٥٣/٢، وشرح المفصل: ٢٥/٣.

أراد ابن حذيم، وارتفاعه على أنه مبتدأ خبره، ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: أو على أنه بدل من الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب على: صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من: ﴿إِنَّمَا مَعَدُّ ذُرِّيَّتِكُمْ﴾، أو على أنه مفعول، ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ [البقرة: ١٨٤]. ومعنى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوماً، وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ كما تقول: أنزل في عمر كذا، وفي علي كذا، وعن النبي - عليه الصلاة والسلام -: ﴿نَزَلَتْ صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَضِينٌ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَالْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مَضِينٌ﴾ (١١٢) ﴿هُدًى لِّلْكَاسِ وَيَبَيِّنَتِ﴾: نصب على الحال، أي أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات، مكشوفات مما يهدي إلى الحق ويفرق ٦٨ بين الحق والباطل، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَيَبَيِّنَتِ مِنَ الْهُدَى﴾، بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلْكَاسِ﴾؟ قلت: ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق به بين الحق والباطل من وجه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال، ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: فمن كان شاهداً، أي حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر، فليصم فيه ولا يفطر، والشهر: منصوب على الظرف وكذلك الهاء في: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، ولا يكون مفعولاً به كقولك: شهدت الجمعة؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿رُبِّيْدُ اللَّهِ﴾: أن يسر عليكم ولا يعسر، وقد نفى عنكم الحرج في الدين، وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، وجملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض، ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر، حتى زعم أن من صام منهما فعليه الإعادة، وقرئ:

١١٢ - أخرجه أحمد (١٠٧/٤) من حديث أبي سعيد مولى بني هاشم ثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبي المليح عن وثالة بن الأسقع مرفوعاً، وابن جرير في التفسير (٤٤٦/٣) رقم (٢٨١٤)، حدثنا أحمد بن منصور قال حدثنا عبد الله بن رجاء قال حدثنا عمران به والطبراني في الكبير (٧٥/٢٢) رقم (١٨٥)، وذكره السيوطي في الدر (١٨٩/١)، وعزه لمحمد بن نصر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب.

وروى أبو يعلى في مسنده (١٣٥/٤) رقم (٢١٩٠)، من حديث أبي المليح عن جابر بن عبد الله موقوفاً.

قال الهيثمي في المجمع (٢٠٢/١):

«رواه أبو يعلى، وفيه سفيان بن وكيع وهو ضعيف» ا.هـ.

أخرجه أحمد والطبراني من حديث وثالة بن الأسقع مرفوعاً به وفي الباب عند أبي داود، وأخرجه الثعلبي في تفسيره وعن جابر أخرجه أبو يعلى. انتهى.

اليسر، والعسر - بضمين، الفعل المعلن محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره^(١)، ﴿وَلْيُكْمِلُوا الْيَذَّةَ وَلْيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَمَّا كُمُ تَنَكَّرُوا﴾: شرع ذلك، يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقله: ﴿وَلْيُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلْيُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ﴿وَلَمَّا كُمُ تَنَكَّرُوا﴾: علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النقب المحدث من علماء البيان، وإنما عذى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد، كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم^(٢)، ومعنى ﴿وَلَمَّا كُمُ تَنَكَّرُوا﴾ وإرادة أن تشكروا، وقرئ: «ولتكملاوا» بالتشديد. فإن قلت: هل يصح أن يكون (ولتكملاوا) معطوفاً على علة مقدرة، كأنه قيل لتعملوا ما تعلمون، ولتكملاوا العدة، أو على اليسر، كأنه قيل: يريد الله بكم اليسر، ويريد بكم لتكملاوا، كقوله: ﴿يُذِينَ يَلِثُوا؟﴾ [الصف: ٨] قلت: لا يبعد ذلك والأول أوجه. فإن قلت: ما المراد بالتكبير؟ قلت: تعظيم الله والثناء عليه، وقيل: هو تكبير يوم الفطر، وقيل: هو التكبير عند الإهلال^(٣).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجابه حاجة من سأل به حال من قرب مكانه، فإذا دعى أسرع تلبية، ونحوه ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «هُوَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَغْنَانِي زَوَاجِلُكُمْ» (١١٣) وروي: أَنَّ أَغْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَقْرَبُ رَبَّنَا فُتْنَانِيهِ، أَمْ بَعِيدُ فُتْنَانِيهِ؟ (١١٤) فَتَرَلْتُ:

١١٣ - أخرجه البخاري (٥٣٧/٧) كتاب المغازي: باب غزوة خيبر حديث (٤٢٠٥)، (٢١٧/١١) كتاب =

(١) قال محمود رحمه الله: «الفعل المعلن محذوف تقديره شرع ذلك... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ولقيه الخاص به في صناعة البديع: رد أعجاز الكلام إلى صدره. ولقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه فهو منظوم في سلك حسنة.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا منه تفسيرٌ معنى لا إعراب» إذ لو كان كذلك لكانَ تعلُّقُ «على» بـ «حامدين» التي قدَّرها لا بـ «تُكَبِّرُوا»، وتقديرُ الإعراب في هذا هو: وَلْيُكْمِلُوا اللَّهَ بِالتَّكْبِيرِ على ما هداكم، كما قدَّره النَّاسُ في قوله:

فَذُ قَتْلُ اللَّـهِ زِيَادًا عَنِّي

أي: ضَرَفَهُ بِالْقَتْلِ عَنِّي، انتهى. الدر المصون.

(٣) قوله «عند الإهلال» أي الإحرام بالنسك. أفاده الصحاح. (ع)

﴿تَلَسَّجِبُوا إِلَيَّ﴾: إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أتى أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم، وقرىء «يرشدون ويرشدون»، بفتح الشين، وكسرهما.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ يَلَكُمُ الْهَيْبَةُ أَلْفَتْهُ إِلَى يَسَابِكِكُمْ هُنَّ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ عَمَّ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَحْتَاوُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَتَقْرَهُونَ وَيَتَّقُوا اللَّهَ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَسْنِيَ كُفْرُ الْخَطِّ الْأَبْيَضِ مِنَ الْخِطِّ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الْهَيْبَةَ إِلَى الْيَلِّ وَلَا تَبْشُرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَدُوُّهُمْ فِي السَّجْدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبْئُتُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾﴾

كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب^(١) والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد ولم يطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة، ثم إن عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبيكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنت جديراً بذلك يا عمر»^(٢).

= الدعوات باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله حديث (٦٤٠٩)، وباب الدعاء إذا علا عقبه حديث (٦٣٨٤) وفي (٣٨٤/١٣) كتاب التوحيد: باب وكان الله سميعاً بصيراً حديث (٧٣٨٦) ومسلم (٢٠٧٦/٤) كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب خفض الصوت بالذكر حديث (٢٧٠٤/٤٤).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، قال: «كنا مع رسول الله - ﷺ - في غزوة، فلما قفلنا أشرفنا على المدينة، فكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي - ﷺ -: «إن ربكم ليس بأصم ولا غائب، هو بينكم وبين ربهم وواحدكم». ورواه الترمذي. انتهى.
١١٤ - أخرجه ابن جرير (٤٨٠/٣) رقم (٢٩٠٤)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١١٤/١) للدارقطني في كتابه المؤلف والمختلف في ترجمة الصلت بن حكيم.
قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والدارقطني في المؤلف من رواية الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده: «أن أعرابياً - فذكره - زاده بعد قوله: «فكتابه». انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ويشهد لصحة هذا الجواب أنه لما استقرت الإباحة فيه قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ أَتَقْرَهُونَ﴾ فكنى عنه الكناية المألوفة في الكتاب العزيز. ويشكل بقوله ﴿فَلَا رَيْفَ وَلَا سُوءَ﴾ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ فإن هذه العبارة استعملت ولم ينقل في الحج ما نقل في الصوم من سبب نزول الآية وهو واقعة المكروه. ويمكن أن يجاب عنه لما وقع في آية الحج منهياً عنه أريد للشعبة عندهم كيلاً يقيموا فيه، فعبر عنه بما هجته لكون ذلك منفراً لهم عن التورط.

فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فنزلت، (١١٥) وقرئ: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث، أي أحل الله، وقرأ عبد الله: الرفوث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، كلفظ النيك، وقد أرفث الرجل، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه أنشد وهو مخبرٌ [عن الرجز]:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيَسَا إِنَّ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نِيكَ لَمِيَسَا^(١)

فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا الرُّفْثُ مَا كَانَ عِنْدَ النِّسَاءِ (١١٦)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا

١١٥ - رواه ابن جرير (٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨) رقم (٢٩٤٣) حدثني محمد بن سعد قال: «حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نساكنكم من لباس لكم» إلى «وعفا عنكم» كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم... في قصة طويلة، فنزلت الآية: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفَسِيَاكِ الرُّفْثُ... الآية﴾، ورواه في قصة طويلة أيضاً عن السدي (٣/ ٥٠١) رقم (٢٩٤٩).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

رواه الطبري من طريق عطية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفَسِيَاكِ الرُّفْثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الآية، قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صاموا يطعمون من الطعام فيما بين المساء والعتمة. فإذا صلوا العتمة حرم عليهم الطعام حتى يمسا من الليلة القابلة، وإن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بينما هو نائم إذ سولت له نفسه فأتى أهله فذكره. ليس فيه: «فقام رجال فاعترفوا»، وروى الطبري من طريق السدي قال: «كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقع على جارية له في ناس من المسلمين لم يملكو أنفسهم، فأتى النبي - ﷺ - .. انتهى.

١١٦ - أخرجه الحاكم (٢/ ٢٧٦) من طريق أبي العالية عن ابن عباس.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ووافقه الذهبي.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الحاكم في المستدرک من طريق زياد بن الحسين عن أبي العالية: «أترفت وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما روجع به النساء».

(١) أنشد ابن عباس في الحج. فقال له أبو العالية: أترفت وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقال بعضهم: قال حصين بن قيس: أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول: وهن... البيت. فقلت له: أترفت وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. وهن، أي النوق «يمشين بنا» أي معنا. والهميس: نوع من السير لا صوت له، نصب بيمشين. وإن تصدق الطير، أي التي تفاعلنا بها حيث طارت جهة اليمين، وشبه الطير بمخبر على طريق المكنية والصدق تخييل. وروي: إن يصدق الظن، والفعل بعده جواب الشرط ولفظ «النيك» هو الحقيقة في إدخال الذكر في الفرج، وما عداه - كالوطء والجماع واللامسة - مجاز في الأصل أو كناية، ولذلك قبح النطق بها دون غيرها. ولميس: اسم امرأة، ولعل ابن عباس ضربه مثلاً للظفر بما كان يقصده. ينظر: اللسان م «رفث»، والدرر ١/ ١٩٩، والدر المصون ١/ ٤٧٤.

رَفَتْ وَلَا مُسَوِّفٌ» [البقرة: ١٩٧]، فكُنِيَ به عن الجماع^(١)، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من

= وأخرجه ابن أبي شيبة والطبري من هذا الوجه، والهميس بفتح الهاء وآخره مهملة: ضرب من السير، لا يسمع له وقع. ذكره ثابت السرقسطي. انتهى.

(١) قوله - تعالى - «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» فيه: الرفث كناية عن الجماع موضوع الكناية عند المفسر العلامة تطبيقي على آيات الكتاب العزيز «الكشاف ١/ ٣٣٨» والذي نفث عنده هنا هو صورة الكناية عند أهل البلاغة. وخلاصتها في النقاط الآتية:

١ - عرفت لغة بمعنى «الستر» قال صاحب اللسان: «والكناية أن تتكلم بالشيء وتريد غيره وكُنِيَ عن الأمر بغيره يَكْنِي كناية: يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه نحو: الرفث والغائط وغيره». وقال - أيضاً - «قال أبو عبيد: كُنِيت الرجل وكنوته لغتان»، والمصدر كناية أما «كنأوه» فإن الواو قلبت عن الياء سماعاً - هذا في دائرة اللغة.

وإصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، وبهذا فارتقت المجاز العام السابق في كلام البلاغيين على الكناية، فإن القرينة في المجاز مانعة وهنا قرينة إلا أنها ليست مانعة. والكناية عند صاحب الكشاف تسير مع هذا التحديد، بل هو أول من بين أن المعنى الأصلي قد يراد مع الكنائي، ولا مانع منه أبداً، وجعل أقسامها كما عرف عنها في بحوث البلاغيين من بعد، وفرق بينها وبين التعريض.

٢ - أقسام الكناية المعروفة عند البلاغيين ثلاثة:

(أ) عن موصوف كقوله - تعالى - «وَحَلَّلَهُ عَلَى ذَاكَ الْوَجْهِ وَوُثِّرُ» [الآية ١٣ القمر].

(ب) عن صفة كقوله - تعالى - «أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ» [الآية ٦ المائدة].

(ج) عن نسبة كقولك: هذا يث علم، وقول زياد الأعجم من هذا الباب، وقصته أنه نزل على ابن الحشر فأكرمه فقال زياد هذا [من الكامل]:

إن السماحة والمرودة والسندی
في قبة ضربت على ابن الحشر
ولطائف الكناية أكثر من أن تحصى ومنها:

(أ) التوكيد، لأنه إثبات المعنى المقصود بدليله، فإذا كان البيت قد نسب إليه العلم فهذا دليل على أن أهل البيت قد ملأهم العلم وفاض عنهم حتى صاحب البيت.

(ب) التعبير عن المعنى الخسيس باللفظ الرفيع الدال عليه، وهذا من أدب اللغة الإسلامية التي تعلم البشرية كيف يتحدثون، كما في الآية التي معنا.

(ج) رفع المعنويات إلى صورة المحسوسات، والمحسوس أقوى تأثيراً لأنه أقرب إلى النفس.

(د) الإشارة إلى المعنى بلطف ویراعة، وذلك في مجالس الناس قائم وملموس ولهذه المعاني طرائق من الكناية القرآنية، ولطائفها كثيرة، والمفسر الأريب ترى له فيها ملحوظات ولمسات، وسترى هذا في كثير من الآيات.

ينظر لسان العرب مادة: كنى، الإيضاح ١٥٨/٥، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٨٩ والمطول للسعد ٤٠٧، وحاشية الشهاب على البيضاوي ١٤١/٣، دروس تطبيقية د. فتحي مزید ١٥٣ وما بعدها، ودراسات من علم البيان د. محمود عبد العظيم ٢٩٧ وما بعدها والبلاغة القرآنية د. أبو موسى ٥٤٥ وما بعدها.

ذلك، فإن قلت: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ﴾ [آز: ٢٢٣]، ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿وَدَخَلْتُمْ بَيْتَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿فَأَنزَلْنَا سِرَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ﴿وَمَنْ قَبْلُ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؟ قلت: استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختيائاً لأنفسهم، فإن قلت: لم عدى الرث بالي؟ قلت: لتضمينه معنى الإفضاء، لما كان الرجل والمرأة يعتقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقته، شبه باللباس المشتمل عليه، قال الجعدي [من المتقارب]:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَسَى عِطْفَهَا تَنَثَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا^(١)

فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿مَنْ لِبَاسٍ لَكُمْ﴾؟ قلت: هو استئناف كالبيان، لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة، قلَّ صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهن، فلذلك رخص لكم في مباشرتهن، ﴿فَتَحْتَانَوْتُ أَنْفُسَكُمْ﴾: تظلمونها، وتنقصونها حظها من الخير، والاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة، ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾: حين تبتم مما ارتكبتم من المحذور، ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: واطلبوا ما قسم الله لكم وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة، أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لا بتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، وقيل: هو نهْيٌ عن العزل، لأنه في الحرائر، وقيل: وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم وحلَّه دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرَّم، وعن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر، وقرأ ابن عباس: «واتبعوا»، وقرأ الأعمش: «وأتوا»، وقيل: معناه: واطلبوا ليلة القدر، وما كتب الله لكم من الشواب إن أصبتموها وقمتموها، وهو قريب من بدع التفاسير، ﴿وَالْعَظِيمُ الْأَيُّعُ﴾: هو أوَّل من يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيوط الممدود، و﴿الْمَخِيطُ الْأَثْوَرُ﴾: ما يمتدَّ معه من غيش الليل، شبهاً بخيطين أبيض وأسود، قال أبو داود^(٢) / [من المتقارب]:

(١) للناطقة الجعدي. و «ما» زائدة. والضجيع: المضجاع. والعطف: بالكسر - الجانب. تثنت: بالغت في مطلوبه من التعانق فكانت مشتملة عليه كاللباس، فهو تشبيه بليغ. ويرى: ثنى جيدها، أي عتقها.

ينظر ديوانه ص ٨١، وجمهرة اللغة ص ٥٣٦، لسان العرب (نحس)، (سلط)، وتاج العروس: (نحس) (سلط)، والكمال ص ٤٧٧، والشعر والشعراء ص ٣٠٢، كتاب العين: ١٤٤/٣، وتهذيب اللغة ٤/٣٢٠، الدر المصون ١/٤٧٤.

(٢) قوله «قال أبو داود» لعله: دؤاد. (ع). هذا، ولعله اعتمد على نسخة فيها ما أشار إليه.

فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سَدْفَةٌ وَلَاخَ مِنَ الصُّبْحِ خَیْطٌ أَنَارَ^(١)

وقوله: ﴿مِنْ الْقَفْرِ﴾: بيان للخط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثاني، ويجوز أن تكون (من) للتبعية؛ لأنه بعض الفجر وأوله، فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة، أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله: ﴿مِنْ الْقَفْرِ﴾: أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجازاً، فإذا زدت: (من فلان): رجع تشبيهاً. فإن قلت: فلم زيد: ﴿مِنْ الْقَفْرِ﴾، حتى كان تشبيهاً؟ وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار، أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر: ﴿مِنْ الْقَفْرِ﴾: لم يعلم أن الخيطين مستعاران، فزيد ﴿مِنْ الْقَفْرِ﴾: فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة، فإن قلت: فكيف التبس على عدي بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، فكنت أقوم من الليل، فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فضحك وقال: «إِنْ كَانَ وَسَادُكَ لَعَرِيضًا» (١١٧) وَرَوِي: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا» (١١٨)، إنما ذاك بياض النهار وسواد

١١٧ - أخرجه البخاري (٣٨/٩) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ...﴾ حديث (٤٥٠٩)، ورواه في (٦٢٩/٤) كتاب الصوم، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا...﴾ الآية حديث (١٩١٦).

ومسلم (٢١٤/٤) - نوي كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر حديث (١٠٩٠).

وأبو داود (٧١٧/٢) كتاب الصيام، باب وقت السحور حديث (٢٣٤٩).

والترمذي (٢١١/٥) كتاب التفسير، حديث (٢٩٧١)، وابن حبان (٢٤٢/٨) رقم (٣٤٦٢).

والبيهقي في الكبرى (٢١٥/٤) كتاب الصيام، باب الوقت الذي يحرم فيه الطعام على الصائم والطحاوي (٥٣/٢).

والدارمي (٥/٢) كتاب الصوم، باب متى يسلك المتشعر عن الطعام والشراب.

والطبراني في المعجم الكبير (٧٨/١٧، ٧٩) رقم (١٧٢ - ١٧٩)، والطبري في تفسيره (٥١٢/٣) - (٥١٣) رقم (٢٩٨٧، ٢٩٨٨).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث الشعبي عن عدي بن حاتم. انتهى.

١١٨ - هي رواية عند البخاري (٣٨/٩) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا...﴾ الآية حديث =

(١) لأبي داود. وأضاء وأثار، يجيئان لازمان كما هنا ومتعديين. والسدفة: بياض الفجر يشوبه قليل ظلام. وفي لغة نجد: الظلمة. وأسدف المرأة القناع: أرسلته. وأسدف الليل: أظلم. وعند غيرهم هي الإضاءة والصبح. وأسدف الصبح: أضاء. وأسدف الباب فتحه. وشبه بياض بعض الصبح بالخط في امتداده. ويجوز أن «من» بيانية. وجملة أثار صفة خيط، وجواب الشرط فيما بعده. ينظر ديوانه ص ٣٥٢، ولسان العرب: (خيط)، وتهذيب اللغة: ٤٠٣/٧، وتاج المروس: (خيط).

الليل؟ قلت: غفل عن البيان؛ ولذلك عرض رسول الله ﷺ قفاه، لأنه مما يستدل به على بلاءه الرجل، وقلة فطنته، وأنشدتني بعض البدويات لِيَدَوِي [من الطويل]:

عَرِيضُ الْقَفَا مِيزَانُهُ فِي شِمَالِهِ قَدْ أَنْحَصَ مِنْ حَسْبِ الْقَرَارِيطِ شَارِبُهُ^(١)

فإن قلت: فما تقول فيما رَوِي عن سهل بن سعد الساعدي: أنها نزلت ولم ينزل هَرْنُ الْفَجْرِ؟ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له، فنزل بعد ذلك هَرْنُ الْفَجْرِ؟ فعلموا أنه إنما يعني بذلك الليل والنهار؟ (١١٩) وكيف جاز تأخير البيان، وهو يشبه العبث، حيث لا يفهم منه المراد، إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة، ولا بتشبيه قبل ذكر الفجر، فلا يفهم منه إذن إلا الحقيقة وهي غير مرادة؟ قلت: أما من لم يجوز تأخير البيان - وهم أكثر الفقهاء والمتكلمين، وهو مذهب أبي علي وأبي هاشم - فلم يصح عندهم هذا الحديث، وأما من يجوزُه فيقول: ليس بعبث، لأن المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب، ويعزم على فعله إذا استوضح المراد منه، ﴿هَرْنُ أُنْتَوَا أَلَيْسَ إِلَى أَلَيْلٍ﴾؟ قالوا: فيه دليل على جواز النية بالنهار^(٢) في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم

= (٤٥١٠) من طريق الشعبي عن عدي بن حاتم أيضاً.

قال الحافظ ابن حجر في تخریج الکشاف:

هذه الرواية في البخاري أيضاً من طريق الشعبي عن عدي بن حاتم أيضاً. انتهى.

١١٩ - أخرجه البخاري (٤/٦٣٠) كتاب الصوم، باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا... الآية﴾ حديث (١٩١٧)، وفي (٩/٣٨) كتاب التفسير حديث (٤٥١١)، ومسلم (٤/٢١٤) - نووي كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر حديث (١٠٩١).

من رواية أبي حازم عن سهل به.

قال الحافظ في تخریج الکشاف:

متفق عليه من رواية أبي حازم عنه. انتهى.

(١) يصف رجلاً بالغبابة على طريق الكناية. فعرض القفا: كناية عن الحمق. وكون ميزانه في شماله: كناية عن البله. أي انحسر شاربه، لكثرة ما يعرض على شفته عند الحسب، كناية عن البلاهة.

(٢) قال محمود رحمه الله: «قالوا فيه دليل على جواز النية بالنهار... إلخ». قال أحمد: وجه استدلالهم من الآية على الحكم الأول متعذر، لأن إقران النية بأول الصوم وجوداً غير معتبر باتفاق، وتقديمها من الليل وتستصحب معتبر باتفاق، فإذا لا تنافي بين الأكل والشرب إلى الفجر وبين نية الصوم المستقبل من الليل. ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دل عليه، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية في النهار - لو كان الأكل والشرب ليلاً إلى الفجر - ينافي صحة استصحاب النية، وكان اقتضاء الآية لجواز الأكل والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر لوجود المنافي لها ولا بد منها، فيتعين أن يقع بعد الفجر على هذا التقدير. وذلك التقدير كما =

الوصال، ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾: معتكفون فيها، والاعتكاف: أن يحبس نفسه في المسجد يتعبد فيه، والمراد: بالباشرة الجماع لما تقدم من قوله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ يَكُنَّ أَلْيَسَاءَ الزَّوْجِ إِلَىٰ نِكَاحِكُمْ﴾، ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا﴾: وقيل معناه: ولا تلامسوهن بشهوة، والجماع يفسد الاعتكاف/١٧٠ وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل، وعن قتادة: كان الرجل إذا اعتكف، خرج فبأشر أمراته ثم رجع إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك، وقالوا: فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد، وقيل: لا يجوز إلا في مسجد نبيّ وهو أحد المساجد الثلاثة، وقيل: في مسجد جامع، والعمامة على أنه في مسجد جماعة، وقرأ مجاهد: في المسجد، ﴿يَلْكَ﴾: الأحكام التي ذكرت، ﴿حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾: فلا تغشوها، فإن قلت: كيف قيل ^(١): ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ مع قوله: ﴿فَلَا تَعْدُوهُنَّ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؟ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه، فهو متصرف في حيز الحق، فنهى أن يتعداه؛ لأن من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الوسطة متباعداً عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَحِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ» (١٢٠) فالترتع حول الحمى وقربان حيزه واحد، ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه،

١٢٠ - أخرجه البخاري (١٥٣/١) كتاب الإيمان/باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ورواه في البيوع/باب الحلال بين والحرام بين (٢٠٥١).

ومسلم (١٢١٩/٣) كتاب المساقاة/باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩)، وأبو داود (٢/٢٦٣)، كتاب البيوع/باب في اجتناب الشبهات (٣٣٢٩، ٣٣٣٠)، والترمذي (٥٠٢/٣) كتاب البيوع/باب ما جاء في ترك الشبهات (١٢٠٥)، وابن ماجه (٢/١٣١٨، ١٣١٩) كتاب الفتن/باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤)، والنسائي (٧/٢٤١) كتاب البيوع/باب اجتناب الشبهات، (٨/٣٢٧) كتاب الأشربة/باب الحث على ترك الشبهات، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١)، والدارمي (٢/٢٤٥)، والبيهقي في السنن (٥/٦٤، ٢٦٤)، والبخاري في شرح السنة (٤/٢٠٧، ٢٠٨) (٢٠٢٤ - بتحقيقنا)، وابن حبان في صحيحه (٢/٤٩٧) (٧٢١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٢٧٠، ٣٣٦).

علمت متفق على بطلانه. وأما الاستدلال بها على الحكمين الآخرين فصحيح مستند والله أعلم. ولنظن الزمخشري لبطلان الاستدلال بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم فقال: قالوا. لا يقولها إلا في مثل هذا المعنى، ولم يسعه التنبيه على بطلان الاستدلال لأنه على وفق مذهبه. (١) قال محمود رحمه الله تعالى: «إن قلت كيف قال فلا تقرّبوها... إلخ» قال أحمد رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضي الله تعالى عنه في سد الذرائع والاحتياط للمحرمات لا يدافع عنه.

ومناهيه خصوصاً، لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾، وهي حدود لا تقرب.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآلِثْمٍ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ولا يأكل بعضكم مال بعض، ﴿بِالْبَاطِلِ﴾: بالوجه الذي لم يبيحه الله ولم يشرعه، «و» لا «تدّلوا بها»: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام، ﴿لِنَأْكُلُوا﴾: بالتحاكم، ﴿فَرِيقًا﴾: طائفة، ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآلِثْمٍ﴾: بشهادة الزور، أو باليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بأن المقضي له ظالم، وعن النبي - ﷺ - أنه قال للخصمين: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذنّ منه شيئاً، فإنما أ قضى^(١) له قطعة من نار» فبكيا وقال كل واحد منهما: حقّي لصاحبي. فقال: «أذهبافترخيا، ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» (١٢١) وقيل: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا﴾: وتلقوا بعضها إلى

= وفي الباب من حديث عمار بن ياسر: رواه أبو يعلى (٢١٣/٣) (١٦٥٣).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧٦/٤):

«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه موسى بن عبيدة الربذي. وهو ضعيف. أ. هـ.

وفي الباب عن جابر أيضاً عن الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧٠/٩).

قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه. وله الفاظ. انتهى.

١٢١ - أخرجه مالك (٧١٩/٢) كتاب الأقضية: باب الترغيب في القضاء حديث (١) والبخاري (١/٢)

(٣٣٩) كتاب الحيل: باب (١٠) حديث (٦٩٦٧) ومسلم (١٣٣٧/٣) كتاب الأقضية: باب الحكم

بالظاهر واللعن بالحجة حديث (١٧١٣/٤) وأبو داود (١٢/٤) كتاب الأقضية: باب في قضاء

القاضي إذا أخطأ حديث (٣٥٨٣) والترمذي (٦٢٤/٣) كتاب الأحكام: باب التشديد على من

يقضي له بشيء حديث (١٣٣٩) والنسائي (٢٣٣/٨) كتاب آداب القاضي: باب الحكم بالظاهر

وابن ماجه (٧٧٧/٢) كتاب الأحكام: باب أقضية الحاكم لا تحل حراماً حديث (٢٣١٧).

والشافعي (١٧٨/٢) كتاب الأحكام في الأقضية حديث (٦٢٦) والحميدي (١٤٢/١) رقم (٢٩٦)

وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٩٩) وأبو يعلى (٣٠٥/١٢) رقم (٦٨٨٠) وابن حبان (٥٠٤٧)،

٥٠٤٩ - الإحسان) والدارقطني (٢٣٩/٤ - ٢٤٠) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٢٧) والبيهقي

(١٤٣/١٠) كتاب آداب القاضي: باب من قال: ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، والطحاوي في

شرح معاني الآثار (١٥٤/٤) باب الحاكم يحكم بالشئ فيكون في الحقيقة بخلافه في الظاهر،

الطبراني في «الكبير» (٣٤٣/٢٣) رقم (٧٩٨) والبخاري في شرح السنة (٣٤٧/٥) - بتحقيقنا) كلهم

من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي - ﷺ - أن رسول

الله - ﷺ - قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض =

(١) قوله «فإن ما أقضي» لعله: «فإنما». (ع)

حكّام السوء على وجه الرشوة، وتدلّوا: مجزوم داخل في حكم النهي، أو منصوب بإضمار أن، كقوله: ﴿وَتَكْذِبُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]. ﴿وَأَنْتُمْ تَقْتُلُونَ﴾: أنكم على الباطل، وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه أحق بالتوبيخ.

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْإِهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ آلِيزُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ آلِيزَ مِنْ أَتْفَرُ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾

وروي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري، قالوا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينتقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة؟ فنزلت، (١٢٢) ﴿مَوَاقِيتُ﴾: معالم يوقت بها الناس

فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار.

وقال الترمذي: حسن صحيح. وأخرجه البخاري (١٠٧/٥) كتاب المظالم: باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه حديث (٢٤٥٨) ومسلم (١٣٣٨/٣) كتاب الأفضية. باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة حديث (٤/١٧١٣) وأحمد (٣٠٨/٦) والدارقطني (٢٣٩/٤) كتاب الأفضية والأحكام حديث (١٢٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٥٤/٤) والبيهقي (١٤٣/١٠) كتاب آداب القاضي: باب من قال: ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، كلهم من طريق الزهري عن عروة عن زينب عن أم سلمة به. وللحديث طريق آخر عن أم سلمة.

أخرجه أبو داود (١٢/٤) كتاب الأفضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ حديث (٣٥٨٥، ٣٥٨٤) وأحمد (٣٢٠/٦) وابن أبي شيبة (٢٣٣/٧ - ٢٣٤) رقم (٣٠١٦) وابن الجارود رقم (١٠٠٠) وأبو يعلى (٣٢٤ - ٣٢٥) رقم (٦٨٩٧) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٥٤/٤ - ١٥٥) وفي «المشكّل» (٢٢٩/١ - ٢٣٠).

والدارقطني (٢٣٨/٤ - ٢٣٩) كتاب الأفضية والأحكام والحاكم (٩٥/٤) والطبراني في «الكبير» (٢٩٨/٢٣) رقم (٦٦٣) والبيهقي في «شرح السنة» (٣٤٩/٤) - بتحقيقنا: كلهم من طريق أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود والدارقطني، والحاكم وأحمد وإسحاق، وابن أبي شيبة وأبو يعلى كلهم من رواية أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة وأصله في الصحيحين بدون الزيادة.

١٢٢ - قال الحافظ:

«عزاه الواحدي في الأسباب إلى ابن الكلبي مختصراً وذكره الثعلبي كما ذكره المصنف».

وقال الزيلعي (١١٨/١):

«غريب ونقله الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي أنه قال: نزلت: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْإِهْلَةِ﴾ في =

مزارعهم، ومتاجرهم ومحال ديونهم، وصومهم، وفطرمهم، وعدد نسائهم، وأيام
حيضهن، ومدد حملهن، وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته، كان ناس من الأنصار
إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً، ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل
المدن/ ٧٠ ب نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه؛ وإن كان
من أهل الوبر، خرج من خلف الخباء، فليل لهم: ﴿وليس البر﴾: بتحوّجكم من دخول
الباب، ﴿وَلَكِنَّ الْآيَةَ﴾: بر، ﴿هِيَ آتَتْ﴾: ما حرّم الله، فإن قلت: ما وجه اتصاله بما
قبله^(١)؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهل وعن الحكمة في نقصانها - وتماها
معلوم -: أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا
السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها
براً، ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد^(٢) لما ذكر أنها مواقيت للحج؛ لأنه كان

= معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا... فذكره.

وهو عند الثعلبي؛ كما ذكره المصنف... ١٠ هـ.

قال الحافظ ابن حجر في تخرّيج الكشف.

عزاه الواحدي في الأسباب إلى ابن الكلبي مختصراً وذكره الشعبي؛ كما ذكره المصنف. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت ما وجه إصصال هذا الكلام... الخ» قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا من
الاستطراد في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَائِعٌ شَرَابَهُ وَهَذَا يَمْلِكُ لِبَاحٍ وَبَيْنَ
كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾... إلى آخر الآية فإنه تعالى بين عدم الاستواء بينهما إلى قوله (أجاج)
وبذلك تم القصد في تمثيل عدم استواء الكافر والمسلم، ثم قوله ﴿وَبَيْنَ كُلِّ تَأْكُلُونَ﴾ لا يقرر به
عدم الاستواء، بل المفاد به استواؤهما فيما ذكر، فهو من إجماع الله الكلام بطريق الاستطراد
المذكور. وإنما مثلت هذا النوع الذي تبه عليه الزمخشري لأنه مفرد عن الاستطراد الذي بوب عليه
أهل صناعة البديع والمطابق لما بوبوا عليه سواء قوله تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ
يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكَفَّارِينَ آمَنَ الْقُبُورِ﴾. فإنه ذم اليهود واستطرد بذلك ذم المشركين
المنكرين للبعث على نوع من التشبيه لطيف المنزع وفي البديع التمثيل بقوله [من الطويل]:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم

وسباني فيه مزيد تقرير إن شاء الله.

(٢) في قوله - تعالى - ﴿وَيَتَوَلَّوْكَ عَنِ الْآيَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ الآية.

كان السؤال عن الأهل تبدو صغيرة ثم تكبر وجاء الجواب لغير هذا السؤال على طريق الاستطراد
وهذا ما أشار إليه المفسر العلامة.

والاستطراد لوجه من البديع البليغ، وقد حدده أهل البلاغة بأنه: «الانتقال من معنى إلى معنى آخر
متصل به، لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني» ثم أشار صاحب الإيضاح الذي حدده بهذا
التحديد إلى مثال من الشعر وهو قول الحماسي [من الطويل]:

وإنما لاقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

وذكر أيضاً من هذا الباب قوله - تعالى - ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ قَدْ أَرْسَلْنَا رِيسًا يَرْى مَوَاقِيتَكُمْ وَيُرْسِلُ رِيسًا =

من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر، بر من اتقى ذلك وتجنبه، ولم يجسر على مثله، ثم قال: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: أي: وباشروا الأمور من وجوها التي يجب أن تباشروا عليها ولا تعكسوا، والمراد: وجوب توطين النفوس، وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الإتهام بمقارفة الشك، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ﴾ (١١٥) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَقْتُلُونَهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١١٦) فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١١٨)

المقاتلة في سبيل الله: هو الجهاد، لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الدين، ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾: الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وعن الربيع بن أنس - رضي الله عنه -: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فكان رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقاتل من قاتل ويكف عمن كف، أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصب من

= أَلْفَتْهُنَّ ذَلِكَ حَيْرٌ... الآية فقد أورد الزمخشري هنا أنها على سبيل الاستطراد في قوله «ولباس التقوى»... وهذا هو أصل الاستطراد.

وقد يكون الثاني مقصوداً ويجعل الأول توصلاً إليه، وذلك كقول أبي إسحاق الصابي مادحاً سيف الدولة [من الكامل]:

إِنْ كُنْتُ خَشْتُكَ فِي الْمَوَدَّةِ سَاعَةً فَذَمَمْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودَا

وزعمت أَنْ لَهُ شَرِيكَاً فِي الْعُلَى وَمَجْدَتُهُ فِي فَضْلِهِ التَّوْحِيدَا

ويقصد «بالتوحيد» عدم النظير له في الفضل، والغموس: أشد الإيمان والشاهد في الآيات: ذكره حديث الخيانة ليتوصل به إلى مدح سيف الدولة وهذا النوع «الاستطراد» يسميه بعض علماء البديع حسن الخروج، ولا مشاحة في الأسماء.

«الإيضاح مع تحقيق خفاجي ٣٠/٦ وما بعدها، البلاغة القرآنية لأبي موسى ٥٨٢ وما بعدها، والصناعتين لأبي هلال العسكري ٤٤٨ وما بعدها تحقيق د. مفيد قميحة ط. دار الكتب العلمية.

الشيخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم؛ لأنهم جميعاً مضادون للمسلمين قاصدون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة، قاتلوا أو لم يقاتلوا، وقيل: لما صدّ المشركون رسول الله - ﷺ - عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فرجع لعمره القضاء، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش ويصدّوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام، وكرهوا ذلك، نزلت وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم والشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك، ﴿وَلَا تَمْتَدُّوا﴾: بابتداء القتال، أو بقتال من نهيتهم عن قتاله من النساء، والشيخ والصبيان، والذين^(١) بينهم عهد، أو بالمثلثة أو بالمفاجأة من غير دعوة، ﴿حَيْثُ يُفْتَنُوهُمْ﴾: حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم، والثقف: وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه: رجل ثقف، سريع الأخذ لأقرانه، قال [من الوافر]:

فَإِذَا تَثَقَّفُونِي فَأَقْتُلُونِي فَمَنْ أَثَقَّفَ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ^(٢)

﴿مِنْ حَيْثُ آمَرْتُمْ﴾ / ١٧١. أي: من مكة وقد فعل رسول الله - ﷺ - بمن لم يسلم منهم يوم الفتح، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به، أشدّ عليه من القتل، وقيل لبعض الحكماء: ما أشدّ من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت، ومنه قول القائل [من الطويل]:

لَقَتْلُ بِحْدِ السَّيْفِ أَهْوَى مَوْعِياً عَلَى النَّفْسِ مِنْ قَتْلِ بِحْدِ فِرَاقِ^(٣)

وقيل: ﴿الْفِتْنَةُ﴾: عذاب الآخرة، ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الدّيات: ١٣] وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقبل: والشرك الذي هم عليه أشدّ وأعظم مما يستعظمونه، ويجوز أن يراد: وفتنتهم إياكم بصدّكم عن المسجد الحرام أشدّ من قتلهم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم، وقرئ: «ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم»: جعل وقوع القتل

(١) قوله «الذين» لعله أو الذين. (ع)

(٢) «إما» هي «أن» الشرطية أدغمت نونها في «ما» الزائدة للتنصيص على التعميم. والثقف: القبض والضبط. ومنه «الثفاف» وهو الآلة التي تعض الرماح وتقبيضها لتقويمها. يقول: إن تدركوني في أي وقت وتغلبوني فاقتلوني، فإن من أدركني منكم ليس مجاباً أو منتهباً إلى خلود، بل لا بد من قتله. وهذا من الإشاحة والجد في القتال، وقطع أطماع الصلح من البال. ينظر: الدر المصون ١/ ٤٨٠.

(٣) يقول: تالله إن القتل بالسيف أهون على النفس وقوعاً من القتل بالفراق. وشبهه بالسيف على طريق المكنية. وإضافة الحد إليه تخيل، وحسن الاستعارة مشاكلته لما قبله.

في بعضهم كوقوعه فيهم، يقال: قتلنا بنو فلان. وقال: فإن تقتلونا نقتلكم، ﴿إِنِ انْتَهَوْا﴾: عن الشرك والقتال، كقوله: ﴿إِن يَسْتَهْوَا يُعْطَرْ لَهُمْ مَا فَدَّ سَلَكٌ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ أي: شرك، ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾: خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب، ﴿إِنِ انْتَهَوْا﴾: عن الشرك، ﴿فَلَا عُذْرَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: فلا تعدوا على المنتهين، لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوضع قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ موضع على المنتهين. أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين، سُني جزاء الظالمين ظلماً، للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِمْ﴾ أو أريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْحُرُمَتُ فَيَصَاصُ فَمَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ أَلْفُ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقبل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكرهتهم القتال وذلك في ذي القعدة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾، أي: هذا الشهر بذلك الشهر وهتك بهتكه، يعني: تهتكون حرمة عليهم، كما هتكوا حرمة عليهم، ﴿وَالْحُرُمَتُ فَيَصَاصُ﴾، أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك حرمة أي حرمة كانت، اقتص منه بأن تهتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله ﴿مَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ أَلْفُ اللَّهِ﴾: في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

الباء في: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: مزيدة مثلها في أعطى بيده للمنقاد، والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم، أي: لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم، وقيل: (بأيديكم)، بأنفسكم، وقيل تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها، والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك / أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله، أو عن الاستقتال والإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو وروي أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أنزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ فنصرناه، وشهدنا معه المشاهد، وأثرناه على أهاليها وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهاليها وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها. فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، (١٢٣) وحكى أبو علي في «الحليات» عن أبي عبيدة، التهلكة والهلاك والهلك:

واحد، قال: فدلَّ هذا من قول أبي عبيدة على أن التهلكة مصدر، ومثله: ما حكاه سيبويه من قولهم التضرة والتسرة ونحوها في الأعيان: التضبة والتنفلة، ويجوز أن يقال: أصلها التهلكة كالنجرة والتبصرة ونحوهما، على أنها مصدر من هلك فأبدلت من الكسرة ضمة، كما جاء الجوار في الجوار^(١).

﴿وَأَنْتُمْ لِمَجِّ وَالْمَمَرَةِ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرْبُوعًا أَوْ بِيْذٍ أَدَّى مِنْ رَأْسِهِ فِقْدَانًا مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْمَمَرَةِ إِلَى الْمَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي لَحْجٍ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾

١٢٣ - أخرجه أبو داود (١٦/٢) كتاب الجهاد، باب في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ حديث (٢٥١٢)، والترمذي (٢١٢/٥) كتاب تفسير القرآن حديث (٢٩٧٢)، والحاكم في المستدرک (٨٤/٢)، (٢٧٥).

والنسائي في التفسير (٢٣٦/١) رقم (٤٨)، والطبائسي رقم (٥٩٩)، والطبري في التفسير رقم (٣١٧٩ - ٣١٨٠)، والبيهقي في سننه (٤٥/٩) كتاب السير، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَأَنْتُمْ لِمَجِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... الآية﴾، والطبراني في الكبير (١٧٦/٤) رقم (٤٠٦٠).

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٢٠٧)، وزاد نسبه لسعيد بن حميد وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال الحافظ ابن حجر في تخریج الکشاف: أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي أخبرنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم بن عمران - فذكره سواء. وأصله عند أبي داود والنسائي والترمذي من رواية أسلم المذكور. قال: «خرجنا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم وصفنا لهم صفًا عظيمًا من المسلمين فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم. فصاح الناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يأبها الناس والحديث - وفي رواية الترمذي: «وعلى الناس فضالة بن عبيد»، وفي رواية النسائي: «وعلى أهل مصر عقبه بن خالد»، «وعلى أهل الشام فضالة»، وكذا أخرجه أحمد وإسحاق، وأبو يعلى، والطبري، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وغيرهم. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: وزدَّ عليه الشيخ بأنَّ فيه خَمَلًا على شاذ وذغوى إبدال لا دليل عليها؛ وذلك أنه جعله تَفْعَلَة بالكسر مصدر فَعَّلَ بالتشديد، ومصدره إذا كان صحيحًا غَيْرَ مَهْمُوزٍ على تَفْعِيل، وَتَفْعَلَة فيه شاذٌّ. وأما تنظيره له بالجوار والجوار فليس بشيء؛ لأن الضمَّ فيه شاذٌّ، فالأولى أن يقال: إنَّ الضمَّ أصلٌ غَيْرٌ مُبْدَلٍ من كسر. وقد حكى سيبويه ممَّا جاء من المصادر على ذلك التَضَرُّة والتَّشَرُّة. قال ابن عطية: «وقرأ الخليل «التَهْلُكَة» بكسر اللام وهي تَفْعَلَة من تَهْلِك بتشديد اللام» وهذا يَقْرَأُ قولُ الزَّمخشرى. انتهى. الدر المصنوع.

﴿وَأَتَيْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ بِرٍّ﴾: اثنتا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهما، قال [من الوافر]:

تَمَامُ الْحَجِّ أَنْ تَقِفَ الْمَطَايَا عَلَى خَزَفَاءٍ وَاضِعَةِ اللَّثَامِ^(١)
جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم إلا به، وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من ديرة أهلك، روي ذلك عن عليّ وابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهم -، وقيل: أن تفرد لكل واحد منهما سفرأ كما قال محمد: حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل، وقيل: أن تكون النفقة حلالاً، وقيل: أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية، فإن قلت: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلت: ما هو إلا أمر بإتمامهما، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً، إلا أن تقول: الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما، بدليل قراءة من قرأ «وأقيموا الحج والعمرة»، والأمر للوجوب في أصله، إلا أن يدلّ دليل على خلاف الوجوب، كما دلّ في قوله: ﴿فَأَمَّا ادَّاءُ﴾ [المائدة: ٢] ﴿فَأَنْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣] ونحو ذلك، فيقال لك: فقد دلّ الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روي أنه قيل: يا رسول الله: العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: «لا»، ولكن أن تعتمر خير لك» (١٢٤) وعنه: «الحج جهاد، والعمرة تطوع». (١٢٥) فإن قلت: فقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه

١٢٤ - أخرجه الترمذي (٢٦١/٣) كتاب الحج، باب ما جاء في العمرة أواجبة هي أم لا؟ حديث (٩٣١)، حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعائي حدثنا عمرو بن علي عن الحجاج، عن محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي - ﷺ - سئل عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا وأن تعتمروا هو أفضل». والدارقطني (٢٨٥/٢) كتاب الحج، باب المواقيت مرفوعاً وموقوفاً.
قال الحافظ في تخریج الكشف: أخرجه الترمذي من رواية حجاج بن أرطاة عن ابن المنكدر: «أن النبي - ﷺ - سئل عن العمرة: أواجبة هي؟ قال: لا. وأن تعتمر هو أفضل»، ورواه الطبراني من رواية عبيد الله بن المغيرة عن أبي الزبير عن جابر، بلفظ: «وأن تعتمر خير لك»، ورواه الدارقطني من الوجهين. وضعفه.

١٢٥ - روى من حديث طلحة بن عبيد الله ومن حديث ابن عباس ومن حديث ميمونة.

(١) لذي الرمة. وخرقاء: اسم محبوبة له من بني عامر؛ لأنه لما شغف بها خرق أدواته وقال: إن تمام حجبنا أن نזור خرقاء فتفق مطايا رجل مسافر، فأصليحي لي أدواتي. والله لا أحسن العمل وإني لخرقاء أي حمقاء، حولها حال كونها واضعة اللثام عن وجهها حتى أراء. وإضافة الوصف إلى مفعوله لفظية لا تفيد التعريف فصح حالاً. وحكي أن بعض السلف الصالح قال لصاحبه: هل نتم حجبنا كما قال ذو الرمة، وأنشد البيت. قيل وحقيقة مراده أنه ينبغي كما قطعنا البراري ووصلنا إلى حرمة، أن نقطع أهواء النفس حتى نشاهد آثار كرمه، فيكون استعماله البيت من باب التمثيل.

قال: «إن العمرة لقرينة الحج، (١٢٦) وعن عمر - رضي الله عنه - أن رجلاً قال له: إني

= - أما حديث طلحة:

أخرجه ابن ماجة (٩٩٥/٢) كتاب المناسك، باب العمرة، حديث (٢٩٨٩) حدثنا هشام ابن عمار ثنا الحسن بن يحيى الخشني ثنا عمر بن قيس. أخبرني طلحة بن يحيى عن عمه إسحاق بن طلحة عن طلحة بن عبيد الله، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «الحج جهاد والعمرة تطوع». قال البوصيري في الزوائد (٢٤/٣) رقم (١٠٤٧):

«هذا إسناد ضعيف عمر بن قيس المعروف بسندك ضعفه أحمد وابن معين والفلاس وأبو زرعة وأبو حاتم والبخاري وأبو داود وغيرهم، والحسن الراوي عنه ضعيف» أ.هـ.

- أما حديث ابن عباس:

فرواه الطبراني (٤٤٢/١١) رقم (١٢٢٥٢) قال: حدثنا أحمد بن الجعد ثنا محمد بن بكار ثنا محمد بن الفضل عن عطية عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

قال الهيثمي في المجمع (٢٠٨/٣):

«رواه الطبراني في الكبير وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو كذاب» أ.هـ.

- وأما حديث ميمونة:

فرواه ابن أبي داود في المصاحف (ص ١١٤) حدثنا يعقوب بن عبد الله بن أبي مخلد حدثنا أبو منصور حدثنا عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عمه عن ميمونة عن النبي - ﷺ - قال: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

قال الزيلعي في نصب الراية (١٥٠/٣):

«حديث آخر: قال الشيخ في الإمام: روى عبد الباقي بن قانع حدثنا بشر بن موسى ثنا جرير وأبو الأحوص عن معاوية بن إسحاق عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الحج جهاد والعمرة تطوع». انتهى قال الشيخ: قال ابن حزم هذا كذب من بلایا عبد الباقي بن قانع التي تفرد بها» انتهى من نصب الراية.

قال الحافظ ابن حجر في تخریج الکشاف: أخرجه ابن ماجة من رواية إسحاق بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه بهذا. ورواه الطبراني من حديث ابن عباس بنحوه، وفيه محمد بن الفضل بن عطية. وهو ضعيف. ورواه ابن أبي داود في المصاحف من رواية عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عمه عن مسعود. قال الدارقطني في العلل: هذا خطأ. ولعله أراد إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عمه عيسى بن طلحة، وإنما يعرف هذا الحديث من رواية معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة. ورواه الحفاظ من أصحاب شعبة عن معاوية بن إسحاق عن أبي صالح عن ماهان مرسلاً. وكذلك رواه ابن أبي شيبة عن جرير عن معاوية بن إسحاق. وقال البيهقي: روى عن شعبة هذا الإسناد موصولاً. لكن الطريق فيه إلى شعبة ضعيف. انتهى.

١٢٦ - أخرجه البيهقي في المعرفة (٥٠٣/٣) كتاب المناسك، باب العمرة هل تجب وجوب الحج حديث (٢٧٠٨)، والشافعي في الأم (١٣٢/٢).

وذكره البخاري تعليقاً في صحيحه (٤٣١/٤) كتاب العمرة، باب العمرة وجوب العمرة وفضلها.

قال الحافظ ابن حجر في تخریج الکشاف:

أخرجه البخاري تعليقاً. والشافعي موصولاً. من رواية عمرو بن دينار عن طاوس عنه. انتهى.

وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليّ، أهملت بهما جميعاً فقال: «هديت لسنة نبيك»، (١٢٧) وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج؟ قلت: كونها قرينة للحج أنّ القارن ١٧٢ يقرن بينهما، وأنهما يقتزمان في الذكر فيقال: حجّ فلان واعتمر والحجّاج والعمار، ولأنها الحج الأصغر، ولا دليل في ذلك، على كونها قرينة له في الوجوب، وأمّا حديث عمر - رضي الله عنه - فقد فسر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهملت بهما، وإذا أهلّ بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوّع من الصلاة، والدليل الذي ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقي الحجّ وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان وستة من شوال، في أنك تأمره بفرض وتطوّع، وقرأ عليّ وابن مسعود والشعبي - رضي الله عنهم - «والعمرة لله»: بالرفع، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحجّ وهو الوجوب، ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾: يقال: أحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال ابن ميادة [من الطويل]:

وَمَا هَجَرْتُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ تَبَاعَدَتْ عَلَيْنِكَ وَلَا أَنْ أُخْصِرْتِكَ شُغُولٌ^(١)

وخصر: إذا حبسه عدوّ عن المضي، أو سجن، ومنه قيل للمحبس: الحصر، وللملك، الحصر، لأنه محجوب، هذا هو الأكثر في كلامهم، وهما بمعنى المنع في كل شيء، مثل صدّه وأصدّه، وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة - رحمهم الله تعالى - كل منع عنده من عدوّ كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم

١٢٧ - أخرجه أبو داود (٥٥٩/١) كتاب المناسك، باب في الإقراّن حديث (١٧٩٨).
والنسائي (١٤٦/٥ - ١٤٧) كتاب المناسك، باب القراّن، وابن ماجه (٩٨٩/٢) كتاب المناسك، باب من قرّن الحج والعمرة حديث (٢٩٧٠)، وأحمد (١٤/١)، ٢٤، ٣٧، ٥٣.
وابن حبان في صحيحه (٢١٩/٩) رقم (٣٩١٠، ٣٩١١)، وابن خزيمة (٣٥٢/٤) رقم (٣٠٦٩)، والبيهقي (٣٥٧/٤) كتاب الحج، باب جواز القراّن.
وفي (٣٥٤/٤) كتاب الحج، باب القارن يهريق دمًا.
قال الحافظ ابن حجر في تخرّيج الكشاف:
أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان من رواية أبي وائل عن الضبي بن معبد به.
انتهى.

(١) لتوبة بن حمير، يقول لنفسه: ليس هجر ليلي الأخيلية محبوتك لتباعدتها عنك ولا لأشغال منعك عنها، بل لخوف الرقياء والوشاة هجرتها ويجوز أن المعنى: ليس هجرها لك بسبب، وإنما هو لإيذائك واحتراق قلبك.

ينظر اللسان: (حصر)، الدر المصنوع (٤٨٤/١)، فتح القدير (٤١٦/١).

الإحصار، وعند مالك والشافعي منع العدو وحده، وعن النبي - ﷺ -: «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل»، (١٢٨) ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: فما تيسر منه، يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدي جمع هدية، كما يقال في جدية السرج^(١) جدي، وقرئ: «من الهدْيِ»: بالتشديد جمع هدية كمطية ومطَيّ، يعني: فإن منعتم من المضى إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدْي من بعير أو بقرة أو شاة، فإن قلت: أين ومتى ينحر هدي المحصر؟ قلت: إن كان حاجاً فبالحرم متى شاء عند أبي حنيفة يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار^(٢) وعندهما في أيام النحر وإن كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً، و (ما استيسر): رفع بالابتداء، أي فعليه ما استيسر، أو نصب على: فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ﴾: الخطاب للمحصرين، أي لا تحلوا حتى تعلموا أنّ الهدْي الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ، ﴿تَحْلِفُ﴾: أي مكانه الذي يجب نحره فيه، ومحل الدين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر على مذهب أبي حنيفة - رحمه الله -. فإن قلت: إنّ النبي - ﷺ - نحر هديه حيث أحصر؟ قلت: كان محصره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة وهو

١٢٨ - أخرجه أبو داود (٤٣٣/٢): كتاب المناسك (الحج). باب الإحصار.، حديث (١٨٦٢)، والترمذي (٢٧٧/٣): كتاب الحج. باب ما جاء في الذي يهل بالحج فيكسر أو يعرج، حديث (٩٤٠)، والنسائي (١٩٨/٢)، كتاب الحج، باب فيمن أحصر بعدو، وابن ماجه (١٠٢٨/٢): كتاب المناسك: باب المحصر، حديث (٣٠٧٧)، والحاكم (٤٧٠/١)، كتاب المناسك، والبيهقي (٢٢٠/٥). كتاب الحج: باب من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض. وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥٧/١ - ٣٥٨) وابن سعد في «الطبقات» (٢٣٨/٤) والطبراني في «الكبير» (٢٥٣/٣) والدارقطني (٢٧٨/٢) كتاب الحج: باب المواقيت من طريق عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله - ﷺ - من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى. قال عكرمة فذكرت ذلك لأبي هريرة وابن عباس فقالا: صدق.

قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أصحاب السنن، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبه، والطبراني من حديث عكرمة عن ابن عمرو بن غزية الأنصاري. انتهى.

١٢٩ - أخرجه البخاري (٧/٤) كتاب المحصر باب إذا أحصر المعتمر حديث (١٨٠٩) من حديث ابن

(١) قوله «في جدية السرج» في الصحاح «الجدية» بتسكين الدال: شيء محشو يجعل تحت دفتي السرج والرحل. ثم قال: وكذلك الجدية على فعيلة. (ع)

(٢) قوله «على يده يوم أمار» عبارة البيضاوي: يوم أماره، فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل. وفي الصحاح: قال الأصمعي: الأمار والأماره. الوقت والعلامة. (ع)

من الحرم، وعن الزهري: أَنَّ رسول الله - ﷺ - نحر هديه في الحرم، (١٣٠) وقال الواقدي: الحديدية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة، ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾: فمن كان به مرض يحوجه/ ٧٢ ب إلى الحلق، ﴿أَوْ يَدُ أَذَى يَنْ زَأْيِدِهِ﴾: وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا احتلق فدية، ﴿يَنْ مِيَايَ﴾: ثلاثة أيام، ﴿أَوْ مَكْفُوفٍ﴾: على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من برّ، ﴿أَوْ سُكُوفٍ﴾: وهو شاة، وعن كعب بن عجرة أَنَّ رسول الله - ﷺ - قال له: «لعلك أذاك هوامك؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة» (١٣١) وكان كعب يقول: في

= عباس، وأخرجه (١١/٤) كتاب المحصر: باب الإحصار في الحج حديث (١٨١٠) من حديث ابن عمر.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف:

أما نحر الهدى حين أحصر ففي البخاري من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه - ﷺ - خرج معتمرًا فحلق كفار قریش بينه وبين البيت، فنحر هديه، وحلق رأسه بالحديدية وأما كونه أسفل مكة فرواه.

وأما حديث الزهري فلم أجده، لكن روى الطبري من حديث ناجية بن جندب الأسلمي قال أتيت النبي - ﷺ - حين صد عن البيت فقلت: يا رسول الله، ابعث معي بالهدى فنحرم بالحرم قال: كيف تصنع به؟ قال أنحدر به في أودية فلا يقدرون عليه، فانطلقت به حتى نحرته في الحرم. انتهى.

١٣٠ - قال الزيلعي (١/١٢٤):

«لم أجده، لكن روى الطبري في تفسيره: حدثني الفضل بن سهل ثنا مخول بن إبراهيم ثنا إسرائيل عن مجزأة بن زاهر الأسلمي عن أبيه عن ناجية بن جندب الأسلمي قال: أتيت النبي - ﷺ - حين صد عن الهدى، فقلت: يا رسول الله، ابعث معي بالهدى فلنحره بالحرم. قال: «كيف تصنع به؟» قال: أخذ به أودية. فلا يقدرون عليه، فانطلقت به حتى نحرته بالحرم».

١٣١ - أخرجه البخاري (١٦/٤): كتاب المحصر: باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ مَكْفُوفٍ﴾، حديث (١٨١٥)،

ومسلم (٢/٨٦١، ٨٦٢): كتاب الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، وجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، حديث (١٢٠١/٨٥)، وأبو داود (٤٣٠/٢): كتاب المناسك (الحج): باب في الفدية، حديث (١٨٥٦)، والترمذي (٢٨٨/٣): كتاب الحج: باب ما جاء في المحرم يحلق رأسه في إحرامه ما عليه، حديث (٩٥٣)، والنسائي (١٩٥/٥): كتاب الحج: باب في المحرم يؤذيه القمل في رأسه، وابن ماجه (١٠٢٨/٢، ١٠٢٩): كتاب المناسك: باب فدية المحصر، حديث (٣٠٧٩) والبيهقي (٥٥/٥): كتاب الحج: باب من احتاج إلى حلق رأسه للأذى حلقة واقتدى، ومالك (٤١٧/١): كتاب الحج: باب فدية من حلق قبل أن ينحر، حديث (٢٣٧)، والطيالسي (٢١٣/١): كتاب الحج والعمرة: باب جواز الحجامة للمحرم، وما يفعل من اشتكى عينه أو تأذى بكثرة القمل في رأسه، حديث (١٠٢٦)، وأحمد (٢٤١/٤)، من حديث كعب بن عجرة، قال: «كان بي أذى من رأسي فحملت إلى رسول الله - ﷺ - والقمل يتناثر على وجهي، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ منك ما أرى، أتجد شاة؟ قلت: لا، فنزل الآية: ﴿فَيَذَرُهَا مِيَايَ أَوْ مَكْفُوفٍ أَوْ سُكُوفٍ﴾، قال: هو صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين نصف صاع طعاماً لكل

نزلت هذه الآية، وروي: أنه مرَّ به وقد قَرَحَ رَأْسُهُ^(١) فقال: «كفى بهذا أذى» (١٣١م) وأمره أن يحلق ويطعم، أو يصوم، والنسك: مصدر، وقيل: جمع نسيكة، وقرأ الحسن: أو «نسك»، بالتخفيف، ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾: الإحصار، يعني: فإذا لم تحصروا وكنتم في أمن وسعة، ﴿فَمَنْ تَنَحَّ﴾: أي استمتع، ﴿بِالْمَعْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾: واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج: انتفاعه بالتقرب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقريبه بالحج، وقيل: إذا حلَّ من عمرته، انتفع باستباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم بالحج، ﴿فَمَا اسْتَسَرَّ مِنْ أَلْفَيْ﴾: هو، هدي المتعة، وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه، وعند الشافعي: يجري مجرى الجنائيات ولا يأكل منه، ويذبحه يوم النحر عندنا، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته، ﴿فَمَنْ لَمْ يَحِدْ﴾: الهدي، ﴿ف﴾: عليه، ﴿صِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾: أي في وقته وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة - رحمه الله -، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم، وعند الشافعي: لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكاً بظاهر قوله: ﴿فِي لَحْجٍ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: هو الرجوع إلى

= مسكين.

وفي لفظ لمسلم (٢/٨٦١): كتاب الحج: باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، حديث (٨٤/١٢٠١)، وأبو داود (٢/٤٣١): كتاب المناسك (الحج): باب في الفدية، حديث (١٨٥٧)، وأحمد (٤/٢٤٢)، عنه قال: «أتى على رسول الله - ﷺ - زمن الحديبية فقال: «كأن هوام رأسك تؤذي»، فقلت: أجل. قال: «فاحلقه واذبح شاة أو صم ثلاثة أيام أو تصدق بثلاثة أصع من تمر بين ستة مساكين»، وزاد أبو داود في رواية أخرى: فحلق رأسه ثم نسكت».

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/٣٨٥) وعزاه إلى وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبي داود وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي. قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف. متفق عليه. وله طريق وألفاظ في الكتب الستة وغيرها، والأقرب للفظ المنصف ما رواه مالك. انتهى.

١٣١م - أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/١٠٦)، والعقيلي (٣/٣٨٧).

وقال الحافظ أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني والدارقطني من رواية الزبير بن عدي عن أبي وائل عن كعب بن عجرة قال لقيني رسول الله - ﷺ -، فمسح رأسي فتناثر القمل. فقال: كفى بهذا أذى، انطلق فاحلق وتصدق على ستة مساكين، وفي رواية إسحاق، قال: «إن هذا لأذى» وأمره أن يحلق وأن ينسك أو يصوم أو يطعم. انتهى.

(١) قوله «وقد قرح رأسه» في الصحاح: قرح جلده - بالكسر - خرجت به القروح. (ع)

أهاليهم، وقرأ ابن أبي عتبة: «وسبعة»: بالنصب، عطفًا على محل ثلاثة أيام، وكأنه قيل: فصيام ثلاثة أيام؛ كقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَمُتْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (البقرة: ١٨٥، ١٨٦) فإن قلت: فما فائدة الفذلكة؟ قلت: الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين، ألا ترى أنه لو جالسهما جميعاً أو واحداً منهما، كان ممثلاً ففذلكت نفياً لتوهم الإباحة^(١)، وأيضاً ففائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ليحاط به، من جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم، وكذلك: ﴿كَايِلَةٌ﴾: تأكيد آخر، وفيه زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها، كما تقول للرجل إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزلة: الله الله لا تقصر، وقيل: كاملة في وقوعها بدلاً من الهدي، وفي قراءة أبي: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة/ ١٧٣ إلى التمتع، عند أبي حنيفة وأصحابه، لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم أو قرن، كان عليه دم، وهو دم جنائية لا يأكل منه؛ وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق، فدمهما دم نساك يأكلان منه، وعند الشافعي: إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدي أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئاً^(٢)، وحاضرو المسجد الحرام: أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: أهل الحرم، ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾: في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: لمن خالف؛ ليكون علمكم بشدة عقابه لطفاً لكم في التقوى.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سُوْقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَحْسَبْهُ اللَّهُ تَكْوِينًا وَكَزَادُوا قِسْرَتَ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾

الْأَلْبَسَ ﴿١٧٧﴾

أي وقت الحج ﴿أَشْهُرٌ﴾: كقولك: البرد شهران، والأشهر المعلومات: شوال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة^(٣)، عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: تسع ذي الحجة، وليلة يوم

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وفيه نظر؛ لأنه لا تتوهم الإباحة؛ فإن السياق سياق إيجاب، فهو ينافي الإباحة، ولا ينافي التخيير، فإن التخيير يكون في الواجبات، وقد ذكر النحويون الفرق بين التخيير والإباحة». انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «ولم يوجب عليهم شيئاً» أي على حاضري المسجد الحرام. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «هي شوال وذو القعدة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: الذي نقله عن مالك أحد قوليه وليس بالمشهور عنه. وأما استدلاله لهذا القول بكرامية عمر الاعتماد إلى أن يهل المحرم فلا ينهض دليلاً لمالك، لأنه يقول: لا تنعقد العمرة في أيام منى خاصة لمن حج، ما لم =

النحر، وعند مالك: ذي الحجة كله، فإن قلت: ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلت: فائدته أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلا فيها، والإحرام بالحج لا ينقصد - أيضاً - عند الشافعي في غيرها، وعند أبي حنيفة ينقصد إلا أنه مكروه، فإن قلت: فكيف كان الشهران وبعض الثالث أشهر؟ قلت: اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿نَقَدْتُمْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ [التحریم: ٤] فلا سؤال فيه إذن؛ وإنما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل: ثلاثة أشهر معلومات، وقيل: نُزِلَ بعض الشهر منزلة كله، كما يقال: رأيتك سنة كذا، أو على عهد فلان، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر، وإنما رآه في ساعة منها، فإن قلت: ما وجه مذهب مالك وهو مروى عن عروة بن الزبير؟ قلت: قالوا إن العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر؛ فكانها مخصصة للحج لا مجال فيها للعمرة، وعن عمر - رضي الله عنه -: أنه كان يخفق الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتماد فيها، وعن عمر^(١) - رضي الله عنه -: قال لرجل: إن أطعنتي انتظرت حتى إذا أهملت المحرم^(٢) خرجت إلى ذات عرق فأهملت منها بعمرة، وقالوا: لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر، ﴿مَمْلُوءَةٌ﴾: معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم، وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه؛ وإنما جاء مقرراً له، ﴿فَمَنْ وَصَّ فِيهِكَ الْمَجْزُ﴾: فمن ألزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه عند أبي حنيفة وعند الشافعي بالنية ﴿وَلَا رَفْعَ﴾: فلا جماع؛ لأنه يفسده، أو فلا فحش من الكلام، ﴿وَلَا سُوءَ﴾: ولا خروج عن حدود الشريعة وقيل: هو السباب والتنازع بالألقاب، ﴿وَلَا جِدَالَ﴾: ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكاريين^(٣)؛ وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجب/٧٣ ب الاجتناب في

= يتم الرمي ويحل بالإفاضة فتنعقد. وجميع السنة ما عدا ما ذكر ميقات للعمرة، ولا تظهر فائدة هذا القول عند مالك إلا في إسقاط الدم عن مؤخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة لا غير، وهي الفائدة التي نقلها الزمخشري عن عروة، ولعمري إن هذا القول حسن دليلاً، فلا يحتاج إلى مزيد. ولكن ظاهر الآية ومقتضاها: أن جملة الأشهر هي زمان الحج. ألا ترى أن من قال: وعشر من ذي الحجة يحتاج في تنزيل الآية على مذهبه إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه، ويستشهد على ذلك بقوله: • ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال • وإنما أحوجه إلى الاستشهاد، خروج مقاله عن ظاهر الآية؛ فالتمسك بها على ظاهرها في كمال الأشهر الثلاثة واقف مع اقتضاها غير مضطر إلى مزيد عليه.

(١) قوله «وعن عمر» لعله ابن عمر. (ع)

(٢) قوله «حتى إذا أهملت المحرم» في الصحاح: أهل الهلال واستهل. على ما لم يسم فاعله. (ع)

(٣) قوله «والمكاريين» في الصحاح: الكراء ممدود، لأنه مصدر كارت. والدليل على ذلك أنك تقول: رجل مكار. ومفاعل: إنما هو من فاعلت اهـ فالمكاريين في عبارة المفسر. جمع للمكاري، على زنة المفاعلين جمعاً للمفاعل. (ع)

كل حال^(١)، لأنه مع الحج أسمع كلبس الحرير في الصلاة؛ والتطريب في قراءة القرآن، والمراد بالنفي وجوب انتفاها، وأنها حقيقة بأن لا تكون، وقرىء المتفاتيح الثلاث بالنصب وبالرفع، وقرأ أبو عمرو وابن كثير الأولين بالرفع؛ والآخر بالنصب؛ لأنهما حملا الأولين على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفت ولا فسوق، والثالث: على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج، وذلك أن قرشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، وسائر العرب يفتون بعرفة؛ وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسء، فرد إلى وقت واحد ورد الوقوف إلى عرفة، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج؛ واستدل على أن المنهي عنه هو الرث والفسوق دون الجدال بقوله - ﷺ -: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، خرج كهيئته يوم ولدته أمه» (١٣٢) وأنه لم يذكر الجدال^(٢) «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمَهُ اللَّهُ»، حث على الخير عقيب

١٣٢ - أخرجه البخاري (٣٨٢/٣) كتاب الحج: باب فضل الحج المبرور حديث (١٥٢١)، (٢٥/٤) كتاب المحصر: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا رَفَثَ﴾ حديث (١٨١٩)، وباب قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُسَوِّكَ وَلَا جَنَاحًا فِي الْحَجِّ﴾ حديث (١٨٢٠)، ومسلم (٩٨٣/٢) كتاب الحج: باب في فضل الحج والعمرة حديث (١٣٥٠/٤٣٨) والنسائي (١١٤/٥) كتاب الحج: باب فضل الحج والترمذي (١٧٦/٣) كتاب الحج: باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة حديث (٨١١) وابن ماجه (٩٦٤/٢) - (٩٦٥) كتاب المناسك: باب فضل الحج والعمرة حديث (٢٨٨٩) وأحمد (٢٤٨/٢)، (٤١٠)، (٤٨٤) والطيالسي (٢٠٢/١) - منحة رقم (٩٧٥) والدارمي (٣١/٢) كتاب المناسك: باب في فضل الحج والعمرة، وأبو يعلى (٦١/١١) رقم (٦١٩٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٣١٦/٨) وابن خزيمة (٤/١٣١) رقم (٢٥١٤) وابن حبان رقم (٣٧٠٢) - الإحسان) والبيهقي (٦٧/٥) كتاب الحج: باب لا

(١) قال محمود رحمه الله: «إنما أمر باجتناب ذلك في الحج واجتنابه واجب... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان. وهي أن تخصيص الحج بالنهي عن الرث فيه والفسوق والجدال يشعر بأنها في غير الحج وإن كانت منهياً عنها وقبيحة، إلا أن ذلك القبح الثابت لها في غير الحج كلا قبح بالنسبة إلى وقوعها في الحج فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة والله أعلم. على أن الرث إن كان التحدث في أمر الجماع خاصة، فالنهي عنه خاص بالحج وهو جائز في غيره على الوجه الشرعي. وقد نبه مالك رضي الله عنه على أنه لا بأس للحاج بالسعي في أمور النساء. إلا أن ذلك قد يقع في الوهم على أنه يؤدي إلى ترك المحظور. وهذا يدل على تشديد مالك في حظر الرث للحاج وما يتعلق به والله أعلم. وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحاق في قوله من التنبيه: ونحرير الغيبة على الصائم. فيقولون: وعلى المفطر. فلا فائدة في تخصيص الصائم. ويعدون ذلك وهماً منه وهم بمعزل عن هذه الآية وأمثالها، فقد أوسعته عنراً في عبارته تلك؛ إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة وصحة العبارات.

(٢) قوله «خرج كهيئته يوم» لعله «كهيئته» بدون «يوم». (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: وهذا الذي ذكره الزمخشري سبقه إليه صاحب هذه القراءة، إلا أنه أفصح عن =

النهي عن الشر؛ وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى؛ ومكان الجدل الوفاق والأخلاق الجميلة، أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم، حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه، وينصره قوله تعالى: ﴿وَكُذِّبُوا قَبْلَكَ خَيْرَ الزَّادِ النَّفْوَى﴾، أي: اجعلوا زادكم إلى الآخرة؛ اتقاء القبائح، فإن خير الزاد اتقاؤها، وقيل: كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون، ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كلاً على الناس، فنزلت فيهم، ومعناه: وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس^(١)، والتثقل عليهم، فإن خير الزاد التقوى، ﴿وَأَتَّقُوا﴾: وخافوا عقابي، ﴿يَتَأَوَّلِي﴾: يعني أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء فكانه لا لب له.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِلِينَ﴾ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إنك الله عفوودرحيم ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَنْكَدَ ذِكْرًا فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنَ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَنَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ

رفعت ولا فسوق ولا جدال في الحج، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٢٢/١١) والحميدي (٢/ ٤٤٠) رقم (١٠٠٤) والبنوي في «شرح السنة» (٤/٤) - بتحقيقنا) كلهم من طريق أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أبي هريرة. انتهى.

مراده، قال أبو عمرو بن العلاء - أحد قارئيه -: الرفع بمعنى فلا يكون رفعت ولا فسوق؛ أي شيء يخرج من الحج، ثم ابتدأ النبي فقال: «ولا جدال»، فأبو عمرو لم يجعل التفتين الأولين نهياً، بل تركهما على النبي الحقيقي؛ فيمن ثم كان في قوله هذا نظراً؛ فإن جملة النبي بلا التبرئة قد يراها بها النهي أيضاً، وقيل ذلك في قوله: ﴿لَا رِبَّ فِيهِ﴾. والذي يظهر في الجواب عن ذلك ما نقله أبو عبد الله الفاسي عن بعضهم فقال: «وقيل: الخجة لئن رفعها أن النبي فيها ليس بعالم، إذ قد يقع الرفعت والفسوق في الحج من بعض الناس بخلاف نفي الجدال في أمر الحج فإنه عام... وهذا يمتشى على عزف التحوين فإنهم يقولون: لا العاملة عمل «ليس» لنفي الزخدة، والعاملة عمل «إن» لنفي الجنس، قالوا: ولذلك يقال: لا رجل فيها بل رجلان أو رجال إذا رفعت، ولا يحسن ذلك إذا بُنِيَتْ اسمها أو نُصِبَتْ بها. وتوسط بعضهم فقال: التي للتبرئة نص في العموم، وتلك ليست نصاً، والظاهر أن التكرار في سياق النبي مطلقاً للعموم. انتهى. الدرر المصون.

(١) قوله «وإبرام الناس» في الصحاح: أبرمه، أي أمله وأضجره. (ع)

خَلَقَ ﴿١٥٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١٥٦﴾ أَوَلَيْكَ لَهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥٧﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَصِيبْ يَمَنًا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٥٨﴾

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: عطاء منه وتفضلاً، وهو النفع والربح بالتجارة، وكان ناس من العرب يأتون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، ويسمون من يخرج بالتجارة: الداج^(١)، ويقولون: هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، وقيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيع لهم، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة، وعن ابن عمر - رضي الله عنه -: أن رجلاً قال له: إنا قوم نكري في هذا الوجه وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا، فقال: سأل رجل رسول الله - ﷺ - عما سألت فلم يرده عليه، حتى نزل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، فدعا به فقال: «أنتم حجاج»، (١٣٣) وعن عمر - رضي الله عنه - أنه قيل له: «هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت/ ٧٤ معاشنا إلا من التجارة في الحج»، (١٣٤) وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما -: «فضلاً من ربكم في مواسم الحج»، «أن تبتغوا» في أن تبتغوا^(٢) ﴿أَنْفُسَهُ﴾ دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة، وأصله أفضتم

١٣٣ - أخرجه أبو داود في سننه (٥٤١/١) كتاب المناسك، باب الكرى حديث (١٧٣٣)، وأحمد في المسند (١٥٥/٢)، والحاكم في المستدرک (٤٤٩/١)، والدارقطني في السنن (٢٩٢/٢) كتاب الحج، باب المواقيت، والطبرانی في مسنده رقم (١٩٠٩)، وابن جرير (١٦٤/٤) رقم (٣٧٦٥)، وسعيد بن منصور (٨٢٠/٣) رقم (٣٥٢).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود، وأحمد، وابن أبي شيبه، والحاكم من طريق العلاء بن المسيب: حدثنا أبو أمامة التيمي قال: «كنت أكرى في هذا الوجه وكان قوم يقولون: إنه ليس لك حج فلفقت ابن عمر فقال: ألسنت بمحرم ولكن - الحديث». انتهى.

١٣٤ - أخرجه ابن جرير (١٦٨/٤ - ١٦٩) رقم (٣٧٨٨) حدثنا أحمد بن إسحاق قال: حدثنا أبو أحمد قال: حدثنا مندل عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبي صالح مولى عمر قال: قلت لعمر: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا في الحج. ١. هـ.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن مهاجر عن أبي صالح مولى عمر قال: قلت يا أمير المؤمنين، - فذكره وفي إسناده مندل بن علي وهو ضعيف. انتهى.

(١) قوله «الداج» الدجيج: الديب في السير وقالوا: الحاج والداج، فالداج: الأعوان والمكارون كذا في الصحاح. والمكارون: جمع المكارى، كالمغازين جمع المغازي. (ع)

(٢) قوله «أن تبتغوا» كان الأوجه تقديم هذا على تفسير قوله تعالى ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾. (ع)

أنفسكم، فترك ذكر المفعول كما ترك في دفعوا من موضع كذا وصبوا، وفي حديث أبي بكر - رضي الله عنه - : «صب في دقران، وهو يخرش»^(١) بعيره بمحجنه» ويقال: أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه^(٢)، (١٣٥) و«عَرَفْتِ»: علم للموقف سمى بجمع كأذرعات، فإن قلت: هلا مُنعت الصرف وفيها السببان: التعريف والتأنيث^(٣)؟ قلت: لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقدرة كما في سعاد؛ فالتى في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث ولا يصح تقدير التاء فيها، لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت، لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها، وقالوا: سميت بذلك؛ لأنها وصفت لإبراهيم - عليه السلام - فلما أبصرها عرفها، وقيل: إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها فقال: قد عرفت، وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا، وقيل: لأن الناس يتعارفون فيها والله أعلم بحقيقة ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة؛ لأن العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف، وقيل: فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، وعن النبي - ﷺ - : «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج» (١٣٦) ﴿قَدْ ذُكِّرُوا

١٣٥ - قال الزيلعي (١٢٧/١): «لم أجده بهذا اللفظ».

وقال الحافظ: لم أجده. والذي في الغرائب لأبي عبيد الجرمي. وفي مسند الشافعي وطبقت ابن سعد كلهم من حديث عيينة عن ابن المنكدر، وعن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن جرير بن الحويرث قال «رايت أبا بكر على قزح. وهو يخرش بعيره بمحجنه»: زاد الجرمي عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن عيينة «كأنني أنظر إلى فخذه وقد انكشفت». انتهى.

١٣٦ - أخرجه أبو داود (٥٩٩/١) كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة حديث (١٩٤٩)، والترمذي =

(١) قوله «دقران» في بعض النسخ: دفران، بالذال المعجمة والفاء. ولعل الأول بالذال المهملة والفاء، من الدفر بمعنى التنن خاصة. والذفر - بالمعجمة والفاء محركة - ذكاء الرائحة طيبة أو خبيثة، كما في الصحاح. أما الدفر بالمهله والقاف فيمعنى الشدة والكذب والفحش والتعجمة. أفاده الصحاح. وفيه. الخرش مثل الخدش. (ع)

(٢) قوله «وهضبوا فيه» في الصحاح: الهضبة المطرة. وهضب القوم في الحديث واهتضبوا أي أفاضوا فيه. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت هلا مُنعت عرفات الصرف... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: يلزمه إذا سمى امرأة بمسلمات أن لا يصرفه فيقول: هذا مسلمات بغير تنوين. وهو قول رديء بل الأفصح الصحيح في مسلمات إذا سمى به أن ينون. وإنما بنى الزمخشري كلامه على أن تنوين عرفات للتمكين لا للمقابلة. ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين التي عدها في مفصله، على أنه راجع إلى تنوين التمكن».

الله: بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، وقيل: بصلاة المغرب والعشاء، و
 ﴿الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾: قزح، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميقدة، وقيل:
 المشعر الحرام: ما بين جبل المزدلفة من مأزمي عرفة^(١) إلى وادي محسر، وليس
 المأزمان، ولا وادي محسر من المشعر الحرام، والصحيح: أنه الجبل، لما روى جابر -
 رضي الله عنه -: أن النبي - ﷺ - لما صلى الفجر يعني بالمزدلفة بغلس، ركب ناقته حتى
 أتى المشعر الحرام، فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر، (١٣٧) وقوله تعالى:
 ﴿عند المشعر الحرام﴾: معناه مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالقرب
 من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، أو جعلت أعقاب المزدلفة؛
 لكونها في حكم المشعر ومتصلة به عند المشعر، والمشعر: المعلم، لأنه معلم العبادة،
 ووصف بالحرم لحرمته، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه نظر إلى الناس ليلة جمع
 فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون، وقيل: سميت المزدلفة جمعاً؛ لأن آدم -
 صلوات الله عليه - اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي دنا منها، وعن قتادة: لأنه
 يجمع فيها/ ٧٤ بين الصلاتين، ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون
 إلى الله أي يتقربون بالوقوف فيها، ﴿كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾: ما مصدرية أو كافة، والمعنى:
 واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، لا
 تعدلوا عنه، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾: من قبل الهدى، ﴿لَيْنَ الْفَصَائِلِ﴾: الجاهلين، لا
 تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، وإن هي مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة، ﴿ثُمَّ

 = (٣/٣٣٨)، كتاب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج حديث (٨٨٩)،
 والنسائي (٥/٢٦٤ - ٢٦٥) كتاب المناسك، باب في من لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام
 بالمزدلفة، وابن ماجه (٢/١٠٠٣) كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع حديث
 (٣٠١٥)، وأحمد (٤/٣٣٥) وابن حبان في صحيحه (٩/٢٠٣) (٣٨٩٢)، والدارمي (٢/٥٩)
 كتاب المناسك باب بما يتم الحج، وابن الجارود في المنتقى حديث (٤٦٨)، والدارقطني (٢/
 ٢٤٠، ٢٤١)، كتاب الحج باب المواقيت، والحاكم في المستدرک (١/٤٦٤)، والبيهقي (٥/١١٦)
 كتاب الحج، باب وقت الوقوف.

قال الحافظ في تخریج الکشاف: رواه أصحاب السنن، والحاكم، واللفظ للنسائي وزاد قبل: «أن
 يطلع الفجر» كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي - رضي الله عنه - انتهى.
 ١٣٧ - تقدم تخریج حديث جابر في صفة حج النبي - ﷺ - --
 قال الحافظ في تخریج الکشاف:
 أخرجه مسلم في صفة الحج في الحديث الطويل. انتهى.

(١) قوله «من مأزمي عرفة» في الصحاح: المأزم المضيق، وموضع الحرب أيضاً. (ع)

أَفِيضُوا: ثم لنكن إفاضةكم: ﴿مَنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، ولا تكن من المزدلفة، وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع^(١) على الناس والتعالي عليهم وتعظمهم عن أن يساووهم في الموقف، وقولهم: نحن أهل الله وقطان حرمه فلا تخرج منه، فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات؟ فإن قلت: فكيف موقع ثم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي بضم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره وبُعد ما بينهما؛ فكذاك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات، قال: ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضة، وأن إحداها صواب والثانية خطأ، وقيل: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وهم الحمس، أي: من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات، وقرئ: «من حيث أفاض الناس» - بكسر السين - أي الناسي وهو آدم، من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١١٥] يعني أن الإفاضة من عرفات شرع قديم فلا تخالفوا عنه، ﴿وَأَسْتَفْزِرُوا اللَّهَ﴾: من مخالفتكم في الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم، ﴿فَلَمَّا فَصَّيْتُهٖ سَائِكُكُمْ﴾، أي: فإذا فرغتم من عباداتكم الحجية ونفرتهم، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: فآكثروا ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم، وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل، فيعبدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم، ﴿وَ أَشْكَرُكُمْ﴾: في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر^(٢) في قوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كما تقول كذكر قريش آباءهم، أو

(١) قال محمود رحمه الله: «وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع على الناس... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وقد اشتملت الآية على نكتين:

إحداها: عطف الإفاضة إحداهما على الأخرى ومرجعها واحد وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص. والمخير عنه أولاً الإفاضة من حيث هي غير مقيدة. والمأمور به ثانياً الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس.

والثانية: بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهملة وذلك يستدعي التراخي مضافاً إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلقة والمقيدة تراخ. فالجواب على ذلك: أن التراخي كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة وبعدها في العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذي أجاب به بعد مزيد نشيط وإيضاح.

(٢) قال محمود رحمه الله: «أشد معطوف على ما أضيف إليه الذكر... إلخ». قال أحمد رحمه الله: فعلى الأول يكون (أشد) واقعاً على المذكور المفعول. ومثله على الأول: أن يضرب اثنان زيداً مثلاً، فيقول أيهما أشد ضرباً لزيد؟ فيوقعه على الضارب. ومثال الثاني أن يضرب زيد اثنين مثلاً فتقول: أيهما أشد ضرباً؟ فتوقعه على المضروب. وعلى الوجه الأول يكون التفضيل على الفاعل وهو القياس. وعلى الثاني يكون التفضيل على المفعول وهو خلاف القياس. وقد ذكر الزمخشري في مفصله أنه شاذ بقولهم: أنسب امرأة التحسين وأنا أسر منك، هذا في أمثلة عددها، فليت شعري =

قوم أشدّ منهم ذكراً، أو في موضع نصب عطف على آباءكم، بمعنى: أو أشدّ ذكراً^(١) من آبائكم، على أن ذكراً من فعل المذكور ﴿قَبْرُكَ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ معناه أكثروا ذكر الله ودعاءه فإنّ الناس من بين مقلّ لا يطلب بذكر الله إلاّ أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين، ﴿إِنَّا فِي الْآلِثِينَ﴾ اجعل إيتائنا أي إعطائنا في الدنيا خاصة، ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَلَقٍ﴾ أي: من طلب خلافي وهو النصيب، أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب، لأنّ همه مقصور على الدنيا.

والحسنتان ما هو طلبُ الصّالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير، وطلبهم في الآخرة من الثواب، وعن علي - رضي الله عنه -: الحسنة في الدنيا/ ١٧٥ المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار: امرأة السوء، ﴿أُولَئِكَ﴾: الداعون بالحسنتين: ﴿لَهُمْ نَعِيمٌ يَمَّا كَسَبُوا﴾: أي نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة، أو من أجل ما كسبوا، كقوله: ﴿مِمَّا حَسَنَاتِهِمْ أَعْرِضُوا﴾ [نوح: ٢٥]، أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيههم [عنه] ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة، وسمّى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال،

= كيف حمل الآية عليه وقد وجد غير ذلك سبيلاً. وفي الوجهين جميعاً يفر من عطف أشد على الذكر الأول، لئلا يكون واقعاً على الذكر وقد انتصب الذكر تمييزاً عنه، فيكون الذكر ذكراً وهو محال، لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه والحقه بباب قولهم: شعر شاعر، وجن جنونه، ونحوه مما بالغت العرب فيه حتى جعلت للمصفة صفة مثلها تمكيناً لثبوتها. ووضح ذلك أن انتصاب الذكر تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه، ويعين خروجه منه إما بأن يقع على الجثة الذكرة بتأويل جعله ذكراً، على ما صار إليه أبو الفتح أنك لو قلت: زيد أكرم أباً، لكان زيد من الأبناء: ولو قلت: زيد أكرم أب، لكان من الآباء. ويحتمل عطفه على الذكر أعني وجهاً آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح، وهو أن يكون من باب ما ذكره سيبويه قال: ويقولون هو أشجع الناس رجلاً، وهما خير الناس رجلاً، وهما خير الناس اثنين، فالمجرور هنا بمنزلة التنوين، وانتصب الرجل والاثنين، كما انتصب الوجه في قولك: هو أحسن منه وجهاً، ولا يكون إلا نكرة، كما لا تكون الحال إلا نكرة، والرجل هو الاسم المبتدأ؛ فإنما أراد بذلك أن هذا ليس بمثابة: هو أشجع الناس غلاماً، فإن هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ كما في المثال الأول، ويجوز أن يكون غيره؛ فالآية على هذا الوجه الذي أوضحته منزلة على المثال الأول، فيكون ذكر المنصوب واقعاً على أشد كما كان الرجل المنصوب واقعاً على أشع؛ فكأنه قال: أو أشد الأذكاء ذكراً، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة، إلا هذا الوجه الذي زدته، فإن خاطري أبو عذرتي (كخشية الله أو أشد خشية) ولم أقف على كلام الزمخشري فيها بعد.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي قاله الزمخشري معنى حسن، ليس فيه تجوّز بأن يُجْعَلَ للذكر ذكر؛ لأنه جعل «أشد» من صفات الذكورين، إلا أن فيه العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار وهو ممنوع عند البصريين ومحلّ ضرورة. انتهى. الدر المصون.

والأعمال موصوفة بالكسب: بما كسبت أيديكم، ويجوز أن يكون: (أولئك) للفرقيين جميعاً، وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد، فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر منه، روي: أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة، ورؤي في مقدار فواق ناقة، ورؤي في مقدار لمحة.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

الأيام المعدادات: أيام التشريق، وذكر الله فيها: التكبير في أديار الصلوات وعند الجمار، وعن عمر - رضي الله عنه -: أنه كان يكبر في فسطاطه بمنى فيكبر من حوله، حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف، ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾: فمن عجل في النفر أو استعجل النفر، وتعجل، واستعجل: يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل: ومتعدين، يقال: تعجل الذهاب واستعجله، والمطاوعة أوفق لقوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾؛ كما هي كذلك في قوله [من البسيط]:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلْزَلُ^(١)

(١) والناس من يلق خيراً قائلون له
قد يدرك المتأنّي بعض حاجته
وربما فات قوم جل أمرهم
ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل
وقد يكون مع المستعجل الزلزل
من الثاني وكان الرأي لو عجلوا
للقطامي وقيل للأعشى. والناس مبتدأ. ومن يلق - يصب - خيراً، شرط حذف صدر جوابه، أي فهم قائلون له، والجملة خبر المبتدأ. ما يشتهي، أي الذي من الدعاء بخير أو من المدح. وروي: ما تشتهي، فلعل معناه يقولون له: ما تشتهي أنت يا مخاطب. ويجوز أن «ما» استفهامية، أي ما الذي تريده يا من لغيت الخير، لكن تبعد المقابلة. وهيلت المرأة هيلاً، كتبت تبعاً: ثكلت ولدها وفقدته فحزنت عليه. أي ويقال لأم المخطئ الثكلى، فهد دعاء عليها بموت ولدها. ثم قال:
قد يدرك المتأنّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلزل
وعجلته فتعجل واستعجل، ويتعديان أيضاً فيقال: تعجل الأمر واستعجله. ثم قال: وقد يفوت قوماً معظم قصدهم بسبب الثاني وكان الرأي الصواب عجلتهم، فلو مصدرية. والمعنى أن بعض الحاجات يناسبها التمهّل، وبعضها التعجّل. ويجوز أن «لو عجلوا» هو اسم كان والرأي بالنصب خيرها. وروي بدله الحزم، والمعنى متقارب. وفي الكلام نوع بدعي يسمى العكس والتبديل، وهو الإتيان بنقيض المعنى المشهور كما هنا، فإن مدح الثاني هو المشهور، ومدح العجلة يناقضه. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان.

البيت للقطامي ينظر في ديوانه ص ٢٥، وجمهرة أشعار العرب ٢/٨٥٥، وديوان المعاني ١/١٢٤، =

لأجل المتأني: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النحر يوم القر^(١) وهو اليوم الذي يسميه أهل مكة يوم الرؤوس، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم، وهو مذهب الشافعي ويروى عن قتادة، وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾: حتى رمى في اليوم الثالث، والرُّمْيُ في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: لا يجوز، فإن قلت: كيف قال: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، عند التعجل والتأخر جميعاً؟ قلت: دلالة على أن التعجل والتأخر مخير فيهما، كأنه قيل: فتعجلوا أو تأخروا، فإن قلت: أليس التأخر بأفضل؟ قلت: بلى، ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خُير المسافر بين الصوم والإفطار وإن كان الصوم أفضل^(٢)، وقيل: إن أهل الجاهلية كانوا فريقين: منهم من جعل المتعجل أثماً، ومنهم من جعل المتأخر أثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما جميعاً، ﴿لَيْنِ أَتَقَى﴾: أي ذلك التخيير، ونفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي؛ لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما، فيحسب أن أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه، لأن ذا التقوى حذر متحزّز من كل ما يريبه؛ ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند ٧٥هـ من الله، ثم قال: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾، ليعبأ بكم، ويجوز أن يراد ذلك الذي مر ذكره من أحكام الحج وغيره لمن اتقى؛ لأنه هو المنتفع به دون من سواه، كقوله: ﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ [الروم: ٣٨].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْإِخْصَارِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا

= وللأعشى في تخليص الشواهد ص ١٠٢، وخزانة الأدب ٢٧٧/٥، ولسان العرب (بعض)، ومجالس ثعلب ص ٤٣٧، والدر المصون ٥٠٢/١.

- (١) قوله «يوم النحر يوم القر» في الصحاح: لأن الناس يقرون في منازلهم. (ع)
 (٢) قال محمود رحمه الله: «إنما نفى الإثم في الطرفين جميعاً ليدل على التخيير بين الأمرين الفاضل والأفضل، كما خير المسافر بين الصوم والفطر وإن كان الصوم أفضل». قال أحمد رحمه الله: قوله - إن التخيير يقع بين الفاضل والأفضل - غير مستقيم، فإن التخيير يوجب التساوي في غرض المخير، وينافي طلب أحد الطرفين والأمر به. وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب والترجيح وما يوجب التساوي والتخيير. وقد وقع لإمام الحرمين قريب من هذا، فإنه ميز الوجوب من الندب بأن الندب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك ولا كذلك الوجوب، ولم يرضه محققو الفن وإنما أحل الزمخشري في تفسيره الآية فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه. وبيان عدم التطابق بين تفسيره والآية، أي مضمونها نفي الإثم عن الطرفين جميعاً، وهذا القدر مشترك بين الندب والكراهة والإباحة، لكن يتميز الندب بترجيح الفعل على الترك، وتتميز الكراهة والإباحة بالتخيير بينهما؛ فلا تنافي إذاً بين الندب إلى التأخير وأنه أفضل، وبين نفي الإثم عن تاركه إلى التخييل. وحينئذ لا يرد السؤال الذي لزمه فأجاب عنه.

يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٥٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ

أَلِمَهَادُ ﴿٢٥١﴾

﴿مَنْ يُعِجِبْكَ قَوْلُهُ﴾، أي: يروقك ويعظم في قلبك، ومنه: الشيء العجيب الذي يعظم في النفس، وهو الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق، إذا لقي رسول الله - ﷺ - ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أنني صادق، وقيل: هو عام في المناققين، كانت تحلولى أستمهم، وقلوبهم أمر من الضير، فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ قلت: بالقول، أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأن أدعاه المحبة بالباطل يطلب به خطأ من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة، كما تراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول؛ فكلامه إذا في الدنيا لا في الآخرة، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿يعجبك﴾، أي قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحسنة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام^(١) فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام، وقرئ: «ويشهد الله»، وفي مصحف أبي: «ويستشهد الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وهو شديد الجدل والعداوة للمسلمين، وقيل: كان بينه وبين ثقيف^(٢) خصومة فبببهم ليلاً وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم، والخصام: المخاصمة، وإضافة الألد بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر. أو جعل الخصام ألد على المبالغة، وقيل الخصام: جمع خصم، كصعب وصعاب، بمعنى وهو أشد الخصوم خصومة ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق ﴿سَكَتَ فِي الْأَرْضِ يُعْجِبُ فِيهَا﴾ كما فعل بثقيف، وقيل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ وإذا كان والياً فعل ما يفعل ولاية السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل، وقرئ: «ويهلك الحرث والنسل»، على أن الفعل للحرث والنسل، والرفع للعطف على سعى، وقرأ الحسن بفتح اللام، وهي لغة. نحو: أبى يابى، وروى عنه: «ويهلك»، على البناء للمفعول ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ من قولك: أخذته بكذا، إذا حملته عليه وألزمته إياه، أي حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه،

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والذي يظهر أنه متعلق بـ يعجبك لا على المعنى الذي قاله الزمخشري، بل على معنى أنك تستحسن مقالته دائماً في مدة حياته؛ إذ لا يصدر منه من القول إلا ما هو معجب رائق لطيف، فمقالته في الظاهر معجبة دائماً، لا تراه يعدل عن تلك المقالة الحسنة الرائعة إلى مقالة خشنة منافية. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «وقيل كان بينه وبين ثقيف» الضمير للأخنس بن شريق. (ع)

وألزمت ارتكابه، وأن لا يخلي عنه ضراراً ولجاجاً. أو على رد قول الواعظ.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ شَرِي نَفْسُهُ أُتِعَا مَهَنَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٧)

﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ بيعها أي يذلها في الجهاد، وقيل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، وقيل: نزلت في صهيب بن سنان أراده المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفرأ كانوا معه، فقال لهم: أنا شيخ كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم، فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي. فقبلوا منه ماله وأتى المدينة. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث كلّفهم الجهاد فعرضهم لثواب الشهداء.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَهِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٨) فَإِنْ رَكَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ إِلَيْنَا فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٩)

﴿السِّلَهِ﴾ بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش بفتح السين واللام، وهو: الاستسلام والطاعة، أي استسلموا لله وأطيعوه، ﴿كَافَّةً﴾: لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته، وقيل: هو الإسلام، والخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بالسنتهم، ويجوز أن يكون كافة حالاً من السلم؛ لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب، قال [من البسيط]:

أَلَسْلُمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيت بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَتْفَاسِهَا جُرْعٌ (١)

(١) أبا خراشة أما أنت ذا نفر
إن تك جلمود بصر لا أؤيسه
السلم تأخذ منها ما رضى به
والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

للعباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندبة. وأما أنت: أصله لأن كنت، فحذفت لام التعليل وكان الناقصة، فانفصل ضميرها ونابت عنها ما، وأدغمت فيها أن المصدرية. وقال الكوفيون تأتي «أن» بالفتح شرطية كأن بالكسر، وعلى هذا فلا حاجة لتقدير لام التعليل، والمعنى على الشرط والجواب. والضميع: السنة المجدية، أو الحيوان المعروف. والبصر: حجارة تضرب إلى بياض، واحده بصرة. وقيل هي بمعناه، وأبسه تأيساً: ذلله وكسره. يقول يا أبا خراشة، لأن كنت صاحب جيش افتخرت علي، لا تفعل ذلك فإن قومي موجودون كثيرون. وكفى عن ذلك بعدم أكل الضيع إياهم. ويحتمل أن فيه تعريضاً أيضاً، ثم قال: إن تكن كصخر من الحجارة لا أقدر على تأيسه وتكسيه لصلابته، أوقد عليه نار الحرب بمعاونة الفرسان لي فأحرقه فينشق وينكسر؛ فالإيقاد استعارة مصرحة، والإحماء ترشيح. أو إن لم أغلبك على العادة تحيلت حتى أغلبك، كما يتحيل بكسر الحجر بالنار. وأتى بضمير الغيبة نظراً للخبر، ورفع أحميه وينصعد بعد الشرط المضارع قليل ضعيف، سيما مع عطفهما على المجزوم، ولعله توهم جزمه. والسلم بالفتح وبالكسر: الصلح =

على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها، وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة. أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها، وأن لا يُدخلوا بشيء منها، وعن عبد الله بن سلام: أنه استأذن رسول الله ﷺ أن يقيم على السبت (١٣٨) وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل^(١) و﴿كافة﴾ من الكف، كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم، ﴿فَإِنْ رَكَلْتُمْ﴾، عن الدخول في السلم، ﴿فِي مَا جَاءَكُمْ نَكَمُ الْيَتِيمِ﴾، أي: الحجاج والشواهد على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالب لا يعجزه الانتقام منكم، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا ينتقم إلا بحق، وروي أن قارئاً قرأ غفور رحيم، فسمعه أعرابي فانكره ولم يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم،

١٣٨ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥٥/٤) بلفظ نزلت في ثعلبة وعبد الله بن سلام وابن يامين وأسد وأسيد ابني كعب، وسعياً بن عمرو، وقيس بن زيد - كلهم من يهود - قالوا يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسب فيه وإن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها بالليل فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٣٣/١) وعزاه للطبري. قال الحافظ ابن حجر: رواه عبد الغني بن سعيد الثقفى في تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال «نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه. وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي - ﷺ - آمنوا بشريعته وشريعة موسى، فعظموا السبت وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا. فأنكر ذلك عليهم المسلمون: فقالوا: إنا نقوى على هذا وهذا وقالوا للنبي - ﷺ - في التوراة كتاب الله تعالى: وفي هذا فلنعمل بهما. فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ وهي نسخة موضوعة. وقد أخرجه الطبري من رواية حجاج بن محمد عن ابن جريج عن عكرمة. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً... الآية﴾ قال: نزلت في أناس من اليهود أسلموا كعبد الله بن سلام، وثعلبة، وابن يامين وأسد بن كعب. وطائفة من يهود، استأذنوا رسول الله - ﷺ - أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلاً. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والرغبة عما عداها. قال فذكر الآية. فهذا أولى. وابن جريج لم يسمع من عكرمة. انتهى.

= تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة، أو تأخذ منا بسببها. وأما الحرب فيكفيك منها القليل، فتتخير جرع للتقليل. وشبه الحرب بنار منجسة في ظرف ذي منافذ تخرج منها أنفاس، وشبه الأنفاس بماء على طريق المكنية والأنفاس تخيل للأولى والجرع تخيل للثانية، وفيها نوع تهكم حيث شبه الحار بالبارد، كأنه يسقيه من أنفاسها. ويروى «في السلم تأخذ منا ما رزيت به» أي تأخذ منا شيئاً كثيراً في زمن الصلح، ولا تطيق من حربنا إلا قليلاً؛ لكن هذه الرواية إنما تدل على تأنيب السلم، بطريق المقابلة للحرب.

ينظر: ديوانه ص (٨٦) وخزانة الأدب ٨٢/٢، وإصلاح المنطق ص ٣٠، لسان العرب (أبس)، وأساس البلاغة (جرع)، تاج العروس (أبس) وفي المخصص (٧٤/١٥)، الدر المصون (٥١٠/١)، والبحر المحيط ١٣٠/٢.

(١) قوله «في صلاته من الليل» لعل بعده سقطاً تقديره: فنزلت. (ع)

لا يذكر الغفران عند الزلزل، لأنه إغراء عليه، وقرأ أبو السَّمال: «زللتم» بكسر اللام وهما لغتان، نحو: ظللت وظللت.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

إتيان الله إتيان أمره وبأسه كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]، ﴿جَاءَهُمْ بَأْسًا﴾ [الأنعام: ٤٣]، ويجوز أن يكون المأتي به محذوفاً، بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَرِيبٌ﴾ [فِي ظُلَلٍ] جمع ظلة وهي ما أظلك، وقرئ: «ظلال» وهي جمع ظلة، كقطة وقلال أو جمع ظل، وقرئ (والملائكة) بالرفع كقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام، فإن قلت: لِمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فِي الْغَمَامِ؟ قلت: لَأَنَّ الْغَمَامَ مِظَنَّةُ الرَّحْمَةِ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرّ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؛ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفطع؛ لمجيئها من حيث يتوقع الغيث، ومن ثمة اشتد على المتفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: وأتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه، وقرأ معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: «وقضاء الأمر»: على المصدر المرفوع عطفاً على الملائكة، وقرئ: «ترجع»، «وترجع»، على البناء للمفاعل/٧٦ب والمفعول بالتأنيث والتذكير فيها.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ يَنْتَقِزُونَ وَبَدَلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿سَلِّ﴾: أمر للرسول - عليه الصلاة والسلام - أو لكل أحد، وهذا السؤال سؤال تقريع كما تسأل الكفرة يوم القيامة، ﴿كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ يَنْتَقِزُونَ﴾: على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام، ﴿وَبَدَلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: آياته، وهي أجل نعمة من الله، لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة، وتبديلهم إياها: أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب ضلالهم؛ كقوله: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، أو حرفوا آيات الكتب^(١) الدالة على دين محمد - ﷺ -.. فإن

(١) قوله «أو حرفوا آيات الكتب» لعله عطف على المعنى، أي أنهم جعلوا المعجزات أسباب ضلالهم، وقد جعلها الله أسباب هداهم. أو حرفوا آيات الكتب... إلخ. (ع)

قلت: كم استفهامية أم خبرية؟ قلت: تحتل الأمرين، ومعنى الاستفهام فيها للتقرير، فإن قلت: ما معنى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾، قلت: معناه من بعد ما تمكن من معرفتها أو عرفها؛ كقوله: ﴿ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها، أو لم يعرفها، فكانها غائبة عنه: وقرئ: ﴿وَمَنْ يَبْذُلْ﴾ بالتخفيف.

﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٧٧)

المزين هو الشيطان^(١)، زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحبها إليهم فلا يريدون غيرها، ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسوها وأحبوها، أو جعل إهمال المزين له تزيينا، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: على البناء للفاعل، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لاحظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم، أي: لا يريدون غيرها، وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها، أو ممن يطلب غيرها، ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ لأنهم في عليين من السماء، وهم في سجين من الأرض^(٢)، أو حالهم عالية لحالهم؛ لأنهم في كرامة وهم في هوان. أو هم عالون عليهم متناولون يضحكون منهم

(١) قال محمود رحمه الله: «المزين هو الشيطان... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز وهذه الآية تحتل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجاز. على قواعد السنة. والزمخشري يعمل على عكس هذا، فإن أضاف الله فعلاً من أفعاله إلى قدرته جعله مجازاً وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته جعله حقيقة. وسبب هذا هو التعميس باتباع الهوى في القواعد الفاسدة.

(٢) قال محمود رحمه الله: «لأنهم في عليين من السماء، وهم في سجين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا من وضع الظاهر موضع المضمهر بصفة أخرى ومثله في كتاب الله كثير، قال الله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ الْأَلْهِنَ خَيْرًا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُبِينٍ﴾ وكان الأصل: ألا إنهم... الآية، فوضع الظاهر موضع المضمهر بصفة أخرى، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران. وفي كلام الزمخشري طماع إلى قاعدته في وجوب وعيد العصاة. ألا تراه يقول: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي، إشارة إلى أن غير المتقي وهو المصير على الكيابر شقي حتماً كهؤلاء الذين يسخرون من الذين آمنوا، ومنهم من يتمحل فيقول: لأنه جعل المؤمن عين المتقي ومقتضى قاعدته الفاسدة: أن الإيمان يستلزم التقوى حتى لا يفرض مؤمن إلا متقياً. إذ الإيمان فيما فسر هو في تفسيره هذا وفيما فسر أهله بدعته في كتبهم هو تصديق الاعتقاد الصحيح والنطق به بالعمل الصالح، والمخل عندهم بالعمل إما بالإصرار على كبيرة أو بترك مهم من الواجبات فاسق ليس بمؤمن ولا كافر. فمقتضى هذا التقرير على ما ترى أن كل مؤمن متق، وقد علمت من كلامه على هذه الآية ما يابى ذلك وينقضه.

كما يتناول هؤلاء عليهم في الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بغير تقدير، يعني: أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة وهي استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم، فإن قلت: لم قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ قلت: ليرى أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي؛ وليكون بعثا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٣]

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: متفقين على دين الإسلام، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾: يريد: فاختلغوا فبعث الله؛ وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: عليه، وفي قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلغوا فبعث الله»؛ والدليل عليه قوله عز وعلا: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]، وقيل: كان ١٧٧ الناس أمة واحدة كفارًا، فبعث الله النبيين، فاختلغوا عليهم، والأول الوجه. فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق فاختلغوا، وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه، ﴿لِيَحْكُمَ﴾: الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه، ﴿فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق، ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾: في الحق، ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾: إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب، وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الاختلاف واستحكامه، ﴿بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ﴾: حسداً بينهم وظلماً؛ لحرصهم على الدنيا وقلة انصاف منهم، ﴿وَمِنَ الْحَقِّ﴾: بيان لما اختلفوا فيه؛ أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِكُمْ الْبُيُوتَ وَالضَّرَازِعَ وَرَزَقُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ آيَا إِنْ نَصَرَ اللَّهُ فَرِيقًا﴾ [١٤]

﴿م﴾ : منقطعة، ومعنى الهمزة^(١) فيها: للتقرير، وإنكار الحسبان واستبعاده، ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات - تشجيعاً لرسول الله ﷺ - والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له - قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، ﴿وَلَكَّمَا﴾: فيها معنى التوقع، وهي في النفي نظيرة «قد» في الإثبات، والمعنى: أن إتيان ذلك متوقع منتظر ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة، و﴿مَسْتَهْمٌ﴾: بيان للمثل وهو استثناء، كأن قائلًا قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقل: مستهم البأساء، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾: وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزع، ﴿حَتَّى يَقُولَ أَرْسُولٌ﴾: إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها، ﴿مَتَى تَصْرَأُ اللَّهُ﴾، أي: بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه طلب الصبر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية دليل على تنامي الأمر في الشدة، وتماديه في العظم؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمئح وراءها، ﴿أَلَا إِنَّ تَصْرَأُ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ على إرادة القول، يعني فقل لهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر، وقرئ: ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ بالنصب على إضمار أن، ومعنى الاستقبال؛ لأن: «أن» علم له، وبالرفع على أنه في معنى الحال؛ كقولك: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجرُّ بطنه؛ إلا أنها حال ماضية محكية.

﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١٦٥)

فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ﴾ ٧٧ب وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصروف؟ قلت: قد تضمن قوله ﴿مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾: بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصروف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها، قال الشاعر [من الكامل]:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تُكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَضَنِّعِ^(٢)

(١) قوله «أم منقطعة ومعنى الهمزة» تفسر بمعنى بل والهمزة. (ع)

(٢) إن الصنِيعَة لا تكون صنِيعَة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا صنعت صنِيعَة فاعمد بها لله أو لذوي القرابة أو دع

يقول: إن العطية لا تكون عطية حقيقة حتى تكون في موضعها، فكُنْ بِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ عَنْ إِصَالِهَا إِلَى الْمَقْصَدِ، وَهُوَ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا. وَقَوْلُهُ «فَاعْمَدْ بِهَا» أَيِ اقْصِدْ بِهَا. وَضَمْنُهُ مَعْنَى أَذْهَبَ بِهَا، فَعْدَاهُ =

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه جاء عمرو بن الجموح، وهو شيخ هم^(١) وله مال عظيم فقال: ماذا تنفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فنزلت (١٣٩)، وعن السدي: هي منسوخة بفرض الزكاة، وعن الحسن: هي في التطوع.

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْإِقْتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾: من الكراهة، بدليل قوله: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ﴾ ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغة؛ كقولها [من البسيط]:

..... فإِنَّمَا هِيَ إِفْسَالٌ وَإِذْبَارُ^(٢)

كأنه في نفسه لفرط كراهتهم له، وإما أن يكون فعلاً بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز، أي وهو مكروه لكم، وقرأ السلمي - بالفتح - على أن يكون بمعنى المضموم، كالضعف والضعف، ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه على طريق المجاز، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾^(٣) [الأحقاف: ١٥]، وعلى قوله تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ﴾ جميع ما كلفوه، فإن النفوس تكرهه وتفر عنه وتحب خلافه، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾: ما يصلحكم وما هو خير لكم، ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْهَارِ فَأَلِ فِيهِ قُلْ فَتَلَّ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُ بِهِ. وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَتِّلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ

١٣٩ - ذكره السيوطي في الدر (٤٣٧/١) وعزاه لابن المنذر عن ابن حبان قال: إن عمرو بن الجموح سأل النبي - ﷺ -: ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت.

== باللام. ويروى: لذوي القرائب فعل معناه لأصحاب القرباب القرائب. وقوله «أودع» أي اترك، لأنه ليس بعد هذين إلا الفخر.

البيت لابن منظور: ينظر اللسان (صنع) الدر المصون (٥٢٥/١).

(١) قوله «وهو شيخ هم وله مال» في الصحاح الهم - بالكسر -: الشيخ القاني. (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد بهذا الجزء عند تفسير آية ١٧٧ فراجع إن شئت اه مصححة.

(٣) قوله «ووضعت كرهاً» وعلى قوله تعالى: أي جميع ما كلفوه جار على قوله تعالى ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا ﴾... إلخ فإن النفوس تكرهه وهو خير لهم، وتحب خلافه وهو شر لهم. (ع)

كَافِرًا فَأُولَٰئِكَ جَبَلَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٨﴾

بعث رسول الله - ﷺ - عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين؛ ليرصد عيرًا لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسرُوا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائف ويبدع^(١) فيه الناس إلى معاشهم فوقف رسول الله - ﷺ - العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، ورد رسول الله - ﷺ - العير والأسارى (١٤٠)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: لما نزلت أخذ رسول الله - ﷺ - الغنيمة (١٤١)، والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، و﴿قَاتِلْ فِيهِ﴾: بدل الاشتغال من الشهر، وفي قراءة عبد الله: «عن قتال فيه»، على تكرير العامل؛ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَفْعُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وقرأ عكرمة: «قتل فيه قل قتل فيه كبير»، أي: إثم كبير، وعن عطاء: أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام؟ فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت (١٤٢)، وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله: ﴿يَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: مبتدأ وأكبر خبره، يعني: وكبائر قريش من

١٤٠ - أخرجه ابن إسحاق (٧٠٥ - سيرة بن هشام).

والبيهقي في دلائل النبوة (١٨/٣).

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٠/١) وعزاه للثعلبي. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٤٤).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن إسحاق في المغازي قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير بطوله ومن طريقه رواه البيهقي في الدلائل وكذا ذكره ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة ومن طريقه الواحدي وأخرجه الطبراني من حديث جندب بن عبد الله البجلي موصولاً. انتهى.

١٤١ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٤٩/١) وعزاه لابن منده وابن عساكر بلفظ: فغنموا وفيهم نزلت الآية.

١٤٢ - ذكره السيوطي في الدر (٤٥١/١) عن عطاء وعزاه لأبي داود بلفظ عطاء قال: أجل القتال في الشهر الحرام في براءة في قوله: ﴿فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ الَّتِي كُنتُمْ وَقِيلُوا لِلْمُشْرِكِينَ كُفَّاءً...﴾.

(١) قوله «ويبدع فيه الناس» أي يفرقون فيه. أفاده الصحاح. (ع)

صَدَّهْمَ عَنْ سَبِيلِ/ ١٧٨ اللهُ وَعَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَكَفَرَهُم بِاللَّهِ وَإِخْرَاجَ أَهْلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، ﴿أَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: مِمَّا فَعَلَتْهُ السَّرِيَّةُ مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَلَى سَبِيلِ الْخَطَا وَالْبِنَاءِ عَلَى الظَّنِّ، ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾: الْإِخْرَاجُ أَوْ الشُّرْكُ، وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ: عَطْفٌ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْطَفَ عَلَى الْهَاءِ فِي ﴿يَوْمٍ﴾. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: إِخْبَارٌ عَنْ دَوَامِ عِدَاوَةِ الْكُفَرَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَنْهُمْ لَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا حَتَّى يَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ؛ وَحَتَّى مَعْنَاهَا التَّعْلِيلُ كَقَوْلِكَ: فَلَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، أَيْ يَقَاتِلُونَكُمْ كَيْ يَرُدُّوكُمْ، وَ﴿إِنْ أَسْتَكْمَلُوا﴾: اسْتِبْعَادٌ لِمُسْتَطَاعَتِهِمْ كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِعَدُوِّهِ: إِنْ ظَفَرْتُ بِي فَلَا تَبْقَ عَلَيَّ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِأَنَّهُ لَا يَظْفَرُ بِهِ، ﴿وَمَنْ يَزِدْكَ مِنْكُمْ﴾: وَمَنْ يَرْجِعُ عَنْ دِينِهِ إِلَى دِينِهِمْ وَيُطَاوِعُهُمْ عَلَى رَدِّهِ إِلَيْهِ، ﴿فَيَمُتْ﴾: عَلَى الرَّدَّةِ، ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: لَمَّا يَفُوتُهُمْ بِإِحْدَاثِ الرَّدَّةِ مِمَّا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِسْلَامِ، وَبِاسْتِدَامَتِهَا وَالْمَوْتِ عَلَيْهَا مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَبِهَا احْتِجَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ الرَّدَّةَ لَا تَحْبِطُ الْأَعْمَالُ حَتَّى يَمُوتَ عَلَيْهَا، وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهَا تَحْبِطُهَا وَإِنْ رَجَعَ مُسْلِمًا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ وَأَصْحَابَهُ حِينَ قَتَلُوا الْحَضْرَمِيَّ، ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنْ سَلِمُوا مِنَ الْإِثْمِ فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ، فَنَزَلَتْ: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، وَعَنِ الْقَتَادَةِ: هَؤُلَاءِ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، ثُمَّ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَهْلَ رَجَاءٍ كَمَا تَسْمَعُونَ، وَإِنَّهُ مِنْ رَجَاءٍ طَلَبَ، وَمَنْ خَافَ هَرَبَ (١٤٣).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَنَاسِكِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَيْرُهُ حَكِيمٌ ﴿١٨٠﴾﴾

نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة^(١): ﴿وَمَنْ تَعَرَّيْتَ النَّجِيلَ وَالْعَنْتَبَ لَنَخَذَنَّهُ مِنْهُ

١٤٣ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٥١/١) وعزاه لابن حميد. وزاد في الكشف وإن من رجا طلب ومن خاف هرب.

(١) قال محمود رحمه الله: نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة... إلخ. قال أحمد: ويظهر لي سر واقع بما ذكره في هذا الغرض، وذلك أن السؤال الأول من الأسئلة المقرونة بالواو عين السؤال الأول من الأسئلة المجردة عن الواو. ولكن وقع جوابه أولاً بالمصرف لأنه الأهم وإن كان المسؤول عنه إنما هو المنفق لا وجه مصرفه، ثم لما لم يكن في الجواب الأول تصريح بالمسؤول =

سَكَرًا ﴿التحل: ٦٧﴾ فكان المسلمون يشربونها، وهي لهم حلال، ثم إن عمر ومعاذًا ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، أفننا في الخمر؟ فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فنزلت: ﴿فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم، فشربوا وسكروا فأثم بعضهم فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣] فقل من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا، افتخروا وتناشدوا، حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بعير، فشجه موضحة، فشكا إلى رسول الله - ﷺ - . فقال عمر - رضي الله عنه - : اللهم، بين لنا في الخمر بيانا شافياً، فنزلت: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذُ الْبَعْثُورُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١] فقال عمر - رضي الله عنه - : انتهينا يا رب (١٤٤)، وعن علي - رضي الله عنه - : لو وقعت قطرة في بئر،

١٤٤ - قال الزليعي في تخريج الكشاف (١/١٣٢): غريب بهذا اللفظ وذكره وعزاه للثعلبي من غير سند . =

= عنه أعيد السؤال ليجابوا عن المسؤول عنه صريحاً، فقبل العفو أي الفاضل من النفقة الواجبة على العيال، أو نحو ذلك حيثما ورد في تفسيره، فتعين إذا اقتران هذا السؤال بالواو ليرتبط بالأول. ويحتمل أنهم لما أجيبوا أولاً ببيان جهة المصروف ولم يصرح لهم بالجواب على عين المتفق ما هو، أعاد السؤال لكي يتلقوا جوابه صريحاً، فتعين دخول الواو. وأما السؤال الثاني من الأسئلة المقرونة بالواو، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى وهل يجوز لهم مخالطتهم في النفقة والكسوة والسكنى وقد كانوا يتخرجون من ذلك في الجاهلية؟ فلما كان مناسباً للسؤال عن الإنفاق باعتبار المتفق وباعتبار جهة المصروف، عطف عليه ليكمل لهم بيان المشروعية في النفقة وآدابها الدينية بياناً شافياً، لأنه قد اجتمع في علمهم ما ينفقون، وفيهم ينفقون، وعلى أي حالة ينفقون من مخالطة اليتيم والانفراد عنه. وأما السؤال الثالث منها وهو الواقع عن النساء الحيض، فقد ورد أنهم في الجاهلية كانوا يعتزلون الحيض في المأكلة والمسكنة يقتدون في ذلك باليهود، فسألوا السؤال المذكور، كما كانوا يعتزلون اليتامى في المسكنة والمأكلة تخرجاً جاهلياً، وكان بين هذين السؤالين تناسب كما ترى، فحسن أن يعطف الآخر على ما قبله تنبيهاً على ما بينهما من المشاكلة والله أعلم. وإذا اعتبرت الأسئلة المجردة عن الواو لم تجد بينها مدانة ولا مناسبة البتة، إذ الأول منها عن النفقة، والثاني عن القتال في الشهر الحرام، والثالث عن الخمر والميسر. فبين هذه الأسئلة من التباين والتقاطع ما لا يخفى، فذكرت كذلك مرسلّة متعاطفة غير مربوطة بعضها ببعض، فتنبه لهذا السر فإنه بديع لا تجده يراعى إلا في الكتاب العزيز، لاستيلائه على أسرار البلاغة ونكت الفصاحة، ولا يستفاد منه إلا بالتنقيب في صناعة البيان وعلم اللسان. وقد اشتمل جواب الزمخشري ليقدم على وهم أنه عليه، وذلك أنه قال: الأسئلة الثلاثة الأخيرة وقعت في وقت واحد وكانت في حكم السؤال الواحد، فربط بعضها ببعض بالواو، وهذا يقتضي كما ترى أن يقترن السؤال الثاني والثالث بالواو خاصة دون الأول، إذ الواو إنما يربط ما بعدها بما قبلها، فاقترانها بالأول لا يربطه بالثاني وإنما يربطه بما قبله، وعلى هذا تكون الأسئلة التي وقعت في وقت واحد أربعة أسئلة لا ثلاثة خاصة، وقد قال: إن الأسئلة المرتبطة الواقعة في وقت واحد هي الثلاثة الأخيرة، فهو واهم بلا شك وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم.

فبنيت مكانها منارة، لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر، ثم جف، ونبت فيه الكلال، لم أرعه» (١٤٥)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: «لو أدخلت أصبعي فيه، لم تتبني» (١٤٦)، وهذا هو الإيمان حقاً، وهم الذين اتقوا الله حق تقاته، والخمر: ما غلا واشتد/ ٧٨ ب وقذف بالزبد من عصير العنب، وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم غلا واشتد، ذهب خبثه ونصيب الشيطان، وحل شربه ما دون السكر، إذا لم يقصد بشربه اللهو والطرب عند أبي حنيفة، وعن بعض أصحابه: لأن أقول مراراً هو: «حلال»، أحب إلي من أن أقول مرة هو «حرام»، ولأن آخر من السماء فأنقطع قطعاً أحب إلي من أن أتناول منه قطرة»، وعند أكثر الفقهاء: هو حرام كالخمر، وكذلك كل ما أسكر من كل شراب، وسميت «خمرًا» لتغطيتها العقل، والتمييز، كما سميت سكرًا، لأنها تسكرهما، أي: تحجزهما، وكأنها سميت بالمصدر من «خمره خمرًا»، إذا ستره للمبالغة، والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد والمرجع من فعلهما، يقال: يسره، إذا قمرته، واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب، أو من اليسار؛ لأنه سلب يساره، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله قال [من الطويل]:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي (١٤٧)

= وأخرجه أبو داود (٣٢٥٠/٣): كتاب الأشربة: باب تحريم الخمر، حديث (٣٦٧٠)، والترمذي (٢٥٣): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة المائدة، حديث (٣٠٤٩)، والنسائي (٢٨٩/٨)، كتاب الأشربة: باب تحريم الخمر، حديث (٥٥٤٠) وأحمد (٥٣/١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٥٢/١) وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي والضياء المقدسي في المختارة عن عمر أنه قال... قال الحافظ: هكذا ذكره الشعبي في تفسيره بغير إسناد وسيأتي في تفسير سورة النساء من حديث أبي هريرة معناه. انتهى.

١٤٥ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٢/١) وجعله مرفوعاً عن النبي ﷺ - ويض له وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده عنه. انتهى.

١٤٦ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٩٧/٥)، حديث (٢٤٠٦٥).

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن المبارك عن الأوزاعي عن سليمان بن حبيب أن ابن عمر قال «لو أدخلت أصبعي في خمر ما أحببت أن ترجع إلي...» انتهى.

١٤٧ - أخرجه الطبري (٣٢٤/٤)، حديث (٤١٢١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٥٢/١) وزاد نسبه إلى ابن المنذر والنحاس من ناسخه.

(١) أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني: ألم تباؤوا أني ابن فارس زهدم؟ =

أي: يفعلون بي ما يفعل الياسرون بالميسور، فإن قلت: كيف صفة الميسر؟ قلت: كانت لهم عشرة أقداح، وهي: الألام، والأقلام، والفذ، والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعل، والمنيج، والسفيح، والوغد، لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزونها عشرة أجزاء، وقيل: ثمانية وعشرين إلا لثلاثة، وهي: المنيج، والسفيح، والوغد، ولبعضهم [من مجزوء الرمل]:

لِي فِي الدُّنْيَا سَهَامٌ لَيْسَ فِيهِمْ رَيْبُحٌ
وَأَسَامِيهِمْ: وَغَدٌ وَسَفِيحٌ وَمَنْبِيحٌ^(١)

للفذ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعل سبعة، يجعلونها في الرابطة وهي خريطة، ويضعونها على يدي عدل، ثم يجلسها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء، أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمونه البرم، وفي حكم الميسر: أنواع القمار، من النرد والشطرنج وغيرهما، وعن النبي - ﷺ -: «إياكم وهاتين اللعبتين المشئومتين فإنهما من ميسر العجم» (١٤٨) وعن علي - رضي الله عنه -: «أَنَّ النرد

١٤٨ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص (٣٦٨)، حديث (١٢٧٥)، وأحمد (٤٤٦/١) بلفظ الكعبتان، والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٥/١٠) كتاب الشهادات باب كراهية اللعب بالنرد... وابن عدي (٢١٦/١).

لصحيم بن وثيل الرياحي. والشعب: اسم مكان. ويقال: يسره، إذا غلبه في لعب الميسر وهو القمار. والياس هنا بمعنى العلم. وزهدم في الأصل فرخ البازي يسمى به الفرس لسرعته. أي أقول في هذا الموقع وقت أن غلبوني في الميسر وضربوني بسهامه: ألم تعلموا أنني ابن الرجل الشجاع فارس تلك الفرس. والاستفهام للتقرير والتفريع. وروي: إذ ياسروني، أي يأخذوني أسيراً عندهم. ويجوز أن المعنى: ألم تياسروا وتقطعوا أطماعكم عما تريدون بي لأنني ابن ذلك الفارس المشهور، فلاستفهام للتوبيخ والحث على اليأس من ذلك.

ينظر المحتسب (٣٥٧/١)، مجاز القرآن (٣٣٢/١)، تأويل المشكل (١٩٢)، الطبري (٤٥٠/١٦)، القرطبي (٣٢٠/٩)، البحر المحیط ٣٨٢/٥، التهذيب ٦٠/١٣، ١٤٢، الصحاح ٩٩٣/٣، الدر المصون ٢٤٣/٤.

(١) الأسماء الثلاثة لأقلام الميسر التي لا نصيب لها من الجزور كل اسم لعلم، والوغد في الأصل: الخادم، والدني، وثمر الباذنجان: بخلاف السبعة الباقية فلها أنصباء. والكلام من باب التمثيل، شبه حاله في الدنيا بحال من خرجت له تلك السهام في الميسر لعدم الظفر بالمرام. ويعد كونه كتابة عن الكرم، حيث يعطي ولا يأخذ. ويروى بدل «وأساميهن» «إنما سهمي» بدليل: سهام قبله.

والشطرنج من الميسر (١٤٩)، وعن ابن سيرين: كل شيء فيه خطر، فهو من الميسر (١٥٠)، والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾: وعقاب الإثم في تعاطيهما. ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾: وهو الالتذاذ بشرب الخمر والقمار، والطرب فيهما، والتوصل بهما إلى مصداقات الفتيان ومعاشرتهم، والنيل من مطاعهم ومشاربهم وأعطياتهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار على الأبرام^(١)، وقرئ: «إثم كثير» - بالشاء - وفي قراءة أبي: «وإثمهما أقرب»، ومعنى الكثرة: أن أصحاب الشرب والقمار يقتربون فيهما الآثام من وجوه كثيرة، ﴿أَلْعَفْوُ﴾: نقيض الجهد؛ وهو أن ينفق مالا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع؛ قال [من الطويل]:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيئِي مَوَدَّتِي^(٢)

= وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٦/٨) وعزاه لأحمد والطبراني وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف أخرجه ابن مردويه من حديث سمرة بن جندب ومن حديث أبي موسى الأشعري نحوه ورواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من وجهين عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود بلفظ «اتقوا هاتين اللعبتين المشؤومتين اللتين يزجران زجراً فإنهما من ميسر المعجم». انتهى.

١٤٩ - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢١٢/١٠): كتاب الشهادات باب الاختلاف في اللعب بالشطرنج أن علياً قال الشطرنج ميسر.

وابن أبي شيبه (٢٨٧/٥)، حديث (٢٦١٥٠) وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٣/١)، حديث (١٣٠) وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم في تفسيره، والثعلبي في تفسيره.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦٤/٢) وزاد نسبه لابن المنذر.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي والثعلبي من طريق حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه «أن علياً قال في النرد والشطرنج: هما من الميسر وهو منقطع». انتهى.

١٥٠ - ذكره السيوطي في الدر (٥٦٥/٢) وعزاه لابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن سيرين بلفظ أما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صباح أو شر فهو من الميسر.

(١) قوله «والافتخار على الأبرام» جمع للبرم بالتحريك، وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. كذا في الصحاح. (ع)

(٢) خذي العفو مني تستديمي مودتي

فلاني رأيت الحب في الصدر والأذى

ولا تضربيني مرة بعد مرة

فلأنك لا تدريين كيف المغيب

لأسماء بن خازجة النزارية أحد حكماء العرب يخاطب زوجته حين بنى عليها. والعفو: السهل =

ويقال للأرض السهلة: العفو، وقرىء بالرفع والنصب، وعن النبي - ﷺ - .

أَنَّ رجلاً أتاه ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عنه رسول الله - ﷺ -؛ فاتاه من الجانب الأيمن، فقال مثله فأعرض عنه، ثم أتاه من الجانب الأيسر فأعرض عنه، فقال: «هاتها» مغضباً، فأخذها فحذفه بها خذفاً لو أصابه لشجه أو عقره، ثم قال: «بيجي» أحذكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس! إنما الصدقة عن ظهر غنى» (١٥١). ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين؛ فتأخذون بما هو أصلح لكم، كما بينت لكم أَنَّ العفو أصلح من الجهد في النفقة، أو تتفكرون في الدارين فتوثرون أبقاهما وأكثرهما منافع، ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله: ﴿وَأَمَّا هُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، لتتفكروا^(١) في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا، حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم، وإِذَا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ ﴿يَبَيِّنُ﴾ على معنى: يبين لكم الآيات في أمر الدارين، وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون، لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَتِهِمْ خُلْماً﴾ [النساء: ١٠] اعتزلوا البيئتين، وتحاموهن، وتركوا مخالطتهن، والقيام بأموالهن، والاهتمام بمصالحتهن، فشق ذلك عليهم، وكاد يوقعهم في الحرج، فقيل: ﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهن، ﴿وَرِنٌ

١٥١ - أخرجه الدارمي (٣٩١/١) كتاب الزكاة - باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل. وأبو داود (٣١٠/٢) كتاب الزكاة - باب الرجل يخرج من ماله حديث (١٦٧٣) والحاكم (٤١٣/١) كتاب الزكاة - باب خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، والبيهقي (١٥٤/٤) وابن خزيمة (٩٨/٤) رقم (٢٤٤١) من طرق عن محمد ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر به وقال الحاكم - صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (١٦٦/٨) رقم (٣٣٧٢) وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٦/٤)، حديث (٢٠٨٤)، وعبد بن حميد في مسنده (٣٣٧)، حديث (١١٢١).

قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه أبو داود وابن حبان والبخاري والدارمي وأبو يعلى، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وإسحاق في مسانيدهم: كلهم من رواية محمود بن لبيد عن جابر ورواه ابن سعد في ترجمة أبي حصين السلمي من رواية عمر بن الحكم بن ثوبان عن جابر قال «قدم أبو حصين السلمي بذهب أصابه من معدنهم ففضى منه ديناً كان عليه» فذكر الحديث مثل سياق أبي داود. وفي إسناده الواقدي. انتهى.

= اليسير. والسورة: شدة الغضب. واجتماعاً: شارفا الاجتماع. ويذهب: استئناف وقع جواب سؤال مقدر، والضرب مجاز عن الإيذاء، والمغيب عاقبة الأمر، أي خذي السهل من أخلاقي لتلا يذهب حبي إياك ويذهب فيه رائحة الإضراب، أي يل يذهب.

ينظر: لسان العرب (عفا)، تاج العروس (عفا).

(١) قوله «أكبر من نفعهما لتفكروا» لعله فيكون المعنى: لتفكروا. (ع)

تَخْلَطُونَهُمْ: وتعاشروهم ولم تجانبوهم، ﴿ف﴾ هم ﴿إخوانكم﴾: في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه، وقد حملت المخالطة على المصاهرة، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، أي: لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروهم ولا تتحروا غير الإصلاح، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾: لحملكم على العنت، وهو المشقة، وأحرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم، وقرأ طاوس: «قل إصلاح لهم»، ومعناه إيصال الصلاح، وقرئ: «لعتنكم»، بطرح الهمة وإلقاء حركتها على اللام؛ وكذلك: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ﴾: غالب، يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم، ولكنه: ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلف إلا ما تنفع فيه طاقته.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُ عَآيِنَهُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾: وقرئ بضم الشاء، أي: لا تتزوجوهن أو لا تزوجوهن، و﴿أَنْتُمْ كَرِهْتُمْ﴾: الحريات، والآية ثابتة، وقيل: المشركات الحريات والكتابات جميعاً، لأن أهل الكتاب من أهل الشرك، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إلى قوله/ ٧٩ ب تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط؛ وهو قول ابن عباس والأوزاعي وروي أن رسول الله - ﷺ - بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق، فأنته وقالت: ألا نخلو؟ فقال: ويحك! إن الإسلام قد حال بيننا، فقالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله - ﷺ - فاستأمره، فاستأمره، فنزلت: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾ ولا امرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، وكذلك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ﴾ (١٥٢)؛ لأن الناس كلهم عبيد الله

١٥٢ - أخرجه أبو داود (٢/ ٢٢٠): كتاب النكاح: باب في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْبَغُ لِلرَّأْسَةِ﴾، حديث (٢٠٥١)، والترمذي (٣٢٨/٥): كتاب تفسير القرآن: باب «ومن سورة النور»، حديث (٣١٧٧) والنسائي (٦٦/٦): كتاب النكاح باب تزويج الزانية، حديث (٣٢٢٨)، وأحمد (٢/ ١٥٨)، (٢/ ٢٢٥)، وعبد الله بن أحمد في الزوائد (٢/ ٢٢٥) والحاكم في المستدرک (٢/ ١٩٣) =

(١) قوله «وكذلك فلا إثم عليه» لعله: كذلك في طرح الهمة، لا في نقل الحركة، وتطرح ألف المد للقاء الساكنين. فليحذر. (ع)

وإماؤه، ﴿وَلَوْ أَعْبَجْتَكُمْ﴾: ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها، فإن المؤمنة خير منها مع ذلك، ﴿أُولَئِكَ﴾: إشارة إلى المشركات والمشركين، أي: يدعون إلى الكفر فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ﴾: يعني وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة، ﴿وَالْمَغْفِرَةِ﴾: وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم، وأن يؤثروا على غيرهم، ﴿يَاذِينِ﴾: بتيسير الله وتوفيقه للعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة، وقرأ الحسن: «والمغفرة بإذنه» - بالرفع - أي: والمغفرة حاصلة بتيسيره.

﴿وَسَلُّوا نَكَاحَ الْحَيْضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْحَيْضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (النساء: ٣٥) سَأَوَكُمْ حَرِّ لَكُمْ فَأَتُوا حَرِّكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿الْحَيْضِ﴾: مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً، وبات ميئاً، ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾: أي الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه نفرة منه وكراهة له، ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾: فاجتنبوهن؛ يعني: فاجتنبوا مجامعتهن، روي: أن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة، لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجالسوها على فرش، ولم يسكنوها في بيت، كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة، فإن أثرناهن بالثياب، هلك سائر أهل البيت؛ وإن استأثرنا بها، هلكت الحيض، فقال - عليه الصلاة

= (١٩٤) والبيهقي في سننه الكبرى (١٥٣/٧): كتاب النكاح: باب نكاح المحدثين وما جاء في قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ لَا يَكُنْ لَهُمْ

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٩/٥، ٤٠) وعزه لعبد بن حميد وأبو داود والترمذي والنسائي، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به.

قال الحافظ: أورده الواحدي من تفسير الكلبي عن ابن عباس «أن رسول الله - ﷺ - بعث رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد فذكره» ونزلها في هذه القصة ليس بصحيح فقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال «كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد الغنوي. وكان رجلاً شديداً يحمل الأساري من مكة حتى يأتي بهم المدينة - الحديث بطوله. وفيه حتى نزلت ﴿الَّذِينَ لَا يَكُنْ لَهُمْ آلٌ زَانِيَةٌ أَوْ شَرِكَةٌ وَآلِيَةٌ لَا يَكُنْ لَهُمْ آلٌ زَانٍ أَوْ شَرِكٌ﴾ قال فدعاني رسول الله - ﷺ -، فقرأها علي. وقال لا تنكحها وكذا أخرجه أحمد وإسحاق والبخاري. وقال لا تعلم أسند مرثد بن أبي مرثد إلا هذا الحديث. انتهى.

والسلام :- «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهم إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهم من البيوت كفعل الأعاجم» (١٥٣)، وقيل: إنَّ النصراني كانوا يجامعونهم، ولا يباليون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهم في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين، وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فأبو حنيفة وأبو يوسف: يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وروى محمد حديث عائشة - رضي الله عنها -: أنَّ عبد الله بن عمر سألها: هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشد إزارها على سفلتها، ثم ليباسرها إن شاء (١٥٤)، وما روى زيد بن أسلم: أنَّ رجلاً سأل النبي - ﷺ -: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشد عليها إزارها/ ٨٠ ثم شأنك بأعلاها» (١٥٥)، ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة -

١٥٣ - ذكره الزيلعي في تخریج الکشاف (١٣٧/١)، حديث (١٣٣) وقال الحافظ: لم أجده. انتهى.
١٥٤ - أخرجه مالك (٥٨/١): كتاب الطهارة: باب ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض، حديث (٩٥)، والدارمي (٢٤٢/١): باب مباشرة الحائض، وعبد الرزاق في مصنفه (٣٢٣/١)، حديث (١٢٤١) من طريق نافع عن ابن عمر عن عائشة.

قال الحافظ:

وفي الموطأ من رواية محمد بن الحسن: عن مالك عن نافع «أن عبد الله بن عمر أرسل إلى عائشة يسألها - فذكره - وكذا أخرجه رواة الموطأ عن مالك والشافعي وغيره. وأخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن سلمان ابن موسى عن نافع نحوه. انتهى.

١٥٥ - أخرجه مالك في الموطأ (٥٧/١): كتاب الطهارة: باب ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض، حديث (٩٣) والدارمي (٢٤١/١): كتاب ... باب مباشرة الحائض، من طريق زيد بن أسلم أن رجلاً سأل النبي - ﷺ - فذكره.

وأخرجه أبو داود (٥٥/١): كتاب الطهارة: باب في المذي، حديث (٢١٢، ٢١٣) عن عبد الله بن سعد، والثاني عن معاذ بن جبل وللحديث شواهد موصولة عن عائشة وميمونة.

- أما حديث عائشة:

فأخرجه البخاري (٤٠٣/١) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض حديث (٣٠٢) ومسلم (٢٤٢/١) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض فوق الإزار حديث (٢٩٣/١) وأبو داود (١٨٤/١) كتاب الطهارة: باب في الرجل يصيب من الحائض ما دون الجماع حديث (٢٦٨) والترمذي (٢٣٩/١) كتاب الطهارة: باب ما جاء في مباشرة الحائض حديث (٦٣٥) وابن ماجه (٢٠٨/١) كتاب الطهارة: باب ما للرجل من امرأته حديث (٦٣٥) والدارمي (٢٤٢/١) كتاب الطهارة: باب مباشرة الحائض وأحمد (٧٤/٦) من طريق الأسود عن عائشة قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله - ﷺ - أن يباشرها أمرها أن تنزّر في فور حيضتها ثم يباشرها ...

- حديث ميمونة:

أخرجه البخاري (٤٠٥/١) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض حديث (٣٠٣) ومسلم (٢٤٣/١) كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض فوق الإزار حديث (٢٩٤/٣) وأبو داود (١٨٣/١ - ١٨٤) كتاب الطهارة: باب في الرجل يصيب منها ما دون الجماع حديث (٢٦٧) عن ميمونة نحو حديث عائشة. =

رضي الله عنها - أنها قالت: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك (١٥٦) وقرئ «يطهرن»: بالتشديد، أي: يتطهرن، بدليل قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، وقرأ عبد الله: «حتى يتطهرن»، و«يطهرن» بالتخفيف، والتطهر: الاغتسال، والطهر: انقطاع دم الحيض، وكلتا القراءتين مما يجب العمل به، فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت صلاة، وذهب الشافعي إلى أنه لا يقربها حتى تطهر وتطهر، فتجمع بين الأمرين؛ وهو قول واضح، ويعضده قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: من المأني الذي أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾: مما عسى ينذر منهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: المتنزهين عن الفواحش، أو إن الله يحب التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهارة التوبة من كل ذنب، ويحب المتطهرين من جميع الأذكار: كمجامعة الحائض والطاهر قبل الغسل، وإتيان ما ليس بمباح، وغير ذلك، ﴿حَرِّ لَكُمْ﴾: مواضع الحرث لكم، وهذا مجاز، شُبَّهَ بالمحارث تشبيها لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالذور، وقوله: ﴿فَأَتَاوُا رَحِمَكُمُ أَنْيُ شِئْتُمْ﴾: تمثيل، أي فأتوهن كما تاتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة، والمعنى: جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأني واحداً وهو موضع الحرث، وقوله: ﴿هُوَ أَذَى فَاعْرِضُوا أَلْسِنَاءَكُمْ﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ﴿فَأَتَاوُا رَحِمَكُمُ أَنْيُ شِئْتُمْ﴾: من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم، وروي: أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي مجببة من دبرها في قبلها، كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ -: فقال كذبت اليهود ونزلت (١٥٧): ﴿وَقَدْ مَوَّأُ

= قال الحافظ رواء مالك في الموطأ عنه بهذا مرسلًا. ووصله الطبراني من رواية الدراوردي عن زيد بن أسلم وصنفان بن مسلم عن عطاء بن يسار مرسلًا. وفي الباب عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد «أنه سأل رسول الله - ﷺ -: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: لك ما فوق الإزار» أخرجه أبو داود. وعن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله - ﷺ - بنحوه - والتعفف عن ذلك أفضل وإسناده ضعيف. انتهى.

١٥٦ - أخرجه الدارمي (٢٤٣/١) كتاب الطهارة باب مباعدة الحائض من طريق خالد بن أيوب عن رجل عن عائشة أنها قالت لإنسان...

قال الحافظ أخرجه الدارمي من رواية أيوب عن رجل عن عائشة أنها قالت لإنسان «اجتنب شعار الدم ولك ما سواه» انتهى.

١٥٧ - أخرجه البخاري (٣٧/٨): كتاب التفسير: باب نسأوكم حرث لكم... حديث (٤٥٢٨)، ومسلم (١٠٥٨/٢): كتاب النكاح: باب جواز جماعه... حديث (١٤٣٥/١١٧)، وأبو داود (٢/٢) =

لَا تَنْفِكُوا: ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة، وما هو خلاف ما نهيتكم عنه، وقيل: هو طلب الولد، وقيل: التسمية على الوطء، ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾: فلا تجتروا على المناهي، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ مُلْتَمِئُونَ﴾: فتزودوا ما لا تفتضحون به، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات، فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْبُ لَكُمْ﴾، مما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فَأَوْفِرْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني: أن المأني الذي أمركم الله به هو مكان الحرث، ترجمة له وتفسيراً، أو إزالة للشبهة، ودلالة على أن الغرض الأصيل في الإتيان / هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من المأني الذي يتعلق به هذا الغرض، فإن قلت: ما بال: ﴿وَسْتَئْتُونَكَ﴾: جاء بغير واو ثلاث مرات، ثم مع الواو ثلاثاً؟ قلت: كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأول وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع لذلك، كأنه قيل: يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق، والسؤال عن كذا وكذا.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيْتَابِكُمْ أَبَ تَبَرُّوا وَتَنَفَّوْا وَتَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ

حَلِيمٌ

= (٢٤٩): كتاب النكاح باب من جامع النكاح، حديث (٢١٦٣) والترمذي (٢١٥/٥): كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة، حديث (٢٩٧٨)، والنسائي (٣٠٢/٦) كبرى، كتاب عشرة النساء: باب نسأؤكم حرث...، حديث (١١٠٣٨)، وابن ماجه (٦٢٠/١) كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، حديث (١٩٢٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٤/٧): كتاب النكاح: باب إتيان النساء في أدبارهن والطحواي (٤٠/٣): كتاب النكاح: باب وطء النساء في أدبارهن.

والدارمي (١٤٥/٢): كتاب النكاح: باب النهي عن إتيان النساء في أعجازهن. وابن حبان في صحيحه (٤٧٤/٩)، حديث (٤١٦٦)، والطبري في تفسيره (٤٠٩/٤)، حديث (٤٣٣٩)، وابن أبي شيبة (٥١٧/٣)، حديث (١٦٦٦٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦٧/١)، (٤٦٨)، وعزاه للسنن، ووكيع، وابن شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في سننه. قال الحافظ متفق عليه من طرق عن ابن المنكدر عن جابر: والتقيد لمسلم فقط. ولمسلم من رواية الزهري «إن شاء مجيبة وإن شاء غير مجيبة. غير أن ذلك في صمام واحد» وهو من قول الزهري. وأخرجه أصحاب السنن والبخاري وابن حبان. وليس عند أحد منهم قول «فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ» وأخرجه البخاري من طريق خفيف عن ابن المنكدر. وزاد فيه «وإنما الحرث من حيث يخرج الولد» تفرد به خفيف. وهو ضعيف. انتهى.

العرضة: فعلة بمعنى مفعول، كالقبضة والغرفة، وهي اسم ما تعرضه دون الشيء من عرض العود على الإناء فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه، تقول: فلان عرضة دون الخير، والعرضة أيضاً: المعرض للأمر؛ قال [من الطويل]:

..... وَلَا تَجْعَلُونِي عُرْضَةً لِلْأَوَائِمِ^(١)

ومعنى الآية على الأولى: أن الرجل كان يحلف على بعض الخيرات، من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنت في يميني، فيترك البرّ إرادة البرّ في يمينه، فقليل لهم: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾: أي حاجزاً لما حلفتُم عليه، وسمي المحلوف عليه يميناً، لتلبسه باليمين، كما قال النبي - ﷺ - لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك» (١٥٨) أي: على شيء مما يحلف عليه، وقوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَدِّقُوا﴾: عطف بيان لأيمانكم، أي: للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن قلت: بم تعلقت اللام في: لأيمانكم؟ قلت: بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجاً، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿عُرْضَةً﴾: لما فيها من معنى الاعتراض، بمعنى: لا تجعلوه شيئاً يعترض البر، من اعترضني كذا، ويجوز أن يكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة، أي ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا^(٢)، ومعناها على الأخرى: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم

١٥٨ - أخرجه البخاري (١٣/١٣٢): كتاب الأحكام: باب من سأل الإمارة وكل إليها، حديث (٧١٤٧)، ومسلم (٣/١٢٧٣، ١٢٧٤): كتاب الأيمان: باب نذب من حلف يميناً...، حديث (١٩/١٦٥٢)، وأبو داود (٣/١٣٠): كتاب الخراج والإمارة باب ما جاء في طلب الإمارة، حديث (٢٩٢٩) والترمذي (٤/١٠٦): كتاب النذور والأيمان: باب ما جاء فيمن حلف...، حديث (١٥٢٩)، والنسائي (٧/١٠): كتاب الأيمان والنذور: باب النهي عن مسألة الإمارة، حديث (٣٧٨٢) وأحمد (٥/٦١)، والدارمي (٢/١٨٦): كتاب النذور والأيمان: باب من حلف على يمين فرأى غيرها خير منها، وابن الجارود (٣/٢٥٤) حديث (٩٩٨) والبيهقي في سننه (١٠/٥٣) وابن حبان في صحيحه (١٠/١٨٩)، حديث (٤٣٤٨) عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة... به. قال الحافظ أخرجه الأئمة الخمسة من رواية الحسن البصري عن عبد الرحمن بن سمرة. انتهى.

(١) دعوني أنح وجداً كنوح الحمامم ولا تجعلوني عرضة للوائم قيل هو لأبي تمام. يقول: أتركوني أنح لما بي من الوجد وحرقة العشق مثل نوح الحمامم. ويروى: لنوح الحمامم، فهو علة للمعلل مع علته. والعرضة: المعرض للأمر، أي: ولا تجعلوني معرضاً للوم اللوائم. أو المراد باللوائم: أنواع اللوم مبالغة، على حد: جد جده، لأن اللائم حقيقة فاعل اللوم.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا التقدير لا يصح للفصل بين العامل ومعموله بأجنبي، وذلك =

فتبتلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم من أنزل فيه: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ [القلم: ١٠] بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها، وأن تبروا علة للنهي، أي: إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، لأن الحلاف مجترى على الله، غير معظم له، فلا يكون براً متقياً، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم، اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره، ولذلك قيل لما لا يُعتد به في الدية من أولاد الإبل، «لغو»: واللغو من اليمين: الساقط الذي لا يُعتد به في الأيمان، وهو الذي لا عقد معه، والدليل عليه: ﴿ولكن يواخذكم بما عقدتم الإيمان﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، واختلف الفقهاء فيه، فعند أبي حنيفة وأصحابه/ ٨١ هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه، وعند الشافعي: هو قول العرب: لا والله، وبلى والله، بما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف، ولو قيل لواحد منهم: سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام لأنكر ذلك، ولعله قال: لا والله ألف مرة، وفيه معنيان: أحدهما: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾: أي لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظن، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم، أي: اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس، والثاني: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾: أي لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم، أي: بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان، ولم يكن كسب اللسان وحده ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ حَكِيمٌ﴾: حيث لم يواخذكم باللغو في أيمانكم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ رِزْقٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِن قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧١) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧٢) وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَكْتُمَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أََرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤَلِّلْنَّ أَحَقَّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٧٣)

قرأ عبد الله: «آلوا من نسائهم»، وقرأ ابن عباس: «يقسمون من نسائهم»، فإن قلت: كيف عدي بمن، وهو معدى بعلی؟ قلت: قد ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلین أو مقسمین، ويجوز أن يراد لهم: ﴿مِن نِّسَابِهِمْ رِزْقٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، كقوله: لي منك كذا، والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة

= أُنْ «لأيمانكم» عنده متعلق بـ «تجعلوا»، فوقع فاصلاً بين «عُرْضَةُ» التي هي العامل وبين «أَنْ تَبْرُوا» الذي هو في أن تبروا، وهو أجنبی منهما. ونظير ما أجازته أن تقول: «امرؤ واضرب يزيد هنداً، وهو غير جائز، وتُصْأوا على أنه لا يجوز: «جاءني رجل ذو فرس راکب أبْلَقُ» أي رجل ذو فرس أبْلَق راکب، لما فيه من الفصل بالأجنبي. انتهى. الدر المنون.

أشهر فصاعداً على التقييد بالأشهر، أو لا أقرب على الإطلاق، ولا يكون في ما دون أربعة أشهر، إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعي، وحكم ذلك: أنه إذا فاء إليها في المدة^(١) بالوطء إن أمكنه أو بالقول إن عجز: صح الفاء، وحث القادر، ولزمته كفارة اليمين، ولا كفارة على العاجز، وإن مضت الأربعة بانت بتطبيقه عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: لا يصح الإيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ثم يوقف المولى، فإذا أن فيء وإما أن يطلق، وإن أبى، طلق عليه الحاكم، ومعنى قوله: ﴿فَإِنْ قَالُوا﴾: فإن فاؤا في الأشهر، بدليل قراءة عبد الله: «فَإِنْ قَالُوا فِيهِنَّ»، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَجِيمٌ﴾: يغفر للمولين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء وهو الغالب، وإن كان يجوز أن يكون على رضا منهن إشفاقاً منهن على الولد من الغيل^(٢)، أو لبعض الأسباب لأجل الفينة التي هي مثل التوبة ﴿وَإِنْ عَزَّوُا الطَّلَاقَ﴾: فتربصوا إلى مضي المدة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: وعيد على إصرارهم وتركهم الفينة، وعلى قول الشافعي - رحمه الله - معناه ﴿فَإِنْ قَالُوا﴾، ﴿وَإِنْ عَزَّوُا﴾^(٣) بعد مضي المدة، فإن قلت: كيف موقع الفاء إذا كانت الفينة قبل انتهاء مدة التربص؟^(٤) قلت: موقع صحيح، لأن قوله: ﴿فَإِنْ قَالُوا﴾، ﴿وَإِنْ عَزَّوُا﴾: تفصيل لقوله ﴿لَلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾، والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم

(١) قال محمود رحمه الله: «وحكم ذلك أنه إذا فاء إليها في المدة... إلخ». قال أحمد رحمه الله: وهذا التفسير منزل على مذهب أبي حنيفة لأنه لا يرى الفينة بعد انقضاء الأربعة الأشهر مفيدة إذا وقع الطلاق بنس مضيها فلا تكون الفينة معتبرة عنده إلا في أربعة الأشهر خاصة.

(٢) قوله «على الولد من الغيل» في الصحاح: اخترت الغيلة - بالكسر - بولد فلان، إذا أتيت أمه وهي ترضعه، أو حملت وهي ترضعه. والغيل - بالفتح - اسم ذلك الابن. (ع)

(٣) قوله «فَإِنْ قَالُوا وَإِنْ عَزَّوُا» يعني أن كلا من الشرطين عند الشافعي بعد مضي المدة. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت كيف موقع الفاء إذا كانت الفينة قبل انقضاء مدة التربص إلخ» قال أحمد رحمه الله: هذا جواب عن سؤال موجه على أبي حنيفة رضي الله عنه لأنه إذا رأى الفينة في الأشهر الأربعة خاصة لا فيما بعدها والله تعالى عطف الفينة على تربص أربعة أشهر بالفاء ومقتضاها كما علمت وقوع ما عطفه بعدما عطفه عليه فيلزم وقوع الفينة المعبرة بعد انقضاء الأشهر الأربعة، وأبو حنيفة أباه فلذلك أجاب عنه الزمخشري بجوابه المتقدم والسؤال عندي يندفع بطريق آخر وهو أن المعطوف عليه التربص وهو حاصل من أول المدة لوقوع الفينة في المدة بعد التربص فلا يحتاج إلى الجواب بالمثل المذكور وإنما أوقع الزمخشري في التزام السؤال تسليمه لتقدم الفينة في الأربعة الأشهر على تربصها بناء منه على أنه لا يصدق قول القائل قد تربصت بفلان أربعة أشهر إلا إذا انقضت المدة وليس الأمر كذلك فإنه يصدق من الحاكم أن يقول عند ضرب أجل المولى قد تربصت لك أربعة أشهر كما قال الله تعالى لينظر أفيء أم لا، ويصدق رب الدين في أن يقول لمدبانة حالة القرض قد أجلك بهذا الدين سنة وإن كان مقتضى منها حينئذ دقيقة واحدة فلذلك التربص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب أجل المذكور فالفينة الواقعة في الأجل إنما يقع بعده، فالفاء على بابها المعروف.

إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحوّل^(١). فإن قلت: ما تقول في قوله/ ٨١ ب ﴿قَالَ اللَّهُ سَبِّحْ عَلِيمٌ﴾^(٢) وعزمهم الطلاق بما يعلم ولا يسمع؟ قلت: الغالب أن العازم للطلاق وترك الفينة والضرار، لا يخلو من مقابلة ودمدمة^(٣)، ولا بد له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان، ﴿وَالطَّلَاقُ﴾: أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء، فإن قلت: كيف جازت إرادتهن خاصة، واللفظ يقتضي

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليس بصحيح؛ لأن ما مثله ليس بنظير الآية، ألا ترى أن المثال فيه إخبار عن المفضل حاله، وهو قوله: «أنا نزيلكم هذا الشهر»، وما بعد الشرطين مضرخ فيه بالجواب الدال على اختلاف متعلق فعل الجزاء، والآية ليست كذلك؛ لأن الذين يؤذون ليس مخبراً عنهم ولا مستنداً إليهم حكم، وإنما المحكوم عليه تربصهم، والمعنى: تربص المؤمنين أربعة أشهر مشرور لهم بعد إيلائهم، ثم قال: «فإن فازوا وإن عزموا» فالظاهر أنه يعقب تربص المدة المشروعة بأسرها، لأن الفينة تكون فيها، والعزم على الطلاق بعدها، لأن التقييد المغاير لا يذلل عليه اللفظ، وإنما يطابق الآية أن تقول: «للضيف إكرام ثلاثة أيام، فإن أقام فحنن كرماء مؤثرون وإن عزم على الرحيل فله أن يرحل» فالمبتدأ إلى اللغني أن الشرطين مقدران بعد إكراهيه. انتهى. الدر المنصور.

(٢) قال محمود رحمه الله: «فإن قلت: ما القول في قوله فإن الله سميع عليم... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: في هذا الجواب إسلاف جواب عن سؤال آخر يتوجه على أبي حنيفة رضي الله عنه فيقال له: إذا كان مضي الأربعة الأشهر يوجب عندك وقوع الطلاق بنفسه غير موقوف على إيقاع من أحد، فما الذي يسمع إذا؟ وهو أمكن من السؤال الذي قدره الزمخشري، فإن لقاتل أن يقول: عبر بالعزم عن الإيقاع لأنه يستلزمه غالباً، وفي أثناء كلامه نكتة تحتاج إلى التنبيه عند قوله: والعزم بما يعلم ولا يسمع، والذي ننبه عليه أن قاعدة أهل السنة أن كل موجود يجوز أن يسمع، حتى الجواهر والألوان والمعاني بجمالها. وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم وليس بحرف ولا صوت. فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتاً ولا نطقاً، غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع ومرئي وملسوم ومذوق وهو المعلوم بالحس، وإلى معلوم بغير ذلك. وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده، وإن كان الزمخشري ثابتاً فيما قاله على الأمر العرفي معتقداً ما ذكرناه من حيث المعروف - وما أراه كذلك - فالأمر سهل. وإن كان أخرج كلامه المذكور على قاعدة الاعتزال - وهو الظاهر من حاله في اعتقاد أن ما عدا الأصوات لا يجوز أن يسمع عقلاً - فالحذر الحذر من هذه القاعدة الفاسدة والله المستعان. ثم لا بد لنا في مسألة الإيلاء من البصر لما يعتقد من مذهب مالك رضي الله عنه، ومذهب مالك رضي الله عنه هو الذي اقتضاه الشافعي رضي الله عنه في المسألة فنقول: مضي الأربعة الأشهر بمجرده لا يوجب وقوع الطلاق على الزوج، لأن الأصل بقاء العصمة، وقد جعل الله له الفينة بعد تربص الأجل المذكور، ونحن وإن بينا أولاً أن الآية لا تأبى وقوع الفينة في الأجل وهي أيضاً تأبى وقوعها بعد الأجل، فينظم من أصله، أعني بقاء العصمة. والسلامة من معارضة الآية، وقوع الفينة المعتبرة بعد الأجل، وبقاء العصمة بعد الأجل، استصحاباً للأصل غير معارض بالآية، وهو المطلوب.

(٣) قوله «لا يخلو من مقابلة ودمدمة» في الصحاح: دمدمت الشيء إذا ألقته بالأرض، لكنه غير مناسب هنا، فلعله زمزمة بالزاي. وفي الصحاح: الزمزمة صوت الرعد. والزمزمة: كلام المجوس عند أكلهم. أو رمزمة بالراء، وفي الصحاح: ترمم، إذا حرك فاه للكلام اهـ. وهذا أنسب. (ع)

العموم؟ قلت: بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكله وبعضه، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك، فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتريص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: وليرتبع المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر، تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتريص، فهو يخبر عنه موجوداً، ونحو قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناءً على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد، ولو قيل: ويرتبع المطلقات، لم يكن بتلك الوكادة، فإن قلت: هلا قيل: يرتبعن ثلاثة قروء، كما قيل: ﴿رَبُّنَّ أَزْجَرَ أَشْهَرُ﴾ وما معنى ذكر الأنفس؟ قلت: في ذكر الأنفس تهييج لهن على التريص وزيادة بعث، لأن فيه ما يُستنكف منه فيحملهن على أن يرتبعن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنهن على الطموح ويجبرنهن على التريص، والقروء: جمع قرء أو قرء، وهو الحيض، بدليل قوله - عليه الصلاة والسلام -: «دعي الصلاة أيام أقرائك» (١٥٩) وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» (١٦٠) ولم يقل طهران، وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَبْسُ مِنْ الْمَجْصِ

١٥٩ - أخرجه الدارقطني في سننه (٢١٧/١): كتاب الحيض حديث (٥٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٠٠/١)، (١٠١).

قال الحافظ: أخرجه الطحاوي والدارقطني من حديث فاطمة بنت أبي حبيش «أنها قالت: يا رسول الله إني امرأة استحاض فلا أظهر قال: دعي الصلاة أيام أقرائك ثم اغتسلي وصلي». انتهى.

١٦٠ - أخرجه أبو داود (٦٦٥/١) في الطلاق، باب في سنة طلاق العبد (٢١٨٩)، والترمذي (٤٨٨/٣) في الطلاق، باب ما جاء أن طلاق الأمة تطليقتان (١١٨٢) وابن ماجه (٦٧٢/١) في الطلاق، باب في طلاق الأمة وعددها (٢٠٨٠) والدارقطني (٣٩/٤)، والحاكم (٢٠٥/٢)، والبيهقي (٣٦٩/٧) عن أبي عاصم نا ابن جريج عن مظاهر عن القاسم بن محمد عن عائشة قال رسول الله - ﷺ - طلاق الأمة تطليقتان، وقرؤها حيضتان. قال أبو عاصم: فلقيت مظاهراً فحدثني عن القاسم عن عائشة عن النبي - ﷺ - مثله إلا أنه قال: وعدتها حيضتان.

قال أبو داود: وهو حديث مجهول.

وقال الترمذي: حديث عائشة حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً، إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهره، لا نعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وقال البيهقي: بإسناده عن ابن حماد يقول. قال البخاري: مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة، ضعفه أبو عاصم.

ويشهد له حديث ابن عمر أخرجه ابن ماجه (٢٠٧٩) والدارقطني (٣٨/٤)، والبيهقي (٣٦٩/٧) عن عمر بن شبيب المسلي عن عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر قال رسول الله - ﷺ - : طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان.

وقال البيهقي والدارقطني: تفرد به عمر بن شبيب المسلي هكذا مرفوعاً، وكان ضعيفاً. والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً.

مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴿الطلاق: ٤﴾ فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأظهار، ولأن الغرض الأصيل في العدة استبراء الرحم، والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام دون الطهر؛ ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة؛ ويقال أقرأت المرأة؛ إذا حاضت، وامرأة مقرء، وقال أبو عمرو بن العلاء: دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرأها، أي: تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء، فإن قلت: فما تقول: في قوله تعالى: ﴿فَلْيَقُوهُنَّ لِيَدْرِيَنَّ﴾ ﴿الطلاق: ١﴾، والطلاق الشرعي، إنما هو في الطهر؟ قلت: معناه مستقبلات لعدتهن، كما تقول: لقيته لثلاث بقين من الشهر، تريد مستقبلات لثلاث وعدتهن الحيض الثلاث، فإن قلت: فما تقول في قول الأعشى [من الطويل]:

لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا^(١)

قلت: أراد: لما ضاع فيها من عدة نساك، لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهن،

= وأخرجه مالك (٥٧٤/٢) في الطلاق، باب ما جاء في طلاق العبد (٥٠) ومن طريقه أخرجه البيهقي (٣٦٩/٧) عن نافع عن ابن عمر موقوفاً.
وأخرجه الدارقطني (٣٨/٤) عن سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً.
وقال الدارقطني: وهذا هو الصواب. وحديث عبد الله بن عيسى عن عطية عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - منكر غير ثابت من وجهين:
أحدهما: أن عطية ضعيف. وسالم ونافع أثبت منه وأصح رواية.
والوجه الآخر: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يخبر بروايته.
قال الحافظ، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة بهذا ومظاهر ضعيف. ورواه ابن ماجه والدارقطني من رواية عطية عن ابن عمر نحوه: وفيه عمر بن شبيب وهو ضعيف. انتهى.

(١) أفني كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيماً عزائك؟
مؤثلة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نساك
للأعشى، يقول لجاره: أينبغي أن تتجشم وتكلف نفسك في كل عام دخول غزوة واقتحام مكارهاها، تشد وتوثق عزيمة صبرك، لأقصاها: أي أبعدا وأعلها أو غايتها ومتهاها. ومؤثلة أي مؤصلة على اسم الفاعل. ويروى مؤثرة، أي تورثك تلك الغزوة مالا كثيراً بغنائمها، ورفعة لك في الحي لأجل ما ضاع فيها أي في الأعوام الملعونة من ذكر كل عام. واللام للعاقبة، شبه ضياع القروء المترتب على خروجه للغزو بأمر مرغوب على طريق المكينة والام العلة تخييل، أو شبه ترتب المرغوب عنه بترتب المرغوب فيه. واستعار له اللام على طريق التصريحية، وفيها نوع توبيخ. ويجوز أن ذلك الاستفهام للتعجب، فقله «لما ضاع فيها» من تمام العجب. والأقراء التي تضع على الزوج هي الأظهار، لأنها التي يوطأن فيها. لا الحيض، وضياع ذلك يؤدي إلى انقطاع النسل.
ينظر ديوانه (٩١)، المحتسب ١/١٨٣، الهمع ٢/١٤١، الدرر ٢/١٩٤، الدر المصون ١/٥٥٥، فتح القدير ١/٣٠٦.

أي: من مدة طويلة كالمدة التي تعتد فيها النساء، استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه في الحروب والغارات، وأنه تمرّ على نساءه/ ١٨٢ مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها، أو أراد من أوقات نساك، فإنّ القرء والقارىء جاء في معنى الوقت، ولم يرد لا حيضاً ولا طهرأ، فإن قلت: فعلام انتصب ﴿ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾؟ قلت: على أنه مفعول به كقولك: المحتكر يتربص الغلاء، أي: يتربص مضيّ ثلاثة قروء، أو على أنه ظرف، أي: يتربص مدة ثلاثة قروء، فإن قلت: لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء؟ قلت: يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لا اشتراكهما في الجمعية، ألا ترى إلى قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾، وما هي إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهيمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع، وقرأ الزهري: «ثلاثة قروء»، بغير همزة، ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي زَمَانِهِنَّ﴾: من الولد أو من دم الحيض، وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لثلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولثلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض: قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق، ويجوز أن يراد اللاتي يبيغن إسقاط ما في بطونهن من الأجنة فلا يعترفن به ويجحدنه لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه، ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: تعظيم لفعلهن، وأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظام، والبعولة: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كما في الحزونة والسهولة، ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعل حسن البعولة، يعني: وأهل بعولتهن ﴿أَحَقُّ بِرَيْحَةٍ﴾: برجعتهن، وفي قراءة أبي: «برذنين»: ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في مدة ذلك التربص، فإن قلت: كيف جعلوا أحق بالرجعة، كأن للنساء حقاً فيها؟ قلت: المعنى أنّ الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة، وجب إثبات قوله على قولها وكان هو أحق منها، إلا أن لها حقاً في الرجعة، ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾: بالرجعة، ﴿وَصَلَحًا﴾: لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن، ﴿وَمَنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ﴾: ويجب لهنّ من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليهن، ﴿بِالْعَمْرَيْنِ﴾: بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفنهم ما ليس لهنّ ولا يكلفونهنّ ما ليس لهم ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه، والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة، لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال، ﴿دَرَبَةً﴾: زيادة في الحق وفضيلة، قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

﴿الطَّلَقَ مَرَّتَيْنِ فَإِمْسَاكَهُ بِعَمْرٍوٍ أَوْ تَشْرِيعٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا وَمَا

ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٦﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَلَمَا أَنْ يُعِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

﴿الْفَلَقَ﴾: بمعنى التطلق، كالسلام بمعنى التسليم، أي: التطلق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال/ ٨٢ب دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين الثانية، ولكن التكرير، كقوله: (ثم ارجع البصر كرتين) [الملك: ٤] أي: كرتة بعد كرتة، لا كرتين اثنتين، ونحو ذلك من الثاني التي يراد بها التكرير قولهم: لبيك، وسعديك، وحنانيك، وهذاذك، ودواليك، وقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾: تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون، بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجهتهن، وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم، وقيل: معناه الطلاق الرجعي مرتان، لأنه لا رجعة بعد الثلاث، فإمساك بمعروف أي: برجعة، أو تسريح بإحسان أي: بأن لا يراجعهما حتى تبين بالعدة، أو بأن لا يراجعهما مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضراها، وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث، وروي: أن سائلاً سأل رسول الله - ﷺ -: أين الثالثة؟ فقال: عليه الصلاة والسلام -: «أو تسريح بإحسان» (١٦١) وعند أبي حنيفة وأصحابه: الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم

١٦١ - أخرجه الدارقطني (٣/٤، ٤): كتاب الطلاق، حديث (٢، ١) الأول عن قتادة عن أنس، والثاني عن إسماعيل بن سميع الحنفي عن أنس وأخرجه أبو داود في المراسيل ص (١٨٩)، حديث (٢٢٠) وابن أبي شبة في مصنفه (٤/١٩٠)، حديث (١٩٢١٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/٣٣٧، ٣٣٨)، حديث (٩١ - ١١) مرسلًا.

والبيهقي في سننه الكبرى (٧/٣٤٠): كتاب الخلع والطلاق: باب ما جاء في موضع الطلقة الثالثة من كتاب الله عز وجل. عن أنس وكذلك مرسلًا وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٤٩٥) وعزاه لابن مردويه والبيهقي عن أنس وأحمد ووكيع وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقي، عن أبي رزين الأسدي قال: قال رجل...

قال الحافظ ابن حجر أخرجه الدارقطني من رواية عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس به. وقال في العلل: وهم فيه ليث بن حماد رواية عن عبيد الواحد. والمحفوظ عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين مرسلًا. وقد أخرجه ابن أبي شبة عن أبي معاوية. وعبد الرزاق عن الثوري كلاهما عن إسماعيل بن سميع. ورواه الدارقطني أيضاً من رواية حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس قال قال رجل لرسول الله - ﷺ -: «إني أسمع الله يقول: الطلاق مرتان فأين الثالثة؟ قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، هي الثالثة». انتهى.

يجامعها فيه، لما روي في حديث ابن عمر: أَنَّ رسول الله - ﷺ - قال له: «إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبلاً فتنطلقها لكل قرء تطليقة» (١٦٢) وعند الشافعي، لا بأس بإرسال الثالث، لحديث المجلاني الذي لآعن امرأته، فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله - ﷺ - فلم ينكر عليه (١٦٣) زوي: أَنَّ جميلة بنت عبد الله بن أبي كانت تحت ثابت بن قيس بن

١٦٢ - أخرجه الدارقطني (٣١/٤) كتاب الطلاق: حديث (٨٤) من طريق شعيب بن رزيق أن عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن عن ابن عمر فذكره.

وذكره عبد الحق في الأحكام الوسطى (١٩٢/٣) من طريق الدارقطني.
وقال: معلى بن منصور رماه أحمد بن حنبل بالكذب قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/٢٢٠ - ٢٢١)، وقال صاحب التنقيح: عطاء الخراساني قال ابن حبان: كان صالحاً غير أنه كان رديء الحفظ كثير الوهم فبطل الاحتجاج به وقد صرح الحسن بسماعه من ابن عمر، قال الإمام أحمد فيما رواه عنه ابنه صالح: الحسن سمع من ابن عمر، وكذلك قال أبو حاتم وقيل لأبي زرعة: الحسن لقي ابن عمر؟ قال نعم. ١. هـ. والحديث علقه الإمام البيهقي في «معركة السنن والآثار» (٥/٤٦١) كتاب الخلع والطلاق: باب الإختيار في الطلاق عن عطاء الخراساني عن الحسن عن ابن عمر وقال: عطاء الخراساني أتى في هذا الحديث بزيادات لم يتابع عليها وهو ضعيف في الحديث لا يقبل منه ما يتفرد به. ١. هـ.

قلت: وقد أعل البيهقي الحديث بعطاء فقط مع أن معلى أسوأ حالاً منه لأن معلى قد توبع على هذا الحديث تابعه يحيى بن عثمان بن كثير بن دينار الحمصي.
أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «نصب الراية» (٣/٢٢٠) من طريق علي بن سعيد الرازي عن يحيى بن عثمان به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/٣٣٩): رواه الطبراني وفيه على ابن سعيد الرازي قال الدارقطني: ليس بذلك وعظمه غيره وبقي رجاله ثقات.

قال الحافظ: أخرجه الدارقطني والطبراني من رواية شعيب بن رزين أن عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن قال: حدثنا عبد العزيز بن عمير «أنه طلق امرأته تطليقة وهي حائض» ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين آخرتين عند القرائن فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - . فقال: يا ابن عمير، ما هكذا أمرك الله. قد أخطأت السنة، والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء: فأمرني بمراجعتها. فقال: إذا طهرت فطلق عند ذلك أو أمسك - الحديث. انتهى.

١٦٣ - أخرجه مالك (٢/٥٦٦ - ٥٦٧) كتاب الطلاق: باب ما جاء في اللعان حديث (٣٤) والبخاري (٩/٣٦١) كتاب الطلاق: باب من جوز الطلاق الثلاث حديث (٥٢٥٩) ومسلم (٢/١١٢٩ - ١١٣٠) كتاب اللعان حديث (١/١٤٩٢) وأبو داود (٢/٦٧٩ - ٦٨٢) كتاب الطلاق: باب في اللعان حديث (٢٢٤٥) والنسائي (٦/١٧٠ - ١٧١) كتاب الطلاق باب بدء اللعان، وابن ماجه (١/٦٦٧) كتاب الطلاق: باب اللعان حديث (٢٠٦٦) وأحمد (٥/٣٣٦ - ٣٣٧) والدارمي (٢/١٥٠) كتاب النكاح: باب في اللعان وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٧٥٦) وابن حبان (٢٧١) - الإحسان والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/١٠٢) والبيهقي (٧/٣٩٨ - ٣٩٩) كتاب اللعان: باب سنة اللعان، والبيهقي في «شرح السنة» (٥/١٨١ - بتحقيقنا) من طريق الزهري عن سهل بن سعد به.

قال الحافظ ابن حجر متفق عليه من حديث سهل بن سعد لكن قيل: إن قوله «فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره النبي - ﷺ - بطلاقها» من كلام الزهري رواية عن سهل. (تنبيه) قال عبد الحق في الأحكام: =

شماس وكانت تبغضه وهو يحبها، فأنت رسول الله - ﷺ - فقالت: يا رسول الله، لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسى ورأسه شيء، والله، ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً، إني رفعت جانب الخباء فرأيتُه أقبِل في عِدَّة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً، فنزلت، وكان قد أصدقها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان في الإسلام (١٦٤)، فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾؟ إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِيَّا حَدْرَهُ﴾

== لم يصح اللفظ بالثلاث إلا في حديث الملاعن. وتعقب بما في مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت «طالقني زوجي ثلاثاً فخاصمته... الحديث». انتهى.

١٦٤ - أخرجه البخاري (٣٩٥/٩) كتاب الطلاق: باب الخلع حديث (٥٢٧٣) والنسائي (١٦٩/٦) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخلع وابن ماجه (٦٦٣/١) كتاب الطلاق: باب المختلعة تأخذ ما أعطاها حديث (٢٠٥٦) والدارقطني (٤٦/٤) كتاب الطلاق والخلع والإيلاء (١٣٥) والبيهقي (٣١٣/٧) والبغوي في «شرح السنة» (١٤١/٥ - ١٤٢ - بتحقيقنا) من طريق عكرمة عن ابن عباس به. وأخرجه أبو داود (٦٧٧/١) كتاب الطلاق: باب في الخلع حديث (٢٢٢٩) والترمذي (٤٩١/٣) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخلع حديث (١١٨٥) مكرر من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه فجعل النبي - ﷺ - عدتها حية. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال أبو داود: وهذا الحديث رواه عبد الرزاق عن معمر بن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبي - ﷺ - مراسلاً.

وأخرجه أحمد في مسنده (٣/٤).

قال الحافظ: أخرجه الطبري في تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا معتمر بن سليمان قال: قرأت على فضيل عن أبي جرير أنه سأل عكرمة «هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي بن سلول، أتت رسول الله - ﷺ - فذكره «ولم يسمها» وقد سماها البخاري من رواية حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة «أن جميلة - فذكره» ولابن ماجه من رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس «أن جميلة بنت سلول» وكذا أخرجه عبد الرزاق من وجه آخر «أن امرأة أتت النبي - ﷺ -، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي» وعند الدارقطني من طريق ابن جريج أخبرنا أبو الزبير «أن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أبي. وكان أصدقها حديقة، فكرهته - إلى آخره» فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون لها اسمان. وقد رويت القصة لغيرها. وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عمرو عن حبيبة بنت سهل «أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله - ﷺ - خرج إلى الصبح فوجدها عند بابها في الغلس. فقال من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل. قال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس» ومن طريقه أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد، ولابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً» فقالت: يا رسول الله لو لا مخافة الله ليزقت في وجهه» فقال: أتريدن عليه حديقته؟ قالت: نعم. فردت عليه حديقته. وفرق بينهما» ولأحمد من حديث سهل بن أبي حشمة قال «كانت بنت سهل - الحديث». انتهى.

الله، وإن قلت للأئمة والحكام، فهؤلاء ليسوا بأخذين منهم ولا بمؤتئين؟ قلت: يجوز الأمران جميعاً: أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره، وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكانهم الآخذون والمؤتون، ﴿يَمَّا ءَاتِيْتُمُوهُمْ﴾: مما أعطيتموهم من الصدقات، ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُبَيِّتَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية، لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾: فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها/ ٨٣ فيما أعطت، ﴿فِيهَا أَفْذَتْ يَدُ﴾: فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت من المهر، والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز في الحكم، وروي أن امرأة نشزت على زوجها فرفعت إلى عمر - رضي الله عنه -، فأباتها في بيت الزبل ثلاث ليال ثم دعاها فقال: كيف وجدت مبيتك؟ قالت: ما بت منذ كنت عنده أقر لعيني منهم، فقال لزوجها: اخلعها ولو بقرطها (١٦٥)، قال قتادة: يعني بمالها كله، هذا إذا كان النشوز منها، فإن كان منه، كره له أن يأخذ منها شيئاً، وقرئ «إلا» أن يخافا، على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير، وهو من بدل الاشتمال كقولك: خيف زيد تركه إقامة حدود الله، ونحوه: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣] ويعضده قراءة عبد الله: ﴿إِلَّا أَنْ تَخَافُوا﴾ وفي قراءة أبي: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾، ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن، يقولون: أخاف أن يكون كذا، وأفرق أن يكون، يريدون أظن، ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾: الطلاق المذكور الموصوف بالتكرار في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ﴾، واستوفى نصابه، أو فإن طلقها مرة ثالثة بعد المَرَّتَيْنِ، ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ﴾: من بعد ذلك التطلق، ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾: حتى تتزوج غيره، والنكاح يسند إلى المرأة، كما يسند إلى الرجل كما التزوج، ويقال: فلانة ناكح في بني فلان، وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره وهو سعيد ابن المسيب، والذي عليه الجمهور أنه لا بد من الإصابة، لما روى عروة عن - عائشة رضي الله عنها -: أَنَّ امْرَأَةً رَفَاعَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَتْ: إِنَّ رَفَاعَةَ طَلَّقَنِي فَبِتَ طَلَاقِي وَإِنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنُ الزُّبَيْرِ تَزَوَّجَنِي، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هَدْيَةِ الثَّوْبِ وَإِنَّهُ طَلَّقَنِي قَبْلَ أَنْ يَمْسِنِي، فَقَالَ

١٦٥ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٥/٤)، حديث (١٨٥٢٥) وعبد الرزاق في مصنفه (٥٠٥/٦)، حديث (١١٨٥١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٢/١) في تفسير سورة البقرة الآية (٢٢٩). وعزه عبد الرزاق، وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبري وإبراهيم الحري في أواخر الغريب له كلهم من رواية أيوب عن كثير مولى سمرة «أن عمر أتى بامرأة ناشزة فذكره» قال إبراهيم: الناشز التي تعصى زوجها. انتهى.

رسول الله - ﷺ -: أتريدن أن ترجعي إلى رفاة؟ لا، حتى تذوقي عُسيلته ويدوق عُسيلتك (١٦٦)، وزُوي: أنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت، فقالت: إنه كان قد مسني،

١٦٦ - أخرجه مالك (٥٣١/٢) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وما أشبهه حديث (١٧) من طريق المسور بن رفاة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير أن رفاة بن سموال طلق امرأته... ومن طريق مالك أخرجه الشافعي في «الأم» (٢٤٨/٥) باب نكاح المطلقة ثلاثاً وابن حبان (١٣٢٣ - موارد) والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثاً. قال السيوطي في «تنوير الحوالك» (٦/٢) قال ابن عبد البر: كذا لأكثر الرواة مرسل ووصله ابن وهب عن مالك فقال عن أبيه وابن وهب من أجل من روى عن مالك هذا الشأن وأثبتهم فيه وتابعه أيضاً ابن القاسم وعلي بن زياد وإبراهيم بن طهمان وعبيد الله بن عبد المجيد الحنفي كلهم عن مالك وقالوا فيه: عن أبيه وهو صاحب القصة. ١. هـ. ومن طريق ابن وهب أخرجه ابن الجارود (٦٨٢) والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

وأخرجه البزار (١٩٤/٢) - كشف) رقم (١٥٠٤) من طريق عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ثنا مالك بن أنس عن المسور بن رفاة عن الزبير عن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٣/٤): رواه البزار والطبراني ورجالهما ثقات وقد رواه مالك في الموطأ مرسلًا وهو هنا متصل. ١. هـ. وقد ورد هذا الحديث موصولاً من حديث عائشة.

أخرجه أحمد (٢٢٦/٦) والبخاري (٢٤٩/٥) كتاب الشهادات: باب شهادة المختبئ حديث (٢٦٣٩) ومسلم (١٠٥٥/٢ - ١٠٥٦) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (١٤٣٣/١١١) والترمذي (٢٩٣/٢) كتاب النكاح: باب ما جاء فيمن يطلق امرأته ثلاثاً حديث (١١١٨) والنسائي (١٤٨/٦) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (٦٢١/١ - ٦٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً حديث (١٩٣٢). والدارمي (١٦١/٢) كتاب الطلاق: باب ما يحل المرأة لزوجها الذي طلقها... والشافعي (٣٤/٢ - ٣٥) كتاب الطلاق حديث (١١٠) والحميدي (١١١/١) رقم (٢٢٦) وعبد الرزاق (٣٤٦/٦) - ٣٤٧) رقم (١١١٣١) والطيلوسي (٣١٤/١ - ٣١٥) رقم (١٦١٢، ١٦١٣) وسعيد بن منصور (٧٣ - ٧٤) رقم (١٩٨٥) وأبو يعلى (٣٩٧/٧) رقم (٤٤٢٣) وابن حبان (٤١٩٩ - الإحسان) والبيهقي (٣٧٣/٧ - ٣٧٤) والبغوي في «شرح السنة» (١٦٩/٥) - بتحقيقنا) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: جاءت امرأة رفاة القرظي إلى النبي - ﷺ -: فقالت: كنت عند رفاة فطلقني فبت طلاقني فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هبة الثوب فقال: أتريدن أن ترجعي إلى رفاة؟ لا حتى تزوقي عسيلته ويدوق عسيلتك... وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللمحدث طرق أخرى عن عائشة.

فأخرجه البخاري (٢٨٤/٩) كتاب الطلاق: باب من قال لامرأته أنت علي حرام حديث (٥٢٦٥) ومسلم (١٠٥٧/٢) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (١٤٣٣/١١٤) وأحمد (٢٢٩/٦) والدارمي (١٦٢/٢) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

فقال لها: «كذبت في قولك الأول، فلن أصدقك في الآخر»، فلبثت حتى قبض رسول الله - ﷺ - (١٦٧) فأتت أبا بكر - رضي الله عنه - فقالت: أأرجع إلى زوجي الأول، فقال: قد عاهدت رسول الله - ﷺ - حين قال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر - رضي الله عنه - قالت مثله لعمر - رضي الله عنه - فقال: إن أتيتني بعد مَرَّتِكَ هذه

= وأخرجه مسلم (١٠٥٧/٢) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (١٤٣٣/١١٥) وأحمد (١٩٣/٦) وأبو يعلى (٣٧٣/٨ - ٣٧٤) رقم (٤٩٦٤) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.

وأخرجه أبو داود (٧٠٥/١) كتاب الطلاق: باب في المبتوتة لا يرجع إليها زوجها حتى تنكح زوجاً غيره حديث (٢٣٠٩) وأحمد (٤٢/٦) من طريق الأسود عن عائشة.

وأخرجه البخاري (٢٩٣/١٠) من طريق عبد الوهاب عن أيوب عن عكرمة.

«أُزِّفَ رَفَاعَةَ طُلُقِ امْرَأَتِهِ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْقُرْظِيُّ، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْهَا خِمَارٌ أَخْضَرُ، فَشَكَتْ إِلَيْهَا، وَأَزْنَتْهَا خُضْرَةً بَجِلْدِهَا. فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَالنِّسَاءُ يَنْصُرُ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا - قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا يَلْقَى الْمُؤْمِنَاتُ لَجِلْدِهَا أَشَدَّ خُضْرَةً مِنْ ثَوْبِهَا. قَالَ وَسَمِعْتُ أَنَّهَا قَدْ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -، فَجَاءَ وَمَعَهُ إِيثَانٌ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، إِلَّا أَنَّ مَا مَعَهُ لَيْسَ بِأَعْيُنِي مِنْ هَذِهِ - وَأَخَذَتْ هَدِيَّةً مِنْ ثَوْبِهَا - فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَنْفَعُهَا نَفْسُ الْأَدِيمِ، وَلَكِنَّهَا نَاشِئَةٌ تَرِيدُ رَفَاعَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَحْلِي لِي أَوْ تَصْلِحِي لَهُ حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عَسَلِنَاكَ. قَالَ وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ فَقَالَ: بَنُوكَ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ؟ فَوَاللَّهِ لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْغَرَابِ بِالْغَرَابِ».

وفي الباب عن ابن عمر وعبيد الله بن عباس وأنس بن مالك والفضل بن عباس.

- حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٨٥/٢) والنسائي (١٤٨/٦ - ١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثاً وابن ماجه (٦٢٢/١) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فتتزوج فيطلقها - (١٩٣٣) من طريق محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر به.

أخرجه أحمد (٦٢/٢) والنسائي (١٤٩/٦) والبيهقي (٣٧٥/٧) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان عن ابن عمر.

قال النسائي: هذا أولى بالصواب.

وأخرجه أبو يعلى (٣٧٤/٨) رقم (٤٠٦٦) من طريق يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر.

قال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٣/٤): رواه الطبراني وأبو يعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

قال الحافظ متفق عليه من هذا الوجه. انتهى.

١٦٧ - ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٥/١) وعزاه لابن المنذر عن مقاتل بن حيان.

قال الحافظ قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة - فذكر الحديث. وفيه «فقدت ما شاء الله. ثم جاءته فأخبرته أنه قد مسها، فمنعها أن ترجع إلى زوجها الأول، وقال: اللهم إن كان إنما بها أن يحلها لرفاعة فلا يتم لها نكاحه مرة أخرى. ثم أتت أبا بكر وعمر في خلافتهما فمناها». انتهى

لأرجمك، فمنعها. فإن قلت فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل؟ قلت: ذهب سفيان والأوزاعي وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنه غير جائز، وهو جائز عند أبي حنيفة مع الكراهة، وعنه أنهما إن أضمرا التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة، وعن النبي - ﷺ -: «أنه لعن المحلل والمحلل له» (١٦٨) وعن عمر - رضي الله عنه -: لا أوتى بمحلل ولا

١٦٨ - ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة وهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله وأبو هريرة وابن عباس.

- حديث علي:

أخرجه أحمد (٨٧/١، ١٠٧، ١٢١، ١٣٣، ١٥٠، ١٥٨) وأبو داود (٥٦٢/٢) كتاب النكاح: باب في التحليل حديث (٢٠٧٦) والترمذي (٤٢٧/٣) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١١١٩) وابن ماجه (٦٢٢/١) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٥) وأبو يعلى (٣٢٣/١ - ٣٢٤) رقم (٤٠٢) والبيهقي (٢٠٨/٧) كتاب النكاح: باب في نكاح المحلل، كلهم من طريق عامر الشعبي عن الحارث عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله - ﷺ -: لعن الله المحلل والمحلل له.

- حديث ابن مسعود:

أخرجه أحمد (٤٤٨/١) والترمذي (٤٢٨/٣ - ٤٢٩) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١١٢٠) والنسائي (١٤٩/٦) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثاً والدارمي (١٥٨/٢) كتاب النكاح: باب في النهي عن التحليل والبيهقي (٢٠٨/٧٠) كتاب النكاح: باب ما جاء في نكاح المحلل من طرق عن سفيان عن أبي قيس عن هزيل بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله - ﷺ - المحلل والمحلل له.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أحمد (٤٥٠/١ - ٤٥١) وأبو يعلى (٤٦٨/٨) رقم (٥٠٥٤) والبخاري في «شرح السنة» (٧٨/٥) - بتحقيقنا).

من طريق عبد الكريم الجزري عن أبي واصل عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - لعن المحلل والمحلل له.

- حديث عقبة بن عامر:

أخرجه ابن ماجه (٦٢٣/١) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٦) والدارقطني (٢٥١/٣) كتاب النكاح حديث (٢٨) والحاكم (١٩٩/٢) والبيهقي (٢٠٨/٧) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وابن الجوزي في «العلل المنتاهية» (٦٤٦/٢) من طريق الليث عن مشر عن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله - ﷺ -: ألا أخبركم بالتيس المستعار وهو المحلل والمحلل له لعن الله المحلل والمحلل له.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال: وقد ذكر أبو صالح كاتب الليث عن ليث سماعة عن مشر.

ثم ساقه من طريقه عن الليث قال: سمعت مشر به.

ثم قال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وقد أعل أبو زرعة هذا الحديث بعدم سماع الليث عن مشر فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١/١) (٤١١) رقم (١٢٣٢): سمعت أبا زرعة وذكر حديثاً رواه أبو صالح كاتب الليث وعثمان بن صالح =

قالا: حدثنا الليث عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله - ﷺ - ألا أخبركم بالتيس المستعار قالوا بلى قال: المحل والمحلل له، فلعن الله المحلل والمحلل له. قال أبو زرعة وذكرت هذا الحديث ليحيى بن عبد الله بن بكير وأخبرته برواية عبد الله بن صالح وعثمان بن صالح فأنكر ذلك إنكاراً شديداً وقال: لم يسمع الليث من مشرح شيئاً ولا روى عنه شيئاً وإنما حدثني الليث بن سعد بهذا الحديث عن سليمان بن عبد الرحمن أن رسول الله - ﷺ - قال أبو زرعة: الصواب عندي حديث يحيى بن عبد الله بن بكير. ١. هـ.

وقد أعلّى الإمام البخاري هذا الحديث بنفس العلة وهي عدم سماع الليث من شرح بن هاعان. فقال الترمذي في «العلل الكبير» (ص ١٦١ - ١٦٢) رقم (٢٧٤): سألت محمداً - يعني البخاري - عن حديث عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر... فذكره.

فقال: عبد الله بن صالح لم يكن أخرجه في أيامنا ما أرى الليث سمعه من مشرح بن هاعان لأن حيوة روى عن بكر بن عمرو عن مشرح. ١. هـ.

ويرد هذا كله تصريح الليث بسماعه من مشرح عند ابن ماجه، فقال الليث: قال لي أبو مصعب مشرح بن هاعان وعند الحاكم: من طريق أبي صالح عن الليث قال: سمعت مشرح وعند البيهقي أيضاً.

لترتفع بذلك مظنة الانقطاع بين الليث ومشرح. والحديث ذكره البوصيري في الزوائد (١٠٢/٢) وقال: هذا إسناد مختلف فيه من أجل أبي مصعب. ١. هـ. وأبو مصعب هو مشرح بن هاعان. قال الحافظ في «التقريب» (٢٥٠/٢): مقبول: يعني عند المتابعة وإلا فليّن الحديث. - حديث أبي هريرة:

أخرجه أحمد (٣٣٣/٢) وابن الجارود (٦٨٤) والبخاري (١٦٧/٢) - كشف) رقم (١٤٤٢) وابن أبي حاتم في «العلل» (٤١٣/١) رقم (١٢٣٧) والبيهقي (٢٠٨/٧) من طريق عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمد عن المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - لعن الله المحلل والمحلل له.

وذكره الحافظ في «التلخيص» (١٧٠/٣) وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه والترمذي في العلل وقال: وحسنه البخاري.

وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٠/٤): رواه أحمد والبخاري وفيه عثمان بن محمد الأحنسي وثقه ابن معين وابن حبان وقال ابن المديني: له عن أبي هريرة منكر. ١. هـ. وهنا لم يروه عن أبي هريرة ولكن رواه عن المقبري عن أبي هريرة. - حديث جابر:

أخرجه الترمذي (٤٢٧/٣) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١١١٩) ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٦٤٧/٢) من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر به. وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقائم فإن مجالد بن سعيد قد ضعفه بعض أهل العلم منهم أحمد بن حنبل. ١. هـ.

وقال ابن الجوزي: قال أحمد: مجالد ليس بشيء وقال يحيى لا يحتج بحديثه. وقال ابن الجوزي أيضاً: وقد روى هذا المعنى من طرق صحاح عن ابن مسعود وغيره.

محلل له إلا رجعتما (١٦٩)، وعن عثمان - رضي الله عنه - : لا إنكاح إلا نكاح/ ٨٣ ب
 رغبة غير مدالسة (١٧٠) ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾: الزوج الثاني، ﴿أَنْ يَرَجَعَا﴾: أن يرجع كل واحد
 منهما إلى صاحبه بالزواج، ﴿إِنْ طَلَّقَا﴾: إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية،
 ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان، لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن
 فسر الظن ههنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى، لأنك لا تقول: علمت أن يقوم
 زيد، ولكن: علمت أنه يقوم، ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد، وإنما يظن ظناً.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْلِهِنَّ أَجَلَهُنَّ فَاسْكُرُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهِنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِحُنَّ ضِرَارًا
 لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَاقِبَةَ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظْمِ بِيٍّ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْلِهِنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَصُوا بَيْنَهُمْ
 بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَنتُمْ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَلَمْ يَجْلِهِنَّ﴾: أي: آخر عدتهن وشارفن منتهاها، والأجل يقع على المدة كلها،

== - حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجه (٦٢٢/١) كتاب النكاح: باب المحلل والمحلل له حديث (١٩٣٤) حدثنا
 محمد بن بشار ثنا أبو عامر عن زعمة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال:
 لعن رسول الله - ﷺ - المحلل والمحلل له.

قال البوصيري في «الزوائد» (١٠٢/٢): هذا إسناد ضعيف لضعف زعمة بن صالح.

رواه أبو يعلى في مسنده حدثنا أبو هشام حدثنا أبو عامر حدثنا زعمة فذكره بزيادة في آخره.

وقال ابن حجر في «التلخيص» (١٧٠/٣): وفي إسناده زعمة بن صالح وهو ضعيف.

قال الحافظ روى عن ابن مسعود وعلي وجابر وعقبة بن عامر، وأبي هريرة، وابن عباس. قلت:
 أحال بها على تخريج الهداية وحديث ابن مسعود أخرجه الترمذي والنسائي وصححه ابن دقيق العيد
 على شرط البخاري. وحديث ابن عباس أخرجه ابن ماجه. وحديث علي أخرجه أحمد وأبو داود.
 وحديث أبي هريرة رواه أحمد والبيهقي. وحديث عقبة بن عامر أخرجه ابن ماجه. وحديث جابر
 ذكره الترمذي. انتهى.

١٦٩ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٦٥/٦)، حديث (١٠٧٧٧) وسعيد بن منصور في سننه (٧٥/٢):

كتاب السنن: باب ما جاء في المحل والمحلل له، حديث (١٩٩٢، ١٩٩٣) وذكره السيوطي في
 الدر المنثور (٥٠٧/١) وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد الرزاق وأبو بكر بن الأثرم في سننه والبيهقي.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة من رواية المسيب بن رافع عن قبيصة بن
 جابر عن عمر فذكره. انتهى.

وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل، وكذلك الغاية والأمد، يقول النحويون: «من»، لابتداء الغاية، و «إلى»: لانتهاه الغاية، وقال [من الخفيف]:

كُلَّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَمُؤَدٍّ إِذَا أُنْهِيَ أَمَدُهُ^(١)

ويتسع في البلوغ - أيضاً - فيقال: بلغ البلد إذا شارفه ودناه، ويقال: قد وصلت، ولم يصل، وإنما شارف، ولأنه قد علم أن الإمساك بعد تقضي الأجل لا وجه له، لأنها بعد تقضيها غير زوجة له في غير عدة منه، فلا سبيل له عليها، ﴿فَأَنكِحُوا بُطُورَكُمْ﴾: فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة ﴿أَوْ سَرِّحُوهُمْ بُتُورَهُمْ﴾: وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها وتبين من غير ضرار، ﴿وَلَا تُنكِحُوا ضِرَارَكُمْ﴾: كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمساك ضراراً، ﴿يَتَمَدَّدُوا﴾: لتطلموهن، وقيل: لتلجسوهن إلى الافتداء، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ النَّفْسَ﴾: بتعريضها لعقاب الله، ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ حُرُومًا﴾ (١٧١) أي: جذا في الأخذ

١٧٠ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٦/١١)، حديث (١١٥٦٧) عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - سئل عن المحلل، فقال لا نكاح إلا نكاح رغبة...

والحاكم في مستدركه (١٩٩/٢): كتاب الطلاق عن عمر بن نافع، عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً...

وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وأخرجه البيهقي (٢٠٨/٧، ٢٠٩): كتاب النكاح: باب ما جاء في نكاح المحلل.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٧/١) وعزاه للبيهقي عن سليمان بن يسار أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحللها لزوجها ففرق بينهما وقال لا ترجع إليه إلا نكاح رغبة غير دلسه.

قال الحافظ: لم أجده عن عثمان بل وجدته عن ابن عمر. أخرجه الحاكم من رواية عمر بن نافع عن أبيه أنه قال «جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير

مؤامرة منه ليحللها لأخيه، هل تحل للأول؟ قال: لا إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله - ﷺ - وقد روى مرفوعاً أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنها - «أن

رسول الله - ﷺ - سئل عن المحلل. فقال: لا، إلا نكاح رغبة غير دلسه، ولا مستهزئ بكتاب الله تعالى لم يلق العسيلة وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وهو ضعيف. انتهى.

١٧١ - أخرجه الطبري (٨/٥)، حديث (٤٩٠٩) بلفظ هو الذي يطلق امرأته ثم يدعها حتى إذا كان في آخر عدتها راجعها... عن مسروق، (٩/٥)، حديث (٤٩١٤) عن الربيع.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٩/١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(١) يقال: أودى إذا هلك، وأودى به السبل ونحوه أهلكه وذبح به. والودي كالغنى: الهلاك. ويروى أجله. والأمد والأجل يطلقان على جميع مدة الشيء وعلى منتهاها، كما تطلق الغاية على جميع المسافة وعلى آخرها. يقول: كل حي لا بد أنه يستكمل مدة عمره ويهلك إذا انتهت مدته وتسكين العمر لغة فيه.

بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً ولعباً، ويقال لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت لا عب وهازیء، ويقال: كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول: كنت لأعباً، وعن النبي - ﷺ -: «ثلاث جدهن جد وهزلن جد: الطلاق^(١) والنكاح والرجعة». (١٧٣) ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ

١٧٢ - أخرجه الطبري (١٣/٥)، حديث (٤٩٢٣).

وذكره السيوطي في تفسيره الدر المنثور (٥٠٩/١) وعزاه لابن أبي شيبة، والطبري وابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان الرجل يطلق ويقول كنت لأعباً... .

١٧٣ - أخرجه أبو داود (١٦٦/١) كتاب الطلاق باب في الطلاق على الهزل (٢١٩٤) والترمذي (٤٩٠/٣) كتاب الطلاق باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق (١١٨٤) وابن ماجه (٦٥٧/١) كتاب الطلاق باب من طلق أو نكح أو راجع لأعباً (٢٠٣٩) وسعيد بن منصور في السنن باب الطلاق لا رجوع فيه (١٦٠٣)، والطحاوي في شرح المعاني (٩٨/٣)، والدارقطني (٢٥٦/٣)، باب المهر (٤٥، ٤٧)، (١٨/٤)، (١٩، ١٨/٤) كتاب الطلاق (٥٠، ٥١)، والحاكم (١٩٨/٢). وقال الحاكم: صحيح الإسناد وعبد الرحمن بن حبيب هذا هو ابن أردك من ثقات المدنيين.

وتعبه الذهبي بقوله في عبد الرحمن هذا: «فيه لين».

والبغوي في شرح السنة (١٦١/٥) (٢٣٤٩) - بتحقيقنا).

كلهم من طريق عبد الرحمن بن أردك عن عطاء بن أبي رباح عن يوسف بن ماهك عن أبي هريرة.

وعبد الرحمن بن أردك سبق كلام الحاكم والذهبي فيه.

وقال الحافظ في التقریب (٤٧٦/١): «لين الحديث».

وللحديث شواهد ذكرها الزيلعي في «نصب الراية».

- أولاً: ما رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» قال حدثنا بشر بن عمر ثنا ابن لهيعة عن عبيد

الله بن أبي جعفر عن عباد بن الصّامت أن رسول الله - ﷺ - قال: لا يجوز اللعب في ثلاث:

الطلاق والنكاح والعناق فمن قالهن فقد وجبن».

وقد أعلّ بعليّتين:

الأولى: الانقطاع بين عبيد الله بن جعفر وعبادة بن الصّامت.

الثانية: ضعف عبد الله بن لهيعة.

قال الحافظ في «التقریب» (٤٤٤/١):

«صدوق، من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرها».

ثانياً: ما رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم في تفسيره وابن جرير (٤٩٦/٢) (٤٩٢٦)

عن الحسن مرسلًا: «كان الرجل في الجاهلية يطلق، ثم يراجع، ويقول: كنت لأعباً ويعتق ثم

يراجع ويقول: كنت لأعباً فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَلْحِقُوا الْفِتْيَةَ اللَّهُ هَزْوًا﴾ فقال رسول الله - ﷺ -:

«من طلق أو حرّر، أو أنكح فقال: إني كنت لأعباً فهو جائز».

وهذا مرسل صحيح الإسناد إلى الحسن وهو البصري».

=

(١) قوله «وهزلن جد الطلاق والنكاح والرجعة» في أبي السعود: النكاح والطلاق والعناق. (ع)

عَلَيْكُمْ: بالإسلام وبنبوة محمد - ﷺ - ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾: من القرآن والسنة، وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها، ﴿يُعْطَاكُمْ بِهِ﴾: بما أنزل عليكم، ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْمَلُوهُنَّ﴾: إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً، ولحمية الجاهلية لا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج، والمعنى: أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهن، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلنهن أن يرجعن إلى أزواجهن، رُوي: أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول، (١٧٤) وقيل: في جابر بن/ ٨٤ عبد الله حين عضل بنت عم له، (١٧٥) والوجه أن يكون خطاباً للناس، أي: لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين، والعضل: الحبس والتضييق، ومنه: عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج، وأنشد لابن هرمة [من الوافر]:

وَإِنَّ قَصَائِدِي لَكَ فَاصْطَلِنِي عَقَائِلُ قَدْ عَضَلْنَ عَنِ النُّكَاحِ^(١)

وبلوغ الأجل على الحقيقة، وعن الشافعي - رحمه الله -: دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ﴿إِذَا زَوَّجُوا﴾: إذا تراضى الخطاب والنساء، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بما يحسن بالدين والمروءة من الشرائط، وقيل: بمهر المثل، ومن مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - أنها إذا زوجت نفسها بأقل من مهر مثلها فللأولياء أن يعترضوا، فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾؟ قلت: يجوز أن يكون لرسول الله - ﷺ - ولكل أحد، ونحوه: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَوًى وَأَمْهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢] ﴿أَزْكَى لَكَوًى وَأَمْهَرُ﴾: من أدناس الآثام، وقيل: (أزكى وأطهر): أفضل وأطيب، ﴿وَاللَّهُ يَسْلَمُ﴾: ما في ذلك من الزكاء والطهر،

= قال الحافظ: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث أبي هريرة وفي إسناده ضعف. انتهى.

١٧٤ - أخرجه الطبري (١٧/٥ - ١٨) رقم (٤٩٢٧ - ٤٩٣٧) والدارقطني (٢٢٣/٣ - ٢٢٤) كتاب النكاح حديث (١٥، ١٦).

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١١/١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.

وعزاه لابن جرير عن ابن جريج.

وعزاه لابن جرير عن إسحاق الهمداني.

١٧٥ - أخرجه الطبري (٢١/٥) رقم (٤٩٣٩) عن السدي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١١/١) وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

(١) العقائل: جمع عقيلة، وهي المعقولة في خدرها من النساء. يقول: إن قصائدي لك مثل المخدرات، فلك: حال من القصائد أو العقائل. وقوله «فاصطنعني» اعتراض، أي فاتخذني مادحاً وكافئني على مدحي إياك بما لا أمدح به غيرك من القصائد. ولما شبه القصائد بالنساء رشح ذلك بالعضل، وهو المنع من النكاح الخاص بالنساء.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلون.

﴿وَالْوِلْدَانُ يَرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِضْفُهُنَّ وَكَسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَالَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَلْفَوْا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿يَرْضَعْنَ﴾: مثل يتربصن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد، ﴿كَامِلَيْنِ﴾: تأكيد كقوله: ﴿ثَلَاثَ عَشْرَةَ كَامِلَةً﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ لأنه مما يتسامح فيه فتقول: أقمت عند فلان حولين، ولم تستكملهما، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أن يكمل الرضاعة»، وقرأء: «الرِّضَاعَةَ»، بكسر الراء، «والرضعة»، «وأن تتم الرضاعة»، «وأن يتم الرضاعة»، برفع الفعل تشبيهاً لـ «أن» بـ «ما»؛ لتأخيها في التأويل، فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾: بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم، كقوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] لك بيان للمهيت به، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع، وعن قتادة: حولين كاملين، ثم أنزل الله اليسر والتخفيف فقال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ﴾: أراد أنه يجوز النقصان، وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه بعد أن لا يكون في الفطام ضرر، وقيل: اللام متعلقة بـ ﴿يَرْضَعْنَ﴾، كما تقول: أرضعت فلانة لفلان ولده، أي: يرضعن حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الآباء، لأن الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة - رحمه الله - ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح، وعند الشافعي: يجوز، فإذا انقضت عدتها، جاز بالاتفاق، فإن قلت: فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن أولادهن؟ قلت: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، وقيل: أراد الوالدات المطلقات/ ٨٤ب وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع، ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾: وعلى الذي يولد له وهو الوالد، و﴿لَهُ﴾: في محل الرفع على الفاعلية، نحو: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإن قلت لم قيل: ﴿الْمَوْلُودُ لَهُ﴾ دون الوالد، قلت: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، وأنشد لنمامون بن الرشيد [من البسيط]:

فَلَيْسَ مَا أَتَاهَا النَّاسُ أَوْعِيَةً مُسْتَوْدَعَاتٍ وَلِلْأَبَاءِ أَبْنَاءٌ^(١)

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم، كالأظفار؛ ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذُوا بِوَمَائِكَ بِحَيْرٍ وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَائِزٌ عَنِ الْوَلَدِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿بِالْمَرْوِيِّ﴾: تفسيره ما يعقبه، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضاراً، وقرئ: «لا تكلف»: بفتح التاء، و«لا تكلف»: بالنون، وقرئ: «لا تضار»: بالرفع على الإخبار، وهو يحتمل البناء للمفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل: تضار بكسر الراء، وتضار بفتحها، وقرأ: ﴿لَا تُضَاكَزْ﴾: بالفتح أكثر القراء، وقرأ الحسن بالكسر على النهي، وهو محتمل للبناءين - أيضاً -، وبين ذلك أنه قرئ: «لا تضارز»، ولا «تضارز»، بالجزم وفتح الراء الأولى، وكسرهما، وقرأ أبو جعفر: لا «تضار»، بالسكون مع التشديد على نية الوقف، وعن الأعرج: «لا تضار» بالسكون والتخفيف، وهو من ضاره يضره، ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكوناً، وعن كاتب عمر بن الخطاب: «لا تضر»، والمعنى: لا تضار والدته زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعد ما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً، وما أشبه ذلك؛ ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده، بأن يمنعه شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها؛ ولا يأخذ منها وهي تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع؛ وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهى عن أي: يلحق بها الضرر من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد، ويجوز أن يكون: ﴿تُضَاكَزْ﴾: بمعنى: تضر، وأن تكون الباء من صلته، أي: لا تضر والدته بولدها، فلا تسيء غذاءه وتعده، ولا تفرط فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها، ولا يضر

(١) لا تزرين بفتى من أن يكون له أم من الروم أو سوداء عجماء

فلَيْسَ مَا أَتَاهَا النَّاسُ أَوْعِيَةً مُسْتَوْدَعَاتٍ وَلِلْأَبَاءِ أَبْنَاءٌ

للمأمون بن الرشيد حين كتب إليه أخوه الأمين يوبخه على الخلافة بغير استحقاق، وفي آخره: ابن الأمة ما ألامه: فأجابه بذلك. وأزرى به: إذا أوقع به العيب ورماء به. والنون في الفعل للتوكيد. ويروي: لا تزدرين فتى، على خطاب المؤنثة، وكأنه أراد به إسماع أخيه. وزرى عليه: إذا عاب عليه. والازدراء: افتعال منه، أي لا تعيبي، والنون ثابتة بعد النهي شذوذاً. والعجماء: التي لا تفصح في كلامها. وشبه النساء بالأوعية التي تودع فيها الأشياء تشبيهاً بليغاً، أو على طريق التصريحية على رأي السعد في كل تشبيه بليغ. وروي: وللأبناء آباء. والمعنى أن الرفعة والفضة من جهة الآباء لا من جهة الأمهات، لأنها كالأوعية للأبناء. لكن هذا التشبيه مبني على الظاهر. ثم كتب المأمون أيضاً في جواب أخيه: القلم بعمده، والسيف بعمده، والمرء بسعده، لا بأبيه ولا بجده.

الوالد به بأن ينتزعه من يدها أو يقصر في حقها فتقصر هي في حق الولد. فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعظافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبي منها، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد، ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾: عطف على قوله: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَمْ يَرْزُقْهُنَّ وَكَسَوْنَهُنَّ﴾، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، فكان المعنى: وعلى وارث المولود له/ ٨٥ مثل ما وجب عليه من الرزق والكسوة، أي: إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التي ذكرت من المعروف وتجنب الضرار، وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه، واختلفوا، فعند ابن أبي ليلى: كل من ورثه، وعند أبي حنيفة: من كان ذا رحم محرم منه، وعند الشافعي: لا نفقة فيما عدا الولاد، وقيل: من ورثه من عصيته مثل الجد، والأخ، وابن الأخ، والعم، وابن العم، وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه، وقيل: ﴿على الوارث﴾: على الباقي من الأبوين من قوله: «واجعله الوارث منا»^(١). ﴿فَإِنْ أَرَادَا يَصَالَا﴾: صادراً، ﴿عَنْ قَرَأَيْنِ أَحَدَهُمَا وَتَشَاوَرَا فَلَاحَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادا على الحولين أو نقصا، وهذه توسعة بعد التحديد، وقيل: هو في غاية الحولين لا يتجاوز، وإنما اعتبر تراضيهما في الفصل وتشاورهما: أما الأب فلا كلام فيه، وأما الأم، فلأنها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي، وقرئ: «فإن أراد»، استرضع: منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي، لتعديه إلى مفعولين، كما تقول: أنجح الحاجة، واستنجنحت الحاجة والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه، كما تقول: استنجنحت الحاجة ولا تذكر من استنجنحت، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأول، ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾: إلى المراضع، ﴿مَّا آتَيْتُمْ﴾: ما أردتم إيتاءه، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] وقرئ: «ما آتيتم»، من أتى إليه إحساناً إذا فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ مَعَهُ مَارِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً، وروى شيبان عن عاصم: «ما آتيتم»، أي: ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنما هو نذب إلى الأولى، ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المرضع من أهني ما يكون، لتكون طيبة النفس راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد، كأنه قيل: إذا آتيتم إليهن يداً

(١) قوله «واجعله الوارث منا» الرواية المشهورة: مني. (ع)

بيد ما أعطيتموهن، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: متعلق بـ ﴿سَلَّمْتُمْ﴾، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه، ناطقين بالقول الجميل، مطيِّبين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُ أَتَاكُمْ سَبْدُكُمْ وَلَكِنْ لَا تُؤَاوِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَفْرِمُوا عَهْدَ الْنِكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ فَهِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾: على تقدير حذف المضاف، أراد: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، وقيل: معناه يتربصن بعدهم؛ كقولهم: السمن متَوَّان بدرهم، وقرئ: «يتوفون» بفتح الياء^(١)، أي: يستوفون أجالهم، وهي قراءة علي - رضي الله عنه -، والذي يحكى: أن أبا الأسود الدؤلي كان يمشي خلف جنازة، فقال له رجل: من المتوفي؟ ٨٥/٩ ب - بكسر الفاء، فقال: الله تعالى، وكان أحد الأسباب الباعثة لعلي - رضي الله عنه - على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو، تناقضه هذه القراءة، ﴿يَتَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾: يعتدّن هذه المدة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: عشرين ذهاباً إلى الليالي والأيام داخله معها، ولا تراهم قط يستعملون التذكير فيه ذاهبين إلى الأيام. تقول: صمت عشرين^(٢)، ولو ذكرت خرجت من كلامهم، ومن البين فيه قوله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣] ثم: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤] ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾: فإذا انقضت عدتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: أيها الأئمة وجماعة المسلمين، ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾: من التعرض للخطاب، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي لا ينكره الشرع، والمعنى: أنهن لو فعلن ما هو منكر كان على الأئمة أن يكفوهن، وإن فرطوا كان عليهم الجناح، ﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ﴾: هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج، وعسى الله أن

(١) قال محمود رحمه الله: «قرأها علي رضي الله عنه بفتح الياء... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ولعل السائل لأبي الأسود كان ممن يفهم عنه أنه لا فرق عنده بين الكسر والفتح وهو الظاهر، وعلى ذلك أجابه أبو الأسود، فلا تناقض حينئذ.

(٢) قال محمود رحمه الله: «تقول: صمت عشرين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: ومنه «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكانما صام الدهر» فغلب الليالي أو كان الصوم غير متصور فيها حتى قالوا: إن شرطة النية وزمانها الليل، فلماذا جعل لها حظاً في الصوم وغلبها.

يسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوجك، أو أخطبك، وروى ابن المبارك عن عبد الله بن سليمان عن خالته قالت: دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي، فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله - ﷺ - وحق جذي علي وقدمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك! أخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أوقد فعلت! إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله - ﷺ - وموضعي، قد دخل رسول الله - ﷺ - على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصر في يده من شدة تحامله عليها، فما كانت تلك خطبة، (١٧٦) فإن قلت: أي: فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية: أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل، لطول القامة^(١)، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض: أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا [من الطويل]:

..... وَحَسْبُكَ يَا سَلِيمُ مِثِّي تَقَاضِيَا^(٢)

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى: التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده، ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه بالسستكم لا معرضين ولا مصرحين ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَكَرْتُمْ﴾: لا محالة ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن ولا تصبرون عنه، وفيه طرف من التوبيخ، كقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، [البقرة: ١٨٧]، فإن قلت: أين المستدرك بقوله^(٣): ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ؟﴾

١٧٦ - أخرجه الدارقطني (٢٢٤/٣) كتاب النكاح حديث (١٨).

وقال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٢٢٤/٣) الحديث ذكره أيضاً ابن تيمية في المنتقى وعزاه إلى المصنف، قال الشوكاني في «النيل»: هو منقطع لأن محمد بن علي هو الباقر ولم يدرك النبي ﷺ. قال الحافظ: هكذا في كتاب النكاح لابن المبارك ورواه الدارقطني من رواية محمد بن الصلت عن عبد الرحمن بن سليمان - وهو ابن الغسيل - نحوه بتمامه. انتهى.

(١) قوله «طول القامة» لعله: لطويل. (ع).

(٢) البيت لتوبة بن الحمير الخفاجي، نسب إليه في الحمامة البصرية ١٧٧/٢، وصدوره:

أروح لتسليم عليك وأغتدي

وينظر: أنوار الربيع ٦١/٦، والتباين في علم المعاني ص ٢٧٦

(٣) قال محمود رحمه الله: «إن قلت أين المستدرك بقوله ولكن... الخ» قال أحمد رحمه الله: وقويت

دلالة هذا المذكور على ما حذف، لأن المعتاد في مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقبيها. ونظير هذا النظم قوله تعالى ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَازِغُونَ﴾ =

قلت: هو محذوف، لدلالة ستذكرونهنّ عليه، تقديره: علم الله أنكم ستذكرونهنّ فاذكروهنّ، ولكن لا تواعدوهنّ سرّاً، والسّر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطء، لأنّه مما يسرّ، قال الأعشى [من الطويل]:

وَلَا تُفْزِرْنَ مِنْ جَارَةٍ إِنْ سَرَّهَا ٨٦/ أَعْلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكَحْنِ أَوْ تَأْبُدَا^(١)

ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد؛ لأنّه سبب فيه كما فعل بالنكاح، ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا، فإن قلت: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت: بـ ﴿لَا تواعدوهنّ﴾، أي: لا تواعدوهنّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكورة. أي: لا تواعدوهنّ إلا بأن تقولوا، أي: لا تواعدوهنّ إلا بالتعريض، ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعاً من: ﴿سِرّاً﴾، لأدائه إلى قولك: لا تواعدوهنّ إلا التعريض^(٢)، وقبل معناه: لا تواعدوهنّ جماعاً، وهو أن يقول لها إن نكحتك كان كيت وكيت، يريد ما

= الآية. ولهذا الحذف سر والله أعلم، وهو أنه اجتنب لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً، بل اختصت بوجه واحد من وجوهه وذلك الوجه المباح عسر التميز عما لم يبح، فذكرت مستثناة بقوله ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر والأصل فيه الحظر، ولا كذلك الوطء في زمن ليل الصوم فإنه أبيع مطلقاً غير مقيد، فلذلك صدر الكلام بالإباحة والتوسعة، وجاء النهي عن مباشرة المعتكفة في المسجد تلوّاً للإباحة وتبعاً في الذكر، لأنها حالة فاذة والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم، ولكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب وهو الاعتكاف، فتفطن لهذا السر فإنه من غرائب النكت.

(١) ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة ولا تحسبن المال للمرء مخلداً

ولا تفزرن من جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا

للأعشى ميمون بن قيس. والبائس: الفقير المحتاج. والضرارة: العمى. وإسناد الإخلاد إلى المال مجاز، لأنه سببه على التوهم، وتقرب - بفتح الراء - بمعنى نفع، فمن زائدة. وجارة: مفعول، ويضمها بمعنى تدنو، فمن أصلية. وروى: ولا تقرن جارة - بتشديد النون - وعلى كل فهو كناية عن النهي عن الوطء. والسّر: ضد الجهر، واستعمل هنا في الوطء مجازاً لأنه يقع فيه، أو لأنه مما يسر. والنكاح: عقد الزوجية. ويقال: أبد الوحشي أبوداً، وتأبد تأبداً: نفر عن الأنيس، وألفه هنا متقلبة عن نون التوكيد في الوقف، والمراد منه التباعد مجازاً، والمخاطب بذلك ليس معيناً. ونهاه عن الذنو منها لأنه أبلى من نهيه عن وطئها، ثم قال: فتزوج أو اعتزل النساء كالوحش. ينظر ديوانه (١٣٧)، اللسان (نكح)، الدر المصون ٥٤٠/١.

(٢) قال السمين الحلبي: وردّ عليه الشيخ بأن الاستثناء المنقطع ليس من شرطه صيغة تسلط العامل عليه، بل هو على قسمين: قسم يصح فيه ذلك، وفيه لغتان: لغة الحجاز وجوب النصب مطلقاً نحو: «ما جاء أحد إلا حماراً»، ولغة تميم إجراء مجرى المتصل فيجوزون فيه النصب والبدلية بشرطه، وقسم لا يصح فيه ذلك نحو: «ما زاد إلا ما نقص»، و «ما نفع إلا ما ضر». وحكم هذا النصب عند العرب قاطبة، فالقسمان يشتركان في التقدير بلكن عند البصريين. إلا أن أحدهما يصح تسلط العامل عليه في قولك: «ما جاء أحد إلا حمار» لو قلت: «ما جاء إلا حمار» صح، بخلاف القسم الثاني، فإنه لا يتوجه عليه العامل. انتهى. الدر المصون.

يجري بينهما تحت اللحاف، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً يعني من غير رث ولا إفحاش في الكلام، وقيل: لا تواعدوهن سرّاً: أي: في السر على أنّ المواعدة في السرّ عبارة عن المواعدة بما يستهجن، لأنّ مسازتتهنّ في الغالب بما يستحيا من المجاهرة به، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، هو أن يتوافقا أن لا تنزّوج غيره، ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ﴾: من عزم الأمر وعزم عليه، وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقدة النكاح في العدة، لأنّ العزم على الفعل يتقدّمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى، ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح، وقيل: معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح، وحقيقة العزم: القطع، بدليل قوله - عليه السلام -: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» وروي «لمن لم يبيت الصيام» ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾: يعني ما كتب وما فرض من العدة، ﴿يَتِمَّ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: من العزم على ما لا يجوز، (١٧٧) ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾: ولا

١٧٧ - أخرجه أبو داود (٨٢٣/٢، ٨٢٤): كتاب الصوم: باب النية في الصيام: حديث (٢٤٥٤)، والترمذي (١١٦/٢، ١١٧): كتاب الصوم: باب ما جاء لا صيام لمن لم يعزم من الليل حديث (٧٢٦)، والنسائي (١٩٦/٤، ١٩٧): كتاب الصيام: باب ذكر اختلاف الناقلين لخبر حفصة في ذلك وابن ماجه (٥٤٢/١): كتاب الصيام: باب ما جاء في فرض الصوم من الليل، والخيار في الصوم، حديث (١٧٠٠)، وأحمد (٢٨٧/٦)، والدارمي (٦/٢، ٧): كتاب الصوم: باب من لم يجمع الصيام من الليل، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٥٤/٢): كتاب الصيام: باب الرجل ينوي الصيام بعدما يطلع الفجر. والدارقطني (١٧٢/٢): كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل وغيره، حديث (٣، ٤)، والبيهقي (٢٠٢/٤): كتاب الصيام: باب الدخول في الصوم بالنية، والخطيب (٩٢/٣، ٩٣).

من طريق عبد الله بن عمر عن حفصة أن النبي - ﷺ - قال: «من لم يبيت الصيام من الليل فلا صيام له» واللفظ للنسائي ولفظ أبي داود والترمذي: «من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له».

وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وقد روي عن نافع عن ابن عمر قوله: وهو أصح.

قال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (١٨٨/٢).

واختلف الأئمة في رفعه ووقفه فقال ابن أبي حاتم عن أبيه لا أدري أيهما أصح يعني رواية يحيى بن أيوب عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن سالم ورواية إسحاق بن حازم عن عبد الله بن أبي بكر عن سالم بغير وساطة الزهري لكن الوقف أشبه وقال أبو داود: لا يصح رفعه، وقال الترمذي: الموقوف أصح، ونقل في «العلل» عن البخاري أنه قال: هو خطأ وهو حديث فيه اضطراب والصحيح عن ابن عمر موقوف، وقال النسائي الصواب عندي موقوف ولم يصح رفعه وقال أحمد: ما له عندي ذلك الإسناد وقال الحاكم في الأربعين صحيح على شرط الشيخين وقال في المستدرک: صحيح على شرط البخاري، وقال البيهقي: رواه ثقات إلا أنه روي موقوفاً، وقال الخطابي أسنده عبد الله بن أبي بكر وزيادة الثقة مقبولة، وقال ابن حزم: الاختلاف فيه يزيد الخبر قوة، وقال الدارقطني: كلهم ثقات.

تعزموا عليه، ﴿عَمُورٌ حَلِيمٌ﴾: لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرِهِمْ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُمْ مَتْنًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٣) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ عَنْكُمْ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٤﴾

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: لا تبعة عليكم من إيجاب مهر، ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾: ما لم تتجامعهن، ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو حتى تفرضوا، وفرض الفريضة: تسمية المهر، وذلك أن المطلقة غير المدخول بها إن سمي لها مهر فلها نصف المسمى، وإن لم يسم لها فليس لها نصف مهر المثل، ولكن المتعة، والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾: إلى قوله: ﴿فَوَضَعْتُمْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فقلوه: فنصف ما فرضتم: إثبات للجناح المنفي ثمة، والمتعة: درع، وملحفة، وخمار، على حسب الحال عند أبي حنيفة، إلا أن يكون مهر مثلها أقل من ذلك، فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة، ولا ينقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها، و﴿الْمُوسِعِ﴾: الذي له سعة، و﴿الْمَقْتَرِ﴾: الضيق الحال، و﴿قَدَرُهُمْ﴾: مقداره الذي يطيقه، لأن ما يطيقه هو الذي يختص به، وقرئ بفتح الدال، والقدر والقدر لغتان، وعن النبي - ﷺ - . أنه قال لرجل من الأنصار تزوج امرأة ولم يسم لها مهرأ، ثم طلقها قبل أن يمسه: «أمتعتها؟» قال: لم يكن عندي شيء، قال: «امتعتها بقلنسوتك»،

= وفي الباب عن عائشة:

أخرجه الدارقطني (١٧١/٢ - ١٧٢) كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل والبيهقي (٢٠٣/٤) كتاب الصيام: باب الدخول في الصوم بالنية. قال الحافظ في «التلخيص» (١٨٩/٢). وفيه عبد الله بن عباد وهو مجهول وقد ذكره ابن حبان في الضعفاء.

وفي الباب أيضاً عن ميمونة بنت سعد.

أخرجه الدارقطني (١٧٣/٢) كتاب الصيام: باب تبييت النية من الليل، بلفظ من أجمع الصوم من الليل فليصم ومن أصبح ولم يجمعه فلا يصم. وفيه محمد بن عمر الواقدي وهو متروك.

قال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن من حديث حفصة بلفظ «لمن لم يجمع» وقوله: «وَرُوِيَ «لَمَنْ لَمْ يَبَيْتْ» هِيَ عِنْدَ النَّسَائِيِّ. انتهى.

(١٧٨) وعند أصحابنا: لا تجب المتعة إلا لهذه وحدها، وتستحب لسائر المطلقات ولا تجب، ﴿مَتَاعًا﴾: تأكيد/٨٦ب لـ ﴿مَتَعُونًا﴾، بمعنى تمتعاً، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة، ﴿حَقًّا﴾: صفة لمتاعاً، أي: متاعاً واجباً عليهم، أو حق ذلك حقاً، ﴿عَلَى الْمُتَعِينَ﴾: على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتع، وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال - ﷺ - «من قتل قتيلًا فله سلبه». (١٧٩) ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَ﴾: يريد المطلقات، فإن قلت: أي: فرق بين قولك: الرجال يعفون، والنساء يعفون؟ قلت: الواو في الأول ضميرهم، والنون علم الرفع، والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب، ويعفو: عطف على محله، و﴿الَّذِي يَكُونُ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: الولي^(١)، يعني: إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا

١٧٨ - يبيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/١٥١) وقال الحافظ: لم أجده. انتهى.

وينظر تفسير القرطبي (٣/٢٠٢).

١٧٩ - تقدم تخريج برقم (١٦).

(١) قال محمود رحمه الله: «والذي بيده عقدة النكاح الولي... إلخ» قال أحمد رحمه الله: هذا النقل وهم فيه الزمخشري عن الشافعي رضي الله عنه، فإن مذهبه موافق لمذهب أبي حنيفة رضي الله عنه في أن المراد به الزوج. وإنما ذهب إلى أن المراد الولي الإمام مالك رضي الله عنه، وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه:

الأول: أن الذي بيده عقدة النكاح ثابتة مستقرة هو الولي. وأما الزوج فله ذلك العقد المتقدم خاصة، ثم هو بعد الطلاق، والكلام حينئذ ليس من عقدة النكاح في شيء، البتة، فإن قيل: أطلق عليه ذلك بعد الطلاق بتأويل «كان» مقدرة، فلا يخفى على المنصف ما في ذلك من البعد والخروج من حد إطلاق الكلام وأصله.

الثاني: أن الخطاب الأول للزوجات اتفاقاً بقوله ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَ﴾ وفيهن من لا عفو لها البتة كالأمه والبيكر، فلو لا استتمام التقسيم بصرف الثاني إلى الولي على ابنته البكر أو أمته، وإلا لزم الخروج عن ظاهر عموم الأول، وحيث حمل الكلام على الولي صار الكلام بمعنى: إلا أن يعفون إن كن أهلاً للعفو، أو يعفو لهن إن لم يكن أهلاً، ولهذا كان الولي الذي يعفو ويعتبر عفو عند مالك: هو الأب في ابنته البكر، والسيد في أمته خاصة.

الثالث: أن الكتاب العزيز جدير بتناسب الأقسام وانتظام أطراف الكلام، والأمر فيه على هذا المحمل بهذه المثابة، فإن الآية حينئذ مشتملة على خطاب الزوجات ثم الأولياء ثم الأزواج بقوله ﴿وَلَا تَنْسُوا الْقَسْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فتكون على هذا الوجه مليئة بالفوائد جامعة للمقاصد.

الرابع: أن المضاف إلى صاحب عقدة النكاح العفو كما هو مضاف إلى الزوجات، والعفو: الإسقاط لغة وهو المراد في الأول اتفاقاً، إذ المضاف إلى الزوجات هو الإسقاط بلا ريب، ولو كان المراد بصاحب العقدة الزوج لتعين حمل العفو على تكميل المهر وإعطائه ما لا يستحق عليه، وهذا إنما يطابقه من الأسماء التفضيل. ومن ثم قال في خطاب الأزواج ﴿وَلَا تَنْسُوا الْقَسْلَ بَيْنَكُمْ﴾ لأن المبدول من جهته غير مستحق عليه فهو فضل لا عفو. ولا يقال: لعل الزوج تعجل المهر كاملاً =

يطالبهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رأيي ولا خدمته ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر، إلا أن يُقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوج، فإذا طلقها، استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة، فقد عفا عنها، أو سماها عفواً على طريق المشاكلة، وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة، وطلقها قبل أن يدخل بها، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو، (١٨٠) وعنه: أنه دخل على سعد بن أبي وقاص، فعرض عليه بنتاً له فتزوجها، فلما خرج، طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها عليّ فكرهت رده، قيل: فلم بعث بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟ (١٨١) و﴿الْفَعْلُ﴾: التفضل، أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمروا ولا تستقصوا، وقرأ الحسن «أن يعفو الذي، بسكون

- ١٨٠ - أخرجه الطبري (١٥٢/٥) رقم (٥٣٢٢ - ٥٣٢٣) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٥١/٧).
 كتاب النكاح: باب من قال عفو المهر وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٢/١) وعزاه إلى الشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.
 ١٨١ - أخرجه الطبري (١٦٥/٥) رقم (٥٣٦٤) من طريق سعيد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص... فذكره.
 قال الحافظ ابن حجر:
 أخرجه الطبري من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد بن محمد بن جبير عن جده جبير بن مطعم به سواء. انتهى.

= قبل الطلاق وطلق فيجب استرجاع النصف فيسقطه ويعفو عنه، وحينئذ يبقى العفو من جانب الزوج على ظاهره وحقيقته، لأننا نقول: حسبتا في رد هذا الوجه ما فيه من الكلفة وتقدير ما الأصل خلافه.
 الخامس: أن صدر الآية خطاب للأزواج في قوله: ﴿وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿فَرَضْتُ﴾ فلو جاء قوله ﴿أَوْ يَتَّفَعُوا الَّذِي يَبْدُوهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ مراداً به الزوج لكان عدولاً والتفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، وليس هذا من مواضعه، ولأجل هذا جاء قوله ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَعْلَ بَيْنَكُمْ﴾ على صيغة الخطاب، لأن المراد به الأزواج لخطابهم أولاً.
 السادس: أن قوله ﴿إِلَّا أَنْ يَتَّفَعُوا﴾ وما عطف عليه استثناء من قوله ﴿فَرَضْتُ مَا قَرَضْتُ﴾ وأصل الكلام: فنصف ما فرضتم واجب عليكم إلا أن يعفو عنه الزوجات فليس بواجب عليكم إذا، فإذا حمل الكلام على الولي استقام، إذ هم لو كملوا المهر لهن فالنصف واجب عليهم ولا يتغير ولا يخالف الحالة المستثناة مما وقع منه الاستثناء، فلا يجري الاستثناء على حقيقته في المخالفة بين الأول والثاني، إلا أن يقال: مقتضى قوله ﴿فَرَضْتُ مَا قَرَضْتُ﴾ واجب عليكم: أن النصف الآخر غير مؤدى إليهن لأنه ساقط عن الزوج، فإذا عفا بمعنى كمل المهر فقد صار النصف الآخر مؤدى إليهن، ففي هذا التأويل من الكلفة ما يسقط مؤنة رده.

الواو، وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيهاً لهما بالالف، تشبيهاً لأنهما أختاهما، وقرأ أبو نُهيك: «وَأَنْ يَغْفُو»، بالياء، وقرأ: «وَلَا تَسُو الْفَضْلَ»، بكسر الواو.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٣٢٨) ﴿إِنْ خِفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٢٩)

﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾: أي الوسطى بين الصلوات، أو الفضلى، من قولهم للأفضل: الأوسط، وإنما أفردت وعطفت على الصلاة^(١)، لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر، وعن النبي - ﷺ - أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً» (١٨٢) وقال - عليه الصلاة والسلام -: «إنها الصلاة التي شغل عنها

١٨٢ - أخرجه أحمد (٢٥/٣) والنسائي (١٧/٢) كتاب الأذان: باب الأذان للفئات من الصلوات، والطيلاسي (٧٨/١ - منحة) رقم (٣٢٣) والدارمي (٣٥٨/١) كتاب الصلاة: باب الحبس عن الصلاة والشافعي في «الأم» (٨٦/١) وأبو يعلى (٤٧١/٢) رقم (١٢٩٦) وابن خزيمة (٩٩/٢) رقم (٩٩٦) وابن حبان (٢٨٥ - موارد) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٢١/١) كتاب الصلاة، والبيهقي (٤٠٢/١) من حديث أبي سعيد الخدري قال: حبسنا يوم الخندق عن الصلاة حتى كان بعد المغرب بهوى من الليل كفيئنا وذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ اللَّهُ لْيَهْدِيَنَ الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا قال: فدعا رسول الله - ﷺ - بلالاً فأقام الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصليها في وقتها ثم أمره فأقام العصر فصلاً فأحسن صلاتها كما كان يصليها في وقتها ثم أمره فأقام المغرب فصلاً كذلك قال: وذلك قبل أن ينزل الله عز وجل في صلاة الخوف ﴿إِنْ خِفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا﴾ ...

والحديث صححه ابن خزيمة وابن حبان وصححه ابن السكن كما في «نيل الأوطار» (٣٤/٢) وقال الشوكاني: رجال إسناده رجال الصحيح ... وفي الباب عن ابن مسعود وجابر.

- حديث ابن مسعود:

أخرجه أحمد (٣٧٥/١)، والترمذي (١١٥/١): كتاب الصلاة: باب الرجل تغوته الصلوات، الحديث (١٧٩)، (١٧/١): كتاب الأذان: باب الإجماع للفئات من الصلوات بأذان واحد، والبيهقي (٤٠٣/١): كتاب الصلاة: باب الأذان والإقامة للجمع بين الصلوات للفئات، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن المشركين شغلوا رسول الله - ﷺ - عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء، فأمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء.

وقال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله. ا.هـ.

وللحديث طريق آخر عن ابن مسعود أيضاً.

أخرجه أبو يعلى (٣٩/٥) رقم (٢٦٢٨) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن زيد الأياشي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن مسعود به قال: شغل المشركون رسول الله - ﷺ - عن الصلوات: =

(١) قوله «وعطفت على الصلاة» لعله: على الصلوات. (ع)

سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب» (١٨٣) وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أملكها عليك كما سمعت رسول الله - ﷺ - يقرأها، فأملت عليه: والصلاة الوسطى صلاة العصر (١٨٤)، وروي/ ٨٧ عن عائشة

الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل ثم أمر رسول الله - ﷺ - بـ لا فأذن وأقام ثم صلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلّى العصر ثم أمره فأذن وأقام فصلّى المغرب ثم أمره فأذن وأقام فصلّى العشاء.

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢) وقال: رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن أبي أنيسة وهو ضعيف عند أهل الحديث إلا أن ابن عدي قال: وهو مع ضعفه يُكتب حديثه. ا. هـ. ويحيى روى له الترمذي وقال الحافظ في «التقريب» (٣٤٣/٢). ضعيف. - حديث جابر:

أخرجه البزار (١٨٥/١ - كشف) رقم (٣٦٥) من طريق مؤمل بن إسماعيل ثنا حنّاد بن سلمة عن عبد الكريم بن أبي المخارق عن مجاهد عن جابر بنحو حديث ابن مسعود وقال في آخره: ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله غيركم. وقال البزار: لا نعلم رواه بهذا الإسناد إلا مؤمل ولا نعلمه يروي عن جابر بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢) وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق وهو ضعيف. ا. هـ. وفيه أيضاً مؤمل بن إسماعيل. قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: في حديثه خطأ كثير. وقال الذهبي: صدوق مشهور وثق. وقال الحافظ: صدوق سيء الحفظ. ينظر المغني (٦٨٩/٢)، والتقريب (٢٩٠/٢).

قال الحافظ: أخرجه مسلم من رواية شتير بن شكل عن علي به. والحديث في الكتب الستة، إلا أن قوله «صلاة العصر» عند مسلم وحده. وأخرجه البخاري في المغازي والجهاد والتفسير وفي الباب عن ابن مسعود رفعه «الصلاة الوسطى صلاة العصر» أخرجه الترمذي. وعنده عن سمرة نحوه. انتهى.

١٨٣ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥٤٣/٥) من طريق مقاتل بن سليمان عن أبي إسحاق الشيباني عن الحارث الأعور عن علي مرفوعاً.

قال الحافظ: وفي إسناده مقاتل بن سليمان وهو ساقط، وأخرجه ابن أبي شيبه (٢٤٥/١) رقم (٨٦١١) عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفاً ورجّح الحافظ صوابه عن المرفوع.

قال الحافظ: أخرجه ابن عدي في الكامل عن علي مرفوعاً. قال «صلاة الوسطى صلاة العصر التي غفل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب» وفي إسناده مقاتل بن سليمان. وهو ساقط، ورواه ابن أبي شيبه من رواية أبي إسحاق عن الحارث ابن علي مرفوعاً، وهو أشبه بالصواب. وفي الباب عن ابن عباس موقوفاً عند الطبري. انتهى.

١٨٤ - أخرجه مالك (١٣٩/١): كتاب صلاة الجماعة: باب الصلاة الوسطى، حديث (٢٦) وابن حبان =

(١٨٥) وابن عباس - رضي الله عنهم -: والصلاة الوسطى، وصلاة العصر (١٨٦)؛

= (٣٨٩/٥)، حديث (١٧٢٢) والبيهقي في سننه (٤٦٢/١): كتاب الصلاة: باب من قال هي الصبح، وأبو يعلى (٥٠/١٣)، حديث (٧١٢٩) والطبري في تفسيره (٢٠٩/٥)، حديث (٥٤٦٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥٧٨/١)، حديث (٢٢٠٢) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٠٨/٣)، حديث (٣٥٥٠) وعزاه لأبي يعلى وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٣٧/١) وزاد نسبه إلى أبي عبيد وعبد بن حميد وابن الأثير عن عمرو بن رافع قال كنت أكتب مصحفاً لحفصة. وأخرجه عبد الله بن أبي داود في المصاحف، ص (٩٦، ٩٧).

قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق أبي بشر عن سالم عن حفصة أنها أمرت رجلاً فكتب لها مصحفاً. فقالت: إذا بلغت هذا المكان فأعلمني. فلما بلغ ﴿كَفُّوا عَنِ الْمَكْرُوتِ وَالْمَكْرُوتِ﴾ قالت: اكتب: صلاة العصر. وفي رواية له: فقالت له اكتب فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى هي صلاة العصر» هكذا عند الطبري. والمشهور عن حفصة أنها أملت على الكاتب: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر. كذلك رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع أنه قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة فذكره. ورواه ابن حبان من رواية ابن إسحاق: حدثني أبو جعفر محمد بن علي ونافع بن عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب حدثهما أنه كان يكتب المصاحف في عهد أزواج رسول الله - ﷺ - قال: فاستكتبني حفصة مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية من هذه السورة - البقرة - فلا تكتبها حتى تأتيني بها فأملئها عليك كما حفظتها من رسول الله - ﷺ - قال: فلما بلغت جئتها بالورقة التي أكتبها: فقالت لي: اكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر. ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والطحاوي. ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن نافع عن حفصة نحوه وكذا رواه الطبري من طريق عبد الله بن عمر عن نافع: أنَّ حفصة أمرت مولئ لها: وأخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف من نحو عشرين طريقاً فيها كلها وصلاة العصر بالواو. انتهى.

١٨٥ - أخرجه مالك (١٣٨/١)، (١٣٩): كتاب صلاة الجماعة: باب الصلاة الوسطى، حديث (٢٥)، ومسلم (١٣٨/٣) نووي: كتاب المساجد: باب الصلاة الوسطى حديث (٦٢٩/٢٠٧)، وأبو داود (١١٢/١): كتاب الصلاة: باب وقت صلاة العصر، حديث (٤١٠)، والترمذي (٢١٧/٥): كتاب التفسير: باب من سورة البقرة حديث (٢٩٨٢)، والنسائي (٢٣٦/١): كتاب الصلاة: باب المحافظة على صلاة العصر، حديث (٤٧٢)، والبيهقي (٤٦٢/١) الصلاة: باب من قال هي الصبح.

وعبد الله بن أبي داود في «المصاحف» ص (٩٤، ٩٥). قال الحافظ: أما عائشة فروى مسلم من طريق أبي يونس مولى عائشة قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت إذا بلغت هذه الآية فأذني. فلما بلغت أذنتها فأملت علي: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقالت سمعتها من رسول الله - ﷺ - وكذا أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ومالك والشافعي وأحمد من هذا الوجه. وأما ابن عباس فرواه الطبري وابن أبي داود في المصاحف من رواية أبي إسحاق عمر بن مريم عن ابن عباس «أنه كان يقرأها كذلك». انتهى.

١٨٦ - أخرجه الطبري (٢١٣/٥)، حديث (٥٤٦٨) وعبد الله بن أبي داود، في كتاب المصاحف ص (٨٧).

بالواو، فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين: إحداهما الصلاة الوسطى، وإما الظهر، وإما الفجر وإما المغرب، على اختلاف الروايات فيها، والثانية: العصر، وقيل: فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعاشهم، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: هي صلاة الظهر (١٨٧)، لأنها في وسط النهار، وكان رسول الله - ﷺ - يصليها بالهاجرة، ولم تكن صلاة أشد على أصحابه منها، وعن مجاهد: هي الفجر (١٨٨)، لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل، وعن قبيصة بن ذؤيب: هي المغرب (١٨٩)، لأنها وتر النهار ولا تنقص في السفر من الثلاث، وقرأ عبد الله: «وعلى الصلاة الوسطى»، وقرأت عائشة - رضي الله عنها - «والصلاة الوسطى» بالنصب على المدح والاختصاص، وقرأ نافع: «الوسطى»، بالصاد «وَقُومُوا لِلَّهِ»: في الصلاة، «قَنِينَيْنِ»: ذاكرين لله في قيامكم، والقنوت: أن تذكّر الله قائماً، وعن عكرمة: كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا، وعن مجاهد: هو الركود، وكف الأيدي، والبصر، ورؤي: أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمدّ بصره أو يلتفت، أو يقلب الحصا، أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا، «فَإِنْ يَغْتَمَّ»: فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره، «فَرَجَالًا»: فصلوا راجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام، أو رجل، يقال: رجل رجل، أي: راجل، وقرئ: «فرجالاً»، بضم الراء، «ورجالاً» بالتشديد «ورجالاً»، وعند أبي حنيفة - رحمه الله -: لا يصلون في حال المشي والمسايقة ما لم يمكن الوقوف، وعند الشافعي - رحمه الله -: يصلون في كل حال، والراكب يومئ ويسقط عنه التوجه إلى القبلة، «فَإِذَا أَيْتَمْتُمْ»: فإذا زال خوفكم، «فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»: من صلاة الأمن، أو فإذا أمنتهم فاشكروا الله على الأمن، واذكروه بالعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

١٨٧ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠١/٥، ٢٠٢) حديث (٥٤٥١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٣٦/١) وعزاه للبيهقي وابن عساكر.

وقال ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية أبي عقيل زهرة بن معبد أن سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وإبراهيم بن طلحة سألو ابن عمر عن الصلاة الوسطى. فقال: هي الظهر. انتهى.

١٨٨ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢١٩/٥)، حديث (٥٤٨٧).

١٨٩ - أخرجه الطبري (٢١٤/٥)، حديث (٥٤٧١) من طريق إسحاق عن رجل عن قبيصة به وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٤٢/١) وعزاه لابن جرير الطبري عن قبيصة بن ذؤيب.

قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية إسحاق بن أبي فروة عن رجل عن قبيصة بن ذؤيب قال: الصلاة الوسطى صلاة المغرب ألا ترى أنها ليست بأقلها ولا أكثرها ولا تقصر في السفر؟ وإسحاق متروك وشيخه مجهول. انتهى.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿١٤٤﴾

تقديره: فيمن قرأ وصية بالرفع، ووصية الذين يتوفون، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم، أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم، وفيمن قرأ بالنصب: والذين يتوفون يوصون وصية، كقولك: إنما أنت سير البريد، بإضمار سير، أو ألزم الذين يتوفون وصية، وتدل عليه قراءة عبد الله: «كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول»، مكان قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾، وقرأ أبي: «متاع لأزواجهم متاعاً»، وزوي عنه: «فمتاع لأزواجهم»، ومتاعاً نصب بالوصية، إلا إذا أضمرت يوصون، فإنه نصب بالفعل، وعلى قراءة أبي متاعاً نصب بمتاع، لأنه في معنى التمتع؛ كقولك: الحمد لله حمد الشاكين، وأعجني ضرب لك زيداً ضرباً شديداً، و﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غير ما تقول، أو بدل من متاعاً، أو حال من الأزواج، أي: غير مخرجات، والمعنى: أن حق الذين يتوفون ٨٧ ب عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملاً، أي: ينفق عليهم من تركته ولا يخرج من مساكنهم، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقيل: نسخ ما زاد منه على هذا المقدار، ونسخت النفقة بالإرث الذي هو الربع والثلث، واختلف في السكنى، فعند أبي حنيفة وأصحابه: لا سكنى لهن، ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾: من التزين والتعرض للخطاب، ﴿مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾: مما ليس بمنكر شرعاً، فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية متقدمة في التلاوة وهي متأخرة في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٤٢] مع قوله ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٤٥﴾

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ﴾: عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعد ما أوجبها لواحدة منهن وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال ثمة: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وعن سعيد بن جبير وأبي العالية والزهري: أنها واجبة لكل مطلقة، وقيل: قد تناولت التمتع الواجب والمستحب جميعاً، وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا

ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلُ النَّاسَ لَا يَسْكُرُوا ﴿٢٧٢﴾
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم يَر ولم يسمع، لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب، روي: أن أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا هارين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه، وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقه وأصابه، تعجباً مما رأى، فأوحى إليه: ناد فيهم أن قوموا بإذن الله، فنادى، فنظر إليهم قياماً يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت (١٩٠)، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خذراً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿وَهُمْ أُولُو﴾، فيه دليل على الألوف الكثيرة، واختلف في ذلك، فقيل: عشرة، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعون، ومن بدع التفسير، ﴿أُولُو﴾: متآلفون، جمع ألف كقاعد وقعود، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا؟﴾ قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ سَيْفًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١٨٧﴾ [يس: ٨٢] وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأن الموت إذا لم يكن منه بدٌ ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله، ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: حيث يبصرهم ما يعتبرون به ويستبصرون، كما بصر أولئك، وكما بصركم باقتصاص خبرهم، أو لذو فضل على الناس/ ١٨٨ حيث أحى أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث، والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد: ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون، ﴿عَلِيمٌ﴾: بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ

وَالِئِهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨٠﴾

إقراض الله: مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه، والقرض الحسن: إما المجاهدة

١٩٠ - أخرجه الطبري (٢٧٠/٥) رقم (٥٦٠٢)، (٥٦٠٣) من طريق أسباط عن السدي عن أبي مالك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥١/١) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

في نفسها، وإما النفقة في سبيل الله، ﴿أَشْعَافًا كَثِيرَةً﴾: قيل: الواحد بسبعمائة، وعن السدي: كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله، ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَضَعُ﴾: يوسع على عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة، ﴿وَالَّذِي تَرْجِعُونَ﴾: فيجازيكم على ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَافِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَٰلِغِينَ﴾

﴿لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾: هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل، ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾: أنهض للقتال معنا أميراً تصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره، طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله ﷺ - من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها، ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره، ورؤي أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم، ﴿نُقَاتِلُ﴾: قرىء بالنون والجزم على الجواب، وبالنون والرفع على أنه حال، أي: ابعثة لنا مقدرين القتال، أو استئناف كأنه قال لهم: ما تصنعون بالملك؟ فقالوا: نقاتل، وقرىء: «نقاتل» بالياء والجزم على الجواب، وبالرفع على أنه صفة لـ «ملكاً»، وخبر «عسيتم»، ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾: والشرط فاصل بينهما، والمعنى: هل قاربتم أن لا تقاتلوا؟ يعني: هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول: عسيتم أن لا تقاتلوا، بمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال، فادخل هل مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير، وتشبيث أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه^(١)، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ﴾ [الإنسان: ١] معناه: التقرير، وقرىء «عسيتم» بكسر السين وهي ضعيفة، ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ﴾: وأي داع لنا إلى ترك القتال، وأي غرض لنا فيه، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾: وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: قيل كان القليل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَٰلِغِينَ﴾: وعيد لهم على ظلمهم في القعود عن القتال وترك الجهاد.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ

(١) قوله «وأنه صائب في توقعه» في الصحاح: صاب السهم القرطاس يصيبه، لغة في أصابه. (ع)

عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَالَكُمْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

عَلَيْهِمُ ﴿٤٧﴾

﴿طَالُوتَ﴾: اسم أعجمي كجالوت وداود، وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم، ووزنه إن كان من الطول «فعلوت» منه، أصله طولوت، إلا أن امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا أن يقال: هو اسم عبراني وافق عربياً، كما وافق حنطاء حنطة، وبشمالا لها رحمانا رحيماً بسم الله الرحمن الرحيم، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببيه العجمة، لكونه عبرانياً، ﴿أَنْ﴾/٨٨ب كيف ومن أين، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له، فإن قلت: ما الفرق بين الواوين في: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾، ﴿وَلَمْ يُؤْتِ﴾؟^(١) قلت: الأولى للحال، والثانية: لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتزعتها معاً في حكم واو الحال، والمعنى: كيف يملك علينا، والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأن النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد السبطين، ولأنه كان رجلاً سقاء أو دباغاً فقيراً، ورؤي: أَنْ نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعضاً يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت (١٩١)، ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾: يريد أن الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال، وهما العلم المبسوط والجسامة، والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب، ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها، وقيل: قد أوحى إليه ونبيء، وذلك أن الملك لا بد أن يكون من أهل العلم، فإن الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهاراً؛ لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب، والبسطة: السعة والامتداد، ورؤي أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه، ﴿يُؤْتِي مَالَكُمْ مَنْ يَشَاءُ﴾: أي الملك له غير منازع فيه، فهو يؤتيه من يشاء: من يستصلحه للملك، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: الفضل والعطاء،

١٩١ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣١٣/٥) حديث (٥٦٥٢) عن السدي.

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت ما الفرق بين الواوين... إلخ»، قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا أن الواو الأولى أفادت جملتها الحالية بنفسها وأفادت الجملة الثانية الحالية أيضاً لكن بواسطة الواو العاطفة. وهذا النظر من السهل الممتنع.

يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: بمن يصطفيه للملك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٤٨﴾

﴿التَّابُوتُ﴾: صندوق التوراة، وكان موسى - عليه السلام - إذا قاتل، قدّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفزعون، والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنب وجناحان، فتنن فيفزع التابوت نحو العدو وهم يمشون معه، فإذا استقرّ، ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن عليّ - رضي الله عنه -: كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة (١٩٢)، ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾: هي رضاء الألواح وعصى موسى وثيابه وشيء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت، وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان في أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعه على ثورين، فساقهما الملائكة إلى طالوت، وقيل كان من خشب الشمشار ممّوها بالذهب، نحواً من ثلاثة أذرع/ ٨٩ في ذراعين، وقرأ أبيّ وزيد بن ثابت: «التابوة» بالهاء وهي لغة الأنصار، فإن قلت: ما وزن التابوت؟ قلت: لا يخلو من أن يكون فعلوتاً^(١) أو فاعولاً، فلا يكون: «فاعولاً» لقلته، نحو: سلس وقلق، ولأنه تركيب غير معروف فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذاً «فعلوت»: من التوب، وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته، وأما من قرأ بالهاء فهو «فاعول» عنده، إلا فيمن جعل هاء بدلاً من التاء،

١٩٢ - أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ص (١٠٠ - ١٠١) والطبري في «تفسيره» (٣٢٦/٥) رقم (٥٦٦٦) والحاكم (٤٦٠/٢) من طريق سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن علي بنه.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٢/١) وزاد نسبه إلى أبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عسّار.

(١) قال محمود رحمه الله: «وزن التابوت فعلوت. . . إلخ» قال أحمد رحمه الله: يريد لأن الفاء تاء واللام كذلك، والعرب تستقل ما فاؤه ولاهم حرف واحد لأنه توأم للتكرار.

لا اجتماعهما في الهمس وأنهما من حروف الزيادة، ولذلك أبدلت من تاء التانيث، وقرأ أبو السمال: «سَكِينَةٌ»، بفتح السين والتشديد وهو غريب، وقرأ: «يَحْمِلُهُ»، بالياء، فإن قلت: مَنْ «عَالُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ»؟ قلت: الأنبياء من بني يعقوب بعدهما، لأن عمران هو ابن قاهت بن لاوى بن يعقوب، فكان أولاد يعقوب آلهما، ويجوز أن يراد: مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكْثِفُوا اللَّهَ كَم مِّنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فَنَا كَثِيرَةٌ يَّا ذِينَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٤﴾﴾

﴿فَصَلَ﴾: عن موضع كذا، إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله: فصل نفسه، ثم كثر محذوف المفعول، حتى صار في حكم غير المتعدي كانفصل، وقيل: فصل عن البلد فصولاً، ويجوز أن يكون: فصله فصلاً، وفصل فصولاً كوقوف وصّد ونحوهما، والمعنى: انفصل عن بلده، ﴿بِالْجُنُودِ﴾: زوي أنه قال لقومه: لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه، ولا تاجر مشغول بالتجارة، ولا رجل متزوج بامرأة لم يبن عليها، ولا أبتني إلا الشاب النشيط الفارع، فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً، وسلخوا مفازة، فسألوا أن يجري الله لهم نهراً، فد ﴿قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ﴾: بما اقترحتمو، من النهر، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾: فمن ابتدأ شربه من النهر بأن كرع فيه، ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾: فليس بمتصل بي ومتحد معي، من قولهم: فلان مني، كأنه بعضه؛ لاختلاطهما واتحادهما، ويجوز أن يراد فليس من جملتي وأشياعي، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾: ومن لم يذقه، من طعم الشيء، إذا ذاقه، ومنه طعم الشيء، لمذاقه؛ قال [من الطويل]:

وإن شئت لم أطمع نقاخاً^(١) ولا برذا^(٢)

(١) قوله «لم أطمع نقاخاً» هو الماء العذب الذي ينفخ الفؤاد ببرده. والنقخ: النقف. وهو كسر الرأس عن الدماغ. (ع)

(٢) فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطمع نقاخاً ولا برداً للعرجي. وتاء شئت يحتمل أنها للمتكلم، وأنها للمخاطبة وهو أبلغ. وخاطب الواحدة بلفظ جمع المذكر تعظيماً. ولم أطمع: أي لم أتناول. والنقاخ - بالقاف والخاء المعجمة -: الماء العذب البارد. والبرد: النوم، وعن بعض العرب: منع البرد البرد، وهو من باب الجنس التام، والعرجي: =

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم، ويقال: ما ذقت غماضاً، ونحوه من الابتلاء: ما ابتلى الله به أهل أيلة من ترك الصيد مع إتيان الحيتان شراً، بل هو أشد منه وأصعب، وإنما عرف ذلك طالوت بإخبار من النبي، وإن كان نبياً - كما يروي عن بعضهم - فبالوحي، وقرئ «بنهر» بالسكون، فإن قلت: مم استثنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَىكَ الْفَيْسُ مِنْ شَرِّ النَّهْرِ﴾^(١)، والجمله الثانية في حكم المتأخرة، إلا أنها قدّمت للعناية كما قدم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآلَهُمْ كَرَاهٍ﴾ [المائدة: ٦٩] ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد/٨٩ب دون الكروع، والدليل عليه قوله: ﴿فَتَرَوْا مَنَّهُ﴾ أي: فكرعوا فيه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: وقرئ: «غرفة» بالفتح بمعنى المصدر، وبالضم بمعنى المغروف، وقرأ أبي والأعمش: «إلا قليل»، بالرفع، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً، وهو باب جليل من علم العربية، فلما كان معنى: ﴿فَتَرَوْا مَنَّهُ﴾ في معنى فلم يطيعوه، حمل عليه، كأنه قيل: فلم يطيعوه إلا قليل منهم، ونحوه قول الفرزدق [من الطويل]:

..... لَمْ يَدْعُ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتٌ أَوْ مُجْلَفٌ^(٢)

= هو عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، نسبة لعرج الطائف.

ينظر ديوانه (١٠٩)، البحر ٢/٢٧٣، الأضداد (٦٤) التهذيب للمبرد ١٤/١٠٥، اللسان: برد: فتر، الدر المنثور ١/٦٠٤.

(١) قال محمود رحمه الله: «مستثنى من قوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وفي هذه الآية تقوية لمن ذهب إلى أن الاستثناء المتعقب للجمل لا يتعين عوده إلى الأخيرة لاحتمال عوده إلى ما قبلها. ورد على من منع ذلك محتجاً بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بأجنبي من الاستثناء. ولذلك حقق عوده إلى الأخيرة، وتوقف في انعطافه على ما تقدمها، فيجوز عنده أن يعود على الجميع مع الأخيرة. وأما عوده على ما قبل الأخيرة دونها فمتعذر عند هذا القائل فلم يصف في العود إلى الأخيرة لهذه الشبهة. وقد بين القاضي أبو بكر صلاحية عوده إلى ما قبل الأخيرة دونها رداً على هذا القائل، واستشهد بقوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَكَفَّلَهُ الْآلِينَ يَسْتَكْفِلُوهُمْ وَهُمْ وَلَا تُعْلِنُ سُوَءُنَا إِلَّا الْقَلِيلُ﴾ ووجه استشهاد: أن المعنى يأبى انعطاف هذا الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ويعين عوده إلى ما قبلها وسيأتي بيان ذلك عند الكلام على الآية.

(٢) إليك أمير المؤمنين رمت بنا شعوب النوى والهوجل المتعسف

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

للفرزدق. يقول: يا أمير المؤمنين، قذفتنا إليك طرق البعد، لكن الرامي به في الحقيقة دواعي النفس، فإسناد الرمي إلى الشعوب مجاز عقلي: أو شبه الطرق بمن يصح منه الرمي على سبيل المكنية، والمراد بالرمي البعث مجازاً، والهوجل: الطويل الأحق، أي البير المتعسف الحائد عن سُنن الطريق، أو الطريق المعوج، فهو عطف خاص على عام. وشبه الزمان المجذب بذى ناب على طريق المكنية، وإسناد العض له تخيل. والمسحت: البقية القليلة من الشيء، يقال سحته =

كأنه قال: لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف، وقيل: لم يبق مع طالوت إلا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني القليل، ﴿قَالَ الَّذِي يَلْتُوتُ﴾ يعني الخُلص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه، أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله، والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونصوع البصيرة، وقيل: الضمير في ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا﴾: للكثير الذين انخدلوا، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه، كأنهم تقاولوا بذلك والنهر بينهما، يظهر أولئك عذرهم في الانخدال، ويرد عليهم هؤلاء ما يعتذرون به، وروي: أن الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته، والذين شربوا منه اسودت شفاههم وغل بهم العطش.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا حَبْرًا وَكَيْتَ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٥١﴾

و «جالوت»: جبار من العمالة من أولاد عمليق بن عاد، وكانت بيضته فيها ثلثمائة رطل، ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامُنَا﴾: وهب لنا ما ثبت به في مداحض الحرب من قوة القلوب، وإلقاء الرعب في قلب العدو ونحو ذلك من الأسباب، كان إيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بني، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم، فأوحى إلى اشمويل أن داود بن إيشى هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته، وروي أنه حسده وأراد قتله ثم تاب، ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾: في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: والنبوة، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾: من صنعة

= وأسحته إذا استأصله، والأولى لغة الحجاز، والثانية لغة نجد. والمجلف: المنقرض من جوانبه، يقال جلفه كنصره إذا قشره أو قطعه. والجائفة أبلغ من الجافة، وقيل: المسحت والمجلف، الذي أخذ منه ماله أو هلك منه، وكان الواجب نصب الاستثناء: لأنه لا وجه للرفع، لكن روعي فيه معنى التفي فرفع، أي لم يبق من المال إلا هما. وروي: إلا مسحتا أو مجلف، فرفع الثاني عطفاً على المعنى. روي أنه سئل: لم خالفت بينهما فقال: قلت ذلك لتشقى به النحويون. ونداء عبد الملك بن مروان في الموضعين للتعظيم والاستعطاف.

ينظر ديوانه (٥٥٦)، المحتسب (١٨٠/١)، الخصائص (١٩٩/١)، شرح المفصل لابن يعش (١/٣١)، الخزانة (٣٤٧/٢)، الإنصاف (١٨٨)، اللسان «سحت»، الدر المصون (٦٠٦/١).

الدروع، وكلام الطير والدواب وغير ذلك، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾: ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض، وقيل: ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار، لفسدت الأرض بغيث الكفار فيها وقتل المسلمين، أو لو لم يدفعهم بهم لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٥٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يعني القصص التي اقتصرها، من حديث الألواف وإمامتهم وأحيائهم، وتعليق طالوت/ ١٩٠ وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السماء، وغلبة الجبارة على يد صبي، ﴿وَالْحَقُّ﴾: باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب، لأنه في كتبهم كذلك، ﴿وَلَكُمْ لَعْنَةُ الْمَلِكِينَ﴾: حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

﴿يَلِكُ الرُّسُلُ﴾: إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات، ﴿فِيهِمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾: منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير، وهو موسى - عليه السلام -، وقرئ: «كلم الله» بالنصب، وقرأ اليماني: «كالم الله»، من المكالمه، ويدل عليه قولهم: كلم الله، بمعنى مكالمه، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾: أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة، والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ^(١) لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات

(١) قال محمود رحمه الله: «والظاهر أنه أراد محمداً عليه الصلاة والسلام... إلخ» قال أحمد رحمه الله: «وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحساناً له لفظاً ومعنى، وتركاً بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه. وأصاب الزمخشري في قوله: حيث أوتي النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتيته الأنبياء، على الجميع الصلاة والسلام. وليس كما يقال عن بعض أهل العصر من تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من آحاد =

المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشته، والمتميز الذي لا يلتبس، ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحذكم أو بعضكم، يريد به الذي تعرف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والتابعة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره، ويجوز أن يريد: إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولي العزم من الرسل، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء، فذكرنا نوحاً بطول عبادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا: رسول الله ﷺ أفضل منهم، بعث إلى الناس كافة؛ وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فدخل - عليه السلام - فقال: **فِيمَ أَنْتُمْ؟ فَذَكَّرْنَا لَهُ، فَقَالَ: لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ سَيِّئَةً قَطُّ وَلَمْ يَهَمْ بِهَا، (١٩٣) فَإِنْ قُلْتَ: فَلَمْ خَصَّ مُوسَى وَعِيسَى مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ بِالذِّكْرِ؟ قُلْتَ: لِمَا أُوتِيَا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَلَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ وَجْهَ التَّفْضِيلِ، حَيْثُ جَعَلَ التَّكْلِيمَ مِنَ الْفَضْلِ وَهُوَ آيَةٌ مِنَ الْآيَاتِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا النَّبِيَانِ قَدْ أُوتِيَا مَا أُوتِيَا مِنْ عِظَامِ الْآيَاتِ خُصّاً بِالذِّكْرِ فِي بَابِ التَّفْضِيلِ، وَهَذَا دَلِيلٌ بَيْنَ أَنَّ مِنْ زَيْدٍ تَفْضِيلاً بِالْآيَاتِ مِنْهُمْ فَقَدْ فَضَّلَ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَمَّا كَانَ**

١٩٣ - أخرجه البزار (٢٣٥٨ - كشف) والطبراني في «الكبير» (٢١٨/١٢) رقم (١٢٩٣٨) كلاهما من طريق أبي عاصم عبد الله بن عبيد العباداني عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس.

وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٥٧/١) وزاد نسبه إلى إسحاق بن راهويه وابن مردويه من هذا الطريق أيضاً والحديث ذكره الحافظ نور الدين الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١٢/٨) وقال: رواه البزار والطبراني وفيه علي بن زيد بن جدعان وضعفه الجمهور وبقيته رجاله ثقات. قلت: وفي إعلاله بعلي بن زيد وحده نظر فإن عبد الله بن عبيد الله أبا عاصم العباداني لئيل الحديث. ينظر «التقريب» (٤٤٣/٢).

لذلك أصاب الحافظ رحمه الله في إعلال هذا الحديث: فأعلّه بأبي عاصم وعلي بن زيد. قال الحافظ: أخرجه إسحاق بن راهويه: أخبرنا أبو عاصم العبادي أخبرنا علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عنه به ورواه البزار والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس العبادي به وهو ضعيف وشيخه مجهول. انتهى.

== الأنبياء. وينبغي الوقوف عن نسبه له، فإنه من العلماء الأعلام وعمد دين الإسلام، والوجه التوريك بالغلط على الثقله عنه.

نبينا ﷺ هو الذي أوتي/ ٩٠ ب منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع، اللهم ارزقنا شفاعته يوم الدين، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مشيئة إلجاء وقسر^(١)، ﴿مَا أَفْتَنَ الَّذِينَ﴾ من بعد الرسل، لاختلافهم في الدين، وتشعب مذاهبهم، وتكفير بعضهم بعضاً، ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مِّنْ عَآمِّنَ﴾، لالتزامه دين الأنبياء، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾: لإعراضه عنه، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنُوا﴾: كزره للتاكيد^(٢)، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: من الخذلان والعصمة، ﴿أَفَتَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أراد الإنفاق الواجب، لاتصال العويد به، ﴿مِن قَبْلِي أَن يَأْتِي يَوْمٌ﴾: لا تقدرُونَ فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لانه ﴿لَا بَعْثَ فِيهِ﴾: حتى تبتاعوا ما تفقنوه، ﴿وَلَا خُلَّةَ﴾: حتى يسامحكم أخلاؤكم به، وإن أردتم أن يحطّ عنكم ما في ذمتكم من الواجب^(٣)، لم تجدوا شفعاً يشفع لكم في

- (١) قوله «مشيئة إلهاء وقسر» يعني أنه أراد عدم الاقتتال، لكن لا إرادة قسر، ولذلك تخلف المراد عنها، وهذا مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فليس هناك إرادة يتخلف عنها المراد، بل كل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما بيّن في محله. (ع)
- (٢) قال محمود رحمه الله: «كرر ولو شاء الله للتأكيد» قال أحمد رحمه الله: ورواه التأكيد سر أخص منه، وهو أن العرب متى بنت أول كلامها على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها. وذلك عندهم مهيج من الفصاحة مسلوك، وطريق معتد. وكان جدي لأمي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير يعد في كتاب الله تعالى مواضع في هذا المعنى: منها قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ الْكُفْرَ صَدْرًا﴾ ومنها قوله تعالى ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ ثَوْبُونٌ وَسَاءَ ثَوْبُهُمْ لَمَعَنَ اللَّهُ فِي الْفُتُونِ وَمَنْ يَبْدُ إِلَهُ مِنْ بَعْدِ إِلَهِ الْأَوَّلِ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ وهذه الآية من هذا النمط، لما صدر الكلام بأن اقتتالهم كان على وفق المشيئة. ثم طال الكلام، أو أريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت في هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء فهي نافذة في كل فعل واقع، وهو المعنى المعبر عنه في قوله ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال لتلوه عموم تعلق المشيئة لتناسب الكلام وتعرف كل بشكله. فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر ويرتاح السر، والله الموفق. وأي قدم ثبت للاعتزال قبالة هذا؟ لأنه الدائرة القاطعة لدابره، الكافلة بالرد على منتحله وناصره ولذلك جوزها الزمخشري لاغتصاصها على تأويله، واعتصامها بالنصوصية من حيله ونحله.

- (٣) قال محمود رحمه الله: فومعناه: إن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم... إلخ» قال أحمد رحمه الله: أما القدرية، فقد وطنوا أنفسهم على حرمان الشفاعة وهم جدير أن يحرموها. وأدلة أهل السنة على إثباتها للعصاة من المؤمنين أوسع من أن تحصى. وما أنكرها القدرية إلا لإيجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة وللعاصي على المعصية إيجاباً عقلياً على زعمهم. فهذه الحالة في إنكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة. وقد تقدم جواب عن التمسك بإطلاق مثل هذه الآية في نفي الشفاعة، ونعيده فنقول: أيام القيامة متعددة والشفاعة في بعضها ثابتة، فكل ما ورد مفهوماً لنفيها حمل على الأيام الخالية منها جمعاً بين الأدلة، كما ورد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا يُنْفَخُ الْأَصْوَارُ فَلَا أَصَابَ لِمُنْتَهَرٍ يَمَجِرُ لَا يَسْأَلُونَ﴾ وورد ﴿وَأَنْزِلُ بِهِمْ عَلَى بَعْضِ الْمَكَاتِلِ﴾ وورد ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَحْمَرُونَ﴾ وورد ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِشْرًا وَلَا سِعَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ وورد ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمُ الْغَوْرُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ذَلِكَ يَوْمُ الْقَدْرِ﴾ وورد ﴿وَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَلْبِسْ إِلَهُهُ بِالْحَقِّ قُلْ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وورد ﴿وَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَلْبِسْ إِلَهُهُ بِالْحَقِّ قُلْ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

حط الواجبات، لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير^(١)، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾: للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج، ﴿وَيَنْ كَفَرٌ﴾ مكان: ومن لم يحج؛ ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَيَوْمَ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، وقرئ: «لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، بالرفع».

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ

الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

﴿الْحَيُّ﴾: الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء^(٢)، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر، و﴿الْقَيُّومُ﴾: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، وقرئ: القيام، والقيم، والسنة: ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس، قال ابن الرقاق العاملي [من الكامل]:

وَسَنَانٌ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرْتَقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسَائِمٍ^(٣)

= جَكَانُ ﴿٢٦﴾ وورَدَ ﴿وَقَفُّوا بِهِمْ نَسْوَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق إلا الحمل على تعدد أوقات القيامة واختلاف أحوالها وأيامها، وكذلك أمر الشفاعة سواء. رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة.

(١) قوله «لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير» هذا مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة قد تكون في تخفيف العذاب أيضاً. (ع)

(٢) قوله «الحي الباقي الذي لا سبيل عليه... إلخ» المعتزلة يفرون من أن يشنوا لله وجودية كالحياة التي تنافي الموت فلذا فسر الحي بما قال. (ع)

(٣) لولا الحياء وإن رأسي قد عشى فيه المشيب لزرت أم القاسم وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم وسنان أقصده النعاس فرتقت في عينه سنة وليس بسائم

لعدي بن الرقاق في تشبيب مدح الوليد بن عبد الملك. وعن الأصمعي: أنه لأحمد بن الرقاق. وعشى يعشى كسعى يسعى، وعاش يعيث كعاش يعيش: سار على وجه الإفساد. وروي «عسى» بالسين أي ظهر وانتشر واشتد، فعسى هنا تامة لا ناقصة. وأم القاسم: كنية محبوبته. وبين النساء: أي دون النساء، وقد روي كذلك أيضاً. و «أحور» فاعل «أعار» والاحور: صفاء سواد العين وبياضها. والجاذر: جمع جزور وهو ولد الظبية. وجاسم: موضع بعينه. ووسنان: نعت أحور. وأقصدت الرجل: إذا طعنته فلم تخطيء مقتله، أي أصابه النعاس وهو ما يتقدم النوم من الفتور والغفلات. ورنق الماء: كدر. وترنق: تكدر. ورنقه وأرنقه: كدره ورنق الطائر ترنيفاً، إذا وقف في =

أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً، ومنه حديث موسى: أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه نيام، ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين، فأخذهما، وألقى الله عليه النعاس، ففُضِرَ إحداهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس، لزلتا (١٩٤). ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾: بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٣٨] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما كان قبلهم وما يكون بعدهم، والضمير لما في السموات والأرض؛ لأن فيهم العقلاء، أو لما دل عليه: ﴿مَنْ ذَا﴾: من الملائكة والأنبياء، ﴿مَنْ عَلَيْهِ﴾: من معلوماته، ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾: إلا بما علم، الكرسي ما يجلس عليه، ولا يفضل عن مقعد القاعد، وفي قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾: أربعة أوجه^(١): أحدها أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته/ ٩١ وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخيل فقط، ولا كرسي ثمة ولا قعود، ولا قاعد، كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ [الزمر: ٦٧] من غير تصور

١٩٤ - أخرجه أبو يعلى (٢١/١٢) رقم (٦٦٦٩) والطبري في «تفسيره» (٣٩٤/٥) رقم (٥٧٨٠) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٦٨/١) والدارقطني في «الأفراد» كما في «الكاف الشاف» ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٣٩/١ - ٤١) رقم (٢٢، ٢٣) كلهم من طريق أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة به. وقال الدارقطني: تفرد به الحكم بن أبان عن عكرمة وتفرد به أمية عن الحكم وتفرد به هشام عن أمية.

الهواء صافاً جناحيه يريد الوقوع. فالمعنى: وقفت في عينه سنة. ويجوز أن المعنى: رفقت عينه سنة، أي كدرتها. وأقمح «في» لأنه جعل العين ظرفاً للترنيق، وهذا يشعر بتشبيه العين بالماء في شدة الصفاء. والسنة من وزن فهو وسنان، فهي من باب عدة. وسبب النوم: ريح يقوم في أغشية الدماغ، فإذا وصل إلى العين فترت، وهذا هو الوسن، وإذا وصل إلى القلب وتمكن منه زال إدراك الحواس، وهذا هو النوم؛ فلذلك نفاه مع إثبات السنة.

ينظر: الحماسة الشجرية ٦٨٢/٢، البحر ٢٨١/٢، تهذيب اللغة ١٠٥/٢، اللسان: نعس، الدر المصون ٦١٣/١.

(١) قال محمود رحمه الله: «وفي قوله تعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أربعة أوجه... الخ» قال أحمد رحمه الله: قوله في الوجه الأول أن ذلك تخيل للعظمة سوء أدب في الإطلاق وبعد في الإضرار، فإن التخيل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب.

قبضة وطى ويمين، وإنما هو تخييل، لعظمة شأنه، وتمثيل حسني، ألا ترى إلى قوله:

وقال الخطيب: هكذا رواه أمية بن شبل عن الحكم بن أبان موصولاً مرفوعاً وخالفه معمر بن راشد فرواه عن الحكم عن عكرمة قوله لم يذكر فيه النبي - ﷺ - ولا أبا هريرة . ا. هـ . وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٦/١).

وقال: رواه أبو يعلى وفيه أمية بن شبل ذكره الذهبي في الميزان ولم يذكر أن أحداً ضعفه وإنما ذكر له هذا الحديث وضعفه به، قلت: أما الطريق الذي أشار إليه الخطيب فقد أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٢/١) ومن طريقه الطبري (٣٩٤/٥) رقم (٥٧٧٩) من طريق معمر بن راشد عن الحكم بن أبان عن عكرمة من قوله.

قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٤١/١) ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله - ﷺ - وغلط من رفعه، والظاهر أن عكرمة رأى هذا في كتب اليهود فرواه فما يزال عكرمة يذكر عنهم أشياء لا يجوز أن يخفى هذا على نبي الله عز وجل وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب السنة عن سعيد ابن جبير قال: إن بني إسرائيل قالوا لموسى - عليه السلام - هل ينাম ربنا؟ وهذا هو الصحيح فإن القوم كانوا جاهلاً بالله عز وجل . ا. هـ . وقد أنكر الحديث المرفوع الحافظ الذهبي فقال في الميزان (٤٣/١) - بتحقيقنا - في ترجمة أمية بن شبل: له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً قال: وقع في نفس موسى هل ينাম الله . . . الحديث .

رواه عنه هشام بن يوسف وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة قوله وهو أقرب ولا يسوغ أن يكون هذا وقع في نفس موسى وإنما روى أن بني إسرائيل سألوا موسى عن ذلك . ا. هـ . وقد استغرب الحافظ عماد الدين بن كثير هذا الحديث فقال في «تفسيره» (٣٠٨/١): وهذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع.

قال الحافظ: قلت قوله «وذلك من قومه كطلب الرؤية» من كلام الزمخشري، أدرجه في الخبر . فقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةً وَلَا نَوْمًا﴾ أن موسى سأل الملائكة: هل ينাম الله عز وجل؟ فذكره . وقد رواه أبو يعلى والطبري والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الصفات، كلهم من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل عن هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة: سمعت رسول الله - ﷺ - يُحكى عن موسى - عليه السلام - قال قد وقع في نفس موسى: هل ينাম ربنا؟ فأرسل إليه ملكاً فأرفقه، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما . قال: فجعل ينام ويكاد يده يلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة . فاصطفقت يده فانكسرت القارورتان . قال: ضرب الله له مثلاً: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض . ورواه البيهقي موقوفاً وقال: هذا هو الأشبه . وقال الدارقطني تفرد به الحكم عن عكرمة وأميه عن الحكم وهشام عن أمية . وقال الخطيب: رواه معمر عن الحكم عن عكرمة من قوله . ولم يذكر أبا هريرة . . . ولا النبي - ﷺ - قلت: ورواية عبد الرزاق ترد عليه . لكنها موقوفة . وقد ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال: يشبه أن يكون عكرمة تلقاه عن كتب أهل الكتاب . قال: وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة له عن سعيد بن جبير «أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: هل ينام ربنا؟ قال: وهذا هو الصحيح . انتهى .

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ والثاني: وسع علمه وسَمَى العلم كرسياً تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم، والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك، والرابع ما زوي: أنه خلق كرسياً هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء، وعن الحسن: الكرسي هو العرش، ﴿وَلَا يَتَوَدُّهُ﴾: ولا يثقله ولا يشق عليه، ﴿حِفْظُهَا﴾: حفظ السموات والأرض، ﴿وَقَوْ أَمَلَيْ﴾: الشأن، ﴿أَلْطَيفِ﴾: الملك والقدرة، فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي^(١) من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما

- (١) عاد كلامه قال: «فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي وما بالها لم تعطف بالواو؟ قلت: لأنها كلها في حكم البيان والبيان متحد بالمبين فدخل الواو بينهما - كما تقول العرب - دخول بين العضا ولحانها، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساء عنه، والثانية لكونه سالكاً لتدبيره، والثالثة لكبرياء شأنه، والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها. وقد وردت آثار في تفضيلها. منها قوله عليه السلام «ما قرئت هذه الآية في دار إلا اجتنبتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا علي علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها» وعن علي رضي الله عنه سمعت نبيكم على أعواد المنبر يقول «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والآيات حوله» وتذكر الصحابة أفضل ما في القرآن فقال علي أين أنتم من آية الكرسي، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا علي، سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحيشة بلال، وسيد الجبال طور سيناء، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي». وإنما فضلت لما فضلت له سورة الإخلاص، من اشتغالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى» قال أحمد: وكان جدي رحمة الله عليه يقول: اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً فيها اسم الله تعالى، ظاهراً في بعضها ومستكناً في بعض، ويظهر لكثير من العادين منها ستة عشر إلا على بصير حاد البصيرة لدقة استخراجها. الأول الله، الثاني هو، الثالث الحي، الرابع القيوم، الخامس ضمير لا تأخذه، السادس ضمير له، السابع ضمير عنده، الثامن ضمير إلا بإذنه، التاسع ضمير يعلم، العاشر ضمير علمه، الحادي عشر ضمير شاء، الثاني عشر ضمير كرسيه، الثالث عشر ضمير ولا يتوده، الرابع عشر وهو، الخامس عشر العلي، السادس عشر العظيم. فهذه عدة الأسماء البينة. وأما الخفي فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله (حفظهما) فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بد له من فاعل وهو الله، ويظهر عند فك المصدر فيقول: ولا يتوده أن يحفظهما هو. وكان الشيخ أبو عبدالله محمد بن أبي الفضل العرسي قد رام الزيادة على هذا العدد لما أخبرته به عن الجد رحمه الله فقال: يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة كل واحد منها بآيتين. لأن كل واحد يتحمل ضميراً ضرورة كونه مشتقاً، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى، وهي باعتبار ظهورها اسم وقد اشتملت على آخر مضمّر، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحدًا وعشرين اسماً، وكنت أجريت معه في تعدد الزيادة المذكورة وجهاً لطيفاً، وهو أن الاسم المشتق لا يتحمل =

تقول العرب: بين العصا ولحائها^(١)، فالأولى، بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيئاً عليه غير ساه عنه، والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره، والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرضى منهم المستوجب للشفاة، وغير المرتضى، والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره، فإن قلت: لم فصلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد منه قوله ﷺ: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا علي علمها ولدك وأهلك وجيرانك، فما نزلت آية أعظم منها» (١٩٥) وعن علي رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ على أعواد المنبر وهو يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أئنه الله على نفسه، وجاره، وجار جاره والأبيات حوله» (١٩٦)، وتذاكر الصحابة - رضوان الله عليهم - أفضل ما في القرآن، فقال لهم علي رضي الله عنه:

١٩٥ - يبيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/١٦٠) وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.
١٩٦ - أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٤٥٨) رقم (٢٣٩٥) عن الحاكم بسنده عن نهشل ابن سعيد عن أبي إسحاق الهمداني عن حبة العرنى عن علي بن أبي طالب مرفوعاً.
وقال البيهقي: إسناده ضعيف.

ومن طريق البيهقي أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٢٤٣) لكن وقع عنده عن عبد العزى عن علي وهو تصحيف وقع عند ابن الجوزي لذا قال عقب الحديث: هذا حديث لا يصح: عبد العزى لا يعرف ونهشل قد كذبه أبو داود الطيالسي وابن راهويه، وقال الرازي والنسائي هو متروك وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا على سبيل التعجب. ١. هـ.
قلت: وحبة العرنى هو حبة بن جوين بن علي العرنى.
قال ابن معين والجوزجاني: غير ثقة.
وقال النسائي: ليس بالقوي.
وقال ابن خراش: ليس بشيء.

=

الضمير بعد صيرورته بالتسمية علماً على الأصح، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى، ثم ولو فرضناها متحملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل، فالمشتق إنما يقع على موصوفه باعتبار تحمله ضميره. ألا تراك إذا قلت: زيد كريم، وجدت «كريماً» إنما يقع على زيد، لأن فيه ضميره، حتى لو جردت النظر إليه لم تجده مختصاً بزيد، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس، ولا تجده مختصاً بزيد إلا باعتبار اشتماله على ضميره، فليس المشتق إذاً مستقلاً بوقوعه على موصوفه إلا بضميمة الضمير إليه، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير مع الحكم بوجوه إلى معين البتة، فرضي الشيخ المذكور عن هذا البحث وصوبه والله الموفق للصواب.

(١) قوله: «بين العصا ولحائها» في الصحاح: اللحاء - ممدود - قشر الشجر. وفي التل: لا تدخل بين العصا ولحائها. (ع)

أين أنتم عن آية الكرسي، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ «يا علي، سيد البشر آدم، وسيد

= ووثقه ابن حبان والعجلي.

وقال الحافظ في «التقريب» صدوق.

وهذا يخالف ما كتبه في «الكاف الشاف» حيث أعلّ حديث علي بن أبي طالب فقال: وفي إسناده نهشل بن سعيد وهو متروك وكذلك حبه العربي. ١. هـ.

وللحديث شاهد من حديث أنس.

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨/٢ - ٤٥٩) رقم (٢٣٩٦) عن الحاكم بسنده عن عبد الله ابن عبد الرحمن البمامي عن سالم الخياط عن الحسن والمختار عن أنس به.

وقال البيهقي إسناده ضعيف. ١. هـ.

ولصدر الحديث شاهد قوي من حديث أبي أمامة.

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٠/٦) كتاب عمل اليوم والليلة: باب ثواب من قرأ آية الكرسي حديث (٩٩٢٨) من طريق الحسين بن بشر عن محمد بن حمير عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة مرفوعاً.

وقال المنذري في «الترغيب» (٤٤٨/٢): رواه النسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح وقال شيخنا أبو الحسن: هو على شرط البخاري وأخرجه ابن حبان في كتاب الصلاة وصححه. ١. هـ. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٥/١٠).

وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد أحدهما جيد. ١. هـ.

قلت: وقد غفل ابن الجوزي غفلة شديدة فأخرج هذا الحديث في «الموضوعات» (٢٤٤/١) من طريق الدارقطني بسنده حدثنا هارون ابن زياد النجار وعلي بن صدقة الأنصاري. قال: حدثنا محمد بن حميرة.

وقال: قال الدارقطني: غريب من حديث الألهاني تفرد به محمد بن حمير عنه، قال يعقوب بن سفيان: ليس بالقوي. ١. هـ.

وقد تعقبه السيوطي في «اللائي المصنوعة» (٢٣٠/١ - ٢٣١) فقال: كلا بل قوي ثقة من رجال البخاري والحديث صحيح على شرطه وقد أخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه وابن السني في عمل اليوم والليلة وصححه أيضاً الضياء المقدسي في المختارة وقال الحافظ ابن حجر في تخريج المشكاة: غفل ابن الجوزي فأورد هذا الحديث في الموضوعات وهو من أسمع ما وقع له، وقال الحافظ شرف الدين الديماطي في جزء جمعه في تقوية هذا الحديث محمد بن حمير القضاعي الحمصي كنيته أبو عبد الحميد احتج به البخاري في صحيحه وكذلك محمد بن زياد الألهاني أبو سفيان الحمصي احتج به البخاري أيضاً... ١. هـ.

ولتمام كلام السيوطي يراجع اللائي. فله كلام طيب على هذا الحديث إلا أننا لنا مواخذة واحدة على كلامه وهي أنه عزا حديث أبي أمامة إلى ابن حبان في صحيحه وهو وهم حيث أن ابن حبان روى هذا الحديث في كتاب الصلاة - كتاب متفصل له - نص على هذا المنذري في «الترغيب» كما تقدم. وللحديث شاهد أيضاً من حديث المغيرة.

أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٢١/٣) من طريق مكّي بن إبراهيم ثنا هاشم بن هاشم عن عمر ابن إبراهيم عن محمد بن كعب عن المغيرة بن شعبه مرفوعاً.

وقال أبو نعيم: حديث غريب من حديث المغيرة تفرد به هاشم بن هاشم عن عمر عن محمد ما =

العرب: محمد ولا فخر، وسيد الفرس: سلمان، وسيد الروم: صهيب، وسيد الحبشة: بلال، وسيد الجبال: الطور، وسيد الأيام: يوم الجمعة، وسيد الكلام: القرآن، وسيد القرآن: البقرة، وسيد البقرة: آية الكرسي (١٩٧) قلت: لما فضلت له سورة الإخلاص لاشتغالها على توحيد الله، وتعظيمه، وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار، وبهذا يعلم أنَّ أشرف العلوم وأعلىها منزلة عند الله/ ٩١ ب علم أهل العدل والتوحيد^(١) ولا يغرنك عنه كثرة أعدائه [من البسيط]:

إِنَّ الْعَرَانِيْنَ تَلْقَاهَا مُحْصَدَةٌ وَلَنْ تَرَى لِلْإِثْمِ النَّاسِ حُسْنًا^(٢)

= كتبناه عالياً إلا من حديث مكي.

قال السيوطي في «اللالي» (١/ ٢٣١): وقال الحافظ شرف الدين الديماطي مكي وهاشم ومحمد بن كعب اتفاقاً على الاحتجاج بهم وعمر بن إبراهيم أبو حفص العبيدي البصري احتج به الترمذي والتسائي وابن ماجه وقال فيه يحيى بن معين ثقة وقال عبد الصمد ابن عبد الوارث ثقة وفوق الثقة. ا.هـ.

وللحديث شواهد أخرى يراجع لها اللاليء المصنوعة (١/ ٢٣٠ - ٢٣٣).

قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن إسحاق عن حبة بن جوين العرفي. سمعت علي بن أبي طالب يقول: فذكره دون قوله «ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد»: وذكر ما بعده. وفي إسناده نهشل بن سعيد وهو متروك. وكذلك حبة العرفي، وأخرجه أيضاً من حديث أنس بلفظ «من قرأ في دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي حفظ إلى الصلاة، ولا يحافظ عليها إلا نبي أو صديق أو شهيد» وإسناده ضعيف وصدّر الحديث أخرجه التسائي وابن حبان. من حديث أبي أمامة، وإسناده صحيح، وله شاهد عن المنيرة بن شعبة عند أبي نعيم في الحلية من رواية محمد بن كعب القرظي عنه، وغفل ابن الجوزي فأخرجه في الموضوعات. انتهى.

١٩٧ - ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦١ - ١٦٢) وقال: ذكره أبو شجاع الديلمي في كتاب الفردوس من حديث علي مرفوعاً.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج ابنه ا.هـ.

وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٤٧٥٤ - فيض) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس ورمز له =

(١) قوله «علم أهل العدل والتوحيد» المعتزلة سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وعلم التوحيد أشرف العلوم في نفسه لا بقيد إضافته إلى فرقة من أهله، اللهم إلا عند المتعصب. (ع)

(٢) «لن» لتوكيد النفي. ويروى: ولا ترى. ويروى: ما ترى. واللتيم: الخسيس، واللتام جمعه. وحساد - بضم الحاء - جمع حاسد. أي ليس للثيم الناس حاسداً، فهو من مقابلة الجمع بالجمع. وفتحها على أنه مفرد أبلغ من حيث المعنى، حيث نفى الواحد عن الجمع نفياً شمولياً. ينظر: أساس البلاغة (حسد).

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾: أي: لم يجبر الله أمر الإيمان على الإيجاب والقسر، ولكن على التمكين والاختيار، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَ لَكُمْ مِنَ الْغُلَامَةِ مَا تَرْضَوْنَ﴾ [يونس: ٩٩] أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار، ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾: قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾: فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾: من الحبل الوثيق المحكم، المأمون انفصامها، أي: انقطاعها، وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده واليقين به، وقيل: هو إخبار في معنى النهي، أي: لا تتكروها في الدين، ثم قال بعضهم: هو منسوخ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ الْكُفَّارُ الْأَلْمُوتُونَ وَالْقُلُوبُ الْعَتِيَّةُ﴾ [التوبة: ٧٣] وقيل: هو في أهل الكتاب خاصة، لأنهم حصنوا أنفسهم بأداء الجزية، وزوي: أنه كان لأنصاري من بني سالم بن عوف إبنان، فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، ثم قدما المدينة، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاخصموا إلى رسول الله ﷺ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْدُخُلْ بَعْضِي النَّارَ وَأَنَا أَنْظُرُ؟ فَتَرَلْتُ: فَخَلَاهُمَا (١٩٨).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧)

بـ الضعف وقال المناوي في «الفيض» (١٢٣/٤): وفيه محمد ابن عبد القدوس عن مجالد بن سعيد ومحمد قال الذهبي مجهول، ومجالد قال أحمد: ليس بشيء وضعفه غيره ورواه أيضاً ابن السني وعنه تلقاه الديلمي مصرحاً فلو عزاه للأصل لكان أولى ١. هـ. والحديث ذكره أيضاً الهندي في «كتر العمال» (٣٢٢٧٠) وعزاه إلى الديلمي في «مستند الفردوس».

قال الحافظ: لم أجده. وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يخرججه ابنه ١. هـ.

١٩٨ - أخرجه الطبري (٤١٠/٥) رقم (٥٨١٩) عن ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/١) عن ابن عباس وعزاه لابن إسحاق والطبري.

وينظر «معالم التنزيل» (٢٤٠/١).

قال الحافظ: أخرجه الواحدي في أسبابه من قول مسروق، وكذلك البغوي وقد أخرج الطبري من رواية أبي إسحاق عن محمد بن أبي محمد عند عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين: كان له إبنان نصرانيان وكان هو مسلماً فقال يا رسول الله ألا استكرهما فأنزل الله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ انتهى.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: أرادوا أن يؤمنوا يلفظ بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك، أو الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين - إن وقعت لهم - بما يهديهم ويوقفهم له من حلها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ﴾: الشياطين، ﴿يُخْرِجُونَهُمْ﴾: من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ قَالَ أَنَا أُحْيِي. وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨) أو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْإِنْعَامِ كَيْفَ نُدْبِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تعجيب من محاجة نمرود في الله وكفره به، ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ﴾ متعلق بحاج على وجهين^(١):

أحدهما حاج لأن آتاه الله الملك، على معنى أن إتياء الملك أبطره وأورثه الكبير والعنوة فحاج لذلك، أو على أنه^(٢) وضع المحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكان المحاجة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأنني أحسنت إليه، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٦٠) [الواقعة: ٨٢].

(١) قال محمود: «إن آتاه متعلق بحاج على وجهين... إلخ» قال أحمد: عفا الله عنه، والوجهان قريبان من حيث المعنى، إلا أن بينهما في الصناعة فرقاً، وهو إنما استعمل المصدر في الأول مفعولاً من أجله، وفي الثاني ظرفاً. وقد وقعت المصادر ظرفاً في مثل: خفوق النجم، ومقدم الحاج، وأمثال ذلك. وإنما وقعت محاجته بهذا الظرف لاشتغاله على إتياء الملك الحامل له على البطر، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها. وهذان المعنيان هما المذكوران في الوجه الأول بعينهما؛ فلهذا نبهت على أن الفرق بين الوجهين صناعي لا معنوي. والله الموفق لمعاني كلامه.

(٢) قوله «أو على أنه» لعله: أو على معنى أنه. (ع)

والثاني: حاج وقت أن آتاه الله الملك. فإن قلت: كيف جاز أن يؤتي الله الملك الكافر؟ قلت: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع، وأما التغليب والتسليط فلا، وقيل: ملكه امتحاناً لعباده^(١) ١٩٢ و﴿وَإِذْ قَالَ﴾: نصب بحاج أو بدل من آتاه إذ جعل بمعنى الوقت، ﴿أَنَا أَنِّي وَأُيَيْتُ﴾: يريد أعفو عن القتل^(٢) وأقتل، وكان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحق، لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب، ليهتته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة، وقرئ: «فبهت الذي كفر»: أي فغلب إبراهيم الكافر، وقرأ أبو حيوة: فبهت، بوزن قرب، وقيل: كانت هذه المحااجة حين كسر الأصنام وسجنه نمرود، ثم أخرجه من السجن ليحرقه فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت، ﴿أَزْ كَالَّذِي﴾: معناه: أو أرايت مثل الذي مر^(٣)، فحذف لدلالة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: عليه؛ لأن كليهما كلمة تعجيب، ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنه قيل: أرايت كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على قرية، والمار كان كافراً^(٤) بالبعث،

(١) قال محمود: «فإن قلت كيف جاز أن يؤتي الله الملك الكافر؟ قلت: ذلك على وجهين: أحدهما آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع، فأما التغليب والتسليط فلا. الثاني أن يكون ملكه امتحاناً لعباده، قال أحمد: السؤال مبني وروده على قاعدة فاسدة، وهي اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدريّة صلاحاً أو أصلح على الله تعالى في أفعاله، وكل ذلك من أصول القدريّة التي اجتثها البرهان القاطع فما لها من قرار. وأما إيراد السؤال على صيغة: لم آتاه الله الملك وهو كافر؟ أو لم أفعل كذا وكذا؟ فجواب رده على الإطلاق في قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَلِئُ عَنَّا يَقُولُ وَمَنْ يَسْتَلِئُ﴾ لو سمع الصم البكم. والله ولي التوفيق. (عاد كلامه) قال ومعنى قوله أنا أحيي وأميت: أعفو عن القتل وأقتل، وكان الاعتراض عتيداً ولكن إبراهيم عليه السلام لما سمع جوابه الأحق لم يحاجه فيه ولكنه انتقل إلى ما لا يقدر فيه على مثل ذلك ليهتته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة، قال أحمد: وقد التزم غير واحد من العلماء أن هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام ليس بانتقال من الحجة، ولكن من المثال. وأما الحجة فهي استدلاله على الوهيّة الله تعالى بتعلّق قدرته بما لا يجوز تعلّق قدرة الحادث به، ثم هذا له أمثلة منها الإحياء والإماتة، ومنها: الإتيان بالشمس من المشرق. والعدول بعد قيام الحجة وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال ليس ببدع عند أهل الجدل والله أعلم.

(٢) قوله «يريد أعفو عن القتل» في الصحاح عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه. وفيه: أعفني من الخروج معك أي دعني منه. (ع)

(٣) قال محمود: «معناه أو أرايت مثل الذي مر... إلخ» قال أحمد: ومثل هذا النظم يحذف منه قبل الرويّة كثيراً، كقوله [من]:

حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلباً

يريد لم أر كاليوم فحذف الفعل وحرف النفي. والظاهر حمل الآية على الوجه الأول لوجود نظيره، والله أعلم.

(٤) (عاد كلامه) قال والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك واحد. وقيل: =

وهو الظاهر، لانتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: أنى يحيى، وقيل: هو عزيز أو الخضر، أراد أن يعاين إحياء الموتى، ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم - عليه السلام -، وقوله: ﴿ثُمَّ يُنْجِي﴾: اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي، والقرية: بيت المقدس حين خربه بختنصر، وقيل: هي التي خرج منها الألف، ﴿وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾: تفسيره فيما بعد، ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: بناء على

= كان مؤمناً وهو عزيز أو الخضر، وأراد أن يعاين الإحياء كما طلبه إبراهيم. وقوله يوماً، بناء على الظن. روي أنه مات ضحى ويعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس فقال - قبل النظر إلى الشمس - يوماً، ثم التفت فرأى بقية منها فقال: أو بعض يوم، انتهى كلامه. قال أحمد: أما استدلال الزمخشري على أن المار كان كافراً بانتظامه مع نمرود في سلك واحد، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره باقتراح قصته مع قصة نمرود، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم، إلا أن يقول إن قصة هذا المار معطوفة على قصة نمرود عطفت تشريك في الفعل، منطوقاً به في الأولى ومحذوفاً من الثانية، مدلولاً عليه بذكره أولاً، ولا كذلك عطفت قصة إبراهيم فإنها مصدرة بالواو التي لا تدخل في كثير من أحوالها للتشريك، ولكن لتحسين النظم حتى تنوسط بين الجمل التي يعلم تعاطفها لذلك الغرض، ولا كذلك عطفتها في قصة نمرود، فإنه بأو التي لا تستعمل إلا مشركة، إذ عطفت التحسين اللفظي خاص بالواو فنقول: إذا انتهى الترجيح إلى هذا التدقيق فهو معارض بما بين قصة المار وقصة إبراهيم من التناسب المعنوي، لأن طلبتهما واحدة، إذ المار سأل معاينة الأحياء، وكذلك طلبه إبراهيم ثم التناسب المعنوي أرجح من التعلق بأمور لفظية ترد إلى أنحاء مختلفة ويؤيد القول بأن السار كان مؤمناً تحربه في قوله تعالى: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فإن ظاهره الاحتراز من التحريف في القول حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم حذراً من إبهام طلبته لجملته اليوم. ومثل هذا التحري لا يصدر عن معطل، والله أعلم. ولا يقال إنما صدر منه هذا التحري بعد أن حيي وآمن، لأننا نقول إنما آمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات، يدل عليه قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأما التحري المذكور فكان أول القصة قبل الإيمان وما قدرت هذا السؤال إلا لتكون بذكرها الزمخشري الآن تشعر بإبراده على الترجيح المذكور. ثم هذه الجراءة التي نقلها الزمخشري في خلال كلامه من أنه إنما قال: أو بعض يوم لما رأى بقية من الشمس لم يكن رآها أول كلامه فاستدرك الأمر، فيها نظر دقيق لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية في تفسيره. وذلك أن الأمر إذا كان على ما تضمنته، وكلام المار المذكور بني أولاً على الجزم بأنه لبث يوماً ثم جزم آخر أن لبث إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول: بل بعض يوم، مضرباً عن جزمه الأول إلى جزمه الثاني، لأن «أو» إنما تدخل في الخبر إذا اتبنت أوله على الجزم ثم عرض في آخره شك، ولا جزم بالنقيض، فالحكاية المذكورة توجب أن يكون الموضع لـ «بل» لا لـ «أو» إذ موضع «بل» جزم بنقيض الأول، فإذا استقر ذلك فالظاهر من حال المار أنه كان أولاً جازماً ثم شك لا غير اتباعاً لمقتضى الآية، وعدولاً عن الحكاية التي لا تثبت إلا بإسناد قاطع، فيضطر إلى تأويل، فتأمل هذا النظر فإنه من لطيف النكت، والله الموفق.

الظن، رُوي أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: أو بعض يوم، ورُوي: أَنَّ طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم يتغير، والهاء أصلية أو هاء سكت، واشتقاقه من السنة على الوجهين؛ لأنَّ لامها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان، وقيل: أصله يتسنن، من الحما المسنون، فقلبت نونه حرف علة، كتقضي البازي، ويجوز أن يكون معنى، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم تمرَّ عليه السنون التي مرت عليه، يعني: هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة، وفي قراءة عبد الله: فانظر إلى طعامك، وهذا شريك لم يتسن، وقرأ أبي: لم يستنه، بإدغام التاء في السين، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جَمَارِكَ﴾: كيف تفرقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يراد: وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه وشرابه من التغير، ﴿وَلْيَجْمَلْكَ إِلَهُكَ لِلنَّاسِ﴾: فعلنا ذلك يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه، وقيل: أتى قومه راكب/ ٩٢ب حماره، وقال: أنا عزيز، فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة فأخذ يهذهها هذا^(١) عن ظهر قلبه وهم ينظرون في الكتاب، فما خرم حرفاً، فقالوا: هو ابن الله، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز، فذلك كونه آية، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حدثهم بحديث، قالوا: حديث مائة سنة، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى آلِطَّارِ﴾: هي عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم، ﴿كَفَيْتُ نُنُورُهَا﴾: كيف نحييها، وقرأ الحسن: ننشرها، من نشر الله الموتى، بمعنى: أنشرهم فنشروا، وقرئ بالزاي، بمعنى نحركها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وفاعل «تَبَيَّنَ» مضمر، تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فحذف الأول، لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني وضربت زيداً، ويجوز: فلما تبين له ما أشكل عليه، يعني: أمر إحياء الموتى، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما -: فلما تبين له على البناء للمفعول، وقرئ: قال اعلم، على لفظ الأمر، وقرأ عبد الله: قيل اعلم، فإن قلت: فإن كان المارَّ كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله^(٢)؟ قلت: كان الكلام بعد البعث ولم يكن إذ ذاك كافراً.

(١) قوله «فأخذ يهذهها» أي يسرع بها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) (عاد كلامه) قال: «فإن قلت إذا كان المارَّ كافراً... إلخ» قال أحمد: وهذا سؤال عجيب، والجواب عنه أعجب منه، ومن سلم لهذا السائل أن الله تعالى لا يسوغ أن يكلم الكافر؟ وهل هذا إلا خطب بلا أصل؟ أليس أن إبليس رأس الكفر ومعدنه ومع هذا قال الله تعالى ﴿فَلْيَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾

﴿آرِنِي﴾: بصرني، فإن قلت: كيف قال له: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنَ﴾، وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً^(١)؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجلية للسامعين، و﴿بَلَىٰ﴾:

نَجِيَّةٌ... إلى آخر الآية ويقول تعالى للكفار وهم بين أطباقها يعذبون ﴿أَفَشَرُّ فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ ولأن هذا الأمر متيقن وقوعه فضلاً عن جوازه أول العلماء قوله تعالى ﴿وَلَا يَكْفُرُ اللَّهُ﴾ بمعنى ولا يكلمهم بما يسرهم وينفعهم. هذا وجه تعجبي من السؤال. وأما الجواب فقد أسلفت أنفاً رده بأن إيمان هذا المار على القول بأنه كان كافراً إنما حصل في آخر القصة بعد أن تبين له الآيات. وأما كلام الله تعالى فمن أول القصة. قلت: الزمخشري كفانا مؤنة هذا الفصل سؤالاً وجواباً والله المستعان.

(١)

قال محمود: «إن قلت كيف قال له ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنَ﴾ وقد علم... إلخ؟ قال أحمد: الأولى في هذه الآية أن يذكر فيها المختار في تفسيرها من الممتحنة بالفكر المحرر، والنكت المفصحة بالرأي المخمر فما وافق من كلام المصنف ما يذكره فالحمد لله، وما خالفه فالحق فيما ذكرناه والله الموفق. فنقول: أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له ﴿كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى﴾ فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا بثبوت، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية. وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» أي ونحن لم نشك، فلان لا يشك إبراهيم أخرى وأولى. فإن قلت: إذا كان السؤال مصروحاً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصورها ومشاهدتها بالإيمان ولا تخل به، فما موقع قوله تعالى ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنَ﴾؟ قلت: قد وقعت لبعض الحذائق فيه على لطيفة وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر، وقد تستعمل في الاستعجاز. مثلاً: أن يدعي مدع أنه يحمل ثقلًا من الأثقال وأنت جازم بمعجزه عن حمله، فتقول له: أرني كيف محمل هذا، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم مبرأ منه، أراد بقوله: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنَ﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: بلى آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللغظي في العبارة الأولى: ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك. فإن قلت: قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين، فما موقع قول إبراهيم ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة؟ قلت: معناه ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة، لأنني إذا شاهدها سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيلة، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد وجاءت الآية مطابقة لسؤاله، لأنه شاهد صورة حياة الموتى، تقديره: الذي يحيي ويميت، فهذا أحسن ما يجري لي في تفسير هذه الآية وربك الفتاح العليم. وأما قول الزمخشري: «إن علم الاستدلال يتطرق إليه =

إيجاب لما بعد النفي، معناه بلى آمنت، ﴿وَلَكِنْ لَيْطَمَّهِنَّ قَلْبِي﴾: ليزيد سكونا وطمانينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك، فإن قلت: بم تعلقت اللام في: ﴿لَيْطَمَّهِنَّ﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمانينة القلب، ﴿فَتَحَدَّ أَرْبَعَةٌ مِنَ الظَّاهِرِ﴾: قيل: طاسواً وديكاً وغراباً وحمامة، ﴿فَصُرْفَنَ إِلَيْكَ﴾: بضم الصاد وكسرهما بمعنى فاملهن واضمهن إليك، قال [من الطويل]:

وَلَكِنْ أَطْرَافَ الرُّمَاحِ تَصُورُهَا^(١)

وقال [من الطويل]:

وَفَرَحٌ يَصِيرُ أَجِيدٌ وَخَفٌ كَأَنَّهُ عَلَى اللَّيْلِ قِنَوَاتُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ^(٢)

وقرأ ابن عباس - رضي الله عنه - «فصرهن» بضم الصاد وكسرهما وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه، نحو: صره ويصره ويصره، وعنه: «فصرهن»، من التصرية، وهي الجمع - أيضاً - ﴿ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ يَنْهَضُ جُزْءًا﴾، يريد: ثم جزئهن وفزق أجزاءهن على الجبال، والمعنى: على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك، وقيل: كانت أربعة أجبل، وعن السدي: سبعة، ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ﴾: وقل لهن: تعالين بإذن الله،

= التشكيك بخلاف العلم الضروري، فكلام لم يصدر عن رأي منور ولا فكر محرر، وذلك أن العلم الموقوف عن سبب لا يتصور فيه تشكيك، ما دام سببه مذكوراً في نفس العالم، وإنما الذي يقبل التشكيك قبولاً مطلقاً هو الاعتقاد وإن كان صحيحاً وسببه باقٍ في الذكر، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ذروة العلم، ولكن للقدماء من القدرية خط طويل في تميز العلم عن الاعتقاد، حتى غالى أبو هاشم فقال العلم بالشيء والجهل به مثلاً. وهذا على الحقيقة جهل حتى لحقيقة الجهل، والزمخشري في قواعد العقائد يقفو آثار هذا القائل أية سلك فلعله من ثم طرق إلى العلم النظري الشك حسب تطرقة إلى الاعتقاد الذي يكون مرة جهلاً ومرة مطابقاً، والله الموفق.

(١) وما صَيَّرَ الأعناق فيهم جبلة ولكن أطراف الرماح تصورها الصير - بالتحريك - اعوجاج العنق. ويقال صاره يصوره ويصيره، بمعنى أماله وقطعه. أي ليس ميل الأعناق طبيعة فيهم ولكن أطراف الرماح لكثرتها فوق رهوسهم تميل أعناقهم. وإسناد الإمامة للأطراف مجاز عقلي من الإسناد للسبب. ويجوز أن «فيهم» حال من الصير لا من جبلة، أي حال كونه فيهم.

ينظر: جمهرة اللغة ص (٧٤٥).

(٢) صاره يصيره ويصوره، إذا أماله أو قطعه: وروي: يزين الجيد. والجيد: العنق. والوحف: الكثيف الأسود. والليت: صفحة العنق. والدوالح: المثقلات بالحمل، يصف شعر محبوبته بأنه يعميل عتقها لثقله عليه، وشبهه غدائره على جانب جيدها بعناقيد الكروم المثقلات بالحمل. ينظر: ديوان الأدب (٤٠٥/٣).

﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾: ساعات مسرعات في طيرانهن أو في مشيهن/ ٩٣أ على أرجلهن، فإن قلت: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها^(١)؟ قلت: ليتأملها ويعرف أشكالها وهياتها وحلاها^(٢)، لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك، ولذلك قال: يأتينك سعيًا، وروى أنه أمر بأن يذبحها، وينتف ريشها، ويقطعها، ويفرق أجزاءها، ويخلط ريشها، ودماغها، ولحومها، وأن يمسك رؤسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعا من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر، حتى صارت جثثا ثم أقبلن فانضممن إلى رؤسهن، كل جثة إلى رأسها، وقرىء: «جزأ» بضميتين، «وَجَزَأَ»، بالتشديد، ووجهه أنه خُفَّف بطرح همزته، ثم شُدَّد كما يشدد في الوقف، إجراء للوصول مجرى الوقف.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَمْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبٍّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾: لا بد من حذف مضاف، أي: مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة، والمثبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات، كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلية، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف، كأنها مائلة بين عيني الناظر، فإن قلت: كيف صخ هذا التمثيل والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المقلّة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير، فإن قلت: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة، كما قال: ﴿وَسَبْعَ سُبُلَكَ حُضِرَ﴾ [يوسف: ٥٣]؟ قلت: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثَلَاثَةَ فُرُوسٍ﴾، [البقرة: ٢٢٨] من وقوع أمثلة الجمع متعاقبة مواقعها، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين، أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافاً لمن يستوجب ذلك.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَذَكَّرُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: ما معنى أمره بضمها... إلخ؟» قال أحمد: يريد: ولم يقل طياراً لأنه إذا كانت ساعة كان أثبت لنظرة عليها من أن تكون طائراً، والله أعلم.

(٢) قوله «وهياتها وحلاها» جمع حلية بالكسر أي صفاتها. أفاده الصحاح. (ع)

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٦﴾ :

المن: أن يعتد على من أحسن إليه بإسحانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له، وكانوا يقولون: إذا صنعتهم صنيعاً فانسوها، ول بعضهم [من الطويل]:

وَأِنْ أَمَرًا أَسَدَىٰ إِلَيَّ صَنِيعَةً وَذَكَرْنِيهَا مَرَّةً لِّلثِيَمِ^(١)

وفي نوابغ الكلم: صنوان^(٢) من منح سائله ومن منع نائله وضن، وفيها: طعم الألاء أحلى من المن وهي أمر من الألاء^(٣) مع المن، والأذى: أن يتناول عليه بسبب ما أزال إليه، ومعنى: «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَقْتُمُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، فإن قلت: أي: فرق بين قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وقوله فيما بعد: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؟ قلت: الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط/٩٣ ب وضمنه ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها، دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر،

(١) يقول: وإن رجلاً أعطاني عطية وذكرني بها مرة واحدة - للثيم. أي بليغ في اللوم والخصه.

(٢) قال محمود: «في نوابغ التكلم صنوان... إلخ» قال أحمد: «ثم» في أصل وضعها تشعر بترابي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعد ما بينهما، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية: وحاصله: أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة، وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها: وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار بتباعد الزمن. ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقاءه؛ وعليه حمل قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَقْتُمُوا﴾ أي داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد، وتلك الاستقامة هي المعبودة، لا ما هو متقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات. وكذلك قوله ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَّا وَلَا آذَىٰ﴾ أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذابة وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم. وقريب من هذا أو مثله أن السنين تصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَائِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَبَّيْحٌ﴾. وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهوَ يُحْيِيهِ﴾ فليس إلى حمل السنين على تراخي زمان وقوع الهداية له من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخي بقاءها وتمادي أمدها. ولعل الزمخشري أشار إلى هذا المعنى في آية إبراهيم عليه السلام، فتأمل هذا الوجه فهو أوجه مما حمل الزمخشري عليه آية البقرة. وهذه الآية أبقي على الحقيقة وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة والله الموفق.

(٣) قوله «وفيها طعم الألاء» في الصحاح: الألاء النعم، واحدها «ألاء» بالفتح. وفيه أيضاً: الألاء - بالفتح - شجر حسن المنظر مر الطعم اه. واسم النعم على زنة أسباب. والظاهر أن اسم الشجر على زنة صاحب، فليحرر ما في النوابغ. (ع)

وطرحها عار عن تلك الدلالة.

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُلْغُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ﴾: ردّ جميل، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول، أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو وعفو من جهة السائل لأنه إذا رده ردًا جميلًا عذره، ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾: وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة، لاختصاصه بالصفة، ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾: لا حاجة به إلى منفق بمنّ ويؤذي، ﴿حَلِيمٌ﴾: عن معالجته بالعقوبة، وهذا سخط منه ووعيد له، ثم بالغ في ذلك بما أتبعه، ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ﴾: أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله، ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾: لا يريد بإفناقه رضاء الله ولا ثواب الآخرة، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ﴾: مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب، وقرأ سعيد بن المسيّب: صَفْوَانَ بوزن كروان، ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾: مطر عظيم القطر، ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾: أجرد نقيًا من التراب الذي كان عليه، ومنه: صلد جبين الأصلع إذا برق، ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا﴾: كقوله: ﴿نَجْمَلُهُ نَجْمًا تَنُورُ﴾ [الفرقان: ٢٣]، ويجوز أن تكون الكاف في محل التصب على الحال، أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق، فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، بعد قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ﴾؟ قلت: أراد بالذي ينفق الجنس أو الفريق الذي ينفق، ولأن «من»، و «الذي»: يتعاقبان، فكأنه قيل: كمن ينفق.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَلَّتْ أَكْهَلًا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٥﴾

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: وليثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح، وبذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان؛ لأن النفس إذا رخصت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها، وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتاً لها على الإيمان واليقين، ويجوز أن يراد: وتصديقاً للإسلام، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، «ومن»: على التفسير الأول

للتبويض، مثلها في قولهم: هز من عطفه، وحرك من نشاطه، وعلى الثاني؛ لابتداء الغاية، كقوله تعالى: ﴿حَسَكَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبيتاً من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه، وتعصده قراءة مجاهد: وتبيننا من أنفسهم، فإن قلت: فما معنى التبويض؟ قلت: معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كلها^(١)، ﴿وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [الصف: ١١] والمعنى: ومثل نفقة/ ٩٤ هؤلاء في زكاتها عند الله، ﴿كَغَيْبِ جَنَّتَيْكُمْ﴾: وهي البستان، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: بمكان مرتفع، وخضها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرأ، ﴿أَمْصَابَهَا وَابِلٌ﴾: مطر عظيم القطر، ﴿فَتَأْتَتْ أَكْثُلَهَا﴾: ثمرتها، ﴿يُسْقَوْنَ﴾: مثلي ما كانت تثر بسبب الوابل، ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة - بعد أن يطلب بها وجه الله ويذل فيها الوسع - زاكية عند الله، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده، وقرئ: كمثل حبة، وبربوة - بالحركات الثلاث - و«أكلها» بضميتين.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَابٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَعَكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

الهمزة في، ﴿أَيُّودُ﴾: للإنكار، وقرئ: له جنات، وذرية ضعاف، والإعصار: الريح التي تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود، وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغ الكبير، وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم ومنعتهم، فهلك بالضاعقة، وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا: الله أعلم، فغضب وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك. قال: ضربت مثلاً لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل الحسنات. ثم بعث

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «والظاهر أنه نفسه هي التي تثبته وتحمله على الإنفاق في سبيل الله ليس محرك إلا هي، لما اعتقدته من الإيمان والثواب» يعني فيترجح أن التثبيت مسند في المعنى إلى أنفسهم. انتهى. الدر المصنوع.

الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها^(١)، (١٩٩) وعن الحسن رضي الله عنه: هذا مثل قلّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. فإن قلت: كيف قال، ﴿جَنَّةٌ مِّن تَبْيِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: ثم قال: «لَمْ يَفْهَمَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَتَيْنِ^(٢)»: قلت: النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما. وإن كانت محتوية على سائر الأشجار - تغليبا لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات، ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله: ﴿وَكَاثِلٌ لَّمْ تَمُرْ﴾ [الكهف: ٣٤] بعد قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ وَخَفَفْتَنِي بِنَخْلٍ﴾ [الكهف: ٣٢] فإن قلت: علام عطف قوله: «وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ»:؟ قلت: الواو للحال لا للعطف، ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر، وقيل: يقال: وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِفَاحِشِيهِ إِلَّا أَن تُنْمِشُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾: من جباد مكسوباتكم، «وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم»: من الحب والتمر والمعادن وغيرها. فإن قلت: فهلا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفاً على، «مَّا كَسَبْتُمْ»: حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ قلت: ٩٤ب معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات، «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ»: ولا تقصدوا المال الرديء، «وَمِنهُ تُنْفِقُونَ»: تخصصونه بالإنفاق، وهو في محل الحال، وقرأ

١٩٩ - أخرجه البخاري (٤٩/٨): كتاب التفسير: باب قوله «أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ...» حديث (٤٥٣٨).

والحاكم في مستدركه (٢٨٣/٢) والطبري (٥٤٥/٥)، حديث (٦٠٩٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٠٢/١) وعزاه لابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والبخاري والطبري وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس. قلت: وفي استدراك الحاكم لهذا الحديث وهم. قال الحافظ: أخرجه البخاري من حديث عبيد بن عمير: أن عمر سأل. فذكره. ا.هـ.

- (١) قوله «أغرق أعماله كلها» في بعض نسخ الجلال: أحرق، بالحاء، وكذلك عبارة النسفي. (ع)
- (٢) قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم ذكر النخيل والأعناب أولاً... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا من باب تشية ذكر ما يقع الاهتمام به مرتين عموماً وخصوصاً ومثله (فيهما فاكهة ونخل ورمان) إلا أنه في تلك الآية بدأ بالتمعيم وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص والمقصود هو ما نبهنا عليه، والله أعلم.

عبد الله: «ولا تأمموا»، وقرأ ابن عباس: «ولا تيمموا»، بضم التاء، ويممه وتيممه وتأممه، سواء في معنى قصده ﴿وَلَسْتُمْ بِأَعْيُنِهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم، ﴿إِلَّا أَنْ تُنِيعُوا فِيهِ﴾: إلا بأن تتسامحوا في أخذه وترحضوا فيه من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غَضَ بصره، ويقال للبايع: أغمض، أي: لا تستقص، كأنك لا تبصر، وقال الطرمح [من الخفيف]:

لَمْ يَفْتِنَا بِالْوَثْرِ قَوْمٌ وَلِلضُّيْمِ مِ رَجَالٍ يَرْضَوْنَ بِالْإِغْمَاضِ^(١)
 وقرأ الزهري: «تغمضوا»، وأغمض وغمض بمعنى، وعنه: «تغمضوا»، بضم الميم وكسرهما. من غمض يغمض ويغمض، وقرأ قتادة: «تغمضوا»، على البناء للمفعول، بمعنى إلا أن تدخلوا فيه وتجذبوا إليه، وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين، وعن الحسن رضي الله عنه: لو وجدتموه في السوق يباع ما أخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٢﴾

أي: يعدكم في الإنفاق، ﴿الْفَقْرَ﴾، ويقول لكم إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا، وقرئ: الفقر، بالضم. والفقر - بفتحين - والوعد يستعمل في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿أَنَارَ وَعَدَهَا اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢]، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾: ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الأمر للمأثور، والفاحش عند العرب: البخيل^(٢)، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم﴾: في الإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم وكفارة لها، ﴿وَفَضْلًا﴾: وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو ثواباً عليه في الآخرة.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

(١) قوله «لم يفتنا بالوتر قوم» في الصحاح «الموتور» الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. تقول منه: وتره وترأ وتره. وكذلك وتره حقه أي نقصه. (ع)

(٢) الباء للملابسة أو بمعنى مع. والوتر - بالكسر - الظلم ونقص بعض الحق، ومثله الترة. والفعل وتر كوعد. والضميم: الظلم، والإغماض: ترك بعض الحق والإعراض عنه، كأنه لا يراه. يقول: لم يسبقنا قوم بالوتر ويظفروا منا به. وقوله: وللضميم رجال: استئناف، يعني إنا لا نعرض عن حقنا كثيرنا لشجاعتنا دونهم، أحوال، أي والحال أن للظلم ناس يرضون بترك حقوقهم لعجزهم، ويؤول إلى الأول.

(٣) قوله: «والفاحش عند العرب البخيل» قال [من الطولي]: أرى الموت يعتم الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد. (ع)

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٧٦﴾

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾: يوفق للعلم والعمل به، والحكيم عند الله: هو العالم العامل وقرىء: «ومن يؤت الحكمة» بمعنى ومن يؤته الله^(١) الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش، و﴿حَبِيرًا كَثِيرًا﴾: تنكير تعظيم، كأنه قال: فقد أوتي أي خير كثير ﴿وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. يريد الحكماء العالَم العمال، والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَابٍ ﴿١٧٧﴾

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾: في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾: في طاعة الله، أو في معصيته، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾: لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يقفون بالنذور، أو يندرون في المعاصي، ﴿مِنْ أَنْصَابٍ﴾: ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ

عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٨﴾

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إن أراد تفسير المعنى فهو صحيح، وإن أراد الإعراب فليس كذلك؛ إذ ليس ثم ضمير نصب محذوف، بل مفعول «يؤت» من الشرطية المتقدمة. قلت: ويؤيد تقدير الزمخشري قراءة الأعمش: «ومن يؤته الحكمة» بإثبات هاء الضمير، و«من» في قراءته مبتدأ لاشتغال الفعل بمفعولي، وعند من يجوز الاشتغال في أسماء الشرط والاستفهام يجوز في «من» النصب بإضمار فعل، ويقدر متأخراً، والرفع على الابتداء، وقد تقدم تحقيق هذه في غصون هذا الإعراب.

قال الشيخ: «وتقديره هكذا يؤدي إلى حذف الموصوف بـ «أي» وإقامة الصفة مقامه، فإن التقدير: فقد أوتي خيراً أي خير كثير، وإلى حذف «أي» الواقعة صفة، وإقامة المضاف إليها مقامها، وإلى وصف ما يضاف إليه «أي» الواقعة صفة نحو: مَزَزْتُ برجل أي رجل كريم، وكل هذا يحتاج إثباته إلى دليل، والمحموظ عن العرب أن «أي» الواقعة صفة تضاف إلى ما يماثل الموصوف نحو: دَعَوْتُ امرأ أي امرئ، فأجاني، وقد يُحذف الموصوف بأي كقوله [من الطويل]:

إِذَا حَارَبَ السَّجَّاحُ أَيَّ مُنَافِقٍ

تقدير: منافق أي منافق، وهذا نادراً، وقد تقدم أن تقدير الزمخشري كذلك، أعني كونه حذف موصوف أي. وأصل «يذكر»: يَتَذَكَّرُ فَأَذْغَمَ. انتهى. الدر المنون.

«ما» في (نعمًا): نكرة غير موصولة ولا موصوفة، ومعنى، ﴿فَيَسَّأِرُ﴾: فنعم شيئاً إبداءها، وقرئ بكسر النون وفتحها، ﴿وَلِنْ تُخْفُوا وَتُؤْتُوا الْقَرْعَةَ﴾: وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء، ﴿هَؤُلَاءِ لَكُمْ﴾: فالإخفاء خير لكم، والمراد الصدقات المتطوع بها، فَإِنَّ الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً» (٢٠٠). وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل، لنفي التهمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل، والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل (نكفر) وقرئ بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ونحن نكفر. أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأة، ومجزوماً عطفاً على محل الفاء وما بعده، لأنه جواب الشرط، وقرئ: «ويكفر»، بالياء مرفوعاً، والفعل لله أو للإخفاء، وتكفر بالياء، مرفوعاً ومجزوماً، والفعل للصدقات، وقرأ الحسن رضي الله عنه بالياء والنصب بإضمار أن ومعناه: إن تخفوها يكن خيراً لكم، وأن يكفر عنكم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَن تُنْفِقُوا وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾: لا يجب عليك أن تجعلهم^(١) مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي

٢٠٠ - أخرجه الطبري (٥٨٣/٥)، حديث (٦١٩٧).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٢٥/١) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم. قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية ابن عباس قال: «جعل الله صدقة السر التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً وجعل صدقة الفريضة علانيتها تفضل سرها خمساً وعشرين ضعفاً»، وكذا جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها. انتهى.

(١) قال محمود رحمه الله: «لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين... إلخ». قال أحمد رحمه الله: المعتقد الصحيح أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداه، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه. وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما في هذه الآية، فهو مؤول على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه. إن هذا إلا اختلاق، وهذه الزعة من توابع معتقدهم السي. في خلق الأفعال وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسئول أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

فحسب، ﴿وَلَعَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنِ ارْتَضَى﴾: يلطف بمن يعلم أنَّ اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: من مال، ﴿فَيُؤْتِكُمْ﴾: فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتناول عليهم، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾: وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخيـث الذي لا يوجه مثله إلى الله؟، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَرَوْفَ إِلَيْكُمْ﴾: ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه وأجملها، وقيل: حجت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - فأنتها أمها تسألها وهي مشركة، فأبت أن تعطـيها، فنزلت، وعن سعيد بن جبـير رضي الله عنه: كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين (٢٠١)، وروي: أنَّ ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع وقد كانوا يتفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن يتفقوهم^(١)، وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله، لكان لك ثواب نفقتك، واختلف في الواجب، فجوز أبو حنيفة - رضي الله عنه - صرف صدقه الفطر إلى أهل الذمة، وأباه غيره.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَفْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا الْحَقَّ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٣)

الجار متعلق بمحذوف، والمعنى: اعمدوا للفقراء، واجعلوا ما تنفقون للفقراء، كقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النمل: ١٢] ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: صدقاتكم للفقراء، و﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هم الذين أحصرهم الجهاد، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: لا اشتغالهم به، ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾: للكسب، وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد - وهي سقيته - يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى^(٢) بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل

٢٠١ - أخرجه الطبري (٥٨٧/٥، ٥٨٨)، حديث (٦٢٠٣).

- (١) قوله «كرهوا أن يتفقوهم» لعله على تضمين الفعل معنى الإعطاء. أو لعله محرف وأصله يتفقوهم من النفع. (ع)
- (٢) قوله «ويرضخون النوى» في الصحاح: رضخت الحصى والنوى: كسرتة، ورضخت له رضخاً، وهو العطاء ليس بالكثير اهـ. (ع)

أتاهم به إذا أمسى، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: «أُبَشِّرُوا يا أصحاب الصفة، فمن بقي من أُمَّتِي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائي في الجنة»، (٢٠٢) ﴿يَسْكُنُهُمُ الْجَهَنَّمُ﴾: بحالهم، ﴿أَنْفُسِيَا مِنْ الْعَقْفِ﴾: مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة، ﴿تَسْرِفُهُمْ بِسَيِّئِهِمْ﴾: من صفرة الوجه ورثاة الحال، والإلحاف: الإلحاح، وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه. من قولهم: لحفني من فضل لحافه، أي: أعطاني من فضل ما عنده، وعن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيَبْغِضُ الْبَذِيَّ السَّئَالَ الْمُلْحَفَ» (٢٠٣) ومعناه: أنهم إن سألوا سألوا بتلطف

٢٠٢ - أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢٧٧/١٣) بعد ترجمة مبادر بن عبيد الله الرقي عن ابن عباس قال: وقف النبي يوماً على أصحاب الصفة...

وذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٧/٦)، حديث (١٦٥٧٧) وعزاه للخطيب البغدادي. والحديث ذكره السيوطي في «الجامع الكبير» (١٢٨) وعزاه لأبي عبد الرحمن السلمي في «سنن الصوفية» والخطيب والدليعي عن ابن عباس. قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٢٠٣ - أخرجه البزار في مسنده (٤٣٠/٢) كشف: كتاب الأدب: باب فيمن لا يستحي، حديث (٢٠٣١) من طريق مجاهد عن أبي هريرة.

- وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٦٤/١)، حديث (١٦٩) وعزاه لإسحاق بن راهويه والطبراني في مسند الشاميين عن عطاء بن مسلم الخراساني عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - أن الله يحب الحلیم...

- وأخرجه السهمي في تاريخ جرجان ص (١٤٢) من طريق أبي صالح عن أبي هريرة وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٧٨).

- وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤١/١٠)، حديث (١٠٤٤٢) عن عبد الله بن مسعود. - وابن أبي شيبه (٢١٣/٥)، حديث (٢٥٣٤٤) من طريق الأعمش عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب. قال: قال رسول الله - ﷺ - إن الله يحب الحي العفيف...

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٣٤/١) وعزاه للطبري وابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي كان يقول: إن الله يحب...


وقد أخرجه الطبري (٦٠٠/٥) حديث (٦٢٣١) من طريق قتادة.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبه في الأدب من رواية ميمون بن أبي شبيب عن النبي - ﷺ - مرسلًا إلا أنه قال «ويبغض الفاحش البذيء». وقد روي موصولًا، والبزار من طريق محمد بن كثير الملاثي عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة به. في حديث أوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وقال: لا نعلمه عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد. ١. هـ. وإسناده ضعيف. وقد رواه الطبراني من حديث ابن مسعود به، وأتم منه وفي إسناده سوار بن مصعب، وهو ضعيف وله طريق أخرى عن أبي هريرة أخرجه إسحاق في مسنده، والطبراني في مسند الشاميين من طريقه قال: أخبرنا كلثوم بن محمد قال حدثنا عطاء بن أبي مسلم الخراساني عن أبي هريرة =

ولم يلحوا، وقيل: هو نفي للسؤال والإلحاف جميعاً كقوله [من الطويل]:

عَلَى لَاحِبٍ ^(١) لَا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ ^(٢)

يريد نفي المنار والاهتداء به.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ يَأْتِلِي وَالْهَكَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ 

﴿يَأْتِلِي وَالْهَكَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾: يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخره ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حين تصدق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية، وعن ابن عباس

فذكره مقتضراً على ما ذكره المصنف بمعناه. وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان وحمزة السهمي في تاريخ جرجان، كلاهما من طريق عيسى بن خالد البلخي عن ورقاء عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ: «إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه، ويكره اليأس والتبؤس ويغض السائل الملحف، ويحب العفيف المتعفف». انتهى.

(١) قوله: «على لاحب» أي طريق واضح. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) وإنسى زعيم إن رجعت مملكاً بسير ترى منه الفرائق أزورا

على لاحب لا يهتدي بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

لامرى القيس. والزعيم الكفيل. والفرائق - بضم الفاء -: رسول يوصل خبر الخوف. والأزور: المائل. يقول: إن ملكوني عليهم كما كنت فإني متكفل بسفر صعب. واللحج واللاحب: الطريق الواسع، من لجه إذا وطنه ومر فيه، فأصله ملحوب. والمنار أعلام الطريق. وسافه يسوفه سوفاً إذا شمه شماً. ومنه المسافة. والعود: الجمل المسن. ويطلق على الطريق القديم. والسؤدد: القديم. والنباطي: نسبة للبط، وهم قوم يحلون البطاح بين العراقيين يستنبطون منها الماء، كيمياني نسبة لليمن. ويروى: العود الديافي. وداف يدوف إذا خلط، ودياف: موضع بالجزائر فيه نبط الشام. والديافي نسبة إليه. والجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته، يعني أنه طريق واسع لا منار فيه يهتدى به، وفيه نوع من البديع يسمونه نفي الشيء بإيجابه، ويفسرونه بأن يكون الكلام ظاهراً لإيجاب الشيء وباطنه نفيه، بأن ينفي ما هو من سببه وهو المنفي في الباطن. وفي البيت نفي الاهتداء بالمنار، والمقصود نفي المنار كما ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان، إذا شمه الجمل المسن عرف أنه طريق وعر لتجربته الطرق، وجرجر خوفاً منه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر، سيما إذا كان من إبل النبط لكثرة رحيلهم. هذا ويحتمل أن السير مجاز عن السياسة كما يشعر به طلب الملك؛ فيكون ما بعده ترشيع للمجاز.

ينظر ديوانه (٩٥)، أمالي ابن الشجري ١/١٩٢، الخصائص ٣/١٦٥، معاني الزجاج ١/٣٥٧،

أمالي المرتضى ١/١٦٥، اللسان: سوق: الدر المصون ١/٦٥٧.

رضي الله عنهما - نزلت في علي رضي الله عنه : لم يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سراً ، وبدرهم علانية ، (٢٠٤) وقيل : نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية .

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا إِنَّمَا اتَّبَعْنَا آلَ الْبَيْتِ بَنِي إِدْرِيسَ وَأَحْلَ اللَّهُ السَّبْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠٥﴾﴾ يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ إِلَّا نِيَّةً ﴿٢٠٦﴾﴾ :

﴿الرِّبَا﴾ : كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع ، ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ : إذا بعثوا من قبورهم^(١) ، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ : أي : المصروع ، وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشاء ، فورد

٢٠٤ - آخره الطبراني في المعجم الكبير (٩٧/١١) ، حديث (١١٦٦٤) .

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٧/٦) : وفيه عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف .

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٤٢/١) وعزاه لابن جرير وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن

المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساکر .

من طريق عبد الوهاب عن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس .

(١) قال محمود رحمه الله : «يعني إذا بعثوا من قبورهم... إلخ» قال أحمد : قوله : وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، أي كذباتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها ، كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك . وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرة في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع ، فقد ورد «ما من مولود يولد إلا يمسسه الشيطان فيستهل صارخاً» وفي بعض الطرق «إلا طعن الشيطان في خاصرته ومن ذلك يستهل صارخاً إلا مريم وابنها ، لقول أمها : إني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» وقوله عليه السلام «التقطوا صبيانكم أول العشاء فإنه وقت انتشار الشياطين» وفي حديث مكحول : أنه مر برجل نائم بعد العصر فركضه برجله وقال : لقد دفع عنك الشياطين ، أو لقد عوفيت ، إنها ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون وفيها يكون الخيبة . قال شمر : كان في لسان مكحول لكنة ، وإنما مراد الخيبة من الشيطان ، أي إصابة مس أو جنون . وقد ورد في حديث لمفقود الذي اختطفته الشياطين وردته في زمنه عليه الصلاة والسلام أنه حدث عن شأنه معهم قال : فجاءني طائر كأنه جمل ، فتعثرني ، فاحتلمني على خافية من خوافيه ، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره . واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة ، كما أخبر الشرع عنها . وإنما القدرة خصماء العلانية فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم ، من ذلك : السحر ، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن ، وإن اعترفوا بشيء من ذلك ، فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع ، في خبط طويل لهم فأحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

على ما كانوا يعتقدون، والمس: الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنّي يمسّه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل: معناه ضربته الجنّ ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات. فإن قلت: بم يتعلق قوله: «مِنَ الْمَسِّ؟»: قلت: بـ «لا يقومون»، أي: لا يقومون من المسّ الذي بهم إلا كما يقوم المصروع، ويجوز أن يتعلق بيقوم، أي: كما يقوم المصروع من جنونه، والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف، وقيل الذين يخرجون من الأحداث يوفضون، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين، لأنهم أكلوا الربا فأرياه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرّون على الإيفاض، «ذَلِكَ»: العقاب بسبب قولهم، «إِنَّمَا أَلْبَسَ مِثْلَ الرِّبَا»: . فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأنّ الكلام في الربا لا في البيع^(١) فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلّوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشتري الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع، وقوله: «وَأَحَلَّ اللَّهُ أَلْبَسَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»: إنكار لتسويتهم بينهما، ودلالة على أنّ القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه، «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ»: فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهاي عن الربا، «فَأَنذَرَتْ»: فتبع النهي وامتنع، «فَلَمْ يَسْلَفْ»: فلا يؤخذ بما مضى منه، لأنه أخذ قبل نزول التحريم، «وَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ»:

(١) قال محمود: «إن قلت لمّ لم يقولوا: إنما الربا مثل البيع... إلخ» قال أحمد: وعندي وجه في الجواب عن السؤال الذي أورده غير ما ذكر، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين في ثبوت الحكم. فللقائل أن يسوي بينهما طرداً، فيقول مثلاً: الربا مثل البيع، وغرضه من ذلك أن يقول: والبيع حلال فالربا حلال. وله أن يسوي بينهما في العكس فيقول: البيع مثل الربا، فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً ضرورة المماثلة. ونتيجته التي دلت قوة الكلام عليها أن يقول: ولما كان البيع حلالاً اتفاقاً غير حرام، وجب أن يكون الربا مثله، والأول على طريقة قياس الطرد، والثاني على طريقة قياس العكس، ومآلهما إلى مقصد واحد، فلا حاجة على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره، وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذي تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح وإن كان قياساً فاسد الوضع، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً في تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما، ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالاً صحيحاً فقل في الأول: النبيذ مثل الخمر في علة التحريم، وهو الإسكار، والخمر حرام فالنبيذ حرام. وقل في الثانية: إنما الخمر مثل النبيذ فلو كان النبيذ حلالاً لكان الخمر حلالاً، وليست حلالاً اتفاقاً فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة، فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه، والله أعلم.

يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾: إلى الربا، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: وهذا دليل بين^(١) على تخليد الفساق^(٢)، وذكر فعل الموعظة لأن تأنيثها غير حقيقي، ولأنها في معنى الوعظ، وقرأ أبي الحسن: «فمن جاءته..»، ﴿يَمْسُقُ اللَّهُ أَرْبَا﴾: يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه، وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: الربا وإن كثر إلى قُلٍّ، «وَيُرِي الْمَكْدَنَتِ»: ما يتصدق به بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه، وفي الحديث: «ما نقصت زكاةً من مال قط»، (٢٠٥) ﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَنِيمَ﴾: تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين.

٢٠٥ - أخرجه مسلم (٥٤٦/٨ - الأبي): كتاب البر والصلة والأدب: باب استحباب العفو والتواضع حديث (٢٥٨٨/٦٩)، وأحمد (٢٣٥/٢)، وابن خزيمة (٩٧/٤) حديث (٢٤٣٨) والدارمي (١/٣٩٦): كتاب الزكاة: باب في فضل الصدقة.

ومالك (١٠٠٠/٢): كتاب الصدقة: باب ما جاء في التعفف، حديث (١٢) وأحمد (٢٣٥/٢)، ٣٨٦، (٤٣٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٧/٤): كتاب الزكاة: باب كراهية البخل (٢٣٥/١٠) والترمذي (٣٧٦/٤): كتاب البر والصلة: باب ما جاء في التواضع، حديث (٢٠٢٩) وابن حبان في صحيحه (٤٠/٨)، حديث (٣٢٤٨) والبخاري في شرح السنة (٣٩٩/٣ - بتحقيقنا): كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة، حديث (١٦٢٧) عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. وأخرجه البزار (٤٤٠/١ - كشف الاستار)، حديث (٩٣٠) من طريق عبد الله بن غالب ثنا هشام بن عبد الرحمن الكوفي ثنا علقمة بن مرثد عن أبي الربيع عن أبي هريرة به. وقال البزار: ما حدث به هكذا إلا هشام ولا رواه عنه إلا عبد الله بن غالب المباداني. وقد حدث بغير حديث عن الأعمش، قال الحافظ ابن حجر:

من رواية العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بلفظ «ما نقصت صدقة من مال... الحديث» ورواه البزار من هذا الوجه، فزاد فيه قط. انتهى.

(١) قوله «على تخليد الفساق» وهو مذهب المعتزلة ولا يخلدون عند أهل السنة كما بين في محله. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله: «في هذه الآية دليل على تخليد الفساق... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وهو يبنى على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة، ولا يساعده على ذلك الظاهر الذي استدل به، فإن الذي وقع العود إليه مسكوت عنه في الآية. ألا تراه قال (ومن عاد) فلم يذكر الموعود إليه، فيحمل على ما تقدم كأنه قال: ومن عاد إلى ما سلف ذكره فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذي سلف ذكره فعل الربا واعتقاد جوازه، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع. ولا شك عندنا - أهل السنة والجماعة - أن من تعاطى معاملة الربا مستحلاً لها مكابراً في تحريمها مستنداً لإحلالها إلى معارضة آيات الله البيّنات بما يتوهمه من الخيالات فقد كفر ثم ازداد كفراً، وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود في الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن، وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل للزمخشري إذاً على اعتزاله في هذه الآية، والله الموفق. وإنما هو موكل بتحصيل الآيات من المعتقدات الباطلة ما لا تحتمله، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٧) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾ وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٨١)

أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمرنا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، وقرأ الحسن - رضي الله عنه -: «ما بقي»، بقلب الياء ألفاً على لغة طيء: وعنه «ما بقي» بياء ساكنة، ومنه قول جرير [من البسيط]:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضُوا مَا رَضِيَ لَكُمْ مَاضِي الْعَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفٌ^(١)

﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إن صح إيمانكم، يعني أن دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك، ﴿فَأَذَنُوا بِحَرْبٍ﴾: فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، وقرئ: «فأذنوا»، فاعلموا بها غيركم، وهو من الإذن وهو الاستماع، لأنه من طرق العلم، وقرأ الحسن: «فأيقنوا»، وهو دليل لقراءة العامة. فإن قلت: هلا قيل بحرب الله ورسوله؟ قلت: كان هذا أبلغ، لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم [من] عند الله ورسوله، وروي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا يدي لنا بحرب الله ورسوله.، ﴿وَإِن تُبْتِغُوا﴾: من الارتباء، ﴿فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾: المديونين^(٢) بطلب الزيادة عليها، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: بالنقصان منها. فإن قلت: هذا حكمهم إن تابوا، فما حكمهم لو لم يتوبوا قلت: قالوا: يكون مالهم فيئاً للمسلمين، وروى المفضل عن عاصم: «لا تظلمون ولا تظلمون»، ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾: وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أو ذو إعسار وقرأ عثمان - رضي الله عنه -: «ذا عسرة» على وإن كان الغريم ذا عسرة، وقرئ: «ومن كان ذا عسرة».، ﴿فَنَظِرَةٌ﴾: أي: فالحكم أو فالأمر نظرة وهي الإنظار، وقرئ: «فنظرة»

(١) أي هو المعروف بالعدل. أو هو الخليفة الكامل فارضوا ما رضي لكم من الأحكام. وتسكين آخر «رضي» ونحوه: لغة شاذة. ماضي العزيمة: نافذ الحكم، ليس في حكمه جنف: أي ميل عن الحق إلى غيره.

ينظر: ديوانه (٣٩٠)، الدر المصون (١/٦٦٥).

(٢) قوله «المديونين بطلب الزيادة» القياس المدينيين، فلعل هذا مسموع شذوذاً، وسيعبر به فيما بعد أيضاً. (ع)

يسكون الظاء، وقرأ عطاء: «فناظره» بمعنى فصاحب الحق ناظره: أي: منتظره، أو صاحب نظرته على طريقة النسب كقولهم: مكان عاشب وياقل، أي: ذو عشب وذو بقل، وعنه: فناظره، على الأمر بمعنى فسامحه بالنظرة ويأسره بها، ﴿إِنْ يَسَّرَ﴾: إلى يسار وقرىء بضم السين، كمقبرة ومقبرة ومشركة ومشركة، وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله [من البسيط]:

..... وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَقَارِ أَسَاوِرَ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾: ندب إلى أن يتصدقوا بربهم أموالهم على من أعسر من غرماهم أو يبعضها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعُوْا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقيل: أريد بالتصدق الإنظار لقوله ﷺ: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»، (٢٠٦) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه خير لكم

٢٠٦ - أخرجه ابن ماجه (٨٠٨/٢) كتاب الأحكام باب إنظار المعسر حديث (٢٤١٨) من طريق الأعمش عن نفع أبي داود عن بريدة عن النبي - ﷺ - قال: من أنظر معسراً كان له كل يوم صدقة ما لم يحل ومن أنظره بعد حلة كان له مثله في كل يوم صدقة. قال البوصيري في «الزوائد» (٢/٢٤٦): هذا إسناد ضعيف نفع بن الحارث الأعمى الكوفي متفق على ضعفه.

وللمحدث طريق آخر أخرجه أحمد (٣٥١/٥) والحاكم (٢٩/٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/٥٣٨) من طريق محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً. ومن هذا الطريق ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/١٦٦) وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه وأبي يعلى والطبراني في «جمعه أحاديث محمد بن جحادة».

وللمحدث شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/١٥١) رقم =

(١) إن الخليط أجداو البين وانجردوا وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا لأبي أمية الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وقيل: لزهير. والخليط: المخالط في العشرة، وهو كالغدير. يقال للواحد والمتعدد: وأجدوا البين: اجتهدوا في الفراق. وانجردوا. مفضوا. وعد الأمر: أصله عدة الأمر. وأصلها وعد، فعوضت التاء عن الواو، ثم حذفت التاء للإضافة كالتنوين على لغة، واختلف فقيل إنها سماعية. وقيل إنها قياسية. واشترطهم للحذف عدم اللبس - فيمتنع في شجرة زيد للبس بشجر زيد - ويؤيد كونها قياسية. وفي المراح: أن حذف تاء التعويض جائز هنا اتفاقاً. أما عند سيبويه فلأن التعويض عنده من الأمور الجائزة. وأما عند الفراء فلأنه لا يوجب التاء إلا عند عدم الإضافة، وهي هنا متحققة فتقوم مقام العوض، وعائد الموصول محذوف، أي الأمر الذي وعدوه إياك.

ينظر: شرح شواهد الشافعية ص ٦٤، شرح التصريح ٣٩٦/٢، لسان العرب «غلب»، «خلط» المقاصد النحوية ٥٧٢/٤، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢٤١/٥، شرح الأشموني ٣٠٤/٢، شرح شافية الحاجب ١٥٨/١، شرح عمدة الحفاظ ص ٤٨٦، لسان العرب (وعد)، (خلط) أوضح المسالك ٤٠٧/٤، الخصائص ١٧١/٣.

فتمثلوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه، وقرئ «تصدّقوا» بتخفيف الصاد على حذف التاء، ﴿تَرْجُمُونَ﴾: قرئ على البناء للفاعل والمفعول: وقرئ: «يرجعون» بالياء على طريقة الالتفات، وقرأ عبد الله: «ترذون»: وقرأ أبي: «تصيرون»، وعن ابن عباس: أنها آخر آية نزل بها جبريل - عليه السلام -، وقال: وضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة، وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يوماً، (٢٠٧) وقيل: أحدًا وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُدِيلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ ۚ أَلَّا تَرْتَابُوا ۚ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٠٧﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَوَهْنٌ مَقْبُوضُهُ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ

= (١١٣٣٠).

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٣٨/٤): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم بن الجارود ضعفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخه لم يعرفهما.
قال الحافظ ابن حجر:

رواه ابن ماجه من رواية الأعمش عن أبي داود نفع عن بريدة رفعه «من أنظر معسراً كان له بكل يوم صدقة. ومن أنظره بعد حله كان له مثله في كل يوم صدقة» وأبو داود ضعيف وقد اختلف عليه فيه فرواه عبد الله بن نمير عن الأعمش هكذا وخالفه أبو بكر بن عياش فرواه عن الأعمش عن أبي داود عن عمران بن حصين أخرجه أحمد والطبراني وقد أخرجه أحمد وابن أبي شيبه وأبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي في آخر الشعب كلهم من رواية عبد الوارث عن محمد بن جحادة عن ابن بريدة عن أبيه نحوه وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني. انتهى.

٢٠٧ - أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٣٧/٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٣/١) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

بَعْضًا قَلْبُورِ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَتَهُ وَلِتَقَى اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
عَنِ اللَّهِ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٠٨﴾

﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾: إذا دأب بعضكم بعضاً. يقال: دأبت الرجل إذا عاملته، ﴿بِدَيْنٍ﴾: معطياً
أو أخذاً كما تقول: بايعته إذا بعته أو باعك. قال رؤبة [من الرجز]:

دَايَنْتُ أَرْوَى وَالْدُّيُونَ تُفْضَى فَمَطَلْتُ بَعْضًا وَأَدَّتْ بَعْضًا^(١)

والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل
مسمى^(٢) وأي: حاجة إلى ذكر «الدين» كما قال: دأبت أروى، ولم يقل: بدين؟ قلت:
ذكر ليرجع الضمير إليه في قوله:، ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾: إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا
الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنوع الدين إلى مؤجل وحال. فإن
قلت: ما فائدة قوله:، ﴿مُسَمًّى﴾: قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً
كالتوقيف بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع الحاج،
لم يجز لعدم التسمية، وإنما أمر بكتابة الدين، لأن ذلك أوثق وأمن من النسيان وأبعد من
الجهود، والأمر للندب، وعن ابن عباس: أن المراد به السلم، وقال: لما حرم الله الرِّبَا
أباح السلف، وعنه: أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه
أطول آية، (٢٠٨) ﴿بِالْكَفْلِ﴾: متعلق بكتاب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب،

٢٠٨ - أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٨٦/٢) والطبري (٤٠/٦)، حديث (٦٣٢١) وعلقه البخاري (٤/
٥٠٦): كتاب البيوع: باب السلم إلى أجل معلوم.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٥/١٢)، حديث (١٢٩٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٨/٦) =

(١) لرؤية. يقول: عاملت محبوبتي بدين لي عليها من لوازم المودة، فمطلت: أي أخرت بعضاً منه
وأطالت مدة تأخيرها، وقضت بعضاً منه. وقوله «والديون تقضى» جملة حالية أو اعتراضية مبينة
لظلمها في المطل وأصل المطل: المط والممد.

ينظر: ديوانه (٧٩)، الخصائص (٩٦/٢)، شواهد الكتاب (٣٠٠/٢)، الدر المصون (١/٦٧٢).

(٢) قال محمود: «إن قلت هلا قيل إذا تداينتم... إلخ؟» قال أحمد: لأجل المسمى هو المعلوم
انتهائه، ولعلم الانتهاء طرق منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر. ومنها التحديد بما يعتاد
وقوعه في زمن مخصوص مضبوط بالعرف. كالحصاد، ومقدم الحاج. وكيفما علم الأجل صح
ضربه، فمن ثم أباح مالك البيع إلى الحصاد لأنه معلوم عندهم، ثم المعتبر زمان وقوع هذه
المسميات لا نفس وقوعها حتى لو حل زمن قدوم الحاج فمنعه مانع من القدوم مثلاً لم يكن به
عبرة وحكمنا بحلول أجل الدين، والله أعلم.

يكتب بالسوية والاحتياط. لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص، وفيه: أن يكون الكاتب فقيها عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشعر، وهو أمر للمتدربين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً، «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ»: ولا يمتنع أحد من الكتاب وهو معنى تنكير كاتب، «أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ»: مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير، وقيل هو كقوله تعالى: «وَأَخِين كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» [القصص: ٧٧] أي: ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها، وعن الشعبي: هي فرض كفاية، وكما علمه الله: يجوز أن يتعلق بأن يكتب، ويقول: «فَلْيَكْتُبْ». فإن قلت: أي: فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن يكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المقيدة، ثم قيل له، «فَلْيَكْتُبْ»: يعني فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها للتوكيد، وإن علقته بقوله: «فَلْيَكْتُبْ» فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدة^(١)، «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ»: ولا يكن المملي إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته وإقراره به، والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن «فَبَيِّنْ لَنَا» [البقرة: ٢٢٢] «وَلَا يَخْشَى وَثْقَةً» [الحق، ٥]: والبخش: النقص، وقرئ «شياً»، بطرح الهمزة: «وشياً»، بالتشديد، «سفيهاً»: محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف، «أَوْ صَبِيحاً»: صبيهاً أو شيخاً مختلاً، «أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَيِّنَ حُجَّتَهُ» أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعمى به أو خرس، «فَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ»: الذي يلي أمره من وصي إن كان سفيهاً أو صبيهاً، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه، وقوله تعالى: «أَنْ يُبَيِّنَ حُجَّتَهُ» فيه أنه غير مستطيع بنفسه ولكن بغيره، وهو الذي يترجم عنه، «وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ»: واطلبوا أن يشهد لكم شهيذان على الدين، «مِنْ رِجَالِكُمْ»: من رجال المؤمنين، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء، وعن علي - رضي

= (١٩): كتاب البيوع: باب جواز السلف المضمون بالصفة.

وذكره السيوطي في الدر (٦٥٤/١) وعزاه للشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر والحاكم والبيهقي، عن عبد الله بن عباس.

قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الحاكم من رواية أبي حنبل الأعرج عن الأعمش عن ابن عباس قال «أشهد أن السلم المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله في الكتاب وأذن فيه وقرأ هذه الآية ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ إِلَى أَكْمَلِ نَكْمَتِكُمْ﴾». انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهو خلاف الظاهر، وتكون الكاف في هذا القول للتعليل» قلت: وعلى القول بكونها متعلقة بقوله: «فليكتب» يجوز أن تكون للتعليل أيضاً، أي: فلاجل ما علمه الله فليكتب. انتهى. الدر المصون.

الله عنه -: لا تجوز شهادة العبد في شيء، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل.، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا﴾: فإن لم يكن الشاهدان، ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾: فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص، ﴿مِنْ رَضَوْنَ﴾: ممن تعرفون عدالتهم، ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا﴾: أن لا تهتدي إحداهما للشهادة بأن تنساها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له، وانتصابه على أنه مفعول له أي: إرادة أن تضل. فإن قلت: كيف يكون ضلالها مراداً لله تعالى؟ قلت: لما كان الضلال سبباً للإذكار، والإذكار مسبباً عنه، وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإذكار إرادة للإذكار، فكانه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، ونظيره قولهم: أعددت الخشبة أن يميل الحائط فأدعته، وأعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه، وقرئ: «فتذكر» بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان، و«فتذاكر»، وقرأ حمزة: «إن تضل إحداهما» على الشرط. فتذكر، بالرفع والتشديد، كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمْ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] وقرئ: «أَنْ تُضَلَّ إحداهما» على البناء للمفعول والتأنيث، ومن بدع التفاسير فتذكر، فتجعل إحداهما الأخرى ذكراً، يعني أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر، ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾: ليقيموا الشهادة، وقيل: ليستشهدوا، وقيل لهم شهداء قبل التحمل، تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن، وعن قتادة: كان الرجل يطوف [في] الحواء^(١) العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت. كني بالسأم عن الكسل، لأن الكسل صفة المنافق، ومنه الحديث: «لا يقول المؤمن كسلت» (٢٠٩) ويجوز أن يراد من كثرت مدايناته؛ فاحتاج أن يكتب لكل دين صغير أو كبير كتاباً، فربما مل كثرة الكتب، والضمير في، ﴿تَكْتُبُوهُ﴾: للدين أو الحق، ﴿سَمِعُوا أَوْ كَبُرُوا﴾: على أي حال كان الحق من صغر أو كبير، ويجوز أن يكون الضمير للكتاب؛ وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً لا يخلوا بكتابته، ﴿إِلَّا أَجَلِيَّ﴾: إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى أن تكتبوه، لأنه في معنى المصدر، أي: ذلكم الكتب، ﴿أَقْسَطُ﴾: أعدل من القسط، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾: وأعون على إقامة الشهادة، ﴿وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: وأقرب من انتفاء الريب. فإن قلت: مِمَّ بني أفعلا التفضيل، أعني: أقسط، وأقوم؟ قلت: يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام، وأن يكون أقسط

٢٠٩ - سيأتي تخريجه في سورة براءة. انتهى.

(١) قوله «يطوف في الحواء» في الصحاح: الحواء جماعة بيوت من الناس مجتمعة. (ع)

من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذي قسط، وأقوم من قويم، وقرىء^(١). «ولا يسأموا أن يكتبوه» بالياء فيهما. فإن قلت: ما معنى، «تَجَرَّةٌ حَاضِرَةٌ»: وسواء أكانت المبايعة بدين أوبعين فالتجارة حاضرة؟ وما معنى إدارتها بينهم؟ قلت: أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال، ومعنى إدارتها بينهم تعاطيهم إياها يدأ بيد، والمعنى: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يدأ بيد فلا بأس أن لا تكتبوه، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، وقرىء: «تجارة حاضرة» بالرفع على كان التامة، وقيل: هي الناقصة على أن الاسم (تجارة حاضرة) والخبر «تُدِيرُونَهَا» وبالنصب على إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كيبت الكتاب [من الطويل]:

بِئْسَى أَسَدٌ هَلْ تَعْلَمُونَ بِلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا؟^(٢)

أي: إذا كان اليوم يوماً، «وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ»: أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً، ناجزاً أو كالتا لأنه أحوط وأبعد مما عسى [أن] يقع من الاختلاف، ويجوز أن يراد: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة، وعن الحسن: إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد، وعن الضحاك: هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل^(٣)، «وَلَا يُصَاكِرُ»: يحتمل البناء للفاعل والمفعول، والدليل عليه

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: لم ينص سيبويه على أن أفعل التفضيل تبنى من «أفعل»، إنما يُؤخذ ذلك بالاستدلال، فإنه نص في أوائل كتابه على أن «أفعل» للتعجب يكون من فَعَلَ وفَعِلَ وفَعُلَ وأَفْعَلَ، فظاهر هذا أن «أفعل» للتعجب يبنى منه أفعل للتفضيل، فما اقتاس في التعجب اقتاس في التفضيل، وما شذ فيه شذ فيه. وقد اختلف النحويون في بناء التعجب وأفعل التفضيل من أفعل على ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً، والمنع مطلقاً، والتفضيل بين أن تكون الهمزة للنقل فيمتنع، أو لا فيجوز، وعليه يؤول كلام سيبويه، حيث قال: «إنه يبنى من أفعل» أي الذي همزته لغیر التعدية. ومن منع مطلقاً قال: «لم يقل سيبويه وأفعل بصيغة الماضي» إنما قالها أفعل بصيغة الأمر، فالتبس على السامع، ويعني أنه يكون فعل التعجب على أفعل، بناؤه من فَعَلَ وفَعِلَ وفَعُلَ، وعلى أفعل. انتهى. الدر المنصور.

(٢) من أبيات الكتاب. والمراد من هذا الاستفهام الوعيد والتهديد وتذكير ما سبق أو التقرير، أو هل بمعنى قد. والبلاء: الحرب وكل مكروه. أي يا بني أسد، هل تعلمون حربنا إذا كان اليوم يوماً صاحب كواكب، فاسم كان محذوف. ويجوز أن اسم كان ضمير البلاء، ويوما ظرف متعلق بالخبر المحذوف. وكفى بذئ الكواكب عن المظلم، لأن الكواكب المتعددة لا تظهر إلا ليلاً، فالمعنى: إذا كان اليوم يشبه الليل في الظلمة من اشتداد الحرب وإثارة الغبار فيحجب الشمس. فكان النجوم ترى فيه. وأقرب من ذلك أنه استعارة الكواكب لأطراف الرماح، وسيوف للمعانيها وانتشارها ذلك اليوم كالنجوم على طريق التصريحة، والأشنع: القبيح.

البيت لعمر بن شاس ينظر الكتاب ٤٧/١، وشرح أبيات سيبويه ٦٣/١، وخزانة الأدب ٥٢١/٨، والأزهية ص ١٨٦، ولحسين بن همام ينظر المعاني الكبير ص ٩٧٣، ولسان العرب (شهب)، والمقتضب ٩٦/٤، والدر المنصور ٦٨٤/١.

(٣) قوله «على باقة بقل» حزمة منه. أفاده الصحاح. (ع)

قراءة عمر - رضي الله عنه - : «ولا يضارر»، بالإظهار والكسر، وقراءة ابن عباس رضي الله عنه : «ولا يضارر»، بالإظهار والفتح، والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يجعلاً عن مهم، ويلزاً، أو لا يعطي الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد^(١) وقرأ الحسن : «ولا يضار»، بالكسر، «وَإِنْ تَفْعَلُوا» : وإن تضاروا، «فَإِنَّهُ» : فإن الضرار، «سُوءٌ بِكُمْ» : وقيل : وإن تفعلوا شيئاً مما نهيتهم عنه، «عَلَى سَفَرٍ» : مسافرين، وقرأ ابن عباس وأبي - رضي الله عنهما - «كتاباً»، وقال ابن عباس : أرأيت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة، وقرأ أبو العالية : «كتاباً»، وقرأ الحسن : «كتاباً»، جمع كاتب، «فَرَنْ» : فالذي يستوثق به رهن، وقرئ «فرهن» بضم الهاء وسكونها، وهو جمع رهن، كسقف وسقف، و «فرهان». فإن قلت : لم شرط السفر في الارتهان ولا يختص به سفر دون حضر^(٢) وقد رهن رسول الله ﷺ درعه في غير سفر.

٢١٠ - أخرجه البخاري (٣٠٢/٤) كتاب البيوع : باب شراء النبي بالنسيئة حديث (٢٠٦٩) وأحمد (٣/ ١٣٣) والسنائي (٢٨٨/٧) كتاب البيوع : باب الرهن في الحضر، وابن ماجه (٨١٥/٢) كتاب الرهن : باب (١) حديث (٢٤٣٧).

والترمذي (٥١٩/٣ - ٥٢٠) كتاب البيوع : باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل حديث (١٢١٥) وأبو يعلى (٣٩٤/٥) رقم (٣٠٦١) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٢٦٣).
والبيهقي (٣٦/٦) كتاب الرهن : باب جواز الرهن، كلهم من حديث قتادة عن أنس أنه مشى إلى النبي - ﷺ - بخبز شعير وإهالة سَبَخَه ولقد رهن النبي - ﷺ - درعاً له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيراً لأهله ولقد سمعته يقول : ما أمسى عند آل محمد - ﷺ - صاع بر ولا صاع حب وإن عنده لثنع نسوة...

وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

قال الحافظ ابن حجر :

(١) قوله «مؤنة مجيئه من بلد» لعله من بلد بعيد. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : لم شرط السفر في الارتهان ولا يختص به سفر... إلخ» قال أحمد رحمه الله : فالخصيص بالسفر على هذا جرى على وفق الغالب فلا مفهوم له. وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضي الله عنه في إقامة الرهن عند التنازع في قدر الدين مقام شاهد للمرتهن إلى تمام قيمته، حتى لو تنازعا فقال الراهن : رهنك بمائة، وقال المرتهن : بل الرهن بمائتين، لكان الرهن شاهداً بقيمته. خلافاً للشافعي رضي الله عنه فإنه يرى القول قول الراهن مطلقاً، لأنه غارم، ووجه الدليل لمالك رضي الله عنه من الآية : أن الله تعالى جعل الرهن في التوثق عوضاً من الإشهاد والكتابة، وخصه بالسفر لإعواهما حينئذ، ولو كان القول قول الراهن شرعاً لم يكن قائماً مقام الإشهاد ولا مفيداً فائدته بوجه، إذ لو لم يكن الرهن لكان القول قول المديان في قدر الدين فلم يزد وجود الرهن فائدة على عدمه باعتبار نيابته عن الإشهاد، ولا يقال : إن فائدته الامتياز به على =

(٢١٠) قلت: ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة، ولكن السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر، بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد، وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر الآية، وأما القبض فلا بد من اعتباره^(١)، وعند

== متفق عليه من رواية الأسود بن يزيد عن عائشة. أن النبي - ﷺ - اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل ورهته درعاً من حديد، وللبخاري من رواية قتادة عن أنس قال: «ولقد رهن رسول الله - ﷺ - درعاً له بالمدينة عند يهودي، وأخذ منه شعيراً لأهله. انتهى.

== الغرماء، لأن تلك فائدة الإشهاد حتى يكون نائباً عنه عند تعذره، ولا فائدة إذ ذاك إلا جعل القول قول المرتهن في قدر الدين عند التخالف وهو مذهب مالك المقدم ذكره. ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا في قيمته لا فيما زاد عليها، معتضداً بالعادة في أن رب الدين لا يقبل في دينه إلا الموفى بقيمته. فدعوة أن الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة، والمديان أيضاً لا يسمح بتسليم ما قيمته أكثر فيما هو أقل، فدعواه أن الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة، ولا يبقى إلا النظر في أمر واحد، وهو أن المعتبر عند مالك في القيمة يوم الحكم، حتى لو تصادقا على أن القيمة كانت يوم الرهن أكثر أو أقل لم يلغى ذلك إلى ذلك زادت أو نقصت، وإنما يعتبر يوم القضاء. ولقائل أن يقول: إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه لأن العادة تقتضي أن الناس إنما يرهنون في الديون المساوي قيمته لها، فينبغي أن تعتبروا القيمة يوم الرهن غير مرجح على زيادتها ونقصانها يوم القضاء، وعند ذلك يتجاذب أطراف الكلام في أن المقتضي لإقامته مقام الشاهد هو المعنى المتقدم أو غيره. وليس غرضنا إلا أن الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة في الجملة. وأما تفاصيل المسألة فذلك من حظ الفقه.

(١) قال محمود: «وأما القبض فلا بد من اعتباره... إلخ» قال أحمد رحمه الله: ليس بين مالك والشافعي خلاف في صحة الارتهان بالإيجاب والقبول دون القبض، ولكنه عند مالك رضي الله عنه يصح بذلك، ويلزم الرهن بالعقد تسليمه للمرتهن. وعند الشافعي لا يلزم بالعقد ولكن للقبض عند مالك اعتبار في الابتداء والدوام، ولا يشترط الشافعي كثيراً من أحكامه عند مالك، وذلك أنهما لو تقرارا على القبض ثم قام الغرماء انتفع بالرهن عند الشافعي وامتناز به، ولم يتنفع به عند مالك وكان أسوأ الغرماء فيه، حتى ينضاف إلى الشهادة عليهما بالقبض معانة البينة لذلك، لأنه يتهمهما بالتواطؤ على إسقاط حق الغرماء فلا يعتبر إقرارهما إلا بانضمام المعانة، فالقبض من هذا الوجه أدخل في الاعتبار على رأي مالك منه على رأي الشافعي، هذا في الابتداء. وأما في الدوام فمالك رضي الله عنه يشترط بقاءه في يد المرتهن حتى لو عاد إلى يد الراهن بأن أودعه المرتهن إياه أو أجره منه أو أعاره إياه إغارة مطلقة فقد خرج من الرهن، ولو قام الغرماء وهو بيد الراهن بوجه من الوجوه المذكورة كان أسوأ الغرماء فيه، والشافعي رضي الله عنه لا يشترط دوام القبض على هذا الوجه، بل الراهن عند الشافعي أن يتنفع بالرهن ولو كره المرتهن إذا لم يكن الانتفاع مضراً بالرهن، كسكنى الدار، واستخدام العبد. وله أن يستوفي منافعه بنفسه على الصحيح عنده المنصوص عليه في الأم ولا يؤثر ذلك في الرهن بطلاناً ولا خلاً، فقد علمت أن القبض أدخل في الاعتبار على مذهب مالك ابتداء ودواماً، والآية تعضده فإن الرهن في اللغة هو الدوام. أنشد أبو علي:

= فالخبز واللحم لهم راهن وقهوة راووقها ساكب

مالك يصح الارتهان بالإيجاب والقبول بدون القبض، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين^(١) لحسن ظنه به، وقرأ أبي ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ أي: آمنه الناس^(٢) ووصفوا المدينين بالأمانة والوفاء والاستغناء عن الارتهان من مثله، ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مَنَّهُ﴾: حث المدين على أن يكون عند ظن الدائن به وأمنه منه واتمناه له، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه، وسمي الدين أمانة وهو مضمون لائتمانه عليه بترك الارتهان منه، والقراءة أن تنطق بهزمة ساكنة بعد الذال أو ياء، فتقول: الذي أؤتمن، أو الذي تمن، وعن عاصم أنه قرأ: «الذي ائتمن»، بإدغام الياء في التاء، قياساً على اتسر في الافتعال من اليسر، وليس بصحيح. لأن الياء منقلبة عن الهمزة، فهي في حكم الهمزة و«اتزر» عامي، وكذلك ربا في رؤيا، ﴿يَأْتِيكُمُ﴾: خبر إن، و﴿قُلُوبُهُ﴾: رفع بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه، ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء، وآثم خبر مقدم، والجملة خبر إن. فإن قلت: هلا اقتصر على قوله: ﴿فَإِنَّهُ يَأْتِيكُمُ﴾؟ وما فائدة ذكر القلب - والجملة هي الآثمة لا القلب وحده -؟ قلت: كتمان الشهادة: هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكانه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه، ولثلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه، ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تنشعب منها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معازم الذنوب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أكبر الكبائر

= ولعل القائل باشتراط دوام الرهن في يد المرتهن بما في لفظ الرهن من اقتضاء الدوام، وله في ذلك متمسك. وما طولت في حكاية مذهب مالك في القبض، إلا لأن المفهوم من كلام الزمخشري إطرار القبض عند مالك لأنه فهم من قول أصحابه أن القبض لا يشترط في صحة الرهن. ولا في لزومه أنه غير معتبر عنده بالكلية، والله أعلم.

(١) قوله «المدينين لحسن ظنه به» لعله مسموع شاذ، والقياس المدينين، وكذا المدينون قياسه المدين. (ع)

(٢) قوله «أي آمنه الناس» الظاهر أنه من الإفعال بالكسر، لا من المفاعلة، أي جعل الناس البعض وهو الدائن بحيث يأمن البعض الآخر وهو المدين، وذلك بأن وصفوا له المدين بالأمانة إلخ، فصار الدائن بحيث يأمن المدين. (ع)

الإشراك بالله لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، (٢١١) وقرئ: «قلبه»، بالنصب، كقوله: «سَفِهَ نَفْسَهُ» [البقرة: ١٣٠] وقرأ ابن أبي عبيدة: «أثم قلبه»، أي: جعله أثماً^(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبٰدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُعَٰصِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿وَإِنْ تُبٰدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ﴾: يعني من سوء «يُعَاصِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ» لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره، «وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ»: ممن استوجب العقوبة بالإصرار، ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان: الوسواس وحديث النفس، لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى حتى سمع نشيجه^(٢) فذكر لابن عباس فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن. قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد فنزل، ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ﴾: (٢١٢) وقرئ: «فيغفر» و«يعذب»، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب. فإن قلت: كيف يقرأ الجازم؟ قلت: يظهر الراء ويدغم الياء، ومدغم الراء في اللام لاحن مخطيء خطأ فاحشاً، وراويہ عن أبي عمرو مخطيء مؤتمن، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة

٢١١ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠٠/٦) رقم (٦٤٤٧).

٢١٢ - أخرجه الطبري (١٠٦/٦) رقم (٦٤٥٩) والطبراني في «الكبير» (٣٨٤/١٠) رقم (١٠٧٦٩) كلاهما من طريق الزهري عن سعيد بن مرجانة عن ابن عمر.

وله طريق آخر عن ابن عمر.

أخرجه الحاكم (٢٨٧/٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٧/١) رقم (٣٢٩) من طريق سالم عن ابن عمر بنحو الطريق الأول.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال الحافظ:

أخرجه الطبري من طريق الزهري عن سعيد بن مرجانة عن ابن عمر به.

وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن ابن عمر. انتهى.

(١) قوله «أثم قلبه أي جعله أثماً» يحتمل أنه بمد الهمزة من الأفعال، وأنه بتشديد التاء من التفعيل، فليحذر. (ع)

(٢) قوله «حتى سمع نشيجه» في الصحاح: نشج الباكي نشجاً ونشيجاً، إذا غص بالبكاء في حلقة من غير انتحاب. (ع)

الدرية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو، وقرأ الأعمش: «يغفر» بغير فاء مجزوماً على البدل من «من يحاسبكم»، كقوله [من الطويل]:

مَتَى تَأْتِينَا تُلِمُّنَا بِئَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْباً جَزْلاً وَنَاراً تَأْجِجَا^(١)

ومعنى هذا البدل التفصيل لجملة الحساب، لأن التفصيل أوضح من المفصل، فهو جار مجرى بدل البعض من الكل أو بدل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله، وهذا البدل واقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝١٢٨﴾

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: إن عطف على الرسول كان الضمير - الذي التنوين نائب عنه في كل - راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين^(٢)، ووقف عليه، وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين، ووجد ضمير ﴿كُلِّ﴾ في ﴿ءَاَمَنَ﴾ آمن على معنى: كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله: ﴿كُلُّ أَتَوُّهُ دَخِيرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقرأ ابن عباس: «وكتابه»، يريد القرآن أو الجنس^(٣) وعنه الكتاب أكثر من الكتب. فإن قلت: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ قلت: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس - والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها - لم يخرج منه شيء. فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع^(٤)، ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾: يقولون لا نفرق، وعن أبي

(١) «تلمم» بدل مما قبله، أي متى تنزل عندنا تجدنا موقعين النار يحطب غليظ، وهذا كناية عن كرمهم. وتأججاً: مسند لضمير الحطب والنار، أي اشتعلا، واستدل بهما. وإسناده للنار حقيقي، وللحطب من باب الإسناد للسبب، فهو مجاز عقلي وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز في الإسناد. والبيت لعبيد الله بن الحر الجعفي. ينظر: الكتاب (٨٦/٣)، شرح المفصل (٥٣/٧)، الدرر (٢/١٦٦)، الخزانة (٦٦٠/٣) والإنصاف (٥٨٣/٢) والهمع (١٢٨/٢) وشرح الأشموني (١٣١/٣)، القرطبي (٢٦١/١)، والدر المصون (١١٣/١).

(٢) قوله «ورسله من المذكورين» لعل قبله سقطاً تقديره: أي كل من المذكورين. (ع)

(٣) قال محمود: «نقل عن ابن عباس أنه قرأ وكتابه... إلخ» قال أحمد: وقد قال مالك: إن التمر أخرى باستغراق الجنس من الثمر، فإن التمر استرسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمر يرد إلى تخيل الوجدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع وفي صيغة الجمع مضطرب. وهذا الكلام من الإمام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا لأشهر الفرضية في الاستشهاد به على صحة مقاله هذه فلا نعيده.

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليس كما ذكر؛ لأن الجمع متى أضيف أو دخلته الألف واللام الجنسية صار عائماً، ودلالة العام دلالة على كل فرد فرد، فلو قال: «أَغْتَشَّ عَيْدِي» لشمّل ذلك كل عيّد له، ودلالة الجمع أظهر في العموم من الواحد سواء كانت فيه الألف واللام أو الإضافة، بل لا =

عمرو: «يفرق» بالياء، على أن الفعل لكل، وقرأ عبد الله: «لا يفرقون»، و﴿أَحَدٌ﴾: في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] ولذلك دخل عليه بين.، ﴿سَمِعْنَا﴾: أجبتنا، ﴿عَفَرْنَا﴾: منصوب بإضمار فعله. يقال: غفرانك لا كفرانك، أي: نستغفرك ولا نكفرك وقرئ: «وكتبه ورسله» بالسكون.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى:، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾: [البقرة: ١٨٥] لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة، وقرأ ابن أبي عتبة «وسعها» بالفتح، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾: ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها. فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهي النفس وهي منجذبة إليه وأثارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجذ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لادلالة فيه على الاعتمال. أي: لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا. فإن قلت: النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخظة بهما^(١)؟ قلت: ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما

يَذْهَبُ إِلَى الْعَمومِ فِي الْوَاحِدِ إِلَّا بِفَرِيضَةٍ لَفْظِيَّةٍ؛ كَأَن يُسْتَفْتَى مِنْهُ أَوْ يوصَفُ بِالْجَمْعِ؛ نَحْوُ: ﴿إِنَّ الْأَنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ «أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض» أو فَرِيضَةً مَعْنَوِيَّةً نَحْوُ: «نَيْتُ الْمُؤْمِنِ أَيْلُغٌ مِنْ عَمَلِهِ» وَأَقْصَى حَالِهِ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْجَمْعِ الْعَامِّ إِذَا أُريدَ بِهِ الْعَمومُ؛ قُلْتُ: لِلنَّاسِ خِلَافٌ فِي الْجَمْعِ الْمُحَلَّى بِأَنَّ أَوْ الْمَضَافَ: هَلْ عَمومُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَرَاتِبِ الْجَمْعِ أَمْ إِلَى أَعْمٍ مِنْ ذَلِكَ، وَتَحْقِيقُهُ فِي عِلْمِ الْأَصُولِ. انْتَهَى. الدَّر المصنوع.

(١) قال محمود: «فإن قلت النسيان والخطأ متجاوز عنهما... إلخ» قال أحمد: ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة، لأننا نقول: إنما ارتفعت المؤاخظة بهذين بالسمع كقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمي الخطأ والنسيان» وإذا كان كذلك فلعل رفع المؤاخظة بهما كان إجابة لهذه الدعوة، فقد نقل أن الله تعالى قال عند كل دعوة منها: قد فعلت. وإنما التزم الزمخشري ورود السؤال على قواعد القدرة الذاتية إلى استحالة المؤاخظة بالخطأ والنسيان عقلاً، لأنه من تكليف ما لا يطيق، وهو المستحيل عندهم تفريعاً على قاعدة التحسين والتفحيح، وكلها قواعد باطلة ومذاهب =

مسيبان عنه من التفريط والإغفال. ألا ترى إلى قوله: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ [الكهف: ٦٣] والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق ثقافته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيداناً ببراءة ساحتهم عما يواخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يواخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان، ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه، والإصرار: العيب الذي يأصر حامله أي: يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاق، من نحو قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك، وقرئ: «أصاراً» على الجمع، وفي قراءة أبي: «ولا تحمل علينا» بالتشديد. فإن قلت: أي فرق بين هذه التشديدة والتي في، ﴿وَلَا تُكَلِّمْنَا﴾؟ قلت: هذه للمبالغة في حمل عليه، وتلك لنقل حمله من مفعول واحد إلى مفعولين، ﴿وَلَا تُكَلِّمْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾: من العقوبات النازلة بمن قبلنا، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها، وقيل: المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكليف، وهذا تكرير لقوله: ﴿وَلَا تَعْيِلْ عَلَيْنَا إِسْرًا﴾. ﴿مَوْلَانَا﴾: سيدنا ونحن عبيدك. أو ناصرنا. أو متولي أمورنا، ﴿فَأَنْصَرْنَا﴾: فمن حق المولى أن ينصر عبيده. أو فإن ذلك عادتكم. أو فإن ذلك من أمورنا التي عليك توليها، وعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما دعا بهذه الدعوات، قيل له عند كل كلمة: قد فعلت» (٢١٣) وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ الآيتين من

٢١٣ - أخرجه مسلم (٤٢٢/١) نووي: كتاب الإيمان: باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف... حديث (١٢٦/٢٠٠).

والحاكم في المستدرک (٢٨٦/٢، ٢٨٧) عن سعيد بن جبیر.
والترمذی فی سننه (٢٢١/٥): کتاب التفسیر: باب ومن سورة البقرة حديث (٢٩٩٢) وأحمد (١/٢٣٣) والنسائي في التفسير (٢٩٣/١)، حديث (٧٩)، والطبري (١٠٤/٦، ١٠٥)، حديث (٦٤٥٧)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٤٥٨/١١، ٤٥٩)، حديث (٥٠٦٩).
قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه مسلم من رواية سعيد بن جبیر عن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ... الآية﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم. فقال: قولوا: سمعنا وأطعنا - الحديث، وفيه: قد فعلت. في مواضع، وغفل الحاكم فاستدركه. انتهى.

= ماحلة. فالله تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ويلهمنا المعتقد الحق والقول المصيب، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» (٢١٤) وعنه عليه الصلاة والسلام: «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتتهن نبي قبلي» (٢١٥) وعنه - عليه السلام -: «أنزل الله

٢١٤ - أخرجه البخاري (٦٧٢/٨) كتاب فضائل القرآن: باب فضل سورة البقرة حديث (٥٠٠٩) ومسلم (٥٥٥/١) كتاب صلاة المسافرين: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٨٠٧/٥٥) وأبو داود (٤٤٤/١) كتاب الصلاة: باب تحزيب القرآن حديث (١٣٩٧) والترمذي (١٥٩/٥) كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في آخر سورة البقرة حديث (٢٨٨١) والنسائي في «الكبرى» (٩/٥) كتاب فضائل القرآن باب سورة كذا وسورة كذا حديث (٨٠٠٣)، و(١٤/٥) باب الآيات من آخر سورة البقرة حديث (٨٠١٨) وأحمد (١٢١/٤، ١٢٢) وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص ١٠٥ - ١٠٦) رقم (٢٣٣) وعبد الرزاق (٣٧٧/٣) رقم (٦٠٢٠) والدارمي (٢٨٨/١) وسعيد بن منصور (٤٧٥) وابن الفريس في «فضائل القرآن» (ص - ٨٣) رقم (١٦١) والطبراني في «الكبير» (١٧/٢٠٤ - ٢٠٥) رقم (٥٥٠، ٥٥٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠/٣) كتاب الصلاة: باب كم يكفي الرجل قراءة القرآن في ليلة، وفي «شعب الإيمان» (٢/٤٦٢) رقم (٢٤٠٥)، (٢٤٠٦) كلهم من طريق منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنت أحدث عن أبي مسعود حديثاً فلقيته وهو يطوف بالبيت فسألته فحدثت عن النبي - ﷺ - أنه قال: من قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت: والذي حدث عبد الرحمن بن يزيد بهذا الحديث هو علقمة بلا شك.

فأخرجه البخاري (٧١٢/٨) كتاب فضائل القرآن باب في كم يقرأ القرآن حديث (٥٠٥١).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن مسعود. واختلف في معناه. فقيل: كفتاه: أجزأته عن قيام الليل كما في الذي قبله، وقيل: كفتاه: أجزأه فضلاً، وقيل: كفتاه من كل شيطان أو من كل آفة. انتهى.

٢١٥ - أخرجه مسلم (٦/٣ نووي): كتاب المساجد: باب (٥)، حديث (٥٢٢/٤).

والنسائي (١٥/٥ كبرى): كتاب فضائل القرآن: باب الآيات من آخر سورة البقرة، حديث (٨٠٢٢) وأحمد (٣٨٣/٥) والحاكم في المستدرک (١/٥٦٣): كتاب فضائل القرآن.

وصححه ابن حبان في صحيحه (٥٩٥/٤)، حديث (١٦٩٧)، وابن خزيمة (١/١٣٢)، حديث (٢٦٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٢٢٣): كتاب الطهارة: باب عواذ الماء بعد طلبه، وفي الشعب (٢/٤٦٠)، حديث (٢٣٩٩) وفي الدلائل (٥/٤٧٥)، وذكره الزيلعي (١/١٧١، ١٧٩) حديث (١٧٩) وزاد نسبه إلى البزار وابن أبي شيبه عن ربيعي بن حراش عن حذيفة به.

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٦٠)، حديث (٢٤٠٤) وأحمد (٥/١٥١) والحاكم (١/٥٦٢) بلفظ إن الله ختم البقرة... وذكره الزيلعي (١/١٧١)، حديث (١٧٩) وزاد في نسبه إلى إسحاق ابن راهويه.

قال الحافظ ابن حجر:

هذا طرف من حديث. أوله عن حذيفة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثَ: جُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً وَجُعِلَتْ تَرْتِيبُهَا لَنَا طَهُوراً، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأُوتِيتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ آخِرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَ مِنْهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يُعْطَى مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدِي: أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْبَزَارُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حَبَّانٍ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي =

آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قراءهما بعد العشاء الآخرة أجزأتهما عن قيام الليل» (٢١٦). فإن قلت: هل يجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة أو قرأت البقرة. قلت: لا بأس بذلك، وقد جاء في حديث النبي ﷺ «من آخر سورة البقرة» و«خواتيم سورة البقرة» و«خواتيم البقرة»: (٢١٧).

وعن علي رضي الله عنه «خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش» (٢١٨).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنه رمى الجمرة ثم قال «من ههنا - والذي لا إله غيره - رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة» (٢١٩)

== مالك الأشجعي عن ربيعي بن خراش عن حذيفة، وقد أخرجه مسلم، لكن قال في الثالثة وذكر خصلة أخرى: فأبهمها، وذكرها أصحاب المستخرجات وغيرهم من طريق شيخه بإسناده فيه، وغفل الحاكم فذكر في فضائل القرآن في المستدرک: أن مسلماً أخرج هذه الجملة، ولعل مسلماً إنما أبهمها للاختلاف على ربيعي فيها، فقد رواه أحمد وإسحاق من رواية جرير عن منصور عن ربيعي عن خراش عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش لكن تابع أبو مالك نعيم بن أبي هند، أخرجه الطبراني في الأوسط في المحمدين منه من طريقه. انتهى.

٢١٦ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٥٤٥/٧) والسهامي في «تاريخ جرجان» (٢٦٨).

وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٦٩/١) وعزاه لابن عدي والسهامي.

وكذا فعل السيوطي في «الدر المنثور» (١/٦٦٩).

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود وفي إسناده الوليد بن عباد وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك.

٢١٧ - تقدم برقم (٢١٤).

قال الحافظ: تقدماً جميعاً قريباً، ولمسلم من حديث مرة بن شراحيل الطبيب عن ابن مسعود: أعطى رسول الله - ﷺ - ثلاثاً: الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة - الحديث. وله عن ابن عباس: بينما جبريل عند النبي - ﷺ - إذ نزل ملك - الحديث وفيه: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة. انتهى.

٢١٨ - أخرجه الدارمي (٤٤٩/٢): كتاب فضائل القرآن: باب فضل أول سورة البقرة وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٦٦٩) وعزاه للدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس وابن مردويه عن علي: ما كنت أرى أن أحداً... إلى أن قال: وإنهم عن كثر تحت العرش.

٢١٩ - أخرجه البخاري (٥٨١/٣): كتاب الحج: باب يكبر مع كل حصاة، حديث (١٧٥٠)، ومسلم (٩٤٢/٢): كتاب الحج: باب رمي جمرة العقبة من بطن الوادي، وتكون مكة عن يساره، ويكبر مع كل حصاة، حديث (١٢٩٦/٣٠٥)، وأبو داود (٤٩٧/٢): كتاب المناسك (الحج): باب في رمي الجمار، حديث (١٩٧٤)، والترمذي (٢٤٥/٣)، كتاب الحج: باب ما جاء: كيف ترمي الجمار، حديث (٩٠١)، والنسائي (٢٧٣/٥): كتاب الحج: باب المكان الذي ترمي منه جمرة العقبة، وابن ماجه (١٠٠٨/٢): كتاب المناسك: باب من أين ترمي جمرة العقبة، حديث (٣٠٣٠)، وأحمد (٤١٥/١). والطيالسي (٢٢٣/١ - منحة) رقم (١٠٨٢) والحميدي (٦١/١) رقم =

ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف وسورة الممتحنة وسورة المجادلة، وإذا قيل: قرأت البقرة، لم يشكل أن المراد سورة البقرة كقوله: ﴿وَسَلِّ الْفَرِيَّةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وعن بعضهم أنه كره ذلك وقال: يقال قرأت السورة التي تذكر فيه البقرة.

عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإن تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة». قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة» (٢٢٠).

= (١١١) وابن خزيمة (٢٧٨/٤) رقم (٢٨٧٩)، (٢٨٨٠) وأبو يعلى (٣٨٦/٨) رقم (٤٩٧٢) والبيهقي (١٢٩/٥) كتاب الحج: باب رمي الجمرة من بطن الوادي والبغوي في «شرح السنة» (١٠٨/٤) - بتحقيقنا).

من طريق عبد الرحمن بن يزيد قال: «رمى عبد الله بن مسعود جمره العقبة من بطن الوادي بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، قال: فقيل له: إن أناساً يرمونها من فوقها، فقال عبد الله بن مسعود: هذا والذي لا إله غيره مقام الذي أنزل عليه سورة البقرة».

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الحافظ: متفق عليه من رواية الأعمش: سمعت الحجاج بن يوسف على المنبر يقول: السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران. والسورة التي يذكر فيها النساء. قال: فذكرته لإبراهيم فقال: حدثني عبد الرحمن بن يزيد أنه كان مع ابن مسعود حين رمى جمره العقبة... الحديث. انتهى.

٢٢٠ - قال الزليعي (١٧٣/١)، حديث (١٨٢): غريب بهذا اللفظ.

وأخرجه مسلم (٣٤٩/٣) نووي: كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن، حديث (٨٠٤) وأحمد (٢٤٩/٥، ٢٥٧، ٢٥٤) وصححه ابن حبان (٣٢٢/١)، حديث (١١٦)، والحاكم في مستدركه (١/٥٦٤): كتاب فضائل القرآن، والدارمي (٢/٤٣٢): كتاب فضائل القرآن: والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٣٩٥، ٣٩٦): كتاب الصلاة: باب المعاهد على قراءة القرآن وعبد الرزاق (٣/٣٦٥، ٣٦٦)، حديث (٥٩٩١)، والطبراني في الكبير (٨/١٣٨)، حديث (٧٥٤٢). وذكره الزليعي في تخريج الكشاف (١/١٧٣)، حديث (١٨٢).

وعزه للثعلبي والبغوي من حديث بريدة أيضاً.

قال الحافظ: ذكر أبو شجاع الديلمي في الفردوس. من حديث أبي سعيد الخدري: والمسألة في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة مرفوعاً: اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة. قال معاوية أحد رواة: المعنى أن البطلة السحرة. وفي الباب عن بريدة عند الثعلبي والبغوي.

(تنبيه) المصنف ذكر حديث أبي سعيد مستدلاً به أن قال: السورة التي يذكر فيها كذا. ولما قبله على الجواز. فإنه من المرفوع ما رواه الطبراني في الأوسط في المحدثين وابن مردويه في تفسيره من حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه رفعه: «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله، وفي إسناده عيسى بن ميمون أبو سلمة الخواص، وهو ساقط. انتهى.

سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَّمَ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾

«م» حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها كما تقول: واحد اثنان: وهي قراءة عاصم، وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف. فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام فلا تثبت حركتها لأن ثبات حركتها كسبائها؟ قلت: هذا ليس بدرج، لأن (م) في حكم الوقف والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنما حذفت تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال^(١). فإن قلت: هلا زعمت أنها حركة لالتقاء الساكنين؟ قلت: لأن التقاء الساكنين لا يبالي به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمين في ألف لام ميم، لالتقاء الساكنين، ولما انتظر

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «جوابه ليس بشيء؛ لأنه ادعى أن الميم حين حركت موقوف عليها، وأن ذلك ليس بذرج، بل هو وقف وهذا خلاف ما أجمعت عليه العرب والنحاة من أنه لا يوقف على متحرك ألينة، سواء كانت حركته إعرابية أم بنائية أم نقلية، أم لالتقاء الساكنين، أم للاتباع، أم للحكاية؛ فلا يجوز في «قد أفصح» إذا حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى دال «قد» أن تقف على دال قد بالفتحة بل تسكنها قولاً واحداً». وأما قوله: «ونظير ذلك «واحد اثنان» بإلقاء حركة الهمزة على الدال فإن سبويه ذكر أنهم يشمون آخر واحد» لثمكته، ولم يحك الكسر لغة، فإن صح الكسر فليس «واحد» موقوفاً عليه كما زعم الزمخشري، ولا حركته حركة نقل من همزة الوصل، ولكنه موصول بقولهم: اثنان فالتقى ساكتان: دال واحد وئاء اثنان فكسرت الدال لالتقاء الساكنين وحذفت همزة الوصل لأنها لا تثبت في الوصل. انتهى. الدر المصون.

ساكن آخر^(١). فإن قلت: إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم، لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك فحركوا. قلت: الدليل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، يسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا بين ساكنين، كما قالوا: أصيم، ومديق. فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين^(٢). فإن قلت: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ قلت: هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين وما هي بمقولة، و﴿الْأَنْزِيلَ وَالْإِنْجِيلَ﴾: اسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الوري والنجل ووزنهما بتفعلة وأفعيل، إنما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: «الأنجيل»، بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة، لأن أفعيل - بفتح الهمزة - عديم في أوزان العرب. فإن قلت: لم قيل ﴿نزل الكتاب﴾^(٣)، ﴿وَأَنزَلَ الْتَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة، وقرأ الأعمش: «نزل عليك الكتاب» بالتخفيف ورفع الكتاب، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾: أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال نحن متعبدون بشرائع من قبلنا فسرّه على العموم. فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية^(٤)، لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل أو الكتب التي ذكرها كأنه قال

- (١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهو سؤال صحيح وجواب صحيح، لكن الذي قال: «إن الحركة هي لالتقاء الساكنين» لا يتوهم أنه أراد التقاء الياء والميم من «الم» في الوقف، وإنما عني التقاء الساكنين اللذين هما ميم ميم الأخيرة ولام التعريف كالتقاء نون «من» ولام الرجل إذا قلت: «من الرجل» قلت: هذا الوجه هو الذي قدمته عن بعضهم وهو مكى وغيره. انتهى. الدر المصون.
- (٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وفي سؤاله تعمية في قوله: «فإن قلت: لم يحركوا لالتقاء الساكنين» ويعني بالساكنين: الياء والميم وحيثنذ يجيء التعليل بقوله: «أنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين» يعني الياء والميم. ثم قال: «فإذا جاء ساكن ثالث - يعني لام التعريف - لم يكن إلا التحريك - يعني في الميم - فحركوا - يعني الميم - لالتقاءها ساكنة مع لام التعريف؛ إذ لو لم يحركوا لاجتمع ثلاث ساكنين وهو لا يمكن». انتهى. الدر المصون.
- (٣) قال محمود: «فإن قلت: لم قيل في القرآن نزل... إلخ» قال أحمد: يريد لأن «فعل» صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً كان أكثر تنزيلاً من غيره لفرقه في مرار عديدة، فعبّر عنه بصيغة مطابقة لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة والتكثير والله أعلم.
- (٤) (عاد كلامه) قال: والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي ذكرها أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور. كما أفرده وأخر ذكره في قوله ﴿وَمَا يَكُنَّا دَاوُدَ وَزُورًا﴾ أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله والله أعلم. قال أحمد: وقد جعل الزمخشري سر التعبير عن نزول القرآن بصيغة «فعل» تفرقه في التنزيل كما تقدم آنفاً، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن والتعبير عنه بأفعل كغيره، فإن يكن هذا - والله أعلم - فالوجه أنه لما عبّر أولاً عن نزوله الخاص به، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى ذكره ثانياً لينعت بصفة زائدة =

بعد ذكر الكتب الثلاثة: وأنزل ما يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور، كما قال: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وهو ظاهر. أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس، تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من كتبه المنزلة وغيرها، ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ له انتقام شديد^(١) لا يقدر على مثله منتقم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾: في العالم فعبّر عنه بالسما والارض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه، ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾: من الصور المختلفة المتفاوتة، وقرأ طاوس: «تصوّرکم»، أي: صوّرکم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالا، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتأثلته، إذا أثلته لنفسك، وعن سعيد بن جبیر: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، كأنه نبه بكونه مصوراً في الرحم، على أنه عبد كفيّره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾: أحكمت عبارتها^(٢) بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾:

= على اسم الجنس، عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميّزه أولاً وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى: الكلام يجمل في غير مقصوده، ويفصل في مقصوده.

(١) قال محمود: «معناه له انتقام شديد... إلخ». قال أحمد: وإنما يلقي هذا التفسير من التنكير وهو من علاماته مثله في قوله ﴿فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو الرَّحْمَةِ وَرَبِّكُمْ﴾.

(٢) قال محمود: «المحكمات التي أحكمت عبارتها... إلخ». قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي على وفق ما يعتقد، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي. وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله ﴿إِنَّ رَبَّنَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَافِقٌ﴾ ﴿مَالُوا إِلَىٰ جَعَلَهُ مِنَ الْمُتَشَابِهَةِ حَتَّىٰ يَرُدُّوهُ بَزْعَمِهِمْ إِلَىٰ الْآيَةِ الَّتِي يَدْعُونَ أَنَّ ظَاهِرَهَا يُوَافِقُ رَأْيَهُمْ. وَالْآيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فنقول: محمل قوله ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في دار الدنيا. ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعاً بين الأدلة. أو نقول =

مشتبهات محتملات، ﴿مَنْ أُمِّ الْكَذِبِ﴾: أي: أصل الكتاب تحمل المشتبهات عليها وترد إليها، ومثال ذلك ﴿لَا تُذَكِّرْهُ الْآنَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿إِنَّ رَبَّهَا تَابِطٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، ﴿لَا يَأْتُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]. فإن قلت: فهلا كان القرآن كله محكماً؟ قلت: لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المشتبه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المشتبه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه، ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ﴾: هم أهل البدع، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾: فيتعلقون بالمشتبه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق، ﴿إِنِّيئَةً أَلْهَنُوا﴾: طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم، ﴿وَأَتَّبَعَهُ تَأْوِيلُهُ﴾: وطلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه، ﴿وَمَا يَسْكَمْ تَأْوِيلُهُ﴾: إلا الله والرّسول في

= الأَبصار وإن كانت ظاهرة العموم إلا أن المراد بها الخصوص، أي لا تذكره أبصار الكفار كقوله ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [١٥] ونقول: لا تعارض بين الآيتين. فنقر كل واحدة منها في نصائها. وبيان ذلك: أن الأَبصار عام بالآلف واللام الجنسيتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذ يكون في العموم مرادفة لدخول كل، لأن كليهما أعني المعروف والجنسي، وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا أثبت ذلك فالسلب داخل على الكلية. والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئي لغة وتعقلاً. ألا ترى أن القائل إذا قال: لا تنفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الإنفاق في إنفاق البعض والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد ولو واحداً، وحينئذ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأَبصار وثبوتها لبعض الأَبصار، وهذا عين مذهب أهل السنة، لأنهم يثبتونها للموحدين ويسلبونها عن الكفار كما أنبأ عنه قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [١٥] فقد ثبت أن هذه الآية إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها، دليلاً على ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعروف تعريف الجنس وبين عدم دخولها. ألا ترى أنهم يقولون إن قولنا: «الإنسان كاتب» مهمل في قوة الجزئية، وإن قولنا «كل إنسان حيوان» كلي لا جزئي. لانا نقول إنما جارينا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأَبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام، ولكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملًا، بل هذا هو الكلي عندهم والله الموفق. وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْتُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والأخرى التي هو قوله تعالى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَّوْا فِيهَا﴾ فلا ينازع الزمخشري في تعثيل المحكم والمشتبه بهما.

أَلَيْسَ: أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله^(١) وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكنوا فيه بضرر قاطع، ومنهم من يقف على قوله (إلا الله)، ويتبدى «وَالرَّاسِخُونَ فِي أَلْيَرِ يَقُولُونَ» ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه، والأوّل هو الوجه، ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل، «يَقُولُونَ أَمَّا بِي» أي: بالمتشابه، «كُلٌّ يَنْ عِنْدَ رَبِّنا»: أي: كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه، «وَبِنا يَلْكَرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبِبي»: مدح للراسخين بالبقاء الذهن وحسن التأمل ويجوز أن يكون، «يَقُولُونَ»: حالا من الراسخين، وقرأ عبد الله: «إن تأويله إلا عند الله»، وقرأ أبي: «ويقول الراسخون».

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّ رَعْبٍ فَبِئْسَ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ أَلَيْسَ كَ﴾

﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: لا تبلنا ببلايا تزيع فيها قلوبنا^(٢)، «بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا»: وأرشدتنا لدينك. أو لا تمنعنا الطافك بعد إذ لطفت بنا، «مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً»: من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرئ «لا تزغ قلوبنا»، بالتاء والياء ورفع القلوب، «جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّ رَعْبٍ»: أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْحَمْعِ» [التغابن: ٩]

(١) قال محمود: «معناه لا يهتدي إلى تأويله... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وقوله «لا يهتدي إليه إلا الله» عبارة قلق، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أن في هذه اللفظة إيهاماً إذ الاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال - جل الله عز - حتى إن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه: فلان المهتدي، ذلك مقتضى اللغة فيه فإنه مطاوع هدى. يقال: هديته فاهتدى، والإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موهماً لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل. ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه. فلان ينكر على الزمخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر. وما أراها صدرت منه إلا وهما حيث أضاف العلم إلى الله تعالى وإلى الراسخين في العلم، فأطلق الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه ذكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور والله أعلم.

(٢) قال محمود: «معناه ربنا لا تبلنا ببلايا... إلخ» قال أحمد: أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة، لأنهم يوحّدون حق التوحيد، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيف مخلوق لله تعالى. وأما القدريّة فعندهم أن الزيف لا يخلقه الله تعالى وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف به، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة بأن لا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه آمين، لأن الكل فعله وخلقه، ولا موجود إلا هو وأفعاله، التي نحن وأفعالنا منها.

وقرىء: «جامع الناس»، على الأصل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾: معناه أَنَّ الإلهية تنافي خلف الميعاد كقولك:

إِنْ الْجَوَاد لَا يَخِيب سَائِلَهُ

والميعاد: الموعد. قرأ علي - رضي الله عنه -: «لن تغني» بسكون الياء، وهذا من الجد في استتقال الحركة على حروف اللين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٧) كَذَابٌ بَالٍ فَرَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسْأَلُهُمُ (١٩)

﴿يُنَ﴾: في قوله:، ﴿يُنَ اللَّهُ﴾: مثله في قوله: ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ [النجم: ٢٨] والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله، ﴿شَيْئًا﴾: أي: بدل رحمته وطاعته وبدل الحق: ومنه: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي: لا ينفعه جده وحظه من الدنيا بذلك، أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: ٣٧] وقرىء: «وقود»، بالضم بمعنى أهل وقودها، والمراد بالذين كفروا من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير. الداب: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن تغني»، أو بالوقود. أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تُغْنِ عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كدأب أبيك تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإن فلاناً لمحارف كدأب^(١) أبيه، تريد كما حورف أبوه ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مافعلوا وفعل بهم، على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هم مشركو مكة، ﴿سَعْيُهُمْ﴾: يعني يوم بدر، وقيل: هم اليهود. لما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، وهموا باتباعه. فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا، وقيل جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقرش وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، فقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم

(١) قوله «وإن فلاناً لمحارف كدأب أبيه» في الصحاح: رجل محارف - بفتح الواو - أي محدود محروم، وهو خلاف قولك: مبارك. (ع)

بالحرب فأصبحت منهم فرصة، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، (٢٢١) فنزلت، وقرىء: «سِغْلَبُونَ وَيَحْشُرُونَ»، بالياء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٨] على قل لهم قولي لك سِغْلَبُونَ. فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم. فهو إخبار بمعنى سِغْلَبُونَ وَيَحْشُرُونَ وهو الكائن من نفس المتوعد به والذي يدل عليه اللفظ ومعنى القراءة بالياء الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. كانه قال: أذ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك سِغْلَبُونَ وَيَحْشُرُونَ.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾: الخطاب لمشركي قريش، ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾: يوم بدر، ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ﴾: يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين^(١) قريباً من الفين. أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله كما أمدهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: «ترونها»، بالتاء أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال ﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]. قلت: قللوا أولاً في أعينهم حتى اجترأوا عليهم فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: ﴿فَيُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ لَمْ يَسْأَلْ عَنْ دَلِيلِهِ إِشْرَ وَلَا جَبْرًا﴾ [الرحمن: ٣٩] وقوله تعالى:

٢٢١ - أخرجه أبو داود (١٥٤/٣): كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، حديث (٣٠٠١).
والطبري (٢٢٨/٦)، حديث (٦٦٦٨).
قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه أبو داود والطبري من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس قال «لما أصاب رسول الله - ﷺ - قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود - الحديث... انتهى.

(١) قال محمود: «معناه يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين... إلخ» قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدمة على رأي أهل السنة.

﴿وَقَوْمٌ لَّهُمْ مَسْجُودٌ﴾ [الصافات: ٢٤] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية، وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين^(١) على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ولذلك وصف ضعفهم^(٢) بالقللة لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم، وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مسرّف: «يرونهم»، على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي: يريهم الله ذلك بقدرته، وقرئ: «فئة تقاتل وأخرى كافرة»، بالجر على البدل من فنتين، وبالنصب على الاختصاص. أو على الحال من الضمير في «التفتنا»، ﴿وَأَمَّا الْكُفَّاءُ﴾: يعني رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معاينة كسائر المعاينات، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَتَّيَرِهِ﴾: كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

﴿يَنْبَغِي لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أَزْيَيْتُكُمْ بِغَيْرِ مَن ذَلِكُمْ لَئِنْ أَتَقُوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿الْقَادِرِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَضِيرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿١٧﴾

﴿يَرْبِيَنَّ لِلنَّاسِ﴾: المزين هو الله سبحانه وتعالى^(٣) للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى

(١) (عاد كلامه) قال: «وقيل يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين... إلخ» قال أحمد: إنما قال ذلك لأن الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثليين أيضاً للمسلمين. وقد جاء على لفظ الغيبة فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة والالتفات وإن كان سائفاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين. وقد جاء هنا الكلام جملة واحدة، لأن مثلهم مفعول ثانٍ للرؤية، ولو قال القائل: ظننتك يقوم، على لفظ الغيبة بعد الخطاب، لم يكن بذلك، فهذا هو الوجه الذي أعد الزمخشري به بين قراءة نافع وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفاً، لأنه قال: معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم أو مثلي فتتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة في الجملة بعينها، كما ألزمه هو على ذلك الوجه والله أعلم.

(٢) قوله «ولذلك وصف ضعفهم» لعل هذا في قوله تعالى ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ إذ التَّيَمُّنُ فِي أَغْيُنِكُمْ قَلِيلًا أي وصف ضعف المسلمين وهو السمتة بالقلّة، مع أن ضعف الشيء أكثر منه، فتدبر. (ع)

(٣) قال محمود: «المزين هو الله تعالى... إلخ» قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها =

الَّذِينَ زِينَةً مَّا يَسْتَلُوهُمْ ﴿الكهف: ٧﴾ ويدل عليه قراءة مجاهد: «زَيْنٌ للناس»، على تسمية الفاعل، وعن الحسن: الشيطان، والله زينها لهم، لأننا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها، ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: جعل الأعيان التي ذكرها شهوات^(١) مبالغة في كونها مشتتة محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مستزلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، وقال: «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ»: ثم جاء بالتفسير، ليقرر أولاً في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجع طلبها على طلب ما عند الله، والقنطار: المال الكثير. قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار، ولقد جاء الإسلام يوم جاء ويمكة مائة رجل قد قنطروا، و﴿الْمَقْنَطَرُ﴾: مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة، وبدرة مبدرة، و﴿الْمُسَوِّمَةُ﴾: المعلمة، من السومة وهي العلامة. أو المطهمة أو المرعية^(٢) من أسام الدابة وسومها، و﴿وَالْأَنْثَرِ﴾: الأزواج الثمانية، ﴿ذَلِكَ﴾: المذكور، ﴿مَكْنُ الْحَيَوَةِ﴾.

﴿يَلْبِثِينَ أَتَقْنَأُ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ﴾: كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، كما تقول: هل أدلك على رجل عالم؟ عندي رجل صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بـ «خير»، واختص المتقين، لأنهم هم المنتفعون به، وترفع، ﴿جَنَّتٌ﴾: على: هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ «جنات» بالجر على البدل من خير، ﴿وَأَلَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْأَعْيَادِ﴾: شيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات.

= في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة، لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء، من جوهر، ومن عرض قائم بالجوهر، حب أو غيره. محمود في الشرع أولاً. ويطلق التزيين ويراد به الحض على تعاطي الشهوات والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً كالنكاح المقترن بقصد التناسل واتباع السنة فيه وما يجري مجراه. وأما الشهوات المحظورة فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها. وكلام الحسن رضي الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، فإنه يحاشي أن ينسب خلق الله إلى غير الله. وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة المليئة تنزيلاً لها على قواعد القدريّة الفاسدة، فتفطن لها ويرى قائلها من السلف الصالح عما يزعم الزمخشري الثقل عنه، والله الموفق.

(١) (عاد كلامه) قال: «جعل الأعيان التي ذكرها شهوات... إلخ» قال أحمد: يريد إلحاقها بباب: رجل صوم وفطر، مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(٢) قوله «أو المطهمة أو المرعية» عبارة أبي السعود. أو المطهمة التامة الخلق اهـ. وفي الفخر: قال القفال: المطهمة المرأة الجميلة المرتبة اهـ. (ع)

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجز صفة للمتقين أو للعباد، والوار المتوسطة بين الصفات للدلالة على كما لهم في كل واحدة منها، وقد مر الكلام في ذلك، وخص الأسحار لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إِلَيْهِ يَسْعَدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وعن الحسن: كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم، وهذا ليلهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا اٰخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَن بَدَّ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَيِّنًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

شبهت دلالة على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه، ﴿قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾: مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويشب ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه كقوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ (١٩) [فاطر: ٣١]. فإن قلت: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه؟ ولو قلت جاءني زيد وعمرو ركباً لم يجوز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] إن انتصب

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليس من باب الحال المؤكدة؛ لأنه ليس من باب: ﴿وَيَوْمَ يُعْطَىٰ حَقُّكَ﴾ ولا من باب: «أنا عبد الله شجاعاً» فليس: «قَانِمًا بِالْقِسْطِ» بمعنى شهد، وليس مؤكداً لمضون الجملة السابقة في نحو: أنا عبد الله شجاعاً وهو زيد شجاعاً، لكن في هذا التخريج قلق في التركيب؛ إذ يصير كقولك: «أكل زيد طعاماً وعائشة وفاطمة جاعاً» فيفصل بين المعطوف عليه والمُعطوف بالمفعول، وبين الحال وذي الحال بالمفعول والمعطوف، لكن بمشبهة كونها كلها معمولاً لعامل واحد.» انتهى.

قلت: مؤاخذه له في قوله: «مؤكد» غير ظاهر؛ وذلك أن الحال على قسمين: إما مؤكدة وإما مُبَيَّنَّة، وهي الأصل، فالمُبيَّنَّة لا جائز أن تكون ههنا، لأن المبيَّنة تكون متقلة، والانتقال هنا مُحال؛ إذ غلَّ الله تعالى لا يتغيَّر، فإن قيل لنا قسم ثالث، وهي الحال اللازمة فكان للزمخشري مندوحة عن قوله «مؤكد» إلى قوله «لازمة» فالجواب أن كلَّ مؤكدة لازمة وكلُّ لازمة مؤكدة فلا فرق بين العبارتين، وإن كان الشيخ زعم أن إصلاح العبارة يتخلل بقوله: «لازمة»، ويذلل على ما ذكرته من ملازمة التأكيد للحال اللازمة وبالعكس الاستقراء. وقوله: «ليس معنى قَانِمًا بالقسط معنى شهد» منوَّع بل معنى «شهد» مع متعلقه - وهو أنه لا إله إلا هو - مساوٍ لقوله «قَانِمًا بِالْقِسْطِ» لأن التوحيد ملازم للعدل.

«نافلة» حالا عن «يعقوب»، ولو قلت: جاءني زيد وهند ركباً جاز لتمييزه بالذكر^(١)، أو على المدح. فإن قلت: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك: الحمد لله الحميد. «إنا معشر الأنبياء لا نورث». (٢٢٢) [من البسيط]:

٢٢٢ - أخرجه البخاري (٢٢٧/٦ - ٢٢٨) كتاب فرض الخمس: باب فرض الخمس حديث (٣٠٩٤)، (٣٨٩/٧) كتاب المغازي: باب حديث لبني النضير حديث (٤٠٣٣)، (٤١٢/٩ - ٤١٣) كتاب النفقات: باب حبس الرجل قوت سنة على أهله حديث (٥٣٥٨)، (٢٩٠/١٣ - ٢٩١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع حديث (٧٣٠٥) ومسلم (٣/١٣٧٧ - ١٣٧٩) كتاب الجهاد: باب حكم الفقه حديث (١٧٥٧/٤٩) وأبو داود (٢/١٥٤ - ١٥٦) كتاب الخراج: باب في صفايا رسول الله - ﷺ - من الأموال حديث (٢٩٦٣) والترمذي (٤/١٥٨) كتاب السير: باب ما جاء في تركه رسول الله - ﷺ - حديث (١٦١٠) وفي «الشمال» (٢١٦) وعبد الرزاق (٩٧٧٢) وأبو يعلى (١٢/١، ١٣) رقم (٢، ٤) وابن حبان في «صحيحه» (٨/٢٠٧ - الإحسان) حديث (٦٥٧٤) والبيهقي (٦/٢٩٧) والبغوي في «شرح السنة» (٥/٦٣١، ٦٣٢ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب به وفيه قصة طويلة.

وأخرجه مالك (٢/٩٩٣) كتاب الكلام: باب ما جاء في تركه النبي - ﷺ - حديث (٢٧) والبخاري (١٢/٨٠٧) كتاب الفرائض: باب قول النبي - ﷺ - لا نورث ما تركنا صدقة حديث (٦٧٢٧)، (٦٧٣٠) ومسلم (٣/١٣٧٩) كتاب الجهاد والسير: باب قول النبي - ﷺ -: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة». حديث (٥١/١٧٥٨) وأبو داود (٢/١٦٠، ١٦١) كتاب الخراج والفقه والإمارة: باب في صفايا رسول الله - ﷺ - من الأموال حديث (٢٩٧٦، ٢٩٧٧) والتسائي (٧٠/١٣٢) كتاب قسم الفقه وأحمد (٦/١٤٥، ٢٦٢) وعبد الرزاق (٩٧٧٤) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (١٠٩٨) وابن حبان (٨/٢٩ - الإحسان) رقم (٦٥٧٧) والبيهقي (٦/٢٩٧، ٢٩٨) كلهم من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: إن أزواج النبي - ﷺ - حين توفي رسول الله - ﷺ - أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر فيسأله ميراثهن من النبي - ﷺ - قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله - ﷺ -: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذكره من قوله: «جاءني زيد وعمرو ركباً» أنه لا يجوز - ليس كما ذكر، بل هذا جائز؛ لأن الحال قيد فيمن وقع منه أو به الفعل أو ما شبه ذلك، وإذا كان قيداً فإنه يُحتمل على أقرب مذکور، ويكون «راكباً حالاً بما يليه، ولا فرق في ذلك بين الحال والصفة، لو قلت: «جاءني زيد وعمرو الطويل» كان «الطويل» صفةً للعمرو، ولا تقول: لا تجوز هذه المسألة للبس؛ إذ لا لبس في هذا وهو جائز، وكذلك الحال. وأما قوله: «إن نافلة» انتصب حالاً عن يعقوب، فلا يتعين أن يكون حالاً عن يعقوب؛ إذ يُحتمل أن يكون «نافلة» مصدرًا كالعاقبة والعاقبة، ومعناه: «زيادة»، فيكون ذلك شاملاً لإسحاق ويعقوب؛ لأنهما زيداً لإبراهيم بعد ابنه إسماعيل وغيره» قلت: مراد الزمخشري بمنع «جاءني زيد وعمرو ركباً» إذا أريد أن الحال منهما معاً، أمّا إذا أريد أنها حال من واحدٍ منهما فإنما تُجْعَلُ ليا تليه، لعمد الضمير على أقرب مذکور، وبعضهم يجْعَلُ حالاً من «هو». انتهى. الدر المصون.

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نُدْعِي لِأَبٍ
قلت: قد جاء نكرة كما جاء معرفة، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي [من
المقارِب]:

وَيَأْوِي إِلَى نِسْوَةٍ غُطِّلٍ وَشَغْنَا مَرَاضِيْعٍ مِثْلَ الشَّعَالِي (١)
فإن قلت: هل يجوز أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل: لا إله قائم بالقسط إلا هو؟
قلت: لا يبعد، فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف. فإن قلت: قد
جعلته حالا من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالا عن «هو» في، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؟
قلت: نعم، لأنها حال مؤكدة والحال مؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي
زيادة في فائدتها عامل فيها، كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا
عبد الله شجاعاً (٢)، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح.

= وفي بعض طرق الحديث أَنَّ رَاوِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ أَبُو بَكْرٍ.
قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه أحمد. حدَّثنا وكيع حدَّثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا.
ورواه النسائي في الكبرى، من رواية ابن عيينة عن الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال:
قال عمر لعبد الرحمن وسعد وعثمان وطلحة والزبير «أنشدكم بالله الذي قامت له السموات
والأرض، أسعتم النبي - ﷺ - يقول - فذكره، وفيه قالوا: اللهم نعم» وأخرجه في الكنى في
ترجمة أبي إدريس تلميذ أبي سليمان من رواية عن عبد الملك بن عمر عن أبي هريرة مثله. وأصله
متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «لا نوزت ما تركنا صدقة». انتهى.

(١) للهذلي يصف رجلاً يصيد ويرجع إلى زوجته ويناته عطل عاريات من الحلي والثياب. وشعثا نصب
على الدم، أي وأذم شعثاً أي مغبرات الوجوه من الجوع. والعطل: جمع عاطلة. والشعث. جمع
شعثاء، كسود وسوداء. ومراضيع: جمع مرضاع قياساً، أو مرضع سماعاً، أي ترضع أولادها مثل
السعالي جمع سعلاء وهي أنثى الشياطين، أي كرهيات المنظر مثل الأغوال، وهي أقيح شيء عند
العرب.

البيت لأمية بن أبي عائذ الهذلي في خزانة الأدب ٢/٤٢٦، ٤٣٢، ٤٠/٥، وشرح أبيات سيبويه
١/١٤٦، وشرح أشعار الهذليين ٢/٥٠٧، وشرح التصريح ٢/١١٧، والكتاب ١/٣٩٩، ٢/٦٦،
ولأبي أمية في المقاصد النحوية ٤/٦٣، وللهمذلي في شرح المفصل لابن يعيش ٢/١٨، وبلا نسبة
في أمالي ابن الحاجب ١/٣٢٢، وأوضح المسالك ٣/٣١٧، ووصف المباني ص ٤١٦، وشرح
الاشموني ٢/٤٠٠، والمغرب ١/٢٢٥ وينظر الدر المصون ٢/٤٤.

(٢) قال السمين الحلبي: يعني أنَّ الحالَّ المؤكَّدة لَا يَكُونُ العاملُ فيها النَّصبُ شيئاً من الجملة السابقة
قبلها، إنما ينتصبُ بعاملٍ مضمَر، فَإِنَّ كَانَ المتكلمُ مُخْبِراً عن نفسه نحو: «أنا عبدُ الله شجاعاً»
فَذَرَتْهُ: أَحَقُّ شجاعاً، مَبْنِيًّا للمفعول، وَإِنْ كَانَ مُخْبِراً عن غيره فَذَرَتْهُ مَبْنِيًّا للفاعل نحو: «هذا عبدُ
الله شجاعاً» أي: أَخْفَهُ، هذا هو المذهبُ المشهورُ في نصبِ مثلِ هذه الحالِ. وفي المسألة قولان =

فإن قلت: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم كما دخلت الوجدانية؟ قلت: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفة للمنفى، كأنه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط، وقرأ عبد الله: «القائم بالقسط»، على أنه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ أبو حنيفة: «قيماً بالقسط»، ﴿الَّذِينَ يُتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ﴾: صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل، يعني أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله. فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل^(١) والتوحيد، وقرأ: «أنه» بالفتح، ﴿إِنَّ الْآلِهَةَ﴾: بالكسر على أن الفعل واقع على أنه بمعنى شهد الله على أنه، أو بأنه، وقوله: «إِنَّ الْآلِهَةَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»: جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدته أن قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»: توحيد، وقوله: «فَإِنَّمَا يَأْتِيهِمْ»: تعديل، فإذا أرفده قوله: «إِنَّ الْآلِهَةَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»: فقد أذن أن الإسلام هو العدل^(٢) والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين، وفيه أن من ذهب إلى تشبيهه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى، وقرنا مفتوحين، على أن الثاني^(٣) بدل من الأول. كأنه قيل: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً، لأن دين الله هو التوحيد والعدل، وقرأ الأول بالكسر والثاني بالفتح، على أن الفعل واقع على «إِنَّ»^(٤) وما بينهما

= لأبي إسحاق أن العامل فيها هو خبر المبتدأ؛ إما ضَمَّنَ من معنى المشتق؛ إذ هو بمعنى المُسَمَّى. وقول ثالث: أن العامل فيها المبتدأ إما ضَمَّنَ من معنى التنبيه، وهي مسألة طويلة. وبعضهم جعله حالاً من الجميع على اعتبار كل واحد قائماً بالقسط. وهذا مناقض لما قاله الزمخشري من أن الحال مختصة بالله تعالى دون ما عطف عليه. وهذا المذهب مردود بأنه لو جاز ذلك لجاز «جاء القوم راكباً». أي كل واحد منهم راكباً، والعرب لا تقول ذلك ألبتة، ففسد هذا. انتهى. الدرر المصون.

(١) قوله «والبراهين القاطعة وهم علماء العدل» تلميح بالمعتزلة حيث سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد، لكن الإنصاف التعميم حتى يشمل أهل السنة والجماعة. (ع)

(٢) قوله «فقد أذن أن الإسلام هو العدل» تعسف لا يقتضيه النظم الكريم، لكن دعى إليه التعصب، وقوله «وفيه أن من ذهب» إلخ تورك على أهل السنة مبني على ذلك، وتحقيقه في علم التوحيد، وبالجملة فالعدل والتوحيد لم ينحصرا في مذهب المعتزلة. (ع)

(٣) قوله «وقرنا مفتوحين على أن الثاني» الضمير عائد إلى قوله تعالى ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقوله (إن الدين) اهـ. (ع)

(٤) قوله «واقع على إن» أي على إن الدين... إلخ. (ع)

اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك، وقرأ عبد الله: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، وقرأ أبي: «إِنْ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ»، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرئ: «شهداء الله»، بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله. فإن قلت: فعلام عطف على هذه القراءة، «وَالْمَلَكُوتُ وَأُولُوا الْأَلْبُرْ؟» قلت: على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما. فإن قلت: لم كرر قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»^(١) قلت: ذكره أولاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنه لا إله إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل، للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: «الْقَبِيرُ الْحَكِيمُ»: لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل، «الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ»: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل^(٢)، «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ»: أنه الحق الذي لا محيد عنه، فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوة

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت ما فائدة تكرار لا إله إلا هو... إلخ؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قدمته في نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهد. وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد، ثم أعقب التوحيد تعدد الشاهدين به، ثم قوله (قائماً بالقيس) وهو التنزيه. فطال الكلام بذلك، فجدد التوحيد تلو التنزيه يلي قوله «إِنَّ الْوَيْتَ عِنْدَ اللَّهِ أَتَمُّ لَكُمْ» ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمقطع في الفهم مما أريد إيصاله به والله أعلم. قال: «وفيه أن من ذاب إلى تشبيه... إلخ». قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ريق الإسلام بل تصريح. وه' ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضافون في رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيدهم فشهدوا أن لا إله إلا هو ولا خالق لهم ولا فعالهم إلا هو. واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطورية. وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى «فَيَسْأَلُكَ اللَّهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» هذا إيمان القوم وتوحيدهم، لا يقوم بغيرهم في وجه النصوص فيجدون الرؤية التي يظهر أن جعلهم لها سبب في حرمانهم إياها. ويجعلون أنفسهم الخيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة ومعاودة لله في ملكه. ثم بعد ذلك يستترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى. ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأن أول المجبرين. ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلى جهالة القدرة وضلالها، لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها، ولخرجت عن مزالق البدع ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم. ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن وأولى بالدخول في أولي العلم المقرونيين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعظمتهم على اسم الله عز وجل. اللهم ألهمنا على اقتفاء السنة شركك. ولا تؤمنا منكرك إنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، فليس ينجي من الخوف إلا الخوف. والله ولي التوفيق.

(٢) قوله «تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل» مبني على ما قاله آنفاً. (ع)

فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب، وهذا تجوير لله، ﴿بَيِّنًا بَيْنَهُمْ﴾: أي: ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة وحفظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤون أعقابهم، لاشبهة في الإسلام، وقيل: هو اختلافهم في نبوة محمد ﷺ، حيث آمن به بعض وكفر به بعض، وقيل: هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء، فمنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بيسى، وقيل هم اليهود، واختلافهم أن موسى - عليه السلام - حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل، وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن واختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغيا بينهم وتحاسدوا على حفظ الدنيا والرياسة، وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسْلَمْتُ فَإِنْ ءَاسَلُمُوا فَقَدْ أَهْبَكُوا وَلَئِنْ قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِعَیْرِئِ الْوَعْدِ عَلِيمٌ﴾

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾: فإن جادلوك في الدين، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾: أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن أعبد وأدعوه إلهاً معه؛ يعني أن ديني التوحيد وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَقَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقْبُدَ إِلَىٰ اللَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤] فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه؛ فما معنى المحاجة فيه؟، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: عطف على التاء في «أسلمت» وحسن للفاصل، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: من اليهود والنصارى، ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾: والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب، ﴿ءَاسْلَمْتُ﴾: يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضي حصوله لا محالة؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١] بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار^(١) وتعير بالمعاند وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلّت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاندة بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداده بينه وبين الإذعان^(٢)، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخ بالبلادة وكلة القريحة، وفي

(١) قوله «وفي هذا الاستفهام استقصار» أي عد المخاطب قاصراً. (ع)

(٢) قوله «يضرب أسداده بينه وبين الإذعان» لعله أسداداً، أي حجباً. (ع)

﴿فَهَذَا أَنْتُمْ تُنْبِئُونَ﴾ [المائدة: ٩١] بالتقاعد عن الانتهاز والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدَوْا﴾: فقد نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾: لم يضرركم فإنك رسول منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قرأ الحسن: «يقتلون النبيين»، وقرأ حمزة: «ويقاتلون الذين يأمرون» وقرأ عبد الله: «وقاتلوا» وقرأ أبي: «يقتلون النبيين والذين يأمرون»، وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله، وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله، أي: الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً؛ أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر» ثم قرأها ثم قال: «يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمرؤا قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار»، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: لأن لهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. فإن قلت: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم، و «إن» لا تغير معنى الابتداء فكان دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها «ليت» أو «لعل» لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسَّكَ أَلْتَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهم فِي دِينِهِمْ

٢٢٣ - أخرجه البزار (٣٣١٤ - كشف)، والطبري (٢٨٥/٦)، حديث (٦٧٨٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره ص (١٦١) حديث (٢٧٦).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٢) وعزاه للطبري وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قلن يا رسول الله: أي الناس...

قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه البزار والطبراني وابن أبي حاتم والشعبي والبخاري من حديثه. وفيه أبو الحسن مولى بني أسد وهو مجهول. انتهى.

مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُعِدَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أَوَلَمْ نَرْسِبَ لَكَ أَنْ تَكْتَبَ﴾: يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، و«من»: إما للتبعض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم، ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: وهو التوراة، ﴿يَعْتَكِبْ بَيْنَهُمْ﴾: وذلك أن رسول الله ﷺ دخل مدارسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة، فهللوا إليها (٢٢٤) فأبى، وقيل نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه، وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه، ﴿ثُمَّ يَتَوَكَّلْ فَرِيقٌ بَيْنَهُمْ﴾: استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وَهُمْ مُتْرَكُونَ﴾: وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرئ «لِيُحْكَمَ» على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أن قوله: ﴿يَعْتَكِبْ بَيْنَهُمْ﴾: يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم، لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، ﴿ذَلِكَ﴾: التولي والإعراض بسبب تسهيلهم^(١) على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من

٢٢٤ - أخرجه الطبري (٢٨٨/٦)، حديث (٦٧٨١) عن عكرمة عن ابن عباس وابن أبي حاتم (١٦٦/٢)، حديث (٢٧٧) عن عكرمة... به. وابن إسحاق (٦٣٢) - سيرة بن هشام.
وذكره السيوطي (٢٤/٢) وزاد نسبه إلى ابن المنذر عن ابن عباس... به.
وذكره الزيلعي (١٧٩/١)، حديث (١٨٦) وزاد نسبه إلى الواحدي في أسباب النزول.
قال الحافظ:

أخرجه الطبري من رواية إسحاق عن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما به. انتهى.

(١) قال محمود: «ذلك التولي والإعراض بسبب طمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت الحشوية والمجبرة وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كباير المؤمنين الموحد إلى مشيئة الله تعالى وإن مات مصرأً عليها إيماناً بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وتصديقاً بالشفاعة لأهل الكباير وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القائلين ﴿لَنْ نَسْأَلَكَ الْكَافِرَ إِلَّا أَتَانَا مَعْدُودَتَهُ﴾ فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملا الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلى التورك عليه، لأن أخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقامات الآسنة.

النار بعد أيام قلائل كما طمعت المجيرة والحشوية^(١)، ﴿وَعَرَّجْهُمْ فِي رِجْسِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: من أن آباءهم هم الأنبياء يشفعون لهم كما غرت أولئك شفاعة رسول الله ﷺ في كبارهم، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ فِي كَيْفٍ يَصْنَعُونَ﴾ فكيف يصنعون فكيف^(٢) تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون، وروي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رءوس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار، ﴿وَعَمَّا لَا يُلْمُؤُونَ﴾: يرجع إلى كل نفس على المعنى، لأنه في معنى كل الناس كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناس.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مِلْكَ الْفُلْكِ تَوَفِّي الْفُلْكَ مِنْ فَشَاءٍ وَتَنْزِجُ الْفُلْكَ مِنْ فَشَاءٍ وَتَعِزُّ مِنْ فَشَاءٍ
وَسُدُّ مِنْ فَشَاءٍ بِبِرِّكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٧﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْعَيَّ مِنَ الْعَمِيَّةِ وَتُدْخِلُ الْمُحَيِّتَ مِنَ الْعَمِيَّةِ وَتَرْزُقُ مَنْ فَشَاءَ بِعَبْرٍ حِسَابِ
﴿٣٨﴾﴾

الميم في، ﴿اللَّهُمَّ﴾: عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء في القسم، ويدخل حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، ويقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك، ﴿تِلْكَ أَلُمُكُ﴾: أي: تملك جنس الملك فتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، ﴿تَوَقَّيْ أَلُمُكُ مَن تَشَاءُ﴾: تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك، ﴿وَتَزِنُ أَلُمُكُ مَن تَشَاءُ﴾: النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأول عام شامل، والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روى (٢٢٥) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون

٢٢٥ - ذكره البغوي في تفسيره (٢٨٩/١، ٢٩٠) عن ابن عباس، وأنس ابن مالك عن قول قتادة.

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ١٨٠)، حديث (١٨٧) وقال: غريب.

وعزاه للواحد في أسباب النزول عن ابن عباس، وأنس.

قال الحافظ :

ذكره الواحدى فى أسبابه عن ابن عباس وأنس - رضى الله عنهم - ولم أجد له إسناداً. انتهى.

(١) قوله «كما طمعت المجبرة والحشوية» تورك على أهل السنة، حيث ذهبوا إلى أن من دخل النار من أهل الكائثر المؤمنين يخرج بالشفاعاة أو بعفو الله، كما نطقت به الأحاديث. (٤)

(٢) قوله «فكيف تكون» لعله أو فكيف. (٤)

واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك، وروي أن رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالثلث العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لاتبها، لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر وكبر المسلمون وقال: أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل - عليه السلام - أن أمتي ظاهرة على كلها، فأبشروا. فقال المنافقون: ألا تعجبون، يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزلت. (٢٢٦) فإن قلت: كيف قال: ﴿يَدُوكَ الْغَيْرُ﴾: فذكر الخير دون الشر؟ قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال بيدك الخير تؤتبه أوليائك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإتياء الملك ونزعه.

٢٢٦ - أخرجه التيساني (٢٦٩/٥ كبرى): كتاب السير: باب حفر الخندق، حديث (٨٨٥٨) وأبو يعلى في مسنده (٢٤٤/٣) حديث (١٦٨٥) وأحمد (٣٠٣/٤)، وأبو نعيم (٣٧٦/١)، (٣٧٧)، من الأخبار في غزوة الخندق، والبيهقي في الدلائل (٤٢١/٣)، وابن أبي شيبه (٣٧٨/٧)، حديث (٣٦٨٢٠)، وذكره الزيلعي (١٨١/١) وزاد في نسبه إلى إسحاق بن راهويه من حديث البراء بن عازب. - وأخرجه أبو نعيم في الدلائل (٣٧٧/١). والبيهقي في الدلائل (٤١٩/٣) باب ما ظهر في حفر الخندق من دلائل... وابن سعد في الطبقات (٦٢/٤) من حديث عمرو بن عوف. وذكره الزيلعي (١٨٢/١، ١٨٣)، وزاد نسبه إلى الواحدي في أسباب النزول، والشعلبي والبغوي من حديث عمرو بن عوف.

قال الحفاظ: أخرجه البيهقي. وأبو نعيم في دلائل النبوة لهما؛ من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده. قال «خط رسول الله ﷺ - الخندق عام الأحزاب، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة» قال عمرو بن عوف، فكنت أنا وسليمان وحذيفة والثعمان بن مقرن وستة نفر من الأنصار في أربعين ذراعاً فذكره مطوّلاً من هذا الوجه. ذكره الواحدي في أسباب النزول والطبري والشعلبي والبغوي. ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة سلمان. قال: أخبرنا ابن أبي فديك عن كثير بن عبد الله به. وقال الواقدي في المغازي: حدثني عاصم ابن عبد الله الحكمي عن عمر بن الحكم قال «كان عمر بن الخطاب يومئذ يضرب بالمعول، إذ صادف حجراً أصلد فضرب ضربة - فذكره بنحوه، ورواه التيساني وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبه وأبو يعلى كلهم من رواية ميمون أبي عبد الله عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - مختصراً وإسناده حسن. انتهى.

ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب دلالة من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتية العرب ويعزهم وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعظفهم عليكم، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام «كما تكونوا يولى عليكم» (٢٢٧).

﴿لَا يَتَخَذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾
 ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُو مِنْهُمْ تَقَنُّةً وَيَعَزِّدْكُمُ اللَّهُ نَفْسًا وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٢٨)

نهوا أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر، وقد كرر ذلك في القرآن ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ يَنْكُرْ لِفَيْتِنِهِمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [المجادلة: ٢٢]، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان، ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثرهم عليهم، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: ومن يوالي الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متافيان، قال [من الطويل]:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنِّي صَدِيقُكَ لَيْسَ التَّوَكُّعُ عَنْكَ بِعَازِبٍ^(١)

٢٢٧ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث (٧٣٩٢) وذكره السيوطي في تفسيره (٨٦/٣) وعزاه لنحاحم في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان. عن أبي إسحاق.
 قال الحافظ: رواه القاضي في مسند الشهاب من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكره وفي إسناده إلى مبارك مجاهيل. انتهى.

(١) تود عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس التوكع عنك بعازب
 فليس أخي من ودني رأي عينه ولكن أخي من ودني في المغايب
 التوك: الحمق. والعازب: البعيد. يقول: إن الصديق من لا يصادق بغيب صديقه، ومن يراعي
 الأخوة يظهر الغيب، لا يراي العين. ويجوز أن تود على تقدير الاستفهام التوبيخي، وأبرزه في صورة
 الخبر للتشنيع. وراي عينه: نصب على الظرف أي حين رأي عينه: والمغايب: أزمان الغياب.

﴿إِلَّا أَنْ كَتَبْنَا مِنْهُمْ أَمْرًا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ، وَقَرِءَ: «تَقِيَّة». قيل للمتقي تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروب. رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالات مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعدواة والبغضاء، وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: «كن وسطاً وامش جانباً»، (٢٢٨) ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى﴾: فلا تعرضوا لسخطه بموالات أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن، ﴿كَتَبُوا﴾: معنى تحذروا وتخافوا، فيعدي بمن ويتصب، ﴿تُقَنَّة﴾: أو تقية على المصدر، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُتْدُوْهُ بِعَلْمِهِ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُتْدُوْهُ﴾: من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله، ﴿بِعَلْمِهِ﴾: ولم يخف عليه وهو الذي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: لا يخفى عليه من شيء قط. فلا يخفى عليه سرهم وعلمهم، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو قادر على عقوبتهم، وهذا بيان لقوله: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى﴾ [آل عمران: ٢٨] لأن نفسه وهي ذاته المميزة من سائر الدوات، متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الأطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر، ونصب عليه عيوناً، وبث من يتجسس عن بواطن أموره، لأخذ حذره وتيقظ في أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أن العالم الذات^(١) الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترنا.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

٢٢٨ - وذكره علي بن محمد الملاء في الأسرار ص (١٨٠)، حديث (٦٩٩) ولم ينسبه إلى عيسى عليه السلام ولكن قال: قال بعضهم: كن وسطاً.

(١) قوله «فما بال من علم أن العالم الذات» من إضافة الوصف إلى مرفوعه كالحسن الوجه، يعني أن علمه بذاته، لا بعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث، وهذا عند المعتزلة. (ع)

أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾: منصوب بتوّد، والضمير في بينه لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم^(١) وهوله أمداً بعيداً، ويجوز أن ينتصب، ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾: بمضمر نحو: اذكر، ويقع على «ما عملت» وحده^(٢)، ويرتفع، ﴿وَمَا عَمِلْتَ﴾: على الابتداء، و﴿تَوَدُّ﴾: خبره، أي: والذي عملته من سوء توّد هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع توّد. فإن قلت: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله وذت؟ قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة، ويجوز أن يعطف، ﴿وَمَا عَمِلْتَ﴾: على، ﴿وَمَا عَمِلْتَ﴾: يكون، ﴿تَوَدُّ﴾: حالاً، أي: يوم تجد عملها محضراً وادة تباعد ما بينها وبين اليوم أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] يعني مكتوباً في صحفهم يقرؤنه ونحوه ﴿فَلْيَنْتَهَبُوا سَبِيلًا أَلَمْ تَحْصِنَهُ اللَّهُ وَسُوءُ﴾ [المجادلة: ٦]، والأمد المسافة كقوله تعالى: ﴿وَلَيَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨] وكثر قوله: ﴿وَيَعِزُّكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾: ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: يعني أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رافته بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته، مرجو لسعة رحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ يَذَرُ عَنَاقِبَ الْأَلَمِ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾
أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم تريدون لعبادة الله على الحقيقة، ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: حتى يصح ما تدعونه من إرادة عبادته، يرض عنكم ويغفر لكم،

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وَأَبْعَدَ الزمخشري في عوده على «اليوم»؛ لأن أخذ القسمين اللذين أحضرا في ذلك له هو الخير الذي عمله، ولا يطلب تباعد وقت إحضار الخير إلا بتجاوز؛ إذ كان يشتمل على إحضار الخير والشر فتوّد تباعده لتسلم من الشر، وذغله لا يحصل له الخير، والأولى عزّده إلى ما عملت من السوء لأنه أقرب مذكور. ولأن المعنى: أن السوء يَنْقُصُ في ذلك اليوم التباعد منه» انتهى. الدر المنصون

(٢) قوله «ويقع على ما عملت وحده» أي يقع فعل الوجدان على ما عملت من خير وحده. (ع)

وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل (٢٢٩)، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق^(١) فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا أنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسمّاها الله بجعله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق تصوّرها، وربما رأيت المنّي قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامة على حوالبه قد ملثوا أدرانهم بالدموع لما رققهم من حاله، وقرئ: «تحبون»، و«يحبكم» و«يحبكم»، من حبه يحبه. قال [من الطويل]:

أَحِبُّ أَبَا نَزْوَانَ مِنْ حُبِّ تَمْرِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الرُّفُقَ بِالْجَارِ أَزْفَقُ
وَوَالِلَهُ لَوْلَا تَمْرُهُ مَا حَبَبْنَاهُ وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُبَيْدٍ وَمُشْرِقٍ^(٢)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: يحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكون مضارعاً بمعنى: فإن تولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالٍ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٢) ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣١) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ

٢٢٩ - أخرجه الطبري (٢٢٣/٦)، حديث (٦٨٤٨) عن الحسن: «إن أقواماً كانوا على عهد...». وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠/٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(١) قوله «وينعر ويصعق» في الصحاح: النعرة صوت في الخيشوم. ويقال: ما كانت فتنة إلا نعر فيها فلان، أي نهض. (ع)

(٢) لغيلان بن شجاع النهشلي. يقول: أحب هذا الرجل من أجل حب تمره. ويرى: أبا مروان، وأعلم أن الرفق بالجار أرفق منه بغيره، أي أشد رفقاً، وأسند الرفق إلى نفسه مبالغة كجد جده. ويجوز أن المعنى أن الرفق بالجار أحق أو أكمل منه بغيره. وأمالو قرئ: «أوق» بالواو فظاهر. وفيه استعطف لأبي مروان، وطلب الرفق منه بالشاعر. واللغة الغالية أحب الرباعي. وحبه يحبه بكسر فاء المضارع من باب ضرب نادر من جهة مجيئه ثلاثياً ومن جهة كسر فاء مضارعه. وقياس مضارع الثلاثي المضاعف المتعدي ضم فائه كبشود ويرد. وقد يجيء حب يحب من باب علم يعلم. ولا كان أدني: أي أقرب إلي من عبید ومشرق، وهما أبناء. وفي القافية الإقواء. وروى أبو العباس المبرد بدل الشطر الأخير: وكان عياض منه أدنى ومشرق، أي أقرب إلي من أبي مروان. وعليه فلا إقواء فيها.

ينظر: لسان العرب (حب)، الأشباه والنظائر (٤١٠/٢)، خزائن الأدب (٤٢٩/٩)، شرح شواهد المغني (٧٨٠/٢)، شرح المفصل لابن يعيش (١٣٨/٧)، الخصائص (٢٢٠/٢)، مغني اللبيب (٣٦١/١).

مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِعُ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

﴿عَالِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما، و﴿عَالِ عِمْرَانَ﴾: موسى وهرون^(١) ابنا عمران بن يصر، وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة، و﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾: بدل من آل إبراهيم وآل عمران، ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾: يعني أن الألبين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض: موسى وهرون من عمران، وعمران من يصر، ويصر من فاهث، وفاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود^(٢) بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: «بعضها من بعض» في الدين، كقوله تعالى: ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»: يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين. أو «سميع عليهم» لقول امرأة عمران ونيتها، و﴿إِذْ﴾: منصوب به، وقيل: بإضمار اذكر، وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم البتول. جذة عيسى - عليه السلام -، وهي حنة بنت فاقوذ، وقوله: «إِذْ قَالَتِ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ﴾: على أثر قوله: «وَعَالِ عِمْرَانَ»: مما يرجح أن عمران هو عمران بن ماثان جد عيسى، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرب لإبراهيم كثيراً في الذكر. فإن قلت: كانت لعمران بن يصر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول، لأن زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوج

(١) قال محمود رحمه الله: «آل عمران وموسى وهرون... إلخ» قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني أن السورة تسمى آل عمران ولم تشرح قصة عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة. وأما موسى وهارون فلم يذكر قصتهما في هذه السورة، فيدل ذلك على أن عمران المذكور هنا هو أبو مريم والله أعلم.

(٢) قوله «ابن ماثان بن سليمان بن داود» قوله: ابن سليمان، أي من نسله. وقوله: ابن يهوذا، أي من نسله، كما صرح به الفخر الرازي. وذكر أبو السعود بين ماثان وسليمان نحو خمسة عشر جداً، وبين إيشا ويهوذا تسعة جدود. (ع)

زكريا بنته إيشاع أخت مريم فكان يحيى وعيسى ابني خالة. روي أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً شكرياً إن رزقتني ولداً أن أنصدق به على بيت المقدس فيكون من سديته وخدمه، (٢٣٠) فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل، ﴿مُحَرَّرًا﴾: معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يدّ لي عليه ولا أستخذه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم، وروي: أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي، ﴿مُحَرَّرًا﴾: مخلصاً للعبادة، (٢٣١) وما كان التحرير إلا للعلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكراً، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: الضمير لـ «ما في بطني»^(١) وإنما أنت على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل الحيلة أو النفس أو النسمة. فإن قلت: كيف جاز انتصاب، ﴿أَنْثَى﴾: حالاً من الضمير في وضعتها^(٢) وهو كقولك وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصل: وضعت أنثى، وإنما أنت لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنت الاسم في ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ﴾ لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ أَفْتَقَرِي﴾ [النساء: ١٧٦] وأما على تأويل الحيلة أو النسمة فهو ظاهر، كأنه قيل: إني وضعت

٢٣٠ - ذكر السيوطي في الدر (٣٢/٢) وعزاه لإسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس بمعناه وذكره في (٣٣/٢، ٣٤) وعزاه للطبري وابن المنذر عن عكرمة.
٢٣١ - أخرجه الطبري (٣٣١/٦)، حديث (٦٨٦٢).

(١) قال محمود: «الضمير عائد إلى ما في بطني... إلخ» قال أحمد: الضمير في قوله «وضعها» يتناول إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة وتلك الجهة كونها شيئاً وضع لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها. وقد مر هذا البحث بعينه عند قوله تعالى ﴿إِنْ كَانَتْ أَفْتَقَرِي﴾.

(٢) قال السمين الحلبي: ناقشه في الجواب الأول فقال: «وَأَكْ قَوْلُهُ - يعني الزمخشري - إلى أنها حال مؤكدة، ولا يُخرجُه تأنيثه لتأنيث الحال عن أن تكون حالاً مؤكدة. وأما تشبيهه ذلك بقوله: «مَنْ كَانَتْ أُمُّكَ» حيث عاذه الضمير على معنى «مَنْ» فليس ذلك نظير «وَضَعْتُهَا أَنْثَى» لأن ذلك حُمل على معنى «مَنْ» إذا المعنى: أي امرأة كَانَتْ أُمُّكَ، أي: كانت هي أي أُمُّكَ، فالتأنيث ليس لتأنيث الخبر، وإنما هو من باب الحمل على معنى مَنْ، ولو فرضنا أنه من تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، لم يكن نظيره «وَضَعْتُهَا أَنْثَى» لأنَّ الخبرَ تخصص بالإضافة إلى الضمير، فاستغيد من الخبر ما لا يُستفاد من الاسم، بخلاف «أَنْثَى» فإنه لمجرد التوكيد. وأما تنظيره بقوله: «فَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى» فيعني أنه ثلث الاسم لتثنية الخبر، والكلام عليه يأتي في مكانه، فإنه من المُشكلات، فالأحسن أن يُجْعَلَ الضمير في «وَضَعْتُهَا أَنْثَى» عائداً على النَّسْمَةِ أو النفس، فتكون الحال مبنية لا مؤكدة».

قلت: قوله «ليس نظيره، لأنَّ «مَنْ كَانَتْ أُمُّكَ» حُمل فيه على معنى «مَنْ»، وهذا أثبت لتأنيث الخبر» =

الحيلة أو النسمة أنثى. فإن قلت: فلم قالت: إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً^(١) على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها. فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرته محرراً للسدانة، ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن^(٢) قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتُ﴾: تعظيماً لموضوعها

== ليس كما قال، بل هو نظيره؛ وذلك أنه في الآية الكريمة حُبل على معنى «ما» كما حُبل هناك على معنى «من»، وقول الزمخشري: «للتأنيب الخير» أي: لأن المراد بـ «من» التأنيب بدليل تأنيب الخير، فتأنيب الخير بين لنا أن المراد بـ «من» المؤنث، كذلك تأنيب الحال - وهي أنثى - بين لنا أن المراد بـ «ما» في قوله: «ما في بطني» أنه شيء مؤنث، وهذا واضح لا يحتاج إلى فكر. وأما قوله: «فقد استفيد من الخير ما لا يُستفاد من الاسم بخلاف «وضعتها أنثى» فإنه لمجرد التوكيد» فليس بظاهر أيضاً؛ وذلك لأن الزمخشري إنما أراد بكونه نظيره من حيث إن التأنيب في كل من المثالين مفهوم قبل مجيء الحال في الآية، وقبل مجيء الخير في التفسير المذكور. أما كونه يفارقه في شيء آخر لعارض فلا يفرض ذلك في التفسير، ولا يُخرجُه عن كونه يُشبهه من هذه الجهة. انتهى. الدر المصون.

(١) (عاد كلامه) قال: «وإنما أرادت بقولها: وضعتها أنثى التحسر والتأسف... إلخ» قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى لا حكاية عنها. وقد ذكر أهل التفسير تأويلاً آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاية الله تعالى عنها، أعني قوله ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ ويرشد إليه عطف كلامها عليه وهو قوله ﴿وَلَا يَسْتَوِي مَرْيَمُ﴾... إلخ ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذكر، فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالکامل لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿لَسَنَ كَلَمَلَيْنِ الْإِنْسَانِ﴾ فنفي عن الكامل شبه الناقص، مع أن الكمال لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء. وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران والله أعلم. ومنه أيضاً ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾.

(٢) في قوله - تعالى - «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى» ترى في هذا الخير تحسراً وتحزناً، وهذا ما عرفه المفسر العلامة بهذا العنوان. بهذا الفهم البلاغي يفتح المفسر العلامة باباً واسعاً من أبواب البلاغة في الخبر والغرض منه وخلاصة ذلك:

- ١ - أن الخير الذي يلقيه المتكلم يفيد أحد أمرين:
 - (أ) الفائدة إذا لم يكن المخاطب يعلم شيئاً عن الخير فنقول له حضر محمد، وأكرم إخوانه.
 - (ب) لازم الفائدة، وذلك إذا كان المخاطب يعلم الخير وأنت تريد إفادته أنك تعلم هذا الخير، فنقول له «أنت محمد».
- ٢ - وقد يخرج الخبر عن الفائدة ولازم الفائدة إلى معانٍ أخرى تدرك بمعونة المقام وسياق الكلام، فمنه ما ورد هنا في الآية الشريفة:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّيْتُ أَنْثَى﴾ لم تقله راضية بما وضعت، وإنما تحسرت وحزنت أن ولدت ما كانت تتوقع غيره، إذ كانت تريد ذكراً لتحرره عابداً لربه، ولكن أراد أن يعدل موازين البشر فقال - سبحانه - ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتُ﴾ و﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ لأن الأنثى ستكون عابدة على ما أرادت ثم تكون هذه الأنثى «مريم» أما لبنية عيسى عليه السلام، وبهذا لا يكون الذكر كالأنثى، بل الأنثى في هذا المقام أفضل يقول سعد الدين التفتازاني:

وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً. فلذلك تحسرت، وفي قراءة ابن عباس «والله أعلم بما وُضعت» على خطاب الله تعالى لها أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره، وقرىء: «وضعت». بمعنى: ولعلَّ الله تعالى فيه سرّاً وحكمة، ولعلَّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها. فإن قلت: فما معنى قوله: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى»؟ قلت: هو بيان لما في قوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ»: من التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد. فإن قلت: علام عطف قوله: «وَلَا إِلَهَ سِوَيَ مَرْيَمَ»؟ قلت: هو عطف على إني وضعتها أنثى، وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: «وَلَئِنَّ لَقَسْرًا لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمًا» ﴿الواقعة: ٧٦﴾ فإن قلت: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت: لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة^(١)، فأرادت بذلك التقريب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعادة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث. «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس

= «لا شك أن قصد المخبر أي من يكون بصدد الإخبار والإعلام لا من يتلفظ بالجملة الخبرية فإنه كثيراً ما تورد الجملة الخبرية لأغراض آخر سوى إفادة الحكم أو لازمه كقوله - تعالى - حكاية عن امرأة عمران - «رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى» - إظهاراً للتحسر على خيبة رجائها، وعكس تقديرها، وللتحزن إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، وبهذا يفتح الباب لأغراض نفسية تنور في الأنفس بلا حد ولا عد، وهذا المجال واسع، وقد حصر منه البلاغيون بعض أنماطه في آيات الكتاب العزيز، ولكن الطريق طويل، وإلى الله - وحده - المصير.

«ينظر المطول ٤٣ وما بعدها، والإيضاح ٨٦/١، ٨٧، عقود الجمان وشرحه للسيوطي، وحواشي المرشدي عليه ٤٠/١، ٤١، خصائص التراكيب لأبي موسى ٤٦، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني ٣٨٨/١ وما بعدها.

(١) (عاد كلامه) قال: «وفائدة قولها (وإني سميتها مريم) أن مريم في لغتهم العابدة... إلخ» قال أحمد: أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذا عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحمله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في الحاد ظلمات بعضها فوق بعض. وقد قدمت عند قوله تعالى «لَا يُلَاقُونَ إِلَّا كَمَا يَوْمُ الْأُولَى يَنْخَبِطُ الَّذِينَ مِنْ أَلَمِينَ» ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى بقرها، وكرر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل، كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره، جراءة وسوء أدب. ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً. وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الويل.

الشيطان إياه، إلا مريم وابنها^١ فالله أعلم بصحته. فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها (٢٣٢) فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتيهما كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْخَذُ بِمَن ظَاهَرَهُمْ مِّنْهُم مَّا أَفْسَحَ لَهُمُ السَّيْءُ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٠] واستهلاله صارخاً من مسه تخيل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمس ويضرب بيده عليه ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخيل قول ابن الرومي [من الطويل]:

لَمَّا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهٍ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُؤَلَّدُ^(١)

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلما، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعباطاً مما يبلون به من نخسه، ﴿فَنَقَّبَهَا لَبُوءًا﴾: فرضي بها في النذر مكان الذكر، ﴿بِقَوْلِ حَسَنٍ﴾: فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء كالسقوط والدود، لما يسقط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة، وروي: أن حنة حين ولدت مريم، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها،

٢٣٢ - أخرجه البخاري (٥٤١/٦): كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾، حديث (٣٤٣١)، وطره في (٤٥٤٨)، ومسلم (١٣١/٨) نوي: كتاب الفضائل: باب فضل عيسى عليه السلام، حديث (٢٣٦٦/١٤٦) وأحمد (٢٣٣/٢)، ٢٧٤ - ٧٥ والطبري (٣٣٧/٦)، (٣٣٩)، حديث (٦٨٨٧، ٦٨٩١) والبيهقي في تفسيره (٢٩٥/١) آية (٣٦) من آل عمران، وابن حبان في صحيحه (١٢٩/١٤)، حديث (٦٢٣٥).

قال الحافظ:

قال المصنف: الله أعلم بصحته هكذا قال والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة في آخره: قال أبو هريرة أقرءوا إن شئتم: ﴿وَلَقَدْ أُحْيِيَهَا يَلَكُ وَوَدَّعَتْهَا يَنَ الْشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. انتهى.

- (١) لما تؤذن الدنيا به من صروفها
ولا فما يبكيه منها وإنها
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
بما سوف يلقي من أذاها يهدد
- لابن الرومي، يقول: إن بكاء الطفل حين ولادته لأجل ما تشعر به الدنيا من حوادثها فقط، وإن لا يكن بكأؤه لذلك، فأي شيء منها يبكيه، أو فأي شيء يبكيه منها، وإنها أي الدنيا، وروي: وإنه، أي الطفل لأفسح موضعاً مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه. وعوده على ما يبكيه بعيد، أو غير سديد. ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المعلوم من المقام، ثم قال: إذا أبصرها صرخ، كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله.

عندي خالتها فقالوا: لا حتى نقترع عليها، فانطلقوا - وكانوا سبعة وعشرين - إلى نهر، فآلقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتكفلها، (٢٣٣) والثاني: أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتكفلها بذئ قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى، «فَتَقَبَّلَهَا»: فاستقبلها، كقولك: تعجله بمعنى استعجله، وتقصاه بمعنى استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوله وعنفوانه قال القطامي [من الوافر]:

وَحَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبِعَهُ أَتْبَاعًا^(١)

ومنه المثل «خذ الأمر بقوابله». أي: فأخذه في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن، «وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا»: مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، وقرئ: «وَوَكَّلَهَا زَكْرِيَا»، بوزن وعملها، «وَوَكَّلَهَا زَكْرِيَا»: بتشديد الفاء ونصب زكرياء^(٢)، والفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ويؤيدها قراءة أبي: وأكفلها، من قوله تعالى: «فَقَالَ أَكْفَلْنِيَا» [ص: ٢٣] وقرأ مجاهد: فتكفلها ربها، وأنبتها، وكفلها، على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها، تدعو بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وُرَبَّهَا، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد، أي: غرفة يصعد إليها بسلام، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها، كأنها وضعت في

٢٣٣ - أخرجه الطبري (٣٥١/٦)، حديث (٦٩٠٩) عن عكرمة.

قال الحافظ:

قوله «أنا أحق بها عندي خالتها، قوله «خالتها: يعني زوجته إيشاع أخت حنة لكن تقدم أنها أخت مريم وقال - ﷺ - في يحيى وعيسى هما ابنا خالة وفي أبي السعود قيل في تأويل ذلك أن الأخت كثيراً ما تطلق على بنت الأخت فجرى الحديث على ذلك وقيل إن إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب. انتهى.

(١) يقول: خير الأمور هو الذي تستقبله وتنتظره فتأخذه أول إتيانه. وليس خبرها ما تصبر عنه حتى يفوتك ويمضي ثم تتبعه وتذهب وراءه لتدركه، فإليه زائدة في خبر ليس، وهو على تقدير مضاف، أي ذي التتبع. وتتبعه: أصله تتببعه حذفته منه تاء المضارعة أو تاء الفعل أو التاء التي هي فاء الفعل وهو أولاهما، لأن كل من الأوليين جاء لمعنى. وقال الجوهري: وضع الاتباع موضع التتبع اهـ، فهو اسم مصدر، أو مصدر حذف منه بعض الزوائد. والتفعل أبلغ من الافتعال، فيعين إرادته هنا لأنه مؤكد.

ينظر ديوانه (٤٠)، والكتاب ٨٢/٤، والخصائص ٣٠٩/٢، وابن عيش ١١١/١، وأمالى الشجري ١٤١/٢، والخزانة ٣٩٢/١، والمقتضب ٢٠٥/٣، وديوان الحماسة ١٣٥/١، والبيان ٤٧٠/٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧١/١، والدر المصون ٦٠/٢.

(٢) قوله «ونصب زكريا الفعل لله تعالى» لمه والفعل. (ع)

أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وروي: أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب.. ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾: كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ﴿فَأَنَّى لَسِبَ مَكَدًا﴾: من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للدخل به إليك؟، ﴿فَقَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فلا تستبعد. قيل تكلمت وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد، وعن النبي ﷺ أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة - رضي الله عنها - رغيفين وبضعة لحم آثرته بها، فرجع بها إليها، وقال: هلمي يا بنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحمًا، فهبت وعلمت أنها نزلت من عند الله، فقال لها ﷺ: «أُنِّي لك هذا؟» فقالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل»، ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها، (٢٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُرْزُقُ﴾: من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل، ﴿يَمْنِرُ حِسَابٍ﴾: بغير تقدير لكثرت، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

﴿هَٰذَا لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبِّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٢٣٨) فَنَادَاهُ الْمَلَكُ هُوَ قَائِمٌ يَصُمِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٢٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَوْجًا وَذَكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَتِجْ يَأْتِيكِ الْوَحْيُ وَالْإِنْبَاءُ (٢٤١)

﴿هَٰذَا لَكَ﴾: في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا^(١) وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله

٢٣٤ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦/٢) وعزاه لأبي يعلى.

(١) قال محمود: «فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان... إلخ» قال أحمد: لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر على مشاهدة مثله، فإن العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى وإن لم يقع نظيره. وأحسن من هذه العبارة وأسلم أن يقال: لما شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم امتد أمه إلى حادث يتناسب كرامته له، والله أعلم.

ومنزلتها، رغب في أن يكون له من إشباع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر، ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: ولدأ، والذرية يقع على الواحد والجمع، ﴿سَيِّبُ اللَّهِ﴾: مجيبه. قرىء: «فناداه الملائكة»، وقيل: ناداه جبريل - عليه السلام -، وإنما قيل الملائكة على قولهم: فلان يركب الخيل، ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ﴾: بالفتح على بأن الله، وبالكسر على إرادة القول. أو لأن النداء نوع من القول، وقرىء: «يبشرك»، «وبشرك»، من بشره وأبشره. «وَيَبْشُرُكَ»^(١) بفتح الباء من بشره، ويحيى إن كان أعجمياً وهو الظاهر فمتنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كي عمر، ﴿مَصْذَقًا يَكْبَرُ بَيْنَ اللَّهِ﴾: مصدقاً بعيسى مؤمناً به. قيل هو أول من آمن به، وسمي عيسى «كلمة» لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: «كن» من غير سبب آخر، وقيل: مصدقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه، وسمي الكتاب كلمة، كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته، والسيد: الذي يسود قومه، أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنه لم يركب سيئة قط، وبإلها من سيادة، والحضور: الذي لا يقرب النساء حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل [من البسيط]:

وَشَارِبِ مُرْبِحٍ بِالكَاسِ نَادَسَنِي لَا بِالْحَصُورِ وَلَا فِيهَا بِسَسَارِ^(٢)

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنه مرّ وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت، ﴿مَنْ الصَّالِحِينَ﴾: ناشئاً من الصالحين، لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين كقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿أَنْ يَكُونَ لِي عَلَمٌ﴾: استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾: كقولهم: أدرته السن العالية، والمعنى أثر في الكبر فأضعفني، وكانت له تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون، ﴿كَذَلِكَ﴾: أي: يفعل الله ما يشاء من

(١) قوله «وبشرك» لعل هذه بدون ضمير الخطاب، وإن كانت السابقة من بشره بفتح الباء أيضاً. (ع)

(٢) للأخطل، يقول: رب شارب مشترٍ للخمر بالثمن الربيع الزائد، نادمني بالكأس. ويجوز تعلقه بما قبله، ليس حصوراً مانعاً نفسه من الدخول على القوم في لعب الميسر، ولا سار على صيغة «فعال» للمبالغة، أي مبقياً في الكأس سوزاً، أي بقية، من أسار إذا أبقى، وهو شاذ كجبار من أجبر. ويروى بسوار من السورة وهي الوثبة والعريضة، ففي سببية، أي ولا متغير العقل بسببها، ولا عاطفة على مربح، والثانية تأكيد، والباء زائدة بعد كل، ونادمني خبر، فيجوز الرجوع إلى الوصف بعد الإخبار.

ينظر ديوانه (١٦٨)، والمحتسب ٢/٢٤١، والمعاني الكبير ١/٤٦٤، ورغبة الأمل ٢/٤٩، وجمهرة أشعار العرب ص ٧٢٤، والتاج ٣/١٤٣، ومجاز القرآن ١/٩٢، والدر المصون ٢/٨٥.

الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر، أي: على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء ببيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر، ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: تقدر على تكليم الناس، ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾: وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله، ولذلك قال:، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة. فإن قلت: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك^(١) إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال، ومنتزعاً منه، ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾: إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرك. يقال ارتمى: إذا تحرك، ومنه قيل للبحر الراموز، وقرأ يحيى ابن وثاب «إلا رمزاً» بضمين، جمع رموز كرسول ورسول، وقرئ: «رمزاً» بفتحين جمع رماز كخادم وخدم، وهو حال منه ومن الناس دفعة كقوله [من الوافر]:

مَتَى مَا تَلَقَّنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفُ رَوَائِفُ أَلَيْتِيكَ وَتُسْتَطَارَا^(٢)

(١) قوله «أن تحبس لسانك» لعله: يحبس. (ع)

(٢) أحولي تنفض استك مذرويهما لثقتلني فيها أنا ذا عمارا

روائف أليتنيك وتستطارا متى ما تلقني فردين ترجف

وسيفي صارم قبضت عليه أصابع لا ترى فيها انتشارا

لعترة يخاطب عمارة بن زياد العبي، لما قال لقومه: ليتني لقيت فأرحكم منه وأعلمكم أنه عبد، والاسم: الدبر، وهي فاعل. ومذرويهما: مفعول، وكان قياسه: مذريان بالياء لأنه مقصور زائد على ثلاثة أحرف، وقياس تثنيته كذلك، فمجئته بالواو شاذ، وسهله أن تثنيته تقديرية لأنه لم يسمع له مفرد. وحكي عن أبي عمرو «مذري» مفرداً، فيكون مثني حقيقة، وبه قيل. وحكي عن أبي عبيدة «مذري» مفرداً، ومذريان مثني بالياء على القياس، وإن نصب الاسم كان مفعولاً، ومذرويهما بدلاً منه. والمذروان بالكسر فرعا الأليتين وقرنا الرأس. يقال: جاء ينفض مذرويه يخال ويتختر، وقوس هتاف المذروني، وهما موقعا الوتر من أعلى وأسفل. أي رانتهما، وها أنا ذا أصله أنا هذا، فقدمت الهاء مبادرة إلى التنبيه، ثم قال: متى تلاقني حال كوننا منفردين عن غيرنا، تخف مني فترتد أطراف أليتيك، فارتعادهما كناية عن الخوف. وتستطارا مؤكدة بالنون الخفيفة المنقلبة ألفاً، والفاعل ضمير المخاطب كأن الخوف يطيره. ويجوز أن الضمير للروائف، أي تنتفض وتنتشر كالطائر. ويروى: روادف، والمراد واحد.

ينظر خزانة الأدب ٢٩٧/٤، ٥٠٧/٧، ٥١٤، ٥٥٣، ٢٢/٨، والدرر ٩٤/٥، وشرح التصريح ٢/

٢٩٤، وشرح شواهد الشافية ص ٥٠٥، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٦٠، وشرح المفصل لابن =

بمعنى إلا مترامزين، كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم، والعشي: من حين نزول الشمس إلى أن تغيب، ﴿وَالْإِنْشَاءُ﴾: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرىء «والأبكار»، بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحار. يقال: أتيت بكراً بفتحتي. فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام؛ فكيف استثنى منه؟ قلت: لما أذى مؤذى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَيَمُرُّنَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَأَمْطَلَكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤)

لَيَمُرُّنَّ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٥﴾

﴿لَيَمُرُّنَّ﴾: روي أنهم كلموها شفاها معجزة لذكرها أو إزهاصاً لنبوة عيسى، ﴿أَمْطَلَكِ﴾: أولاً حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية، ﴿وَطَهَّرَكَ﴾: مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، ﴿وَأَمْطَلَكِ﴾: آخرأ، ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: بأن وهب لك عيسى من غير أب؛ ولم يكن ذلك لأحد من النساء. أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيأت الصلاة وأركانها؛ ثم قيل لها، ﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾: بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أي: في الجماعة؛ أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً﴾

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٦)

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من نبأ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة، ونحوه ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ آلِ فِرْعَانَ﴾

= يعيش ٥٥/٢، ولسان العرب (طبر)؟ (ألا)، (خصا)، والمقاصد النحوية ١٧٤/٣، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ١٩١، وأمالى ابن الحاجب ٤٥١/١، وشرح الأشموني ٥٧٩/٣، وشرح شافية ابن الحاجب ٣٠١/٣، وشرح المفصل لابن يعيش ١١٦/٤، ٨٧/٦، ولسان العرب (رتق)، وهمع الهوامع ٦٣/٢. والدر المصون ٩٠/٢.

[الفصل: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنْتُ بِحَايِبِ الشُّورِ﴾ [الفصل: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿أَقْلَمَهُمْ﴾: أزالهم وهي قداهم التي طرحوها في النهر مقترعين، وقيل: هي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركا بها، ﴿إِذْ يَخْصِمُونَ﴾: في شأنها تنافساً في التكفل بها. فإن قلت:، ﴿إِثْبُتْ يَكْتُلُ﴾: بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دل عليه «يلقون أقلامهم»، كانه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِعِزَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّرُ لَكُمْ أَسْمَاءَ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ﴾ (٤٥) وَيَكْنِىءُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبِيِّينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَىٰ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْزِلُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحْدِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَنَجِّنَاكُمْ مِّنْ ذِيئِهِم مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)

﴿النَّسِيحُ﴾: لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق والعارف، وأصله مشيحاً بالعبرانية، ومعناه المبارك، كقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] وكذلك، ﴿عِيسَى﴾: معرب من أيشوع، ومشتقهما من المسح والعيس، كالراقم في الماء^(١). فإن قلت: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو بدل من، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ ويجوز أن يبدل من، ﴿إِذْ

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يصح أن يكون المسيح» في هذا التركيب صفة؛ لأن المُخْبِر به على هذا لُفِظَ، والمسيح من صفة المدلول لا من صفة الدال؛ إذ لفظ عيسى ليس المسيح، ومن قال: إنهما اسمان قال: فَقَدْ نَمَّ المسيح على عيسى لشهرته. قال ابن الأنباري: «وإنما قَدْ - أي - يلبق - لأن المسيح أشهر من عيسى؛ لأنه قُلْ أن يقع على سَعْيٍ يُشْفِي به، وعيسى قد يقع على عدد كثير فقَدْ نَمَّ لشهرته، ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهر من أسمائهم»، فهذا يدل على أن المسيح عند ابن الأنباري «لقب» لا اسم. وقال أبو إسحاق: «وعيسى مُعَرَّبٌ من يسوع وإن جعلته عربياً لم تُضَرِّفه في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف التانيث، ويكون مشتقاً من عاشه يَؤُوسه إذا ساهه، وقام عليه. انتهى. الدر المصون.

يَتَخَيَّسُونَ: على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا. فإن قلت: لم قيل: عيسى ابن مريم والخطاب لمريم^(١)؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين. فإن قلت: لم ذكر ضمير الكلمة؟ قلت: لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت: لم قيل: اسمه المسيح عيسى ابن مريم^(٢)، وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكانه قيل: الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة، ﴿وَجِبَاهَا﴾: حال من ﴿كَثِيرٌ﴾ وكذلك قوله: «من المقربين» و«يكلّم» و«من الصالحين» أي: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة، والوجهة في الدنيا: النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة، وكونه ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة، والمهد: ما يمهّد للصبي من مضجعه، سمي بالمصدر، و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: في محل النصب على الحال، ﴿وَكَهْلًا﴾: عطف عليه بمعنى: ويكلّم الناس طفلاً وكهلاً، ومعناه: يكلّم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء، ومن بدع التفاسير أن قولها: «رب» نداء لجبريل - عليه السلام - بمعنى يا سيدي «ونعلمه» عطف على يبشرك، أو على وجهها أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ، وقرأ عاصم وبافع: «ويعلمه»، بالياء. فإن قلت: علام تحمل: «ورسولاً»، و«مصدقاً» من المنصوبات المتقدمة، وقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾: و﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يأبى حمله عليها؟ قلت: هو من المضائق، وفيه وجهان: أحدهما أن يضمّر له «وأرسلت» على إرادة القول؛ تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم،

(١) قال محمود: «إن قلت لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم... إلخ» قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي غَلَمٌ وَلَمْ يَتَسَنَّ يَتَرٌ﴾ [مريم: ٢٠] فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب، إلا أنه لما نسب إليها دل على أنها فهمت من ذلك كونه من غير أب، والله أعلم.

(٢) (عاد كلامه) قال: «فإن قلت لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم... إلخ» قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه فيقولون: المسيح في الآية إن أريد به التسمية وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم؟ والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتئم مع قوله اسمه؟ ويجاب عن الإشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه، والمراد التسمية، وأما عيسى ابن مريم فخبر مبتدأ محذوف تقديره: هو عيسى ابن مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المذكورة، منقطعاً عن قول المسيح. والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

ومصدقاً لما بين يدي، والثاني أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق، فكأنه قيل: وناطقاً بأني قد جئتكم، وناطقاً بأني أصدق ما بين يدي وقرأ اليزيدي: ورسول: عطفاً على كلمة، ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾: أصله أرسلت بأني قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل، و﴿إِنِّي أَخْلُقُ﴾: نصب بدل من، ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾: أو جزّ بدل من آية، أو رفع على: هي أني أخلق لكم، وقرئ: «إني»، بالكسر على الاستئناف، أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾: الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾: فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: «فأنفخها» قال [من البسيط]:

..... كَالْهَبْرَقِيِّ تَنْحَى يَنْفُخُ الْفَحْمَا^(١)

وقيل: لم يخلق غير الخفاش، ﴿الْأَكَمَّة﴾: الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمة أكمة غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير، وروي أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطاق منهم آتاه، ومن لم يطق آتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده، (٢٣٥) وكرر، ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾: دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية، وروي: أنه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا هذا سحر فأرنا آية، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبيء لك كذا، وقرئ «تذخرون»، بالذال والتخفيف، ﴿وَلِأَجْلِ﴾: ردّ على قوله: ﴿يَا ذِينَ رَبِّكَ﴾ أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم ويجوز أن يكون، ﴿مَمْدَقًا﴾: مردوداً عليه أيضاً، أي: جئتكم بآية وجئتكم مصدقاً، وما حرم الله عليهم في شريعة موسى: الشحوم والشراب^(٢) ولحوم الإبل، والسّمك، وكل ذي ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك. قيل: أحل لهم من السمك والطير ما لا صيصية^(٣) له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت، وقرئ «حرم عليكم» على

٢٣٥ - أخرجه الطبري (٤٣١/٦، ٤٣٢)، حديث (٧٠٩٨).
وذكره السيوطي في الدر (٥٧/٢، ٥٨) وعزاه للطبري.

- (١) مولاي الريح رؤفياً وجبهته كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما
للناطقة، يصف ثوراً وحشياً موجهاً قرنيه وجبهته إلى الريح، فهو مستقبلها برأسه وينفخ في مقابلتها بفمه، فيسمع له صوت، فهو كالهبرقي - وزان جعفري وزبرجي - وهو الحداد والصانغ. ويروى: كالحرقى، أي الحداد، نسبة لحرق النار، شبهه به حال كونه انحاز إلى ناحية ينفخ الفحم المنكد بالنار، فينفخ: حال متداخلة.
ينظر: ديوانه (١١٠) واللسان والدر المصون (١٠٥/٢)، والبحر المحيط (٤٨٨/٢).
(٢) قوله «الشراب» الشحوم الرقيقة التي تغشي الكرش والأمعاء. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «ما لا صيصية له» الصيصية شوكة كالتي في رجل الديك. أفاده الصحاح. (ع)

تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عز وجل، أو موسى - عليه السلام -؛ لأن ذكر التوراة دل عليه، ولأنه كان معلوماً عندهم، وقرئ: «حرم»، بوزن كرم ﴿وَجَعَلَكُمْ بَيَاتِرَ مِّنْ ذَيْبِكُمْ﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ زَكَّىٰ وَذَيْبُكُمْ﴾: لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البذل من ﴿آيَةٍ﴾، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: اعتراض، فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت: لأن الله تعالى جعله له علامة يعرف منها أنه رسول كسائر الرسل، حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جَعَلَكُمْ بَيَاتِرَ مِّنْ ذَيْبِكُمْ﴾ أي: جنتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، من خلق الطير، والإبراء، والإحياء، والإنباء بالخفايا، وبغيره من ولادتي بغير أب، ومن كلامي في المهد، ومن سائر ذلك، وقرأ عبد الله. ﴿وجنتكم بآيات من ربكم﴾، فاتقوا الله لما جنتكم به من الآيات، وأطيعوني فيما أَدْعُوكُمْ إليه. ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ زَكَّىٰ وَذَيْبُكُمْ﴾: ومعنى قراءة من فتح: ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه، كقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾... ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ [قرئ: ١ - ٣] ويجوز أن يكون المعنى: وجنتكم بآية على أن الله ربي وربكم وما بينهما اعتراض.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمُنِيرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾: فلما علم منهم، ﴿الْكُفْرَ﴾: علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و﴿وَاللَّهُ﴾: من صلة «أنصاري» مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله، ينصرونني كما ينصرنني، أو يتعلق بمحذوف حالاً من الباء، أي: من أنصاري، ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه، ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾: أي: أنصار دينه ورسوله، وحوارتي الرجل: صفوته وخالصته، ومنه قيل للحضريات: الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن قال [من الطويل]:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ: يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلَا تَبْكِينَ إِلَّا الْكِلَابُ السُّوَابِحُ^(١)
وفي وزنه الحوالي، وهو الكثير الحيلة، وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً

(١) للشكري، يقول: فقل للنساء الحضريات الصافيات البياض يكين غيرنا، كناية عن أنه ليس من أهل التنعم، ثم نهى عن أن يبكينهم أحد إلا الكلاب التي تساق معهم للصيد، أو التي جرت عادتها بأكل قتلاهم في الحرب أو التي تنجهم إذا أقبلوا على أصحابها، كناية عن أنه من أهل البدو والغزو. ينظر البيت في المؤلف والمختلف (٧٩)، ومعاني الزجاج (٤٢٣/١)، ومجاز القرآن ٩٥/١، والجمهرة ٣٣٠/١، ١٤٦/٢، وجامع البيان، ٤٥١/٦، والبحر ٤٩٣/٢، والدر المصون ١١٣/٢.

لإيمانهم، لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم، ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: مع الأنبياء الذين يشهدون لأمرهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنهم شهداء على الناس، ﴿وَمَكَرُوا﴾: الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة، ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل، ﴿وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكَرِينَ﴾: أقواهم مكرراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَفِّرُوا وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾: ظرف لـ «خير الماكرين» أو لـ «مكر الله»، ﴿إِنِّي مُؤَفِّيكَ﴾: أي: مستوفي أجلك. معناه: إني عاصمك^(١) من أن يقتلك الكفار؛ ومؤخرك إلى أجل كتبتك لك، ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيدهم، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: إلى سمائي ومقر ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل «متوفيك»: قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته: وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن: وقيل: متوفي نفسك بالنوم من قوله: ﴿وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاءِ آمِنَ مَقْرَبَ﴾، ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى، ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: تفسير الحكم قوله: ﴿فَأَعَذِّبُهُمْ﴾... ﴿فَتُؤَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾^(٢) وقرئ «فَيُؤَفِّيهِمْ» بالياء.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره، ﴿نَتْلُوهُ﴾: و﴿وَمِنْ

(١) قوله «إني مستوفي أجلك ومعناه إني عاصمك» مبني على أن القتل يموت قبل استيفاء أجله، وهو مذهب المعتزلة. (ع)

(٢) قوله «فأعذبهم فتؤفّيهم» هذا في الذين كفروا. وقوله: فتؤفّيهم... إلخ، في الذين آمنوا. (ع)

الْآيَاتِ: خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، و«تتلوه» صلته. «ومن الآيات» الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره تتلوه، «وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»: القرآن، وصف بصفة من هو سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥١)

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾: إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم^(١)، وقوله: «خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ»: جملة مفسرة لما له شبه^(٢) عيسى بآدم أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، وكذلك حال عيسى. فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب، ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلت: هو مثله في إحدى الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم: لِمَ تعبدون عيسى، قالوا: لأنه لا أب له. قال: فأدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى. قال: فحزقيل أولى، لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. قالوا: كان يبرئ الأكمنة والأبرص. قال: فجرجيس أولى، لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالماً. «خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ»: قدره جسداً من طين، «ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ»: أي: أنشأه بشراً كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، «فَيَكُونُ»: حكاية حال ماضية.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يَظْهَرُ لي فَرْقٌ بين كلامه هذا وبين مَنْ جَعَلَ المَثَلَ بمعنى الشأن والحال وبمعنى الصفة». قلت: قد تقدّم في أول البقرة أَنَّ المَثَلَ قد يُعْبَرُ به عن الصفة وقد لا يُعْبَرُ به عنها؛ فدل ذلك على تغايرهما، وقد مرّ تفسيره وعبارته الناس فيه، ويَدُلُّ على ذلك ما قاله صاحب «رَبِّي الظَّمان» عن الفارسي قال: «قِيلَ: المَثَلَ بمعنى الصفة، وقولك: صفة عيسى كصفة آدم كلامٌ مُطَرَّد، على هذا جُلُّ اللغويين والمفسرين، وخالف أبو علي الفارسي الجميع، وقال: المَثَلَ بمعنى الصفة لا يُمكنُ تصحيحه في اللغة، إنما المَثَلَ التشبيه، على هذا تدورُ تصاريُفُ الكلمة، ولا معنى للوصفية في التشابه، ومعنى المثل في كلامهم «أنها كلمة يرسلها قائلها لحكمة يُخْبِرُ بها الأمورَ ويقابلُ بها الأحوال» قلت: فقد فُرِّقَ بين لفظِ المثل في الاصطلاح وبين الصفة. انتهى. الدرر المصون.

(٢) قوله «لما له شبه» أي للأمر الذي لأجله كان ذلك التشبيه. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولو كان الخَلْقُ بمعنى الإنشاء لا بمعنى التقدير، لم يَأْتِ بقوله «كن»؛ لأنَّ ما خُلِقَ لا يقال له: كُنْ، ولا يُنشَأُ إلا إنَّ كان معنى «ثم قال له كن» عبارة عن نُفْخِ الروح فيه. «قلت: قد تعرّض الواحدي لهذه المسألة فَأَتَقَنَّاها فقال: «وهذا - يعني قوله خلقه من =

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٦)

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق كقول أهل خيبر: محمد والخميس (٢٣٦) ونهيه عن الامتراء - وجل رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً - من باب التهيس لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَيْلِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (١٧)

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾: من النصارى، ﴿ فِيهِ ﴾: في عيسى، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَيْلِ ﴾: أي: من البيئات الموجبة للعلم، ﴿ تَعَالَوْا ﴾: هلموا، والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعالَ تفكر في هذه المسألة، ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾: أي: يدع كل مني ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباحلة، ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾: ثم نتباهل بأن نقول: بهله الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة بالفتح، والضم: اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته من قولك: «أبهله» إذا أهمله، وناقاة باهل: لاصرار عليها^(١) وأصل الابتهاهل هذا، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاننا، وروي: «أنهم لما دعاهم إلى المباحلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبياً مرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا بنت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتى رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين أخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليه

٢٣٦ - سيأتي تخريجه في سورة الصفات.

قال الحافظ: هو طرف من حديث أنس متفق عليه بلفظ «صبح رسول الله - ﷺ - أهل خيبر وقد خرجوا بالمساحي على أعناقهم فلما راوه قالوا: هذا محمد والخميس... الحديث».

وسايتي في صورة الصفات انتهى.

= تراب - ليس بصلوة لآدم ولا صفة، لأن الصلة للمبهمات والصفة للكرات ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير لحال آدم عليه السلام، قال: «قال الزجاج» وهذا كما تقول في الكلام: «مَثَلُ كَمَثَلِ زيد» تريد أنك تشبهه في فعلٍ ثم تخبر بقصة زيد، فتقول: فعل كذا وكذا. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله «وناقة باهل لاصرار عليها» في الصحاح صرورت الناقاة شددت عليها الصرار، وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية، لتلا يرضعها ولدها. وفيه الخلف: حلمة ضرع الناقاة. وفيه التودية: خشبة تشد عليه. (ع)

خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأَمْتُوا، فقال أسقف نجران^(١): يا معشر النصارى، إني لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نفرّك على دينك ونثبت على ديننا قال: «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فأبوا. قال: «فإني أناجزكم» فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا ترددنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة: ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد. فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» (٢٣٧) وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود. فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. (٢٣٨) فإن قلت: ما كان دعاؤه

٢٣٧ - أخرجه أبو نعيم في الدلائل (٢٥٨/١، ٢٥٩) عن ابن عباس عن الشعبي عن جابر قال: قدم على النبي - ﷺ - العاقب، والطبيب والطبري (٤٧٩/٦)، حديث (٧١٨١)، (٧١٨٣) في الأول عن محمد بن جعفر بن الزبير والثاني عن السدي وأخرجه ابن إسحاق (٦٧٧ - سيرة بن هشام) وأخرجه أبو داود (١٦٧/٣): كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب في أخذ الجزية، حديث (٣٠٤١) عن ابن عباس بنحو الأول.

قال الحافظ: أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بطوله وابن مروان متروك متهم بالكذب ثم أخرج أبو نعيم نحوه عن الشعبي مرسلًا، وفيه «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فأعطونا الجزية. كما قال الله تعالى. قالوا: ما نملك إلا أنفسنا قال: فإن أبيتم فإني أنبذ إليكم على سواء، فقالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب، ولكن نؤدي الجزية، فجعل عليهم في كل سنة ألفي حلة: ألفاً في صفر، وألفاً في رجب، فقال - ﷺ - : لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاعة» رواه الطبري من طريق أبي إسحاق، حدثني محمد بن جعفر بن الزبير في قوله ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ آفَافُكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ فذكره مرسلًا، وفي سنن أبي داود من حديث ابن عباس «صالح النبي - ﷺ - أهل نجران على ألفي حلة النصف في صفر، والبقية في رجب يؤدونه إلى المسلمين» وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يزوها عليهم، وهو طرف من هذه القصة. انتهى.

٢٣٨ - أخرجه مسلم (٢٠٨/٨ - نووي): كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أهل البيت، حديث (٦١/١٠٢٤)، (٢٤٤٤)، والحاكم (١٤٧/٣): كتاب الفضائل وابن أبي شيبة (٣٧٠/٦)، حديث (٣٢١٠٢).

(١) قوله «فقال أسقف نجران يا معشر النصارى» أي حبرهم عبد المسيح اهـ. (ع)

إلى المباهلة إلا لبيتين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختص به ويمن يكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده^(١) وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مدفون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَقْصَصُ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ لِيُخْرِجَ إِلَيْكُمْ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٦٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٦٧﴾

﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي قص عليك من نبأ عيسى، ﴿لَهُوَ أَقْصَصُ الْحَقِّ﴾: قرئ بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون، لأن اللام تنزل من ﴿هو﴾ منزلة بعضه، فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ و«القصص الحق» خبره، والجملة خبر «إن». فإن قلت: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ، و«من» في قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ»: بمنزلة البناء على الفتح في «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق، والمراد الرد على النصارى في تثليثهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: «يَذَنَّبُهُمْ عَذَابًا قَوْفًا فَكَانُوا»

= وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وهو واهم في ذلك فالحديث أخرجه مسلم.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٧٧/١) وعزاه لمسلم، وأحمد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والحاكم عن عائشة.

قال الحافظ: أخرجه مسلم من طريق صفية بنت شيبة عنها. وغفل الحاكم فاستدركه. انتهى.

(١) قوله «وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه» في الصحاح: الفلذ: كبد البعير. والجمع: أفلاذ. والفلذة: القطعة من الكبد واللحم والمال وغيرها، والجمع فلذاه، فتدبر. (ع)

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ فَآلُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١٦) يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِي إِزْهِيمٍ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِيَّةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هَكَأَنْتُمْ هُنَاكَ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ إِزْهِيمٌ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِزْهِيمٍ لِلَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ﴾ : قيل : هم أهل الكتابين ، وقيل : وفد نجران ، وقيل : يهود المدينة ، ﴿سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ : مستوية بيننا وبينكم ، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل ، وتفسير الكلمة قوله : ، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ : يعني تعالوا إليها حتى لا نقول : عزيز ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا ، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله ، كقوله تعالى : ﴿أَتَعْبُدُونَ الْبَاطِلَ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَرْبَابُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُنْزِلُوا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَحَدًّا﴾ (التوبة : ٣١) وعن عدي بن حاتم : «ما كنا نعبدكم يا رسول الله ، قال : أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال : نعم . قال : هو ذاك» وعن الفضيل : لا أبالي أطلع مخلوقاً في معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة ، وقرأ «كلمة» بسكون اللام ، وقرأ الحسن «سواء» بالنصب بمعنى استوت استواء ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ : عن التوحيد ، ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ : أي : لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأننا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما : اعترف بأنني أنا الغالب وسلم لي الغلبة ، ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره . زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم ، وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه فقبل لهم : إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة ، والنصرانية بعد نزول الإنجيل ، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبينه وبين عيسى ألفان ، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمة متطاولة؟ ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ : حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال ، ﴿هَكَأَنْتُمْ هُنَاكَ﴾ : «ها» للتنبيه ، و«أنتم» مبتدأ و«هؤلاء» خبره ، و«حَبَجْتُمْ» : جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى ، يعني أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى

وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم، ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: مما نطق به التوراة والإنجيل، ﴿فَلِمَ تَجَاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم، وعن الأخفش: ها أنتم هو أنتم على الاستفهام. فقلبت الهمزة هاء، ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم، وقيل:، ﴿مُؤَلَّاهُ﴾: بمعنى اللذين و﴿حَبَجْتُمْ﴾: صلته، و﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾: علم ما حاجتكم فيه، و﴿وَأَنْتُمْ﴾: جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا، ﴿حَيِّيًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركون اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيزاً والمسيح، ﴿إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾: إن أخصهم به وأقربهم منه من الولي وهو القرب، ﴿لِلَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ﴾: في زمانه وبعده، و﴿وَكَذَلِكَ الْكُتُبُ﴾: خصوصاً، و﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: من أمته، وقرئ: «وهذا النبي» بالنصب عطفًا على الهاء في «اتبعوه»، أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجذر عطفًا على إبراهيم.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ﴾ (٦٩)
يَتَّهَلَّ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ﴿٧٥﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُونُ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾: هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية، و﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾: وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم. أو وما يقدرون على إضلال المسلمين، وإنما يضلون أمثالهم من أشيعهم، ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها، وشهادتهم: اعترافهم بأنها آيات الله. أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول، ﴿وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ﴾: نعتهم في الكنايين. أو تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق. قرئ «تلبسون» بالتشديد وقرأ يحيى بن وثاب «تلبسون» بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل. كقوله: «كلايس ثوبني زور»، وقوله [من الطويل]:

إِذَا هُوَ بِالْمَجْدِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا^(١)

(١) فلا أب وابناً مثل مروان وابنه إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

للفرزدق. وابناً: نصب عطفًا على موضع الأب، ومثل بالرفع - خبر لا أو نصب صفة لأب وابناً، والخبر محذوف. وابنه هو عبد الملك. و «إذا هو» أي مروان، لأن مجد الابن ينجد الأب لا العكس، والمراد بالمجد هنا: الأفعال الحميدة التي تتجدد منه، ثم إنه شبهه باللباس بجامع صون كل لصاحبه على طريق المكنية، والارتداء والتأزر تخييل. ويحتمل أنه شبه الانصاف به ظاهراً وباطناً بالارتداء والتأزر على طريق التصريحية. ويجوز أن المراد من «إذا» الزمن المستمر، لا المستقبل فقط.

﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا
 آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ وَبَيْنَكُمْ قُلٌّ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي اللَّهُ فِتْنَةً إِنَّ يُونُسَ
 أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِلْكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ
 عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾: أوله. قال [من الكامل]:

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَاتِ نَسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ^(١)

والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار، ﴿وَآكُفُّوا﴾: به في
 آخره لعلهم يشكون في دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد يتبين
 لهم فيرجعون برجعوكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر، وقال بعضهم
 لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار وقولوا:
 إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه
 وبطلان دينه فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، وقيل: هذا في شأن القبلة لما
 صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى
 الكعبة وصلوا إليها في أول النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة، ولعلهم

= وهو لرجل من عبد مائة بن كنانة في تخليص الشواهد ص ٤١٣، ٤١٤؛ وخزانة الأدب ٦٧/٤،
 ٦٨؛ وشرح التصريح ٢٤٣/١؛ وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٠٧، والمقاصد النحوية ٣٥٥/٢،
 وله أول للفرزدق في الدرر ١٧٢/٦، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ٤١٩/١، ٥٩٣/٢، ٨٤٧،
 وأوضح المسالك ٢٢/٢، وجواهر الأدب ص ٢٤١، وشرح الأشموني ١٥٣/١، وشرح قطر
 السندی ص ١٦٨، وشرح المغضل ١٠١/٢، ١١٠ واللامات ص ١٠٥، واللمع ص ١٣٠،
 والمقتضب ٣٧٢/٤، مع الهوامع ١٤٣/٢.

(١) من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
 يجد النساء حواسراً يندبنه يلطمعن أوجههن بالأسحار

لربيع بن زياد. يرثي مالك بن زهير العبيسي. ووجه النهار: أوله. والحواسر: كاشفات الوجوه،
 وصرف للوزن. والتدبة: رفع الصوت بالبكاء على الميت. والأسحار: مقدم أعالي الأعناق. والباء
 بمعنى مع. كانت عادة العرب أن لا يندبوا القتيل إلا بعد أخذ ثأره فضعن الرثاء معنى المدح لهم
 والتشفي من عدوهم. وقال: من كان شامتا بقتله فليجيء إلى نسائنا في أول النهار يجدهن كاشفات
 وجوههن يكيبن عليه برفع أصواتهن، يضررن أوجههن مع صفاح أعناقهن. يعني أننا أخذنا ثأره فحل
 لنسائنا البكاء عليه، وانتقد ابن العميد قوله: فليأت نسوتنا. والله در الإمام المروزقي حيث أبدله
 بقوله: فليأت ساحتنا، لأنه فيه أيضاً الفرار من الإظهار موضع الإضممار.

ينظر البيت في ديوان الحماسة ٤٩٤/١، واللسان (وجه)، ومجاز القرآن ٩٧/١، وأمالي المرتضى
 ٢١١/١، والأشباه والنظائر ٨٢/٢، وتذكرة النحاة ص ١٣٩، والاستغناء في أحكام الاستثناء ص
 ٦٣٢، والبحر المحيط ٥١٧/٢، والدر المصون ١٣٤/٢.

يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون، ﴿وَلَا تُؤْيُوا﴾: متعلق بقوله: ، ﴿أَنْ يُؤَيَّ أَحَدٌ﴾: وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام، ﴿أَوْ يُهَاجَرُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: غطف على أن يؤتى^(١) والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع^(٢)، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أنبياءكم، أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة. فإن قلت: فما معنى الاعتراض؟ قلت: معناه أن الهدى هدى الله، من شاء أن يلف به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيككم تصديقكم عن المسلمين والمشركين، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَ صَلَّ بِإِذْنِ اللَّهِ يُوَيْتِي مِنْ شَاءِ﴾: يريد الهداية والتوفيق. أو يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: على معنى: ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار «إلا لمن تبع دينكم»: إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغبط لهم، وقوله: ، ﴿أَنْ يُؤَيَّ أَحَدٌ﴾: معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلت ذلك ودبرتموه، لا شيء آخر، يعني أن ما بكم من الحسد والبغى .. أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب - دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: أن يؤتى أحد بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد. فإن قلت: فما معنى قوله: ، ﴿أَوْ يُهَاجَرُوا﴾: على هذا؟ قلت: معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون، ﴿هُدًى اللَّهِ﴾: بدلاً من الهدى، و﴿أَنْ يُؤَيَّ أَحَدٌ﴾: خبر إن، على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم «أو يحاجوكم» حتى يحاجوكم «عند ربكم» فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجبتكم، وقرئ: «إن يؤتى أحد». على إن النافية، وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما

(١) قال محمود: «أو يحاجوكم معطوف على أن يؤتى... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب، لأن الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات، إذ حاصله أنه أنكر عليهم وبخهم على وما وقع منهم وهو إخفاء الإيمان بأن النبوة لا تخص بني إسرائيل لأجل العلتين المذكورتين. فهو إثبات محقق. ويمكن أن يقال: روي صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقة، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه. والله أعلم.

(٢) قال محمود: «والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع... إلخ» قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله ﴿فَمَا يَنْكُرُونَ أَمْرَهُ حَتَّى يَسْمُرُوا﴾.

أوتيتهم حتى يحاجوكم عند ربكم، يعني ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب، ﴿أَنْ يُؤْتَهُ﴾: بفعل مضمر يدل عليه قوله: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ»: كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله، فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم؛ لأن قولهم، «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ»: إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

عن ابن عباس، ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ﴾: هو عبد الله بن سلام، استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأذاه إليه، و﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ﴾: فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجحده وخانه، وقيل: المأمونون على الكثير النصارى، لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود، لغلبة الخيانة عليهم، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾: إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه، وقرئ: «يؤده» بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، ويسكونها، وقرأ يحيى بن وثاب: «تضمنه»، بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ عليه لم يؤده، أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم، ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾: أي: لا يتطرق علينا عتاب ودم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم، لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة، وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها: «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر» (٢٣٩) وعن ابن عباس أنه

٢٣٩ - أخرجه الطبري (٥٢٢/٦)، حديث (٧٢٦٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٩/٢)، حديث (٨١٢) وذكره السيوطي في الدر (٧٨/٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير.
قال الحافظ:

أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق يعقوب بن التعمان القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير به مراسلاً. انتهى.

سأله رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل. إنهم إذا أذوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم، (٢٤٠) وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ: بَادِعَانَهُمْ أَنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِمْ، وَهُمْ يَمْلِكُونَ: أنهم كاذبون، بَيِّنَات: إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي: «بلى» عليهم سبيل فيهم، وقوله: «مَنْ أَوْفَى يَهْدِيهِ»: جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدت «بلى» مسدّها، والضمير في «بعهده» راجع إلى «من أوفى»، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه. فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير، وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَتَمَنُّونَهُمْ كَمَا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْفِّرُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٦﴾ وَإِنْ مَتَّهَ لَقَرِيفًا يَلُوتَ أَلَسْنَتُهُمْ بِالْكِتَابِ لِيَتَحَسَّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

﴿يَشْتَرُونَ﴾: يستبدلون، ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾: بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم، ﴿وَيَتَمَنُّونَهُمْ﴾: وبما حلفوا به من قولهم، والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿كَمَا قَلِيلًا﴾: متاع الدنيا من التروس والارتشاء ونحو ذلك، وقيل: نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وحبي بن أخطب، حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله ﷺ، وأخذوا الرشوة على ذلك، وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم

٢٤٠ - أخرجه الطبري (٥٢٣/٦)، حديث (٧٢٧٣) وعبد الرزاق في تفسيره (١٢٣/١)، (١٢٤).

قال الحافظ:

أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق أبي إسحاق عن صمصمة بن معاوية أنه سأل ابن عباس - فذكره انتهى.

ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه. فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعت الذي نعت لنا، ففرح ومارهم، وعن الأشعث بن قيس: نزلت في، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهدك أو يمينه» فقلت إذن يحلف ولا يبالي فقال «من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان» وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه، والوجه أن نزولها في أهل الكتاب، وقوله: «يَعِدُ اللَّهُ»: يقوِّي رجوع الضمير في «بعده» إلى الله، «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ»: مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه، «وَلَا يَرْكَبُهُ»: ولا يثني عليهم. فإن قلت: أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر، «لَقَرِيفًا»: هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وغيرهم، «يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكُتُبِ»: يفتلونهم بقراءته عن الصحيح إلى المحرف وقرأ أهل المدينة: «يلوون»، بالتشديد، كقوله: «لُوا رُؤُوسَهُمْ» [المنافقون: 5]، وعن مجاهد وابن كثير: يلون ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة، ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في، «يَحْسَبُوهُ»؟ قلت: إلى ما دلّ عليه «يلوون» ألسنتهم بالكتاب وهو المحرف، ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب وقرئ: «ليحسبوه» بالياء، بمعنى: يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب، «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»: تأكيد لقوله: هو من الكتاب، وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم لا يعرضون ولا يورون وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزل الله تعالى على موسى كذلك لفرط جراتهم على الله وقساوة قلوبهم وبأسهم من الآخرة، وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّصُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وَلَا

يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالتَّيْنِ أَرْبَابًا أَيَّامُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿مَا كَانَ لِيَسْكَ﴾ : تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى، وقيل: إنَّ أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالوا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله! فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني فنزلت، (٢٤١) وقيل: قال رجل: يا رسول الله، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله (٢٤٢) ﴿وَاللَّكُمْ﴾ : والحكمة وهي السنة، ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ : ولكن يقول: كونوا، والرباني: منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون؛ كما يقال: رقباني ولحياني، وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته، وعن محمد ابن الحنفية: أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة، وعن الحسن: ربانيين: علماء فقهاء، وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني: العالم العامل المعلم، ﴿يَمَا كُنْتُمْ﴾ : بسبب كونكم عالمين^(١) وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد

٢٤١ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٨٤/٥).

والطبري (٥٣٩/٦)، حديث (٧٢٩٦) عن ابن عباس وابن إسحاق (٦٣٥ - سيرة بن هشام). وذكره السيوطي في الدر (٨٢/٢) وعزاه لابن إسحاق والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس. قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه البيهقي في الدلائل والطبري من طريق ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله فيهم ﴿يَتَاخَلَّصُ لَكُمْ لَكُمْ لَكُمْ﴾ الآية» قال أبو رافع القرظي ورجل آخر منهم يقال له الرئيس وهو السيد - لرسول الله ﷺ - وقد دعاهم للإسلام - أتريد مثا يا محمد - فذكره، وذكر الواحد في الأسباب من طريق الكلبي وعطاء بن عيش «أن أبا رافع والرئيس من نصارى نجران قالوا يا محمد - فذكره». انتهى.

٢٤٢ - ذكره السيوطي في الدر (٨٢/٢) وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٩٢/١)، حديث ١٩٩ وقال: غريب، وعزاه للواحد في أسباب النزول عن الحسن بلفظ السيوطي: بلغني أن رجلاً... قال الحافظ:

لم أجد له إسناداً ونقله الواحد في الأسباب عن الحسن البصري «أن رجلاً» فذكره انتهى.

(١) قوله «بسبب كونكم عالمين» تفسير لقراءة (تعلمون) من العلم. (ع)

نفسه وكذ روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء توفقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها: وقرىء «تعلمون»، من التعليم. «وتعلمون» من التعلم، ﴿تَدْرُسُونَ﴾: تقرأون، وقرىء «تدرسون»، من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى دُرِس كأكرم وكُرم وأنزل ونُزل. «وتدرسون»، من التدريس، ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس كقوله: ﴿يَتَقَرَّوْا عَلَى الْكَلْبِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فيكون معناه معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته، وقرىء «ولا يأمركم» بالنصب عطفاً على، ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾: وفيه وجهان: أحدهما: أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ» والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم، ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ آلِهَةً﴾: كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي، والثاني: أن تجعل «لا» غير مزيدة، والمعنى: أن رسول الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح. فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبه الله، ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله «ولن يأمركم»، والضمير في، ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾: و﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: لبشر، وقيل لله، والهمزة في يأمركم للإنكار، ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْكُمْ مِنْ كَتَبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصَرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨٢﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُوتُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿مِيثَاقَ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾: فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول ميثاق الله وعهد الله، كأنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم، والثالث: أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع: أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم، لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبي وابن

مسعود: «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب واللام في، ﴿لَمَّا آتَيْنَكُمْ﴾: لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف^(١) وفي «لتؤمنن» لام جواب القسم، و «ما» يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، و«لتؤمنن» ساذ مسد جواب القسم والشرط جميعاً وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به، وقرئ: «لما آتيناكم» وقرأ حمزة: «لما آتيتكم». بكسر اللام ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة؛ ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. على أن «ما» مصدرية، والفعالان معها أعني «آتيتكم» و «جاءكم» في معنى المصدرين، واللام داخلة للتعليل على معنى: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه، لأجل أنني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي أمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون «ما» موصولة^(٢). فإن قلت: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: «ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾: لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة، لأنك لا تقول: للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت: بلى^(٣) لأن ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنه قيل: للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له، وقرأ سعيد بن جبير «لما» بالتشديد، بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة. ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته، وقيل: أصله لمن ما، فاستقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم، فحذفوا إحداها فصارت لما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى، ﴿إِسْرِي﴾: عهدي، وقرئ: «أصري» بالضم، وسمي إصراً، لأنه مما يؤصر، أي: يشد ويعقد، ومنه الإصرار، الذي يعقد به، ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر، كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصرار، ﴿فَأَشْهَدُوا﴾: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ من إقراركم وتشاهدكم، ﴿بَيْنَ الشَّاهِدِينَ﴾: وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع

(١) قال محمود: اللام في لما آتيتكم لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى القسم... الخ، قال أحمد: يريد على أن قوله (رسول) فاعل جاء، لأنه لا يخلو من الضمير وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً ورسول خبر الموصول. ولم يرد الزمخشري إلا الأول، وهو ظاهر الآية.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وفيه حدس لطيف جداً وحاصل ما ذكر أنهم إن أرادوا تفسير المعنى فيمكن أن يقال، وإن أرادوا تفسير الإعراب فلا يصح، لأن كلاً منهما - أعني الشرط والقسم - يطلب جواباً على حدة، ولا يمكن أن يكون هذا محمولاً عليهما؛ لأن الشرط يقتضيه على جهة العمل فيكون في موضع جزم، والقسم يطلبه من جهة التعلق المعنوي به من غير عمل فلا موضع له من الإعراب، مُحال أن يكون الشيء له موضع من الإعراب ولا موضع له من الإعراب. انتهى. الدر المصون.

(٣) عاد كلامه، قال مجيباً عن السؤال: «قلت: بلى... الخ» قال أحمد: يريد أن الكلام وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض، وقيل: الخطاب للملائكة، ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾: الميثاق والتوكيد، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أي: المتمردون من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة، والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبيعون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿أَنَّ﴾: يتولون ﴿فغير دين الله يبيعون﴾: وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أنَّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل، وروي: أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم - عليه السلام -؛ وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم» (٢٤٣) فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت: وقرئ: «يبيعون»، بالياء: «وترجعون» بالياء وهي قراءة أبي عمرو، لأنَّ الباغيين هم المتولون، والراجعون جميع الناس، وقرئ بالياء معاً، وبالطاء معاً، ﴿طَوَّعًا﴾: بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه، ﴿وَكَرِهًا﴾: بالسيف، أو بمعاناة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت^(١) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: ٨٤] وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، بمعنى طائعين ومكرهين.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان، فلذلك وحد الضمير في، ﴿قُلْ﴾: وجمع في، ﴿آمَنَّا﴾: ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. فإن قلت: لم عدَّى «أنزل» في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر، ومن قال: إنما قيل،

٢٤٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/١٩٢): غريب ونقله الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس: أنَّ أهل الكتاب اختصموا... ا.هـ.
ذكر الحافظ ابن حجر: لم أجد له إسناداً، وذكره الواحدي في الأسباب أيضاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - انتهى.

(١) قوله: «والإشفاء على الموت» أي الإشراف، كما في الصحاح (٤).

﴿عَلَيْكَ﴾: لقوله:، ﴿قُلْ﴾:؛ و﴿إِنَّمَا﴾: لقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ [البقرة: ١٣٦] تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف. ألا ترى إلى قوله: ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٨]، و﴿أُنزِلْنَا إِلَيْكَ أَلَكِيبَ﴾ [النساء: ١٥٥] وإلى قوله:، ﴿هَامِئًا يَلْعَنُ أُولَئِكَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ﴿وَتَحَنَّنَ لَكُمُ الْمُسْلِمُونَ﴾: موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها؛ ثم قال:، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى:، ﴿يُحِبَّ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشياع، وقرىء: «ومن يبتغ غير الإسلام» بالإدغام.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ كُلِّ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) وَلَا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾: كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق، وبعدما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به؛ وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات، وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم طعمة بن أبيرق، ووَخُوحُ بن الأسلت، والحرث بن سويد بن الصامت. فإن قلت: علام عطف قوله، ﴿وَشَهِدُوا﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل؛ لأن معناه بعد أن آمنوا، كقوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنْ﴾ [المنافقون: ١٠] وقول الشاعر [من الطويل]:

... لَيْسُوا مُضِلِّجِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ^(١)

(١) مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بيمين غرابها

أنشده أبو المهدي. والشؤم: ضد اليمن. والناعب: الصائح، من باب ضرب ونفع، واليمين: مصدر بمعنى الانفصال والبعد. وجر ناعب على توهم: ليسوا بمصلحين ولا ناعب، وجعل هذا جمهور النحاة مطرداً، ومنعه بعضهم. وروى «إلا بشؤم» وصوت الغراب كثيراً ما تتشاه منه العرب. وهو كتابة عن تشتت شمل تلك المشائيم وعدم اتفاق كلمتهم.

البيت للفرزدق وقيل للأحوص الدياحي - ينظر الكتاب (١/١٦٥)، (٩١٣) للفرزدق، والإنصاف ١٩٣/١، والخصائص (٤/٣٥٤)، والمغني ٢/٤٧٥، والحافظ في البيان ٢/٢٦١، وروح المعاني =

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار «قد» بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق، **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** : لا يُلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم. ، **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** : الكفر العظيم والارتداد، **﴿وَأَسْكَنُوا﴾** : ما أفسدوا أو ودخلوا في الصلاح، وقيل: نزلت في الحرث بن سويد بعد أن ندم على رذته وأرسل إلى قومه أن سلوا: هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية. فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول الله ﷺ توبته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَصَاوُونَ﴾ (١٠) **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْكَ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾** (١١)

﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ : هم اليهود كفروا بعمى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن. أو كفروا برسول الله بعدما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم في كل وقت، وعداوتهم له، ونقضهم ميثاقه، وفتنتهم للمؤمنين، وصددهم عن الإيمان به، وسخرتهم بكل آية تنزل، وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نترصد بمحمد ريب المنون، وإن أردنا الرجعة نافتنا بإظهار التوبة. فإن قلت: قد علم أن المرتد كيفما ازداد كفراً فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى، **﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾** ؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ماتتوا على الكفر، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم. فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين، **﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾** : بغير فاء، وفي الأخرى، **﴿لَنْ يُقْبَلَ﴾** ؟ قلت: قد أؤذن بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب. كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم. فإن قلت: فحين كان المعنى، **﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾** : بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجزءه إلى الموت على الكفر؟ قلت: لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر. فإن

= ٩٨/١٢، والخزانة ١٥٨/٤ والأشمونى ٢٣٥/٢ وابن عيش ٥٢/٢، ورغبة الأمل ٩٣/٤ وضرائر الشعر ص ١٨٠، والدر المصون ١٦١/٢.

قلت: فأني: فائدة في هذه الكناية، أعني أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟ قلت: الفائدة فيها جلييلة، وهي التغليب في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدها، ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة، ﴿ذَهَبًا﴾: نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: «ذهب»، بالرفع رداً على «ملء»، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال. فإن قلت: كيف موقع قوله: «وَلَوْ أَتَيْنَا بِهٖ»^(١):؟ قلت: هو كلام محمول على

(١) قال محمود رحمه الله: «إن قلت كيف موقع قوله ولو افتدى به... الخ» قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره، ثم نقرر وجهاً يطابق الآية، وذلك أن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى، مثاله قولك: أكرم زيداً ولو أساء، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره: أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن أساء على أن إكرامه أن أحسن بطريق الأولى. ومنه ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ معناه - والله أعلم: لو كان الحق على غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه ذكر ما هو أسوأ عليهم، فأوجه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً، لأن قوله: ﴿وَلَوْ أَتَيْنَا بِهٖ﴾ يقتضي شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منها عليه بطريق الأولى، وهذه الحال المذكورة وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها، فلذلك قدر الكلام بمعنى: لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن يتنفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور. وأما تنزيل الآية عليه فمفسر جداً، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله فنقول: قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال: منها أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول. ومنها أن يقول المقتدي في التقدير: أفندي نفسي بكذا، وقد لا يفعل. ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدر الذي يفدي به نفسه ويجعله حاضراً عتيقاً، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول فديته. وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول، وهو أن يفندي بملء الأرض ذهباً افتداءً محققاً بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً، ومع ذلك لا يقبل منه؛ فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها، تنبيهاً على أن ثم أحوالاً آخر لا يقع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة. وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُسْلِمِينَ لَمْ يَأْتُوا بِالْحَقِّ بَشَرًا إِلَّا ضَالِّينَ﴾ والله أعلم. وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من العويد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلاس في ذلك اليوم. ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القاتل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلي في يدي هذه، فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع. والله ولي التوفيق.

المعنى. كأنه قيل: فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ويجوز أن يراد: ولو افتدى بمثله^(١)، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ [الزمر: ٤٧] والمثل يحذف كثيراً في كلامهم، كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله «ولا هيثم الليلة للمطبي» وقضية ولا أبا حسن لها، تريد: ولا مثل هيثم، ولا مثل أبي حسن، كما أنه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا، تريد أنت، وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسد الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدق به، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه، وقرئ: «فلن يُقْبَلَ من أحدهم ملء الأرض ذهباً» على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا، ونصب «ملء»، ومل ك «رض» بتخفيف الهمزتين.

﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلَيْهِ﴾ (١٧):

﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾: لن تبلغوا حقيقة البر، ولن تكونوا أبراراً، وقيل: لن تنالوا بر الله وهو ثوابه، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها، وتؤثرونها كقوله: ﴿تُنْفِقُوا مِنْ مَّا كَسَبْتُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله، وروي: أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله. إن أحب أموالي إليّ بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ «بخ بخ ذاك مال رابع أو مال رائع وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها في أقاربه. (٢٤٤) وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال: هذه

٢٤٤ - أخرجه مالك (٩٩٥/٢) كتاب الصدقة، باب: الترغيب في الصدقة حديث (٢).

- والبخاري (٨٤/٤) كتاب الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب حديث (١٤٦١)، (٢٦٣/٥)، كتاب الوكالة، باب: «إذا قال الرجل لوكيله: ضعه...» حديث (٢٣١٨)، (٣٣/٦) كتاب الوصايا، باب: «إذا أوصى الرجل لأقاربه، حديث (٢٧٥٢)، (٥٣/٦)، باب: «إذا وقف أرضاً ولم يبين الحدود فهو جائز...» حديث (٢٧٦٩)، (٧١/٨) كتاب التفسير، باب: ﴿لَنْ نَنَالُوا آلَاءَ اللَّهِ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾ إلى - ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حديث (٤٥٥٤)، (٢٠٣/١١) باب: استعذاب السماء، حديث (٥٦١١).

- ومسلم (٦٩٣/٢) كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد، حديث (٩٩٨).

- والترمذي (٢٢٤/٥) كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، حديث (٢٩٩٧).

(١) (عاد كلامه) قال: «ويجوز أن يكون معنى الكلام ولو افتدى بمثله... الخ» قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التأويل المتقدم لأنه به بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً على عدم قبول مثلها مرة واحدة بطريق الأولى.

في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله أسامة بن زيد، فكانَ زيداً وجد في نفسه وقال: إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: أما إن الله تعالى قد قبلها منك، (٢٤٥) وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يتناع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبه فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: فاعتقها، ونزل بأبي ذر ضيف فقال للمراعي اتنني بخير إيلبي فجاء بناق مهزولة. فقال: خنتني، قال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال: إن يوم حاجتي إليه يوم أوضع في حفرتي، (٢٤٦) وقرأ عبد الله: «حتى تنفقوا بعض ما تحبون»، وهذا دليل على أن «من» في، ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: للتبعض، ونحوه: أخذت من المال، و«من» في، ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا﴾: لتبيين ما تنفقوا، أي: من أي شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه، ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا﴾: عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ قُلْ قَاتِلُوا بِالتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفَرَّغَ عَلَى اللَّهِ

= - وأحمد (٢٥٦/٣، ١١٥، ١٧٤، ٢٦٢).

- والدارمي (٣٩٠/١) كتاب الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل.

- والبيهقي في سننه (١٦٤/٦) كتاب الوقف، باب: الصدقة في الأفرين.

- وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٩/٢) وعزاه لمالك وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس، وذكر الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - انتهى.

٢٤٥ - أخرجه الطبري في تفسيره (٥٩٢، ٦)، حديث (٧٣٩٧)، من طريق عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن عمرو بن دينار قال: فذكره.

قال الشيخ أحمد شاكر: هذا حديث مرسل، لأن عمرو بن دينار تابعي. داود بن عبد الرحمن العطار المكي: ثقة من شيوخ الشافعي ووثقه ابن معين، وأبو داود، وغيرهما، عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين بن الحارث، المكي الثوفلي: ثقة. أخرج له الجماعة. ١. هـ.

وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب ومن طريقه الطبري في تفسيره (٥٩٢/٦)، بنحو حديث عمرو بن دينار، وهذا الحديث معضل، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره والطبري من طريقه: أخبرنا معمر عن أيوب وغيره «أنه لما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ جاء زيد بن حارثة بقرس له - فذكره - وهو معضل - وأخرجه الطبري من رواية عمرو بن دينار نحوه مرسلًا، ورجاله ثقات. انتهى.

٢٤٦ - أخرجه الطبري في تفسيره (٥٨٨/٦)، رقم (٧٣٩٢) من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد به. وأخرجه الواحدي في الوسيط (٤٦٣/١) من حديث ابن أبي نجيع عن مجاهد به، وقال الحافظ ابن حجر: رواه الطبراني من رواية أبي نجيع عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: «كتب عمر إلى أبي موسى - فذكره» انتهى.

﴿كَذَّبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٤١)

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾: كل المطعومات أو كل أنواع الطعام، والحل مصدر. يقال: حل الشيء حلا كقولك: ذلت الدابة ذلاً، وعزَّ الرجل عزّاً، وفي حديث عائشة - رضي الله عنها -: كنت أطيعه بحله وحرمه، (٢٤٧) ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث

٢٤٧ - أخرجه البخاري (٣/٣٩٦): كتاب الحج: باب الطيب عند الإحرام، وما يلبس إذا أراد أن يحرم ويرتجل ويذهن، حديث (١٥٣٩)، ومسلم (٢/٨٤٦): كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام، حديث (٣٣/١١٨٩)، وأبو داود (٢/٣٥٨، ٣٥٩): كتاب المناسك (الحج): باب الطيب عند الإحرام، حديث (١٧٤٥)، والترمذي (٣/٢٥٩): كتاب الحج: باب ما جاء في الطيب عند الإحلال قبل الزيارة، حديث (٩١٧)، والنسائي (٥/١٣٦، ١٣٧، ١٣٨): كتاب الحج: باب الطيب عند الإحرام، وابن ماجه (٢/٩٧٦): كتاب المناسك: باب الطيب عند الإحرام، حديث (٢٩٢٦)، ومالك (١/٣٢٨): كتاب الحج: باب ما جاء في الطيب في الحج، حديث (١٧)، وابن الجارود (٤١٤)، والشافعي في «المسند» (ص: ١٢٠)، والحميدي (١/١٠٤)، رقم (٢١٠)، والدارمي (٢/٣٣): كتاب الحج: باب الطيب عند الإحرام وأحمد (٦/١٨١، ١٨٦، ١٩٢، ٢٠٠) وابن خزيمة (٤/١٥٥).

والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/١٣٠): باب الطيب للمحرم والبيهقي (٥/٣٤) وابن طهمان في مشيخته (٢٠، ١٦٠، ١٦٣) والدارقطني (٢/٢٧٤) من طرق عن القاسم عن عائشة به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (٢/٨٤٦) كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام حديث (٣١/١١٨٩)، والنسائي (٥/١٣٦ - ١٣٧) كتاب المناسك: باب إباحة الطيب عند الإحرام والشافعي في «المسند» (ص - ١٢٠) والحميدي (١/١٠٥) رقم (٢١١) والبيهقي (٥/٣٤) وأبو يعلى (٧/٣٥٣) رقم (٤٣٩١) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: طُيِّبَ رسول الله - ﷺ - لإحرامه وطُيِّبَتْه لإحلاله قبل أن يطوف بالبيت.

وأخرجه البخاري (١٠/٣٨٢) كتاب اللباس: باب ما يستحب من الطيب حديث (٥٩٢٨) ومسلم (٢/٨٤٧) كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام (٣٦، ٣٧/١١٨٩) والنسائي (٥/١٣٧ - ١٣٨) كتاب المناسك: باب إباحة الطيب عند الإحرام والدارمي (٢/٣٣) كتاب المناسك: باب الطيب عند الإحرام وأحمد (٦/١٣٠، ١٦٢) والحميدي (١/١٠٦) رقم (٢١٣) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/١٣٠) والبيهقي (٥/٣٤) من طريق عثمان بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنت أطيِّب النبي - ﷺ - عند إحرامه بأطيب ما أجد وهذا لفظ البخاري.

وأخرجه البخاري (٣/٣٩٦) ومسلم (٢/٨٤٧) كتاب الحج: باب الطيب للمحرم عند الإحرام (٣٩/١١٩٠) وأبو داود (١/٥٤٤) كتاب المناسك: باب الطيب عند الإحرام (١٧٤٦) والنسائي (٥/١٤٠) وابن ماجه (٢/٩٧٧) كتاب المناسك: باب الطيب عن الإحرام (٢٩٢٨) وأحمد (٦/٣٨، ٢٤٥) وابن الجارود (٤١٥) وابن خزيمة (٤/١٥٧) رقم (٢٥٨٧) والطيلالسي (١٣٧٨) والحميدي (١/١٠٦) رقم (٢١٥) والبيهقي (٥/٣٤) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/١٢٩ - ١٣٠) من طريق الأسود عن عائشة قالت: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِصِ الطَّيِّبِ فِي مَفْرَقِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وهو محرم.

والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لَاهُنْ حُلٌّ لَهُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب - عليه السلام - على نفسه لحوم الإبل والبانها وقيل العروق. كان به عرق النساء، فندر إن شفي أن يحرم على نفسه أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحبه إليه فحرمه، وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه، ففعل ذلك بإذن من الله، فهو كتحريم الله ابتداء والمعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرمه أبوه إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿يُظْلِمُونَ الَّذِينَ كَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُجِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١] وفي قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ كَادُوا حَرَمًا كَذِبًا ظَنُّوا وَالْقَبْرَ وَالْقَبْرَ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومًا﴾ [الأنعام: ١٤٦] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْغِيهِمْ﴾ وجحود ما غاظهم واشمازوا منه وامتعضوا^(١) مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم، فقالوا: لسا بأول من حرمت عليه، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جرا، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عُدَّ من مساوئهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حُرِّمَ عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم، ﴿قُلْ فَأَنُؤِ بِالتَّوْرَةِ فَآتَوْهَا﴾: أمر بأن يحاجهم بكتابتهم ويبيحتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه، فروي أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه، ﴿فَمَنْ أَذْنَبَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: بزعمه أن ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥)

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾: تعريض بكذبهم كقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْغِيهِمْ وَإِنَّ لَصَافِيُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أي: ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: وهي

قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديثها. انتهى.

(١) قوله: «واشمازوا منه وامتعضوا» أي غضبوا منه وشق عليهم، أفاده الصحاح (ع).

ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمتمكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾: صفة لـ «بيت»، والواضع هو الله عز وجل، تدل عليه قراءة من قرأ «وضع للناس» بتسمية الفاعل وهو الله، ومعنى وضع الله بيتا للناس، أنه جعله متعبداً لهم، فكانه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة، وعن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن أول مسجد وضع للناس فقال: «المسجد الحرام». ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، (٢٤٨) وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فينته العمالقة ثم هدم فيناه قريش، (٢٤٩) وعن ابن عباس: هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، (٢٥٠) وقيل: هو أول بيت ظهر

٢٤٨ - أخرجه البخاري (٤٦٩/٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب (١٠) حديث (٣٣٦٦) ومسلم (٥/٣) - نووي) كتاب المساجد: حديث (١، ٥٢٠/٢) والسنائي (٣٢/٢) كتاب المساجد: باب ذكر أي مسجد وضع أولاً وابن ماجه (٢٤٨/١) كتاب المساجد باب أي مسجد وضع أولاً حديث (٧٥٣) وأبو عوانة (٣٩١/١)، (٣٩٢) وأحمد (١٦٠/٥)، (١٦٦) وعبد الرزاق (١٥٧٨) والحميدي (١٣٤) وابن أبي شيبة (٤٠٢/٢) وابن خزيمة (١٢٩٠) وابن حبان (١٥٩٨)، (٦٢٢٨) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٢/١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٣٣/٢) وفي «دلائل النبوة» (٤٣/٢) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر به.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «سألت رسول الله ﷺ - عن أول مسجد وضع للناس، قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال أربعون عاماً. ثم الأرض لك مسجد فحيث أدركتك الصلاة فصل» انتهى.

٢٤٩ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٠٢/٢)، رقم (٩٦٢) من طريق مجالد عن الشعبي عن علي به. - والطبري في تفسيره (١٩/٧) رقم (٧٤٢٢)، من طريق شعبة عن سماك عن خالد بن عرعة قال: قام رجل إلى علي فقال: بنحوه.

٢٥٠ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣١/٣)، رقم (٣٩٨٤) من طريق عبد الملك بن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ - أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مدت منه الأرض، وإن أول جبل وضعه الله عز وجل في الأرض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال.

على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته، وقيل: هو أول بيت بناه آدم في الأرض، وقيل: لما هبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات، ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: البيت الذي ببكة، وهي عِلَمٌ للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، نحو قولهم: النبيط والنميط، في اسم موضع بالدهناء، ونحوه من الاعتقاب: أمر راتب وراتم، وحمى مغمطة ومغبطة^(١) وقيل: مكة، البلد، وبكة: موضع المسجد، وقيل اشتقاقها من «بكه» إذا زحمة لازدحام الناس فيها، وعن قتادة: يَبُكُ الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة كأنها سميت ببكة وهي الزحمة. قال [من الزجر]:

إِذَا الشَّرِيبُ أَخَذْتُهُ الْأَكْمَةُ فَخَلَّهٗ حَتَّى يَبُكُ بِكُهُ^(٢)

وقيل: تبك أعناق الجبابة أي: تدقها. لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. ، ﴿مُبَارَكًا﴾: كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف، لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار، ﴿وَمُعَدِّي لَلْعَالَمِينَ﴾: لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ﴿مَعْمًا لِرَبِّهِمْ﴾: عطف بيان لقوله: ، ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾: . فإن قلت: كيف صح بيان الجماعة بالواحد^(٣)؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد، كقوله

(١) قوله: «حمى مغمطة ومغبطة» في الصحاح: أغمطت عليه الحمى لغة في أغبطت، أي دامت أهر.

(٢) يقول إذا أخذت «الأكمة» وهي سوء الخلق «الشريب» الذي يشرب معك، أو الذي يسقي بإبله معك، كأنها ملكته واستولت عليه «فخله» أي اتركه حتى يقطع من الماء قطعة، أو حتى يزدحم بإبله على الماء مرة، من الازدحام. وهذا وصية بمكارم الأخلاق، والحلم عند الغضب، والسماحة. البيت لعامان بن كعب، ينظر تاج العروس (بكك)، لسان العرب: (شرب)، (أكك)، (بكك)، وجمهرة اللغة ٥٨، ٧٤، ٣١١، ومقاييس اللغة: ١٨/١، ١٨٦، ومجمل اللغة: ١٤٩/١ وديوان الأدب: ١٢٩/٣.

(٣) قال محمود: إن قلت: كيف صح بيان الجماعة بالواحد... الخ؟ قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَآ أَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا تِلْكَ أَنَابُيُهُمْ﴾ قال محمود فيما تقدم «والذي صدر منهم أمنية واحدة، فما وجه جمعها» وبيئت فيها هذا بعينه، وهو أن الشيء الواحد متى أريد تمكينه وامتيازه عن غيره من صفة جمع، أفاد الجمع فيه ذلك، وقد لاح لي الآن في جمع الأماني، ثم وجه آخر، وذلك أن كل واحد منهم صدرت منه هذه الأمنية، فجمعها بهذا الاعتبار تنبيهاً على تعددها بتعدددهم، والمعجب أن الجمع في مثل هذا هو الأصل، وأن الأفراد إنما يقع فيه على نوع ما من الاختصار. ومنه: كلوا في بعض بطونكم تصحوا.

تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] والثاني: اشتماله على آيات^(١) لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، لأن الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة^(٢)، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما. دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما، ونحوه في طي الذكر قول جرير [من الكامل]:

كَانَتْ حَنِيْفَةً أَثْلَاثًا فُتِّلَتْهُمْ مِنْ الْعَبِيدِ وَتُلْتُ مِنْ مَوَالِيهَا^(٣)

ومنه قوله عليه الصلاة: والسلام: «حب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة» (٢٥١) وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية

٢٥١ - أخرجه النسائي (٦١/٧ - ٦٢) في عشرة النساء، باب حب النساء وأحمد (١٢٨/٣)، ١٩٩، (٢٨٥)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي - ﷺ - وآدابه ص (٢٢٩ - ٢٣٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢)، (٣٥٣٠)، والحاكم (١٦٠/٢)، والطبراني في الصغير (٢٦٢/١) من حديث أنس مرفوعاً، حُب إلي النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: قد تقدم أنه أورده عند قوله تعالى ﴿وَلِنَّا لَكِيزَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاحِشِينَ﴾ مختصراً. وقد تقدم أن النسائي أخرجه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان ومن طريق سلام بن مسكين، كلاهما عن ثابت عن أنس. ومن طريق سيار. رواه أحمد في الزهد =

(١) عاد كلامه. قال: الوجه الثاني اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع كثرة عدوه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم وأمن من دخله، وكثيراً سواهما والله أعلم.

(٢) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ هذا من جهة تخالفهما تعريفاً فيتبعون النكرة النكرة والمعرفة المعرفة، وتبعهم في ذلك أبو علي الفارسي، وأما البصريون فلا يجوز عندهم إلا أن يكونا معرفتين، ولا يجوز أن يكونا نكرتين، وكل شيء أورده الكوفيون مما يوهم جواز كونه عطفاً جعله البصريون بدلاً، ولم يقدّم دليلاً للكوفيين. انتهى. الدر المصون.

(٣) الجريير يقول: كانت [هذه القبيلة منقسمة أثلاثاً، فثلثها من العبيد الأرقاء، وثلثها من عتي القبيلة أو من عتي العبيد. وعليه فالإضافة على معنى «من» ولم يذكر الثلث الثالث، لأنه من المعلوم أنه لم يبق إلا السادة الأشراف، بدليل الحصر في الأثلاث، والترقي من العبيد إلى العتقي. وهذا يحتمل الدم، وأن ثلث القبيلة فقط كرام والباقي لئام. ويحتمل المدح وأن خدمهم من العبيد كثيراً. ينظر: البيت في ديوانه ص ٧٠٧، والبحر المحيط ١٠/٣، وروح المعاني ٦/٤، وحاشية الشهاب ٤٨/٣، والدر المصون ١٧٠/٢.

قتيبة: «آية بينة»، على التوحيد، وفيها دليل على أن مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان. فإن قلت: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات؟ وقوله: «وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آيَةً»: جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية؟ قلت: أجزت ذلك من حيث المعنى، لأن قوله: «وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آيَةً»: دل على أمن داخله، فكانه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله. ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بينة، من دخله كان آمناً صخ، لأنه في معنى قولك: فيه آية بينة، أمن من دخله. فإن قلت: كيف كان سبب هذا الأثر؟ قلت: فيه قولان: أحدهما: أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه، وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعت على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه، ومعنى: «وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آيَةً»: معنى قوله: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُورًا وَيَنْهَی النَّاسَ مِنْ حَوَالِهِمْ» [العنكبوت: ٦٧] وذلك بدعوة إبراهيم - عليه السلام - «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا» [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب، وعن عمر رضي الله عنه «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه» (٢٥٢) وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص

والحاكم في المستدرک. ومن طريق سلام أخرجه أحمد وابن أبي شعبة وابن سعد والبزار وأبو يعلى، وابن عدي في الكامل، وأعله به، والعقيلي في الضعفاء كذلك. وقال الدارقطني في علله. رواه أبو المنذر سلام. وسلام بن أبي الصهباء وجعفر بن سليمان، فرووه عن ثابت عن أنس، وخالفهم حماد بن زيد عن ثابت مرسلًا. وكذا رواه محمد بن ثابت البصري. والمرسل أشبه بالصواب. وقد رواه عبد الله بن أحمد في زيادات الزهد عن غير أبيه من طريق يوسف بن عطية، عن ثابت مرسلًا أيضاً. ويوسف ضعيف. وله طريق أخرى معلولة عند الطبراني في الأوسط عن محمد بن عبد الله الحضرمي عن يحيى بن عثمان الحربي عن المقل بن زياد عن الأزاعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس مثله قلت: ليس في شيء من طرقه لفظ «ثلاث» بل أوله عند الجميع «حُبَّ إِلَهِ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاء» الحديث. وزيادة «ثلاث» تفسد المعنى، على أن الإمام أبا بكر بن فورك شرحه في جزء مفرد بإثباتها، وكذلك أورده الغزالي في الإحياء واشتهر على الألسنة. انتهى.

٢٥٢ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٥٣/٥)، كتاب الحج، باب: ما يبلغ الإلحاد «وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آيَةً» رقم (٩٢٢٨)، من طريق ابن أبي حسين يحدث عن عكرمة بن خالد قال: قال عمر... وذكره.

وعزاه الزيلعي لأبي الوليد الأزرق في تاريخ مكة، عن ابن جريج به. قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق في كتاب الحج من مصنفه وأبو الوليد الأزرق في تاريخ مكة من طريقه عن ابن جريج سمعت ابن أبي حسين عن عكرمة بن خالد قال: قال عمر بهذا وهذا منقطع. انتهى.

أوردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج، وقيل: آمناً من النار، وعن النبي ﷺ «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً» (٢٥٣) وعنه عليه الصلاة والسلام «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة» (٢٥٤) وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود: وقف

٢٥٣ - جاء من حديث جابر، وأنس وسلمان وعمر وحاطب، أما حديث جابر: ذكره المتقى الهندي في الكنز (٢٧١/١٢)، حديث (٣٥٠٥) وعزاه للطبراني وابن عدي (١٤٥٥/٤) وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٩٨/١) لابن عدي في الكامل وأعله بعبد الله بن المؤمل.

- وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه موسى بن عبد الرحمن المسروقي وقد ذكره ابن حبان في الثقات، عبد الله بن المؤمل وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أحمد وغيره وإسناده حسن.

- وأما حديث أنس فرواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٠/٣) حديث (٤١٥٨)، ولفظه (من مات في أحد الحرمين بُعث من الآمين يوم القيامة، ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى يوم القيامة).

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٩٨/١) لإسحاق بن راهويه في مسنده.
- وأما حديث سلمان، فرواه البيهقي في الشعب والطبراني في الكبير، كما في الكنز (٢٧١/١٢) رقم (٣٥٠٠٦).

- وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٢/٢) باب: فيمن مات في أحد الحرمين: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الغفور بن سعيد، وهو متروك.

- وأما حديث عمر، فرواه البيهقي في الشعب (٤٨٨/٣)، حديث (٤١٥٣).

- وأما حديث حاطب: فرواه الدارقطني في سننه (٢٧٨/٢) كتاب الحج، باب: المواقيت، من طريق هارون بن أبي قرعة، عن رجل من آل حاطب، عن حاطب قال: بنحوه.

- وعبد الرزاق في مصنفه (٢٦٧/٩)، حديث (١٧١٦٦) من طريق غالب بن عبيد الله، رفع الحديث بنحوه، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف:

قال إسحاق: أخبرنا عيسى بن يونس حدثنا ثور بن يزيد حدثني شيخ عن أنس به. ورواه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي فديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد: «من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى يوم القيامة» وأخرجه أبو داود الطيالسي تامة من حديث عمر - رضي الله عنه - بإسناد فيه ضعف، وهو مجهول، وقال عبد الرزاق في مصنفه، أخبرنا يحيى بن العلاء وغيره، وغالب بن عبيد الله رفعه، فذكره، ويحيى وغالب ضعيفان جداً وأخرجه الدارقطني من رواية هارون بن أبي قرعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب بتمامه، وهو معلول «ورواه الطبراني في الأوسط والصغير، من وجهين عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر دون الزيادة، وأورده ابن عدي في ترجمة عبد الله بن المؤمل: وأخرجه البيهقي في الشعب والطبراني من حديث عبد الغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان عن سلمان قال البيهقي: عبد الغفور ضعيف، وقد روي بإسناد أحسن من هذا، ثم ذكر طريق عبد الله بن المؤمل، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق عبد الغفور ونقل عن ابن حبان أنه قال: كان يضع الحديث. قلت: وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه فإنه لم يخص بعبد الغفور. انتهى.

٢٥٤ - ذكره المعجلوني في كشف الخفاء (٣٥١/١)، حديث (١١١٢) وقال: ذكره في «الكشاف» ويض له =

رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهمهم كالقمر ليلة البدر، (٢٥٥) يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهمهم كالقمر ليلة البدر» وعن النبي ﷺ: «من صبر على حرِّ مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام»، (٢٥٦) ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ﴾: بدل من الناس، وروي: أنَّ رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة، (٢٥٧) وكذا عن ابن عباس وابن عمر

= الزيلعي في تخريجه وتبعه الحافظ ابن حجر وسكت عليه السخاوي، وقال القاري: لا يعرف له أصل. أ.هـ.

وقال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١/١٩٩): غريب جداً.

وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٢٥٥ - ذكره المتقي الهندي في الكنز (١٢/٢٦٢)، حديث (٣٤٩٦٠) وعزاه للزيلعي عن ابن مسعود.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده. انتهى.

٢٥٦ - أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/١١٩)، حديث (٥٨٧١) من طريق أنس بن مالك.

وأخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (١/٢٢٦)، من طريق عطاء عن ابن عباس، وقال العقيلي: هذا حديث باطل، لا أصل له.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: هكذا ذكره أبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكة، لكن بغير إسناد وقد أخرجه العقيلي في ترجمته الحسن بن رشيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رفعه «من صبر في حرِّ مكة ساعة باعد الله منه جهنم سبعين خريفاً»، وقال هذا باطل، لا أصل له، والحسن بن رشيد يُحدث بالمناكير. وأورده أبو شجاع في الفردوس من حديث أنس، بلفظ «تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائة عام». انتهى.

٢٥٧ - ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة وهم أنس بن مالك وابن عمر وابن عباس وعائشة وجابر وابن مسعود وابن عمرو بن العاص والحسن مرسلًا.

حديث أنس:

أخرجه الدارقطني (٢/٢١٦) كتاب الحج حديث (٦، ٧) والحاكم (١/٤٤٢) من طريق علي بن سعيد بن مسروق الكندي ثنا ابن أبي زائدة عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس عن النبي - ﷺ - في قوله ﴿وَلَوْ عَلَّ الْفَاسِ جُحَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: قيل: يا رسول الله ما السبيل قال: الزاد والراحلة.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد تابع حماد بن سلمة سعيداً على روايته عن قتادة ووافقه الذهبي.

ثم أخرجه من طريق حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس به.

وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره البيهقي معلقاً من طريق سعيد بن أبي عروبة (٤/٢٣٠).

وقال: ولا أراه إلا وهماً.

ثم أخرجه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن به مرسلًا.

وقال: هذا هو المحفوظ عن قتادة عن الحسن عن النبي - ﷺ - مرسلًا رواه يونس بن عبيد عن =

وعليه أكثر العلماء، وعن ابن الزبير: هو على

= الحسن، أما الطريق الثاني الذي خرج به الحاكم وصححه على شرط مسلم ذكره الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢٢١/٢) وقال: إلا أن الراوي عن حماد هو أبو قتادة عبد الله بن واقد الحراني وقد قال أبو حاتم: هو منكر الحديث.

حديث ابن عمر:

أخرجه الترمذي (١٧٧/٣) كتاب الحج: باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة (٨١٣) وابن ماجه (٩٦٧/٢) كتاب المناسك: باب ما يوجب الحج (٢٨٩٦) والشافعي في «المسند» (٢٨٤/١) كتاب الحج: باب فيما جاء في فرض الحج وشروطه (٧٤٤) والطبري في «تفسيره» (٣٦٤/٣) والدارقطني (٢١٧/٢) كتاب الحج حديث (٩، ١٠) وابن عدني في «الكامل» (٢٢٦/١) والبيهقي (٣٣٠/٤) وفي «شعب الإيمان» (٤٢٨/٣) رقم (٣٩٧٤) من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي المكي قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

وقال البيهقي: ضعفه أهل العلم بالحديث.

قال الزيلعي في «نصب الراية» (٨/٣): وإبراهيم بن يزيد قال في «الإمام» قال فيه أحمد والتسائي وعلي بن الجني: متروك.

وقال ابن معين: ليس بثقة وقال مرة: ليس بشيء. وقال الدارقطني: منكر الحديث.

وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢٢١/٢): وهو من رواية إبراهيم الخوزي وقد قال فيه أحمد والتسائي: متروك الحديث.

وقال في «التقريب» (٤٦/١) رقم (٣٠٣) إبراهيم بن يزيد الخوزي متروك الحديث.

وقد توبع إبراهيم على هذا الحديث تابعه محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي.

أخرجه الدارقطني (٢١٧/٢) كتاب الحج رقم (٩) من طريقه عن محمد بن عباد عن ابن عمر به.

قال البيهقي (٣٣٠/٤): وقد تابعه - أي إبراهيم الخوزي - محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي إلا أنه أضعف من إبراهيم بن يزيد.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر:

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢٩٧/١) رقم (٨٩١): سألت علي بن الحسين بن الجنيد عن

حديث رواه سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿مَنْ اسْتَقْبَلَ إِلَيَّ سَبِيلاً﴾.

قال الزاد والراحلة قال: هذا حديث باطل. ١. هـ.

وعلمته سعيد بن سلام العطار.

قال أحمد كذاب وكذبه ابن نمير، وقال البخاري: يذكر بوضع الحديث وقال التسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً. ينظر المغني (٢٦٠/١) واللسان (٣١/٣ - ٣٢) فيظهر مما

سبق أن طرق الحديث عن ابن عمر كلها ضعيفة والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٩٩) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجه (٩٦٧/٢) كتاب المناسك: باب ما يوجب الحج حديث (٢٨٩٧) ثنا سويد بن

سعيد ثنا هشام بن سليمان القرشي عن ابن جريج قال: وأخبرني أيضاً عن عطاء عن عكرمة عن ابن =

عباس أن رسول الله - ﷺ - قال: «الزاد والراحلة» يعني قوله: من استطاع إليه سبيلاً. قال الزيلعي في «نصب الراية» (٩/٣): قال في «الإمام»: وهشام بن سليمان بن عكرمة قال أبو حاتم: مضطرب الحديث ومحلّه الصدق ما أرى به بأساً. أ. هـ.

قلت: وابن عطاء هو عمر بن عطاء بن راز روى له أبو داود وابن ماجه. وقال الحافظ في «التقريب» (٦١/٢): ضعيف.

وله طريق آخر عن ابن عباس:

أخرجه الدارقطني (٢١٨/٢) كتاب الحج رقم (١٤) من طريق حصين بن مخارق عن محمد بن خالد عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس به.

قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني»: (٢١٨/٢): حصين بن مخارق قال الدارقطني: يضع الحديث ونقل ابن الجوزي أن ابن حبان قال: لا يجوز الاحتجاج به. وله أيضاً طريق ثالث.

أخرجه الدارقطني (٢١٨/٢) من طريق داود بن الزبرقان عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عباس به.

قال الزيلعي في «نصب الراية» (٩/٣): وأخرجه الدارقطني في «سننه» عن داود بن الزبرقان عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عباس وأخرجه أيضاً عن حصين بن المخارق عن محمد بن خالد عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس... وداود وحصين كلاهما ضعيف.

حديث عائشة:

أخرجه العقيلي (٣٣٢/٣) والدارقطني (٢١٧/٢) والبيهقي (٣٣٠/٤) من طريق عتاب بن أعين عن سفيان الثوري عن يونس بن عبيد عن الحسن بن أمه عن عائشة في قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلَّ الْأَنْبِيَاءُ جُحُ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. قال: سأل رجل رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقال: السبيل الزاد والراحلة.

قال العقيلي: عتاب في حديثه وهم.

ثم أخرجه من طريق سفيان عن إبراهيم الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر به. وقال: هذا أولى على ضعفه أيضاً.

قال البيهقي في «معركة السنن والآثار» (٤٧٨/٣):

وروي عن الثوري عن يونس عن الحسن بن أمه عن عائشة موصولاً وليس بمحفوظ. حديث جابر:

أخرجه الدارقطني (٢١٥/٢) كتاب الحج حديث (١) من طريق عبد الملك بن زياد النصبيني ثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبي الزبير أو عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَوْ عَلَّ الْأَنْبِيَاءُ جُحُ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال الزاد والراحلة.

وذكره الغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني» (ص ٢٥٦) وقال: محمد بن عبد الله بن عبيد ضعيف.

وبه ضعفه الزيلعي في «نصب الراية» (١٠/٣) فقال: ومحمد بن عبد الله بن عبيد أجمعوا على ضعفه وتركه.

حديث ابن مسعود:

قدر القوة، (٢٥٨) ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه، وعنه: ذلك على قدر

= أخرجه الدارقطني (٢١٦/٢) من طريق بهلول بن عبيد عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي - ﷺ - في قوله: «وَلَوْ عَلَيَّ الْكُفْرُ جُحُ الْبَيْتِ مَنِي أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال: قيل يا رسول الله ما السبيل قال: الزاد والراحلة. قال الغساني: بهلول متروك.

وقال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٢١٦/٢): بهلول بن عبيد قال أبو حاتم: ضعيف الحديث ذاهب وقال أبو زرعة ليس بشيء وقال ابن حبان: يسرق الحديث ١. هـ.

وذكره برهان الدين الحلبي في كتابه «الكشف الحثيث» عن رُمي بوضع الحديث (ص - ١١٥) وقال: ذكر شيخنا الحافظ العراقي في شرح الألفية له في المقلوب فيما قرأته عليه أنه من الرُضّاعين.

وذكره أيضاً ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٤٣/١) في ذكر أسماء الرُضّاعين والكذابين فقال: بهلول بن عبيد الكندي الكوفي قال الحاكم وأبو سعيد البقال: روى موضوعات. حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه الدارقطني (٢١٥/٢) من طريق عبد الله بن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي - ﷺ - قال: السبيل إلى البيت الزاد والراحلة.

قال الحافظ الغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني» (ص - ٢٥٦): ابن لهيعة ضعيف ١. هـ.

وقد تابعه محمد بن عبيد الله العزمي.

أخرجه الدارقطني (٢١٥/٢) من طريقه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

قال أبو الطيب آبادي في «التعليق المغني» (٢١٦/٢): محمد بن عبيد الله هو محمد بن عبيد الله بن ميسرة العزمي الكوفي قال أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه وقال ابن معين: لا يكتب حديثه وقال الفلاس: متروك.

قال الزيلعي في «نصب الراية» (١٠/٣): قال الشيخ في «الإمام»: وقد خرّج الدارقطني هذا الحديث عن جابر وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن مسعود وعائشة وليس فيها إسناد يُحتج به.

وقال الحافظ في «التلخيص» (٢٢١/٢): قال عبد الحق: إن طريقه كلها ضعيفة وقال أبو بكر بن المنذر: لا يثبت الحديث في ذلك مستنداً والضحيح من الروايات رواية الحسن المرسل.

مرسل الحسن:

أخرجه ابن أبي شيبه (٩٠/٤) والطبري في «تفسيره» (٣٦٤/٣) رقم (٧٤٨٤) والدارقطني (٢/٢١٨) والبيهقي (٣٢٧/٤) وأبو داود في «المراسيل» (ص - ١٤٣ - ١٤٤) من طريق يونس عن الحسن قال: لما نزلت «وَلَوْ عَلَيَّ الْكُفْرُ جُحُ الْبَيْتِ مَنِي أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال: قيل يا رسول الله ما السبيل قال: الزاد والراحلة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٩/٢) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

وقد روى الطبري في «تفسيره» (٣٦١/٣، ٣٦٢) هذا موقوفاً على عمر بن الخطاب وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وأخرجه ابن أبي شيبه عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وعطاء كما في «الدر المنثور» (١٠٠/٢).

الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة، وعن الضحّاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع، وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه؟ (٢٥٩) بل كان ينطلق إليه ولو جواً فكذلك يجب عليه الحج، والضمير في ﴿إِيَّاهُ﴾: للبيت أو للحج، وكلُّ ما تبيّن إلى الشيء فهو سبيل إليه وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد^(١)، ومنها قوله: «وَلَيْلَى عَلَى النَّاسِ جِحٌّ

 = وقال الحافظ ابن حجر في تخرّيج الكشف: أخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمر، بلفظ السبيل الزاد والراحلة، فيه إبراهيم بن يزيد الجوزي. وهو ضعيف والحاكم من حديث أنس، وهو معلول. وأخرجه الدارقطني والحاكم من رواية قتادة عن أنس، لكن قال البيهقي: الضراب عن قتادة عن الحسن مرسلًا، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، والضحّج عنه قوله. كما أخرجه ابن المنذر. وقال: لا يثبت مرفوعاً. وفي الباب عن علي وابن مسعود. وعائشة وجابر وعبد الله بن عمر. وأخرجها الدارقطني بأسانيد ضعيفة. انتهى.

٢٥٨ - أخرجه الطبري في تفسيره (٤٣/٧)، رقم (٧٤٩٢) من طريق رجل عن ابن الزبير.
 ٢٥٩ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٢٦/٢)، رقم (١٠٢٨) من طريق جوير عن الضحّاك بلفظ (إن كان فقيراً وهو صحيح شاب فليؤاجر نفسه بالأكلة والعقبة حتى يحج).

- والطبري في تفسيره (٤٣/٧)، رقم (٧٤٩٣)، من طريق جوير عن الضحّاك، ولفظه «مَنْ اسْتَطَاعَ إِيَّاهُ سَبِيلًا» قال: الزاد والراحلة فإن كان شاباً صحيحاً ليس له مال، فعليه أن يؤاجر نفسه بأكله وعُفّيته حتى يقضي حجه به، فقال له قائل: كلّف الله الناس أن يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو أن لبعضهم ميراثاً بمكة، أكان تاركه؟ والله لا نطلق إليه ولو جواً!! كذلك يجب عليه الحج.

(١) قوله تعالى: «وَلَيْلَى عَلَى النَّاسِ جِحٌّ أَلْبَيْتَ مَنْ اسْتَطَاعَ إِيَّاهُ سَبِيلًا» فيه عناصر توكيد وتشديد، وقد بين

العلامة المفسر هذا

قلنا: عناصر التوكيد في القرآن الكريم كثيرة، ولا يمكن الإحاطة بها، فبأني من يقبل بناء الكلام، وأدوات التوكيد، فالذكر فيه توكيد، وكذا الحذف قد يفيد، والفصل والوصل وكثير من ألوان الإطناب البلاغي، والالفتات، وكل ألوان البيان، وكل ذلك لتثبيت المعنى أو نفيه، بل قد تدل الكلمة بخصوص دلالتها على المعنى مع التوكيد كما في قوله تعالى: «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» [طه: ٦٧] فكلمة العلو أفادت معناها مع التوكيد عليه، وقد لحظ الزمخشري هذا وبين أن في هذه الكلمة «الأعلى» تقرير لغلبة، وقهره، ومعه توكيد بالاستئناف وبالحرف «إن» المشددة، وبتركيب الضمير «إنك أنت» وتعريف الخبر «الأعلى» واختصاص هذه المادة بالعلو مما يفيد الغلبة والتفضيل.

الكشاف ٥٤٤/٢

هذا كله يدخل من باب التوكيد والتقريب لحالة نبي الله موسى - عليه السلام - حتى يتفنى عنه الخوف «لا تخف».

وهكذا، وتلاحظ أن الجملة الاسمية تفيد التوكيد بطريق الثبوت والاستمرار كما في قوله سبحانه: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مَوسَى وَأَقْرَأَ الْكِتَابَ» [البقرة: ١٠٣].

والواجب أن ندرك أن توكيد الإسمية لا يكون بها وحدها وإنما يكون بضميمة توكيد آخر بالحرف «إن» أو بالمقام المساعد على ذلك، هذا ما قرره أهل البلاغة من سياق النصوص وقد يكون التوكيد =

أَلْبَيْتِ^(١): يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده، ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً، وفيه ضربان من التأکید: أحدهما: أن الإبدال ثنية للمراد وتكرير له، والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين، ومنها قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾: مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» (٢٦٠) ونحوه من التغليط «من ترك الصلاة متعمداً فقد

٢٦٠- روي من حديث علي، ومن حديث أبي أمامة، ومن حديث أبي هريرة.

أما حديث علي:

أخرجه الترمذي (١٦٧/٣)، كتاب الحج، باب: ما جاء في التغليط في ترك الحج، حديث (٨١٢)، من طريق الحارث عن علي، ولفظه (من ملك زاداً وراحلةً بئله إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً). وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَقَدْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

- وأخرجه الطبري في تفسيره (٤٢/٧)، حديث (٧٤٨٩)، من طريق الحارث عن علي.

بترتيب عناصر الجملة ترتيباً خاصاً يؤكد المعنى المراد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَيْتَ يُقْسَوْنَ أَمْوَالَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُوتِيكَ الَّذِينَ اسْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلْقَوَى﴾ [الحجرات: ٣].

فقد بين المفسر العلامة هذه التوكيدات الواردة في نظم الآية، والنظم نفسه توكيد للمعنى وقد يرى حرف ينضم إلى الجملة يسميه النحاة زائداً، ولكنه في القرآن من عناصر النظم فلا زيادة في كتاب الله إطلاقاً كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْبُدَ﴾ وتقدير الكلام ما منعك أن تسجد أي من أن تسجد، فـ «لا» كما قال المفسر صلة أي مؤكدة.

والموضوع فيه ذيول كثيرة، وآيات عديدة، ولو قلنا بالتوكيد بهذا الاتساع لشمل جل موضوعات البلاغة من معان، وبيان، وبديع، فجميع ما في حديثهم جلة يقوم على البيان والتوكيد وتعميق المقاصد، وفي هذا القدر إشارة لمن أراد الغاية.

ينظر البلاغة القرآنية لابن موسى ٤١٧ وما بعدها. وفتح القدير للشوكاني ١/٣٦٢، علم المعاني في تفسير فتح القدير ١/٢٩١ فتحي حجازي وتعليقات خفاجي على الإيضاح ١/٩١ وما بعدها والمطول ٤٧، وروح المعاني ١١/١٣٦، ومفاتيح الغيب للمرازي ٨/٣٨٠، ٣٨١ ط. دار الغد العربي وأبو السعود ١/٣٨٩، ٣٩٠.

(١) قال محمود: «وفي الكلام أنواع من التوكيد منها قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَى النَّاسِ﴾ أي في رقابهم لا ينفكون عنه.. الخ» قال أحمد: قوله: «إن المراد بمن كفر من ترك الحج وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه» فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتين حمل الآية على تارك الحج جاحداً لوجوبه، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد لا إلى مجرد الترك. وأما الزمخشري فيستحل ذلك لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من رتبة الإيمان ومن اسمه ومن حكمه، لأنه عنده غير مؤمن ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة أهل السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه، هذا إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج. ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره والله أعلم.

كفر» (٢٦١) ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان،

وكذا العقيلي في الضعفاء، (٣٤٨/٤) حديث (١٩٥٥)، من طريق الحارث عن علي.

وأما حديث أبي أمامة:

فرواه الدارمي في سننه (٢٨/٢)، كتاب المناسك، باب: من مات ولم يحج، عن أبي أمامة مرفوعاً (من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً).

وأما حديث أبي هريرة:

فرواه ابن عدي في الكامل (٢٥٨٠/٧)، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة، وفي إسناده عبد الرحمن القطامي وأبو المهزم وهما متروكان. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ الْحَارِثِ عَنْ عَلِي رَفَعَهُ «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً بَلَغَهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحِجْ فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا» وقال: غريب وفي إسناده مقال. وهلال بن عبد الله مجهول. والحارث يضعف. وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال: لا نعلمه عن علي إلا من هذا الوجه وأخرجه ابن عدي والعقيلي في ترجمة هلال ونقلًا عن البخاري أنه منكر الحديث. وقال البيهقي في الشعب: تفرد به هلال. وله شاهد من حديث أبي أمامة، أخرجه الدارمي بلفظ «من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً. وإن شاء نصرانياً» أخرجه من رواية شريك عن ليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن بن سابط عنه. ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في الشعب. وقد أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن ليث عن عبد الرحمن مرسلاً، لم يذكر أبا أمامة. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عدي. وابن عدي أورده في الكامل في ترجمة أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً ونحوه. ونقل عن الفلاس أنه كذب أبا المهزم وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه. لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيه من اتهم بالكذب. فضلاً عما كذب. انتهى.

٢٦١ - ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٠/١)، بلفظ «من ترك الصلاة متعمداً فقد حبط عمله».

وقال: رواه أحمد وأحمد ورجاله رجال الصحيح.

- وأخرجه البزار كما في تخريج الزيلعي (٢٠٣/١)، من حديث راشد الحماني: عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: أوصاني أبو القاسم - عليه السلام - ألا أشرك بالله شيئاً وإن حرقت، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمداً؛ فمن تركها متعمداً فقد كفر، ولا أشرب الخمر؛ فإنها مفتاح كل شر. قال ابن حجر في تخريج الكشف: أخرجه الدارقطني في العلل. من رواية أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس قال: رواه علي بن الجعد عن أبي جعفر عن الربيع مرسلاً. وهو أشبه بالضواب. ورواه البزار من حديث أبي الدرداء قال «أوصاني أبو القاسم - عليه السلام - ألا أشرك بالله شيئاً وإن حرقت، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمداً. فمن تركها متعمداً فقد كفر، ولا أشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر» أخرجه من رواية راشد الحناني عن شهر بن حوشب. وقال: راشد بصري ليس به بأس. وشهر مشهور. والحديث عند الترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم من حديث بريدة دون قوله «متعمداً» ولفظه «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» قد تقدم في البقرة حديث جابر عند مسلم «بين العبد والكفر ترك الصلاة» وروى الترمذي من طريق عبد الله بن شقيق قال «كان أصحاب محمد النبي - عليه السلام - لا =

ومنها قوله: «عَنِ الْمَلَكَيْنِ»: وإن لم يقل عنه، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه، وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود، فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب وروى: أنه لما نزل قوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»: جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال: إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا: لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه، فنزل، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وعن النبي ﷺ، «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة» (٢٦٣) وروى: «حجوا قبل أن لا تحجوا، حجوا قبل أن يمنع البرجانبه» (٢٦٤) وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت، (٢٦٥) وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا (٢٦٦) وقرئ «حج البيت» بالكسر.

== يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة» وإسناده صحيح. الحاكم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

٢٦٢ - أخرجه الطبري في تفسيره (٤٩/٧)، حديث (٧٥١٥) من طريق جوير عن الضحاك مرسلاً، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري من حديث جوير عن الضحاك قال: «لما نزلت: فذكره» وهو معضل وجوير متروك الحديث ساقط. انتهى.

٢٦٣ - أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥٣/١٥)، كتاب التاريخ، باب إخباره - ﷺ - عما يكون...، حديث (٦٧٥٣) من طريق بكر بن عبد الله المزني عن ابن عمر بنحوه. وأخرجه ابن خزيمة (٢٥٠٦) والبخاري (١٠٧٢) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٠٢/١). وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٩/٣): رواه البزار والطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة. أخبرنا يزيد بن هارون عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن عمر قال: (تمتعوا من هذا البيت، فإنه - فذكره موقوفاً) وقد روي مرفوعاً: أخرجه ابن حبان والحاكم والبزار والطبراني من طريق سفيان بن حبيب عن حميد بهذا. انتهى.

٢٦٤ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٠٦/١) هو هكذا في الفائق لابن غانم التنسيبي. قال الحافظ ابن حجر: لم أره هكذا. والذي في الدارقطني في آخر كتاب الحج من السنن من رواية عبد الله بن عيسى الجندي عن محمد بن أبي محمد عن أبيه عن أبي هريرة - رفعه «حجوا قبل أن لا تحجوا». قال: وما شأن الحج يا رسول الله، قال: يفعله أعرابها على أذنان أوديتها، فلا يصل إلى الحج أحد» وعبد الله ومحمد مجهولان. قاله العقيلي. ١. هـ.

٢٦٥ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢٠٧/١) غريب. وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٢٦٦ - قال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

وفي مصنف عبد الرزاق (١٣/٥) من طريق سالم بن أبي حفصة أن ابن عباس [قال]: «لو ترك =

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهِ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَمَنَ تَبْعُوهُنَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾: الواو للحال، والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد ﷺ والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته. قرأ الحسن: «تصدون»، من أضده، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام، وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله، ﴿تَبْعُوهُنَا عِوَجًا﴾: تطلبون لها أعوجاجاً^(١) وميلاً عن القصد والاستقامة. فإن قلت: كيف تبغونها عوجاً^(٢) وهو محال؟ قلت فيه معنيان: أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجاً بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك، والثاني: أنكم تتعبون أنفسكم في إخفاء الحق وإبتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يشقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظام أمورهم، وهم الأخبار، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ﴾: وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

﴿يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَآبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كُفْرًا ﴿١٠٠﴾﴾

قيل: مرّ شاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون،

= الناس زيارة هذا البيت عاماً واحداً ما مطروا وهو منقطع. انتهى.

(١) قال محمود: «أي تطلبون لها أعوجاجاً... الخ» قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول حيث قال: تطلبون لها أعوجاجاً، تنقيص من المعنى، وأنتم من إعرابه معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به وعوجاً حال وقع فيها المصدر الذي هو عوجاً موقع الاسم. وفي هذا الأعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم، وتوبيخهم، والله أعلم.

(٢) قوله: «فإن قلت كيف تبغونها عوجاً» لعله: كيف قال تبغونها. أو لعله: كيف يبغونها (ع).

فغاضه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث^(١) وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: أتدعون الجاهلية^(٢) وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم. فعرى القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، فما كان يوم أتبع أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم (٢٦٧).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَمَنْ يَمُنِّمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ

إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: على لسان الرسول غضة طرية^(٣) وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم، ﴿وَمَنْ يَمُنِّمْ

٢٦٧ - أخرجه الطبري في تفسيره (٥٥/٧)، حديث (٧٥٢٤) من طريق زيد بن أسلم.

- وذكره ابن هشام في السيرة (١٩٧/٢ - ١٩٩) حديث (٦٣٧، ٦٣٨) من قول ابن إسحاق لم يجاوز، وزاد في آخره: وكان يومئذ على الأوس حضير بن سمالك الأشهلي، وهو أبو أسيد بن الحضير وكان على الخزرج عمرو بن التعمان البياضي فقتلا جميعاً، قال: وأنزل الله في شاس بن قيس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن طُفِحُوا قَرْبًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْتَ﴾ إلى قوله ﴿وَأُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

- وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٨/١) للثعلبي في تفسيره عن زيد بن أسلم من غير سند، وكذلك للواحدي في أسباب النزول.

وكلهم قالوا فيه: «أبدعوى الجاهلية» ليس عند أحد منهم «أتدعون» قال الحافظ: أخرجه الطبري عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه بلفظه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي، من طريق الطبري أيضاً قال: حدثنا الثقة عن زيد بن أسلم مطولاً. وذكره ابن هشام فلم يذكر إسناد إسحاق. وزاد في آخره «وكان يومئذ على الأوس حضير بن سمالك والد =

(١) قوله: «يوم بعث» بعث بالضم يوم وقعة للأوس والخزرج (ع).

(٢) قوله: «فقال أتدعون الجاهلية» في الشهاب على البيضاوي أنه محرف والرواية أبدعوى الجاهلية أي أناخذون بها (ع).

(٣) قوله: «على لسان الرسول غضة طرية» في الصحاح: شيء غرض، أي طرى، وكل ناضر غرض، =

بِاللَّهِ: ومن يتمسك بدينه، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم، ﴿فَقَدْ هَدَى﴾: فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول: إذا جئت فلاناً فقد أفلحت، كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلًا، ومعنى التوقع في ﴿قَدْ﴾ ظاهر لأن المعتصم بالله متوقع للهدى، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١٣﴾

﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾: واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً، وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى (٢٦٨) وروي مرفوعاً، وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط

== أسيد، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي. فقتلا جميعاً. وأنزل الله في شاس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي جَاعِلُكُمْ قُرْبَىٰ مِمَّنْ كُنتُمْ تَوَدُّونَ﴾ الآية وذكره الشلبي والواحدي في أسبابه عن زيد بن أسلم بغير إسناد. انتهى.

٢٦٨ - أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٩٤/٢)، كتاب التفسير وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وليس فيه ويشكر فلا يكفر.

- وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٤٦/٢)، رقم (١٠٧٩) وهذان من طريق مرة عن عبد الله موقوفاً.

- والطبري في تفسيره (٥٧/٧)، رقم (٧٥٣٦).

- والطبراني في المعجم الكبير (٩٣/٩)، رقم (٨٥٠١ - ٨٥٠٢).

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٢٩/٦): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الضحيح والآخر ضعيف.

- وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢١٠/١) لابن مردويه في تفسيره من طريق مرة عن ابن مسعود مرفوعاً.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

قال المصنف وروي مرفوعاً انتهى. فأما الموقوف فأخرجه الحاكم من طريق مسعر عن زيد عن مرة عنه، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبري وابن أبي حاتم والطبراني، وقال أبو نعيم في ترجمة مسعر من الحلية:

حدثنا سليمان بن أحمد، وهو الطبراني - فذكره. ثم قال: هكذا رواه الناس عن زيد موقوفاً. ورفعہ النضر عن محمد بن طلحة عن زيد ثم ساقه مرفوعاً. وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن وهب عن =

= نحو الشباب وغيره، وفيه شيء طري، أي غض بين الطراوة. (ع)

ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه (٢٦٩)، وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه (٢٧٠)، والتقاء من اتقى كالتودة من أتاد، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾: معناه: ولا تكوننَّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهأ عن الإتيان ولكنك تنهأ عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان. قولهم اعتصمت بحبله: يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته، بامتناسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارة لعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه، والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرقوا عنه. أو واجتمعوا على التمسك بعهد إلى عباده وهو الإيمان والطاعة؛ أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق؛ ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم» (٢٧١)، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه - أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويحول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يباه جامعكم والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين

= سفیان الثوري عن زيد مرفوعاً أيضاً. وله شاهد عن ابن عباس مرفوعاً. أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس. لكنه من نسخة عبد الغني بن سعيد الشافعي عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني. وهي ساقطة. انتهى.

٢٦٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (٦٧/٧)، رقم (٧٥٥٢)، من طريق علي بن ابن عباس بلفظ «أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم».

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٤٩/٢)، رقم (١٠٩٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وزاد فيه عن رواية الطبري «فإنها لم تنسخ». وعزه السيوطي في الدر المنثور (١٠٦/٢) لابن المنذر.

٢٧٠ - أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤٤٨/٢) رقم (١٠٨٩) من طريق عطاء الواسطي عن أنس به وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٦/٢) وعزه لابن أبي حاتم فقط.

٢٧١ - أخرجه الترمذي (١٧٢/٥) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل القرآن حديث (٢٩٠٦) والدارمي (٤٣٥/٢) كتاب فضائل القرآن: باب فضل من قرأ القرآن من طريق الحارث الأعور عن علي مرفوعاً به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي الحارث مقال:

وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢١٢/١) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه =

قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا، ﴿إِخْوَانًا﴾: متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله، وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول الله ﷺ (٢٧٢)، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾: وكنتم مشفين^(١) على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: بالإسلام، والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا^(٢)

= والبزار من طريق الحارث عن علي.

وقال البزار: ولا تعلم رواه عن علي إلا الحارث، وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود. أخرجه الحاكم (١/٥٥٥) من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً بنحو حديث علي. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الذهبي: صالح خرج له مسلم لكن إبراهيم الهجري ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، من حديث الحارث الأعور عن علي - رضي الله عنه - مطوّلاً. وفيه قصة وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات. وإسناده مجهول انتهى. وأخرجه ابن أبي شيبه وإسحاق والدارمي والبزار من طريق الحارث. قال البزار: لا نعلمه إلا من طريق علي. ولا نعلمه رواه عنه إلا الحارث انتهى. وله شاهد عن معاذ بن جبل. أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة عن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله ﷺ - الفتن فشددها. قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله - فذكر الحديث بطوله. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود مرفوعاً أيضاً «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشَّافِعُ، عَصَمَةُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ... الحديث» أخرجه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم البحري عن أبي الأحوص عنه. وإبراهيم ضعيف. انتهى.

٢٧٢ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨٧/٧) رقم (٧٥٨٤).

(١) قوله: «وكنتم مشفين» أي مشرفين. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «الضمير للشفا وهو مذكر وإنما أنهت للإضافة... الخ» قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور، كما تقول: أكرمت غلام هند، وأحسنيت إليها. والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالانقضاء منها حقيقة. وأما الامتنان بالانقضاء من الشفا فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً، ومن الهوى إلى الحفرة، فيكون الانقضاء من الشفا إنقذاً من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها، فإضافة المنة إلى الانقضاء من الحفرة تكون أبلغ وأوقع، مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علي في التعاليق من ضرورة الشعر. خلاف رأيه في الإيضاح. نقله ابن يسعون. وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالانقضاء منها، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالانقضاء من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الانقضاء الرياني. ألا ترى إلى قوله عليه السلام «المرتج حول الحمي يوشك أن يقع فيه» وإلى قوله تعالى: ﴿أَمْ مِّنْ أُنثَىٰ تَسْكَنُ مَيْسَكُكُمْ عَلَىٰ شَكٍّ مِّنْ جُرْئِ هَآءِ الْكَاذِبِ. فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً =

وإنما أنت لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال [من الطويل]:

..... كَمَا شَرِقْتُ صَدْرُ الْقَنَاءِ مِنَ الدَّمِ^(١)

وشفا الحفرة وشفتها: حرفها، بالتذكير والتأنيث، ولأما واو، إلا أنها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانية. فإن قلت: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت: لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك البيان البليغ، ﴿يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: إرادة أن تزدادوا هدى.

= إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله (هار) والله أعلم.

- (١) فلو كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجناك القول حتى تهرة وتعلم أنني عندكم غير مفحم
وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

للأعشى ميمون بن قيس وفيه وجهان: الأول أنه يصف رجلاً بإفشاء السر، وأنه لو تحيل لكتمه لم يقدر، أي لو بالغت في الكتمان حتى كأنك كنت في بئر عميق، فالعدد كناية عن ذلك، ثم رقيت من قمره وبلغت أسباب السماء، أي أبوابها. وقوله «بسلم» مبالغة في التشبيه، كأنه صعد حقيقة على سلم «ليستدرجناك» بالنون المخففة، أي ليستنزلناك «القول» من السماء درجة درجة إلى قعر البئر كما كنت ويفسد تحيلك، فتهره أي تقول. ودرج الصبي: إذا قارب بين خطاه. ودرج القوم: مات بعضهم إثر بعض. وهر الكلب هريراً إذا صوت. وفيه إشعار بتشبيهه بالكلب النابح. وتعلم، أي وأجيب أنا عن قولك فتعلم أنني غير عاجز عن الجواب فيما بينكم. وروى «عنكم» بدل «عندكم» وهي هي. ورجع إلى بيان استدراج القول له فقال: وتشرق بالقول الذي قد أذعته ونشرته عني. وشرق: إذا غص بريقه أو نحوه. وذاع الخبر ذيعاً وذيوياً: انتشر. وأذاعه: نشره. أي لم تقدر على ابتلاعه وكتمانك كما لم يبلغ صدر القناة أي الرمح الدم الذي يكون عليه من القتل. وشبه القول الذي لم يقدر على كتمانك بالشيء الذي لم يقدر على ابتلاعه، فاستعار الشرق للعجز عن الكتمان على طريق التصريحية. وشبه الشرق الأول بالثاني ليفيد ضمناً أن قوله كالدّم للمبالغة في عدم إمكان الكتمان. الوجه الثاني أن معناه لو كنت متباعداً عني كأنك في قمر البئر ورقيت منه إلى السماء ليقرينك القول إلي شيئاً فشيئاً حتى تهرة، أي تكرهه وتبغضه، وتعلم أنني عندكم غير عاجز عن الكلام الذي يقربك إلي، وتشرق بالقول الذي قد أذعته أنا عنك، فالتاء على هذا للمتكلم، أي لم تقدر على استماعه ودخوله أذنيك كما لم تقدر صدر القناة على ابتلاع الدم. وصدر القناة مذكور. ولكن اكتسب التأنيث من المضاف إليه، فلذلك أنث فعله وقال: شرقت، وقيل: القناة هنا مجرى الماء، وأين هي من الدم.

ينظر: ديوانه ص ١٧٣، وخزانة الأدب ١٠٦/٥، والدرر ١٩/٥ وشرح أبيات سبويه ٥٤/١، والكتاب ٥٢/١، ولسان العرب (صدر)، (شرق)، والمقاصد النحوية ٣٧٨/٣، والأزهية ص ٤٣٨، والأشياء والنظائر ٢٥٥/٥، الأشياء والنظائر ١٠٥/٢، والخصائص ٤١٧/٢، ومغني اللبيب ٥١٣/٢، والمقتضب ١٩٧/٤، ١٩٩، وجمع الهوامع ٤٩/٢. والدرر ٢٥٧/١.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾: «من» للتبويض^(١) لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاء عن غير منكر، وقد يغلط في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، أو على من الإنكار عليه عبث، كالإنكار على أصحاب المآصر^(٢) والجلادين وأضرابهم، وقيل «من» للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم، وعن النبي ﷺ أنه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال: «أمرهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، وأتقاهم لله وأوصلهم» (٢٧٣)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه» (٢٧٤) وعن علي - رضي الله عنه -: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شئء

٢٧٣ - أخرجه أحمد (٤٣٢/٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٠/٦) رقم (٧٩٥٠) والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥٧/٢٤ - ٢٥٨) رقم (٦٥٧) من طريق شريك القاضي عن سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن زوج بنت أبي لهب عن درة بنت أبي لهب مرفوعاً.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦١/٩) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.
وذكره أيضاً الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢١٢/١) وزاد نسبه إلى أبي يعلى الموصلي ولم أجده في المطبوع من مسند أبي يعلى فلعنه في مسنده الكبير، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبري والبيهقي في الشعب من رواية شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن زوج بنت أبي لهب قالت «كنت عند عائشة، فجاء رجل إلى النبي - ﷺ - كان ناداه وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فذكره». انتهى.
٢٧٤ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢١٠٤/٦) من طريق كادح بن رحمة القرنبي عن ابن لهيعة عن ابن أبي حبيب عن مسلم بن جابر الصديقي عن عبادة بن الصامت مرفوعاً.

(١) قال محمود «من للتبويض... الخ» قال أحمد: وفي هذا التبويض وتذكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص. ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسًا مِّنْ نَّفْسِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ﴾ فإنما وجه الخطاب على نفس منكرا تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ وَفَّيْتَهُم مَّا رَأَوْا تَنَادَوْا﴾ حتى ورد في التفسير أن المراد أذن واحدة مخصوصة وهي أذن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) قوله: «المآصر» جمع مآصر، وهو المحبس أي السجن، أفاده الصحاح. (ع)

الفاسقين وغضب الله، غضب الله له» (٢٧٥)، وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن، والأمر بالمعروف تابع للأمر به، إن كان واجباً فواجب، وإن كان نديباً فندب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح. فإن قلت: ما طريق الوجوب؟ قلت: قد اختلف فيه الشيخان، فعند أبي علي: السمع والعقل، وعند أبي هاشم: السمع وحده. فإن قلت: ما شرائط النهي؟ قلت: أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن، وأن لا يكون ما ينهي عنه واقعاً، لأن الواقع لا يحسن النهي عنه، وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث. فإن قلت: فما شروط الوجوب؟ قلت: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة. فإن قلت: كيف يباشر الإنكار؟ قلت يبتدىء بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى

= قال ابن حجر: وكادح ساقط.

قلت: وعبد الله بن لهيعة ضعيف.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢١٣/١): وفيه حديث مرسل رواه علي بن معبد في كتاب «الطاعة والمعصية» ثنا بقة عن حسان بن سليمان عن أبي نضرة عن الحسن مرسلًا؛ وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه بن عدي في الكامل في ترجمة كادح بن رحمة من روايته عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن مسلم بن جابر عن عبادة بن الصامت. وكادح ساقط. وله شاهد مرسل أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة عن بقة عن حسان بن سليمان عن أبي نضرة عن الحسن البصري. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي. انتهى.

٢٧٥ - أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧٤/١) في ترجمة علي بن أبي طالب من طريق خلاص بن عمرو عن علي مرفوعاً، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة علي مطوّلاً، من رواية خلاص بن عمرو قال: كنا جلوساً عند علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: يا أمير المؤمنين هل سمعت رسول الله - ﷺ - ينعت الإسلام؟ قال: سمعته يقول: بني الإسلام على أربعة أركان: الصبر واليقين والجهاد والعدل - فذكره - إلى أن قال: والجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. والصدق في مواطن الصبر. وشأن الفاسقين. فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن. ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافر. ومن صدق في مواطن الصبر أحرز دينه. وقضى ما عليه. ومن شأناً الفاسقين فقد غضب الله. ومن غضب الله غضب الله له وهو من طريق إسحاق بن بشر عن مقاتل. وهما ساقطان. قال: ورواية العلاء بن عبد الرحمن عن قبيصة بن جابر عن علي - رضي الله عنه - ١. هـ.

الصعب، لأن الغرض كف المنكر. قال الله تعالى: ﴿فَأَسْلِمُوا بَيْنَهُمَا﴾، ثم قال: (فقاتلوا) [الحجرات: ٩]، فإن قلت: فمن يباشره؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار، لأنه معلوم قبحه لكل أحد، وأما الإنكار الذي بالقتال، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها. فإن قلت: فمن يؤمر ويُنهى؟ قلت: كل مكلف، وغير المكلف إذا هم بضرب غيره منع، كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعدوها، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها. فإن قلت: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه؟ قلت: نعم يجب عليه، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه، فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا، وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأينما يفعل ما يقول، وذو الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر. فإن قلت: كيف قيل: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؟ قلت: الدعاء إلى الخير^(١) عام في التكليف من الأفعال والتروك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيداناً بفضله، كقوله: ﴿وَالْفَصْلَةُ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَعَرَفُوا وَاتَّخَفُوا مِنْ بَدِّ مَا جَاءَهُمْ ابْتِغَاءً لِنَفْسِهِمْ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٥)
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتٍ مِّنَّا فَأُدْوُوا
الْعَذَابَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾

﴿كَالَّذِينَ نَعَرَفُوا وَاتَّخَفُوا﴾: وهم اليهود والنصارى، ﴿مِنْ بَدِّ مَا جَاءَهُمْ ابْتِغَاءً﴾: الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق، وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة

(١) (عاد كلامه) قال: «وقوله يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر صدر الكلام بالدعاء... الخ» قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ وَمَنْ يَمْلِكُ﴾ و﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ وَمَنْ يَمْلِكُ﴾ و﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ وَمَنْ يَمْلِكُ﴾. وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهي، لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً. وفي تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية والله أعلم، إلا أن ثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

والمجبرة والحشوية^(١) وأشباههم، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾: نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار اذكر، وقرئ: «تبيض وتسود»، بكسر حرف المضارعة. «وتبياض وتسوادة»، والبياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم بياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته، واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله، ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾: فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والظاهر أنهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بني قريظة والنضير، وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء (٢٧٦)، وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال: كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء، فقال له أبو غالب: أشيء تقوله برأيك، أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ. قال: بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عينك، قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثيراً. فأعاذك الله منهم (٢٧٧)، وقيل: هم جميع

٢٧٦ - أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٦/٢)، رقم (١١٤٠)، عن ابن عباس بنحوه.

٢٧٧ - أخرجه الترمذي (٢٢٦/٥)، حديث (٣٠٠٠)، كتاب التفسير باب: ومن سورة آل عمران، وقال: حديث حسن. وقد روي هذا من غير هذا الوجه عن ابن عباس، وأدم بن سليمان هو والد يحيى بن آدم، وفي الباب عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

- وابن ماجه (٦٢/١) حديث (١٧٦).

- وأحمد (٢٥٠/٥)، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٩، وزاد أحمد: ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآيتين.

- وعبد الرزاق في مصنفه في آخر كتاب القصاص (١٥٢/١٠) رقم (١٨٦٦٣) باب: ما جاء في الحرورية.

والحاكم (١٤٩/٢)، كتاب: قتل البغاة، من حديث عكرمة بن عمار عن شداد بن عمار قال: سمعت أبا أمامة... فذكره، وفيه فقال له رجل: أشيء تقوله برأيك... إلى آخره. ثم قرأ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّوْا وَاتَّخَفَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية. انتهى، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجها، قال: والغالب على هذا المتن من حديث أبي غالب عن أبي أمامة.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٣١٩/٨ إلى ٣٢٧)، رقم (٨٠٣٣ - ٨٠٥١) من طرق عن أبي غالب عن ابن عباس.

==

(١) قوله: «وهم المشبهة والمجبرة والحشوية، إن أراد بهم أهل السنة ومن وافقهم كعاداته، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة. (ع)

الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم (٢٧٨) قالوا بلى، ﴿قَبِي رَحْمَةً اللَّهُ﴾: ففي نعمته وهي الثواب المخلد، فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: بعد قوله: ﴿قَبِي رَحْمَةً اللَّهُ﴾؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون (٢٧٩).

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٢٩﴾

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾: الواردة في الوعد والوعيد، ﴿تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ﴾: ملتبسة، ﴿وَالْحَقِّ﴾: والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾: فيأخذ أحداً بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن، ونكر «ظلماً» وقال: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عمّن يصفه بإرادة القبائح^(١) والرضا بها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٢٩) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَابٌ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٣٠﴾

«كان»: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل

= - وذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/٢) وزاد لنسبه نسبه إلى ابن العنذر.

وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢١٤/١) وعزاه للثعلبي في تفسيره، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة بن عمار عن شداد عن أبي أمامة هكذا، ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم، وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه، وعبد الرزاق وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبراني كلهم من طريق أبي غالب. بتمامه. وله إسناد آخر أخرجه الطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أبي أمامة. انتهى.

٢٧٨ - أخرجه الطبري في تفسيره (٩٥/٧) من حديث أبي بن كعب أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأن الإيمان الذي يؤتخون على ارتدادهم عنه، هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى سَهِدْنَا﴾.

٢٧٩ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٦٧/٢)، رقم (١١٥١) من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني لا يموتون.

(١) قوله: فسبحان من يحلم عمّن يصفه بإرادة القبائح يريد أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف. (ع)

على عدم سابق ولا على انقطاع طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ومنه قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: كأنه قيل: وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمة^(١)، وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة، موصوفين به، ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أظهرت، وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ﴾: كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة، كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكانه غير مؤمن بالله ﴿وَيَقُولُونَ تَأْمُرُ بِبَعْضِ نَكَحٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠] والدليل عليه قوله تعالى: «﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: مع إيمانهم بالله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحفظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إتياء الأجر مرتين، ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾: كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: المتمردون في الكفر، ﴿لَنْ يَشْرُوكُمْ إِلَّا آذًى﴾: إلا ضرراً مقتصراً على آذى يقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك، ﴿وَإِنْ يَفْتَلَوْكُمْ يُؤَلِّمُ الْأَذَى﴾: منهزمين ولا يضرركم بقتل أو أسر، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمتنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذنونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل. فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: «﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؟»^(٢) قلت: عدل به عن حكم

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: قوله: «لم تدل على عدم سابق» هذا إذا لم تكن بمعنى «صار» فإذا كانت بمعنى «صار» دلت على عدم سابق، فإذا قلت: «كان زيد عالماً» بمعنى «صار زيد عالماً» دلت على أنه انتقل من حالة الجهل إلى حالة العلم، وقوله: «ولا على انقطاع طارىء» قد ذكرنا قبل أن الصحيح أنها كسائر الأفعال يدل لفظ المضى منها على الانقطاع، ثم قد تستعمل حيث لا انقطاع، وقرق بين الدلالة والاستعمال، ألا ترى أنك تقول: «هذا اللفظ يدل على العموم» ثم قد يستعمل حيث لا يراد العموم بل يراد الخصوص. وقوله: «كانه قيل وجدتم خير أمة» هذا يعارض قوله: «إنها مثل قوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» لأن تقديره «وجدتم خير أمة» يدل على أنها التامة وأن «خير أمة» حال. وقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» لا شك أنها هنا الناقصة فتعارضاً قلت: لا تعارض لأن هذا تفسير معنى لا تفسير إعراب.

(٢) قال محمود: «إن قلت هلا جزم المعطوف في قوله ثم لا ينصرون... الخ؟ قال أحمد: وهذا من الترفي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترفي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً، ويزيد هذا الترفي بدخول =

الجزء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون متف عنهم النصر والقوة لا يهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم يهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثم؟ قلت: التراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولييتهم الأدبار. فإن قلت: ما موقع الجملتين أعني، ﴿يُنْهَكُمُ الْمَوْتُ﴾ و﴿لَنْ يَصُرُواكُمْ﴾؟ قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإن شأنه كيت وكيت، ولذلك جاء من غير عاطف.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَ يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

﴿بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾: في محل النصب على الحال، بتقدير: إلا معتمدين أو متمسكين أو متلبسين بحبل من الله وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني ذمة الله وذمة المسلمين، أي: لا عز لهم قط إلا بهذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية، ﴿وَبَاءُ يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ استوجبه، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾: كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾: أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم الله واعتدائهم لحدوده ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله، وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه ﴿وَمِمَّا حَقَّبَتْ غِيَّهُمْ أَغْرَؤُهُمْ﴾ [نوح: ٢٥]، ﴿وَأَنذَرْتَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَنذَرْتَهُمْ آمَؤَلَ النَّاسِ بِالْأَيْدِي﴾ [النساء: ١٦١].

== ثم دون الواو، فإنها تستعار ههنا للتراخي: الرتبة لا في الوجود، كأنه قال: ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان وأسمع في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون أبته، والله أعلم.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا دُعا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيَسْجُدُونَ ﴿١٧٦﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْحَسَنَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧٧﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَكِبِينَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

الضمير في، ﴿لَيْسُوا﴾: لأهل الكتاب، أي: ليس أهل الكتاب مستوين، وقوله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الك عمران: ١١٠] بيانا لقوله، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴿مستقيمة عادلة، من قولك: أقمتم العود فقام، بمعنى استقام، وهم الذين أسلموا منهم، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنه أبين لما يفعلون؛ وأدل على حسن صورة أمرهم، وقيل: عن صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها (٢٨٠)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم (٢٨١)، وقرأ هذه الآية،

٢٨٠ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٨٦/٢)، رقم (١٢٢٥) من طريق أبي جعفر عن الربيع في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى﴾ قال: قال بعضهم: صلاة العتمة تصلّيها أمة محمد ﷺ - ولا يصلّيها غيرهم من أهل الكتاب.

وأخرجه الطبري في تفسيره (١٢٧/٧) رقم (٧٦٦٠) من طريق الحسن بن يزيد العجلي عن عبد الله بن مسعود به.

وكذا ذكره البغوي في تفسيره (٣٤٣/١).

٢٨١ - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٩٧/٤) كتاب الصلاة باب: مواقيت الصلاة، حديث (١٥٣٠).

وأحمد (٣٩٩/١)، والطبراني في الكبير (١٦٢/١٠) حديث (١٠٢٠٩).

- والتسائي في تفسيره (٣٢٠/١) حديث (٩٢).

- والطبري في تفسيره (١٢٨/٧)، حديث (٧٦٦٢).

- وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٨٦/٢)، حديث (١٢٢٦).

- وأبو نعيم في الحلية (١٨٧/٤).

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٧/١) كتاب الصلاة، باب: وقت العشاء الآخرة، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، والبخاري، والطبراني في الكبير، ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود وهو مختلف في الاحتجاج به، وفي إسناد الطبراني عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.

- وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١٦/٢)، وعزاه لابن المنذر.

- وعزاه الزيلعي في تخرّيج أحاديث الكشاف (٢١٦/١) للواحدي في أسباب النزول.

والحديث له شاهد من طريق أنس، أخرجه التسائي (١٧٤/٨) حديث (٥٢٠٢) من طريق قتادة عن =

وقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾: و﴿يُؤْمِنُونَ﴾: في محل الرفع صفتان لأمة، أي: أمة قائمة تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل. ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به غزيراً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم كانوا مدهائين، ومن المسارعة في الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها، والمساورة في الخير: فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وأثر الفور على التراخي، ﴿وَأُولَئِكَ﴾: الموصوفون بما وصفوا به، ﴿مِنْ﴾: جملة، ﴿الْمَكِيلِينَ﴾: الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين ﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك. فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان، فكأنه قيل: فلن تحرموه؛ بمعنى فلن تحرموا جزاءه، وقرئ «يفعلوا»، «ويكفروه» بالياء والتاء، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنُونِ﴾: بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا

أَنفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

الصر: الريح الباردة^(١) نحو: الصرصر. قال [من البسيط]:

لَا تَغْدِلُنْ أَتَاوِينَ تَضْرِبُهُنَّ كُتَبَاءَ صِرٍّ بِأَصْحَابِ الْمَحَلَّاتِ^(٢)

= أنس بنحوه. وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه التساني وابن حبان وأحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبراز كلهم من رواية عاصم عن زرعة. انتهى.

(١) قال محمود: «الصر الريح الباردة... الخ» قال أحمد: كلها أوجه وجيبة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها فنقول: إذا قلت مثلاً: إن ضيعني زيد ففي عمرو بعد الله كاف، فقولك «كاف» أثبت به منكرأ مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنب لهذه النكتة فإنها لطيفة، والله الموفق.

(٢) الأتاوى: الغريب البعيد، كأنه منسوب إلى الأتاة، وهي الرشوة والخفالة، لأنه قد يبذلها على إقامته في غير وطنه. والنكباء: الريح الشديدة. والصر الحارة، وقيل: الباردة. وقال الزجاج: =

كما قالت ليلي الأخيلية [من الطويل]:

وَلَمْ يَغْلِبِ الْخَصْمَ الْأَلَدُ وَيَمْلَأِ الْـ
حِجْفَانَ سَدِيفاً يَوْمَ نَكَبَاءَ صَرَصَرِ^(١)

فإن قلت: فما معنى قوله: «كَكَلِي رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ»؟ قلت: فيه أوجه: أحدهما: أن الصرَّ في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرة صرّ، كما تقول: برد بارد على المبالغة، والثاني: أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد فجيء به على أصله، والثالث: أن يكون من قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُشْرَةٌ حَسَنَةٌ» [الأحزاب: ٢١] ومن قولك: إن ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل. قال [من الوافر]:

وَفِي الرُّخْمَنِ لِلضُّعْفَاءِ كَافِي^(٢)

= صوت النار في الريح. وقيل: صوت الريح. والنكباء: الريح الشديدة. والصر الحارة، وقيل: الباردة. وقال الزجاج: صوت النار في الريح. وقيل: صوت الريح. وقيل: الجو. وقيل: البرد. وعلى هذا لو روى بالجر على الإضافة لكان وجيهاً. والمحلات قيل هي أدوات البيت كالفأس والقدر والغريال والدلو. ويجوز أنها البيوت وهو الظل من البيت. يقول: لا تسو بين الغرياء وبين أصحاب البيوت. وروى: لا يعدلن أناويون، بالبناء للمجهول، وما بعده نائب فاعل. ورواه الجوهري بالبناء للفاعل، وقال: أي لا يعدلن أناويون أحداً بأصحاب المحلات، فحذف المفعول وهو مدان، وفسر المحلات فحذف الموصول وهو مدان، وفسر المحلات فيه بالأدوات كافة، لأن الأناوى يستعيرها من أصحابها. وعلى كل فالنون للتركيد.

ينظر: المقاييس ٥٢/١ ٥٢/٥، والمعاني الكبير ٣٧٤/١، وأساس البلاغة ص ١٣٩، والبحر ٣٥/٣، واللسان (أنى)، والدر المصون ١٩٢/٢.

(١) كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ
ولم يغلب الخصم الألد ويملا أـ
لليلى الأخيلية ثري صاحبها توبة بن الحمير وتذكر أحواله وتعد مناقبه. وفتى الفتيان: أي هو الفتى من بينهم وليسوا فتياناً بالنسبة له وإن كانوا فتياناً في أنفسهم، وتوبة بدل. ولم ينخ من أناخ بعيره، خبر كان، أي كأنه لم ينخ بعيره بمحل مرتفع. ويروى: لم يسر بنجد، ولم يطلع من أطلع بمعنى طلع، أو لم يطلع بعيره من المتغور على اسم المفعول، أي المكان المنخفض ما فيه، وكأنه لم يغلب الخصم الشديد الخصومة. ويروى الخصم الصالح بفتح الصاد، بمعنى الصحيح، وكأنه لم يملأ الجفان سديفاً، أي قطعاً يبيض من السنام في زمن الريح الشديدة الباردة، أو كثيرة الصرير وهو التصويت تعني أنه كان يفعل ذلك كله، ثم كأنه اليوم لم يفعل لموته.
ينظر: البيت في ديوانها، ورغبة الأمل ١٨٤/٦ ١٧٧/٨، والبحر المحيط ٣٥/٣، والدر المصون ١٩٢/٢.

(٢) لقد زاد الحياة إلى حُباً
أحاذر أن يرين البؤس بعدي
وأن يعمرين إن كسى الجواري
ولولا هن قد سويت مهري
بناتني إنهن من الضعاف
وأن يشرين رنقاً بعد صاف
فتنبو العين عن كرم عجاف
وفي الرحمن للضعفاء كافي
لأبي خالد الخارجي. وقيل: لمحمد بن عبد الله الأزدي. وقيل: لعمران بن حطان. وقيل غير =

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله، بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً، وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم، وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم، لأنهم لم يبلغوا بإتفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث، ﴿وَيَرْزُقُ أَفْسَحَهُمْ﴾: فأهلك عاقبة لهم على معاصيهم، لأنَّ الهلاك عن سخط أشدَّ وأبلغ. فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه^(١) وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض

ذلك، لانه قطري ابن الفجاءة عن التخلف عن الحرب فاعتذر بذلك. وبتاتي فاعل زاد. وأحاذر أي أخاف أن يدركه الفقر بعد موتي. وكفى عن ذلك برؤيتهن له مبالغة، لأنه إذا خاف الرؤية خاف اللذوق. ويروى مخافة أن يذقن البؤس، أي الشدة، فشبهه بمطعموم على سبيل المكنية والذوق تخيل. ورتق الماء كدر وترتق: تكدر، ورتقه وأرتقه كدره، والرتق بالتحريك مصدر كالكدرد فسكن وأريد منه الماء الكدر. وروى «زيفا» أي مغشوشاً مكدرًا، فالمراد واحد، فشبه العيش المبعض به، وشبه العيش الناعم بالماء الصافي على طريق التصريح والشرب ترشيح، وكسي بوزن فرح لازم ضد عرى. ويجوز هنا بناؤه للمجهول، من كسي المعتدي كدعا. وإن للشرط المجرد عن الشك أو بمعنى إذ. وتنبؤ ترتفع عنهن، كناية عن عدم التزوج بهن. والكرم بالسكون، وقيل - بالكسر - وصف من الكرم يقع على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثاً. ويروى «عن رم» أي باليات، وهو أشبه بالسياق. والعجاف جمع عجفاء، أي مهزولة، أي لا يلتفت إليهن مع كونهن كريمات لهزلهن ورنائة حالهن. وسويت مهري: وضعت عليه آلات الحرب ومهذته وهياته لها. ويروى «قد سموت مهري» ولعله بتخفيف الميم بمعنى علوت عليه وركبته وقيل: بمعنى وضعت عليه سمات الحرب، فلهذه مقولوب. وسمت وروى سموت بالتشديد، وهو الذي يصلح أنه بمعنى جعلت عليه علامات الحرب لا ذاك، وجود من جانب الله عز وجل شخصاً كافياً، ولا حجر في المبالغة لا سيما على العرب. وفيه نوع استرجاع إلى الله وتفويض إليه وتوكل عليه، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين.

ينظر: الكامل ٨٩٥، واللسان (كرم)، والدرر المصنوع ١٩٢/٢.

- (١) قال محمود «فإن قلت» الغرض تشبيه ما أنفقوا قلة جدواه... الخ» قال أحمد: أما إيراد السؤال فلا ترتضى صيغته لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإن أحداً لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر بمرأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطفي في إيراده بعد عن أمثال هذه العبارة. ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد وأن يتأدب في الإيراد، ثم تعود إلى جواب الزمخشري الثاني وهو قوله: «إن المراد مثل إهلاك ما ينفقون» فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب عن المطابقة المستول عنها، والسؤال باق. وذلك أن الريح المشبه بها ليست الإهلاك وإنما هي المهلكة. ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذ يبعد هذا الوجه. وأقرب منه أن يقول: أصل الكلام والله أعلم: مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل =

حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح. قلت: هو من التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله: ﴿كَثَلُ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ويجوز أن يراد: مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ربح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ربح وهو الحرث وقرئ: «تنفقون، بالباء»، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾: الضمير للمنفقين على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم، أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة، وقرئ: «ولكن» بالنشديد، بمعنى ولكن أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد: ولكنه أنفسهم يظلمون، على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْجَدُوا بِطَانَةِ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُو لُكُمُ حَيَاكَا وَدَوَا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧٨﴾ هَآأَنَتُمْ ءَوَّلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفُوكُمْ ءَامَنَآ وَإِذَا خَلَا عَضُوَا عَلَيْهِكُمْ ءَالَانِيَلٌ مِّنَ الْعَنِيَتِ قُلْ مُؤْتَا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٩﴾﴾

بطانة الرجل وو ليجته: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره^(١) ثقة به، شبه ببطانة الشوب كما يقال: فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الأنصار شعار والناس دثار» (٢٨٢)، ﴿مِّنْ دُونِكُمْ﴾: من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بـ «لا

٢٨٢ - رواه البخاري مختصراً (٣٦٩/٨)، كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف، حديث (٤٣٣٠).

- ومسلم (١٦٦/٤)، كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، حديث (١٣٩) - (١٠٦١).

- كلاهما من طريق عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازني في أثناء حديث طويل، أوله «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَمَّا فَتَحَ حُنَيْنًا قَسَمَ الْمَغَانِمَ». انتهى.

= حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ربح فيها صر فأهلكته. ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة وهو تقديم ما هو أهم، لأن الريح التي هي مثل العذاب ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقدمت عناية بذكرها واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَآمِرَانَاكَا وَمِنْ رَّضَوْنَ مِّنَ الشُّهَدَا أَن تَبْلُغَ إِسْمَهُمَا...﴾ الآية. ومثله أيضاً: أعددت هذه الخشية أن يميل الحائض فأدعمه. والأصل: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت. وأن أدمع بها الحائض إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة. والله الموفق.

(١) قوله: «بشقوره» في الصحاح الشقور بالضم الأمور اللاصقة بالقلب المهمة له الواحد شقر. (ع)

تتخذوا، وبـ «بطانة» على الوصف، أي: بطانة كاتنة من دونكم مجاوزة لكم، ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَآلًا﴾: يقال: ألا في الأمر يألوا، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدي إلى مفعولين في قولهم: لا ألوك نصحاً، ولا ألوك جهداً، على التضمنين، والمعنى: لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه، والخبال: الفساد، ﴿وَدُّوْا مَا عَمِلْتُمْ﴾: ودوا عنتكم، على أن «ما» مصدرية، والعنت: شدة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره، أي: تمنا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه، ﴿قَدْ بَدَتْ أَلْبَغْيَا مِنْ أَقْوَاهُمْ﴾: لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين، وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضاً على ذلك، وفي قراءة عبد الله «قد بدأ البغضاء»، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾: الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾: ما بين لكم فعلتم به. فإن قلت: كيف موقع هذه الجمل؟ قلت: يجوز أن يكون، ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ﴾: صفة للبطانة وكذلك، ﴿قَدْ بَدَتْ أَلْبَغْيَا﴾: كأنه قيل: بطانة غير أليكم خبلاً بادية بغضاؤهم، وأما، ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾: فكلام مبتداً، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة «ها» للتنبيه، و «انتم» مبتداً، و «أُولَآءِ﴾: خبره. أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿يُحِبُّونَكُمْ وَلَا يَكْرَهُونَكُمْ﴾: بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء، وقيل: ﴿أُولَآءِ﴾: موصول، ﴿يُحِبُّونَكُمْ﴾: صلته، والواو في ﴿وَيُؤْمِنُونَ﴾: للحال، وانتصابها من لا يحبونكم أي: لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه ﴿فَلْيَهْزَأْ يَأْتُونَكُمُ كَمَا تَأْتُمُونَهُمْ وَيَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] ويوصف المغتاز والنادم بعض الأنامل والبنان والإيهام قال الحرث بن ظالم المري [من الطويل]:

فَأَقْسَلُ أَقْوَاماً لِسَاماً أَدْلَةً يَعْضُونَ مِنْ غَيْظِ رُؤُوسِ الْأَبَاهِمِ^(١)
﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ: زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الْأَسْدُورِ﴾: فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج

(١) للحرث بن ظالم المري. وعرض الأنامل من الغيظ: كناية عن شدته، وأطلق الأباهم وأراد مطلق الأصابع مجازاً مرسلًا، لأنه لا داعي للتخصيص المخالف للواقع عادة. ويحتمل أنها حقيقة. ينظر: البيت في البحر المحيط ٤٤/٢، والدر المصون ١٩٧/٢.

منها. فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان داخلاً في جملة المقول فمعناه: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه، وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمره في صدورهم ولم يظهره بالسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثم قول، وأن يكون قوله: ﴿قُلْ مُؤْتَا يُعْطِيكُمْ﴾: أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

الحسنة: الرخاء، والخصب، والنصرة، والغنيمة، ونحوها من المنافع، والسيئة ما كان ضد ذلك؛ وهذا بيان لفرط معاداتهم؛ حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة، فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟^(١) قلت: المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ سَوْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿إِذَا سَأَلَكَ جَزُوعٌ﴾ [١٦]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ أَكْفَرٌ مَوْعَاً﴾ [المعارج: ٢٠ - ٢١]، ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾: على عداوتهم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: ما نهيتهم عنه من موالاتهم، أو: وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه، وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه، كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم، وقرئ: «لا يضركم»: من ضاره يضره، ويضركم على أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، كقولك مذ يا هذا، وروى المفضل عن عاصم «لا يضركم» بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما، ﴿مُحِيطٌ﴾: ففاعل بكم ما أنتم أهله، وقرئ: بالياء ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة... الخ» قال أحمد: يمكن أن يقال: المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكان الكلام والله أعلم: إن تصيبكم الحسنة أدنى إصابة تسوؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يري الشامت عنده منها فهم لا يربون لكن ولا ينفكون عن حسدكم ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦٦) إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٦٧﴾

﴿و﴾ اذكر، ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: بالمدينة، وهو غدوة إلى أحد من حجرة عائشة - رضي الله عنها - روي: أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار النبي ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره. فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولادخلها علينا إلا أصابنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورامهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وقال بعضهم: يا رسول الله، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جنبنا عنهم. فقال ﷺ: إني قد رأيت في منامي بقرأ مذبحه حولي، فأولتها خيراً، ورأيت في ذهاب سيفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كائي أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم. فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته. فلما رآه قد لبس لأمته ندموا وقالوا: بشما صنعنا، نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقال، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للثصف من شوال فمشى على رجله فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح^(١)، إن رأى صدرأ خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد؛ وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا» (٢٨٣)، ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: تنزلهم، وقرأ عبد الله «للمؤمنين»، بمعنى

٢٨٣ - رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٢٤)، باب: كيف كان الخروج إلى أحد والقتال بين المسلمين والمشركين يومئذ، من طريق محمد بن إسحاق، قال: قال محمد بن شهاب الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ... فذكره.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/٣٦٣)، حديث (٩٧٣٥)، في المغازي في غزوة أحد: حدثنا معمر عن الزهري، عن عروة... فذكره بتغير يسير.

وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/١٦٣)، حديث (٧٧١٨) من نفس الطريق السابق. وابن هشام في سيرته (٦/٣)، في غزوة أحد، من قول ابن إسحاق، حديث (١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤).

(١) قوله: «كأنما يقوم بهم القدح»، في الصحاح: القدح - بالكسر - السهم قبل أن يراش ويركب نصله. (ع)

تسوى لهم وتبهيء، ﴿مَقْعَدٌ لِلْقِتَالِ﴾: مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار^(١)، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]، ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] من مجلسك وموضع حكمك، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: لأقوالكم عليكم بنياتكم وضمائركم، ﴿إِذْ هَمَّتْ﴾: بدل من، ﴿إِذْ غَدَوْتُ﴾: أو عمل فيه معنى، ﴿سَمِيعٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، والطائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة

= بداية من قوله: «إني رأيت في منامي بقرأ... حتى قوله: وتدعوهم». والحديث له عدة شواهد منها.

ما أخرجه البخاري (٧٢٥/٦)، كتاب المناقب، حديث (٣٦٢٢).

ومسلم (٣٦/٨)، كتاب الرؤيا، باب: رؤيا النبي - ﷺ -.

- وابن حبان في صحيحه (١٧٥/١٤)، كتاب التاريخ، فصل في هجرته - ﷺ - إلى المدينة... حديث (٦٢٧٥) وابن ماجه (١٢٩٢/٢) كتاب تعبير الرؤيا، حديث (٣٩٢١) كلهم من طريق أبي موسى.

- وأحمد (٣٥١/٣) عن جابر بن عبد الله، وقال ابن حجر في تخریج الکشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي، قال: حدثني محمد بن شهاب وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيى بن حبان والحسين ابن عبد الرحمن وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث عن غزوة أحد. وكان من حديثهم قالوا: قال رسول الله - ﷺ - للمسلمين يوم أحد «إني رأيت بقرأ وأولتها خيراً. ورأيت في ذباب سيفي ثلماً - فذكر الحديث بطوله وفيه: ومات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو. وفيه: ذكر للامة وغير ذلك. ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البيهقي في الدلائل وأورد منه الطبري من طريقه قطعة. وساقه عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة مطولاً وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدي بلفظ المصنف، إلى قوله، وأصح بالشعب، وبقيّة ذلك هو من كلام ابن إسحاق «قوله فيه حتى يقوم بها القداح» وقع في رواية الواقدي عن ابن أخي الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة. وقد ساقه الواقدي بهذا الإسناد مطولاً. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: أما إجراء «قعد» مجرى «صار» فقال بعض أصحابنا إنما جاء ذلك في لفظة واحدة شاذة في المثل في قولهم: «شَحَذَ شَفْرَتَهُ حَتَّى قَعَدَتْ كَأَنَّهَا خَزْبَةٌ»، وكذلك نُقِدَ عَلَى الزُمَخْشَرِيِّ تَخْرِيجَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا﴾ بمعنى: فتصير، لأنه لا يطرّد إجراء قعد مجرى صار» قلت: وهذا الذي ذكره الزمخشري صحيح من كون «قعد» يكون بمعنى صار في غير ما أشار إليه هذا القائل، حكى أبو عمر الزاهد عن ابن الأعرابي أن العرب تقول: «قعد فلان أميراً بعد أن كان مأموراً» أي صار. ثم قال الشيخ: «وأما إجراء «قام» مجرى «صار» فلا أعلم أحداً عُدّها في أخوات «كان»، ولا جعلها بمعنى صار، إلا ابن هشام الخضراوي فإنه ذكر في قول الشاعر:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَيْثِيْمٌ
كَخَشْرِ زَيْرٍ تَسْرَعُ فِي رَسَادِ

قلت: وغيره من التحوين يجعلها زائدة، وهو شاذ أيضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا غير محرر، لأن العامل لا يكون مركباً من وصفين، فتحريره أن يقال: عمل فيه معنى سمع أو علم، وتكون المسألة من التنازع». قلت: لم يُرد الزمخشري بذلك إلا ما ذكرته من إرادة التنازع، ويصدق أن يقول: عمل فيه هذا وهذا بالمعنى =

من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان. خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: يا قوم، علام تقتل أنفسنا وأولادنا؟ فنتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فهتم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ (٢٨٤)، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمرنا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه، كما قال عمرو بن الأطنابة [من الوافر]:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ: مَكَانِكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي^(١)

٢٨٤ - ذكره ابن هشام في سيرته (٨/٣)، حديث (١٠٨٥)، في غزوة أحد من قول ابن إسحاق في كلام طويل، وتقدم بعضه في الحديث السابق.

- وذكر البيهقي في تفسيره (٣٤٧/١)، رقم (١٢٢) نحوه.

وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢١/٢)، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: هو الذي قبله، وذكره ابن هشام في تهذيب السيرة بتعامه عن ابن إسحاق. انتهى.

= المذكور لا أنهما عيلا فيه معاً، على أنه لو قيل به لم يكن مبتدعاً قولاً، إذ الفراء يرى ذلك، ويقول في نحو: «ضربت وأكرمت زيداً» إن «زيداً» منصوب بهما وإنهما تسلطاً عليه معاً، انتهى. الدر المصون.

(١) أبنت لي عفتي وأبسى تلادي
واقحامني على المكروه نفسي
وقولي كلما جشأت وجاشت:
لأدفع عن مآثر صالحات
وأخذي الحمد بالثمن الربيع
وضربي هامة البطل المشبح
مكانك تحمدي أو تستريحي
وأحمي بعد عن عرض صحيح

لمعمرو بن الأطنابة وهي أمه، وأبوه يزيد بن مناة بن ثعلبة من باهلة. والتلاد: المال القديم الموروث. ويروي بلاني أي بأسني في الحروب. واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق التصريح. والريح: الزائد. والإقحام: تكليف الدخول في المكروه. ويروي: وإقدامي. ويروي «وأضرب» بدل «ضربي» وفيه دلالة على تجدد الضرب وإبرازه في صورة إلى أمر المشاهد وهو من عطف المصدر المؤول على المصدر الصريح، ويحتمل أنها جملة حالية والتقدير: وأنا أضرب. والهامة أعلى الرأس. والمشبح: الجاد في القتال، من أشاح إذا جد واجتهد. وجشأت: تحركت واضطربت، وجاشت: غلت وارتفعت، وكل شيء يغلي فهو يجيش. ومكانك: اسم فعل. أي الزمي يا نفس مكانك، يحمدك الناس إن ظفرت، أو تستريحي إن مت. ولأدفع: متعلق بالقول أو باسم الفعل أو بأبت لي، أي منعنتي عفتي وما عطف عليها من الفرار. وإسناد الفعل لذلك مجاز عقلي من الإسناد للسبب. وشبه سلامة العرض من الطعن بسلامة البيضة مثلاً من الكسر فاستعار لها =

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر، فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين، فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأطنابة، ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية، والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما، فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله فإن قلت، فمعنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا؟. قلت: معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سبباً لنزولهما، والفشل: الجبن والخور، وقرأ عبد الله: «والله وليهم» كقوله «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» [الحجرات: ٩].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَوْلُهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ (١٢٦) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٧﴾ بَلَىٰ إِنْ نَصَبُوا وَتَقْتُلُوا وَيَأْتُواكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٩﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا حَآيِينَ ﴿١٣٠﴾

أمرهم ألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه، ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حالة قلة وذلة، والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والموال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضع يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد، وقتلتهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشُّكَّة والشُّوكَّة^(١)، وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في الثبات مع رسوله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾: يتقواكم ما أنعم به عليكم من

= الصحة على طريق التصريح.

ينظر: إنباء الرواة ٢٨١/٣، وحامسة البحري ص ٩، والحيوان ٤٢٥/٦، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٥، وخزانة الأدب ٤٢٨/٢، والدرر ٨٤/٤، ودبران المعاني ١١٤/١، وسمط اللآلي ص ٥٧٤، وشرح التصريح ٢٤٣/٢، وشرح شواهد المغني ص ٥٤٦، ومجالس ثعلب ص ٨٣، والمقاصد النحوية ٤/٤١٥، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١٨٩/٤، والخصائص ٣٥/٣، وشرح الأشموني ٣/٥٦٩، وشرح شذور الذهب ص ٤٤٧، وشرح قطر الندى ص ١١٧، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/٧٤، ولسان العرب (جشأ)، ومعني اللبيب ٢٠٣/١، والمغرب ٢٧٣/١، ومعجم الهوامع ١٣/٢.

(١) قوله: «والشُّوكَّة والشُّوكَّة» في الصحاح: الشُّوكَّة - بالكسر - السلاح. والشُّوكَّة: شدة البأس. (ع)

نصرته . أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمة أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له ، ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثان من، ﴿إِذْ غَدَوْتُ﴾: على أن يقوله لهم يوم أحد. فإن قلت: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى [عليهم]، فلم يصيروا عن الغنائم ولم يتقوا، حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة؛ ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويتقوا بنصر الله، ومعنى، ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾: إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإنما جيء به «لن» الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر، و﴿يَنْ﴾: إيجاب لما بعد «لن»، بمعنى: بل يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية ثم قال: ﴿وَلَنْ تَمْسُرُوا وَتَتَّقُوا﴾: يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسؤولين للقتال، ﴿وَيَأْتُوَكُمْ﴾: يعني المشركين، ﴿مِنْ قَوْرِهِمْ هَذَا﴾: من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره، ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من: فارت القدر، إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها - ولا تعريج على شيء من صاحبها؛ فقل: خرج من فوره، كما تقول: خرج من ساعته، لم يلبث، والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه، ﴿يُؤَيِّدُكُمْ رَبُّكُمْ﴾: بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد: أن الله يعجل نصرتمكم ويسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم، وقرئ: «منزلين» بالتشديد. «ومنزلين» بكسر الزاي، بمعنى: منزلين النصر، و﴿مُسَوِّينَ﴾: بفتح الواو وكسرها. بمعنى: معلمين، ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنانها (٢٨٥)، وعن مجاهد: مجزوزة أذنان خيلهم (٢٨٦)، وعن قتادة: كانوا على خيل بلق (٢٨٧)، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة

٢٨٥ - أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٠٨٩/٣)، رقم (٥٢٤)، من طريق أبي معاوية عن جوير عن الضحاك.

٢٨٦ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٨٧/٧) رقم (٧٧٧٩) من طريق محمد بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي بزة، عن مجاهد في قوله: ﴿يُؤَيِّدُكُمْ رَبُّكُمْ﴾: قال: مجزوزة أذنانها، وأعرافها فيها الصوف أو العهن، فذلك التسويم.

وأخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٧/٢)، رقم (١٣٧٢)، من طريق شبل عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد به. وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٢) وعزه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

٢٨٧ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٨٧/٧)، من طريق بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة: فذكره، رقم (٧٧٨٠).

الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك (٢٨٨)، وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت» (٢٨٩)، ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ: الهاء لـ «أن يمدكم». أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم، ﴿وَمَا أَلْتَمَسُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا، ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله رجاء النصرة والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين، ﴿الزَّيْبُ﴾: الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الْفَكِيرُ﴾: الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة، ﴿يَقْطَعُ طَرَفَايَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم، ﴿أَوْ يَكْتُمَهُمْ﴾: أو يخزيهم ويغيبهم بالهزيمة، ﴿يَنْقَبُوا عَنَّا﴾: غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه ﴿ورد الله الذين كفروا بغيبظهم لم ينالوا خيراً﴾ [الأحزاب: ٢٥] ويقال: كبته، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيب والحرقة، وقيل في قول أبي الطيب [من الوافر]:

- لَأَكْبِتَ حَاسِداً وَأَرَى عَدُوًّا (١)

٢٨٨ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/١٣١) من طريق معمر عن قتادة قال: أخبرني عروة عن أبيه... فذكره.

٢٨٩ - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٣٥٤)، في كتاب المغازي، باب: غزوة بدر، من طريق ابن عون عن عمير بن إسحاق. قال: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت» قال: فهو أول يوم وضع الصفوف. انتهى.

- وعزاه ابن أبي شيبة لإبراهيم الحربي، في كتابه غريب الحديث.

- وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/١٨٦)، حديث (٧٧٧٦) من نفس الطريق السابق قال: إن أول ما كان الصف ليومئذ - يعني يوم بدر... فذكره.

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٢٠) للواقدي في كتاب المغازي من طريق عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة. حدثنا أبو أمامة عن ابن عون. عن ابن عمير، وابن إسحاق بهذا. وهو مرسل وزاد: قال «فهو أول يوم وضع فيه الصفوف» ورواه الطبري من وجه آخر عن ابن عون به. وقال الواقدي: حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر. عن محمود بن لبيد فذكره. قال: فأعلموا بالصفوف في مغافهم ولم يذكر الزيادة. ورواه ابن سعد من طرق في قصة «وفيه: فقال لأصحابه يومئذ: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت». قال: فأعلموا بالصفوف في مغافهم وقلانسهم». انتهى.

(١) رويدك أيها الملك الجليل
وجودك بالمقام ولو قليلاً
لأكبت حاسداً وأرى عدواً
تأن وعده مما تذيّل
فما فيما تجود به قليل
كأنهما وداعك والرحيل

هو من الكبد والرئة، واللام متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾، أو بقوله: ﴿وَمَا أَنتَصَرُوا﴾ إلا من عند الله، ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾: عطف على ما قبله.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: اعتراض، والمعنى: أن الله مالك أمرهم، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم، وقيل: إن، ﴿يَتُوبَ﴾: منصوب بإضمار «أن» و «وأن يتوب» في حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم. أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل «أو» بمعنى «إلا أن» كقولك: لألزمك أو تعطيني حق، على معنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم، وقيل: شجه عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم، وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزلت (٢٩٠)، وقيل: أراد أن

٢٩٠ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٣١/١)، من طريق معمر عن قتادة به.

ومن طريق عبد الرزاق، رواه الطبري في تفسيره (١٩٨/٧) حديث (٧٨١٥).

- وابن سعد في الطبقات (٣٥/٢)، في غزوة أحد، أخبرنا محمد بن حميد العبدى، عن معمر، عن قتادة... فذكره.

- والحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما.

● منها ما رواه البخاري (١٢٢/٨)، حديث (٤٠٧٥) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي، والحديث ليس فيه ذكر عتبة بن أبي وقاص، ولا سالم مولى حذيفة.

● ومنها ما أخرجه مسلم (٣٨٨/٦)، حديث (١٠٤) من طريق ثابت عن أنس. وحديث أنس انفراد =

لأبي الطيب. يقول: تمهل يا أيها الملك عن السفر، واجعل ذلك التأني مما تحسن به إلينا، وجودك علينا بالإقامة، ولو كانت قليلة عندك أو في ذاتها فهي كثيرة عندنا، فإنه ليس فيما تجود به قليل. وقوله: «لاكتب» متعلق بتأن. وأصله: لاكبد، قلبت الدال تاء لقرب مخرجيهما، أي لأصيب كبد الحاسد بالغيظ. وأرى: أي أصيب رئة العدو به أيضاً، كأنهما: أي الحاسد والعدو، شبه الأول بالوداع، والثاني بالرحيل، في أن كلا يحزنه. وخص الثاني بالثاني، لأنه أشد كراهة، وفيه لف ونشر مرتب، وهو حسن.

ينظر: ديوانه: ١٣٦/٣، وتاج العروس: (كبت).

يدعو الله عليهم فنهاه الله تعالى، لعلهم أن فيهم من يؤمن، وعن الحسن، ﴿يَتَغَرُّ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: بالتوبة^(١)، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين^(٢)، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب، وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً. وإتباعه قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾: تفسير بين لمن يشاء، وأنهم المتوب عليهم، أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون^(٣) عن آيات

= به مسلم، وقد علقه البخاري.

- والثالثاني في تفسيره (٣٢٧/١) حديث (٩٧) من طريق حميد عن أنس.
- والبيهقي في دلائل النبوة باب: غزوة أحد، من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: روى يومئذ رسول الله - ﷺ - رجلاً من بني الحارث بن عبد مناة يقال له: عبد الله بن قمعة، ويقال: بل رماه عتبة بن أبي وقاص، ثم أسند إلى مقسم.
قال: دعا النبي - ﷺ - فذكره.
- وابن هشام في سيرته (٣/٣١)، حديث (١١٢١)، من حديث أبي سعيد الخدري بنحو حديث البيهقي في الدلائل.
- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٣/١) للثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة وقتادة ومقسم، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق. ومن طريقه الطبري. أخبرنا معمر عن قتادة أن عتبة - فذكره من طريق معمر أخرجه ابن سعد سواء. والحديث في الصحيحين من حديث سهل بن سعد «كسرت رباعية النبي - ﷺ - يوم أحد وشج رأسه. فجعل يسلم الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم. وهو يدعوهم إلى الله؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» قال: وكانت فاطمة تغسل الدم عن وجهه - الحديث وسيأتي قريباً أن الذي شجّه عبد الله بن قمعة. وقال الواقدي: المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي - ﷺ - عبد الله بن قمعة: والذي رمى شفته وأصاب رباعيته. عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله - ﷺ - يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى. وأن عبد الله بن شهاب شجّه في وجهه، وأن ابن قمعة جرح وجته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجته، ووقع رسول الله - ﷺ - في حفرة من الحفر فأخذ عليّ بيده ورفع طلحة حتى استوى قائماً ومض مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي - ﷺ - ثم ازدرده. فقال النبي - ﷺ -: من منّ دمه دمي لم تصبه النار. انتهى.

(١) قال محمود: «معناه يغفر لمن يشاء بالتوبة... الخ» قال أحمد: هذه الآية وإرادة في الكفار. ومعتقد أهل السنة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الإيمان، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين وعندهم أن المؤمن التائب من كفره هو المعني في قوله: (يغفر لمن يشاء) كما قاله الزمخشري. وأما تسلفه من ذلك على تعميم هذا الحكم وتعديته إلى الموحدنين، فمن التعامي والتصام حقيقة، وإلا فهو أحق من ذلك. وأما نسبته إلى أهل السنة التعامي والتصام والهوى والبدعة والافتراء، فإله حسية في ذلك والسلام.

(٢) قوله: «ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين» هذا عند المعتزلة. (ع)

(٣) قوله: «ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون» يريد أهل السنة وتحقيق المبحث في علم التوحيد. (ع)

الله فيخطون خبط عشواء، ويطيبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَصَافَةً وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُحْمَلْ أَمْرُكُمْ بِاللِّتَامِ﴾^(١)
وَأَنفِقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَصَافَةً﴾: نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فاستغرق بالشئ الطفيف مال المديون^(١)، ﴿وَأَنفِقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمد ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين برحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى، وفي ذكره تعالى «العلل» و«عسى» في نحو هذه المواضع - وإن قال الناس ما قالوا - ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ الْكَثِيرَ الْغَنِيِّ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَنَّةٍ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِهِمْ أَجْرُ الْعَمَلِ الَّذِينَ هُمْ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٠﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام «سارعوا» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو، وتنصره قراءة أبي وعبد الله: وسابقوا ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يستحقان به، ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، أي: عرضها عرض السموات والأرض، كقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] والمراد: وصفها بالسعة والبسطة،

(١) قوله: «للمديون» لعله المدين، أو هو لغة شاذة. (ع)

فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، وخص العرض، لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: ﴿يَكَايُنَا مِنْ يَشَرِّكَ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبح سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض، ﴿فِي الشَّرَاءِ وَالْفَرَاءِ﴾: في حال الرخاء واليسر وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكى عن بعض السلف: أنه ربما تصدق ببصلة، وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها تصدقت بحبة عنب (٢٩١) أو في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنه لا يدع الإحسان، وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القرية: إذا ملأها وشد فاهها، وكظم البعير: إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ، وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً، وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» (٢٩٢)، وعن عائشة رضي الله عنها: أن خادماً لها غاظها فقالت: لله دَرُ التقوى، ما تركت لذي غيظ شفاء، ﴿وَأَلْمَافِينَ عَنِ النَّكَائِ﴾: إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذه، وروي: «ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين

٢٩١ - أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣٥٥/٨) رقم (٤٦٩٧)، من طريق فضيل بن مرزوق عن ظبية بنت المعلل، قالت: دخلت على عائشة فجاء سائل فأعطته حبة عنب، ثم نظرت إلي وقالت: أتعجبين من هذا إن في هذا لمناquil كثيرة. انتهى.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف: (٢٢٤/١) لعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب الآنية من طريق أبي الأحوص عن ابن إسحاق بنحوه.

وكذا لابن زنجويه في كتاب الأموال من طريق الوليد بن جميع عن مولاه.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن سعد أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا فضيل بن مرزوق عن ظبية بنت المعلل. قالت: «دخلت على عائشة فجاء سائل فأعطته حبة عنب، ثم نظرت إلي، وقالت: أتعجبين من هذا؟ إن هذا لمناquil كثيرة». انتهى.
٢٩٢ - أخرجه أبو داود في سننه (٢٤٨/٣)، حديث (٤٧٧٨)، كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً، من طريق سويد بن وهب عن رجل من أصحاب النبي - ﷺ - عن أبيه.

- وعبد الرزاق في تفسيره (١٣٢/١) من طريق داود بن قيس عن زيد بن أسلم.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود من رواية ابن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب رسول الله - ﷺ - عن أبيه. قال ابن طاهر. هذا الضحاوي هو معاذ بن أنس وابنه سهل. ورواه عبد الرزاق وأحمد عنه، والعقيلي من طريقه. قال: أخبرنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عمر له عن أبي هريرة به. وعبد الجليل مجهول.

كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا» وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه (٢٩٣) وعن النبي ﷺ: «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت» (٢٩٤)، «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»: يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورين، وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء، «وَالَّذِينَ»: عطف على المتقين. أي: أعدت للمتقين وللمتائبين، وقوله: «وَأُولَئِكَ»: إشارة إلى الفريقين، ويجوز أن يكون «الذين» مبتدأ خبره «أولئك»، «فَجَسَدٌ»: فعلة متزايدة القبح، «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ»: أو أذنبوا أي ذنب كان مما يؤخذون به، وقيل: الفاحشة: الزنا، وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما، وقيل: الفاحشة: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة، «ذَكَرُوا اللَّهَ»: تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه، أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، «فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»: فتابوا عنها لقبها نادمين عازمين^(١)، «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ»: وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفرغ للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأنَّ عدله يوجب المغفرة للتائب، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتوصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو^(٢) والتجاوز وفيه تطيب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم، والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، «وَلَمْ يُعْمِرُوا»: ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين، وعن النبي ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة» (٢٩٥) وروي: «لا كبيرة

٢٩٣ - ينظر البحر المحيط (٦٣/٣).

٢٩٤ - ذكره الديلمي في كتاب الفردوس (٣٦٤/٥)، حديث (٨١٧٠)، من طريق أنس بلفظ: «يعت الله - عز وجل - منادياً ينادي: من كان له على الله أجر فليقم إلى أجره ذلك فليأخذه. فيقال: وما ذلك الأجر؟ قال: من ظلم في أوان الدنيا فعفا وأصلح فأجره على الله، فيقومون إلى أجرهم ذلك، وهم قليلون في أمتي كثير في الأمم».

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٦/١) للثعلبي من طريق مقاتل بن حيان، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ... فذكره. وإسناده إلى مقاتل من أول الكتاب، وفي الفردوس عن أنس نحوه في أول الذي قبله. انتهى.

٢٩٥ - الحديث زوي من طريق أبي بكر ومن طريق ابن عباس.

(١) قوله «عازمين» لعله عازمين على عدم العود. (ع)

(٢) قوله «بأقصى» مما يقدر عليه وجب العفو، أما سمعاً فباتفاق، وأما عقلاً فعند المعتزلة فقط. (ع)

مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» (٢٩٦)، «وَمَنْ يَتْلُوكَ»: حال من فعل الإصرار وحرف النفي منصوب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالون بقبحها وبالنهي عنها وبالوعيد عليها، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح، وفي

فأما حديث أبي بكر:

رواه أبو داود (٨٤/٢) حديث (١٥١٤) كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار. والترمذي (٥٥٨/٥) كتاب الدعوات، حديث (٣٥٥٩) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نُصيرة وليس إسناده بالقوي. وأبو يعلى في مسنده (١٢٤/١)، حديث (١٣٧، ١٣٨). - وابن أبي حاتم في تفسيره (٥٥٥/٢)، حديث (١٤٥٩) وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٧/١) للبخاري في مسنده، ولابن السني في كتابه «عمل اليوم والليلة». وأما حديث ابن عباس:

فعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٧/١) للطبراني في كتاب الدعاء من حديث ابن أبي مليكة عن ابن عباس مرفوعاً بلفظه سواء، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبخاري. من طريق عثمان بن واقد عن أبي نصيرة عن مولى لأبي بكر - رضي الله عنه -. قال الترمذي: غريب وليس إسناده بالقوي. وقال البخاري: لا نحفظه إلا من حديث أبي بكر بهذا الطريق. وأبو نصيرة وشيخه لا يعرفان. قلت: له شاهد أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث ابن عباس. انتهى.

٢٩٦ - جاء هذا الحديث من طريق أبي هريرة، ومن طريق ابن عباس.

● أما حديث أبي هريرة:

فأخرجه أبو حفص عمر بن شاهين في كتاب الترغيب (٢٠٩/١) حديث (١٨٦) (١٢)، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ليست كبيرة بكبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة بصغيرة مع الإصرار». - وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٨/١) للطبراني في مسند الشاميين من رواية مكحول عن أبي سلمة.

أما حديث ابن عباس:

فأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٥٣).

فائدة:

قال الشوكاني في «إرشاد الفحول» (ص ٤٧): وقد قيل إن الإصرار على الصغيرة حكمه حكم مرتكب الكبيرة وليس على هذا دليل يصلح التمسك به وإنما هي مقالة لبعض الصوفية فإنه قال: لا صغيرة مع إصرار وقد روى بعض ما لا يعرف علم الرواية هذا اللفظ وجعله حديثاً ولا يصح ذلك بل الحق أن الإصرار حكمه حكم ما أصر عليه فالإصرار على الصغيرة صغيرة والإصرار على الكبيرة كبيرة.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق بن بشر أبو حذيفة في المبتدأ عن الثوري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وإسحاق حديثه منكرو. ورواه الطبراني في مسند الشاميين من رواية مكحول. عن أبي سلمة. عن أبي هريرة. وزاد في آخره «فطوبى لمن وجد في كتابه استغفاراً كثيراً» وفي إسناده بشر بن عبد الوارث. وهو متروك. ورواه الثمار وابن شاهين في الترغيب من رواية بشر بن إبراهيم عن خليفة بن سليمان عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. انتهى.

هذه الآيات بيان قاطع أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وثابون ومصرون، وأن الجنة للمتقين والثابنين منهم، دون المصيرين^(١)، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه. قال: ﴿أَجْرُ الْكَافِرِينَ﴾: بعد قوله: ﴿جَزَاءُهُمْ﴾ [آل عمران: ٨٧] لأنهما في معنى واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل، وأجر مستحق عليه، لا كما يقول المبطلون^(٢)، وروي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: «ما أقلّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي»، وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة، وعن الحسن - رضي الله عنه -: يقول الله تعالى يوم القيامة «جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم» وعن رابعة البصرية - رضي الله عنها - أنها كانت تشدد [من البسيط]: تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْبَيْسِ^(٣) والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك. يعني المغفرة والجنات، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعه، كقوله: ﴿وَقِيلُوا نَفْيِكُمْ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١ - ٦٢] ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ٢٣].

(١) قوله: «الثابنين منهم دون المصيرين» يعني أن الإصرار كبيرة وفاعل الكبيرة يخلد في النار لكن هذا عند المعتزلة، وخالف أهل السنة لأنه مؤمن عندهم والمؤمن لا يخلد فيها وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

(٢) قوله: «وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون» يريد بهم أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء. (ع)

(٣) ما بال نفسك ترضي أن تدنسها وثوب نفسك مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس

للإمام على كرم الله وجهه وقيل: لأبي العتاعية، وبالل الشان والنفس. ويجوز أنها الذات والثوب على ظاهره. ويجوز أنها الروح والثوب مستعار للجسم، لأنه للروح كالثوب للبدن. أي لا ينبغي تدنيس المظروف مع تنظيف ظرفه، ويجوز أن الأولى الروح والثاني الذات، ويروى: ما بال دينك ترضي أن تدنس. وثوب نفسك: جملة حالية، ويروى: «وثوبك الدهر مغسول». وترجو النجاة على حذف أداء الاستفهام التوبيخي، أبرزه في صورة الخبر ليصور قبحه، وشبه الأسباب الموصلة للنجاة بالطرق المسلوك على سبيل التصريحية «ولم تسلك» ترشيح. وقوله: «إن السفينة» تمثيل لحال من يرجو أمراً ولم يأخذ في أسبابه بحال ملاح يريد تسيير السفينة على أرض صلبة لا ماء بها، وفيه تقرير التوبيخ الذي أفاده الاستفهام.

ينظر: ديوانه ص ٣٢٣، وأساس البلاغة (زرر).

﴿هَذَا بَيِّنٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾

﴿هَذَا بَيِّنٌ لِّلنَّاسِ﴾: إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يعني أنه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين ويجوز أن يكون قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين، ويكون قوله: ﴿هَذَا بَيِّنٌ﴾ إشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والثابتين والمصرّين، ﴿وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي: لا يورثكم ذلك وهنا وجبنا، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو وأنتم الأعلىون شأنًا، لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته، وقاتلهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتالكم في الجنة وقتالهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وأنتم الأعلىون في العاقبة ﴿وَأَنْ جندنا لهم الغالبون﴾ [الصفات: ١٧٣]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بالنهي بمعنى: ولا تهتوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه. أو بالأعلون، أي: إن كنتم مصدّقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ وَلِلَّهِ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَلِيَمِخَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمِخَصَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

قرئ «قَرْح» بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف، وقيل: هو بالفتح الجراح، وبالضم ألمها، وقرأ أبو السَّمَال «قَرْح» بفتحتين، وقيل: القرح والقرح كالطرد والطرد، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يبطئهم عن معاودتهم بالقتال. فأنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه ﴿فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [النساء: ١٠٤] وقيل: كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ. فإن قلت: كيف قيل، ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾: وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل

يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَهِ وَغَدَهُ إِذْ تُخَوِّنُهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَنَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [الكهف: ١٥٢]، ﴿وَيَذَلُّكَ الْآيَاتُ﴾: تلك مبتدأ، والأيام صفته، و﴿تَذَلُّوْهَا﴾: خبره، ويجوز أن يكون ﴿وَيَذَلُّكَ الْآيَاتُ﴾ مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة، «تداولها» نصرتها بين الناس نذيل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله وهو من أبيات الكتاب [من المتقارب]:

فَيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرُّ^(١)

ومن أمثال العرب: الحرب سجال، وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ثم قال: أين ابن أبي كبشة، أين ابن أبي قحافة، أين ابن الخطاب. فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر. فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر - رضي الله عنه -: لا سواء، قتلنا في الجنة، وقتلناكم في النار. فقال: إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا (٢٩٧)، والمداولة مثل المعاورة،

٢٩٧ - أخرجه الحاكم (٢٩٦/٢)، والطبراني (٣٦٥/١٠) رقم (١٠٧٣١).

- وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٠٢/٢) حديث (١٦٤٤).

- والبيهقي في دلائل النبوة (٢٧٠/٣)، كلهم عن ابن عباس.

- وشاهد له، حديث عكرمة الذي أخرجه ابن أبي حاتم (٥٦٧/٢) رقم (١٥٠٧).

وحديث ابن مسعود عند أحمد (٤٦٣/١)، وقال الحافظ ابن حجر في تخریج الكشف: أخرجه أحمد والحاكم والطبراني والبيهقي في الدلائل. من رواية ابن أبي الزناد عن أبيه عن ابن عباس أن أبا سفيان قال يوم أحد فذكره. قلت: وأصله في الصحيح من غير هذا الوجه بغير هذا السياق. انتهى.

(١) فلا وأبى الناس لا يعلمون فلا الخير خير ولا الشر شر

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

للنمر بن تولب، وهو من أبيات الكتاب. و«لا» زائدة قبل القسم، لأنه في الغالب لنفي شيء. وقيل: إشارة إلى انفتاح القضية المقسم عليها وعدم احتياجها إلى قسم، لكنه إنما يظهر في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسُدُ﴾ حيث أبرز في صورة النفي المعتادة. و«الناس» مبتدأ خبره «لا يعلمون» ثم بين ذلك بقوله: فليس الخير الذي زعموا أنه خير خيراً كما زعموا. وليس الشر الذي زعموه شراً كما زعموا. أو ليس الخير خيراً دائماً، وليس الشر شراً دائماً. فيوم علينا نخذل فيه. ويوم لنا ننصر فيه، ويوم نساء فيه، ويوم نسر فيه. وروى ينصب اليوم. والمعنى: فيوماً تدور الدائرة علينا، ويوماً تكون الدولة لنا. ونساء يوماً، ونسر يوماً. وكل جملتين من هذه الجمل واقعتان موقع البيان مما قبلهما. وفي البيت الثاني: لف ونسر مرتب، وذلك حسن.

ينظر: ديوانه ص ٣٤٧، تلخيص الشواهد ص ١٩٣، حماسة البحتري ٥٦٥/١، وأمالى ابن الحاجب ٧٤٩/٢، مع الهوامع ١٠١/١، ١٨/٢، والدرر ٧٦/١، والدر المصون ٣٨٥/١.

وقال [من الكامل]:

تَرِدُ الْمِيَاءَ فَلَا تَزَالُ تَدَاوِلُ فِي النَّاسِ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وَسَمَاعٍ^(١)
يقال: داوت بينهم الشيء فتداولوه، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فيه وجهان:
أحدهما: أن يكون المعلل محذوفاً معناه: ولتمييز الثابتون على الإيمان منكم من الذين
على حرف، فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم
من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء
قبل كونها، وقيل: معناه وليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم
الثبات، والثاني أن تكون العلة محذوفة، وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون
كيت وكيت وليعلم الله^(٢)، وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة،
ليسليهم عما جرى عليهم، وليبصرهم أن العبد يسوء ما يجري عليه من المصائب، ولا
يشعر أن الله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه، ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُرَكَاءَ﴾: وليكرم ناساً
منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على
الأمم يوم القيامة بما يتلى به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: اعتراض بين بعض التعليل وبعض،
ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله،

(١) فلاهدين مع الرياح قصيدة مني محبرة إلى القعقاع

ترد المياه فلا تزال تداولاً في الناس بين تمثّل وسماع

المحبرة: المحصنة. والقعقاع اسم الممدوح، وهو في الأصل الشيء اليابس الصلب. ترد تلك
القصيدة المياه، خصها لكثرة الناس عليها وتغنيهم بالأشعار عندها، أي ترد مواضع المياه فلا تزال
متداولة في الناس، أو فلا تزال ذات تداول، أو فلا تزال تتداول تداولاً بين الناس دائرة بين تمثّل:
أي إنشاد لها بأن يضربها الناس أمثالاً لأحوالهم، وبين استماع لها لحسنها. وروى يرد المياه فلا
يزال مداولاً الخ. فذكر ضمير القصيدة لأنها بمعنى الشعر.

البيت لزهير بن علس - ينظر مجمع الأمثال ١٤٣/٢، والبحر ٦١/٣، والفضليات ص ٢ والدر
المصون ٢١٦/٢.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولم يُعَيَّنْ فاعلُ العلة المحذوفة، إنما كنى عنه بكيت وكيت، ولا
يكنى عن الشيء حتى يعرف، ففي هذا الوجه حذف العلة وحذف عاملها وإبهام فاعلها فالوجه
الأول أظهره، إذ ليس في غير حذف العامل» يعني بالوجه الأول أنه قدره: «وليعلم الله فعلنا ذلك»
وهو المداولة أو نيل الكفار منكم.

والعلم هنا يجوز أن يتعدى لواحد قالوا: لأنه بمعنى عرف، وهو مشكل لأنه لا يجوز وصف الله
تعالى بذلك لما تقدم من أن المعرفة تستدعي جهلاً بالشيء، أو أنها متعلقة بالذوات دون الأحوال،
ويجوز أن يكون متعدباً لاثنتين، قال الثاني محذوف تقديره: وليعلم الذين آمنوا معيّزين بالإيمان من
غيرهم. انتهى. الدر المصون

المحصين من الذنوب، والتمحيص: التطهير والتصفية، ﴿وَيَسَمِّقُ الْكَافِرِينَ﴾: ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين للتمييز والاستشهاد والتمحيص، وغير ذلك مما هو أصح لهم، وإن كانت على الكافرين، فلمحققهم ومحو آثارهم.

﴿أَمَّ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿أَمَّ﴾: منقطعة^(١) ومعنى الهمزة فيها الإنكار، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾: بمعنى ولما تجاهدوا، لأن العلم متعلق بالمعلوم^(٢) فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه؛ لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد: ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل، ونقول: وعدني أن يفعل كذا، ولما تريد، ولم يفعل، وأنا أتوقع فعله، وقرئ: «ولما يعلم الله» بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن^(٣) فحذفها، ﴿وَيَعْلَمُ الصَّادِقِينَ﴾: نصب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وقرأ الحسن بالجزم على العطف، وروى عبد الوارث عن أبي عمرو «ويعلم» بالرفع على أن الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

(١) قوله: «أم منقطعة» هي المفسرة بيل والهمزة. (ع)

(٢) قال محمود: «ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم... الخ» قال أحمد: للتعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم خاص بعلم الله تعالى، لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء ما، عدم ذلك شيء، ضرورة أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء بنفي تعلق العلم القديم بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم آحاد المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء بنفي تعلق علم الخلق به، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق. والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير مطلقاً ويعتقد الملازمة المذكورة عامة، فلذلك قال في قول فرعون: (ما علمت لكم من إله غيري) أنه عبر عن نفي المعلوم بنفي العلم، لأنه من لوازمه، وسيأتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثله اعتقاداً، والله أعلم. وإنما عبر فرعون بذلك تليسياً على ملته وتيمناً لدعوى الوهية الكاذبة بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواه على دعواه لتعلق علمه به وهذا يعد من حماقات فرعون ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

(٣) قوله: «ولما يعلمن» لعله أي ولما يعلمن. (ع)

قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا الذي قاله في «لما» أنها تدل على توقع الفعل المنفي بها فيما يستقبل لا أعلم أحداً من التحويين ذكره، بل ذكروا أنك إذا قلت: «لما يخرج زيد» دل ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلاً بنفيه إلى وقت الإخبار، أما أنها تدل على توقعه في المستقبل فلا، لكنني وجدت في كلام الفراء شيئاً يقارب ما قاله الزمخشري، قال: «لما» لتعريض الوجود بخلاف «لم». قلت: «والنحويون إنما فرقوا بينهما من جهة أن المنفي بـ«لم» هو فعل غير مقرون بـ«قد» و«لما» نفي له مقروناً بها، وقد تدل على التوقع، فيكون كلام الزمخشري صحيحاً من هذه الجهة ويدل على ما قلته من كون «لم» لنفي فعل، و«لما» لنفي قد فقل نص الحجة على ذلك: سيبويه فَمَنْ دُونَهُ. انتهى. الدر المصون.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٢٦)

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: خطب به الذين لم يشهدوا بدرأ وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين^(١)، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة، يعني: وكنت تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته وصعوبة مقاساته، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: أي: رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا، وهذا توبيخ لهم على تمنيه الموت، وعلى ما تسبوا له من خروج رسول الله ﷺ بالحاحهم عليه، ثم انهزمهم عنه وقلة ثباتهم عنده. فإن قلت: كيف يجوز تمنى الشهادة وفي تمنيتها تمنى غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جرّ متفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقا لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله^(٢) [من البسيط]:

لَكَيْتَنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَحَزْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَفْذِفُ الزُّبْدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدِي حِرَّانَ مُجَهِّزَةً بِحَزْبَةٍ تَنْفُذُ الْأَخْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَيَّ جَذَنِي: أَرَشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَايٍ وَقَدْ رَشَدَا^(٣)

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٢٧)

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباطه وشج وجهه، أقبل يريد قتله فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى

(١) قوله: «في الخروج» لعله وكان رأيهم في الخروج. (ع)

(٢) قوله: «وقيل له: ردكم الله» لعله سالمين. (ع)

(٣) لعبد الله بن رواحة حين خرج إلى غزوة مؤتة فليل له: ردك الله سالماً، وذات فرغ: أي ولسعة الثقب. والفرغ: مصب الماء من الدلو بين العرقي. أو طعنة ذات فرغ: أي ذات سعة. ويطلق الفرغ على الدلو أيضاً. وتنفذ الزيد: تمج الدم الذي يملؤه الزيد - أي الرغوة - لكثرة. وحيران: عطشان إلى قتلي. وهو مجاز عن تطلبه إياه. والمجبهة: المدفعة المسرعة التي لا تبقى رفقاً. وتنفذ الأحشاء: أي تنفذ فيها. وإن ضمنت التاء وكسرت الفاء، فمعناها تنقبها، والكبد: عطف خاص على عام. والجذد: القبر. والنفذ إلى الغسة في قوله: وقد رشد، علي أنه من كلامه، ويجوز أنه من قول الناس، ويحتمل الإخبار والدعاء، ومن غاز: تمييز.

قتله ابن قمته وهو يرى أنه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله فانكفثوا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إني عباد الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلما هم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله - فديناك بآبائنا وأمهاتنا - أانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين^(١) فنزلت، وروي: أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - يا قوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعترز إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل، وعن بعض المهاجرين: أنه مرّ بأنصاري يتشطح في دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم، (٢٩٨) والمعنى، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

٢٩٨ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥٤/٧)، حديث (٧٩٤٣) من طريق محمد بن الحسين عن أحمد بن المفضل عن أسباط عن السدي بنحوه.

- وعزاء الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٢/١) للواقدي، في كتاب المغازي من طريق خالد بن رباح عن الأعرج.

(١) قلت: هذا متزع من عدة أخبار في وقعة أحد. قال موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب. قال: «رمى يومئذ رسول الله ﷺ رجل من بني الحارث يقال له عبد الله بن قمته، ويقال: بل رماه عتبة بن أبي وقاص، وفي الطبراني عن أبي أمامة «أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قمته بحجر يوم أحد فشجه في وجهه وكسر ربايعته، وقال: «خذها وأنا ابن قمته، فقال له النبي ﷺ أقماك الله فسلط الله عليه نيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة» وروي الطبري من طريق أسباط عن السدي فذكر قصة أحد. قال: «فأتى ابن قمته الحارثي أحد بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة. فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في رأسه فأنثله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل، وجعل يدعوهم إلى عباد الله. إلى عباد الله. وفشا في الناس أن محمداً قتل» الحديث، وفي المغازي لابن إسحاق ومن طريقه الطبري عن الزهري، ومحمد بن محمد بن حبان وعاصم بن عمر، وغيرهم فذكر قصة أحد. قال «ولم يزل مصعب بن عمير يقاتل دونه ومعه لؤؤه حتى قتل»، وكان الذي أصابه ابن قمته وهو يظن أنه النبي ﷺ. فرجع إلى قریش فقال: لقد قتلت محمداً. وعند الواقدي عن ابن أبي سيرة عن خالد بن رباح عن الأعرج قال: «لما صاح الشيطان يوم أحد إن محمداً قد قتل». قال أبو سفيان: أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قمته: أنا. وأما قوله: فلا مهم على هربهم إلى آخره فرواه.... قوله: أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، هو من رواية السدي المتقدمة ولغظه: فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي =

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ: فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن متمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل^(١) تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه، ﴿أَفَأَمِنَ مَاتَ﴾: الفاء معلقة للجملتين الشرطية والجملتين قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلوا الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه يموت أو قتل، مع علمهم أن خلوا الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ، لا للانقلاب عنه. فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوزاً عند المخاطبين. فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمُوتُكَ مِنْ أَلَانِ﴾ [المائدة: ٦٧]؟ قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوي البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم، والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره، وقيل: الارتداد، وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، ويجوز أن يكون على وجه التغليب عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وإسلامه^(٢)، ﴿فَلَنْ يَصْرَأَ اللَّهُ شَيْئاً﴾: فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾: الذين لم ينقلبوا كأئس بن النضر وأضرابه، وسامهم شاكرين، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. والمعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معينين: أحدهما: تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خَوْضَ المهالك واقتحم المعارك، والثاني: ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له، نهزة للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل.

= فإخذ لنا أمانة من أبي سفيان. قوله: «وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً ما قتل. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت. الحديث: هو في آخر رواية السدي المذكورة. قوله: «وعن بعض المهاجرين أنه مر بأنصاري يتشطح في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل. فقال: «إن كان قد قتل فقد بلغ. فقاتلوا عن دينكم» رواه الطبري من رواية ابن أبي نجيع عن مجاهد «أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشطح» فذكره في كلام طويل.

(١) قوله: «من بعثة الرسل» لعله الرسول. (ع)

(٢) قوله: «وإسلامه» أي: تركه للعدو. (ع)

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلَاءَ وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾

﴿كَتَبْنَا﴾: مصدر مؤكد، لأن المعنى: كتب الموت كتاباً، ﴿مُؤَجَلَاءَ﴾: موقناً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد، ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: أي: من ثوابها، ﴿وَسَنَجْزِي﴾: الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد، وقرئ: ﴿يؤته﴾، و«سيجزي»، بالياء فيهما.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْغَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قرئ: «قاتل»، و«قتل»، بالتشديد، والفاعل «ربيون»، أو ضمير النبي، و«مَعَهُ رِبِّيُّونَ» حال عنه بمعنى: قتل كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول، وعن سعيد بن جبير رحمه الله: ما سمعنا بشيء قتل في القتال، والربيون الريانيون، وقرئ: بالحركات الثلاث، فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب، وقرئ: «فما وهنوا» بكسر الهاء، والمعنى: فما وهنوا عند قتل النبي، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: عن الجهاد بعده، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: للعدو، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم. حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا﴾: هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربيانيين، هضماً لها واستقصاراً، والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة، ﴿فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر، وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقديره، وأنه هو المعتد به عنده ﴿يُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ﴿[الأفال: ٦٧]﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِإِلَهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قال علي - رضي الله عنه -: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم، وعن الحسن - رضي الله عنه -: إن تستنصحو اليهود والنصارى وتقبلوا منهم، لأنهم كانوا يستغفونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه، وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم، ﴿يُرْذَوْنَ﴾: إلى دينهم، (٢٩٩) وقيل: هو عام في جميع الكفار، وإن على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجزوهم إلى موافقتهم، ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾: أي: ناصركم، لا تحتاجون معه إلى نصره أحد وولايته، وقرئ بالنصب على: بل أطيعوا الله مولاكم ﴿سنلقي﴾: قرئ بالنون والياء، والرعب - بسكون العين وضمها - قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة، وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً، قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن فاهرون^(١) ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا، ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾: بسبب إشراكهم، أي: كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به، ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة. فإن قلت: كان هناك حجة^(٢) حتى ينزلها^(٣) الله فيصح لهم الإشراك؟ قلت: لم يكن

٢٩٩ - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧٧/٧) رقم (٨٠٠٠) من طريق أسباط عن السدي وابن أبي حاتم في تفسيره (٥٩٥/٢)، رقم (١٦١١)، من نفس طريق ابن جرير.

- (١) قوله: «فاهرون» لعله فاهرون. والفاره: الحاذق بالشيء. أفاده الصحاح. (ع)
- (٢) قوله: «فإن قلت كان هناك حجة» لعله: أكان. (ع)
- (٣) قال محمود: «إن قلت: كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك... الخ؟» قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثم حجة وليس في ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما أشركوا بالله ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما أشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكن كقول القائل [من الطويل]:

علي لأحب لا يهتدي بمناره
فإنه بإضافة المنار إليه يوم أن فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى حمله على معنى لا منار فيه فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: «على لا حب لا يهتدي فيه بمنار» مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم، لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنما المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله [من السريع]:

وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ^(١)

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَرْنَا مِنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ إِذْ تَسْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا يَعْبُورُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَافِئَةً يَفْشَى مَلَائِكَةُ مِنْكُمْ وَمَلَائِكَةُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾: وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْذُوكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فلما فشلوا وتنازعوا لم يربعهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت، وذلك أَنَّ رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يشبوا في مكانهم ولا يبرحوا - كانت الدولة

(١) لا تنزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحرج لابن أحمر. يقول: لا تخيف الأرنب أهوال تلك الصحراء، أي لا هول فيها حتى يفزع، فما في البيت كناية عن ذلك، كقوله: ولا ترى الضب فيها يدخل جحره، أي لا ضب فيها ينجحرج. وينجحرج حال إن كانت ترى بصرية، ومفعول ثان إن كانت علمية. ويجوز أن المعنى: لا أرنب فيها تفزع أهوالها، كما لا ضب فيها يدخل جحره، فهما منفيان. وهذا أوفق بالمقدم ينظر: ديوانه ص ٦٧، وأمالى المرتضى: ٢٢٩/١، وخزانة الأدب: ١٩٢/١٠ والخصائص: ٣/٣٢١، ١٦٥.

للمسلمين أو عليهم - فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. يحسونهم أي: يقتلونهم قتلاً ذريعاً. حتى إذا فشلوا، والفشل: الجبن وضعف الرأي، وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا، وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: ونفر أعقابهم ينهبون، وهم الذين أرادوا الدنيا، فكرّ المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير - رضي الله عنه -، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صباً، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ مَكَرَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: لماعلم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله ﷺ، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: يتفضل عليهم بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أدبيل لهم أو أدبيل عليهم؛ لأنّ الابتلاء رحمة كما أنّ النصر رحمة. فإن قلت: أين متعلق، ﴿حَتَّى إِذَا﴾: قلت: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم منعكم نصره، ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم، ﴿إِذْ تُبَيِّنُكَ﴾: نصب بصرفكم، أو بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أو بإضمار «اذكر» والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه. يقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض. يقال: أصدعنا من مكة إلى المدينة وقرأ الحسن - رضي الله عنه -: «تصعدون»، يعني: في الجبل، وتعصد الأولى قراءة أبي: «إذ تصعدون في الوادي»، وقرأ أبو حنيفة: «تصعدون»، بفتح التاء وتشديد العين، من تصعد في السلم، وقرأ الحسن - رضي الله عنه -: «تلون»، بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها، وقرأ: «يصعدون». «ويلون» بالياء، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾: كان يقول: «إني عباد الله إلي عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة»، (٣٠٠) ﴿فِي أُخْرَىٰكُمْ﴾: في ساقبتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة. يقال: جثت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى، ﴿فَأَنْبَأَكُمْ﴾: عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله، ﴿عَمَّا﴾: حين صرفكم عنهم وإبتلاكهم ﴿بِـ﴾ سبب ﴿غَمٍّ﴾ أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غما مضاعفاً، غما بعد غم، وغما متصلاً بغم، من

٣٠٠ - أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠١/٧) حديث (٨٠٤٩) من طريق سعيد عن قتادة: ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَسَدٍ﴾، ذاك يوم أحد أصدعوا في الوادي فراراً، ونبي الله - ﷺ - يدعوهم إلى أخراهم «إني عباد الله، إلي عباد الله».

- وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٤/٢) وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره، ولابن المنذر عن قتادة.

الاغتمام بما أرفج به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، ﴿لَيْكَيْلًا تَحْزَنُوا﴾: لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في، ﴿فَأَتَّبَعَكُمْ﴾: للرسول، أي: فأساكم في الاغتمام^(١)، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم، فأتابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتمتموه لأجله، ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لثلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله، ولا على ما أصابكم من غلبة العدو، وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نسوا وغلبهم النوم، وعن أبي طلحة - رضي الله عنه -: غشنا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه، وما أحد إلا ويميل تحت حجفته، (٣٠١) وعن [الزبير] رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا

٣٠١ - أخرجه البخاري (٤٢٢/٧) كتاب المغازي: باب ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ رِزْقٌ مِنَ السَّمَاءِ﴾ حديث (٤٠٦٨)، (٧٦/٨) كتاب التفسير: باب «أمنة نعاساً» حديث (٤٥٦٢) والترمذي (٢٢٩/٥ - ٢٣٠) كتاب التفسير: باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٨) وأحمد (٢٩/٤) وابن حبان (٧١٨٠) والطبري في «تفسيره» (٤٨٤/٣) رقم (٨٠٧٥، ٨٠٧٦) والطبراني في «الكبير» (٩٥/٥ - ٩٦) رقم (٤٦٩٩)، (٤٧٠٠) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧٣/٣ - ٢٧٤) كلهم من طريق قتادة عن أنس به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه الترمذي (٢٢٩/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٧) وابن سعد في «الطبقات» (٥٠٥/٣) وابن أبي شعبة (٤٠٦/١٤ - ٤٠٧) والطبري في «تفسيره» (٤٨٣/٣ - ٤٨٤) رقم (٨٠٧٤) والحاكم (٢٩٧/٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢٧٢/٣) وأبو نعيم في «الدلائل» (٣٦٧) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن سعد (٥٠٥/٣) والطبري في «تفسيره» (٤٨٣/٣) رقم (٨٠٧٣) من طريق حميد عن أنس والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥٥/٢) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه. وللحديث شاهد من حديث الزبير بن العوام.

أخرجه الترمذي (٢٢٩/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة آل عمران حديث (٣٠٠٧) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير به بنحو حديث أنس.

وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه البخاري من رواية قتادة عن أنس به. لكن ليس في آخره «وما أحد إلا ويميل تحت حجفته». وهو بتمامه عند الحاكم. وكذا أخرجه الطبري من رواية ثابت عن أنس - رضي الله عنه - انتهى.

(١) قوله: «فأساكم في الاغتمام» لعله: فأساكم، أي فصار أسوتكم أفاد الصحاح. (ع)

الخوف، فأرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» (٣٠٢)، والأمنة: الأمن، وقرئ: «أمنة» بسكون الميم، كأنها المرة من الأمن، و، «نَاسًا»: بدل من «أمنة»، ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى نعستم أمنة، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه جمع آمن، كبار وبررة، «يَتَّقْنِ»: قرئ بالياء والتاء رداً على النعاس، أو على الأمنة، «مَلَأَيْكَ مِنْكَمَّ»: هم أهل الصدق واليقين، «وَمَلَأَيْتَهُ»: هم المنافقون، «فَدَّاهَمَتْهُمْ أَنْفُسُهُمَّ»: ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم في الهموم والأشجان، فهم في التشاكي والتباث، «غَيْرَ الْحَقِّ»: في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به، و«ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ»: بدل منه، ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظن الجاهلية، وغير الحق: تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك وظن الجاهلية، كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق: يريد الظن المختص بالملة الجاهلية، ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله، «يَقُولُونَ»: لرسول الله ﷺ يسألونه، «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ»: معناه هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو، «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ»: ولأوليائه المؤمنين وهو النصر والغلبة «كَتَبَ اللَّهُ لِلْغَلِيظَةِ أَنَا وَرَسُولِي» [المجادلة: ٢١]، «وَإِنَّ جُذُنًا لَهُمْ الْغُلْيُورُ» [الصفات: ١٧٣]، «يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ»: معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من شيء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما يظنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكربين لقولك لهم إن الأمر كله لله، «لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»: أي: لو كان الأمر كما قال محمد: إن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في

٣٠٢ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٢٠/٢)، رقم (١٦٩٧).

- والطبري في تفسيره (٣٢٣/٧)، رقم (٨٠٩٤).

- وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٦٨).

- والبيهقي في دلائل النبوة (٢٧٣/٣).

كلهم من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه بن إسحاق في المغازي حذثنني يحيى بن عباد بن عبيد الله بن الزبير عن أبيه عن عبيد الله بن الزبير عن أبيه به. أخرجه إسحاق والبرار والطبري وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي. كلهم من طريقه. انتهى.

هذه المعركة، ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: يعني من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم، ﴿لَبَرَزَ﴾: من بينكم، ﴿الَّذِينَ﴾: علم الله أنهم يقتلون، ﴿إِلَّا مَسَاجِدَهُمْ﴾: وهي مصارعهم ليكون ما علم الله أنه يكون، والمعنى أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون، لعلهم أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة، وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة، وقيل: معناه هل لنا من التدبير من شيء، يعنون لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبيي وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة، قل: إن التدبير كله لله، يريد أن الله عز وجل قد دبر الأمر كما جرى، ولو أقمتهم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم، وقرئ: «كتب عليهم القتال». «وكتب عليهم القتال»، على البناء للفاعل، ولبرز، بالتشديد وضم الباء، ﴿وَلَيَبْتَئِيَ اللَّهُ﴾: وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان. فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمعة وللابتلاء والتمحيص. فإن قلت: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله وطائفة؟ قلت: «قَدْ أَمَّتْهُمْ»: صفة لطائفة و﴿يَطْئُونَ﴾: صفة أخرى أو حال بمعنى: قد أمتهم أنفسهم ظانين. أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها، و﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من يظنون. فإن قلت: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟^(١) قلت: كانت مسألتهم صادرة عن الظن، فلذلك جاز إبداله منه، ويخفون حال من يقولون، و﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] اعتراض بين الحال وذوي الحال، و﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من، «يَخْفُونَ»: والأجود أن يكون استئنافاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾

(١) قال محمود: «إن قلت كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر... الخ؟» قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفِيدُ فِيهَا وَتَسْعُكُ الْوَمَاءُ﴾ الآية فإن هذا السؤال استفهام، والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصدق ونقيضه، ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم: ﴿أَتُنْفِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مَكْذُوبِينَ﴾ يعني في قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها. فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الإخبار بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد وسفك الدماء، إلا من عصمه الله تعالى منهم، والله أعلم.

﴿أَسْأَلُهُمْ﴾: طلب منهم الزلل ودعاهم إليه، ﴿يَبْعِضُ مَا كَسَبُوا﴾: من ذنوبهم ومعناه: إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوباً، فلذلك منعهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا، وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم، لأن الذنب يجزى إلى الذنب، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها، وقال الحسن - رضي الله عنه -: استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة، وقيل: ﴿يَبْعِضُ مَا كَسَبُوا﴾: هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فجزهم ذلك إلى الهزيمة (٣٠٣) وقيل: ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية. فإن قلت: لم قيل: ﴿يَبْعِضُ مَا كَسَبُوا﴾؟ قلت: هو كقوله تعالى: ﴿وَيَقْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: لتوبتهم واعتذارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ للذنوب، ﴿حَلِيلٌ﴾: لا يعاجل بالعقوبة.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٦) وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَكِنْ مِّثْمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِرَبِّ اللَّهِ تُمْشِرُونَ (١٥٨)

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: أي: لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ومعنى الأخوة: اتفاق الجنس أو النسب، ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا غُرًى﴾: جمع غاز، كعاف وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون^(١)، وقرئ بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة. فإن قلت: كيف قيل: ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾: مع، ﴿قَالُوا﴾؟ قلت: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض فإن قلت: ما متعلق «ليجعل»؟ قلت: «قالوا»، أي: «قالوا» ذلك واعتقدوه ليكون، ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: على أن اللام مثلها في

٣٠٣ - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٢٤)، رقم (١٧١٢) من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله ﴿لَمَّا أَسْأَلَهُمُ اتَّخِذُوا...﴾ يعني حين تركوا المركز وعصوا أمر رسول الله ﷺ - حين قال للرماة يوم أحد: «لا تبرحوا مكانكم» فترك بعضهم المركز.

(١) قوله: «وعفى كقوله: عفى الحياض أجون» في الصحاح: العفى - جمع عاف - وهو الدارس. والآجن: الماء المتغير الطعم واللون. وأجن الماء يأجن ويأجن أجناً وأجوناً أهد. وجمع الآجن على أجون، كالرايع على ركوع، والشاهد على شهود. (ع)

﴿يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾ [القصص: ٨] أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده، ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت: معناه أَنَّ الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم، ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله: ﴿يَجْعَلُ مَكْرَهُمْ نَصِيقًا حَرًا كَأَنَّا يَصْعَكُ فِي أَلْسِنَاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دلَّ عليه النهي، أي: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأنَّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم مما يغمهم ويغضبهم ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ وَيُخَيِّرُ﴾ ردُّ لقولهم. أي: الأمر بيده، قد يحيي المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد كما يشاء، وعن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - أنه قال عند موته: ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وما أناذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء، (٣٠٤) ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمْلُونَ بِمَيْرٍ﴾: فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء، يعني الذين كفروا، ﴿لَتَمْفِرَنَّ﴾: جواب القسم، وهو ساذ مسدَّ جواب الشرط، وكذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشَرُونَ﴾: كذب الكافرين أولاً في زعمهم أن من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان في المدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله، فإنَّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: خير من طلاع الأرض ذهباً^(١) حمراء، وقرئ بالياء، أي: يجمع الكفار، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشَرُونَ﴾: لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة، المثيب العظيم الثواب تحشرون ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي. قرئ: «تمم» بضم الميم وكسرهما، من مات يموت ومات يمات.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّصُتُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

٣٠٤ - عزاء الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٣/١) للواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، وقال: راجع البداية والنهاية لابن كثير (١٢٦/٧).

(١) قوله: «خير من طلاع الأرض ذهباً» في الصحاح: طلاع الأرض: ملوها. والذهبة: القطعة من الذهب. (ع)

«ما» مزيدة للتوكيد والدلالة على أنَّ لينة لهم ما كان إلا برحمة من الله ونحوه ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ بِمِثْقَلِهِمْ لَمَنَّهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غما بغم وأساهم بالمبائة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا: جافياً، غَلِيظَ الْقَلْبِ: قاسيه، لَا تَنْفَعُوا مِنْ حَوْلِكُمْ: لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم، فَاعَفُ عَنْهُمْ: فيما يختص بك، وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ: فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، وَشَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ: يعني في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من أقدارهم، وعن الحسن - رضي الله عنه -: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستنَّ به من بعده، (٣٠٥) وعن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - «ما تشاور قوم قط إلا هودوا لأرشد أمرهم» (٣٠٦) وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول ﷺ، (٣٠٧) وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا

٣٠٥ - أخرجه ابن أبي حاتم (٦٣٢/٢) رقم (١٧٤٥) من طريق ابن شبرمة عن الحسن به.
٣٠٦ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٤/١): غريب، ولم أجده إلا من قول الحسن، ولم يروه الطبري إلا من قول الحسن، وقد ذكره المصنف في سورة الشورى، من قول الحسن.
قلت: وأما قول الحسن فقد أخرجه الطبري في تفسيره (٣٤٤/٧) رقم (٨١٣٠) من طريق إياس بن دغفل عن الحسن به، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أعاده في تفسير سورة الشورى عن الحسن قوله وهو المحفوظ. ومن طريقه أخرجه الطبري. انتهى.
٣٠٧ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٤/١): هكذا وجدته في عدة نسخ وصوابه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ -.

- أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢١٦/١١)، رقم (٤٨٧٢)، من طريق عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ولفظه «خرج رسول الله ﷺ - زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه... الحديث بطوله. وهو حديث الفتح.
وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٣٠/٥) رقم (٩٧٢٠).
- وأحمد (٣٢٨/٤).

وأشار إليه الترمذي (٢١٣/٤ - ٢١٤)، رقم (١٧١٤).
- والبيهقي في المعرفة (٣٥٨/٧) رقم (٥٨٦٢)، كتاب أدب القاضي، من طريق ابن عبيبة عن الزهري.

وقد قال عنه الزيلعي: كَأَنَّ فِيهِ انْقِطَاعاً بَيْنَ الزَّهْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: هذا فيه تحريف. والصواب من رسول الله ﷺ - لأصحابه، كذلك أخرجه الشافعي عن ابن عبيبة عن الزهري عنه وهو منقطع وهو مختصر من الحديث الطويل في قصة الحديبية وغزوة الفتح، أخرجه ابن حبان من رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن المسور ومروان. وفيه قال الزهري: وكان أبو هريرة يقول. فذكره. وكذا أخرجه عبد الرزاق في مصنفه وعند أحمد وإسحاق. وقد أشار إليه الترمذي في آخر الجهاد فقال: وَيُرَوَّى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَذَكَرَهُ. انتهى.

في الأمر شق عليهم فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم، وقرئ: «وشاورهم في بعض الأمر»، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: في إمضاء أمرك على الأرشد الأصح، فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله، لا أنت ولا من تشاور، وقرئ: «فإذا عزمته» بضم التاء، بمعنى فإذا عزمته لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل علي ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٦) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ بَضِيعُ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَمِثْلُ مَا يَصِيرُ ﴿١٦٨﴾

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾: كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾: كما خذلكم يوم أحد، ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾: فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه، ونحوه ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿وَمِنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد خذلانه. أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان؛ تريد إذا جاوزته، وقرأ عبيد بن عمير: «وإن يخذلكم»، من أخذه إذا جعله مخذولاً، وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: وليخص المؤمنين ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه. يقال: غلَّ شيئاً من المغنم غلولاً وأغلَّ إغلالاً: إذا أخذه في خفية. يقال: أغلَّ الجازر، إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغل: الحقد الكامن في الصدر، ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلَّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه» (٣٠٨)

٣٠٨ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٥/١): غريب.

- قلت: أخرجه الطبري (٣٥٩/٧) رقم (٨١٥٩)، من طريق أبي حميد الساعدي.

- وقد أخرج ابن ماجه هذا الحديث بمعناه (٥٧٩/١) حديث (١٨١٠) كتاب الزكاة، باب: ما جاء

في غَمَالِ الصدقة، من طريق عبد الله بن أنس.

أخرجه البخاري (٣٧٠/١٣)، حديث (٦٦٣٦).

كتاب الأيمان والندور، باب: كيف كانت يمين النبي - ﷺ -؟ من طريق عروة عن أبي حميد

الساعدي «أن رسول الله - ﷺ - استعمل عاملاً فجاءه العامل حين فرغ من عمله. الحديث: وفيه،

فوالذي نفس محمد بيده لا يعمل أحدكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه» قلت: ولفظ

ابن ماجه أقرب إلى حديث المصنف.

- ومسلم (٤٥٩/٦) رقم (٢٦) (١٨٣٢) من نفس طريق البخاري.

وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول» (٣٠٩) وعنه: «ليس على المستعير غير المغل ضمان»

== - والبيهقي (١٣٨/١٠)، كتاب آداب القاضي، باب: لا يقبل منه هدية.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن أنيس. أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوماً الصدقة فقال عمر «ألم تسمع رسول الله - ﷺ - حين ذكر غلول الصدقة: أنه من غلّ بغيراً أو شاة أتى به يوم القيامة فقال له عبد الله بن أنيس: بلى» وفي الصحيحين عن أبي حميد الساعدي «أن رسول الله - ﷺ - استعمل عاملاً فجاءه العامل حين فرغ من عمله. الحديث: وفيه، فوالذي نفس محمد بيده لا يعمل أحدكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه. انتهى.

٣٠٩ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٦/١): غريب بلفظ الولاة والحديث زوي من حديث أبي حميد، وأبي هريرة، وجابر وابن عباس.

● أما حديث أبي حميد:

فرواه أحمد (٤٢٤/٥) بلفظ (هدايا العمال غلول) والبيزار (٢٣٦/٢)، حديث (١٥٩٩)، كتاب الإمامة، باب: في هدايا الأمراء، وابن عدي (١٧٣/١).

والبيهقي مرفوعاً (١٣٨/١٠)، كتاب آداب القاضي، باب: لا يقبل منه هدية.

وذكره الهيثمي في المجمع (١٥٤/٤)، باب: هدايا الأمراء.

وكذا ابن حجر في التلخيص (٣٤٨/٤)، حديث (٢٥٨٩)، وقال: إسناده ضعيف. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٦/١): إن ابن عدي عذبه من منكرات إسماعيل بن عياش، وابن عياش ضعيف في روايته عن الحجازين.

● وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه الطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٩٤/٤) رقم (٢١٥١).

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٦/١) لابن عدي في الكامل.

● وأما حديث جابر:

فأخرجه البيزار (٢٣٧/٢)، حديث (١٦٠٠)، وقال: قال البيزار: لا نعلمه عن جابر إلا بهذا الإسناد.

- وابن عبد البر في التمهيد (١٠/٢).

- وأبو نعيم في الحلية (١١٠/٧).

- وعبد الرزاق في مصنفه (١٤٧/٨)، حديث (١٤٦٦٥)، باب: الهدية للأمراء والذي يشفع عنده.

وذكره الهيثمي في المجمع (١٥٤/٤)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٧/١) لإسحاق بن راهويه في مسنده، من طريق أبي نضرة عن جابر.

● وأما حديث ابن عباس:

فعره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٧/١) لابن الجوزي في كتاب التحقيق، من طريق يحيى بن نعيم عن ابن عباس، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: رواه أحمد، والبيزار، والطبراني من حديث أبي حميد الساعدي بلفظ «هدايا العمال» وهو من رواية إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة عنه. قال البيزار: أخطأ فيه إسماعيل سنداً ومتناً. وإنما أراد حديث الزهري عن عروة، عن أبي حميد باللفظ الماضي. وكذا عذبه ابن عدي في منكرات إسماعيل بن =

(٣١٠) وعنه: «لا إغلال ولا إسلال» (٣١١) ويقال: أغله إذا وجده غالا، كقولك: أبخلته وأفحمته^(١) ومعنى، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾: وما صح له ذلك، يعني أن النبوة تنافي الغلول، وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأؤل، لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالا، ولا يوجد غالا إلا إذا كان غالا، وفيه وجهان: أحدهما: أن ييرا

= عياش. وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري عن أبان عن أبي عياش عن أبي نصيرة عن جابر بلفظ: «الهدايا للامراء غلول» رواه إسحاق أخبرنا وكيع حدثنا سفيان عن حذثه عن أبي نصيرة به. قال البزار: أبان متروك. ثم ساقه من رواية قيس بن الربيع عن ليث بن أبي سليم. عن عطاء عن جابر به. وأخرجه ابن عدي في ترجمة أحمد بن معاوية الباهلي من روايته عن النضر بن شميل عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - . وقال: هذا حديث باطل، وذكر الطبراني في الأوسط، أن أحمد بن معاوية تفرد به. انتهى.

٣١٠ - أخرجه البيهقي (٩١/٦) كتاب: العارية، باب: من قال لا يغر من حديث أيوب، وقتادة وحيب ويونس عن ابن سيرين أن شريحاً قال: ليس على المستودع غير المغل ضمان ولا على المستعير غير المغل ضمان قال البيهقي: هذا هو المحفوظ عن شريح القاضي، ورواه عمرو بن عبد الجبار عن عبيدة بن حسان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي - ﷺ - ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وزاد «وليس على المستودع غير المغل ضمان» قال البيهقي: هذا ضعيف والمحفوظ أنه قول شريح. انتهى.

٣١١ - روي من حديث المسور ومروان، ومن حديث عمرو بن عوف، ومن حديث سلمة بن الأكوع. فأما حديث مسور ومروان.

فأخرجه أبو داود (٨٦/٣)، رقم (٢٧٦٦)، كتاب الجهاد، باب: في صلح العدو، بلفظ «أنهم اصطلموا على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأحمد (٣٢٣/٤).

وأما حديث عمرو بن عوف: فرواه الدارمي في مسنده (٢٣١/٢) باب: في الغال إذا جاء بما غل به.

وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٨/١) لابن عدي في كامله، وقال: إن ابن عدي أغلظ القول في كثير من عبد الله، نقلاً عن التساني وأحمد وابن معين.

وأما حديث سلمة، فقد عزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٨/١) لإبراهيم الحربي في كتاب غريب الحديث، ولابن زنجويه في كتاب الأموال وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود وأحمد من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان في حديث. ورواه الدارمي والطبراني وابن عدي من رواية كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رفعه «لا نهب ولا إسلال ولا إغلال ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» ورواه ابن زنجويه في الأموال، وإبراهيم الحربي في الغريب من رواية موسى بن عبيدة عن أبان بن سلمة عن أبيه. وموسى ضعيف. انتهى.

(١) قوله: «كقولك أبخلته وأفحمته» في الصحاح: أفحمته: أي وجدته مفحماً لا يقول الشعر. (ع)

رسول الله ﷺ^(١) من ذلك وينزهه وينبهه على عصمته بأن النبوة والغلول متنافيان؟ لئلا يظن به ظانٌ شيئاً منه وألا يستريب به أحد، كما روى: أَنَّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر. فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها، (٣١٢) وروي: أنها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتاكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم» (٣١٣) والثاني أن يكون مبالغة في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنه بعث ثلاث غنم فغنمت غنائم فقسمها ولم يقسم للطلائف، (٣١٤) فنزلت.

٣١٢ - أخرجه الترمذي (٤٨/٥)، رقم (٣٠٠٩)، كتاب النصير، باب: ومن سورة آل عمران.
وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روى عبد السلام بن حرب عن خضيف نحو هذا،
وروى بعضهم هذا الحديث عن خضيف عن مقسم، ولم يذكر فيه عن ابن عباس.
- والطبراني في الكبير (١١/٦٦٤) رقم (١٢٠٢٩، ١٢٠٢٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس موقوفاً.
- وأبو يعلى في مسنده (٥/٦٠) رقم (٣٢٤) - (٢٦٥١) بنحوه.
- والطبري في تفسيره (٧/٣٤٨)، رقم (٨١٣٦، ٨١٣٨، ٨١٣٩، ٨١٤٠).
- وابن أبي حاتم (٢٠/٦٣٧)، رقم (١٧٦٠).
كلهم من طرق مختلفة عن ابن عباس.

وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٣٩): إن ابن عدي في الكامل أعل هذا الحديث ببخفيف، وضعه ابن معين، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من حديث خفيف عن مقسم عن ابن عباس بلفظ: فقال بعض الناس، وقال حسن. قال: ورؤي عن مقسم ولم يذكر ابن عباس ورواه الطبراني وأبو يعلى وابن عدي والطبري والواحدي كلهم من هذا الوجه. وأعله ابن عدي ببخفيف. انتهى.

٣١٣- عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٩/١) للثعلبي، وللواحدي في أسباب النزول، من طريق الكلبي ومقاتل، قال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي والواحدي في أسبابه عن الكلبي ومقاتل قال «نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز» إلخ. انتهى.

٣١٤ - ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٤٠/١) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير الطبري =

(١) قال محمود: «فيه توجيهان: أحدهما: أن يكون ذلك تنزيهاً لرسول الله ﷺ... الخ» قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي في أمثال قوله تعالى: «مَا كَانَتْ لِيَنْتَهِ أَنْ يَكُونَ لَكَ شَرٌّ»، «مَا كَانَتْ لِلْعَيِّ وَالْزُّورِ أَسْمَٰنٌ أَنْ يَسْتَقْبِرُوا لِلْمُتْرِكِينَ»، «وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ»، إلى غير ذلك، على أن الزمخشري حاف في العبارة إذ يقول: عبر عن الحرمان بالعلو تغليظاً وتقبيحاً وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله ﷺ في التأديب أن يكون مزوجاً بغاية التخفيف والتعطف. ألا ترى إلى قوله تعالى: «عَنَّا اللَّهُ عَنكَ إِمَّا أَدْنَتْ لَهُمْ» قال بعض العلماء: بدأ بالعفو قبل العتب. ولو لم يبدأ بالعفو لا تفطر قلبه ﷺ.

يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية، وسمى حرمان بعض الغزاة «غلولاً» تغليظاً وتقييحاً لصورة الأمر، ولو قرئ: «أن يغل» من أغل بمعنى غل، لجاز، ﴿يَأْتِي مِمَّا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله كما جاء في الحديث: «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»^(١) (٣١٥) وروي: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي»^(٢) بغير له رغاء، وببقرة لها خوار، وبشاة لها نغاء، فينادي يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك» (٣١٦) وعن بعض جفاة العرب أنه سرق نافجة مسك، فتليت عليه الآية فقال: إذا أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل، ويجوز أن يراد يأتي بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه فإن قلت: هلا قيل: ثم يوفى ما كسب، ليتصل به؟ قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزي فموفى جزاءه،

= والواحد في أسباب النزول. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبه. حدثنا وكيع حدثنا سلمة بن نبيط. عن الضحاك، فذكره به وأنتم منه. وأخرجه الطبري والواحد في أسبابه. انتهى.

٣١٥ - تقدم برقم (٣٠٨).

٣١٦ - أخرجه البزار (٤٢٦/١ - كشف) رقم (٩٠٠) وأبو يعلى كما في تخريج الكشاف (٢٤١/١) كلاهما من طريق يعقوب بن عبد الله القمي ثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب به.

وقال البزار: لا تعلمه عن عمر إلا بهذا الإسناد وحفص لا تعلم روى عنه إلا القمي.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٨/٣).

وقال: رواه أبو يعلى في «الكبير» والبزار ورجال الجميع ثقات. أ. هـ.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢٤١/١): هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي، قيل: قيل روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق.

وقال فيه ابن معين: صالح، ووثقه التساني وابن حبان.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: رواه علي بن المديني في العلل وأبو يعلى والطبري من رواية حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بهذا في حديث طويل، وأصله في الصحيحين عن أبي زرعة بن عمر بن جرير عن أبي هريرة بلفظ «ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء... الحديث». انتهى.

(١) قوله: «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»: لعل صدره: من غل شيئاً. (ع)

(٢) قوله: «وروي: ألا لا أعرفن أحدكم يأتي، قوله: «لا أعرفن» بلفظ المنفي المؤكد بالنون، ومعناه

النهى. أي لا يغل أحدكم فأعرفه... أهـ تسطواني. (ع)

علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب، ﴿وَعَمَّ لَا يُطْلَوْنَ﴾: أي: يعدل بينهم في الجزاء، كلُّ جزاؤه على قدر كسبه.

﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَرُكَّعِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١٨﴾

﴿هُمْ دَرَجَتٌ﴾: أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات كقولهم [من الوافر]:

أَنْضَبَ لِلْمَنِيَّةِ تَغْتَرِيهِمْ رَجَالِي أَمْ هُمْ دَرَجُ السُّيُولِ؟! ^(١)

وقيل: ذوو درجات والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الشواب والعقاب، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون ببعثه، ﴿وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ﴾: من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسماعيل كما أنه من ولده، فإن قلت: مما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم؟ قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً، فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَئِذَا لَكَ وَلَقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة - رضي الله عنها -: من «أنفسهم»، أي: من أشرفهم. لأن عدنان ذروة ولد إسماعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، وذروة قریش محمد ﷺ، وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة - رضي الله عنها - وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر -: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئىء، معدّ وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوأس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به

(١) أنشد سيبويه عن ابن هدامة، والهمزة للاستفهام، وهو من تجاهل العارف للتعجب والتحزن. والنصب: الغرض المنصوب يرمي إليه بالسهم، وهو كفلس أوفق بالوزن ويجوز أن أصله كعنق فسكن للوزن، أو كتبت فسكن كذلك. وهذا أوفق بالمعنى. وقد قيل بكل منها. وشبه رجاله به تشبيهاً بليغاً من حيث تتابع إصابة كل بالمكروه. وتعتريهم: جملة حاله. ودرج السيول: محلات انحدارها، شبههم بها لانمحاق كل شيئاً فشيئاً.

ينظر: ديوانه ص ١٨١، والأزمنة والأمكنة: ٣٠٧/١، وخزانة الأدب: ٤٢٤/١، وشرح أبيات سيبويه: ٢٨٤/١، والكتاب: ٤١٥/١، ٤١٦، ولسان العرب: (درج).

فتى من قريش إلا رجح به، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقرىء: «لَمَنْ مَنِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ»، وفيه وجهان: أن يراد لمن مَنِ اللَّهِ على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم، فحذف لقيام الدلالة، أو يكون «إِذَا» في محل الرفع كـ «إِذَا» في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى لمن مَنِ اللَّهِ على المؤمنين وقت بعثه، ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرمات وسائر الخباثات، وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، ﴿وَيُمَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: القرآن والسنة بعدما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم، ﴿وَلَمَّا كَانُوا مِنْ قَبْلِ» من قبل بعثة الرسول، ﴿أَلْفَى ضَلَالٍ﴾: إن هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال، ﴿شُبَّانٍ﴾: ظاهر لا شبهة فيه.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْفِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي اللَّهِ وَلِعَلَّكُمْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ وَلِعَلَّكُمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فَنَزَالَا لَأَنْتَبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنْفُسَكُمْ أَلَمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: يريد: ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا﴾: يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين، و﴿لَمَّا﴾ نصب بقتلهم، و﴿أَصَابَكُمْ﴾: في محل الجز بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليه وتقديره: أقلتم حين أصابتكم، و﴿أَنَّ هَذَا﴾: نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتفريع. فإن قلت: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا وقتلتم حينئذ كذا، «أنى هذا»: من أين هذا. كقوله تعالى: ﴿أَنَّ لِلَّهِ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] لقوله: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: وقوله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١): والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم؛ لاختياركم الخروج من المدينة، أو

(١) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ بأن الظرف إذا وقع خبراً ألا يقدر داخل على حرف جر غير «في»، أما أن يقدر داخل على «من» فلا، لأنه إنما انتصب على إسقاط «في» ولذلك إذا أضمر الظرف تعدى إلى به «في» إلا أن يتسع فيه. قال: فتقديره غير سائغ واستدلاله بقوله: «مِنْ عِنْدِ» =

لتخليتكم المركز، وعن عليّ - رضي الله عنه - : لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيب بكم نارة ويصيب منكم أخرى، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ : يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين ﴿فَ﴾ هو كائن، ﴿يُؤْذِنُ اللَّهَ﴾ : أي: بتخليته، استعمار الإذن لتخليته الكفار، وأنه لم يمنعه منهم ليتبليهم، لأنّ الأذن مخل بين المأذون له ومراده، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ : وهو كائن لتمييز المؤمنون والمنافقون، ول يظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ : من جملة الصلة عطف على نافقوا، وإنما لم يقل: فقالوا؛ لأنه جواب لسؤال اقتضاء دعاء المؤمنين لهم إلى القتال، كأنه قيل: فماذا قالوا لهم. فقيل: قالوا: لو نعلم، ويجوز أن تقتصر الصلة على، ﴿نَاقُضُوا﴾ : ويكون، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ : كلاماً مبتدأ قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للأخرة كما يقاتل المؤمنون، وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الآخرة^(١) دفعاً عن أنفسهم وأهلهم وأموالهم، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم^(٢) وذلك ما روى أن عبد الله بن أبيّ اتخذل مع حلفائه، فقيل له، فقال ذلك، وقيل: ﴿أَوْ أَدْفَعُوا﴾ : العدو بتكثيركم سواد المجاهدين وإن لم تقاتلوا لأنّ كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه، وعن سهل بن سعد الساعدي - وقد كف بصره - : لو أمكنتني لبعت داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال لقوله: ﴿أَوْ أَدْفَعُوا﴾ : أراد: كثروا سوادهم، ووجه آخر وهو أن يكون معنى قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ : لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً، ﴿لَأَتَّبَعْنَكُمْ﴾ : يعنون أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللکم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأنّ رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج، ﴿هُمَّ

= أنفسكم» من عند الله» وقوف مع مطابقة السؤال للجواب في اللفظ وذهول عن هذه القاعدة». واختار الشيخ أنّ «أئى» بمعنى «كيف» قال: «وأئى سؤال عن الحال هنا، ولا تناسب أن تكون بمعنى «أين» أو «متى»، لأن الاستفهام لم يقع عن مكان ولا زمان هنا، إنما وقع عن الحال التي اقتضت لهم ذلك، سألوا عنها على سبيل التعجب، وجاء الجواب من حيث المعنى لا من حيث اللفظ في قوله: «قل هو من عند أنفسكم». قال: والسؤال به «أئى» سؤال عن تعيين كيفية حصول هذا الأمر، والجواب بقوله: «من عند أنفسكم» يتضمن تعيين الكيفية، لأنه بتعيين السبب تتعین الكيفية من حيث المعنى، لو قيل على سبيل التعجب: كيف لا يحجّ زيد الصالح!! فقيل في جوابه: «العدم استطاعته» لحصل الجواب وانتظم من المعنى أنه لا يحجّ وهو غير مستطیع انتهى. أما قوله: «لا يقدر الظرف بحرف جرّ غير «في» فالزمخشري لم يقدر «في» مع «أئى» حتى يلزمه ما قال، إنما جعل «أئى» بمنزلة «من أين» في المعنى. وأمّا عدوله عن الجواب المطابق لفظاً فالعكس أولى. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «غم الآخرة» لعله هم الآخرة. (ع)

(٢) قوله: «ودغلهم» في الصحاح: الدغل - بالتحريك - الفساد، مثل الدخل. (ع)

لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ^(١): يعني أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمانة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر، وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأنّ تقليبهم سواد المسلمين بالانخذال تقوية للمشركين، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم، وأنّ إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم، خلاف صفة المؤمنين في مواطاة قلوبهم لأفواههم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: من النفاق، وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم وتخبطه رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك، لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات، وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته، ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾: في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذم، أو على الرد على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من واو يكتمون، ويجوز أن يكون مجروراً بدلاً من الضمير في «بأفواههم» أو «قلوبهم»، كقوله [من الطويل]:

..... عَلَى جُودِهِ لَضَنُّ بِالماءِ حَاتِمٌ^(١)

﴿إِخْوَانِهِمْ﴾: لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار، ﴿وَقَعَدُوا﴾: أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال: لو أطاعنا إخواننا

- (١) فلما تصافنا الإدارة أجهشت
فجاء بجلمود له مثل رأسه
على حالة لو أن في القوم حاتماً
إلى غصون العنبري الجراضم
ليشرب ماء القوم بين الصرائم
على جوده لضن بالماء حاتم
- للرزق، يعتذر عما وقع منه في السفر مع دليله عاصم العنبري حين ضل الطريق. والتصافن: اقتسام الماء القليل بالصفن، وهو وعاء صغير لنحو الوضوء. والإداوة: ظرف الماء، وجمعها أداوى. وإيقاع التصافن عليها مجاز عقلي لأنها محل الماء الذي اقتسموه. وأقرب منه أنها مجاز مرسل عما فيها والجيش والإجهاش: تضرع الإنسان إلى غيره وتهنيته للبيكاء إليه كالصبي إلى أمه، وغصون الجلد: مكاسره ووروى: عيون. وإسناد الإجهاش إليها مجاز عقلي، لأنها محل ظهور أثره. والجراضم: واسع البطن كثير الأكل. والمراد بالجلمود: إناء صلب كبير مثل رأسه، أي العنبري. وفيه إشارة إلى حقه، لأن إفراط الرأس في العظم أمانة البلادة. وفي الصلاة أيضاً إشارة إلى ذلك، ليشرب: أي ليأخذ ماء القوم بين الصرائم، جمع صريمة وهي منقطع الرمل، أو قطيع من الإبل إشارة إلى أنهم كانوا بمفازة لا ماء بها على حالة ضنكة، لو ثبت في تلك الحالة أن حاتماً في القوم مع جوده المشهور لبخل بالماء. «وعلى» بمعنى «في» ويؤيده رواية المبرد في كامله: «على ساعة» وحاتم - بالجر - بدل من ضمير جوده. وفيه تنويه بذكر الاسم وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج.

ينظر: ديوانه ٢/٢٩٧، ولسان العرب: (حاتم) والمقاصد النحوية، ١٨٦/٤، وشرح شذور الذهب ص ٣١٧، وشرح المفصل: ٦٩/٣، واللمع ص ١٧٤، ٢٦٦.

فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل ﴿فَلْ قَادِرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) الموت إن كنتم صديقين ﴿١٧٦﴾: معناه: قل إن كنتم صديقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني أن ذلك الدفع غير مغن عنكم، لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت، لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المباشرة، ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها، وروي: أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً. فإن قلت: فقد كانوا صديقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم^(٢) بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ﴾؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة، وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يدريكم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون في مقاتلتكم؟ وما أنكرتم أن يكون السبب غيره، ووجه آخر: إن كنتم صديقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني أنهم لو أطاعوك وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين، وقوله: ﴿فَادِرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ الْمَوْتَ﴾ استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت، فادروا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١٧٧) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَكَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴿يَسْتَشِيرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٧٩)

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وقرئ بالياء على: ولا يحسبن

(١) قال محمود: «إن قلت فقد كانوا صديقين في أنهم دفعوا... الخ» قال أحمد: السؤال المذكور إنما يرد على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أن الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأن المقتول لو لا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أن الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل بتوقي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور. وأما أهل السنة فمعتقدهم أن كل ميت بأجله يموت، ويقولون: إن الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأن ذلك الجين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل، إيماناً بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾. وخلافاً للمنافقين وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا. ولعمري إنهم في هذا المعتقد مقلدون النمرود في قوله: أنا أحيي وأميت، فإن الأحق ظن أنه يقتل إن شاء فيكون ذلك إماتة، ويعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وغاب عنه أن الذي عفا عن قتله إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له، وأن الذي قتله إنما مات لأنه استوفى تلك الساعة أجله، والله الموفق.

رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبن حاسب، ويجوز أن يكون، ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾: فاعلاً، ويكون التقدير: ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً. فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ، فحذف كما حذف المبتدأ في قوله، ﴿أَحْيَاءُ﴾: والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما، وقرئ: «ولا تحسبن» بفتح السين، «وقتلوا» بالتشديد. «وأحياء» بالنصب على معنى: بل احسبهم أحياء، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: مقرَّبون عنده ذوو زلفى، كقوله: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٢٨]، ﴿يَرْزُقُونَ﴾: مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من النعم برزق الله، ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم، من كونهم أحياء مقرَّبين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها، وعن النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر تدور في أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش» ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ بِهِ﴾ إخوانهم المجاهدين، ﴿الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: أي: لم يقتلوا فيلحقوا (٣١٧) بهم، ﴿وَمِنَ خَلْفِهِمْ﴾: يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم، وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: بدل من «الذين»، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به، وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على ازدياد الطاعة، والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم، وإحمام لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في

٣١٧ - أخرجه أبو داود (١٥/٣) حديث (٢٥٢٠) كتاب الجهاد، باب: فضل الشهادة...

- والحاكم (٨٨/٢)، كتاب الجهاد، (٢/٢٩٧) كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

- وأبو يعلى في مسنده (٢١٩/٤)، حديث (٢٣٣١).

- وأحمد (٢٦٥/١).

والبيهقي (١٦٣/٩)، كتاب السير، باب: فضل الشهادة في سبيل الله عز وجل والطبري في تفسيره (٣٨٤/٧)، حديث (٨٢٠٥).

كلهم من طرق عن ابن عباس.

- ويشهد له حديث ابن مسعود عند مسلم (٣٧/٧) كتاب الإمامة باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة والحاكم وأبو يعلى والبيهقي كلهم من حديث ابن عباس به وأتم منه. قال الدارقطني تفرد به محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية، وأصله في مسلم من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -، بلفظ: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ترحم في الجنة حيث شاءت» - الحديث.

المأب، وكثر ﴿وَسَيُتْلَىٰ﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: من ذكر النعمة والفضل، وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع وقرئ «وأن الله» بالفتح عطفاً على النعمة والفضل، وبالكسر على الابتداء وعلى أن الجملة اعتراض، وهي قراءة الكسائي، وتعضدها قراءة عبد الله. «والله لا يضيع».

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا آصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾
 ﴿١٧٦﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٧﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِفْعِهِمْ فَقَالَ رَبُّهُمُ اللَّهُ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ كَوْنًا مُتْقِنًا
 رَضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٨﴾

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾: مبتدأ خبره، ﴿يَلِّدِينَ أَحْسَنُوا﴾: أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ أَحَدٍ قَبِلُوا الرُّوحَاءَ نَدَمُوا وَهَمُّوا بِالرُّجُوعِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرَادَ أَنْ يَرْهَبَهُمْ وَيَرْهَبُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ قُوَّةً، فَتَدَبَّرَ أَصْحَابُهُ لِلْخُرُوجِ فِي طَلَبِ أَبِي سَفْيَانَ وَقَالَ: لَا يَخْرُجُنَّ مَعَنَا أَحَدٌ إِلَّا مِنْ حَضَرِ يَوْمِنَا بِالْأَمْسِ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ جَمَاعَةٍ حَتَّى بَلَغُوا حِمْرَاءَ الْأَسَدِ وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَكَانَ بِأَصْحَابِهِ الْقَرْحُ فَتَحَامَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى لَا يَفُوتَهُمُ الْأَجْرُ، وَأَلْقَى اللَّهُ الرِّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ فَذَهَبُوا، فَنَزَلَتْ، (٣١٨) وَ «مِنْ» فِي، ﴿يَلِّدِينَ أَحْسَنُوا يَنْتَهُمُ﴾: لِلتَّبَيُّينِ مِثْلَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩] لِأَنَّ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ قَدْ أَحْسَنُوا كُلَّهُمْ وَاتَّقُوا، لَا بَعْضُهُمْ، وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: قَالَتْ لِي عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - «إِنْ أَبُوبِكَ لَمَنْ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» تَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَالزُّبَيْرِ، (٣١٩) ﴿الَّذِينَ قَالَتْ لَهُمْ أَلَيْسَ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: روي أَنَّ أَبَا

٣١٨ - أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١٤)، من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن شيوخه.
- وابن إسحاق (١١٨٨ - سيرة ابن هشام) في ذكر غزوة حمراء الأسد من طريق عبد الله بن أبي بكر عن معبد بن أبي معبد الخزاعي.

- والطبري في تفسيره (٤٠٦/٧) رقم (٨٢٤٣)، من نفس الطريق السابق، وقال ابن حجر في تخریج الکشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازی عن شیوخه ومن طریقہ البیهقي في الدلائل فذكره مطولاً.

٣١٩ - أخرجه البخاري (١٢٤ / ٨) رقم (٤٠٧٧)، كتاب المغازي باب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

- ومسلم (٢٠٣/٨)، رقم ٥١ - (٢٤١٨)، كتاب فضائل الصحابة باب: من فضائل طلحة والزبير.
الاثنان من طريق هشام بن عروة عن أبيه.

سفيان نادى عند انصرافه من أحد. يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال النبي ﷺ: إن شاء الله؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل «مر الظهران». فالتقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال: يا نعيم، إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي. أتوكم في دياركم وقرارك فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، فوالله لا يفلت منكم أحد، (٣٢٠) وقيل: مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل يعير من زبيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد»، فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» - وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى في النار - حتى وافوا بدرأ وأقاموا بها ثمانين ليلة، وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السوق. قالوا: إنما خرجتم لتشربوا السوق. فالتناس الأزلون: المثبطون، والآخرين: أبو سفيان وأصحابه. (٣٢١) فإن قلت: كيف قيل: ﴿الَّتَيْنِ﴾: إن

= ووهم الحاكم في مستدركه، فقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: متفق عليه ووهم الحاكم فاستدركه. انتهى.

٣٢٠ - عزاء الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٤٥/١) للثعلبي من قول مجاهد وعكرمة.

وهذا الحديث جزء من الحديث الذي أورده ابن سعد في الطبقات (٤٥/٢) في غزوة رسول الله -

ﷺ - بدر الموعود، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي عن مجاهد وعكرمة

وسنده إليهما في أول كتابه، وروى ابن سعد في الطبقات بعضه. انتهى.

٣٢١ - ذكره ابن سعد في الطبقات (٤٥/٢) في غزوة رسول الله - ﷺ - بدر الموعود، بنقص يسير.

- وأخرج البخاري (٩٦/٩) رقم (٤٥٦٣) كتاب التفسير، باب: الذين قال لهم الناس... من طريق

أبي الضحى عن ابن عباس، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها

محمد - ﷺ - حين ﴿الَّتَيْنِ قَالَ لَهُمُ الْكَاذِبُ...﴾ الآية.

ووهم الحاكم فرواه (٢٩٨/٢)، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال

الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن سعد من طريق ابن إسحاق. وموسى بن عقبة وغيرهما. وأخرجه الواقدي في المغازي.

قال حذثني الضحاك بن عثمان وعبد الله بن جعفر ومحمد بن عبد الله بن مسلم وابن أبي حبيب

وغيرهم. قالوا «لما أراد أبو سفيان أن ينصرف من أحد» فذكره مطوّلاً. قوله: وقيل: هي الكلمة

التي قال إبراهيم حين ألقى في النار. رواه البخاري من طريق أبي الضحى عن ابن عباس. انتهى.

كان نعيم هو المنيط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة بضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويشبطون مثل تشبيطه. فإن قلت: إلام يرجع المستكن في، ﴿فَرَادَهُمْ﴾؟ قلت: إلى المقول الذي هو، ﴿إِنَّ الْكَاسَّ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾: كأنه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له. أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده. فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام - كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج؛ ولأن خروجهم على أثر تشبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان؛ لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل، وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله، إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (٣٢٢) وعن عمر - رضي الله عنه -: أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيماناً، (٣٢٣) وعنه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به. (٣٢٤) ﴿حَسْبُنَا

٣٢٢ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٤٨/١) للثعلبي من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية علي بن عبد العزيز عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن مالك عن نافع عنه. انتهى.

٣٢٣ - أخرجه البيهقي في الشعب (٦٩/١ - ٧٠) رقم (٣٧) وابن أبي شيبه في «الإيمان» (١٠٨) كلاهما من طريق محمد بن طلحة عن زيد عن زر عن عمر بن الخطاب به.

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٤٨/١) للثعلبي من طريق ابن أبي شيبه. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبه في الإيمان من رواية رزين عن عبد الله عنه. ورجاله ثقات إلا أنه منقطع. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي والبيهقي في الشعب. انتهى.

٣٢٤ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٦٠/٥) والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٥١٨٨) من طريق عيسى بن عبد الله بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً.

وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ٣٤٩): وفي سنده عيسى بن عبد الله بن سليمان وهو ضعيف لكنه لم ينفرد به فقد أخرجه ابن عدي أيضاً من طريق غيره بلفظ: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» أ.هـ.

والحديث الذي أشار إليه السخاوي قد أخرجه ابن عدي في «كامله» (٢٠١/٤).

وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على عمر.

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩/١) رقم (٣٦) من طريق ابن المبارك عن ابن شاذب عن محمد بن جحادة عن سلمة بن كهيل عن هذيل بن شرحبيل عن عمر موقوفاً.

وقال الدارقطني في «العلل» (٢/٢٢٣ - ٢٢٤) - هذا حديث يرويه عبد الله بن شاذب واختلف عنه فرواه ابن المبارك وأيوب بن سويد الرملي عن ابن شاذب عن محمد بن جحادة عن سلمة بن كهيل عن هذيل بن شرحبيل عن عمر وخالفهما رواد بن الجراح فرواه عن ابن شاذب عن محمد بن

= عن هذيل بن شرحبيل عن عمر وخالفهما رواد بن الجراح فرواه عن ابن شاذب عن محمد بن

الله: محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛ لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة، **﴿وَيَعْتَمِ الْوَكِيلُ﴾**: ونعم الموكل إليه هو، **﴿ثَانَفَلُوا﴾**: فرجعوا من بدر، **﴿يَنْتَمِرُونَ اللَّهَ﴾**: وهي السلامة وحذر العدو منهم **﴿وفضل﴾** وهو الربح في التجارة، كقوله: **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾** [البقرة: ١٩٨]، **﴿لَمْ يَسْتَسْهِمُوا﴾**: لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو، **﴿وَأَكْبَمُوا وَضُونَ اللَّهَ﴾**: بجرأتهم وخروجهم، **﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾**: قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء، وروي أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً، فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿الشَّيْطَانُ﴾: خبر «ذلكم»، بمعنى: إنما ذلكم المبسط هو الشيطان، و«يخوف أولياءه» جملة مستأنفة بيان لشيئته. أو الشيطان صفة لاسم الإشارة، ويخوف الخبر، والمراد بالشيطان نعيم، أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، بمعنى: إنما ذلكم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله، **﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾**: يخوفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه، وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: «يخوفكم أولياءه»، وقوله: «فلا تخافوهم»، وقيل: يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ. فإن قلت: فإلام رجع الضمير في، **﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾**: على هذا التفسير؟ قلت: إلى الناس

 = جحادة عن طلحة بن مصرف عن هذيل عن عمر، وخالفهم ضمرة بن ربيعة رواه عن ابن شاذب عن ابن جحادة عن سلمة عن عمرو بن شرحبيل ولم يقل عن هذيل ووههم وأصحابها قول ابن المبارك ومن تابعه أ.هـ. والحديث موقوفاً ذكره البخاري في «المقاصد الحسنة» (ص ٣٤٩) وعزاه لإسحاق بن راهويه والبيهقي في «الشعب» وابن المبارك في «الزهد» ومعاذ بن العثني في زيادات «مسند مسدد».

وصحح البخاري مسنده.

وذكره البدر الزركشي في «التذكرة» ص (١٧١) وقال: قيل إنه من كلام عمر بن الخطاب. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده من رواية هذيل بن شرحبيل عن عمر وإسناده صحيح وزوي مرفوعاً أخرجه ابن عدي من رواية عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - رفعه «لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها» في إسناده عيسى بن عبد الله بن سليمان وهو ضعيف. قلت: لم ينظر به بل تابعه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد بلفظ «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» أخرجه ابن عدي أيضاً. وحديث عمر الموقوف أخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد. ومعاذ بن العثني في زيادات مسند مسدد. انتهى.

في قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَّوْا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿وَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فتقاعدوا عن القتال وتجنبوا، ﴿وَتَافَوْا﴾: فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: يعني أَنَّ الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٤] ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٧٥] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [١٧٦]

﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدَّ رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين، وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾: ؟ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرّوك ويعينوا عليك. ألا ترى إلى قوله، ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: يعني أنهم لا يضرّون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾: أي: نصيباً من الشواب، ﴿وَلَهُمْ﴾: بدل الشواب، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وذلك أبلغ ما ضرَّ به الإنسان نفسه. فإن قلت: هلا قيل: لا يجعل الله لهم حِطًّا في الآخرة، وأني فائدة في ذكر الإرادة؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر؛ تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه، حتى إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: إما أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإما أن يكون عاماً للكفار، والأول خاصاً فيمن نافق من المتخلفين. أو ارتد عن الإسلام أو على العكس، ﴿وَشَيْئًا﴾: نصب على المصدر؛ لأن المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فيمن قرأ بالباء نصب و﴿أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ﴾: بدل منه: أي: ولا تحسبن أن ما تُمْلِي للكافرين خير لهم، و «أن» مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]، و«ما» مصدرية، بمعنى: ولا تحسبن أن إملأنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف. فإن قلت: كيف صحَّ مجيء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجَنِّبُكُمْ عَنْ ذُلِّهِمْ إِنَّهُمَا يَأْخُذَانِ بِالْبَاطِلِ أَلِيًّا وَوَسِيلًا ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا بِلُحُوبِكُمْ ۖ وَتَوَلَّوْا بِأَعْقَابِكُمْ ۚ فَذَلِكُمُ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ۚ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

778

اللام لتأكيد النفي، ﴿عَلَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾: من اختلاط المؤمنين بالخلص والمنافقين، ﴿حَتَّى يَبَيِّرَ الْغَيْبَ مِنَ الْقَلْبِ﴾: حتى يعزل المنافق عن المخلص، وقرئ: «يميز». من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: «يميز»، من أماز بمعنى ميز. فإن قلت: لمن الخطاب في، ﴿أَنْتُمْ؟﴾ قلت: للمصدقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها - من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً - حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْقَتْلِ﴾ أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول - عليه الصلاة والسلام - بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾: يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة اطلاعه على المغيبات، ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب، بأن يكلفكم التكليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذين امتحن الله قلوبهم. كبذل الأرواح في الجهاد، وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم، حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْتَهِى عَنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾: فيخبره ببعض المغيبات ﴿فَتَأْتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن تقدروه حق قدره، وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبيين، لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب، وليسوا من علم الغيب في شيء، وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت. (٣٢٥)

﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ إِيمَانَهُمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَغُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَبْزُثُ السَّمَواتِ وَالْأَرْضَ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾



٣٢٥ - أخرجه الطبري في تفسيره (٤٢٥/٧ - ٤٢٦) رقم (٨٢٧٣) من طريق أسباط عن السدي بلفظ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَكِّرَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ قالوا: «إن كان محمد صادقاً، فليخبرنا بمن يؤمن بالله ومن يكفر!!» فانزل الله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَكِّرَ...﴾ الآية، حتى يخرج المؤمن من الكافر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان المفعول الأول عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن «الذين يبخلون» بخلهم، ﴿هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ﴾: والذي سوغ حذفه دلالة، ﴿يَبْخُلُونَ﴾: عليه، وهو فصل، وقرأ الأعمش بغير «هو»، ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: تفسير لقوله: ﴿هُوَ سَرٌّ لَهُمْ﴾: أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق، وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة، إذا جاء بهنة يسب به ويذم، وقيل: يجعل ما بخل من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنفق رأسه وتقول: أنا مالك، وعن النبي ﷺ في مانع الزكاة: «يطوق بشجاع أقرع» (٣٢٦) وروي «بشجاع أسود» وعن النخعي: سيطوقون بطوق من نار، (٣٢٧) ﴿وَلَيْلَى مِيرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: وله ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال

- ٣٢٦ - أخرجه مالك (٢٥٦/١ - ٢٥٧)، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الكثر.
 والبخاري (١١/٤) حديث (١٤٠٣)، كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة...
 - والتسائي (٣٩/٥) رقم (٢٤٨٢)، كتاب الزكاة، باب: مانع زكاة ماله.
 - وأحمد (٢٧٩/٢، ٣١٦، ٣٥٥).
 - وأبو يعلى في مسنده (٢٠٦/١١) رقم (٤٧٩) - (٦٣١٩).
 وللحديث شواهد كثيرة، منها:
 ما جاء من طريق جابر:
 - أخرجه مسلم (٧٤/٤ - ٧٥) حديث (٢٧ - ٩٨٨) - (٢٨) كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة.
 وما جاء من طريق ابن عمر.
 - أخرجه التسائي (٣٩، ٣٨/٥) كتاب الزكاة، باب: مانع زكاة ماله.
 وما جاء من طريق ابن مسعود.
 - أخرجه الترمذي (٢٣٢/٥)، حديث (٣٠١٢)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران.
 قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
 - وابن ماجه (٥٦٨/١، ٥٦٩) حديث (١٧٨٤)، كتاب الزكاة، باب ما جاء في منع الزكاة.
 - وأحمد (٣٧٧/١).
 - وابن خزيمة (١١/٤، ١٢).
 - والحاكم (٢٩٨/٢، ٢٩٩) كتاب التفسير، ورواية الحاكم صحيحها وأقرها الذهبي.
 - والطبراني في الكبير (٢٦١/٩، ٢٦٢)، رقم (٩١٢٢، ٩١٢٦).
 - وعبد الرزاق في تفسيره (١٤١/١).
 - وسعيد بن منصور في تفسيره (١١٢٩/٣، ١١٣٠)، رقم (٥٤٩).
 وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة رفعه «من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل ماله بشجاع أقرع له زنبان يطوقه يوم القيامة». انتهى.
 ٣٢٧ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٩/٧) رقم (٨٢٩٦) وابن أبي شيبه (٢١٢/٣) وسعيد بن منصور (٥٥١) وسفيان الثوري في «تفسيره» (ص ٨٢) رقم (١٧٠) وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ =

وغيره فمالهم يخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله، ونحوه قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وقرئ «بما تعملون» بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد والياء على الظاهر.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْنَا يَا آلَ اللَّهِ لَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فلا يخلو إما أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له: أنه لم يخف عليه، وأنه أعدله كفاءه من العقاب، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: في صحائف الحفظة. أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب. فإن قلت: كيف قال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾: ثم قال، ﴿سَنَكْتُبُ﴾: وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ قلت: ذكر وجود السماع أولاً مؤكداً بالقسم ثم قال: «سنكتب» على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيداناً بأنهما في العظم أخوان، وبأن هذا ليس بأول ما ركبوه من العظام، وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول، وروي: أن رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر - رضي الله عنه - إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر في وجهه وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله، فنزلت، (٣٢٨) ونحوه قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: [المائدة: ٦٤]، ﴿وَنَقُولُ﴾: لهم ﴿ذُوقُوا﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: ذوقوا، ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: كما أدقمت المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحس، وذق، وقال

= ١٤١ (كلهم من طريق منصور عن إبراهيم التخمي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٣٩٥) وزاد نسبه لابن المنذر.

٣٢٨ - ذكره ابن هشام في سيرته (٢٠١/٢، ٢٠٢) رقم (٦٤١) من قول ابن إسحاق ولم يجاوزوه.
- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٥٠): لابن أبي حاتم في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق، وللثعلبي والواحد في أسباب النزول من قول عكرمة والسدي ومقاتل وابن إسحاق، قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق، حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس فذكره مطولاً. انتهى.

أبو سفيان لحمزة^(١) - رضي الله عنه - : ذق عقق (٣٢٩) وقرأ حمزة: «سيكتب»، بالياء على البناء للمفعول، «ويقول» بالياء، وقرأ الحسن والأعرج: «سيكتب» بالياء وتسمية الفاعل، وقرأ ابن مسعود: «ويقال ذوقوا»، «ذَلِكَ»: إشارة إلى ما تقدم من عقابهم وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بهنّ، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. فإن قلت: فلم عطف قوله: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»: على «يَمَّا قَدْ مَتَّ أَيْدِيَكُمْ»، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب؟ قلت: معنى كونه غير ظلام للعبيد أنه عادل عليهم ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٣٢٩﴾

﴿عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾: أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يربنا قربانا تنزل نار من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آيتهم، كان يقرب بالقربان، فيقوم النبي فيدعو، فتتزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله، لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤهم بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق، وجاءهم - أيضاً - بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوه إن كانوا صادقين أن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرىء «بقربان» بضمتين، ونظيره السلطان. فإن قلت: ما معنى قوله: «وَالَّذِي قُلْتُمْ»؟ قلت: معناه، وبمعنى الذي قتلتموه من قولكم: قربان تأكله النار، ومؤداه كقوله: «فَمَنْ

٣٢٩ - عزاء الزليعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٢٥١): للدارقطني في المؤلف والمختلف في ترجمة الحليس، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ذكره ابن إسحاق في المغازي قال: وكان المجلس بن زياد الكنائي سيد الأحابيش مَرَّ بأبي سفيان وهو يضرب في شدة حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول «ذق عقق»، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الدارقطني في المؤلف. انتهى.

(١) قوله: «لحمزة رضي الله عنه: ذق عقق» في الصحاح: عاق وعقق، مثل عامر وعمر. وذق عقق: أي ذق جزاء فعلك يا عاق. (ع)

يُؤْثِرُونَ لِمَا قَالُوا ﴿[المجادلة: ٣]﴾ أي: لمعنى ما قالوا. في مصاحف أهل الشام: وبالزبر، وهي الصحف، ﴿وَالْكِتَابَ الْمُنِيرَ﴾: التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٧٥﴾﴾

وقرأ اليزيدي «ذائقة الموت» على الأصل، وقرأ الأعمش «ذائقة الموت» بطرح التنوين مع النصب كقوله [من المتقارب]:

..... وَلَا ذَاكِرَ اللَّءِ إِلَّا قَلِيلًا^(١)

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: ﴿وَأِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ﴾؟ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور. فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروى أن «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» (٣٣٠). قلت: كلمة التوفية تزيل هذا

٣٣٠ - أخرجه الترمذي (٦٣٩/٤ - ٦٤٠) كتاب صفة القيامة حديث (٢٤٦٠).

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وهو ضعيف. ورواه الطبراني في الأوسط =

(١) فذكرته ثم عاتبته عتاباً رقيقاً وقولاً جميلاً
فالفية غير مستعتب ولا ذاكراً لله إلا قليلاً

لأبي الأسود الدؤلي، كان يجلس إلى فناء امرأة جميلة بالبصرة فقالت له: هل لك أن أتزوج بك؟ فإني حميدة الخصال وكيت وكيت. فقال: نعم وتزوجها من أهلها، فوجدها بضد ما قالت، فعاتبها وخاطب أهلها بشعر منه ذلك، ثم طلقها أمامهم. وكنى بضمير المذكر عنها استحياء أي فذكرتها بما قالت وعاتبها على ما فعلت عتاباً حسناً، فوجدتها غير قابلة مني عتاباً. ولفظ الجلالة نصب بـ «ذاكر»، وحذف تنوينه مع أنه غير مضاف تشبيهاً بحذف نون التوكيد الخفيفة لملاقاة الساكن. أو بتنوين العلم الموصوف بابن مضافاً إلى علم. وذاكر: عطف على مستعتب. ولا: زائدة لتوكيد النفي، ولم يضاف ذاكراً إلى الله ليتمحض للتشكيك كالذي قبله، وليكون أبلغ في النفي، لأن الإضافة قد تفيد أن شأنه الذكر، فيتوهم أن النفي هو الشأنية لا أصل الذكر.

ينظر: ديوانه (١٢٣)، الكتاب: ١/١٦٩، ابن يعيش: ٩/٢٣٤، الإنصاف: (٢/٦٥٩)، رصف المياني (٤٩)، ابن الشجري: ١/٣٨٣، مجالس ثعلب (١٢٣)، شواهد المغني (٩٣٣)، معاني الفراء (٢/٢٠٢)، المقنضب: ١/١٥٧، الخصائص: ١/٣١١، الخزنة: ١١/٣٧٤.

الروهم، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكملها^(١) يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور. الزحزحة: التنحية والإبعاد تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة، ﴿فَقَدْ قَارَّ﴾: فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاض به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمذ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب، وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» (٣٣١) وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغتر حتى يشتريه ثم يتبين له فساد ورياءه، والشيطان هو المدلس الغرور، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن أثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ، خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه.

﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَنَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف

= في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة وقال: لم يروه عن الأوزاعي إلا أيوب بن سويد. تفرد به ولده محمد عنه. قلت: وهو ضعيف. انتهى.

٣٣١ - أخرجه مسلم (٤٧٣/٦) رقم (٤٦ - (١٨٤٤))، كتاب الإمامة باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول.

- وأحمد (١٩٢/٢).

- والبيهقي (١٦٩/٨) كتاب قتال أهل البغي، باب: ما جاء في قتال أهل البغي والخوارج.

كلهم من طريق عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث طويل. انتهى.

(١) قال محمود: «لأن المعنى أن توفية الأجور وتكملها يكون... الخ» قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم وعذاب. ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وما هو قد اعترف به، والله الموفق.

والمصائب، وفي الأموال: الإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات، وما يسمعون من أهل الكتاب^(١) المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف من هجائه لرسول الله ﷺ وتحريض المشركين، ومن فنحاص، ومن بني قريظة والنضير، ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾: فإن الصبر والتقوى، ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني أن ذلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ مَكْنُوزًا وَرَءَىٰ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِمُ مَثَلًا قَلِيلًا قِيسَ مَا يَشْكُرُونَ﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾: واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾: الضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانهم كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه وقيل له: الله لتفعلن، ﴿فَتَبَدُّوهُ وَرَءَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾: فنبذوا الميثاق وتأكده عليهم، يعني لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه، والنبذ وراء الظهر مثل في الطرح وترك الاعتداد، ونقيضه جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه، وكفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتُموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطبيب لنفوسهم، واستجلاب لمساوئهم أو لجزء منفعته وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمانة أو لبخل بالعلم، وغيره أن ينسب إليه غيرهم، وعن النبي ﷺ: (٣٣٢) «من كتم

٣٣٢ - أخرجه أبو داود ٣٤٥/٢ في العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٩/٥) في العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٩٦/١) في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦١)، وأحمد في المسند (٢٦٣/١)، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥ وابن أبي شيبة في المصنف (٥٥/٩)، والطيالسي (٢٥٣٤)، وأبو يعلى (٢٦٨/١١) برقم (٦٣٨٣) وابن حبان (٩٥ - موارد). والقضاعي في مسند الشهاب (٤٣٢) من طريقين - حماد بن سلمة، وعمارة بن راذان وعن علي بن الحكم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: حديث حسن. وقال العجلي في الضعفاء (٧٤/١)، إسناده صالح.

وقال الذهبي في الكيثر (ص ١٢٢): إسناده صحيح. رواه عطاء بن أبي هريرة.

وقال الحافظ في القول المسدد (ص ٤٥) بعدما أورد الحديث من طريق أبي داود: والحديث وإن لم يكن في نهاية الضعفة لكنه صالح للحجة.

وأخرجه أحمد (٢٩٦/٢)، ٤٩٩، ٥٠٨، وابن أبي شيبة (٥٥/١٩)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/٢٦٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٤، ١٣٥) من طريق الحجاج بن أرطاة عن عطاء به.

(١) قوله: «وما يسمعون من أهل الكتاب» بقي ما يسمعون من الذين أشركوا. (ع)

علماً عن أهله ألجم بلجام من نار» وعن طاوس أنه قال لو هب: إني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك، وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه^(١) ولا يحل لجاهل

= وأخرجه الحاكم (١٠١/١) من طريق القاسم بن محمد بن حماد عن أحمد بن عبد الله عن محمد بن ثور عن ابن جريج قال: جاء الأعمش إلى عطاء فسأله عن حديث فحذته. فقلنا له: تحدث هذا وهو عراقي؟ قال: لأني سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي - ﷺ - قال: «من سئل... فذكره».

وقال الحاكم: هذا حديث تداوله الناس بأسانيد كثيرة تجمع ويذكر بها. وهذا الإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي. وتعبه العراقي كما في شرح الإحياء رقم (٥٦) بقوله: لا يصح من هذا الطريق، لضعف القاسم بن محمد بن حماد الدلال الكوفي. قال الدارقطني حذثنا عنه وهو ضعيف. فلهذا لم أخرجه من هذا الوجه. قال الدارقطني في الجزء السابع من الأفراد: وإنما يعرف هذا من حديث علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من رواية علي بن الحكم البناني عن عطاء عن أبي هريرة بلفظ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار» أخرجه أبو داود من رواية حماد بن سلمة. والآخران من رواية عمارة بن راذان كلاهما عن علي، ورجال أبي داود ثقات. لكن له علة. رواه عبد الوارث عن علي بن الحكم عن رجل عن عطاء. ويقال: إن هذا المبهم حجاج بن أرطاة. وفي رواية ابن ماجه التصريح بسماع علي بن عطاء. لكن عمارة ضعيف. ولحديث أبي هريرة طريق أخرى حسنها ابن القطان فذكره من رواية قاسم بن أصبغ عن أبي الأحوص وهو العكبري عن ابن السري عن معتمر عن أبيه عن عطاء به، وابن أبي السري له أوهام، وكأنه دخل عليه حديث في حديث. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن الشعبي عن عطاء به، وجابر ضعيف، وله طرق كثيرة عن أبي هريرة أوردها ابن الجوزي في اللعل المتناهية. وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم من طريق ابن وهب عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن أبي عبد الرحمن الحبلي عنه، وعن ابن عباس أخرجه الطبراني والعقيلي وفيه معمر بن زائدة قال العقيلي: لا يتابع عليه. وله طريق أخرى قاله أبو يعلى: حذثنا زهير حذثنا يونس بن محمد حذثنا أبو عوانة عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس به. وأخرجه ابن الجوزي من طريقين آخرين وضعفهما. وعن أنس، رواه ابن ماجه من طريق يوسف بن إبراهيم سمعت أنساً به وأخرجه ابن الجوزي من طريقين آخرين وضعفهما أيضاً. وعن ابن مسعود وطلق بن علي كلاهما في الطبراني. وعن جابر وعائشة كلاهما عند العقيلي. وعن ابن عمر عند ابن عدي. وعن أبي سعيد الخدري عن أبي يعلى أسانيداً كلها ضعيفة. وعن عمرو بن عبسة أخرجه ابن الجوزي بلفظ «فقد بريء من الإسلام» وإسناده ضعيف أيضاً. قال الإمام أحمد: لا يصح في هذا الباب شيء. (تنبيه) ليس في شيء من طرقه «عن أهله». انتهى.

(١) قوله: «على علمه» لعل بعده سقطاً تقديره «حتى يعلم».

أن يسكت على جهله حتى يسأل، وعن علي - رضي الله عنه -: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا، (٣٣٣) وقرئ: «لِيُبَيِّنَهُ»، ولا «يكتمنه». بالياء لأنهم غيب، وبالناء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: «وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ» [الإسراء: ٤].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: خطاب لرسول الله ﷺ، وأحد المفعولين، «الَّذِينَ يَفْرَحُونَ»: والثاني، «بِمَفَازَةٍ»: وقوله: «فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ»: تأكيد تقديره: لا تحسبنهم، فلا تحسبنهم فائزين، وقرئ: «لا تحسبن». «فلا تحسبنهم»، بضم الباء على خطاب المؤمنين «ولا يحسبن». فلا «يحسبنهم»، بالياء وفتح الباء فيهما، على أَنَّ الفعل للرسول، وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني، على أن الفعل للذين يفرحون، والمفعول الأول محذوف على: لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، وفلا يحسبنهم، تأكيد، ومعنى «بِمَا أَتَوْا»: بما فعلوا، وأتى وجاء، يستعملان بمعنى فعل قال الله تعالى: «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا»: [مریم: ٦١]، «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا» [مریم: ٢٧]، ويدل عليه قراءة أبي: «يفرحون بما فعلوا»، وقرئ: «أتوا»، بمعنى أعطوا، وعن علي - رضي الله عنه -: «بما أتوا»، ومعنى «بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ»: بمنجاة منه. روي: أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا فأطلع الله رسوله على ذلك وسأله بما أنزل من وعيدهم: (٣٣٤) أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا -

٣٣٣ - ذكره الديلمي في الفردوس (٣٧٥/٤)، رقم (٦٦١٨)، عن علي مرفوعاً: «ما أخذ الله ميثاق الجاهل أن يتعلم، حتى أخذ ميثاق العالم أن يعلمه».

- وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشف (٢٥٨/١) للثعلبي في تفسيره من طريق الحارث بن أبي أسامة، وابن عبد البر في كتاب العلم من غير سند. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف:

رواه الحارث بن أبي أسامة أخبرنا عبد الوهاب الخفافي حدثنا الحسن بن عمارة حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزار: سمعت علياً يقول فذكره والحسن متروك، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي ورويناه في جزء الذراع قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبد البر في العلم. قال: ويروى عن علي. وذكره صاحب الفردوس عن علي. فكانه وقف عليه مرفوعاً. انتهى.

٣٣٤ - أخرجه البخاري (١٠٢/٩) رقم (٤٥٦٨) كتاب التفسير، باب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

من تديسهم عليك ويحيون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه - ناجين من العذاب، ومعنى ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَوْثَرُوا﴾: بما أوتوه من علم التوراة، وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف، واستحمدوا إليه بترك الخروج، وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أوتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويجب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٨٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيكُمْ وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَتَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٨١﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فهو يملك أمرهم، ﴿وَقَوْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو يقدر على عقابهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار: املا عينيك من زينة هذه

- = - ومسلم (١٣٦/٩)، رقم ٨ - (٢٧٧٨)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.
- والترمذي (٢٣٣/٥)، رقم (٣٠١٤)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران. وقال: حديث حسن صحيح غريب.
- وأحمد (٢٩٨/١).
- والطبري في تفسيره (٤٧٠/٧)، رقم (٨٣٤٩).
- والطبراني في الكبير (٣٦٤/١٠)، رقم (١٠٧٣٠).
- والحاكم في المستدرک (٢٩٩/٢)، وصححه وأقره الذهبي.
- كلهم من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن مروان بن الحكم قال الحافظ: متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن أن مروان قال لبوابه: يا رافع اذهب إلى ابن عباس فقل له: لئن كان امرؤ مثا فرح بما أوتي وحمد بما لم يفعل عذب لعذبي جميعاً. فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب: أتاه اليهود فسألهم النبي ﷺ - عن شيء فكنتموه... الحديث. انتهى.

الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدّرها، متدبراً حكمه مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: قلت لعائشة - رضي الله عنها -: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أثنائي في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: يا عائشة، هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت: يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هواك، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت. فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً. ثم قال: وما لي لا أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وروي: «ويل لمن لا كمها بين فكّيه ولم يتأملها» (٣٣٥) وعن علي - رضي الله عنه -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَسَوَّكُ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: (٣٣٦) وحكي: أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا عَبَدَ اللَّهَ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَظْلَمَتْ سَحَابَةٌ، فَعَبِدَهَا فَنُتِيَ مِنْ فِتْيَانِهِمْ فَلَمْ تَظَلْهُ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: لَعَلَّ فِرْطَةَ فَرَطْتَ مِنْكَ فِي مَذْذَكٍ؟ فَقَالَ: مَا أَذْكَر. قَالَتْ: لَعَلَّكَ نَظَرْتَ مَرَّةً إِلَى السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْتَبِرْ؟ قَالَ: لَعَلَّ. قَالَتْ: فَمَا أَتَيْتَ إِلَّا مِنْ ذَاكَ، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾: ذكراً دائماً على أي حال كانوا، من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون

٣٣٥ - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٨٦/٢)، حديث (٦٢٠)، كتاب الرقائق، باب: التوبة، من طريق عطاء وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير.

- وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٩/٢)، حديث (٢١٦٧).

- وعزاه الزيلعي لابن الجوزي في كتاب الوفاء، وللثعلبي، وعبد بن حميد وابن مردويه كلّهم من طريق أبي جناب الكلبي عن عطاء بن أبي رباح. وقال: ولم يذكروا كلّهم الرواية الثانية «ويل لمن لا كمها بين فكّيه ولم يتأملها»؛ وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: رواه ابن مردويه في تفسيره سورة الروم من رواية أبي جناب. عن عطاء عن عائشة قالت: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَرَبِّكَ يَكْنُيهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَكُنْتُمْ أَتَيْنَكُمْ وَالزَّيْفُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: «ويح لمن دكها بين لحيه ثم لم يتفكر فيها» انتهى.

٣٣٦ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٦١/١) للثعلبي من طريق محمد بن علي بن أبي طالب عن عليّ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: رواه الثعلبي من طريق حماد عن حجاج عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن علي بن أبي طالب عن عليّ وأصله في المتفق عليه من حديث ابن عباس. انتهى.

بالذكر في أغلب أحوالهم، وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة: أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ يَتَنَمَّاءُ وَقُعُودًا﴾: فقاموا يذكرون الله على أقدامهم، وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله» (٣٣٧) وقيل: معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله ﷺ لعمران بن الحصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب، تومئ إيماء» (٣٣٨) وهذه حجة للشافعي - رحمه الله - في إضجاع المريض على جنبه كما في اللحد، وعند أبي حنيفة - رحمه الله - أنه يستلقي حتى إذا وجد خفة قعد، ومحل ﴿عَلَى جُودِيهِمْ﴾: نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنه قيل قياماً وقعوداً ومضطجعين، ﴿وَنَتَكَبَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام وإبداع صنعتها وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم^(١) شأن الصانع وكبرياء سلطانه، وعن سفيان الثوري أنه صلى خلف المقام

٣٣٧ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٨/٦)، حديث (٢٩٤٥٧) والطبراني في الكبير (١٥٧/٢٠)، حديث (٣٢٦).

كلاهما من طريق معاذ بن جبل.

- وذكره البيهقي في المجمع (٧٨/١٠)، وقال رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.
- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٦٢/١) للثعلبي في تفسيره في سورة العنكبوت، ولإسحاق بن راهويه في مسنده، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والطبراني من حديث معاذ وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وأخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت، وابن مردويه في تفسير الواقعة. انتهى.

٣٣٨ - أخرجه البخاري (٦٨٠/٢): كتاب تقصير الصلاة باب صلاة القاعد، حديث (١١١٥)، و(٦٨٣/٢) باب صلاة القاعد بالإيماء، حديث (١١١٦)، و(٦٨٤/٢): باب إذا لم يُطَقَّ قاعداً صلى على جنب وأبو داود (٣١٤/١): كتاب الصلاة: باب في صلاة القاعد، حديث (٩٥١)، والنسائي (٣٢٣/٣): كتاب قيام الليل وتطوع النهار: باب فضل صلاة القائم على صلاة القاعد، وابن ماجه (٣٨٨/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم، حديث (١٢٣١)، وأحمد في مسنده: (٤٣٣/٤ - ٤٣٥ - ٤٤٢ - ٤٤٣)، وابن خزيمة (٢٣٥/٢) حديث (١٢٣٦)، و(٢٤١/٢) حديث (١٢٤٩).

- والترمذي (٢٠٧/٢)، حديث (٣٧١)، كتاب أبواب الصلاة باب: ما جاء في صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري وأصحاب السنن، من حديث عمران بن حصين. قال «كانت في بواسير - فذكر الحديث» وليس في آخره يومئ إيماء. وأورده صاحب الهداية - كما أورده الزمخشري. انتهى.

(١) قوله: «على عظم» لعله من عظم... إلخ، فيكون بياناً لما يدل عليه. (ع)

ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته، وعن النبي ﷺ: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له» (٣٣٩) وقال النبي ﷺ: «لا عبادة كالتفكير» (٣٤٠) وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزروع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، وروي عن النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض» (٣٤١) قالوا: وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله الذي هو عمل القلب، لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض، «مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا»: على إرادة القول. أي: يقولون ذلك وهو في محل الحال، بمعنى يتفكرون قائلين، والمعنى: ما خلقت خلقاً باطلاً بغير حكمة، بل خلقتها لداعي حكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك؛ ولذلك وصل به قوله: «فَوَيْتَا عَذَابَ آثَارٍ»: لأنه جزاء من عصى ولم يطع. فإن قلت: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلت: إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، كأنه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها، ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم كقوله: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلِّيْهِ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» [الإسراء: ٩] ويجوز أن يكون «باطلاً» حالاً من هذا، وسبحانك:

٣٣٩ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٦٣/١) للثعلبي في تفسيره من طريق عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وفي إسناده من لا يعرف. انتهى.

٣٤٠ - أخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨/٤)، حديث (٤٦٤٧) باب: في تعديد نعم الله عز وجل وشكرها/فصل في فضل العقل، من طريق علي.

- وابن حبان في الضعفاء (٣٠٦/٢ - ٣٠٧)، وأعله بالخطي، وقال: إنه يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأئيات - انتهى، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من رواية أبي رجا محمد بن عبد الله الخرطي من أهل شر عن شعبة عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي - رضي الله عنه - أنه قال لابنه الحسن (يا بني، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: لا مال أعوز من العقل، ولا فقر أشد من الجهل، ولا عقل كالتدبير، ولا ورع كحسن الخلق، ولا عبادة كالتفكير... الحديث بطوله) وأبو رجا. قال البيهقي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأئيات. انتهى.

٣٤١ - قال الزيلعي: غريب جداً.

- وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

اعتراض للتنزيه من العبث، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿١٢٦﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَآيِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٢٨﴾

﴿فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾: فقد أبلغت في إخزائه، وهو نظير قوله (فقد فاز)، ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الصمان^(١) فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: اللام إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعه ولا غيرها^(٢). تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيداً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالاً عنه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد، وأن يقال: سمعت كلام فلان أو قوله. فإن قلت: فأني فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، ونحوه قولك: مررت بهاد يهدي للإسلام، وذلك أنَّ المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي: وغير ذلك؛ فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته، ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، ونذبه له وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه: هداية للطريق وإليه، وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً، والمنادي هو الرسول ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، و ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وعن محمد بن كعب: القرآن، ﴿أَنْ آمِنُوا﴾: أي: آمنوا، أو بأن آمنوا، ﴿ذُنُوبَنَا﴾: كبائرنا، ﴿سَيِّئَاتِنَا﴾: صغائرنا، ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: مخصوصين بصحبته، معدودين في جملتهم، والأبرار: جمع برٍّ أو بارٍّ، كـ رب وأرباب، وصاحب وأصحاب، ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: على هذه صلة للوعد، كما في قولك: وعد الله الجنة على الطاعة، والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك. ألا تراه كيف أتبع

(١) قوله: «من أدرك مرعى الصمان» في الصحاح: موضع إلى جنب رمل عالٍ. وعالج: موضع بالبادية به رمل. (ع)

(٢) قوله: «فلا ناصر له بشفاعه ولا غيرها» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة، فمن يدخل النار من المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بالعفو، كما حقق في محله (ع)

ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول وقوله «آمنّا» وهو التصديق ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، أي: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً على رسلك، لأن الرسل حاملون ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ [التور: ٥٤] وقيل: على السنة رسلك، والموعود هو الثواب، وقيل: النصرة على الأعداء. فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد الله لا يخلف الميعاد؟ قلت: معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له، كما كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم والتضرع إليه، واللجأ الذي هو سيما العبودية.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾
فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَا أَذْنَبْنَاهُمْ جَنَّتْ تَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

﴿الْثَوَابِ﴾

يقال: استجاب له واستجاب به [من الطويل]:

..... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ^(١)

﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ﴾: قرئ بالفتح على حذف الياء، وبالكسر على إرادة القول، وقرئ: «لا أضيع»، بالتشديد، «مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي»: بيان لعامل، «بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ»: أي: يجمع ذكوركم وإنائكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله، أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم، وقيل: المراد وصلة الإسلام، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين وروي: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ وَلَا يَذْكُرُ النِّسَاءَ. فنزلت، (٣٤٢)

٣٤٢ - أخرجه الترمذي (٢٣٧/٥)، حديث (٣٠٢٣) كتاب تفسير القرآن باب: ومن سورة النساء.

- (١) وداع دعا يا من يهيب إلى الندي
فقلت: ادع أخرى وارفع الصوت جهرة
لعل أبي المغوار منك قريب
لعل أبي المغوار منك قريب
- لكعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه هرم وكنيته أبو المغوار. و«جهرة» مفعول مطلق مؤكد. و«أبي» مجرور بـ «لعل»، وهي لغة عقيل. واستعمال لعل في الأمر البعيد - مع أنها للرجاء والقرب - دليل على شدة ولهم وتنزيله البعيد منزلة القريب. وروي: «لعل أبا المغوار» على اللغة المشهورة. يقول: ورب داع إلى المكارم لم يهبه أحد فقلت له: ادع مرة أخرى برفع صوتك، لعل أخى يكون قريباً فيجيبك على عادته، فإنه كثيراً ما يطلب معالي الأمور، وهذا من باب التمثيل والتخييل، لأنه لا داعي في الواقع.

﴿قَالَيْنِ هَاجِرُوا﴾: تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفارقة، وهي المهاجرة عن أوطانهم فَارَيْنِ إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشئوا بها سامهم^(١) المشركون من الخسف، ﴿وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِ﴾: من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين، ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾: وغزوا المشركين واستشهدوا، وقرئ: «وَقَتَلُوا»، بالتشديد. «وَقَتَلُوا وَقَاتَلُوا» - على التقديم - بالتخفيف والتشديد «وَقَتَلُوا، وَقَتَلُوا»، على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول. «وَقَاتَلُوا»، «وَقَاتَلُوا»، على بناءهما للفاعل «ثَوَاباً» في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تشويهاً، ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: لأن قوله: ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ... وَلَا ذُنُوبَ لَهُمْ﴾: في معنى: لأثيبهم. «وعنده» مثل: أن يختص به ويقدرته وفضله، لا يشبهه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته، وهذا تعليم من الله كيف يدعى وكيف يبتهل إليه ويتضرع، وتكرير، ﴿رَبَّنَا﴾: من باب الابتهاال، وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة، من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى الممتنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب^(٢) موصولاً إليه، بالعمل بالجهل والغباوة، وروي عن جعفر الصادق - رضي الله عنه -: من حربه أمر فقال خمس مرات: ﴿رَبَّنَا﴾: أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية، وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ﴿رَبَّنَا﴾: ثم أخبر أنه استجاب لهم، إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به، فلا بد من تقديمه بين يدي الدعاء.

﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِ لُدٍّ﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ

لَهُمُ الْهَادُ ﴿١٧٧﴾

= - والحاكم في المستدرک (٢/٣٠٠)، كتاب التفسير، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

- وعبد الرزاق في تفسيره (١/١٤٤).

كلهم من طريق رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، من رواية عمرو بن دينار. أخبرني سلمة - رجل من ولد أم سلمة - رضي الله عنها - قال: قالت أم سلمة. انتهى.

(١) قوله «بما سامهم» في الصحاح: يقال: سامه الخسف، وسامه خسفاً، وخسفاً أيضاً بالضم: أي أولاه ذلاً. (ع)

(٢) قوله «وتسجيل على من لا يرى الثواب» يريد أهل السنة القائلين: يجوز على الله أن يتفضل على العبد بدون عمل ولا يجب عليه إثابة العامل، وقد حقق في محله. (ع)

﴿لَا يَرْزُقُكَ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض، وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون^(١). وعن ابن عباس: هم أهل مكة، وقيل: هم اليهود، وروي أن أناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فإن قلت: كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهئ عن الاغترار به؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن مدرة القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكانه قيل: لا يغرنكم والثاني: أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَطْلِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨] وهذا في النهي نظير قوله في الأمر ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب، لأن التقلب لو غرّه لاغتر به، فمتنع السبب ليمتنع المسبب، وقرئ: «لا يغرنك» بالنون الخفيفة، «مَتَّعٌ قَلِيلٌ»: خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك متاع قليل وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضاءه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع»، (٣٤٣) ﴿وَيَقَسَّ أَلْيَهُاءُ﴾: وساء ما مهدوا لأنفسهم.

٣٤٣ - أخرجه مسلم (٢/١٩٣): كتاب الجنة والنار وصفة نعيمها وأهلها: باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، حديث (٥٥/٢٨٥٨)، وابن ماجه (٢/١٣٧٦): كتاب الزهد: باب مثل الدنيا، حديث (٤١٠٨)، وأحمد (٤/٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠)، والحميدي (٢/٣٧٨)، حديث (٨٥٥).
من طريق قيس بن أبي حازم، فذكره.
- والترمذي (٤/٥٦١)، حديث (٢٣٢٣)، كتاب الزهد باب: (١٥) منه، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد به. انتهى.

(١) قوله: «ويتجرون ويتدهقنون» يملثون ويتمتعون بلين الطعام وطيب الشراب. أفاده الصحاح، في مادة دهق، ومادة دهقن. والأوفق بما في الصحاح: يتدهقنون، حيث قال: قال الأصمعي: الدهقة: لين الطعام وطيبة ورقته. وحديث عمر «لو شئت أن يدهق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال: أذهبت طيباتكم... الآية» ولم يذكر الدهقة بهذا المعنى تصريحاً. (ع)

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبَرَارِ﴾ ﴿١٣٨﴾

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي [من الطويل]:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافًا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلًا^(١)

وانتصابه إما على الحال من «جئات» لتخصصها بالوصف والعامل اللام، ويجوز أن يكون بمعنى مصدر^(٢) مؤكد، كأنه قيل: رزقا أو عطاء، ﴿وَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من الكثير الدائم، ﴿خَيْرٌ لِلْآبَرَارِ﴾: مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل، وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش، ﴿نُزُلًا﴾ بالسكون، وقرأ يزيد بن القعقاع: «لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا» بالتشديد.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَلِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٣٩﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى - عليه السلام - فأسلموا، وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة «عطية» بالعربية، وذلك أنه لما مات نعا جبريال إلى رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»، فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علق نصراني لم يره قط وليس على دينه، فنزلت، (٣٤٤) ودخلت لام الابتداء على اسم «إِنَّ» لفصل الظرف بينهما؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ

٣٤٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (٤٩٦/٧ - ٤٩٧)، حديث (٨٣٧٦) من طريق جابر.

= وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف لابن عدي في الكامل، وللعلبي في تفسيره،

(١) لأبي الشعراء الضبي. والجبار: الملك العاتي. وضافه يضيفه: نزل عنده ضيفاً، أي إذا نزل بنا الجبار مع جيشه نزول الضيف. وفيه تهكم به حيث جاء محارباً. فشبّهه بمن جاء للمعروف طالباً، وشرح ذلك التشبيه بجعل الرماح والسيوف المرهفات المستونات نزلاً له، وهو الطعام المعد للضيف.

(٢) قوله: «ويجوز أن يكون بمعنى مصدر» في قوة: وأما على المصدر، لأنه يجوز... الخ. (ع) ينظر البيت في حاشية الشهاب ٩٤/٣، والبحر ١٥٤/٣، والدر المصون ٢/٢٩١.

يُنْكَرُ لَمْ يَلْبِثْ ^١ ﴿النساء: ٧٢﴾، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: من القرآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: من الكتابين، ﴿حَدِيثِينَ لِلَّهِ﴾: حال من فاعل «يؤمن» لأن من يؤمن في معنى الجمع «لا يشترطون» بآيات الله ثمنًا قليلًا: كما يفعل من لم يسلم من أبحارهم وكبارهم، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصاص: ٥٤]، ﴿يُؤْتِيَكُمْ كَلِمَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: لنفوذ علمه في كل شيء، فهو عالم بما يستوجه كل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾

اصبروا على الدين وتكاليفه، ﴿وَصَابِرُوا﴾: أعداء الله في الجهاد، أي: غالبهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة: باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً لشدته وصعوبته، ﴿وَرَابِطُوا﴾: وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ رَابطٍ أَخْلِيَتْ ثُيُوتٌ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وعن النبي ﷺ: «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه، لا يفطر، ولا ينفلت عن صلاته إلا لحاجة». (٣٤٥)

وللواحد في أسباب النزول؛ وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: ذكره الثعلبي من قول ابن عباس وقتادة. ولغظه «فخرج إلى البقيع». وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة. أبصر سرير النجاشي» والباقي نحوه، وقد ذكر إسناده إليهما آخر الكتاب. وذكره الواحدي بلا إسناد. ورواه الطبري وابن عدي في ترجمة أبي بكر الهذلي، واسمه: سلمى، وهو ضعيف - عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر دون قوله «ونظر إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وزاد فيه: وكبر أربعاً، والطبراني في الأوسط» من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال: «لما قدم على النبي - ﷺ - وفاة النجاشي قال: اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم نره قط؛ فخرج بنا، وتقدم النبي - ﷺ - ووقفنا خلفه، فصلّى وصلينا. فلما انصرفنا قال المناقبون: انظروا إلى هذا يصلّي على عجل نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُ يَقُولُ﴾ انتهى.

٣٤٥ - أخرجه أحمد (٤٤٠/٥).

- وابن حبان في صحيحه (٤٨٣/١٠) رقم (٤٦٢٣)، كتاب السير باب: فضل الجهاد.

- ومعنى الحديث عند مسلم (١٥٢٠/٣) رقم (١٦٣ - (١٩١٣)).

كتاب الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل.

- والترمذي (١٨٨/٤، ١٨٩)، رقم (١٦٦٥)، كتاب: فضائل الجهاد باب: ما جاء في فضل

الرباط.

- والسنائي (٣٩/٦) رقم (٣١٦٧)، كتاب الجهاد، باب: فضل الرباط.

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». (٣٤٦)

= - والحاكم (٨٠/٢) كتاب الجهاد، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

- والطبراني في الكبير (٢٥٢/٦)، رقم (٦١٣٤).

كلهم من طريق سلمان الفارسي مرفوعاً.

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشف (٢٦٧/١) للثعلبي في تفسيره من طريق أحمد بسنده ومثته، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: أخرجه أحمد وابن أبي شيبة من حديث سلمان أنتم منه ولا بن حبان من حديث سلمان «رباط يوم وليلة في سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه جاع لا يفطر، وقام لا يفتر» وأصله في مسلم، وهم الحاكم فاستدركه. انتهى.

٣٤٦ - أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٣٩/١ - ٢٤٠) من طريق أبي بكر بن أبي داود السجستاني ثنا محمد بن عاصم ثنا شيابة بن سوار ثنا مخلد بن عبد الواحد عن علي بن زيد بن جدهان وعطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب مرفوعاً في فضائل القرآن سورة سورة.

قال ابن الجوزي: وقد فرق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره فذكر عند كل سورة منه ما يخصها وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرق في كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث محال ولكن بعض المحذذين يرى تنقيح حديثه ولو بالباطل وهذا قبيح منهم فإنه قد صرح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «من حدث عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك. ١. هـ.

وقال أيضاً: مخلد بن عبد الواحد، قال ابن حبان منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقات وقد اتفق بزيع ومخلد على رواية هذا الحديث عن علي بن زيد وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء وبعد هذا فنفس الحديث يدل على أنه مصنوع... وقد روى في فضائل السور أيضاً ميسرة بن عبد ربه.

قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لميسرة: من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا، قال: وضعت أروغ الناس فيه. ١. هـ.

قال الذهبي في «الميزان» (٣٨٩/٦ - بتحقيقنا): مخلد بن عبد الواحد روى عنه شيابة بن سوار عن ابن جدهان وعن عطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب عن النبي - ﷺ - بذلك الخبر الطويل الباطل في فضائل السور فما أدري من وضعه إن لم يكن مخلد افتراه... ١. هـ. وقد توبع مخلد بن عبد الواحد على هذا الحديث تابعه من هو مثله أو شر منه.

فأخرج العقيلي في «الضعفاء» (١٥٦/١ - ١٥٧) من طريق محمد بن بكار ثنا بزيع بن حسان أبو الخليل البصري ثنا علي بن زيد بن جدهان وعطاء بن أبي ميمونة كلاهما عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب مرفوعاً.

وأسند العقيلي عن ابن المبارك قال: أظن الزنادقة وضعته.

ومن طريق العقيلي أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٣٩/١).

وقال بزيع: قال الدارقطني: هو متروك.

قلت: وهو آفته.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس». (٣٤٧)

وللحديث طريق آخر.

أخرجه الواحدي في «الوسيط» (١/٤١١ - بتحقيقنا) من طريق سلام بن سليم الطويل عن هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي بن كعب به مرفوعاً.
قلت: وسلام بن سليم الطويل، قال البخاري: تركوه، وقال ابن معين: لا يُكتب حديثه، وقال أحمد: منكر الحديث، وقال التساني: متروك. ينظر الميزان (٢/١٧٥ - ١٧٦).
وهارون بن كثير مجهول. ينظر الميزان (٤/٢٨٦).

قال السيوطي في «اللآلئ» (١/٢٢٧): ومن طرقه الباطلة طريق هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمامة عن أبي بن كعب أخرجه ابن عدي في «الكامل» وقال: رواه عن هارون القاسم بن الحكم العرفي، ويوسف بن عطية الكوفي لا البصري وهارون هذا غير معروف ولم يحدث به عن زيد غيره وهو غير محفوظ عن زيد بن أسلم. هـ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي بن كعب وسباني آخر الكتاب، ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي بن كعب، والواحدي في التفسير الأوسط من حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - انتهى.

٣٤٧ - أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/٤٨) رقم (١١٠٠٢) عن ابن عباس.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/١٧١): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه طلحة بن زيد الرقي وهو ضعيف.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:
أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف. انتهى.